قطار الخديعة

هشام العاملي

The Humanity House & eKutub
London 2026

Deceit Express – Wicked kin on the fields of time

By: Hisham Amili

All Rights Reserved to the Author

Published by:

25a, Chamberlyane Avenue Midx. HA9 8SR, UK

ISBN: 9781780588537

First Edition

London, 2026

** * **

الطبعة الأولى، لندن، 2026

قطار الخديعة: أشرار على بيدر الزمن

الناشر:

© جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

لا تجوز إعادة طباعة أي جزء من هذا الكتاب إلكترونيا أو على ورق. كما لا يجوز الاقتباس من دون الإشارة الى المصدر.

أي محاولة للنسخ أو إعادة النشر تعرض صاحبها الى المسؤولية القانونية.

إذا عثرت على نسخة عبر أي وسيلة اخرى غير موقع الناشر، نرجو إشعارنا بوجود نسخة غير مشروعة، وذلك بالكتابة إلينا:

يمكن الكتابة الى المؤلف على العنوان التالي:

hisham.elamili@gmail.com

قطار الخديعة

أشرار على بيدر الزمن

هشام العاملي

"دار الإنسان" و"إي-كتب"

إهداء

إلى جيل السبعينيات... إلى أصدقاء الطفولة وزملاء العمل ورفاق العمر.. وإلى كل مَن تركتْ روايته أثراً على ذاكرتي وبصمةً في وجداني... إلى أحبتي في الشرق والغرب..

الفهرس

إهداء 4

المقدمة 7

الفصل الأول: طفولة... ومشاكسات.....13

الفصل الثاني: صبي قبل الأوان 36

الفصل الثالث: ربيع المراهقة.....54

الفصل الرابع: على الطريق إلى الحرية 70

الفصل الخامس: على طريق جهنم 99

الفصل السادس: أبواب موصدة.....228

الفصل السابع: على خطى الإسكندر.....277

الفصل الثامن: بداية الوجود – سومري وافتخر؟296

الفصل التاسع - طريق الحرير 345

الفصل العاشر: متاريس المواجهة 377

الفصل الحادي عشر: وجاهة وتألق.....406

الفصل الثاني عشر: ميلاد ملغوم 441

الفصل الثالث عشر: أندلوسيا.....451

الفصل الرابع عشر: معارك مع الوجدان 480

الفصل الخامس عشر: منطق العرب 510

الفصل السادس عشر: ليبيا أم القذافي.....536

الفصل السابع عشر: حمار ومعزاة 566
الفصل الثامن عشر: الهجوم المسرحية 583
الفصل التاسع عشر: أحزان ملونة 608
الفصل العشرون: مرة في العمر 623
الخاتمة 663

المقدمة

قطعتُ في حياتي مئات الحدود والمعابر. كل لها أشكالها وظروفها وأوقاتها. إلا أن الأسئلة الأمنية كانت دائماً الهمّ الأكبر والقاسم المشترك، وإنْ كانتْ تُلقى عليّ بأشكال ومصطلحات ولغات متنوعة. يبحثون عن شيء واحد يمارسون فيه نفوذهم ويُبرّرون منه ريبتهم. أوقفوني عشرات المرّات، فتّشوني، وأهانوني ونطّروني. كنتُ دائماً أجدُ نفسي في حالة الدفاع، أردّ على أسئلة رتيبة عن بلدي وقريتي، عن وجهتي ومهنتي، وعن ديني ودين أهلي! كلهم يريدون شيئاً مني وأشياءً عني: من أين، وإلى أين، وكيف، ومتى، ولماذا!

وسواء كانت ذكرياتي من تجارب الشرق أو الغرب. من المطارات أو سكك الحديد. من السفن أو حواجز البرّ، لم تعجبهم ملامحي، ولم تستهوهم لهجتي ولا جنسيتي. كنتُ دائماً أُقابل بالعِبارة "الذهبية" المؤدبة: "تفضل اِسْترح، سنكون معك قريباً". عِبارة مقتضبة كان ينطقها مآمير الحدود من خلف الزجاج، وكأنهم نهلوها من لوح سومري واحد. ليس مهماً إن كنتَ أسمر أو أبيض، مسيحياً أو يهودياً، مشبوهاً أو مسالماً. المهم أن تطيع تعليماتهم بحذافيرها وتجلس بأدب وهدوء إلى أن يأتي دورك أو الفرج. ورغم أنها كلمات بسيطة، (تفضل اِسْترح)، لكن صداها كان يتردد عالياً عبر الحدود وتحت الرايات. أمضيتُ عمري كله "مستريحاً" بِانتظار حضرة "المسؤول"، بعيون الريبة وتحت عدسات كاميرات الرقابة وأيادي التفتيش. كانت هويتي تتضاءل مع كل مرور، وتنكمش مع كل تأشيرة، إلى أن أصبحتْ العِبارة تلاحقني كالخيال من مطار صنعاء إلى مطار ستوكهولم، ومن أبواب السفارات إلى بوابات الإقلاع.

العالم الغربي اختلف كثيراً منذ أحداث 11/9. ومن كهوف طورا بورا، "استطاع" بن لادن أن يغيّر مطارات العالم إلى غير رجعة! لم يبقَ رجل واحد إلا وجرّدوه من حذائه وحزامه وبحثوا في لباسه ومحفظته! لم تبقَ امرأة إلا تحسسوا جسدها وفتشوا في نهديها وبين ساقيها. فجأة، تحوّلت مطارات العالم، بين ليلة وضحاها، إلى ثكنات إلكترونية مكدّسة بالمسّحات الضوئية والكاميرات الرقمية وغرف المراقبة والإستنطاق. وعلى سكة التغيير مع إنتحار البوعزيزي، لحق العالم العربي بالدول الاشتراكية الأوروبية بعد عشر سنوات من تفجيرات الأبراج. إنطلق "الربيع العربي" بدعم من أوباما وهيلاري، ومعه تغيّرت للأسوأ أجواء الحدود بين الدول العربية. فجأة، كرّت سبحة الثورات وأطاحت بستة أنظمة سقط فيها تباعاً: بن علي، ومبارك، والقذافي، وصالح، والبشير، ثم بشار لاحقاً. ولبرهة، بدا الأمر كما لو أن الناس كلهم كانوا تحت المراقبة من أقصى الغرب إلى أقصى الشرق. صار رجال الحدود في العالم ينطقون لغة إستنطاق واحدة بدون تلقين أو تدريب. وبات المسافرون يخضعون لإجراءات أمنية موحّدة كلما عبروا بوابة، أو مرّوا بشباك، أو حدود. ولئن كنتُ أسابق الزهايمر الآن على بعض الذكريات، فلتسليط الضوء على أوجه التلاقي والتباعد بين ذهنية الشرق وذهنية الغرب، خاصة عند حدود النفوذ والمصلحة. كلاهما يستعملان أساليب وطرقاً مختلفة، لكنهما يعبّران عن ذات المصالح بنفس الخداع والدَجل.

***

موضوعي قديم ومُستَهلَك. لم يبقَ مؤرخ أو فيلسوف أو مستشرق إلا وطرقه بالتعليل والتفصيل. أبو المؤرخين، هيرودتس، كان أول من تعرّض لتوصيف العلاقة بين الشرق والغرب (الفرس واليونانيين) من خلال حكايا رحلاته الشخصية وإحتكاكه المباشر مع الناس. أرسطو

كتب عنها نظرياً (آسيا وأوروبا) من خلال أمور السياسة والشأن العام. المسعودي تناول الموضوع وصفياً من خلال تنّوع المناطق والطبيعة والمناخ. أما ابن خلدون (1332م - 1406م)، فتطرّق إلى عناصر القوة والضعف والتداور في ظهور الحضارات بين المناطق، ليس بسبب الثقافة، إنما بسبب العوامل الاجتماعية. حلّل العلاقات بالعموم من خلال مراحل اِنتقال الإمبراطوريات والسلطة من العرب إلى الفرس إلى المغرب إلى الأتراك. ومع أنه لم يتناول الشرق والغرب بالتحديد، لكنه كان أول ما شرح الفوارق الحضارية بينهما بدون خرافات ومبالغات أو رسم أقدار واِستنتاجات، معتمداً على المبدأ الأزلي للدوران والمداورة. الشاعر الإنجليزي كيبلينغ، تناول الشرق والغرب من باب الثقافة والتفوق العقلي الغربي، ووسّع الهوة بينهما ولخّص المسألة بعبارته الشهيرة: "الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا". ومع أن كلماته هذه منزوعة عن سياق قصيدته وزمانه في القرن التاسع عشر، لكنها ما زالت تعكس واقعاً فوقياً غربياً لم يتغير منذ أيام الإسكندر رغم العولمة والإنترنت. برنارد لويس (1916م - 2018م) رأى أن الشرق والغرب حضارتان متميزتان تاريخياً رغم اِختلاف المؤسسات والدين والخيارات: فبينما يرى أن الشرق يسعى للهيمنة على مبادئ مستمدة من التراث الإسلامي، يعتقد أن الهيمنة الغربية نتيجة طارئه للتنمية الداخلية، وليست هي النية أو الحمض النووي. وهو من هذه الزاوية حاول ترقيع الهوة بين الشرق والغرب وزعم أن التنافر بينهما ليس ذنب الغرب وحده، إنما هو مشترك تعود جذوره إلى المواجهات التاريخية منذ أيام العرب والبيزنطيين. ولعلّ أهم ملاحظاته أن تقهقر الشرق الأوسط مرده خميرة مشرقية فاسدة لا علاقة للغرب بها، وإنْ كان تحويلها إلى خميرة حميدة أمراً ممكناً، برأيه. أما إدوارد سعيد (1935م-2003م)، فوجد أن الشرق والغرب ليسا فئتين محايدتين أو مختلفتين في الأهداف والطموح، إنما سرديات

الغرب عن الشرق حيكت من خلال القوة والمعرفة الغربية. وهكذا، ركّز سعيد على نظرة الغرب التاريخية إلى الشرق، وسعى إلى فضح الدجل وتعرية المواقف الإستشراقية. ورغم هذه التباينات، نجد أن لويس وسعيد، وحتى ابن خلدون، يتفقون على أن الشرق والغرب ظهرا من خلال التفاعل التاريخي المتداور المستمر بينهما بدل التقوقع والعزلة، وأن بناء الإمبراطوريات والسلطة والمعرفة هي التي شكلت حدود فهم كل منهما للآخر. والأهم من ذلك، أن المفكرين الثلاثة (ابن خلدون ولويس وسعيد) رفضوا حتمية الإختلافات الحضارية بين الشرق والغرب، ورفضوا اِعتبارها فروقات بيولوجية أو عائقاً منيعاً. وإذا لم تكن الفروقات الحضارية بين الشرق والغرب بيولوجية أو جينية، فلا بد أنها علمية مسلكية ثقافية، وبالتالي قابلة للنسخ والتدوير والتقليد، ما يُفسر أن الشرق والغرب اليوم يستعيران من بعضهما البعض الدجل والمكر والكذب والخداع. ومع أن مضمون الإختلاف بينهما عميق وعريض وله مسببات كثيرة وظروف مختلفة، إلا أن أحداث العقود الأخيرة، وخاصة بعد 11/9، وحرب العراق، وأوكرانيا، وغزة، ولبنان، وسوريا، واليمن، أكدت أن الإختلاف بين الشرق والغرب شكلي أمام المآرب والأهداف الكبرى المتشابهة، وإلا فكيف اِجتمعا على نحر غزة واليمن وسوريا والعراق ودارفور والسودان والروهينغا على سبيل الأمثلة العابرة؟

وإني إذ اِستعمل مصطلح «الغرب» في معرض الكلام، فإنما أقصد به - حسب الرواية والسياق - مرّة كأوروبا الغربية بدون تحديد الجغرافيا، ومرّة كدول الأنجلوساكسون (بريطانيا، كندا، أميركا، استراليا ونيوزيلندا)، ونوبة كالحضارة الغربية بأبعادها التاريخية والثقافية، وطوراً كالقوى الغربية المنتصرة بعد الحرب العالمية الثانية والحرب الباردة (الناتو). أما بالنسبة للشرق، فأقصد به عموماً الشرق

العربي المسلم الممتد من المغرب حتى عُمان أو أجزاء منه كالشرق الأدنى أو الهلال الخصيب.

من هذه الزاوية سأكتب أشياءً متدرجة زمنياً، اِسترجع من ذكرياتي عنها تشابه النظرة بين العالمين، وسأسردها ليس من باب السيرة الذاتية، إنما لأبيّن من أحداثها وخلفيتها التاريخية تلاقي الشرق الغرب على آفات الدجل والخداع باسم الأمن القومي والمصالح العليا! أمضيتُ العمر كله أتناوب العيش بين طريقتين مختلفتين، واحدة شرقية نرجسية تهتم بالآن والشكل، والأخرى غربية عملية تهتم بالغد والمضمون. كنتُ على طول الطريق، أُواجَه دوماً بِاستنتاج كيبلينغ و"صحة" تقديره. وإذ اِعتبر نفسي عينةً جيدة عن العيش في الشرق والغرب معاً، اِعترف سلفاً أن عجينتي لم تقوَ على التعايش مع التناقض بينهما بدون ألم وعواقب. إلا أن الوجع الأكبر أصابني عندما اِكتشفت أن الشرق والغرب صادقان في الرياء والكذب! وافق شن طبقة. وسواء كان جانب من رواياتي يتعلق بالسياسة أو الدين أو التاريخ، فالمعلومات التي أوردها هنا تستند فقط إلى تجاربي الشخصية، وآرائي الخاصة، أو اِنطباعاتي عنها. آمل أن أُتمكن بالنهاية من حياكة بيت القصيد المنشود، وإنْ غلّفته عمداً بقصص هنا وألغاز هناك ورموز كثيرة بين السطور لغرض الدعابة والتسلية من جهة، وتجنّب الملل والرتابة من الجهة الأخرى. وعلى طريقة "النبيه من الإشارة يفهم"، يُؤمل أن يلمس القارئ من القصص الواردة والعبر المخفية كيف أن ذهنية الشرق وذهنية الغرب توأمة متطابقة لا تختلف بجينتها الشيطانية عن بعضها البعض إلا بلغة التعبير وطريقة التعبير والحدود الجغرافية.

الفصل الأول: طفولة... ومشاكسات

وبدأت الذاكرة...

عملاق، مفتول العضلات، طلع عليّ فجأة من بين الأمواج، وسألني عابساً: "هل أنت عماد"؟ بدا لي كأنه غول من بلاد المغول على الشطّ في لبنان. ببشاشتي المعهودة منذ الصغر، رمقته نظرة الولد الشقي وأجبته بلا تردد، "كلا، لستُ أنا"، وعدتُ إلى الماء ألهو بنفسي. كنتُ أتعارك مع الأمواج كما لو كنتُ في حلقة مصارعة يونانية أمام ملك وجمهور. كانت هبّات النسيم في الجو تترنح على حركاتي بين همسٍ وصفير. كل شيء كان منعشاً وجميلاً، والناس من حولي كانوا يقضون وقتاً ممتعاً تحت شمس حارقة!

في ذلك العام، 1960م، كان عمري 5 سنوات، وقد مرّ عامان تقريباً على اِنتقال لبنان من عصر كميل شمعون إلى عهد فؤاد شهاب عقب "أزمة 1958م". ولولا حكمة الرجلين وتهديد عبد الناصر، لكانت الأزمة قد صارتْ ثورة دموية عارمة. ففي الشكل، كانت أحداثاً طائفية بين المسلمين والمسيحيين، وبالمضمون، كانت صراعاً خفياً بين رموز الشرق والغرب. المنطقة كلها يومئذ كانت تتموضع بين الأضداد، لا سيما أن عبد الناصر شكّل وحدة سياسية مع سوريا، وصار رئيساً لها تحت مسمى "الجمهورية العربية المتحدة". ومن تلك الجمهورية، قاد عبد الناصر العالم العربي اليساري، في حين أن شاه إيران أمسك بـ"حلف بغداد" تحت الرعاية البريطانية (العراق وتركيا وإيران والباكستان)، وقاد العالم العربي اليميني. أما السعودية ودول الخليج، فموقفها كان أميركياً إسلامياً تحت حكم الملك سعود بن عبد العزيز، فيما كانت ليبيا بدائرة التأثير البريطاني وبعيدة نسبياً عن

الصراع المباشر تحت حكم الملك إدريس السنوسي، قبل ظهور القذافي بتسع سنوات. كان لبنان بين دول المنطقة آنذاك اِستثنائياً ملفتاً، وكأن الجميع كان قد اِتفق على تحييده من الصراعات وجعله نافذة مفتوحة للهواء النقيّ وأشعة الشمس.

ريفيرا المتوسط

كنتُ مع أهلي وبعض الأقارب بمشوار الى البحر على شطّ الأوزاعي. وبعكس ما هي عليه اليوم من كثافة سكانية مخيفة وفوضى عارمة وإهمال مزري، كانتْ المنطقة في تلك الأيام على مرمى حجر من "الجناح"، وهو يحتضن أجمل المسابح على شاطئ المتوسط بلا منازع؛ فرماله البيضاء الناعمة الممتدة إلى حدود العاصمة من الجهتين الجنوبية والغربية، وبحره "التيركوازي" النقيّ، وتضاريسه الجميلة، كانت أول ما يشاهده القادمون إلى مطار بيروت المجاور عبر طيران لا يهدأ. وربما بسبب تلك الرمال البيضاء ونعومتها تحديداً اِشتهرت المناطق السكنية على طرفيه باسم "الرملة البيضاء" و"الناعمة".

وبِاستثناء تلك البقعة الساحرة، وكانت تُعرف يومها بـ"الريفيرا" اللبنانية، كانت المنطقة عموماً خالية من العمران الكثيف ومكشوفة على التلال المحيطة بدون اِزدحام أو تلوث. ومثلما كان الشاطئ في تلك الأيام متاحاً للسياح الأجانب وروّاد الطبقة المخملية وأصحاب المصالح الكبرى والإحتكارات، كان متاحاً أيضاً لعامة الناس ويفصلهم عنه بضعة أمتار وعوّامات ملّونة. بل حتى بعض السياح الأوروبيين المغامرين كانوا يقصدون شاطئ "السان باليش" (المجاني) على طول بحر لبنان، ويختلطون فيه مع "السبيّحة" اللبنانيين بأمن وأمان، وحرية وتحرر، كما لو كانوا في بلدانهم تماماً.

شواطئ لبنان في تلك الأيام كانت الأجمل على المتوسط، وتشبه إلى حد كبير شواطئ جزر "سانت توماس" على الكاريبي و"سيشيل" في المحيط الهندي. كانت مفتوحة للعموم تحت أشعة الشمس سبعة أشهر في السنة تقريباً. قد يبدو الكلام مبالغاً بالنسية إلى جيل اليوم في لبنان، لكن شُطآن البلد في تلك الحقبة الذهبية كانت شيئاً رومانسياً، إنْ لصفاء الماء ونظافتها، أو لأخلاق روّادها. ربما بساطة العيش وجماله في حينه كانت متاحة ضمن مناخ ما قبل ظهور رواسب الحرب الأهلية.

أول حبّ

وكعادة الأولاد في أول مرّة على البحر، كنتُ أقفز بين الموج قفزة طرزان العجيب وأضرب على صدري ضربات قرده "شيتا". كنتُ فخوراً بحالي أمام أهلي وأمام المشاة والمسترخين! أرشق الأطفال بالرمل والزَبد، وألاعب الموج بحماس وشغف. شيئاً فشيئاً، كان التيار يجرني عن موقع أهلي ويضعني بالقرب من 'بنوتة' شقراء جميلة تقفز بشغف وفرح أمام أبَويها. بدوا جميعاً مختلفين عني، وكانوا يبتسمون بلا سبب وبلا توقف! ربما كانوا من عوائل قوات الأمم المتحدة، التي كانت يومئذ ترابط على الحدود مع فلسطين المحتلة؛ ففي تلك الأيام كان هناك إستمرار أمني لرصد الهدنة الموقّعة بين لبنان وإسرائيل عام 1949م. كان مراقبو الهدنة يومها يأخذون أقساطاً من الراحة والإستجمام، فيقضونها على شواطئ بيروت ومراتعها. العاصمة في ذلك الزمن الجميل كانت فعلاً بمثابة "سويسرا الشرق"، ولم يكن للضبّاط الأجانب مكان أفضل منها في دول الجوار لقضاء عطلة آمنة وممتعة. رجال الرصد أولئك لم يكونوا مسلحين، ولم يكن لديهم سوى سلطة المراقبة والإبلاغ. كنتُ في تلك الأيام أصغر من أن أفهم أسباب

وجودهم على الحدود، والأهم أسباب هدنة لبنان مع إسرائيل، لا سيما أن البلدين لم يدخلا في حرب مباشرة أصلاً..

البنوتة الشقراء أخذتْ فكري بعيداً، وفازتْ بقلبي سريعاً من أول نظرة! ما هي إلا لحظات حتى صار غزلي بها الفصل الأول في ملحمة رومانسية طويلة. ورغم شيبتي وغبار السنين الآن، ما زلتُ أتذكر اِبتسامتها الشقيّة عندما اِقتربت مني وقرّبتُ نفسي منها. وفي عزّ اللعب ونشوة البصبصة، طلع عليّ رجل ضخم آخر وسألني بعبسة المخدوع: "هل أنت عماد؟"..."لست أنا"، أجبته فوراً بدون تلكؤ وبنفس الثقة والإبتسامة. كل شيء كان جميلاً ورائعاً. لم يكن هناك ما كان يُشغلني عن جمالها والإستمتاع بدلعها. دقائق أخرى مرّت وقفز أمامي فجأة من تحت الماء عملاق آخر على شكل شمشوم الجبّار، أمسكني برقبتي وهزني بقوة وسألني، "هل أنت عماد؟". هنا، تجمّدت في مكاني رغم حرارة تموز، واندهشت من سؤاله كما لو كنتُ أسمع اسماً غريباً من بلاد الواق واق. "لا، أنا لست عماد"، أجبته بخوف واِرتباك، لكن بنفس الإبتسامة البلهاء، ورجعتُ الى ما كان يشغلني عن العالم بأسره. عدتُ إلى "محبوبتي" وأخذتُ أتكلم معها برطانة دولية أمام والدها وبتشجيع من أمّها. لم يتدخلا بيننا، ولم نبتعد عنهما، وكل شيء كان بريئاً جميلاً. مرّة أخرى، تكرر ظهور العمالقة، وأخذوا يدورون حولي دوران القرش على الفقمة، ويعيدون السؤال ذاته مع كل لفة: "هل أنت عماد؟". كان الوقت يمرّ بسرعة، وأعداد الناس من حولنا تتزايد بشكل مذهل لدرجة أن حدّ الشاطئ نفسه اِختفى بين أقدامهم! فجأة، وجدتُ نفسي وقد اِنجرفتُ بين "السبيّحة" والسمك بعيداً عن موقع أهلي وأقاربي.

اِنتابني خوف عظيم. اِبتعدت عن "حبيبتي" بدون إذن أو وداع، وسارعتُ أسابق فزعي بِاتجاه الشاطئ. فجأة، لاحتْ عليّ جمهرة

ملفتة، أشبه بتجمع المقابر والجنازات، فإذا بها حلقة كبيرة تحيط بامرأة تشبه أمّي. امرأة منكوبة تولّول على طريقة "نساء بابل". كانت تبكي بحرقة ولوعة، وكأن وحيدها بَلَعه حوت أو أكله قرش! ومن بين كل الأولاد على الشطّ، لمحتني من طرف عينها، فنادتْ بأعلى صوتها: "يا الله، يا حبيبي، إنه ولدي". صرختْ صرخة طَلق عسير وانطلقت نحوي، وأنا نحوها، بأذرع مفتوحة. ومن شدة حضنها تبخّر الماء عن جسدي وكاد يمنع الهواء عن نَفسي! لم أكن لحظتئذ مدركاً لما كان يدور حولنا، ولم أفهم أسباب البكاء والنحيب. ومع ذلك، صرتُ "نجمة" البحر و"قنديله".

الطبع غلب

في غمرة الحضن، طلّ "غول المغول" عليّ ووجّه إصبعه نحوي وسأل أمي بغضب واستياء: "هل هذا هو عمادك؟". لم ينتظر ردّها، وعرف اسمي من صمتها. ("عماد" هو اسمي لدى العائلة)، فسحبني من حضنها بوحشية، ومسكني من ذراعي بشدة، وصفعني صفعة ما زالت تطنّ في أذني اليسرى إلى اليوم. صفعة انتقام وغيظ أتبَعَها بأخرى، ثم أخرى. كان مَبهوتاً أني أنكرتُ عليه إسمي تكراراً بعد محاولات من التعرّف عليّ. ورغم الجمهرة من حولنا ورجال الجندرما، لم يتقدم أحد لينقذني من غضبه. بل حتى والدي، كان ينظر إلي وكأن الأمر لم يَعنه أصلاً، أو ربما أراد لي منه قصاصاً. بدا الناس من حولي كما لو كانوا يشاهدون مباراة تُنقل على الهواء مباشرة. أغلب الظن أن "غول المغول" كان مُسْعِفاً بحرياً استُدعي من فريق المسبح المجاور للبحث عن جثتي. وأثناء الضرب والهرج والمرج، ظهر من بين الناس، فجأة، رجل طويل القامة، أبيض، أشقر. كان مختلفاً تماماً عن كل الرجال. صرخ على "غول المغول" بلغة عربية

مُكسّرة تشبه لهجة جارنا أرتين الأرميني وقال له: "اِتركه وشأنه". ومَن يا ترى كان غيره؟ كان أبو حبيبتي الصغيرة! كلمتان منه فقط (اِتركه وشأنه) هز بهما كيان الوحش وأدخل السكينة إلى قلبي، وختم بهما طَبعة الدهر على طَبعي. وهكذا، من يومها أصبح الرجل الأشقر بذهني رمز رجل الغرب المُدافع عن الفضيلة والحقّ لأنه خلّصني من مخالب الوحش العربي، وصار شهماً في قاموسي إلى الأبد.

اليوم، وبعد مرور أكثر من 65 سنة على الحادثة، ما زلتُ أجهل لماذا تدخّل الأجنبي وأنقذني، ولماذا ردّ اِعتباري في مدينتي وبين أهلي؟ الأهم، لماذا يا ربّي لم أبح للعماليق باسمي من أول مرّة؟ كنتُ صغيراً، لكن لم أكن مختلاً؟ اليوم، كلما تذكرتُ الحادثة، وجدتني أغوص في أعماقي محاولاً فهم أسباب كذبتي وشقاوتي. توصلتُ بنهاية المطاف إلى اِستنتاج واحد لم أجد غيره: لا بد أنني طُبعتُ على الكذب منذ ولادتي. كنتُ كذّاباً بالسليقة والسجيّة والفطرة معاً. كنتُ أهوى المخاطرة وأحب المشاكسة وأعشق التمرّد والحفر والنكش. أما "بنوتتي" الشقراء، فقد فتحت شهيتي باكراً على أشياء كثيرة، وصرتُ، كلما ضيّعتُ نفسي بين أمواج الدنيا، أبحث عنها وعن أمّها وأبيها في مواقع تواجد الغربيين. فهل سألتقي بهم يوماً ما في بحر آخر؟ نعم! لقد التقيتُ بهم، وكنتُ أراهم في أحلامي. كانوا دوماً يطلّون عليّ بعد كل مأزق، وكأن عقلي الباطني أراد أن يربطهم لي بمفهوم الأمن والأمان..

البوسطة والنبطية والقلعة

بعد مرحلة الطفولة البريئة، استقبلتُ عمر الولدنة (6-12 سنة) من بابه العريض. والدتي كانت ترسلني وأخي الوحيد (محمد) كل صيف

إلى بيت جدي في جنوب لبنان. كانت تتركنا "وديعة" عند صاحب بوسطة الضيعة في كاراج "البوسطات"، بالقرب من مقر جريدة "الحياة" (القديم) في "خندق الغميق". كان "حاج البوسطة"، ينطلق فيها بمن حضر كل يوم عند العاشرة والنصف صباحاً. كان يُوقفها مرّة واحدة للغداء والإستراحة بمنتصف المسافة تقريباً في سوق النبطية. كانت تلك الإستراحة فرصتنا المفرحة لأكل "سيخ" من اللحمة المشوية نلحقها بقطعة من النمّورة. كان سوق النبطية في تلك الأيام ينبض بالحياة، لا سيما أنه مَعلَم عريق يزيد عمره عن ثلاثة قرون، ويعود تحديداً إلى عصر المماليك. ولطالما كان منذ القِدم محطة اِلتقاء وتأهيل خيول القوافل والجِمال والدابة العابرة بين الساحل اللبناني وسوريا وفلسطين. ولو لم تقصفه إسرائيل خلال "حرب مساندة غزة" (2024م)، وتقضي على أغلب ملامحه، لكان مؤهلاً ليكون على لوائح التراث العالمي، ليس فقط لأنه جوهرة جبل عامل، أو بسبب أهمية زوّاره المستشرقين والرحّالة العالميين منذ القِدم، بل لأنه أيضاً شهد على أحداث تاريخية مصيرية خلال العصر العثماني والإنتداب الفرنسي. والنبطية، بتاريخها الطويل، لم تفلتْ من أي مواجهة مع المحتلين والأعداء، ولم تسلم من اِجتياحات إسرائيل. ورغم صغر سوقها مقارنة بأسواق السلطنة العثمانية، إلا أنه كان منظّماً جيداً ومقسّماً حسب أنواع البضائع والسلع: للحوم، والقماش، والفخار، والخشب، والنحاس، والخضار، وغيرها من اِحتياجات تلك الأيام الخوالي..

كان حاج البوسطة، عندما يعلن اِنتهاء الإستراحة في النبطية، يمرّ على الركاب واحداً واحداً ليتأكد بنفسه أن أحداً منهم لم يحملْ جريدة معه، أو لم يخفِ ممنوعاً تحت لباسه أو مقعده. بعدها، كان ينطلق على الطريق الضيق المتعرج الوحيد بين التلال العالية والوديان العميقة.

فجأة، تطلّ علينا قلعة "شقيف" البهيّة من الجهة المقابلة، وهي أشهر من نار على علم. كانت بالأساس بُنيت على موقع أثري فينيقي بأمر من الرومان، لكن بسواعد لبنانية. ولما جاء الصليبيون بعد مئات السنين، رمّوها وأعادوا تأهيلها. وهكذا، استعملها أيضاً الأمير فخر الدين الثاني، ثم الفلسطينيون، ثم المقاومة اللبنانية، ثم الجيش اللبناني، ثم الإسرائيليون، ثم أتباع موسى الصدر، ثم حزب الله. وبذلك، فهي قلعة التحدي لمَن يصَمد بموقعها الكاشف على مجرى الليطاني وسهل مرجعيون، وعلى محيط عريض من البلدات والقرى. أما المؤرخون، فيسمونها قلعة "أرنون" نسبة الى اسم الضيعة التي تقع على تلتها.

جبل المونة – جبل عامل

بعد تجاوز القلعة بساعة تقريباً، تصل البوسطة عصراً الى ساحة الضيعة. هناك تكون جدتي بإنتظارنا على مرمى حجر من غرفة جدي. كانت أمّي "تتآمر" سلفاً مع جدتي على ضبط سلوكي، فترميني في الضيعة على الحدود مع فلسطين لتتخلص من مشاغباتي في فصل الصيف، بينما كانت هي، وبقية العائلة، تصطاف بين أشجار الصنوبر في جبل لبنان. ورغم عدم إرتفاع الضيعة كثيراً عن سطح البحر، (350م)، فإن مناخها معتدل ولطيف، وهي مَعْلم مشهور ومنارة شامخة في "جبل عامل". وإذا كانت تسميتها مجرد تحوير لكلمة آرامية "طيبوبة"، بمعنى الجود والحسن أو وفرة الزرع والإنتاج، فاسم الجبل نفسه مشتق أيضاً من الآرامية، ويعني "جبل شعب الله"، على أساس أن كلمة "عامل" تتكون من "عا"، وتعني الشعب، و"إيل"، وتعني الله. هناك أيضاً تسميات أخرى منها، "جبل الجليل"، أو"جبل الخليل"، أو "بلاد بشارة". لكن هناك من المؤرخين مَن يَصرّ على أن "جبل عامل" سُمّي نسبة إلى قبيلة يمنية تدعى "العاملة"، لجأ

بعض أفرادها إلى لبنان عقب الإنهيار الأول لسدّ مأرب في القرن السادس قبل الميلاد. ومثل هذا الإختلاف على أصل التسمية، هناك اِختلاف أيضاً على حدوده. منهم مَن يضعها بين نهر الأوّلي شمالاً إلى صور جنوباً. ومنهم من يمّدها إلى صفد في فلسطين. بل، ومنهم من يجاورها إلى حدود الأردن وبحيرة طبريا.

في جميع الأحوال كانت ضيعتي حياتي ومرقد طفولتي. أهلها عشيرتي، وملامح وجوههم تُغلّف ذاكرتي وتحفظ ذكرياتي. فيها تربيتُ على عشق الساحة و"سوق الأسبوع" وصوت المطحنة. على جَمعة النساء عند الغروب وسط الديوان. هناك كانت جدتي كل يوم تحضّر الشاي على الطريقة البدوية، "إبريق قوري" (للماء) وفوقه "كتلي" (للشاي) على نار خفيفة. لم يكن هناك من المأكولات والمُونة شيء لم تصنعه جدتي بيديها، أو تعجنه، أو تطحنه، أو تعصره، أو تفركه: كعك، صابون، زبدة، صلصة بندورة، أريشة، خبز باللحم، لبن ماعز، إلبة (قمح مسلوق)، وأشربة الرمّان والتوت ومربيات التين والمشمش واللاقطين، فضلاً عن الكبيس والمخلّلات. كانت هناك منتوجات أخرى يشمّسونها، كالحرّ والعنب والفلفل، ويقدّدونها كلحوم الضأن والعجل، ويحمّصونها كبزر البطيخ واللاقطين، بالإضافة إلى زيت الزيتون والخلّ والدبس! وإنك لتندهش فعلاً كيف كانت نساء الضيعة يجدن الوقت الكافي لكل تلك التحضيرات المُعقدة بدون آلات وكهرباء وحنفيات وإنترنت (؟!). كن يقمن بذلك كله بجانب تربية الأولاد والحيوانات والطيور، وغسل الملابس في النهر القريب، ورفع الجرار من العين على الرؤوس، ولفّ حبال الآبار على البطون، وحمل ثمار الحقول بالسلال على الظهور، ووضع المَعَاوِل على الأكتاف، ونكش الجِلال وتسوية الأسوار ومدّ العرايش، وغيرها الكثير من الأعمال الضرورية. أعمال لم يعد الغربيون يعرفون شيئاً

عنها منذ قيام الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر. والأرجح أنهم اليوم يُفردون مساحات كبيرة لعرض صور عنها في متاحفهم أو مناقشتها في جامعاتهم. وليس من المبالغة بشيء أن بعض منتوجات المُونة اللبنانية يباع في محلات الغرب الكبرى على أنه "تحفة" غذائية عضوية.

رجل، والرجال قليل

أما جدّي لوالدي، شيخ القرية، فكان طاعناً في السن ومُبَجّلاً بشكل يُحسد عليه. كنتُ افتخر به بين رفاقي وأغار عليه من جدتي. كان "عمدة" الضيعة وعمادها، يزوّج شبّانها ويبارك مواليدها ويدفن موتاها. كان عالماً دينياً، يعلّم الشريعة ويُدرّس الفقه واللغة. ورغم اِنشغالاته بشؤون القرية وشَغَفه في تسوية الحاكورة، كان يعيش حياة النُسّاك والمتصوفين، على طريقة كريشنا وبوذا والغزالي، يتجنّب الناس إلى الطبيعة ويتقرّب فيها من الله. وَرث العلم والوَرَع والتقوى عن أجداده، لا سيّما أنه سليل المحدّث الحجّة الحرّ العاملي. وتاريخ جدّه الكبير هذا معروف جيداً عند مرجعيات قمّ والنجف وبعلبك وجبل عامل منذ تألق الحرّ بكتابه المشهور "وسائل الشيعة". وبسبب ثراء المعلومات فيه وزخمها، اِستغرق إعداد الكتاب معه 18 سنة متواصلة، وقد أنهاه عام 1604م. كان جدي ينهل من أرشيف أجداده وتراث العلماء ويكتب أرشيفه لغيره.. ومع أني شخصياً لم أرَ شيئاً مطبوعاً من أعماله، غير أن مخطوطاته اليدوية كانت تملأ زوايا قاعته وتغطي الأرض تحت سريره وتتراكم خلف خزانته البالية. كان جدّي يخطّها بريش الطيور، وأغلب الظنّ من ريش الأوز خلال فصل الربيع. أحياناً أخرى كان يكتب بأقلام من قصب متين، أو عيدان طرية تبعاً لأحجام الكلمات وشدتها. ورغم صغر سني وسذاجتي، كنتُ أُذهل

وإندهش من جمال خطّه، ووضوح تشكيلاته، ودقة تطابق الهوامش والترقيم، وإستقامة جوانب الكتابة كما لو كانت سويت على ماكنة! ولطالما إستهجنتُ فعلاً كيف لشيخ عجوز مثله أن يكون فناناً بارعاً يُجسّد بريشته مهارة خارقة وحسّاً رفيعاً في ضيعة بدائية نائية.

وككل القرى الأمامية، لم تسلم "الطيبة" من عدوان إسرائيل الغاشم وقصفها المُبيد خلال حرب الإسناد لغزة عام 2024م. وآلمني جداً أن بيت جدّي، كمعظم بيوت الضيعة، قُصف ودُمّر عن بكرة أبيه، وصار أثراً بعد عين. وأشكر الله أن جدّي لم يكن على قيد الحياة ليرى الخراب الذي لحق ببيته مؤخراً. فضربة "حرب الإسناد" الأخيرة كانت القاضية له بعد ضربات 1948م، و1967م، و1964م، و1969م، و1971م، و1982م، و1985م، و2000م، و2006م. ومع كل ضربة إسرائيلية، كانت الدولة اللبنانية تحتج كما يحتج العبد لسيده. كانت أوصال الذكريات تتقطع بين الأهل والأحبّة إلى أن تَشتتَ سكان الضيعة وتفرقتْ عائلتنا الكبرى عبر السنين بين زوايا الأرض. تلك الظروف المُدمرّة المتكرّرة حالت دون أن يكون لمخطوطات جدّي أرشيف دائم يحفظها من العِثْ والعطن والإسرائيليين. كان بودي لو أطّلعتُ من مخطوطاته على أفكاره حول القضايا العقائدية المعقدة، لا سيما تلك المتعلقة بـ"ولاية الفقيه" والإمام الغائب على سبيل المثال، ليس لإبداء الإعجاب أو التأييد إطلاقاً، إنما لإستقراء مفاهيم بعض الشيعة عن المسألة.

في تلك الأيام، في منتصف الستينيات من القرن الماضي، لم يكن في القرية كهرباء أو غاز أو مياه جارية، ولا خدمات إعتيادية، كصيدلية أو مركز إطفاء أو إسعاف أو مدرسة! بل لم يكن فيها حتى طبيب بيطري أو ملجأ أو سرداب. الدولة، يومها، كانت تنحصر فقط في بيروت والضواحي وجبل لبنان وبعض السواحل. كان جدّي ككل

الأهالي، يأكل ويشرب (ويُدخّن) مما يغرف ويزرع ويحصد. ورغم مسؤولياته الجمّة، كان مستقلاً من جميع النواحي تقريباً بصحبة "رفاقه" المخلصين. مجموعة حيوانات أليفة ودواجن وحَمام. كان حماره الوفي "زفروت" كرّ البيدر ورفيق دربه إلى العين. إلا أن جدّي كان يُخصصه لإستعمالي الحصري طوال فصل الصيف شرط أن أنقل له الحطب والعيدان من البرية، ولجدتي الجرار والغالونات من العين! كانت الدجاجات وديك المزبلة، والقطط وكلب الساحة، والقرقور، وبقية "العصابة"، تتبعه كالظل في ديوان البيت وفي الحديقة، وتلاعبه في كل مكان وكل الأوقات، إلا عند الصلاة، كما لو كانتْ تدرك جدّية الخشوع "وعدم الإزعاج". أما ضبّاط الهدنة بين لبنان وإسرائيل، فكانوا يَمُرّون على جدّي في المناسبات الوطنية والأعياد الدينية، أو عند الضرورة! الملفت في دائرته الضيقة أن الحمار والحيوانات والأمم المتحدة كانوا يحبونه كثيراً ويكنّون له الودّ والتقدير. كان جدّي معروفاً جيداً من قِبل جنود الهدنة بين إسرائيل ولبنان منذ عام 1949م. كانت الإتفاقية آنذاك حدثاً بارزاً في تاريخ لبنان، وإن لم يكن للبنان نزاع عسكري مع إسرائيل على الحدود بعد النكبة. الملفت في أمر الهدنة أنها بقيتْ سارية المفعول حتى تخلّت إسرائيل عنها بسبب تداعيات حرب النكسة عام 67. بيد أن إسرائيل لم تكن بحاجة إلى ذريعة للانسحاب من الهدنة لأنها ضربتْ كل اِتفاقات الأمم المتحدة عرض الحائط مستقويةً بالحماية الأميركية.

إسرائيل والفدائيين على قلوبنا

قضية فلسطين في تلك الأيام كانت تلامس نقطة الغليان؛ فعلى الوجه الظاهري، كان الشيعة في الجنوب يتحملون عواقب مناوشات الفدائيين مع الجيش الإسرائيلي، من نهر الأوّلي إلى حدود إسرائيل.

كان الفدائيون يهاجمون مستوطنات إسرائيل الشمالية بشراسة وإنتظام إنطلاقاً من حقولنا. كانوا يُشكّلون مجموعات صغيرة تتلطى في بساتين الموز وحقول الزيتون وبين عرايش العنب وجِلال التين. وهكذا، لم يكترثْ طرفا المواجهة إطلاقاً، لا بعيشنا ولا بغنماتنا ولا بزرعنا. الأنكى أن كليهما كان يتوقع منا مساعدته ضد الآخر والإنصياع لتعليماته المُحيّرة. كان الجنوبيون واقعين بين المطرقة والسندان، تحت ضغط مزدوج، وخيارين أحلاهما مرّ. كانوا يخسرون من خراب ممتلكاتهم، ويتوجعون من عواقب الصمت، أو التعاون مع أحد الفريقين، لا سيما أن الجيش اللبناني نفسه كان هزيلاً بحاجة إلى مَن يحميه من مناوشات إسرائيل مع الفدائيين معاً. حربٌ فُرضت زوراً على الجنوبيين، فلا كانوا مؤهلين لخوضها ضد إسرائيل، ولا مُحصنين من عبء الفدائيين عن أراضيهم. كان الطرفان يمثلان حملاً ثقيلاً على أكتافنا في تلك الأيام، وهماً كبيراً على قلوبنا، رغم حُبّ الجنوبيين للقدس وكرههم لإسرائيل. لم يكن هناك مَن يحميهم من مخاطر الإنزلاق إلى الجحيم، لا رجال القرى كانوا موجودين بسبب إغترابهم، ولا الجيش اللبناني كان قادراً على الحرب، ولا الحزب الشيوعي كان مؤثراً خارج نطاق العمليات الإنتحارية الفردية، ولا موسى الصدر كان قد ظهر بعد، ولا حزب الله لاحتْ تباشيره. كان الجنوب ممثلاً تقريباً بالعوائل الإقطاعية، كالأسعد، والخليل، والزين وعسيران، وهي كانت بالأساس التاريخي محظية من الباب العالي، أو من شاه إيران، ولم تكن أصلاً بوارد حماية المزارعين، أو المواجهة مع ياسر عرفات أو إسرائيل، لا سيما أن مصالحها الوجَاهية لم تكن بخطر أو مهددة. الجنوبي البائس كان متروكاً لقدره مهملاً ووحيداً. ولولا إلتزامه بالأرض لما تحمّل ذلّ الخضوع لإسرائيل، ولا إهانة التعدّي عليه من الفلسطينيين، ولا إستبداد الإقطاع له، ولا جفا باقي اللبنانيين عليه..

وكالعادة، لم يكن لدى القرى الأمامية ما تدافع به عن حيادها وأملاكها. شبابها كان معظمهم يعمل بـ"البناء والباطون" (السَخَرة) في ليبيا، وبتركيب المكيفات والبرادات وإعداد الطبيخ في مطاعم دول الخليج وفنادقها. هناك في الغربة البعيدة تحت الشمس الحارقة والرطوبة القوية كانت التطورات العمرانية الجبّارة في الخليج وليبيا تجري بسرعة البرق على أكتاف اللبنانيين وحفّارات النفط وخلّاطات الزفت ومصافي التكرير! وعودة اللبنانيين إلى قراهم في ذلك الزمن لم تكن ميسّرة إلا مرّة كل ثلاث سنوات أو عند اِنتهاء عقودهم! فتذكرة الطيران وحدها كانت عبئاً ثقيلاً في حينه، فضلاً عن تأشيرة العودة ضمن سلسلة طويلة من العقبات والإجراءات المتعبة. بل حتى الإتصال الهاتفي بالأهل من الغربة كان عملية مكلفة ومعقدة. الضيعة كلها كانت رهن هاتف يتيم قي مكتب المختار، أو على طاولة الدكنجي..

***

في تلك الأيام لم تكن هناك أسلاك شائكة أو معالم واضحة للحدود بين لبنان وإسرائيل! كانت الأرض بيننا مفتوحة على مدّ النظر. الأهم أن أهالي القرى الأمامية من الناقورة غرباً حتى الغجر شرقاً كانوا يعرفون حدودهم الفاصلة "على العمياني" بالرائحة والسنتيميتر! بل حتى البهائم والطيور كانت مدّربة، هي الأخرى، على اِحترام "سيادة العدو" وعدم تجاوز الخطوط الزرقاء والحدود الإفتراضية. معظم الذكور في القرى كانوا يومها إما أطفالاً من جيلي، أو كباراً في السن من جيل جدّي! أحياناً كثيرة كنا نتنزّه مع النساء في تلّة الضيعة على ما يُسمى بـ"المشروع" بالقرب من "العَمرة". والمشروع موقع خزانات البلدة والقرى المجاورة، أما العمرة، فقصر آل الأسعد واِسطبلاته. في أيام أخرى، كنا نبتعد وحدنا في الغروب على

"الكرّوسات" (دروب الرعيان) إلى قرى الجوار، إن بإتجاه العديسة وكْفركلا، أو إلى حقول القنطرة ودير ماميس. كنا نتلصص على الصبايا عند العين، على طريقة الرعيان مع بنات النبي شعيب بضاحية "مدين"! ومع أن صبايا الضيعة ونساءها لم يَكنَّ مُحجّبات في تلك الأيام قبل حزب الله، إلا أن النظر إلى أقدامهن في الوحل من تحت بنطلوناتهن المُكشّشة، كان بحدّ ذاته يشفينا ويكفينا. غالباً ما كنا نذهب الى منطقة الحدود مع إسرائيل ونلعب "بحرية كاملة وأمان تام". كنا في تلك الأيام نلقي التحية على الجنود الإسرائيليين المشاة، ونلّوح أحياناً لعساكر الجيب بجانبنا، أو للمُحلّقين بالهليكوبتر فوق رؤوسنا! ألبستهم العسكرية كانت أنيقة نظيفة ومهيبة تخالها من لمعانها أزياء حراس المتاحف والقلاع والقصور. مُعدَّاتهم ونظاراتهم كانت تشع تحت الشمس وتبهر أنظارنا، فيبدون كأنهم مخلوقات سومرية هبطت علينا من الفضاء على هيئة بشر.

يومها، كان الجيش الإسرائيلي يدخل علينا صباحاً، ويركن آلياته في ساحة الضيعة على طرف البركة من جهة بيت جدي. وعبر مكبرّات الصوت، كان يُعلن بلهجة عربية واضحة: "هنا جيش الدفاع الإسرائيلي، اِسمعوا جيداً واِنتبهوا. إن الأشخاص التالية أسماؤهم يُطلب حضورهم الى الساحة أمام الدكان عند عودتنا في الرابعة بعد الظهر". المشهد، على غرابته، كان شيئاً اِعتدتُ عليه خلال عطلاتي الصيفية! وعندما يتغيّب المطلوبون عن الحضور في الوقت المحدد، كان الجيش الإسرائيلي يتوجّه مباشرة إلى منازلهم ويُخرج الحيوانات والزوجات والأطفال و"المونة" منها، ثم يفجّر البيوت على أثاثها وذكريات أصحابها ويغادر! كان ذلك أسلوب العدو المعتاد في إجبار أهالي الضيعة على التعاون معه والخضوع له! ومع تزايد العنف وتوتر الإشتباكات بين الفلسطينيين والإسرائيليين عبر السنين، أخذتْ إسرائيل تنشر المزيد من قواتها لبناء أسوار سلكية كهربائية وأبراج

مراقبة وكاميرات. ولم تكتفِ بالسياجات السلكية والموانع الإسمنتية، بل زرعتْ ألغاماً بجانبها ما جعل لعبنا على الحدود سنة بعد سنة أمراً مخطراً.

الطفل الشاعر

رغم تكالب الإسرائيليين على الضيعة وتكرار عدوانهم، اِستمرت "مداعباتي" مع جدّي على حالها. كنتُ في ديوانه ألعب بأشيائه ومخطوطاته وسُبُحاته. وفي الحقل كنتُ أناوله الفأس لتقليم أغصان التين، والمِعْول لقلب تربة الرمّان، والرفش لسد الأوكار بين جذوع الزيتون! ولما كان يحين وقت الكتابة، كنتُ أرافقه إلى الديوان وأجلس بجانبه كالكتكوت تحت جناح الدجاجة. أحياناً كنتُ أضعف أمام لحيته البيضاء وألعب بها كما لو كانت لحية "بابا نويل" في ليلة الميلاد. مرّات أخرى، كنتُ أتوسّله أن يقصّ عليّ حكايا ذات حِكم وعِبر ومغازي. ورغم صغر سني، لم أكن أستهوِي قصص الأطفال التقليدية العادية! فكان يقصّ عليّ نوادر جحا وطرائف بهلول، ونتفاً من روائع "كليلة ودومنة"، وبعضاً من علاء الدين والفانوس السحري. وفي مناسبات أخرى، كنتُ أتجاوز حدودي معه و"أتحدّاه" في رسم القوافي ونظم القصائد! فكنتُ أطلب منه مُنازلتي ببيت شعر يبدأ بنفس الحرف الذي كنتُ أنتهي به! لكن جدّي المسكين لم يكن يعرف أنني كنتُ مشاكساً "مُحتالاً"، وأن حيلتي كلها كانت بيتاً واحداً من الشعر فقط هو : "ما كل ما يتمنّى المرء يدركه، تجري الرياح بما لا تشتهي السف(ن)"! أي إنني كنتُ أنهي بيت الشعر بحرف (النون)؛ فيسارع جدّي المسكين وينظم بيتاً جديداً يبدأ بحرف النون، فيقول مثلاً: (ن)احت بقربي حمامةٌ أيا جارتا هل تشعرين بحال(ي)". فينتهي بيته بحرف الياء. فأسارع أنا وأقول: "يا كل ما يتمنّى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن". وهكذا دواليك: (دا) كل ما يتمنّى، (عا)

كل ما يتمنّى، (سا) كل ما يتمنّى، (فا) كل ما يتمنّى! كنتُ أكرر عليه نفس بيت الشعر إلى أن يستدرك مزحتي وغلاظتي، فيصرخ بوجهي وينهرني بعصاه وينعتني بـ"ملعون الوالدين" ويطردني من غرفته. ورغم عمره المديد، لم يكن جدّي يعاني من الزهايمر، أو السكري، أو القلب، أو أي مرض مزمن آخر، لكن خُلقه كان ضيقاً على مداعباتي! لا أعرف إن كان وُلِد حساساً بطبيعته أو اِكتسب ضيق الخلق والصدر من العراقيين وغدر الزمان! أمضى معظم حياته الطويلة في النجف حيث تدرّج بين مراتب التحصيل، وتلّقى مختلف العلّوم، وصعد إلى الصدارة كعلّامة بارز، قبل أن يعود إلى مسقط رأسه "الطيبة" بشكل دائم في سن الـ 95!

لا تقل أصلي وفصلي..

مع بدايات أيام جدّي، وخلال ذروة عطائه، كان الشرق الأوسط، بِاستثناء منطقة نجد في شبه الجزيرة العربية، جزءً أصيلاً من الإمبراطورية العثمانية. كانت المواقع تحت حكمهم تتمتع بسلطات قضائية إدارية مستقلة، لكن بلا حدود جغرافية رسمية أو ثابتة، أشبه بالنظام الفيدرالي المعمول به اليوم في الهند ونيجيريا وروسيا، على سبيل المقاربة. كان جميع رعايا الإمبراطورية مواطنين عثمانيين، يتنقلون بحرية بين مساقط رؤوسهم وأماكن أعمالهم. ومع أن تلك كانت ممارسة حضارية "راقية" في ذلك الوقت، غير أن الآثار المترتبة على رعايا السلطنة، لم تتضح عواقبها إلا عند تقسيم التركة العثمانية بين "سايكس" (بريطانيا) و"بيكو" (فرنسا) عقب الحرب العالمية الأولى.

المنتصران البريطاني والفرنسي سارعا إلى تقطيع أوصال المنطقة ورسم حدود جديدة بينهما بموجب إحصاءات وإجراءات مشتركة.

الأمر يوم التقسيم بالنسبة لرعايا السلطنة كان أشبه بلعبة "مَن سبق شمّ الحبق"؛ فمَن غاب عن مسقط رأسه أثناء الإحصاء، ضاعت جذوره وتغيّرت هويته إلى الأبد. ومع أن تصنيفات الرعايا بدتْ شكلية وثانوية في ذلك الوقت، إلا أنها أدّتْ إلى عواقب وخيمة ومعاناة فظيعة للكثيرين في الدول العربية. أولادهم اليوم نشأوا وترعرعوا وهم لا يعرفون (بالمفهوم الراهن) ما إذا كانوا سوريين أصلاً، أو أردنيين، أو حجازيين، أو عراقيين، أو فلسطينيين. ذلك الوضع الشاذ لم يكن حصراً على المنطقة العربية وحدها، بل شمل أيضاً العديد من اليونانيين والأتراك والأرمن والأكراد وسكان البحر الأسود، وغيرهم في مناطق النفوذ العثماني. إذ إن الغرب في تلك الفترة الحرجة كان مستميتاً لتقسيم حصصه من تركة العثمانيين، ولم تكن مصائر الشعوب نفسها ولغاتها وأديانها وتطلعاتها تعنيه من قريب أو بعيد. لذا رُسمت الحدود بين الإنجليز والفرنسيين كيفما اِتفق، بل إنهم غرزوا سكاكين التقسيم وسط قلوب القبيلة الواحدة (دهاءً أو جهلاً)، فذهب بعضها تحت الإنتداب البريطاني، وذهب البعض الآخر إلى الإنتداب الفرنسي. ضاعت أصول الناس في متاهات الهيمنة الأوروبية والحسابات الغربية. وهكذا، قام الغرب من جديد من تحت أنقاض التاريخ بعد 600 عام على حكم "آل عثمان"، وعاد مرّة أخرى إلى الشرق ليقف فخوراً منتشياً على أطلال الصليبيين فيه.

ثعابين وعقارب

عند تقسيم الإرث العثماني بين الإنجليز والفرنسيين عام 1920م، كان جدّي ما يزال في مستهل العقد الثالث من عمره. أحياناً يصعب عليّ أن أتصوّره وقد وُلد بعد الحرب الأهلية الأميركية بفترة قصيرة، أو أثناء حصار بروسيا لباريس خلال ولاية السلطان عبد العزيز. بل

يصعب عليّ أيضاً أن أصدق أن الأديب الإنجليزي تشارلز ديكينز، مثلاً، توفي بعد ولادة جدّي بعام واحد؟ إنه فعلاً عمر طويل شهد خلاله ما لا يحصى من أحداث وتغيرات، ومات عن عمر ناهز 110 سنوات! أهالي "الطيبة" اليوم يتناقلون عنه روايات قديمة وكثيرة، لكن يصعب التأكد من صحتها بسبب إختلاط عواطف الحب والإحترام بمشاعر التمجيد والوفاء. ومع ذلك، هناك قصص حديثة حُفظت له في ذكريات أبناء مَن عاصروه، ومنهم مَن زالوا أحياءً في سنّ الكهولة! ولعلّ أطرف الوقائع عنه وأهمها، وقد حدثت قبل وفاته بسنوات قليلة، أن جنوداً إسرائيليين قصدوه مرّة وطلبوا منه أحرازاً (تعويذات) لتحميهم من الثعابين والعقارب. يومها، في أواخر الستينيات ومطلع السبعينيات، كان من عادات الجنود اليهود التخييم في خراج الضيعة بين أشجار الزيتون، حيث كانوا يبنون الكمائن ويتعقبون الفدائيين لمنعهم من التسلّل الى فلسطين. وتمضي القصة - على ذمة الرواة – لتقول إن جدّي لم يتردد في كتابة الأحراز والطلاسم لهم، أقله من باب أن طلّابها أهل كتاب، صبيان في مقتبل العمر، بشر مثلنا، بعيدون عن أمهاتهم وبيوتهم. بيد أنني اليوم لا أعلم حقيقة إن كان جدّي قد دعا لهم فيها أو دعا عليهم من خلالها؟ كما لا أعرف، بنفس المنطق، إن طلبوا التعويذات حماية من عقص الزواحف، أم من زحف الفدائيين! كان اِحترام جدّي لقيمة الإنسان صافياً من جراثيم الطائفية والمذهبية، ومُعقماً من بكتيريا الإحتقار والتنافس. تعبيره عن مفهوم الإنسانية لم يختلف، مثلاً، عن تعبير بابا روما، بيوس الثاني عشر، أثناء الحرب العالمية الثانية. يومها جاءه مضطهدون يهود من ألمانيا النازية، فآوى عدداً كبيراً منهم في كنيسة الفاتيكان نفسها رغم المخاطر عليه من أتباع هتلر وتبعات الحقد التقليدي على اليهود من المسيحيين. أغلب الظن أن الجنود الإسرائيليين في حقولنا كانوا أقرب إلى الموت بعقص الثعابين والعقارب منهم إلى هجمات الفلسطينيين. كثيرون من جنود

التخييم كانوا من اليهود المتدينين الذين يؤمنون إيماناً راسخاً بتعليمات التلمود والإسرائيليات. ولولا إيمانهم الشديد بتلك التعليمات لما تقصدوا التعويذات والأحراز أساساً، ولما سعوا إليها من شيخ مسلم في غياب حاخام منهم! كانوا يضعون الأحراز على سواعدهم، درئاً لخطر أو رجاءً لشفاء، لا سيّما أن مناطق اِنتشارهم في جنوب لبنان كانت وعرة ونائية، لا مشافي في جوارها ولا بيوت!

مساعدة العدو في الحالات الإنسانية كانت وما تزال قضية أخلاقية حساسة! إنها إشكالية ضمير وثقافة وفطرة. لكن الطبيب يسعف المريض، عدواً كان أو جاسوساً. بابا روما لم يحمِ اليهود فحسب، بل عاملهم بكرامة واِعتبار وأصدر لهم شهادات معمودية، ما أثار اِستياء العديد من رعاياه المسيحيين المتدينين. فهل عصى أبونا الله بالكذب وتزوير الشهادات، أم أنه كان إنسانياً حقاً صاحب شفقة ورحمة؟ المفارقة أنه أنقذ أرواحاً يهودية أكثر مما أنقذه الصهاينة أنفسهم والمنظمات الإنسانية مجتمعة آنذاك. وقد تراوحت التقديرات الوسطية عن أعدادهم بين 800,00 إلى نحو مليون يهودي، وهو عدد ضخم جداً. ما أثار عجبي وإعجابي من قصة جدّي، ليس لماذا وافق على مساعدة الجنود اليهود في المقام الأول، بل كيف هم وثقوا به أصلاً، لا سيما أنهم يعتبرون غير اليهود "نقيصةً" بمفهوم شعب الله المختار تبعاً للتوراة *(Goyim)!* وكما اندهشت من سعي الجنود اليهود إلى الإستفادة من إيمان جدّي وتقواه، اِستغربت أيضاً من اِبتعاد الفدائيين المسلمين عن التبرّك بعلمه و"دروشته"، مع أن العقارب والأفاعي موجودة على نفس الأرض ولا تعرف أحكام الطقوس بين الأديان والمذاهب.

فلسطين رئة المشرق!

في المقلب الآخر، كان جدّي لوالدتي تاجر خضار وفاكهة بالجملة يتنقل بإنتظام بين فلسطين ولبنان قبل النكبة. كان واحداً من بضعة تجّار كبار "يربطون" صفقاتهم سلفاً قبل حصادها، ما يُسمى بمصطلحات اليوم بـ"سلع الآجال". تجارةٌ تتطلب خبرة عميقة في سوق الزرع ومعرفة دقيقة بتربة الإنتاج ومواسم الحصاد لكل ثمرة ونبتة، فضلاً عن إلمام كامل بالظروف السياسية والمناخية! التعامل بالخضار والفاكهة والمواد الغذائية مهنة عريقة وَرثها جدّي عن أبيه وأجداده. كانت في زمن الأتراك تحظى بهالة أكابرية بالنظر الى ظروف القحط والمجاعة أيام "سفر برلك". وخلال زمن والده (جدّي الأكبر)، كانت مدينة يافا مركزاً أساسياً لتصدير الحمضيات، ليس فقط للداخل الفلسطيني، لكن أيضاً لسوريا والأردن والدول العربية. وعلى المستوى الشخصي لا أستبعد أن يكون جدّي "الخضرجي" قد طلب من جدي الشيخ، أن يكتب له حرزاً، هو الآخر، يحميه من قُطّاع الطرق أثناء رحلاته في البساتين بين لبنان وسوريا وفلسطين. مَن يدري، فلربما كان جدّي الشيخ يستعمل حرزاً واحداً "ستاندرد" للأقرباء والأعداء على حد سواء! كانت والدتي تخجل من مهنة أبيها وأجدادها أمام الغرباء، وتفضّل وصفهم بتجّار الورود بدل الخضار. لكن كانت، وللحق، تحب في المواسم قطف براعم الليمون وأزهار الياسمين وأزرار الفلّ والسوسن. ومع أنها عاشتْ منذ صغرها في "الطيبة" في بيت أبيها، إلا أن مسقط رأس أمّها، "كفردونين"، كان عزيزاً جداً على قلبها بسبب موت أمّها وهي طفلة دون الخامسة. وأشكر الله أن أمّي ماتت، هي أيضاً، قبل أن ترى الدمار الهائل الذي حلّ بضيعة أبيها وبلدة أمّها بغارات الإسرائيليين عامي 2024م و2025م تباعاً..

فلسطين قبل النكبة كانت لؤلؤة الشرق. وتاريخها قبل الإنتداب كان نابضاً بمعالم التمدّن والحضارة. لم يظهر في التاريخ القديم شعب لم يكن له بفلسطين هدف أو مصلحة، لِمَا كانت تمثّله من جسر عبور متين بين الحضارات. ولغاية الأمس القريب في القرن العشرين، لم يختلف الأمر كثيراً، إذ كانت فلسطين هي المنصة الأساس للإِنطلاق إلى المنطقة برمتها. كان ذلك قبل تألق لبنان وبناء دوره الذهبي بعقود طويلة. يومها لم يكن يهود فلسطين يمثلون أكثر من نسبة مفردة من مجموع السكان، فيما كان مسيحيوها يمثلون نسبة مزدوجة مُعتبرة، خاصة في القدس والمدن الكبرى. ورغم الملامح الإسلامية لفلسطين أيام الدولة العثمانية، إلا أن مسيحييها كانوا يسيطرون على إِقتصادها وعلى الكثير من شؤونها. ومع بداية القرن الماضي، تكالبتْ المحاولات الصهيونية لإقامة وطن لليهود في فلسطين، قاد لواءها هيرتزل، مؤسس العقيدة الصهيونية، رغم إِعتراض السلطان العثماني عبد الحميد الثاني (1901م). وفي النهاية جاء "الوعد"، وتكاتف الغرب مع بلفور "للتخلص" من المسألة اليهودية ليؤسس "أرض الميعاد". كان "وعد بلفور" أقوى من معارضة جميع الفلسطينيين والعرب.

كرّت الأيام وتدحرجت المآسي. وفي منتصف الستينيات، كان جدّي لأمي ما يزال يعمل بتجارة الخضار، لكن من لبنان حصراً، حيث كانت له فيه أملاك وبسطات معروفة إلى أن دمّرتها معارك الحرب الأهلية، وتخمينات "سوليدار"، وغارات إسرائيل. يبدو أن دعوات جدّي الشيخ و"أحرازه" لم تنفع في حماية ممتلكات جدّي الخضرجي سواء في "الطيبة" نفسها، أو في "كفردونين"، أو وسط بيروت. وحتى بعد إِنتهاء الحرب الأهلية، لم يستطع ورثة جدّي إِسترجاع أملاكه من براثن "سوليدار" التي وضعتْ اليد على وسط بيروت كله، بما فيه من

تحف تاريخية وآثار، بذريعة تطوير العاصمة تحت حماية الدولة نفسها. وهكذا، دمرت إسرائيل أملاك جدّي في الجنوب وإغتصب لبنان ممتلكاته في بيروت، وكأن البلدين وجهان لعدوان واحد. ضاع إرثه، وفَلتَ الخيط من ذريته، وتهجّرتْ سلالته في أصقاع الأرض.

الفصل الثاني: صبي قبل الأوان

إرهابي أم فدائي؟

مع مطلع العام 1973م، ومع بداية نصب الأسلاك الحديدية والعوازل الخرسانية الفاصلة على الحدود مع إسرائيل، ضاقت أشياء الضيعة على أحلامي خلال الصيف، وبدأتُ أتحسسُ أجواء العالم خارج لبنان. ومع كل برج مراقبة كانت إسرائيل ترفعه، كنتُ أنظر إلى السماء وأصبو إلى عالم أسلم وفضاء أوسع. كنتُ أسرح بخيالي إلى رحاب الغرب وأضوائه، وأهرب فيه من أنفاق الشرق وظلماته. لم يمضِ وقت طويل علينا حتى أغلقت الحدود بيننا تماماً. صارت أشبه بجدران الفصل العنصري في جنوب أفريقيا أيام ويليام دي كليرك، فمنعتْ عنا حتى رؤية الجنود الإسرائيليين أنفسهم. ومع أن الأسوار شُيّدت أساساً على أراضينا لمنع تسلل الفدائيين، إلا أن العمليات الإسرائيلية نفسها توسّعت فيما بعد إلى عمق الداخل اللبناني لتصدّ الفدائيين الجدد مع بروز "حزب الله". ففي تلك الفترة تحديداً (73-74م) كانت كافة العناصر اليسارية المنطلقة من الأراضي اللبنانية تشترك بهدف واحد لمحاربة إسرائيل وتحرير فلسطين. كان الرأي العام العالمي يومها منقسماً، يُصنّف المقاوم "إرهابياً مجرماً" أو "فدائياً بطلاً". والخلط بينهما، يعيد الى الذاكرة سيرة "بوبي ساند" في مطلع الثمانينيات، أشهر مناضلي الجيش الجمهوري الأيرلندي. يومها اِعتبرته مارغريت ثاتشر الإرهابي رقم واحد في بريطانيا، فيما اِعتبره أحرار العالم والأيرلنديون الجنوبيون بطلاً أسطورياً، لا سيّما بعد أن توفي مُضرباً عن الطعام لقناعته بضرورة التحرّر من الهيمنة البريطانية. كذلك هو الإختلاف في مصطلح "البطولة" و"الإرهاب" بين كل المختلفين على حقوق الأوطان في كل مكان. كلنا في الواقع إرهابيون

وفدائيون بنفس الوقت، لأننا ننظر إلى قضايانا بعين واحدة. إذ نعتبر الكردي، مثلاً، إرهابياً لأنه متصالح مع الإسرائيلي، ولا نراه مظلوماً لأننا اِغتصبنا أرضه وأكلنا حقوقه! إنها مسألة معقدة إلا لمن تصالح مع نفسه وصدَقَ مع ضميره على معيار واحد في كل المواقع وتحت كل الظروف..

أضغاث أحلام

ومع اِكتمال جدران الفصل العنصري على حدود القرى الأمامية، كان جدّي الشيخ قد راح واِستراح من تأدية طقوسه وخدماته في الضيعة، إلا أنه للأسف لم يُدفن فيها. فالوجود الإسرائيلي، وإن من خلف السور، كان مهيمناً على شؤون القرى من حيث دخول الزوّار ومراقبة الغرباء حتى في مراسم الدفن والعزاء. كانوا يمنعون تجمهر المعزّيين خشية اِندساس الفدائيين بينهم. ولولا تلك الممارسات العدوانية الصارمة، لكانت رفاة جدّي قد نُقلت من مكان وفاته في بغداد إلى ضيعته، ولكانَ تكرم في "جبّانتها" إلى جانب عائلته وعشيرته. وبعد وفاته مباشرة، كان جدار الفصل مع إسرائيل قد اِكتمل، ولم يعد جنودها بحاجة للتخييم في حقولنا طوال الوقت، وبالتالي، لم يعودوا مُعرضين للسعات العقارب ولدغات الثعابين، أو مواجهة الفدائيين! ومع ذلك، لم يجرؤوا على الترجل خارج آلياتهم المدرّعة ودباباتهم المحمية حتى لمدّ الأيادي أو التبول. المفارقة الحزينة أنه عندما تم "تحرير" حقول الزيتون وجِلال التين من الفلسطينيين والإسرائيليين على أيدي "حزب الله" في العام 2000م، شيّد الأهالي عليها أبنية عمرانية من الإسمنت والألمنيوم والزجاج. فضاعتْ هوية الضيعة إلى غير رجعة، وظهرتْ حول ساحتها صيدلية وعيادة وسريتا إسعاف وإطفاء، فضلاً عن ملجأ وسوبر ماركت.

بعد 62 عاماً من أحلام اليقظة حول طفولتي، وبعد جحيم "حرب الإسناد" في العام 2024م، ما زلتُ متفائلاً أن كل شيء سيعود يوماً كما كان قبل النكبة. ولئن كنتُ أتمنى معاودة ركوب البوسطة من بيروت الى الطيبة عبر النبطية وقلعة "شقيف"، إلا أني لا أراهن أن يكون ذلك على وقتي، لا سيّما أني " قَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا". لطالما حلمت بـ"قطار الشرق" - كما كان أيام الإستعمار - يحملني رأساً من لندن إلى الإسكندرية عبر إسطنبول، وطرابلس، وبيروت، وصور، وحيفا. ورغم "اِستحالة" الفكرة تحت ظروف المنطقة الراهنة، فإني أحلم بمشوار يقطع بي المسافات على سكك مفتوحة لا تخضع لنقاط تفتيش أو حدود أو جدران إسمنتية أو عقارب ودبابير. ولو أردتُ أن أكون طامحاً بعض الشيء لحلمتُ بنفس القطار يكمل طريقه من الإسكندرية إلى طرابلس الغرب وتونس والجزائر وطنجة. فلِمَ لا وقد شقّ العالم قناة السويس وبنما والمانش. ولِمَ لا وقد شيّد السدّ العالي وسدّ أتاتورك وسدّ النهضة، وهو الآن يعمل على شق قناة رديفة للسويس في إسرائيل، ونفق كبير بين طنجة وجبل طارق ويؤسس لطريق جديدة للحرير، وغيرها العشرات من الإنجازات الحضارية. فهل يستحيل على العالم اليوم مدّ سكك حديدة من لندن إلى عدن، مثلاً، ومن إستكهولم إلى مراكش، ومن إسطنبول إلى مسقط؟ هل هذه أضغاث أحلام، أم أن الغربيين (إن أرادوا) قادرون على تنفيذها لولا أن تضارب الأولويات بين الشرق والغرب يعيق بوصلة الإنجاز ويؤخره.

فتش عن المرأة...

و"الطيبة"، بسبب لصقها بالحدود مع فلسطين، كانت دائماً تقدح في مخيلتي التاريخ العريق لبلاد كنعان. تاريخ يعود بملامحه العريضة إلى تيه موسى في صحراء سيناء، وعبور رجاله إلى أريحا، وإلى روايات داود وسليمان. وإذا كان من الصعب علينا تخيّل عمق التاريخ البشري وإمتداده، فالأصعب فعلاً أن نصدّق أن الصراع بين الإسرائيليين والعرب يعود فقط إلى تلاسن حصل قبل 4000 سنة بين إمرأتين ضرّتين! أسفار الكتاب المقدس لم تبخل علينا بتفاصيل مثيرة وشيّقة عن مدى الغيرة والنكد بين زوجتي إبراهيم! فحسب الرواية التوراتية، لم تكتفِ سارة بمعجزة حَبلها بإسحاق (حسب وعد الربّ لها)، إنما أرادت أيضاً التخلّص من ضرّتها هاجر وولدها إسماعيل. التنافس على قلب إبراهيم بين سارة وهاجر بدأ قبل خِلفة إسماعيل، وكان مؤذياً جداً وشرساً. المسألة لم تكن مجرد نكد وغيرة بين عجوز وصبية، ولا منافسة حريمية على قلب إبراهيم وحسب، كانت أيضاً عراكاً إستباقياً على مكانة أحفاد ولديهما إسماعيل وإسحاق. أو هكذا، على الأقل، بدتْ لي الصورة فجّةً في مخيلتي بعيداً عن أي تفسير يهودي أو تأويل إسلامي. ولولا شغفي بالكتاب المقدس وقراءتي له بين السطور، لكنتُ إكتفيتُ بالتفسير التقليدي وإعتبرتُ الصراع بين العرب والإسرائيليين لاهوتياً مَحضاً، وليس بسبب "خلافات عائلية" في بيوت الأنبياء! والتّوراة لِمَن يُفنّدها جيداً، يجد فيها من العجب والتناقض والتكرار ما يُدهش ويُذهل. قصص وروايات شيّقة عن أحداث وأشخاص وأمم وجغرافيا. ولربما بسبب وقوع ضيعتي بجانب اليهود، أو بسبب الصراع العربي الإسرائيلي، كنتُ دوماً أحتفظ بـ"العهد القديم" بجوار سريري منذ أيام النكسة عام 67. لم أطالعه لأسباب إيمانية، بل كنتُ أقرأه بشغف كما يقرأ الولد قصص "علي بابا" أو "السندباد البحري". كنتُ أتحرّى منه نشأة البشرية وتواريخ الأمم، وهو ما كان يثير اهتمامي وفضولي إلى أبعد الحدود. بيد أني

لغاية اليوم، لا أعرف كيف وجد الكتاب المقدس طريقه إلى بيتنا في المقام الأول! فوالدي، وبعكس والده الشيخ، لم يكن رجلاً متديناً تقليدياً. ومكتبته يومها كانت مليئة بالكتب العلمية والمنشورات التقنية التي تحتوي على معادلات جبرية معقدة ورسومات توضيحية "مبهمة" وجداول محيرة. لا بل إنه لم يكن راضياً أصلاً عن تلقينا حصة الدين في المدرسة، وإن لساعة واحدة في الأسبوع. إلا أن المعتقدات الإسلامية التي كانت تُدرس لنا آنذاك، كانت تأخذني إلى مواقع اِختلافات وتناقضات جوهرية مع التّوراة. فلا عجب أنني كنتُ أخاف من "يهوه" وأغضب من إبراهيم كلما تذكرت قصة الذبيح في "سفر التكوين". إبراهيم كاد يذبح ولده إسحاق فقط ليثبت ولاءه "ليهوه"؟ ولولا "كبش الفداء" لإنقاذ الموقف في اللحظة الأخيرة، لكان إسحاق - وليس الكبش - هو مضرب المثل! وتبقى الملاحظة قائمة أن خلاف سارة مع هاجر كان سابقاً لظهور ولديهما إسماعيل وإسحاق. ومع ذلك، تأخذ هوية "الذبيح الحقيقي" أهمية قصوى وبعداً اِستراتيجياً يوسّع الشقاق بين اليهود والمسلمين ويستجذب الإهتمام.

إسماعيل أم إسحاق؟

عندما كنتُ صبياً، كنتُ متعاطفاً مع إسماعيل ومع أمّه هاجر ومع الخروف معاً. كنتُ حشرياً بكل شيء قبل الأوان: بالدين والفلسفة والسياسة والفن. لكن حيرتي الأولى من موقف "يهوه" الصارم أعيتني الى درجة أني قررتُ الإستعانة بإمام الحارة. فتوجهتُ إليه يوماً وسألته لماذا يُعرّض الله نبيه إبراهيم لمثل ذلك الإختبار النفسي العنيف؟ إلا أن الإمام، وعلى طريقة معظم أئمتنا، فبدل أن يهوّن الأمر عليّ ويخفف من حيرتي، وَبّخني على سؤالي وأدخلني في متاهة جديدة. أصرّ من البداية أن إسماعيل - وليس إسحاق - هو الطفل الذبيح

المقصود من رواية "كبش الفداء". غضب مني وحمق عليّ فقط لأني قرأت في التّوراة أن إسحاق، وليس إسماعيل، هو المعني من التضحية. لم يكتفِ فضيلته بعبسة الوجه وعقد الحاجبين، بل لجأ الى "سلطته المقدسة" وطلب مني التوقف فوراً عن قراءة التّوراة لأنها - برأيه - مُحرّفة بمزاعم واِفتراءات. وأمرني، عوضاً عنها، بضرورة حفظ القرآن فقط، بإعتباره كلاماً منزّلاً من الله مباشرة. التجربة مع إمام الحارة زادت من حيرتي ودفعتني إلى تجنّب الأئمة ورجال الدين منذ ذلك اليوم رغم حبّي الشديد لجدّي الشيخ وإعجابي بتواضعه وعلمه. ومَن يدريي، فلو كان جدّي يومها على قيد الحياة، لكانَ أقنعي بأن العِبرة من قصة "كبش الفداء" أهم من مواقف المسلمين واليهود تجاه إسماعيل وإسحاق معاً، تماماً كما سبق وأقنعني مرّة أن العفة أهم من الحجاب!

وحتى على مستوى صبي عمره 12 سنة، ورغم سذاجتي، صُدمتُ فعلاً بموقف إمام الحي وغلاظته. فرغم غيرته على القرآن، لم يشرح لي أسباب اللغط القائم حول هوية الذبيح نفسه! تهرّب مني وتخفّى عني بذريعة الإستياء والغضب. خيبتي من تزمّته وتحيّزه لإسماعيل فاقت خيبة طه حسين من الأزهر بمراحل. كان الأديب المصري كلما سأل عن أمر في الإسلام، غضبوا عليه وقالوا له: "لا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ". كانوا يحاربونه، وربما بعضهم كفرّه، فقط لأنه كان يستطيب المنطق ويهوى البحث به عن حقائق الأمور بعيداً عن تكرير المُعاد وتدوير المُفسر. لم يأبه برجال الدين ولم يتوانَ لحظة عن أبحاثه. كان صدّ الإمام لي حافزاً قوياً دفعني للغطس في عصور الجاهلية وقصص الأوّلين، وفي كل شيء قديم ومقدس. ومن يومها، قررتُ الإتكال على نفسي والبحث سراً عن هوية الذبيح لوحدي. بيد أن المسألة لم تكن سهلة بالمرّة، وقد اِستغرق التفكير بها معي سنوات

طويلة على تدرّج فهمي و"ريختر" قناعتي. ذلك أن جانبي الرواية (اليهودي والمسلم) لديهما من الأدلة المختلفة والمنطقية ما يروق لأنصارهما ويقنعهما. ولكني - مثل طه حسين - لم أكن نصيراً لغير المنطق، ولم تعجبني الأقاويل التي كان فهمها مقتصراً على نصوص عند البخاري، وتفاسير عند مسلم، أو على سنن لدى الترمذي!

وإذا اِستعرضنا حجج المسلمين واليهود، نرى أن إسحاق كان أول نسل موعود من الله لإبراهيم من زوجته الأولى سارة. وفي المقابل، كان إسماعيل هو الابن الأول (البكر) لإبراهيم من زوجته الثانية هاجر. من هنا، يُعتبر كلا الولدين، "الأول"، من الناحية التقنية، إن كبكر لإبراهيم (إسماعيل)، أو كبكر لسارة (إسحاق). وعليه، فكلاهما يحققان البُعد البكوري الأخلاقي والعنصر الفلسفي لـغرض "التضحية". لكن مَن منهما كان المُراد له حقاً أن يكون الضحية؟ اليهود يعتبرون إسحاق هو المعني الحقيقي لأنه من أبوين أوليين، على أساس أن هاجر هي الزوجة الثانية، ناهيكم أنها كانت جارية (!). ولكن حتى بالنسبة لصبي صغير مثلي، الأمر لم يكن يحتاج الى قواميس وتشريع وتفسير، ولم يكن على ذلك القدر من الصعوبة والإلتباس، أقله بالنظر إلى أن التّوراة ظهرت قبل القرآن كمصدر أوّلي للقصة. ولأن القرآن نفسه لم يُحدد هوية المعني منهما في سياق الرواية، فقد فضّلتُ شخصياً الإيمان بقصة إسحاق كما وردت في التّوراة وإخفائها في صدري عن أقاربي وجيراني وبيئتي. والسبب في ذلك أن نزع التضحية بإسماعيل كان له حرج كبير عليّ وعواقب أخلاقية وخيمة. إلا أن أفكاري الدينية تغيّرت من أساسها يوم أيقنتُ أشياءً كانت تُغيّب عنا عمداً وخبثاً. فلم أعد اِكترث لهوية المقصود من التضحية، خاصة أن ضحايا الحروب باسم الدين جعلت البشرية كلها "كبش فداء" للمتسلطين والمحظيين! أليست غزة نفسها "كبش فداء"؟ أليست

آراكان ودارفور والبوسنة وأرمينيا، أكباش فداء؟ بل أليست شعوب العالم كلها كبوش فداء لقلة ملعونة لا دين لها ولا عرق يخصها ولا مكان يحصرها؟ أما حِمْية العرب والمسلمين وغيرتهم على إسماعيل، فليس لها بورصة عندي تُصرف فيها أو قيمة تُقايض عليها! المحزن فعلاً أن الغرب، بسبب الدعاية اليهودية أولاً، والصهيونية لاحقاً، صار يحتقر العرب لأنهم من ذرية إسماعيل إبن الجارية، ويبجّل اليهود لأنهم من ذرية إسحاق، ابن سارة، رغم أن الولدين من صلب إبراهيم نفسه (حسب التوراة). فهل أن الغرب غبي إلى هذا الحدّ في التمييز والتفرقة، أم أن هذا التمييز يبرّر مآرب الغرب الإستعمارية؟ الملفتُ في هذه المسألة أنها ليست نابعة من تمييز عنصري، ولا قبلي، ولا ديني ولا طبقي. إنه تنافس عائلي بين سارة وهاجر على حصة الولدين من ورثة أبيهما..

الجدل في مكان آخر

ومنذ أيام اللغط حول مسألة الذبيحة، أخذتُ أتحقق من كل شيء بنفسي تلقائياً. صار التشكيك والإستقصاء عندي طبيعة ثانية منذ صغري. أصبحا عادةً تلقائية أمارسها بكل شيء؛ بأقوال أمّي ونصائح أبي، بالقوانين والوصفات الطبية، وحتى بمصداقية الصور الفوتوغرافية. وصرتُ من يومها شكاكاً بكل شيء، ليس فقط في البحث عن أي اِلتباسات تاريخية أو قديمة، بل أيضاً بأسبابها الثقافية وعلّاتها السياسية ومآربها. ومع مرور الوقت أصبحتُ ميّالاً للتمحيص بقصص الأوّلين بين الكتاب المقدس وبين القرآن. وبالفعل وجدتُ اِختلافات كثيرة اِستحوذتْ على قدر كبير من أفكاري وخيالي. ولعلّ أكثر ما كان يحيرني في الصغر الخلط بين المصطلحات الدينية عند المسلمين واليهود معاً. يخلطون بين الجغرافيا والدين والعرق. فمع أن العديد

من الفلسطينيين مسيحيون، والعديد من الدول الإسلامية غير عربي، وليس له قواسم ثقافية مشتركة مع العرب، إلا أن الكثيرين من الغربيين يشيرون إلى المسلمين والفلسطينيين عموماً على أنهم عرب. الإلتباس نفسه يتكرر عندما يُذكر مصطلح "اليهود" في معرض الحديث عن الصراع في المنطقة. إذ يستحضر كثيرون على الفور كلمة "عرب" مرادفة طبيعية لكلمة "اليهود"، كما لو أن المصطلحين – العرب واليهود - وجهان لعملة واحدة، رغم أن اليهودية دين، والعرب قوم. وكما أن اليهود ليسوا كلهم من عرق واحد، كذلك العرب ليسوا كلهم من دين واحد. ورغم أن العرب والإسرائيليين يتشاركون نفس الأب مجازاً، أي النبي إبراهيم، حسب التّوراة والقرآن معاً، فهو، للمفارقة، ليس نبياً عربياً ولا كنعانياً ولا حتى إسرائيلياً، هذا على اِفتراض أن مدينة "*UR*" السومرية (في العراق)، هي فعلاً مسقط رأسه حسب نصوص التّوراة و"الإجماع"... إنها أصول لا أصول لها ولا أدلة عليها.

من هنا، فإني لست متأكداً مَن المستفيد الأكبر من هذا الغموض المتعمَّد بين الإسرائيليين والعرب، لا سيّما أن عناصر التاريخ والثقافة والجغرافيا حددت التعريفات الإثنية والدينية بوضوح وصراحة. وإذا أخذنا برواية التّوراة، فإن الإشكالات الجوهرية بين المسلمين واليهود، تعود أساساً إلى الغيرة الشديدة بين أمّ إسماعيل وأمّ إسحاق، أي بين هاجر وسارة - كما بينتُ آنفاً. العلاقة المريرة بينهما أثارت من الخلافات أطناناً تسرّبت الى ذريتهما وعجزت القرون الطويلة عن حلّها. وكما أن هناك يهوداً لا يعترفون بنبوة محمد ولا برجوعه إلى سلالة إسماعيل، ولا يميزون بين عربي ومسلم، هناك أيضاً عرب ومسلمون لا يعترفون بصدقية التّوراة بالنظر إلى أنها كُتبتْ على أيدي كثيرين، ونُسختْ وتُرجمت مئات المرات عبر ما يزيد عن 2500 سنة (منذ السبي البابلي). هناك عرب كثيرون أيضاً لا يميزون بين اليهود

والإسرائيليين والعبرانيين والصهاينة. لا بل إن البعض منهم يعتقد يقيناً أن "الماسونيين" هم أيضاً يهود وصهاينة. كل ذلك بسبب الروايات التي تربط "الماسونيين" بمهنة المعماري الأول، الملك داود، وبناء هيكل سليمان، وهندسة برج بابل حيث سُبي اليهود. وهكذا، يَعتبر معظم العرب والمسلمين جميع اليهود والعبرانيين والصهاينة والماسونيين والإسرائيليين أعضاءً في نفس المجموعة التآمرية العالمية، "المؤسسة".

وبالمثل، يعتقد العديد من اليهود أن جميع "العرب" و"المسلمين" والناس في الشرق الأوسط مختلفون عنهم وأدنى إنسانية منهم، أي دون الطبيعة الآدمية مثلهم *(Goyim)*. ومع أن جهل العامة من الطرفين أمر مفهوم، إلا أنه لأمر محيّر فعلاً كيف يرضى مثقفو الجانبين التنافر والكره لأتباعهم إلى هذا الحدّ المقيت؟ يستطيعون، إنْ أرادوا، توضيح الحقائق وتسوية الإختلافات، لكنهم يرفضون؟ من هنا، ومن هذا المنظار الأممي، لم يعد مُهماً مَن هو الذبيح، إسحاق أو إسماعيل. لم يعد الأمر يتعلق بما يقوله الطرفان، لأنهما يُشوهان الوقائع، ليس لوجه الله في السماء، لكن من أجل النفوذ والثروة على الأرض. إنهم جميعاً يوظفون كل شيء لتعزيز دعاياتهم المُغرضة، بما في ذلك تزوير التاريخ، وتغيير الجغرافيا، وإساءة تفسير النصوص. وفي هذا السياق هل لنا أن نعجب الآن كيف أن إعلامياً أردنياً شاباً (الدكتور إبراهيم بدر) ظهر مؤخراً فجأة على مواقع التواصل بنظرية ثورية، لا تنفي أبوة إبراهيم لإسماعيل فحسب، بل تجعله أخاً لإسماعيل؟ النظرية تعتمد في مقاربتها وقرائنها فقط على تحليل آيات من القرآن وربط نَفَس المنطق بينها، لا تراث ولا حديث. ورغم تكرار إستنتاجه بعدم أبوة إبراهيم لإسماعيل وتحدّيه لشيوخ الأزهر أن يحاجوه فيها، إلا أن أحداً لم يُباره حتى تاريخه رغم التداعيات الجسيمة لهذا "الإكتشاف" المُبَاغِت. ومَن يدري، فلربما

يطفو لنا بعد حين "الغرض الحقيقي" من فكرة فصل إبراهيم عن ولده إسماعيل بعد 4000 سنة؟ وإذ أُسلط الضوء على هذا التطوّر الثقافي الديني، فمن باب "إن وراء الأكمة ما وراءها". ولئن كان التباين بين "الأخوين" (إسماعيل وإسحاق) من قبل مدعاةً للتمييز بين سُلالة الجارية وسُلالة السيدة، فإن الإدعاء الحديث أن إسماعيل ليس ولد إبراهيم أصلاً، إنما يُراد منه التأسيس لفصل الإرتباط الكلي بين العرب والإسرائيليين. ورغم هذه المغالطات، فإن المفارقة الفاقعة أن ديانة اليهود نفسها لم تبدأ مع إبراهيم، ولا حتى مع إسحاق - حسب التعليم اليهودي - إنما اِنطلقت تحديداً مع يعقوب بن إسحاق لأنه، تبعاً للتعليم التوراتي، فإنه هو أبو الأسباط المُكَنّي باسم "إسرائيل". وقد كُني بذلك لأنه صارع كياناً ربانياً أرسله الربّ يهوه واِنتصر عليه، فقرر يهوه منحه اسم "إسرائيل"، وهي كلمة تعني بالعبرية "مصارع الله"، اِعترافاً من يهوه بشجاعته وقوته الخارقة. أما الحادثة، فوقعت حسب التّوراة (التكوين) عند ضفة نهر يبوق (الأردن) حيث كان يعقوب مستلقياً وحده. وهكذا، يتنازع العرب والإسرائيليون على أمور سبقت ظهور اليهودية والإسلام معاً. وإذا لم يكن النزاع بينهما عقائدياً دينياً، فهو بالضرورة قبلياً على السيادة والتوسّع والهيمنة. إنه صراع سياسي، كالصراع بين اليمين واليسار؟ اِعتقدناه جدلاً في فلسطين وحول القضية الفلسطينية، فإذا به في مكان آخر.

أسد وثعلب...

وهكذا، فإن "المزراب" (الجدل) هو التقاطع المهم الذي يتحيّر العرب بأمره، فلا يعرفون كيف يسدونه أو كيف يهربون من رذاذه. منهم مَن يوظّف القضية الفلسطينية لشد العصب، ومنهم من يوظّفها لشدّ النعرات، ومنهم للتملق والتألق. ولطالما اختلف القادة العرب

والمسلمون على المواقف المثلى من القضية الفلسطينية أمام شعوبهم، لا سيما أن القاسم المشترك بين كل الشعوب العربية هو كرهها لإسرائيل. لم يترك الزعماء وسيلة إلا واِستعملوها للحفاظ على نفوذهم وشعبيتهم عند الجماهير العربية. فمرّة كان الإسلام أداة طيّعة، ومرّة كانت القومية العربية. وتارة كان الإخوان المسلمون، وطوراً كان البعث واليسار. خلطة عجيبة من القادة العرب لم يتّحدوا يوماً على سدّ المزراب ووقف الجدل ولا على تحرير فلسطين!

الملك فيصل، ملك السعودية، مثلاً، دعم "الإخوان" في الستينيات ووظّف الكثيرين منهم في مملكته. لم يكن ذلك حبّاً بهم أو بالإسلام، بل نكاية بعبد الناصر لصدّ مشروعه "القومي" في الشرق الأوسط. كانت حجّة فيصل يومئذ تقوم على "أن المسلمين أمة دين ودولة أينما كانوا". أما حجّة عبد الناصر في المقابل، فكانت تقوم على أساس "فصل الدين عن الدولة". كلاهما، "الأسد والثعلب"، - (وهو وصف قديم أوصى به مكيافيلي حكام عصره لدمج صفات الأسد والثعلب لتحقيق الحكم الرشيد) - كلاهما كان يلعب ورقة "الأمة" من زاوية مصالحه الخاصة في المنطقة وسلطته عليها، وهي لعبة الصهيونية نفسها. السنون مرّت ولم تتقدم نظرية أحدهما على الأخرى، بل فشلت النظريتان معاً بتقدم إيران وتركيا على مسرح الإقليم! جلّ ما كان يفعله الزعيمان العربيان في تلك الأيام اِستخدام الدين مقابل العِرق للتلاعب بوجدان الجماهير. كان النزاع بين الرجلين عقيماً، وقد أدى إلى اِندلاع حروب عبثية شرسة بالوكالة في اليمن والسودان والجزائر ولبنان. المفارقة أن عبد الناصر (الأسد) كان مصرياً قحّاً (أفريقياً)، لم يكن له صلة بشبه الجزيرة العربية، ولا هي لها بأسلافه الأفارقة! وفيصل، (الثعلب)، بدوره، كان عربياً أصيلاً، لم يكن له ولأجداده صلة بمسلمي إندونيسيا على سبيل المقاربة؟ والملفت هنا أيضاً أن الرجلين كانا أقرب إلى

بعضهما البعض ثقافةً وتراثاً وتاريخاً من قربهما لأفريقيا وإندونيسيا تواليا.

***

في جانب آخر من التلاعب والدجل على أوتار الدين والعِرق ما شاهدناه أثناء اِندلاع الثورة الإيرانية عام 1979م ومحاولة الخميني "تعويمها" في الجوار؛ فبعد 9 سنوات من وفاة عبد الناصر، قوبل الخميني المسلم المتدين بحرب مفاجئة من صدام الإشتراكي العلماني. وبدل أن يعارض السعوديون صدام حسين العلماني كما عارضوا عبد الناصر قبله، على أساس أن الإسلام يتقدم على العرق بموجب الآية: "إن أكرمكم عند الله أتقاكم"، اِصطفوا الى جانبه كما لو أن "الأمة" الإسلامية لم تعد تشمل إيران، أو بالأحرى، كما لو أن الدول العربية تحوّلت فجأة إلى "أمة خالدة من المحيط الى الخليج" على مبادئ عبد الناصر نفسه! وإن دلّ ذاك الموقف على شيء، فعلى نفاق ورياء واِزدواجية في المعايير لتحقيق المصالح على حساب الدين؟ وهكذا، فضّل السعوديون عِرقهم العربي آنذاك على إسلامهم، وبدوا يومها كأنهم يرطنون بلا بوصلة ثابتة تحكم سياساتهم. واِستنتاجاً، أُهدرت دماء الكثيرين من العرب والمسلمين خلال المواقف المتناقضة بين عبد الناصر وفيصل وتنافسهما على النفوذ.

نتيجة للحرب العراقية-الإيرانية، عادت العروبة والقومية إلى الظهور مجدداً كسلاح سياسي تغذّيه دولارات النفط ضد الفرس. فجأة، بدا المشهد العام وكأن فيصل وعبد الناصر قد توحّدا من قبريهما على فلسفة عروبية واحدة. وحتى عندما ظهر نزاع عربي -عربي بين السعوديين واليمنيين لاحقاً، اِستُخدمت القومية العربية من قِبل السعودية لحشد العرب السنّة ضد العرب الشيعة على أساس أن إيران الفارسية تدعم الحوثيين. لا بل، حتى عندما ظهرت ثقوب في العباءة

الخليجية الواحدة بين السعودية السنية – والإمارات السنية بسبب المواقف من اليمن في العام 2026م، وجدنا المبررات والذرائع عند الطرفين تقوم حصراً على المصالح والنفوذ، وليس على الدين أو العرق. وفي المقابل، رأينا تركيا، وهي دولة سنيّة تستخدم، هي الأخرى، ورقة الأمة الإسلامية كما إستخدمتها السعودية ضد عبد الناصر، لمساعدة الشيعة الأذريين ضد أرمينيا المسيحية. وهكذا، فإن تعاليم الدين وجذور العرق مجرد أدوات تُوظف تكراراً بذريعة المصالح و"الأمن القومي". فقط الأغبياء هم مَن لا يرون كيف تستغل الحكومات هذه الأوراق وتلعبها لتوسيع سلطتها وممارسة نفوذها. وهي ألاعيب وتناقضات يوظف الغرب مثلها للحفاظ على نفوذه وهيمنته.

أما في حالة إسرائيل تحديداً، فالعِرق والدين أصبحا اليوم مصطلحاً واحداً حاكته الصهيونية ببراعة ودهاء لسد كل الثغرات مرّة واحدة. فالصهاينة أرادوا لليهود أن يكونوا ديناً وعرقاً وأمة ودولة معاً، في حين أن كل عنصر من هذه العناصر قائم بذاته. وبإستثناء إسرائيل، لا توجد في العالم كله دولة واحدة تصرح بجمعها لهذه العناصر معاً، بما فيها اليابان وآيسلندا وأرمينيا. وهكذا، يظهر اليهود والإسرائيليون دائماً ككيان واحد موحّد في كل سياق وإتجاه. ومع أن هناك جماعات أخرى معتقداتها أيضاً "تؤهلها" للتفكير بنفس الطريقة الصهيونية مثل الدروز، والموارنة، واليزيديين، والسامريين، والصابئة المندائيين، والزرادشتيين، وبوذيي التيبت، والسيخ، إلا أنها - بعكس اليهود - إرتضت العيش في دول هم جزء منها، فيما اليهود أصرّوا على الإستقلال بأرض لهم تحت دعوة الوعد الرباني - حسب معتقدهم التوراتي.

لست عربياً!

إسرائيل لا تخجل في العلّن من لعبتها والخداع حول الدين والعرق والهوية، أما جامعة الدول العربية، فتتظاهر بالأنفة والعفة لكن تمارس نفس اللعبة سراً. فقد حاولت، هي أيضاً، نسج قاسم مشترك من العِرق والدين لدولها من خلال حياكة تاريخ عربي موحّد وعِرق "عروبي "واحد. لكن بعيداً عن غايات موظفي الجامعة العربية ورغبات الحكام العرب، فالناس في الشرق الأوسط، عموماً، لا يرون أنفسهم عرباً أقحاحاً. اللبنانيون، مثلاً، يعتبر معظمهم نفسه فينيقياً هبط على جبال لبنان من الفضاء. ومهما حاول بعض البُحّاث ربط أصول الفينيقيين بالجزيرة العربية، سواء بجنوبها اليمني، أو شرقها البحريني، فإن اللبنانيين، لا سيما الموارنة منهم، يصرون على تميّز العِرق الفينيقي، رغم أن الفينيقيين أنفسهم لم يسكنوا حصراً على شواطئ لبنان وحده، بل اِمتد وجودهم إلى ساحل سوريا وأجزاء من فلسطين. كما أنهم لم يكونوا يوماً أمة واحدة في دولة موحدة، أو إمبراطورية، بل لطالما تواجدوا ضمن "مدن - حكم" مستقلة بعضها عن بعض!

وبالمثل، يعتقد بعض الفلسطينيين أنهم غرباء عن العرب. هم يونانيون أو مينوسيون أو كريتيون أو من جزر جنوب بحر إيجة. وبرأي هذا البعض أنهم هم أصحاب اللقب "فلستينيين"، وقد أبحروا إلى بلاد كنعان خلال العصر الحديدي (1200ق.م)، عقب كوارث طبيعية واِضطرابات داخلية. وعلى خطى الفلسطينيين، يُفضّل المصريون التعريف عن أنفسهم بـ"المصريين الخُلَّص"، أي ليسوا عرباً ولا أفارقة، وكأنهم، هم أيضاً، نبتوا أحراراً على ضفاف النيل، أو كأن تماسيح مصر لا تسبح خارج حدودهم؟ أما السوريون والأردنيون والعراقيون، فيفضلون تمييز أنفسهم عن بدو الصحراء وقبائلها جنوباً لأسباب ثقافية، وعن شعوب الأناضول شمالاً لأسباب سياسية،

ويزعمون أنهم القلب النابض "للهلال الخصيب". وفي شمال أفريقيا أيضاً، هناك مَن يُفضّل الرجوع إلى أصله الأمازيغي، الذي يعود بجذوره إلى آلاف السنين قبل الميلاد. ومع أن بعض الأنثروبولوجيين والمفكرين (إبن سينا) يربطون جذور الأمازيغ بهجرات من اليمن، إلا أن نظرية نزوحهم من شرق أفريقيا مباشرة لشمالها تُعتبر من أمتن النظريات وأقدمها، وذلك بالنظر إلى آثار إسهاماتهم في مجالات التحضّر الأولي. ولعلّ أشهر ما يُنسب إلى مساهماتهم العملاقة، "فتح" جبل طارق، وإنْ كان العرب هم مَن تلقى الثناء على الإنجاز العظيم من مؤرخي "المؤسسة". لكن ماذا عن العرب الأقحاح أنفسهم؟ هؤلاء، أيضاً، ينقسمون بنظرتهم لأصولهم إلى قسمين: قسم أول يرى أنه من الجزيرة العربية وقد اِرتحل إليها مرّة واحدة من اليمن منذ قعر التاريخ (عرب)، وقسم آخر يعتبر نفسه تشكيلة متنوعة من كنعانيين وعموريين وأموريين، وما إلى ذلك من شعوب قديمة هاجرت أساساً من الجزيرة العربية على مراحل (أعراب)...

***

أما الهوية العربية الحديثة، فهي ليست بالبساطة التي يُعبّرون عنها أو يرغبون في إظهارها. اللغة والدين وحدهما لا يُشكلان أعراقاً ولا أمماً. فإيران، مثلاً، تعشق اللغة العربية وتنطقها في دوائر الأكاديميا والحوزات العلمية كلغة ثقافة وبحث وقرآن (أشبه بتعاطي الأوروبيين مع اللغة اللاتينية في دوائر القانون والأكاديميا). بيد أن إيران، بنفس الوقت، فخورة بفارسيتها الى حدّ التعصب، مع أنها تضم تشكيلة واسعة من أعراق متنوعة. وفي المقابل، لا التاريخ، ولا الفولكلور، وحدهما أيضاً يصنعان عرقاً مميزاً. كثير من المفكرين الذين درسوا تركيبة العِرق وبحثوا في نشأة الحضارات، لم يجدوا صيغة ذهبية واحدة تؤدي الى ولادة الجنس وتطور العرق أو اِنتقاله. ربما لأن

التاريخ الإنساني نفسه عبارة عن عجلة دوّارة تطحن كل شيء وتحطم الحدود وتعدّل التصنيفات حسب الظروف. الثابت الوحيد في الكون هو التغيّر الدائم والتحوّل المستمر. لذا، فمن المستحيل، مثلاً، تحديد عِرق السومريين والأكاديين والبابليين والرومان واليونانيين والإنجليز والفرنسيين والأميركيين والإسرائيليين والعرب وغيرهم. نحن نستخدم تعريفات زائفة فضفاضة دائماً، وربما قذرة، لأنها تُفرض علينا من قبل المنتصرين تسهيلاً لإداراتهم بما يتناسب مع غاياتهم وتشريعاتهم.

وبإستثناء مخلوقات الفضاء المجهولة، فإن سلالاتنا تعود الى كعب التاريخ البشري المشترك. لكن هناك مرضى عنصريون يريدونك أن تعتقد أنهم من جنس بشري آخر، متفوقون عليك، لا لشيء سوى لأنهم يكرهون الغرباء بالسليقة والفطرة! هناك بعض آخر يعاني من رذيلة التمييز ضد الأجانب بالعموم خشية مشاطرته الموارد والنفوذ. وهؤلاء أيضاً يريدونك أن تُصدق أنهم عِرق مميز وفريد من نوعه! إنهم خبثاء يفبركون التبريرات والذرائع لحقوق موهومة، ويجرّون العالم إلى حروب مستمرة. وهذا الغرور العرقي عند البعض غالباً ما يدفعني إلى الإعتقاد أن العالم ربما كان فيه أكثر من إسماعيل واحد وإسحاق واحد، أو ربما أنهما لم يكونا مرتبطين أصلاً بجينات إبراهيم، ولا إبراهيم نفسه كان من سلالة نوح! إنها ذهنية "شرغبية" (شرقية وغربية) تقوم على فكرة "أبي أقوى من أبيك، ودمي أنقى من دمك، وبلدي أعرق من بلدك". والعرب ليسوا أبرياء من هذا التعالي والغرور، رغم أنهم لم يصنعوا الذكاء الإصطناعي ولم يبتكروا العصف النووي.

الفصل الثالث: ربيع المراهقة

معانا كتب، معانا أشرطة

مع تفاقم المواجهات بين الفلسطينيين والإسرائيليين في جنوب لبنان على مرّ السنين، صرتُ أقضي إجازاتي الصيفية في بيروت "مكوياً" بجوّها الحارق ومُبلّلاً برطوبتها المزعجة. هناك بين عمر الـ 14 و17 كنتُ في الصيف أعمل صباحاً، وأسبح بعد الظهر، وأسهر الليل بطوله. كنتُ دائماً اختلط بمَن هبّ ودبّ من أجناس البشر: بالسيّاح والصيادين والمراسلين، وبالسود والسمر والبيض. كنتُ على شواطئ العاصمة أصقل اِستقلالي بالرمل، وأُلمّع تمرّدي بالموج بعيداً عن توجيهات الأهل ومواجهات الأزقة. أما خلال الليل، فكنتُ أنحتُ في ظلامه معالم رجولتي بإزميل المراهقة وشاكوش العنفوان.

منهجنا الدراسي في تلك الأيام كان نسخة عن المنهج البريطاني. وتحركاتي في تلك الحقبة كانت تدور حول أنشطة الثقافة البريطانية. كنتُ أُراود المراتع الإنجليزية (*Pubs*) خلف شارع الحمرا وبين الأزقة المحيطة بشارع "بلس". كنتُ أشارك بمسابقات لعبة رمي السهام (*Darts*)، وأدردش مع مضيفات الطيران البريطاني (*BOAC*) وقوات مراقبة الهدنة أثناء عطلاتهم في بيروت. وما إن ينتهي موسم الدراسة بمنتصف حزيران حتى أكون قد بدأتُ عملاً صيفياً يختلف من عام إلى آخر. عملتُ في معامل نجارة ومعامل جلود، وفي تركيب أوراق الجدران والأسقف الإصطناعية. ومن جملة أعمالي أيضاً، عملتُ مُنقِذاً على الشواطئ في بيروت ومُسعِفاً في مسابحها. إلا أن آخر عمل صيفي داومته سنتين متواصلتين كان في مكاتب ممثلية هيئة الإذاعة البريطانية في شارع الحمرا. ورغم اِنعدام

خبرتي كبائع متجوّل، فقد تمكنتُ من بيع العديد من دورات "علّم نفسك الإنجليزية" (بواسطة الكتب والأشرطة) إلى الكثير من المبتدئين المتحمسين. ربما "قامتي" ولحيتي ونبرتي كانت من العناصر التي أسعفتني على البيع والمبالغة في مقدرتي وعمري. كان أدائي مبهراً إلى درجة أنهم نقلوني من قسم الكاسيتات والكتب الى قسم الموسوعة البريطانية الشهيرة "بريتانيكا"، (*Britannica*). ومع أن زبائن الموسوعة كانوا مهنيين وأكاديميين، وأكثر ثقافة ونضجاً من زبائن الكاسيتات، إلا أنهم لم يكونوا أكثر تحدّياً. والسبب في ذلك أنهم كانوا مصرفيين ومحامين ومدراء مبتدئين؛ فكانوا يقتنون الموسوعة وجاهةً لعرضها فقط على رفوف مكاتبهم، والتلميح بها عن "ثقافاتهم" الخادعة أمام زوّارهم..

عملي في الوكالة البريطانية ساعدني على إقامة علاقات عجيبة: مع طلاب ودكنجية ومحامين وبنكرجية وموظفي حكومة، فضلاً عن بوابين ومخاتير وسكريترات. إلا أن أهم تلك العلاقات بلا منازع كانت مع القسم الثقافي في السفارة البريطانية والمجلس الثقافي البريطاني *British Council*، وكان قد تأسس في بيروت قبل النكبة بسنتين. كنتُ أتلقى منه العديد من الإطراءات والثناء على جهدي في ترويج دورات التعلم والموسوعة. ومع أن أَجْري الثابت كان زهيداً ورمزياً، كنتُ أجني عمولات طائلة لم يكن مناسباً أن تكون في جيب مراهق مثلي! لم أكن "البطل" الوحيد في الوكالة البريطانية، إنما كنتُ أصغرهم سناً وأكثرهم لعباً وشقاوة. ورغم صغر سني، كنتُ أعرف كيف أقضي أوقاتي في زمن لا أحد كان ينام فيه أو يرتاح؛ السبعينيات في بيروت كانت سنوات التألق والجنون، خاصة للشباب والمراهقين. ورغم اِنشغالاتي "المهنية" أثناء النهار و"الترفيهية" خلال الليل، كنتُ مدركاً لمكانة بيروت الراقية بين عواصم المنطقة، إذ كانت يومها في

ذروة الشهرة، تعتصر حالة ثقافية حضارية اِستثنائية. كنتُ يومها في قلب الحدث اِستغل أوقاتي بتجارب فريدة، متنقلاً بين المكاتب والشواطئ وعلب الليل. العيش في بيروت إبان ذلك الزمن الساحر كان متعةً مطلقة لشاب مثلي رغم الحيرة من تعدد الخيارات وعواقب التناقضات! كنتُ أرى أشياءً عجيبة قبل أوانها، وأسمع عن أشياءٍ غريبة قبل أواني (!). كنتُ أرى الفلسطينيين والإسرائيليين، مثلاً، في سرير واحد (مجازاً) يتبادلان الحبّ عليه ليلاً، ويتقاتلان من تحته في النهار. كان الشرق بسحره يراقص الغرب على موسيقى الديسكو وأنغام الروك، والغرب بجماله كان يحتضن الشرق على آهات أم كلثوم ودموع فريد.

سويسرا النكبة!

في يوم من أيام السبعينيات، وبينما كادت الشمس أن تقف في كبد السماء، تماماً كما فعلتْ مع يشوع بن نون قبل 3000 سنة، كانت طائرة الميدل إيست رحلة *ME 202* تقترب من بعيد للهبوط في مطار بيروت الدولي. كان المطار، وما يزال، في نفس الموقع الحالي على مرمى حجر من وسط بيروت وعلى مدّ ذراع فقط من شطّ البحر. يومها كنتُ أقف على "حسكة" (طوافة) في بحر منطقة "الجناح"، وكانت مخصصة تقريباً للسكن الراقي والهيئات الدبلوماسية. كنتُ أراقب السماء وأرتقب وصول الطائرة فوق رأسي تماماً لأرمي أصابع الديناميت من يدي. الصيد بالتفجير كان نشاطاً ممتعاً اِكتسبته من رفاق السوء وصيادي العجلة، لم يتطلب أكثر من تواجد الشمس والطائرة فوق رأسي عامودياً. ورغم خطورته الجسدية والأمنية، كان سبيلي الوحيد "للهروب" من حرّ بيروت ورطوبة شوارعها في عطلة نهاية الأسبوع. وبالإضافة إلى صيد السمك، كنتُ في تلك البقعة بالذات

"اِصطاد" أيضاً مناظر البنات على الشطّ بإنتظار لحظة الصفر. وعلى قانون الحظّ التعيس، كانت الصبايا أحياناً تُلْهيني عن السمك، فإضطر مرغماً للخيار بينهما...

بيروت في عام 1973م، أي قبل بداية الحرب الأهلية بعامين، كانت أكثر من مجرد مدينة صاخبة على المتوسط، أو نقطة وصل بين الشرق والغرب. لا سنغافورة، ولا دبي، ولا الدوحة، كانت قد ظهرت بعد أو تألقت على خارطة السياحة العالمية. كانت تلك العواصم ما تزال في طور الحضانة، وبحاجة إلى نصف قرن على الأقل لتنافس جاذبية بيروت وسحرها آنذاك. "سويسرا الشرق"، كانت التسمية التي اِشتهر لبنان بها في السبعينيات بكل المحافل الدولية. بحثتُ طويلاً عن مصدر التسمية لكنني لم أجد هوية صاحبها، ولا أساساً مقنعاً لهذا المصطلح الفريد. الأرجح أن "السرّية المصرفية" هي التي نسجتْ خيوط التشابه بين سويسرا ولبنان، بالإضافة طبعاً إلى مظاهر الإنفتاح على الغرب وحرية التعبير والترفيه، ناهيكم عن الطبيعة والمناخ والتراث. لا ريب أن مزايا لبنان وسِماته كانت تثير غيرة الجيران وحسدهم من كل الجهات. فمن حيث الحريات والثقافات والإبتكارات، كان لبنان يتميّز عن المحيط المحافظ تميّز الأندلس عن أوروبا خلال العصور الوسطى. لم يكن ذلك بسبب تفوق لبنان علمياً على دول الجوار، ولا بسبب حكم المُوارنة فيه، وهم ميزة أخرى يتمتع بها حصراً، بل لأنه في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات اِستفاد من عواقب النكبة الفلسطينية على طريقة "مصائب قوم". إذ إن مِحنة الفلسطينيين كانت بمثابة "ليلة القدر" للبنان ولشعبه ومستقبله. يكفي، مثلاً، أن أنشطة ميناء حيفا بما كان يمثله للمنطقة بأسرها يومئذ، اِنتقلت بين ليلة وضحاها إلى مرفأ بيروت، فصار المرفأ بها مركزاً للترانزيت إلى سوريا، ومنها إلى دول الخليج. ومن ذلك الحين، تحوّل لبنان إلى واحة غنّاء للشرق الأوسط برمته.

لولا النكبة...

بإستثناء الدول العربية والإسلامية واليونان والهند، وافقت الأمم المتحدة بالأكثرية على تقسيم فلسطين قبل النكبة بعام واحد. المُستغرب حقاً أن بريطانيا التي أعطتْ "وعد بلفور" لليهود بتأسيس إسرائيل، وكانت مُنتدَبة على إدارة فلسطين في ذلك الوقت، لم تُصوّت لصالح التقسيم، وفضّلت الإمتناع عنه. كان وقع الحدث على الفلسطينيين والعرب صادماً ومُزلّزلاً، ولم يجدوا في قواميسهم كلمة يعبّرون فيها عن ألمهم وخيبة أملهم أقوى وأشمل من كلمة "نكبة". ففيها اختصرت تعابير المأساة الإنسانية الناجمة عن التهجير والنزوح والإبادة والمجاعة والمرض والإحباط واليأس معاً. وإذا كان من "فضل" لأحد في إختيار هذا المصطلح المدوي، فيعود حصراً الى المفكر والمؤرخ السوري قسطنطين زريق، وقد إستعملها بعد النكبة مباشرة عنواناً لكتابه (معنى النكبة). وهكذا، إنتشر المصطلح على أجنحة التكريم أو التعديل أو الترجمة. يومها قُدّر عدد نازحي فلسطين بـ 700 ألف شُتتوا في الإتجاهات الأربعة، وكانوا كلهم تقريباً مسلمين سنّة شافعيين يمثلون 82% من كل سكان فلسطين. أما الباقون، فكانوا من الروم الأرثوذكس والكاثوليك من الطقوس الشرقية والغربية، فضلاً عن قلة إنجليكانية وبروتستانت وملكيين كاثوليك يونانيين، والقليل جداً من الموارنة. وإذا كان من شيء واضح ميّز قادة مسيحيي فلسطين عن غيرهم من السكان آنذاك، فهو أنهم كانوا يتمتعون بنفوذ كبير في جميع أنحاء المنطقة، وكانت لهم عند حكامها مقامات وحظوات. وعندما نزح الكثيرون منهم الى لبنان عشية النكبة، نقلوا معهم جبالاً من الخبرات وأخذوا أطناناً من الدماثة والعلم والعلاقات العامة، بالإضافة إلى الكثير من الرساميل والسندات والماس ما قُدّر بأضعاف ميزانية لبنان السنوية في ذلك الوقت.

المفارقة الكبرى أن كثيرين من الجيل الجديد لموارنة لبنان اليوم، مُغيبون عن حقائق النكبة. فهم، مثلاً، لا يدركون أن اللبنانيين كانوا القوى العاملة في فلسطين قبل عام 1948م، بمثابة محرك الإقتصاد والتجارة لمصلحة الفلسطينيين المسيحيين أصحاب الرساميل والشركات الكبرى. لا بل الأهم من ذلك، كان الفلسطينيون المسيحيون وكلاء حصريين لمعظم السلع والخدمات التي كانت المنطقة تحتاجها، من الإبرة وعلف المواشي والحِنّة، إلى الأدوية وأجهزة المنازل وآلات المصانع. كان وضع اللبنانيين في فلسطين قبل النكبة يشبه إلى حد بعيد ما صار وضع العمال السوريين عليه في لبنان لاحقاً.

ولولا نكبة فلسطين، لما نزح الأعيان والعائلات البرجوازية وكبار التجّار الفلسطينيين المسيحيين إلى "لبنان الخام". "شمّروا" عن سواعدهم ونزلوا بقوة وشغف إلى ساحة العمل في ميادينه على طريقة "البحر أمامكم والعدو وراءكم". أخذوا ينشئون الصناعات الخفيفة ويبنون القطاع المصرفي ويوسعون النظام التعليمي. وهكذا، أسسوا للكثير من القطاعات الحيوية لبناء اِقتصاد متين عزّز الحياة الثقافية وكان له تأثير إيجابي سريع على حال لبنان ومستقبله وسمعته. ولعلّ أبرز المجالات التي أظهرت صورة لبنان الجديد بعد النكبة، ومثّلت حجر الزاوية فيه، كانت البنوك وميادين الصحافة والنشر والمهرجانات، فضلاً عن الإستثمارات الجديدة في الشحن البحري والنمو الإقتصادي. كما أنهم (مسيحيو فلسطين) اِستثمروا بشكل كبير في تطوير مناطق الجذب السياحي والترفيهي والفندقي، مثل أعمال التزلج والقمار وسباق الخيل، وكانت يومها أنشطة حصرية للبنان لم يكن لها مثيل في الجوار، إنْ لجهة البيئة الإجتماعية المتحرّرة والمناخ المعتدل، أو لجهة قوانين المناسبة. بل حتى إسرائيل نفسها لم تستطع في حينها أن تُضاهي لبنان بما كان يقدمه في مضمار الثقافة والسياحة..

بإستثناء المُخضرَمين، من الصعب جداً على اللبنانيين اليوم أن يتخيلوا أن لبنان كان مجرد ملاذ صيفي جميل. كان بطقسه المعتدل منتجعاً ومصيفاً ومرتعاً هادئاً، مثالياً رومانسياً للعرب الأثرياء، وللذين كانوا يقصدونه للإسترخاء أو الطبابة والنقاهة. لكن بعد النكبة، تغيرت هوية لبنان القروية وإنتقل مؤشر الأحداث الكبرى في المنطقة إلى بيروت، ومنها إلى باقي المدن، فجعلتها الرساميل الفلسطينية وجهة السياح والمستثمرين وكل مَن كان له شأن في بناء الشرق الأوسط. وهكذا، ذابت فلسطين وتبخرّ بريقها مع رياح التغيير وصارت أثراً بعد عين. كان ذلك أمراً محزناً بعد أن كانت هي الحدث نفسه مستفيدةً من أجواء الإنتداب البريطاني وإنفتاحها على المتوسط بمرفأ حيفا وشعلة القدس.

تجسس شرعي!

وعلى نكبة فلسطين، تطوّرت بيروت وأصبحت قِبلة المعارضين و"الإرهابيين" في الشرق الأوسط. صارت مركزاً حيوياً للتجسس والدعايات، أشبه بقمر إصطناعي للمنطقة قبل ظهور الـ" سي. إن .إن" بوقت طويل. كان لمعظم دور الإعلام الدولية تمثيل إقليمي ورئيسي هام في بيروت، فضلاً عن مطبوعات وأقنعة وأبواق. عيون المخابرات وآذانها كانت يقظة تجوب شوارع بيروت ليلاً نهاراً، وتختلط بالفلسطينيين والصوماليين والمصريين والسوريين والعراقيين والبحرينيين. بيروت، يومها، كانت "بؤرة حضارية" للسماسرة والتجّار والمهربين والمضاربين. منهم مَن عمل في الإتّجار بالبشر وغسْل الأموال، ومنهم على تهريب الأسلحة والآثار وصفقات النفط، فضلاً عن الجواسيس والعملاء. كانت مدرسة "شملان" لتعليم اللغة العربية في جبل لبنان وِكراً خطيراً لتدريب الجواسيس والدبلوماسيين وموظفي الخارجية البريطانية. المفارقة هنا

أن البريطانيين أسسوها خصيصاً لغرض التجسس في نفس عام النكبة! وكانت المدرسة مطلوبة جداً من أجهزة اِستخبارات غربية أخرى إلى درجة أن قوائم الإنتظار وصلت إلى "فرع قبرص" وكانت تعجّ بالعملاء و"المتحمسين" للاِلتحاق بالمعهد من كل أنحاء "الامبراطورية" البريطانية، وذلك رغم أن بريطانيا نفسها كانت تحتضر بعد الحرب العالمية الثانية!

كان التجسس يُدار سراً في المعهد تحت غطاء "مركز الشرق الأوسط للدراسات العربية"*(MECAS)* . أما في الواقع، فكان التجسس سراً مفشياً للعامة والخاصة على حد سواء. ومن بين أشهر الذين تعلّموا العربية بالمعهد في حقبة الخمسينيات العميل المزدوج، كيم فيلبي، أكبر جاسوس دولي عمل في تاريخ جهاز المخابرات البريطانية تحت غطاء المراسلة لصحيفة "الأوبزيرفر" البريطانية. إلا أنه أُكتشف لاحقاً كواحد من "دائرة الخمسة" في جامعة كامبريدج. كان فيلبي يقيم في بيروت بشكل دائم، ويأخذ منها عنواناً لمراسلاته السرية مع الجواسيس الأربعة الآخرين وهم: دونالد ماكلين، وغاي بورغيس، وأنطوني بلانت، وجون كيرنكروس. كانت بيروت إلى حد بعيد "كرخانة" الشرق، ليس لأن القاهرة ودمشق وطهران كانت مدناً عفيفة طاهرة خالية من بيوت الدعارة، بل لأن بيروت كانت الرائدة، والمدينة العربية الوحيدة التي نظّمت الفسق والفجور فيها بقوانين حضارية مناسبة، أسوة بمنطقة "بيغال" في باريس أو "ريبابان" في هامبورغ أو غيرها من مناطق التعاطي بالجنس في الكثير من دول العالم. تلك الخدمة "الوردية" - بالإضافة إلى كازينو لبنان ونوادي الليل وسبق الخيل - كانت تجعل من العاصمة بيروت مكاناً مناسباً للعملاء والسماسرة والوسطاء والجواسيس. ومع ذلك، كانت الحياة في بيروت خلال النهار محافظة جداً، تماماً كالحياة في شوارع بغداد أو

عمّان أو الشام. وحتى المظاهرات المتكررة ضد إسرائيل والصهيونية والإمبريالية، كانت تُدار بشكل حضاري مقارنة بعنف المظاهرات التي تجري في عواصم الغرب في هذه الأيام. لا بل إن وزارة الداخلية اللبنانية، بالإضافة إلى سفارات الدول الكبرى في بيروت، كانت يومها "تُستأذن" سلفاً قبل تنظيم التظاهرات.

وإستغرق الأمر مع مسيحيي فلسطين قرابة 15 سنة قبل أن يندمجوا بشكل كامل وسلس في وطنهم البديل لبنان. فبالإضافة إلى تجنسيهم جميعاً تقريباً، وتأسيسهم لشركات كبرى، فقد شاركوا إحتكاريين لبنانيين في بعض القطاعات، وتضاعفت الإحتكارات برساميلهم، فحدّثوها معاً وطوّروها ووظفوا لها طواقم لبنانية من كل الطوائف والمناطق. وهكذا، إنتعشت أعمال المصانع والمصارف والشحن والتأمين والألبسة وتوزيع الأدوية والكثير غيرها. ومن مواقعهم الجديدة على رئاسة مجالس هذه الشراكات الإحتكارية، صار مسيحيو فلسطين أكثر تنظيماً وتمثيلاً لصالح الحكم الماروني في لبنان، وبالتالي أصبحوا ذات نفوذ كبير ليس فقط في لبنان، بل على مستوى الشرق الأوسط كله. كانوا، مثلاً، أول من علّم الخليجيين قبل النكبة، وبنوا على العلاقات معهم بعدها من لبنان. وأغلب الظن أن أول مضمار لأي شيء أُسس في لبنان، كان خَلْفه فلسطينيون مسيحيون أثرياء ونخب أعمال مَهرة. بيد أن تأسيس لبنان نفسه قام أصلاً على أيدي الموارنة الذين لعبوا دوراً مهماً في مناكفة العثمانيين والتشويش على التتريك. فلم يتركوا ملحمة بابلية أو إغريقية إلا وعرّبوها، كجلجامش والإلياذة، ولا شعراً فارسياً إلا وترجموه، كرباعيات الخيام وديوانيات حافظ الشيرازي. بل ذهب الموارنة في حقدهم على التتريك إلى حدّ "تمجيد" التعريب من خلال إعادة نشر روايات تاريخية وتراثية، كحكايا القصور، مثل رواية "شجرة الدّر" و"العباسة أخت الرشيد". والأدهى من ذلك كله، أنهم تطلعوا إلى أبعد من حدود لبنان،

وركزوا على رصّ صفوف المسيحيين العرب والأقباط من خلال ترجمة الكتاب المقدس نفسه من اليونانية إلى اللغة العربية الفصحى. لم يكن ذلك عملاً ثقافياً جباراً فحسب، بل مثّل إمعاناً منهم في إغاظة العثمانيين المسلمين.

الروّاد المسيحيون

ولئن كان الفضل في مناوئة الأتراك في مطلع القرن العشرين يعود بأغلبه الى الموارنة من جملة كتّاب وأدباء المهجر والبطريرك الياس الحويك، فإن المسيحيين الفلسطينيين كانوا أصحاب الفضل خلال منتصف القرن العشرين في الغوص أبعد مما طرحه الموارنة حول القومية العربية والهلال الخصيب. كانوا القوة الدافعة وراء كل شيء "نافض" على الواقع الصهيوني، مُعزّزين مناخ حرية النشر والتعبير في لبنان بهدف واحد: الحفاظ على واحة حضارية وأسلوب عيش متحرّر من تحفظ العرب الرجعيين وإحتلال الإسرائيليين الغدّاريين. لذا، فعندما كان الأمر يتعلق بفهم التصدّي لإسرائيل والإنتقاد لأنظمة الخليج خلال تلك الفترة، كانت الأنظار تتوجه عادة إلى المحرّضين الراديكاليين المسيحيين الفلسطينيين والشوام (الأرثوذكس). فقد اِنبروا من قلب دمشق ومن مقاعد الجامعة الأميركية في بيروت، وكانوا رأس حربة وروّاداً للدعوة إلى الكفاح المسلح ضد إسرائيل، وضد المشيخات العربية، وضد مصالح الولايات المتحدة وبريطانيا وشاه إيران.

ولتوحيد الشعوب العربية ضد إسرائيل، اِبتكر الأيديولوجي الأرثوذكسي السوري ميشال عفلق، نظرية "البعث" (وطن عربي واحد من المحيط الى الخليج). ومع أنها خلقت طرحاً قوياً واحداً في البداية، لكنها أدّت لاحقاً إلى حزبين متناقضين ورئيسين عنيدين:

حافظ الأسد في سوريا وصدام حسين في العراق. أرثوذكسي فلسطيني آخر، وديع حداد، المُلقب أبو هاني، كان أكثر المعترضين تحدياً لإسرائيل وتمرداً ضد الإمبريالية. أطلق مصطلحاً بسيطاً وقوياً: "العدو أولاً"، وسرعان ما اِنتشر بين الشباب واِكتسب زخماً شعبياً في كل الحارات العربية، ومن طنجة اِنتقل عبر مضيق جبل طارق إلى لندن حيث اِلتقطه يومها "الإرهابي" العالمي كارلوس، الملقب "ابن آوى". وهكذا أيضاً، ظهر أرثوذكسي فلسطيني آخر، جورج حبش، وصاغ مصطلح "الموت لإسرائيل والكفاح حتى النصر"، وكان حبش يُعرف بـ"الحكيم" بسبب طبيعته الهادئة ودماثة أخلاقه، وهو نفسه الذي قام لاحقاً بإبتكار وتنظيم عمليات اِختطاف جوية عالمية، وبالتالي نفّذ مذبحة القرية الأولمبية الشهيرة في ميونيخ.

وبعيداً عن هؤلاء المسيحيين الفلسطينيين القلة، حظيت الأغلبية المسيحية الفلسطينية بدعم نخب الموارنة في لبنان، ليس فقط بالنظر الى الخلفية التاريخية المشتركة منذ أيام الصليبيين والتطلعات المماثلة حول اِستقلال المصير، بل أيضاً لمشاركتهم نفس المخاوف من الجيرة العربية المسلمة. الواضح أن ملف المواجهة بين المسلمين وبين الصليبيين لم يقفل بعد في أذهان البعض رغم مرور مئات السنين. وبإلتقاء الهواجس والآمال والرؤى، تمكن مسيحيو لبنان ومسيحيو فلسطين من إدارة لبنان والتأثير على مصيره الصاعد، لا سيما في أعقاب حصوله على الإستقلال. غير أن غُلاة الموارنة ينكرون اليوم أي مسؤولية عن الفوضى التي تراكمت في لبنان بسبب إداراتهم السيئة كأغلبية في السلطة على مرّ السنين. بل العكس، فقد وَجّهوا سهام لومهم وإنتقاداتهم إلى القوى الإقليمية والقوى العالمية عبر الزمن، إلى العثمانيين وخروتشوف وبريجنيف وتيتو وعبد الناصر وعرفات، وإلى الأسدين والخميني ونصر الله. لاموا أعداءهم وجيرانهم وحسّادهم، لكن لم يلتفتوا يوماً إلى تنافساتهم الشرسة، بعضهم البعض،

على المراكز والنفوذ وإدارة شؤون الناس. كلهم أرادوا أن يكونوا أمراء في لبنان، ما برّر ظهور قولهم الشهير : "أنت أمير وأنا أمير ومَن يسوق الحمير؟". وسواء كان الغرض من إنشاء "واحتهم" المسيحية محل نزاع داخلي أم لا، فقد كان الرجاء - وما زال - تأمين اِستقلالهم في لبنان مسيحي خالص يتمتع بإِعتراف عالمي وحماية دولية. لكن حصر لبنان في جبل لبنان فقط، يقوّض إرث الفينيقيين عن سلطتهم بغياب الساحل الفينيقي من صور إلى طرابلس مروراً بصيدا وبيروت. المحزن أن الكثير من الموارنة رغم طموحهم العريض بالنسبة إلى السيادة والإستقلال في لبنان، تراهم لا يوفرون فرصة إلا واِستغابوا بعضهم البعض، (فسدوا) ووشوا، عند عواصم القرار في الغرب، وهذه الوشايات للأسف الشديد "ماركة مسجلة" لهم منذ العهد الصليبي المتأخر (القرن الثالث عشر). يومها اِنقسمت البطريركية المارونية وأُنْتُخِبَ بطريركيان قي وقت واحد. الصراع في الكنيسة الواحدة جرّ معه وشايات متبادلة عند المماليك وكشف عوارتهم بتشجيع منهم في القرنين الرابع والخامس عشر. ومهما كانت أسباب التنافس الماروني - الماروني، فهي لا تُفهم أمام هواجسهم المُبرّرة كأقلية مشرقية في المحيط العربي. فبدل الإتحاد والتعاضد على الصعوبات السياسية تجدهم يتآمرون مع الغرباء على أنفسهم. وقد بدا التنافس شرساً واضحاً خلال عهدي ميشال عون وجوزيف عون. فهما، رغم اِختلاف أجندتهما من مسائل لبنان وحزب الله، اِشتكيا من الوشايات المارونية علناً، بمرارة وتكرار. (في المقلب الآخر شهدنا "خيانات" فظيعة عند الشيعة ضد حزب الله أدت إلى خسائر جمّة وطالت أمين عام الحزب نفسه والعديد من شركائه).

السلطان إبراهيم و"نوبل"

وعلى هذه الخلفية المشحونة بتناقضات الكفاح المُسلّح ضد إسرائيل آنذاك، لم يكن الصيد بالديناميت في بيروت فكرة جيدة بكل المعايير، خاصة بالقرب من المطار الدولي! لكن، للأمانة، كان الصيد هواية مثيرة وممتعة لصبي مثلي رغم خطورتها. وبإستثناء ما يسببه من اِرتفاع الماء وسط البحر بشكل ملفت وخاطف، كان صوت التفجير يتلاشى مع أزيز الطائرة عند وصولها فوق رأسي، فيضيع الرذاذ المتطاير بموج المكان ويختلط المشهد على أي مراقب من بعيد دون أن تثار دهشته أو ريبته..

وبإنفجار الديناميت بين رفوف السمك، يُقتل الصغير منها على الفور ويتهاوى إلى قاع البحر، بينما يطفو كبيرها ويترنح على السطح أو دونه بقليل. وما إن تهدأ زوبعات الانفجار، حتى أبدأ بملاحقة السمك الكبير على سطح الماء. إلا أن المتعة الحقيقية تكمن عادة بالغطس العميق لجمع الأسماك المكدسة من قاع البحر. هناك على عمق 10-12م يتمدد السمك جثثاً زاهية بألوان بهية، وكله بحجم اليد تقريباً. ومع أني مارستُ الصيد بأنواعه، ورافقتُ الكثير من الصيادين في حياتي، إلا أني لم أفهم كيف تموت الأسماك بالديناميت دون أن تُقطّع إرباً. بعض الصيادين المحترفين أخبرني أنها تفقد التوازن بقوة الانفجار لأنه يؤثر على مركز الحاسة في زعانفها، فيُحبطها عن السباحة. صيادون آخرون زعموا أن الانفجار يكسر عمودها الفقري، فيشلّ حركتها ويصرعها على الفور. لكن هناك "طائفة" من الصيادين "المؤمنين" تقول إن الأسماك تموت لأن عمرها يكون قد اِنتهى وحان أجلها! وهكذا، تتعدد تفسيرات الصيادين والموت واحد!

وما يثير الدهشة فعلاً أن ألذ الأسماك طعماً وأغلاها سعراً يفلت من الموت بأعجوبة. وما لم يلامسها الديناميت مباشرة، لن تتعرض سمكة "السلطان إبراهيم" لأي أذى إطلاقاً! وهذا بحدّ ذاته لغز مثير لم أجد له تفسيراً علمياً حتى اليوم. لكن أبو جورج، وهو صياد لبناني عجوز له يد واحدة وأصابع مبتورة، أمضى عمره في التعامل مع الديناميت، أخبرني مرّة أن سمكة "السلطان إبراهيم" تُولد من رحم أمّها طرشاء، فلا تسمع صوت الانفجار، وبالتالي لا يَنكسر عمودها الفقري! اللبنانيون عموماً لديهم نظريات مُلهمة عن كل شيء تقريباً، لكني لست متأكداً من صحة هذه النظرية بالذات، لا لشيء سوى لأنه من المستحيل إثباتها! قد يكون أن سمكة "السلطان إبراهيم" تستشعر وهج الانفجار قبل وقوعه، فتطمر نفسها تحت الرمل. أو قد تكون "محروسة" بسبب إرتباط اسمها باسم النبي إبراهيم، أو قد تكون لديها مناعة ضد المغناطيس والذبذبات. وفي جميع الحالات يُعتبر الأمر مفارقة أن "السلطان إبراهيم" هو الكائن الوحيد الذي لا يموت بالديناميت! أغلب الظنّ أن "نوبل"، مؤسس الجائزة المشهورة، الذي كان أصلاً يبحث عن طريقة آمنة لتفجير الصخور وشقّ الأنفاق وحفر الممرات في المناجم، لم يخطر على باله أن إختراعه للديناميت سيُستعمل يوماً ما لصيد السمك في الدول المتخلفة والكسولة. صيد يُراد منه جمع أكبر كمية ممكنة بأقل وقت ومجهود ممكنين! كلهم، بلا إستثناء، يستفيدون من إختراع "نوبل": الفدائيون، والإسرائيليون، والروس، والأميركيون، والإرهابيون، والبناؤون، وصيادو السمك.

***

العلاقة بين جائزة "نوبل" وسمكة السلطان إبراهيم لطالما حيرتني منذ أيام الصيد في بيروت والعمليات الفدائية بجنوب لبنان. كيف يعجز علماء "نوبل" عن فك لغز صمود السمكة أمام الديناميت والبقاء على

قيد الحياة؟ كيف لا اِستهجن تقصير لجنة "نوبل" في أخذ فكرة "الصراع من أجل البقاء" على محمل الجدّ، حتى وإن كانت الفكرة مُلهمة من سمكة صغيرة؟ إسرائيل، مثلاً، أجرت دراسة علمية مستفيضة اِستغرقت سبع سنوات لفهم سرّ بقاء الجمل على قيد الحياة فترة طويلة بلا ماء! بريطانيا أيضاً درست صبر البغال على تحمّل الشدة، ومثلها أستراليا على ذكاء الكنغار، والروس على ولاء الدببة، والهند على ذاكرة الفيلة وهلم جراً. كل دولة كبرى وجدتْ لنفسها حيواناً من بيئتها تفتخر به وتتعلم منه وتدرّس أسراره. لكن العالم مجتمعاً لم يتبنَ أي دراسة علمية عن سمك "السلطان إبراهيم" بعد، ولا عن سرّ اِستمرار مؤسسة "نوبل" نفسها! فكيف تستمر المؤسسة بنموها رغم أنها لُوثت بسياسيين فاسدين ومفكرين متواطئين في الدمار والإبادات. وكيف، على سبيل المثال، حظي سياسيون مثل ياسر عرفات وهنري كيسنجر وشمعون بيريز وإسحاق رابين على جائزة السلام؟ ألم يتورطوا جميعهم بحروب ومعارك ضد الإنسانية، أم كان ينبغي علينا أن نكافئهم ونطهر أياديهم من دماء قتلانا ونزيح عنهم عذاب الضمير؟ لا عجب أن "لي دوك ثو" و"جان بول سارتر" رفضا الجائزة، أقله لتسليط الضوء على التدليس والدجل والمعايير المزدوجة! إذ يُفترض بجائزة "نوبل" أنها حافز دولي تُمنح لسُعاة الوفاق والسلام، لا للنكد السياسي ولرجال الهيمنة وتدمير الأحلام.

وهكذا، نرى أن التفجير "الترفيهي" لقليل من الأسماك الصغيرة يُحظر حظراً باتاً، فيما التجارب النووية في عمق البحار والتفجيرات التجارية لصيد الحيتان وأسماك التونة، تسمح قانونياً وتُصان بموجب معاهدات ومواثيق دولية. وبدل أن يرشحوا للجائزة ناشطاً اِستقصائياً تقديراً لجهوده في كشف بؤر التجارب النووية ومذابح الحيتان والتونا بأعالي البحار، منحوا الأديب الأميركي إرنست همنغواي جائزة الأدب عام 1954م عن روايته حول معاناة صياد سمك، بعنوان:

"الرجل العجوز والبحر". هذا لا يعني أن تصوير همنغواي لمعاناة الصياد في البحر لم يكن تصويراً رائعاً ممتعاً من الناحية الأدبية الصرفة، لكن يعني بالضرورة أن لجنة "نوبل" بدت يومها كأنها كانت تروّج لموضوعات سطحية على حساب موضوعات مصيرية على النطاق البشري. لا شك أن أغلبية دوافع "نوبل" نبيلة وهادفة بالأشمل والأعمّ، لأنها عادة تسلّط الضوء على إيجابيات العالم، ولولاها لم يكن تنفيذ العديد من المشاريع المفيدة ممكناً. لكن، هذا يخفي مآرب مزدوجة ونوايا مبيتة! ولئن كان كيسنجر بما مثّل من خطط جهنمية للملايين، قد حصل على جائزة السلام، فلا إستغرب أن يحصل ترامب يوماً أو (حتى نتنياهو) على الجائزة العالمية عن "جهودهما" التخريبية وقتلهما آلاف الضحايا في غزة ولبنان واليمن. مشكلة جائزة "نوبل" أنها، ككل الجوائز الغربية، تمنح للترويج من خلال موضوعها لمؤشر أممي، أو لطراز دولي، أو لتوجه سياسي عالمي.

***

لبنان في صيف 1973م كان أصغر من طموحي رغم بحره وأسماكه وذروة تألقه. حركة الإقلاع والهبوط من مطار بيروت حينئذ كانت مثيرة ومُلهمة تجري بمعدل طائرة كل دقيقة تقريباً، فتقدح في مخيلتي عالماً زاهياً، وترسم لأهدافي صوراً جميلة على مدار الساعة. كنتُ دائماً أتخيّل نفسي على متن واحدة منها مسافراً إلى الغرب الجميل، بعيداً عن رتابة العيش القبيح في بيروت. كانت أفكاري أكبر من إمكاناتي تستفز الصعب والعسير، وتطلعاتي كانت دوماً تتوق للإبتعاد عن السهل والمألوف. كنتُ مفتوناً بالغرب أكثر مما كان الإسكندر مأخوذاً بالشرق. كنتُ دائماً أتساءل إنْ كانتْ أسماكنا في الشرق تشبه أسماكهم في الغرب، أو تعبر إلى محيطاتهم بدون حواجز وتأشيرات!

الفصل الرابع: على الطريق إلى الحرية

"أخو" بطوطة!

في ربيع 1974م، وكنتُ في عزّ المراهقة، عزمتُ الأمر وقررتُ اِختبار حظوظي في أول رحلة اِستكشافية خارج بيروت والجنوب. ولأني لم أكن معجباً ولا مقتنعاً بالمسافات القصيرة، فقد رسمتُ في مخيلتي مشاهد أغرب من مغارة جعيتا وأبعد من "الباب العالي". أخذتُ أقلّب فكرة الرحلة في بالي بجدية تامة، وضاهيت فيها خطط إبن بطوطة، ووضعت مدينة "فيينا" هدفاً واضحاً في رأسي! فشرعت في التخطيط لرحلة طويلة وشاقة، خاصة أني اخترت لها في سرّي رفيقين من معارفي. أحدهما قريب متحفظ، والثاني صديق متهوّر. كان حماسي للدخول في غمار التجربة أكبر من جهلي بالعواقب، وشجاعتي على المخاطر كانت أقوى من المفاجآت على الطريق.

ومع اِقتراب نهاية الربيع، تمكنتُ من إقناع ابن عمي "مالك" على المشوار، وكان يومها يسكن في بغداد. أما صديقي "غبريال"، فكان مقتنعاً بالفكرة من الأساس، وأكثرنا حماسة ومرونة. كان غبريال يتيم الأب وحيداً لأمّه على أختين. وكنا (أنا وهو) عضوين نشيطين في الكشافة اللبنانية، خيّمنا معاً في مواقع جبلية نائية، وعلى دراية جيدة بعيش النَوَر والغجر ومخاطر الطبيعة. في العطل الوطنية والأعياد الرسمية، كنا نسير ضمن مسيرات شبابية في القرى والبلدات، ونعزف الموسيقى تحت شجر السنديان أو الصنوبر. كنا ننظم الأناشيد الكشفية في الجوقات الفولكلورية والمهرجانات بين المناطق، كمهرجان الأزهار في زحلة، والدراق في بكفيا، والكرز في حمّانة. غبريال كان "عزيّفاً" على الكلارينت، وأنا "نفيخاً" على الساكسفون،

لكننا لم نلعبهما لا بالفعل ولا بالحقيقة. كنا نتظاهر فقط بالدور ونمثّله أمام الجمهور، كنا مجرد "كمالة" عدد لتضخيم الفرقة الكشفية وتفخيمها أمام المشاهدين! كنا بإبتسامتينا المصطنعتين نوهم الأهالي بالنفخ على المفاتيح حسب نغمات الألحان. تارة كنا نصيبُ اللحن مع وقفة النوتة، وطوراً كانت تفضحنا، وفي جميع الحالات، كنا أضحوكة أمام الحضور، خاصة عندما كنا نقصّر في اللحاق بعصا المايسترو، أو نتجاوز نظراته إلينا وحركات يديه. المشاركة بالنسبة لنا لم تكن بغرض الموسيقى، ولا من أجل الكشافة نفسها، بل كانت مجرد فرصة جيدة للتغزّل بالبنات والبصبصة عليهن خلال فصل "الميني جيب" والحرّ. كنا نتظاهر أمام الحضور كما لو كنا الثنائي الموسيقي الشهير غودمان وأرمسترونغ. لم يكن لدينا أدنى إلمام بقواعد النفخ والعزف، وشخصياً كنتُ أظنّ أن "دو ..را ..مي" هي جملة فرنسية تعني "تصبح على خير"، أو أي شيء آخر له علاقة بالنوم...

أيام قليلة ووصل ابن عمي من بغداد. فقررنا التظاهر أمام أهالينا أننا بصدد التحضير والمشاركة بمخيم كشفي صيفي طويل. كان الأهل "كوول" معنا، وتقبلوا الفكرة بلا تحفظ أو تردد. لم يلتفتوا إلى التفاصيل كثيراً، ليس فقط لأنه لم تكن هناك أعباء مالية عليهم - (الكشافة اللبنانية في تلك الأيام كانت تتلقى هبات معتبرة من دول نفطية خليجية) - لكن أيضاً لأن لبنان كان آمناً ومتحضراً. كانت الحياة في بدايات السبعينيات أبسط بكثير مما هي عليه اليوم رغم الإختلاط والمعاصرة. الأهالي في الجبال كانوا لطفاء ومجاملين لدرجة أنهم كانوا يسمحون للكشافة بقضاء الليل في حقولهم بلا أسئلة أو تعقيدات. لم يكن سكان الجبال في تلك الأيام يكترثون للأديان والمذاهب، ولا للمناطق والطبقات الإجتماعية. كنا جميعاً نعرف أديانّنا وطوائفنا عن ظهر قلب، لكننا لم نشعر قطّ أننا كنا مضطرين لذكرها أو التحدّث

عنها، مثلنا في ذلك مثل معظم الناس آنذاك حتى في مصر وسوريا والعراق واليمن. كان التحدّث عن الأديان والمذاهب شيئاً معيباً وشبه مُحرّم. لذا، كان أهالينا مُطمئنين لمشروعنا الكشفي في جبال لبنان.

غيرة أم حسد؟

بسرعة البرق تمكنا من تحديد الأشياء التي كان علينا تنفيذها! فحصلنا على تأشيرات الدخول إلى بلغاريا ورومانيا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا. لم نكن يومها بحاجة لتأشيرات دخول الى سوريا وتركيا. ومن باب الإحتياط والتمنّي، أضفنا دولة أخرى على لائحتنا وحصلنا على تأشيرة إلى بولندا، وهي لم تكن من أصل خطتنا قبل اِنضمام مالك. إذ لم تكن لدينا بدونه ميزانية تكفي لأبعد من طرابلس. ولما كان أبو مالك (عمي) تاجراً ثرياً، فقد كانت "خرجية" مالك لذلك الصيف (على أساس أنه كان سيقضيه معنا في الكشافة لمدة شهرين) 1500 جنيهاً إسترلينياً، وقد تسلّمها منه على هيئة صكوك سياحية. كان الإسترليني يومها يساوي ثلث قيمة الدينار العراقي، ما كان يعكس الثبات الإقتصادي تحت حكم "البعث" ويدل على جودة المستوى المعيشي للشعب العراقي آنذاك. وعموماً، فمبلغ مالك بذاته كان معتبراً جداً على قياس ذلك الزمن قبل أكثر من نصف قرن. ولو حسبنا قيمة المبلغ على سعر صرف اليوم، لوجدناه كان يعادل ما مجموعه أجر ستة أشهر كاملة لموظف حكومي.

هكذا، كان العراق يعيش في بحبوحة اِقتصادية عندما كان صدام حسين نائباً للرئيس البكر. وبِاستثناء مناكفات الشيوعيين والأكراد وبعض رجال الدين - وكانت مناكفات مضبوطة - لم تكن لدى صدام أي مشاكل جدّية أو كبيرة مع شعبه أو جيرانه؟ إذ إن مناقشة الدين والدردشة حول المذاهب والأعراق كانت في أيامه مسألة قبيحة

مستهجنة ومقيتة، وكان يُنظر إليها على أنها "عيب" من الناحيتين الإجتماعية والثقافية. كان صدام يرى جميع المواطنين عراقيين سواسية، بغض النظر عن شؤونهم وإختلافاتهم؛ ولغاية الآن، يجد زوّار المدن العراقية، من أقصى الجنوب إلى أقصى الشمال، مساجد وكنائس وحسينيات ودور عبادة حسب الأجناس والأعراق جنباً إلى جنب وحائطاً بحائط. الكل في زمن صدام كان يتعايش بسلام ومودة تحت "بعث" موحّد وعراق واحد. وحيث كانت تظهر نعرات طائفية شاردة أو عابرة أحياناً، كانت تُوأد بلحظتها وتُسوّى قبل طلوع الفجر. العراق أيام صدام لم يكن يعاني من مشكلة وطن أو هوية. أقوامه عاشت معاً على ضفاف دجلة والفرات مئات العقود من السنيين. ولولا الغرور والعنجهية، كاد صدام أن يكون أباً للعراقيين على طريقة أتاتورك. أي إنه كاد أن يسمح للمواطنين ما يحلو لهم تحت المصلحة العليا. فقط بعد تصفيته، بدأ التأليب النافر يتسرّب إلى العراق، وصار الغرب يحرّض كل مكوّن عراقي ويدفعه للإستقواء بالخارج وإستقطاب الدعم الفئوي على حساب الهوية العراقية الجامعة. بات الصيد في الماء العكر سهلاً بعد القضاء على صدام، وأخذت الديدان والبكتيريا تعشش في أرجاء القطر. اليوم صار الكل يتعصب لقوميته ومذهبه، ويَدور بنفسه على بيدر الأوهام والهواجس تحت نار يغذيها الغرباء. وهؤلاء - تاريخياً – هم جيران العراق، وأول حرف من أسمائهم: إيران، وسوريا، وتركيا.

نكون أو لا نكون

عند ساعة الصفر عشية اليوم الموعود *"D-Day"*، وفي وقت مضروب بأواخر شهر أيار 1974م، إجتمعنا على بلكون شقة أهلي لمراجعة الخطة والإتفاق على النقاط النهائية. ابن عمي، ورغم تحفظه

البغدادي، كان أشبه بابن آوى. لم تمرّ عليه بهلوانية خلط فلوسنا مع فلوسه بميزانية واحدة. كان نبيهاً وحريصاً على صكوكه السياحية ومقتصداً لأبعد الحدود. ولأنه أدرك سلفاً أن غبريال وأنا لا نملك أكثر من فلس أرملة، فقد حدد موقفه من البداية، وقال لنا بصريح العبارة إنه سينفق ماله على نفسه فقط. أمر أزعجنا جداً لأن نقودي على نقود غبريال لم تكن تكفي للرحلة أصلاً. لكن أين ابن آوى العراقي من ثعالب لبنان؟ فقد فاجأناه بدورنا، وقلنا له إن ما ينطبق علينا أثناء الرحلة سنطبّقه عليه من جوع ونعس وبهدلة. فلا يجوز - حسب المنطق الذي طرحناه عليه – أن يتهنّى هو بماله أمامنا وينزل في فندق هنا وفندق هناك، أو يأكل في مطعم هنا وكافيتريا هناك، فيما غبريال وأنا نشقى بالعوز وننام في الحدائق العامة ونأكل من التسوّل أو الزبالة مرّة كل يومين. وهنا ذكّرناه بالقاعدة الذهبية، "نكونُ معاً بميزانية واحدة أو لا نكونُ"...

كان من الواضح أن مغامرتنا الصيفية تنزلق إلى الفشل، ناهيكم أن الكيمياء بين ابن عمي وغبريال كانت شبه منعدمة؛ فبالنسبة لغبريال، كان مالك بمثابة ذلك البدوي التقليدي المسلم المتزمت المتخلّف القادم من الصحراء. وبالمثل، غبريال، بالنسبة لمالك، كان بمثابة ذلك اللبناني المسيحي المتعصب المتعجرف الذي عمل رأس حربة للصليبيين على شواطئ لبنان! أما بالنسبة لي، فالاثنان عزيزان، لكنهما كانا من ضحايا التراث الشرقي المعلّب ومخلّفات الجهل العام. اِنطباعاتهما كانت خاطئة ومُجحفة سواء عن نكد وجهل، أو خبل. ليس صحيحاً أن مالك جاء من الصحراء، أو أنه كان متزمتاً ومتخلفاً. بالعكس، كان يسكن في بلد السومريين والأكاديين والبابليين والآثوريين. أي في بلد الحضارات الكبرى وشريعة حمورابي، أقله في وقت لم تكن اليهودية قد ظهرت بعد، ناهيكم عن المسيحية والإسلام. كان إبن عمي في تلك

الأيام يعيش في فيلّا فخمة من أرقى فِلّات "عرصات الهندية" في بغداد، وهي منطقة كان يسكنها دبلوماسيون ووجهاء وأعيان، فضلاً عن رجال دولة وسفراء. وعموماً كان البغداديون أمثال ابن عمي يقيمون حفلات صاخبة ويسافرون بإستمرار إلى أوروبا، وخاصة إلى لندن، لدرجة أن مدينة الضباب كانت تُسمى في تلك الأيام "بغداد الثانية". والخطوط العراقية وحدها كانت تطيّر ست رحلات بين العاصمتين يومياً. وحتى قبل سن البلوغ، كان مالك يملك سيارته ويقود دراجاته النارية ويلبس خوذاته ويدرس في أرقى مدارس بغداد، دعكم عن طلاقة لسانه بالإنجليزية ولسان والده بالألمانية والإسبرانتو والإنجليزية، فضلاً عن عربية أكاديمية متينة. وخلال مراهقته، لم يعر مالك أي اهتمام للسياسة، ولا لحزب "البعث" رغم إنتشار تعاليم الحزب في أرجاء العراق. أبواه مسلمان، فإستمر هو على الإسلام، ولم يراجع أديان البشرية ليختار ما يناسبه منها. مالك لم يكن مغروراً بدينه ولا خجولاً بوطنه.

على المقلب الآخر، كان غبريال من طبقة وسطى لم تحرمه أمه شيئاً. كانت، هي أيضاً، مثقفة بارزة وموظفة قديرة. كان لسانه طليقاً بالإنجليزية والفرنسية وتعلّم في إحدى أرقى إرساليات الغرب بيروت، وكان على قدر كبير من الثقافة العريضة والعامة. ورغم عمره المراهق، كان قارئاً نهماً وشغوفاً يهتم بالسياسة اللبنانية ومُغرماً بأحد رموزها الكبار آنذاك، كميل شمعون. لكن، بعكس مالك، لم يسبق له أن غادر وطنه حتى ولو لزيارة خاطفة إلى مزار "صيدنايا" القريب في سوريا. غبريال حتماً لم يكن من "مخلّفات" الصليبيين، إذ لم يكن مسيحياً مارونياً أصلاً - بل مسيحياً سريانياً من أحفاد العرب الغساسنة في جنوب الشام! وكمعظم اللبنانيين في ذلك الوقت، كان غبريال جاهلاً

بتاريخ العراق ومكوناته، مثلما كان مالك غائباً عن تاريخ لبنان وأثنياته.

أما أنا مرّة أخرى، فكنتُ واسطة العقد بينهما. كان طرحي في نهاية المطاف إما أن تكون خططنا عاطفية مبعثرة ونؤجل المشروع إلى العام التالي، أو تكون عقلانية تعاونية ونتفق على ضمّ المبالغ في غَلة واحدة. مالك لم تعجبه فكرة الإنتظار سنة أخرى، لا سيما أنه تحمّس للفكرة جداً وحصل لها على لوازم التأشيرات، ناهيكم أن كذبة التخييم في الكشافة معنا في جبال لبنان قد نُفذت وانطلت على أبويه وقبض ثمنها سلفاً. كانت نتيجة مفاوضاتنا قمحة جيدة، فاِحتسينا المزيد من البيرة وتوكلنا على الله!

رحلة الألف ميل

أخذنا الطريق البحري من بيروت إلى الحدود مع سوريا لغاية نقطة "العريضة". الطقس في أواخر أيار كان ما يزال ممسكاً بذيول الربيع. حمّيضة هنا، ولوز هناك، وفريز في كل مكان. قطعنا المسافة السورية بعد لبنان وتوجّهنا الى الحدود التركية عند نقطة "كسب". هناك أنهينا معاملات دخولنا وتابعنا طريقنا إلى أول مدينة تركية طلّت علينا مباشرة حيث قضينا ليلتنا الأولى. أنطاكيا قديمة جداً، وقد تأسست في القرن الرابع قبل الميلاد على أيدي السلوقيين، ورثة الإسكندر. وصارت من بعدهم واحدة من أكبر المدن إبان حكم الرومان، ومركزاً مؤثراً للمسيحية منذ أيامها الأولى. كنتُ قبل زيارتها أتخيلها ساحة حرب دائمة للمعارك الوطيسة بين الشرق والغرب. المدينة في مخيلتي كانت بمثابة ميدان قتال دائم لكل مَن هَبّ ودَبّ من المعسكرين أثناء عبورهما من وإلى بلاد الشام: كانت ممراً للسلوقيين والبيزنطيين

والصليبيين والمماليك. بل أني أكاد أجزم أن المؤرخين الذين زاروها وكتبوا عنها اِشتموا من شوارعها روائح الدم كما لو كان ينزف أمامهم.

بعد لَفَة خاطفة في الشوارع الرئيسية المضيئة، وجولة سريعة في السوبر ماركت، أمضينا الليل داخل بناء مهجور وسط المدينة على "فصفصة" بذور اللاقطين. الليل كان طويلاً صافياً ومنجماً. في الصباح الباكر مع الشروق، تحسسنا طريقنا إلى كراج المناطق، فقطعنا تذاكرنا وتوجهنا إلى ركن باصات أنقرة. كنتُ متحمساً جداً وسعيداً لأنها كانت أول تجربة لي في حافلة عصرية من نوع "البولمان"، أشبه بمقصورة الطائرة من حيث الضخامة والفخامة والراحة. اِنطلق الباص بنا دون طول اِنتظار وقضينا أمتع الأوقات على الطريق في مشاهدة سهول تركيا وأريافها وفلاحيها. غبريال وأنا كنا "نتذوق" شيئاً من طعم أوروبا لأول مرّة في حياتنا. طرقات عريضة مخططة، ومحطات بنزين حديثة، وفخامة بنيوية مقارنة بطرقات لبنان! أما أوضح ذكرياتنا وأحبها على قلوبنا، فكانت عن توقفنا من وقت لآخر في اِستراحات نائية وسط البراري في عزّ الليل. كانت المحطات بأضوائها المشعة تبدو ساحرة رومانسية على خلفية الفضاء الواسع رغم تدافع الركاب والفوضى. كانت الباصات تُنظم مواعيد اِستراحاتها على أوقات موحدة بحيث نهبط جميعاً معاً لنمدد أذرعنا ونلوي رقابنا ونتنشق النسيم العلّيل. نتسابق إلى الطاولات ونسرع لتناول الفاصوليا والمرق بالخبز التركي. بعدها، كنا نسترخي قليلاً على كوب الشاي ومكعبات السكر وراحة الحلقوم. وبلحظات خاطفة تحت النجوم، كان يتولد لديك اِنطباع أنك مسافر إلى الماضي المثير لتتعرف على الطرق القديمة للإمبراطوريات البالية في الشرق الساحر. كانت أجواء الإستراحات تتيح لنا الإختلاط المكثف والعابر مع السيّاح، وتبادل الملاحظات والطرائف في أجواء سماتها الإثارة

والفضول. أحياناً كانت المناكفات بيننا توقظ فينا نعرات سياسية ورواسب شبابية مزعجة!

أول الغيث، صوفيا!

وصلنا إلى أنقرة، وبعد مرور الكرام على ساحتها وبعض المعالم فيها، عدنا وإنتقلنا إلى باص إسطنبول، ووصلناها في وقت متأخر. توجّهنا مباشرة من كاراج الباصات في اسطنبول إلى محطة السكك المركزية. لم يكن على جدولنا سوى اللحاق بأول قطار مغادر بإتجاه الغرب. ولعمري كم كان ضرباً من الغباء والحماقة أننا غادرنا إسطنبول دون مشاهدتها خاصة عندما كانت هدفاً من أهداف مشوارنا أصلاً. وَددنا الغوص في تاريخها والإطلال منه على أبرز معالمها وتراثها، لكن حماسنا الطفولي للوصول إلى أوروبا حال دون رغبتنا. إنطلقنا على متن القطار مع إطلاق الصفارات، فصار الشرق بما فيه، خلفنا، وأضحى الغرب بما كان يخبّئ لنا، أمامنا. وعلى صوت العجلات ورتابة أنغامها، وصلنا إلى صوفيا في منتصف النهار التالي تحت مطر كثيف وضباب كئيب. ومن الإنطباع الأول أوحتْ لنا أجواء المحطة وملامح المدينة كما لو كانت مشهداً تعيساً من أفلام العشرينيات؛ كل شيء بدا بطيئاً ومعتماً على خلفية متاجر قديمة وأبنية متهالكة وميادين رثة. بدت صوفيا لأول وهلة كأنها مدينة أوروبية هاربة من حقبة القرن الثامن عشر !

لكن رغم كآبتها، كنا منبهرين بها، خاصة أنها كانتْ أول مدينة أوروبية نختبرها في حياتنا. قضينا فيها أربعة أيام بطولها وثلاث أمسيات مجنونة صاخبة. شخصياً، لم أحتسِ في حياتي من قبل، ولا منذ ذلك الوقت، ما إحتسيته خلال زيارتنا فيها من فودكا وخلطات كحول شيوعية عجيبة. ورغم سموم الخلطة وتركيباتها المشبوهة، إلا

أننا لم نفقد الوعي كلياً، ولم نتعرض لمكروه. ومع أن كل منّا كان يتذكر شيئاً عن الليل الطويل، إلا أننا معاً لم نتذكر كيف كانت تنتهي لياليا؟ السلطات الشيوعية في بلغاريا كانت في تلك الأيام تمنع اِختلاط المواطنين بالأجانب تحت طائلة العقوبة الجرمية والتغريم، إلا أننا لم نكن نعرض اِختلاطنا في الشوارع إلا للاِنتقال من بار إلى آخر أو من شقة لأخرى. لكن من كل الأحداث والمغامرات ثلاثة أشياء فقط علقت في ذاكرتي من المشوار البلغاري: الأول اِستعمال البلغاريين لكلمة "نعم" بدل كلمة "لا"، فكان الإلتباس علينا محرجاً ومضحكاً معاً. ذلك أن "النعم" عندهم يُعبّر عنها كـ"اللا" عندنا بتحريك رؤوسهم يميناً وشمالاً، و"اللا" عندهم يُعبّر عنها بتحريك الرأس من أعلى إلى أسفل. وهكذا لم نكن نعرف في البداية ما إذا كان البلغاريون يردون علينا بـنعم أو بلا، خاصة مع الحريم الصبايا! وعلى العموم كنا نحرك رؤوسنا في كل مكان وبكل الإتجاهات وفي كل الأوقات..

أما الشيء الثاني الذي لن أنساه، فكان ملفتاً ومنفراً معاً. كانت سيقان النساء وأذرعهن مُشعرة ومقززة للغاية! ظاهرة غريبة أوحتْ لنا يومها وكأن شفرات الحلاقة كانت ممنوعة في البلد، أو كانت تستعمل فقط لأغراض عسكرية! ومَن يدري، فلربما كان عدم نَتْف الشعر عندهم يعكس موضة جمالية تخصّ الذوق الشيوعي وحده! ورغم قباحة الظاهرة، لم تزعجنا كثيراً، لا سيما أننا كنا نختبر أشياءً لأول مرّة تحت تأثير الكحول والضياع! أما الشيء الثالث، فكان مدى رخص الأشياء في العاصمة إلى درجة يخيل لك فيها أن الأسعار كانت تخص الأطفال وليس البالغين..

أيامنا في صوفيا كانت مليئة باللهو والعبث في عز المراهقة والشغف. اِنشغلنا بحريم صوفيا على مدى أربعة أيام ولم نرَ شيئاً من المدينة غير

حاناتها وساحاتها العامة وبعض المتاجر الكبيرة! إلا أننا كنا واثقين من العودة إليها في يوم من الأيام بالنظر إلى رخصها وجمال نسائها.

رومانيا بلا رومان

في مساء يومنا الرابع في صوفيا، عدنا الى محطة القطار وتوجّهنا إلى عاصمة أخرى على أمل المزيد من المغامرات. بوخارست، في تلك الأيام، كانت مدينة جميلة ونظيفة، فيها الكثير من الحدائق والمساحات الخضراء. مناظرها بالنسبة لنا كانت بهيّة بديعة من خارج هذا العالم. وحتى في بيروت، عاصمة لبنان الأخضر، لم تكن لدينا حدائق عامة معتبرة على ضخامة وجمال ما رأيناه في بوخارست. بل أكبر وأجمل ما كان عندنا في العاصمة بيروت (ولغاية الآن) حديقة "الصنايع" بالقرب من شارع الحمرا، وهي بالكاد تضم بضع أشجار أو تتعدى عشرين ألف متر مربع. أما حدائق العاصمة الرومانية، فتضاهي الحدائق العالمية مساحة وجمالاً مثل حديقة "هايد بارك"، و"قصر هامبتون كورت"، و"كيو غاردنز" في لندن. وبعكس حدائق العالم التي تكون عادة منتشرة حول العواصم أو على ضواحيها، فإن حدائق بوخارست تقع وسط المدينة نفسها وتمثل قلب العاصمة النابض. لا بل إن طرق المدينة وشوارعها تقع داخل الحدائق نفسها وليس حولها أو بالقرب منها.

نزلنا في فندق وضيع وسط المدينة، وتشاركنا نحن الثلاثة في غرفة واحدة تشبه زنزانة أفلام الكابوي على الحدود الأميركية مع المكسيك. كانت المقاهي الشبابية وسط بوخارست صاخبة في عزّ الصيف، وكأنها في موسم أعياد الميلاد ورأس السنة. طاولاتها كانت تشبه طاولات المقاهي في المطارات، ترتفع على قضيب معدني بدون كراسي إلى مستوى الصدر، وقد صُمّمت خصيصاً لإجبار الزبائن

على الوقوف برهة والمغادرة! كان على روّاد المقاهي تناول مشروباتهم بسرعة والبصبصة خطافاً على الواقف. ذلك أن الذهنية الشيوعية في تلك الأيام لم تكن تسمح لأحد بالإسترخاء طويلاً بدون عمل أو إنتاج. لكن على المقلب الآخر من وسط العاصمة، كانت هناك حانات راقية أنيقة ومهيبة تعود بديكورها العريق وطرازها التراثي إلى العصر الملكي الروماني البائد. وبعكس بلغاريا التي كانت يومها تمنع رسمياً اِختلاط مواطنيها بالأجانب، كانت رومانيا تسهّل لنسائها الإختلاط بهم من باب الترويج للسياحة، فيما كانت عقوبة اِختلاط الذكور بغير الشيوعيين صارمة! كان تمييز الدولة بين الجنسين لغرض الإختلاط أمراً مُحيّراً بالنسبة لنا، ولم نفهم دواعيه السياسية والأمنية إلا من باب الحدّ من الإنفتاح على الرأسماليين. السماح للإناث كان يمثّل دخلاً قومياً من العملات الصعبة، أو ربما كان بنداً اِستخبارياً في سياسات تشاوشيسكو الغامضة في ذلك الوقت. وكالعادة، "وُفقنا" بالتعرّف على الكثير من الحسناوات اللواتي كن يصطحبننا إلى الحدائق العامة وحمّامات السباحة وحانات السمر. بوخارست يومها كانت مدينة نمطية مطابقة للاِنطباع الذي كان سائداً بين الشباب العرب عن تحرر النساء الأوروبيات. أقله مما بدا لنا من وفرة وسائل الإستجمام المُختلط، واِزدحام المسابح العامة بالمراهقين من الجنسين. بدت الحرية الجنسية عندهم "عملاً" روتينياً، كالتنفس والأكل والنوم، وليست كأحلام العيد عندنا، أو أحلام اليقظة.

عاصمة الغجر

تشاوشيسكو بدأ حكمه باِنفتاح على التحديث وفلسفة ليبرالية تجاه الغرب. فمثّلت سياسته منذ البداية تحدّياً سافراً لـ"حلف وارسو". بيد أنه سرعان ما عكس مساره رأساً على عقب عام 1972م، وقرّر

التقرّب من قادة المعسكر الشيوعي وموسكو. لا بل إنه هاجم سياسة الإنفتاح والإستقلال الثقافي، وعاد بنهجه إلى المبادئ "التوجيهية" الصارمة من خلال مهاجمة المنفتحين على الغرب. كان الناس في رومانيا على أيامنا مكبوتين ومُجبرين على العمل الشاق لساعات طويلة. وكانت حقوقهم مغبونة بكثير من الجوانب الشخصية والإعتبارية، كما كان السفر - على سبيل المثال - ممنوعاً إلا لدول أوروبا الشرقية! وبالعموم، كان الرومانيون يُعامَلون معاملة الروبوتات الذكية حتى قبل ظهورها بخمسين سنة. أما البُنية التحتية، فكانت متهالكة تعكس مشاريع ضخمة فاشلة ومصانع مهجورة متوقفة، وما إلى ذلك من معالم الإنحدار والإهمال.

رومانيا، مثل بقية الكتلة الشرقية، كانت دولة رخيصة للغاية، خاصة بالنسبة لمراهقين أمثالنا قادمين من لبنان والعراق. الليرة اللبنانية آنذاك كانت تعادل 50 سنتاً للدولار، وكان الدينار العراقي يومها يساوي ثلاثة جنيهات إسترلينية! والبلدان، لبنان والعراق، كانا يتمتعان بمستوى معيشي أعلى بكثير من مستويات المعيشة في الغرب نفسه، ناهيكم عن دول المعسكر الشرقي. كانت أسعار المأكولات والنقل العام والإحتياجات اليومية رخيصة جداً إلى درجة أنه كان بإمكاننا نحن الثلاثة أن نقضي أسبوعاً كاملاً في رومانيا بما يوازي ليلة واحدة فقط في لبنان أو العراق! كان الأمر فعلاً سريالياً، وكنا "أثرياء" برفقة حسناوات في بلاد لم نزرها من قبل! إلا أنه سرعان ما أدركنا أن الفتيات كنَّ يلاطفننا ليس إعجاباً بنا وهياماً، بل لأننا كنا نرتدي بنطلونات جينز أصلية ونلبس قلادات ذهبية وخواتم فضية. تلك كانت أشياءً فاخرة نادرة صعبة المنال بالنسبة للشرق الشيوعي، فيما الغرب كان يقتنيها ويلبسها بسهولة. إلا أن أغرب ما لفتنا يومها أن اسم رومانيا نفسه لا علاقة له بروما، ولا رومانيا نفسها تتكلم الإيطالية.

ذلك أن الشعب الروماني أصوله مختلفة تماماً عن شعب روما، ولم يرتبط اسمه أساساً بالإمبراطورية الرومانية. قيل لنا إن اسم رومانيا يعود إلى مصطلح هندي (آري-أوروبي) بمفهوم "الرجل" أو "الزوج"، أي إن الإلتباس لفظي، ليس أكثر، تماماً كما في الفرق اللفظي بين كلمتي "لبنان" و"ليبيا" على سبيل التشبيه. هناك من المفكرين والأنثروبولجيين واللغويين مَن روّج لنظرية نزوح الرومانيين من شمال القارة الهندية بعد ظهور الرومان في روما بقرون طويلة، وهم بسبب ترحالهم الطويل وتنقلاتهم على الطريق اِعتُبروا غجراً وصارت رومانيا معقل الغجر في القارة الأوروبية.

مفقود يا ولدي ... مفقود!

في إحدى ليالي الأسبوع الثاني من مغامراتنا الرومانية، بدت الأحداث كأنها عصيّة على الذاكرة. فمع طلوع الضوء تحت زخات المطر، وجدنا أنفسنا نياماً تحت شجرة ضخمة في حديقة عامة! شعرنا أنها كانت ليلة كابوسية باردة، وبدتْ شُنَط أظهرنا مبعثرة وشبه فارغة. لا بد أننا أفرغنا ملابسنا منها خلال الليل لتدفئة أجسادنا المرتجفة؟ وعند لملمة الأغراض وترتيبها، اِكتشفنا أن المحفظة التي كانت بمثابة "خزنتنا"، اِختفت من حوزتنا وتبخّر معها حلمنا برحلة ممتعة؛ ففي جيوبها السرّية كنا نخبئ باسبوراتنا وشيكات مالك السياحية وبعض "الدينارة" و"اللافا" وغيرها من العملات الورقية الشيوعية. طامة كبرى أصابتنا بالصميم وتسللت إلينا من وِكر المفاجآت. فجأة طارت الذاكرة من رؤوسنا ونَسينا كيف وصلنا إلى الحديقة في المقام الأول. نسينا ماذا حلّ بنا، ولماذا كانت شُنطنا معنا أصلاً ولم تكن في الفندق مثلاً! بحثنا عن المحفظة في جيوب الملابس وتحت الصخور وحول الشجرة. لم نجد أثراً لها في جميع مقتنياتنا. عندها فقط اِستدركنا ما

خشيناه ضمناً! لا بد أننا تعرضنا للسرقة أثناء النوم. ربما كنا سكارى برفقة صبايا حسناوات مترصدات. وربما اِستُدرجنا إلى الحديقة تحت جناح العتمة لإختبار الستر والأمان بعيداً عن عيون المتطفلين. ربما خُدّرنا وفقدنا بصرنا ووعينا. وربما سُرقت منّا أشياؤنا قبل مجيئنا إلى الحديقة أصلاً. كانت هناك عشرات الإحتمالات، لكن المصيبة واحدة، إذ إننا خسرنا كل شيء نملكه وذهبنا بأفكارنا مع الريح...

ذاكرتنا لم تبح لنا بشيء مفيد. ربما، هي أيضاً، كانت تائهة تحت تأثير المخدرات أو السكر أو ضربة غدر على الرأس! لم يكن أمامنا سوى الإسراع إلى أقرب مركز للشرطة والبحث عن أشيائنا لديها في قسم "المفقودات والموجودات". تصرف تلقائي منطقي، لكن أن يستنجد الأجنبي بالشرطة في بلد شيوعي للبحث عن جواز مفقود واحد، مسألة بيروقراطية أمنية خطرة طويلة ومعقدة، فكيف بثلاثة جوازات مرّة واحدة؟ خِفنا من رجال الشرطة أن تساورهم ريبة حول هوياتنا وتصرفاتنا، أو الأسوأ أن نُتهم ببيع جوازاتنا لمواطنين رومانيين! المسألة، عندئذ، تصبح جريمة سياسية لتهريب مواطنين رومانيين، فتمسّ المصلحة العليا. بصرف النظر عن شبهات الشرطة ونوايا المخابرات، لم يكن أمامنا خيار سوى قول الحقيقة ووصف ما حلّ بنا، أقله حسبما كنا نتذكر.

ضُيّاع برعاية السادات؟

من دواعي الصدف أننا قبل يوم واحد من الحادثة، وبينما كنا نمرّ في أكبر ميادين بوخارست الشهيرة، إذ بالسادات فجأة يعبر أمامنا بموكب فخم مهيب مع الزعيم الروماني تشاوتيسكو (27 حزيران 1974م). كان منظر السادات، كالأسد المهيوب، مسترخياً بمقعد سيارة ليموزين "مرسيدس من طراز بول مان 600". ولا زلت أتذكر جيداً كيف في

ذلك اليوم شعرت بالفخر والإعتزاز أمام أصدقائنا الرومانيين، كما لو كنتُ مسؤولاً بنفسي عن ترتيب زيارة السادات إلى رومانيا! ومن حسن حظنا أن ذلك النوع من "المرسيدس" كان يتميز بنوافذ بانورامية عريضة ما جعل وجه السادات واضحاً لنا كوجه "أبو الهول" نفسه. ورغم أنها كانت مناسبةً عابرة، لكنها نحتت في ذاكرتي أشياءً كثيرة أيقظتها فيما بعد زيارة السادات إلى القدس. في تلك المناسبة - زيارته لبوخارست - لم نكن نعرف بعد ماذا كان يدور برأس السادات عقب حرب 73 وطرد السوفيات من مصر. كما لم نكن نعرف شيئاً عن وساطة رومانيا بين مصر وإسرائيل، ولا عن المباحثات السرّية التي كانت تدور بين الإسرائيليين والمصريين في بوخارست. لا بد أن العاصمة الرومانية في تلك الأيام كانت مزروعة برجال المخابرات والأمن والموساد والـ"كي جي بي" والـ"سي آي أيه" والـ"أم آي سِكْس"، فضلاً عن رجال صدام وعرفات والقذافي. وقد جاءت زيارة السادات بعد ثلاثة أيام فقط على تغير نظام الحكم في اليونان من الملكية إلى الجمهورية، ما كان له اِنعكاسات جدّية على مستوى دول البلقان وتركيا وحلف "الناتو".

كان التفاهم مع الشرطة أول عائق واجهناه منذ اللحظة الأولى. لغتهم "الإنجليزية" لم تحمل شيئاً من لغة إنجلترا أو مستعمراتها! بدتْ لنا رطانةً أوغارتية منذ أيام قدموس. وحتى لغة أجسداهم، كانت مبهمةً، كحركات الأخطبوط لم تتماشَ لا مع تعابير وجوههم ولا مع توقعاتنا. بدا منظرهم مضحكاً لنا بقبعاتهم الشيوعية المرتفعة جداً من الأمام كما لو كانوا شخصيات كاريكاتورية! لكن على طريقة الأفلام الأميركية الجدّية، فقد اِستجوبونا بغضب وشراسة، كلٌ منا على حدة، خاصة أن البلد يومئذ كان يشهد زيارة اِستثنائية من رئيس أكبر دولة عربية؛ فبالنسبة للشرطة، كنا مواطنين عرباً بـ"الإدعاء"، إذ لم يكن لديهم أي

دليل على جنسياتنا الحقيقية أو ميولنا السياسية أو مآربنا. ومن يدري، فلربما كنا بالنسبة لهم جزءً من حلقة تمويه، أو خلّية فدائية، أو أي شيء سرّي مريب! اِستغرقوا ساعات طويلة بِاستنطاقنا، ولما فرغوا منا، جمعونا معاً بصالة المخفر وكتبوا تقاريرهم عنا - بالرومانية طبعاً. في تلك الأيام لم تكن هناك آليات للترجمة الفورية كما هو اليوم في تطبيقات الهواتف أو "غوغل"، ناهكيم أنه، وبعكس الإسبانية، أو البرتغالية أو الفرنسية أو الإنجليزية أو العربية، فإن اللغة الرومانية لم تكن تستخدم في العالم كله إلا في رومانيا فقط، (مولدوفيا آنذاك، لم تكن قد اِستقلت عن رومانيا بعد).

عندما اِكتملت تقارير رجال الشرطة، طلبوا منا التوقيع عليها وعلى المستندات المرفقة. الملفت فعلاً أن تقاريرهم اِنطوت أيضاً على جداول ورسومات بيانية لم نفهم رموزها ولا مصادرها أو دواعيها، دعكم عن دقتها وقانونيتها؟ ولما أنهوا التحقيق معنا، طلبوا منا إبلاغ سفاراتنا فوراً في اليوم التالي، وأعطونا ما يشبه رسالة رسمية تعريفية من نوع "لمن يهمه الأمر"، بالإضافة إلى قسائم تشبه ورق اللعب وتحمل شعار الدولة. وقد فهمنا منهم أنها كانت "كوبونات" حكومية ذات قيم مالية لغرض اِستخدامها في "بيت الشباب" والضيافة *"YMCA"*. وهكذا، أصبحنا "ضائعين" مكتومي القيد والهوية بضيافة الدولة الرومانية ورعاية السادات حتى إشعار آخر. "بيت الشباب"، على ما أتذكر، كان يقع وسط العاصمة بالقرب من ساحة "الليدو"، حيث بؤر الإثارة واللهو والترفيه. وهو أقدم النوادي الشبابية في أوروبا، ويعود الفضل في تأسيسه قبل الحرب العالمية الأولى إلى ملكة رومانيا اللعوب، ماريا، (الإنجليزية الأصل). فمنذ لحظة تنصيبها عام 1917م، صارت الملكة حديث المدينة وقدوةً للموضة والتحديث وإيقونة اِجتماعية. فكان من السهل عليها، يومئذ، أن تستقدم لمملكتها

أول *"YMCA"* خارج الولايات المتحدة. ومع أن النِزل كان أشبه بحمام بلا ماء، إلا أنه كان تحفةً شبابية ثقافية ضمّ كل ألوان البشر والأعراق والأديان. طبعاً لم يكونوا كلهم نزلاء على حساب الدولة ولا بضيافتها، لكن كان واضحاً أنه كانت لها فيه عيون وآذان.

تحت الرقابة..

الشرطة الرومانية أمرتنا بمراجعة المخفر المركزي صباح كل يوم. كانت تلك طريقتهم ليس فقط للتأكد من تعهدنا البقاء داخل العاصمة، لكن أيضاً (وللمفارقة) الحصول منهم على مصروفنا اليومي وقسائم الإقامة! لم يكن لدينا أدنى فكرة عن مدة ذاك الروتين الجديد وعما كان سيحدث لنا خلال الإقامة الجبرية؟ في الحالتين، كنتُ أنا وغبريال في غاية السرور بتلك الترتيبات الإجبارية على نفقة الحكومة. إلا أن ابن عمي، مالك، بدا قلقاً جداً من أوامر الشرطة بضرورة إبلاغ السفارة. فالرجل "رَوكب" وإرتبك وأخذ يرتجف من عواقب الإبلاغ عن جوازه. بدا شاحباً مريضاً، كما لو كان مُساقاً إلى حبل المشنقة! "ما خطبك يا مالك؟". سألناه بقلق وفزع، فرد بصوت مشروخ: "لا أستطيع الذهاب إلى السفارة العراقية، لأنهم لو عرفوا أني فقدت جواز السفر لذبحوني". انفجرتُ أنا وغبريال من الضحك، غير مصدقين أن في العالم سفارة ممكن لها أن ترتكب مثل تلك الحماقة؟ (كان ذلك قبل حادثة الخاشقجي في إسطنبول بخمسين سنة!).

وعلى سذاجتنا وعفويتنا، حاولنا قدر الإمكان تخفيف وطأة الوهم عن مالك، وأفهمناه أن السفارات عادة تقدم المساعدات إلى مواطنيها المأزومين، وليس لإبتزازهم أو قتلهم! مالك، يومها، كان ضحية الترهيب الدائم والإخضاع المستمر من قبل نظام صدام حسين

الإستبدادي. لا أنا، ولا غبريال، القادمَين من لبنان الديمقراطي، كنا قادريَن على فهم جبروت نظام البعث العراقي أو تقبله. صحيح أني كنتُ أحمل جواز سفر عراقياً مثل ابن عمي، إلا أنني وقتها لم أكن قد زرتُ العراق في حياتي، ولم تكن لدي أي فكرة عما يعنيه أن يكون المرءُ عراقياً، دعكم أن يكون عراقياً على أيام صدام! وهكذا، لم أكن قادراً على التعاطف مع مالك، أو مشاركة قلقه على حاله وخوفه من السفارة العراقية! أما هويتي كـ"قاصر" عراقي يسكن مع أهله في بيروت، فلم تكن في تلك الأيام تعنيني. كانت من اِختصاص دائرة شؤون الموظفين في شركة والدي في لبنان. إذ كانت هي التي تهتم بالأمور القانونية للعائلة، والإقامة وتجديد جوازات السفر وما إلى ذلك. في تلك الأيام كنتُ ما أزال بعهدة أهلي وعلى بضعة أشهر من بلوغ السن القانونية. كان باسبوري أيضاً ما يزال بعيداً عن موعد تجديده بسنة كاملة تقريباً. ورغم معرفتي بتلك التفاصيل العراقية، كنتُ أجهل أهميتها، لا سيّما أنني لم أشعر يوماً بشيء يختلف عن مشاعر غبريال تجاه العراق، أو شعور أي لبناني تجاه لبنان. الأمر معي لم يكن رومانسياً وجدانياً كما كان مع إبن عمي، ولم أكن أفكر بالباسبور أكثر من مجرد وسيلة للسفر، تماماً مثل تذكرة الطائرة أو تذكرة القطار. كنتُ بريئاً ساذجاً ومرتاحاً على وضعي بِاعتبار أني كنتُ مواطناً لبنانياً وليس مواطناً من العراق!

الصدمة الكبرى!

في صباح اليوم التالي، ذهبتُ وابن عمي إلى السفارة العراقية. بعد التحيات والمجاملات أصعدونا لمقابلة قنصل العراق في الطابق العلّوي. كان مهذباً للغاية دمثاً بنبرة لبقة وممتعاً بحديثه إلينا رغم توتر مالك واِصفرار وجهه. بكلامه المنمق وتعابير وجهه المسالم، أوحى

لنا بتفهمه الأبوي وتعاطفه! لكن ما إن بدأ بشرح إجراءات المَخرج المنشود، حتى تغيّرت نبرته فجأة، وتبخّرت اِبتسامته على سخونة التعقيدات. فهمنا منه أنه حتى لو أصدر لنا جوازات سفر جديدة، فإن السلطات الرومانية لن تسمح لنا بمغادرة البلاد قبل أن تقتنع، هي أولاً، أننا لم نبع جوازاتنا لأحد، أو نقايضها على شيء، أو نتلفها بأنفسنا! واِستباقاً لأسوأ السيناريوهات، طلب القنصل منا أن نحضر له أربع صور شمسية مرفقة بنماذج طلب جواز سفر مؤقت "لاسيه باسيه" يُستعمل للسفر إلى العراق لمرة واحدة. بدا واضحاً من نبرته المتغيرة أنه لم يكن على اِستعداد للمساعدة بأي طريقة أخرى. بل من رعونة تقديره أنه لم يعرض علينا حتى تغطية رسوم الصور الشمسية، ولم يهتم بالحالة الإستثنائية لوضعنا المالي أصلاً. كان حدث السفارة بالنسبة لي صدمة وجدانية كبرى، فقد شعرتُ وكأني اِكتشفتُ خدعة مبيتة من والدي! لم أفهم لماذا يُطلب مني السفر إلى العراق ولم أكن عراقياً، لا بوعيي ولا بضمري! حزم القنصل وخوف ابن عمي، لم يتركا لي مجالاً للتوسع بأسئلتي. مَن يدري، ربما كان القنصل مشغولاً عنا بمتابعة زيارة صدام إلى ليبيا، إذ إن لقاء القذافي وصدام في طرابلس آنذاك كان غرضه الأول "الأوطبة" (العرقلة واللفّ) على اِستدارة السادت ومنعه من التحوّل إلى معسكر الغرب. أما على المقلب الآخر مع غبريال، فلم تختلف روايته مع السفارة اللبنانية عن روايتنا لا شكلاً ولا مضموناً، كما لو كان قنصلا لبنان والعراق قد نسقا سلفاً ضدنا!

وكيفما نظرنا إلى المسألة يومها، وقلّبناها على اِعتبارات واِحتمالات، وجدنا أنفسنا في مأزق خطير لم نعرف الخروج منه أو التعاطي معه! إلا أننا في نهاية المطاف تصرفنا كالنعامة وتجاهلنا طلب السفارتين معاً واِتكلنا على الله في العثور على الجوازات!

كروش وأمعاء

كان الوقت يمرّ ثقيلاً علينا بالهواجس والظنون. وكعادتنا في تجاهل الإشكالات، درّنا نحو صداقاتنا مع الصبايا، وسرعان ما اِنتقلنا للسكن مع إحداهن (أنطونيا) إلى منزل أمّها. لكن في الأثناء تظاهرنا بالبقاء في بيت الشباب *"YMCA"* لغرض الإمتثال لتعليمات الشرطة. أمّ أنطونيا كانت أرملة صبية، ولسبب لم نفهمه، لم تُعارض وجودنا مع ابنتها في بيتها، ولم تعترض على حشريتنا وعلى الفوضى في بيتها والإزعاج. لا، بل عاملتنا بأفضل من معاملة أمّهاتنا. كانت تقوم مع طلوع الفجر لتحضّر لنا وجبة الفطور قبل أن تغادر إلى عملها. "الترويقة" كانت معتبرة، وتتألف من رقائق الشوفان والبيض المسلوق والأجبان (الصخرية) البلدية والزيتون وأنواع الخبز. وما زال طعم الحليب البلدي الطازج الدسم يغازل شهيتي ويلامس لساني إلى اليوم. ورغم كسلنا ونومنا الثقيل، كنا نصحو معاً على صدى إغلاقها الباب ودعساتها تتلاشى في الخارج.

أما في نهاية الأسبوع، فكانت أمّ أنطونيا تطهو لنا "يخنات" رومانية تقليدية وأنواعاً من محاشي الدولما النمطية. أتذكر مرّة - ولدهشتي الكبيرة - أنها أعدّت لنا ما لم يخطر على البال. طبخت طبقاً من كروش البقر والأمعاء مع الرز والحمص. وهي أكلة مقززة وصعبة التنظيف والتحضير! وما أذهلني فعلاً كيف لهذا الطبق الوضيع أن يصل من بلاد الشام إلى رومانيا ويحظى فيها بشعبية عريضة. لا بد أنه لم يصلها ويمكث فيها لولا اِستهال الناس الحصول على مكوناتها من بقايا الذبائح! والطبق في بلادنا ينتشر عادة في القرى والبلدات النائية أكثر منه في المدن. وفي إحدى المرات اللاحقة لزيارة رومانيا بأعوام كثيرة، كُتب لي (أو عليّ) أن أتذوق النسخة الإسكتلندية منه عندما زرت أدنبرة، ويسمونه عندهم "هاكيس". وكما في بوخارست،

فوجئت بمكانة الـ"هاكيس" ومعرفة الناس به. وهكذا، تذوقته أيضاً في تركيا (أضنة)، وفي بلاد الأندلس (ملقة)، وفي البرتغال (ماديرا)، وإن بنكهات وتسميات مختلفة! والطبق العجيب هذا، مكون من بقايا أعضاء المواشي، وهو من أقدم الأكلات العالمية الشعبية ولا يخصّ منطقة جغرافية بذاتها. ومَن يدري، فلربما اِبتُكر في معظم القرى البالية تحت نفس الظروف التعيسة حيث الفقراء كانوا يأكلون بقايا ما كان يُطبخ للأثرياء من لحوم وحبوب! ومَن يدري أيضاً، فقد يكون الإسكتلنديون والرومانيون والإسبانيون والبرتغاليون والأتراك قد اِستعاروا خلطة فضلات الكروش من الكنعانيين الأوائل، أو الحثيين، أو أنها وصلتهم عن طريق "أوغاريت" أو اليونان منذ 3000 عام؟ لكن "هاكيس" أو لا "هاكيس"، أوقاتنا في بوخارست، خاصة في بيت أمّ أنطونيا، كانت أمتع ما قضيناه على الإطلاق. فعلى المستوى الشخصي، ورغم مشكلة جواز السفر، كنتُ مُحَرَّراً تماماً من أي إجهاد أو قلق، خاصة أنه لم يكن هناك موسم دراسي يلوح في الأفق، ولا أبَوَان ينتظران عودتي، أو أي أعباء تذكر. كان جهلي بالعواقب أمراً مُحَرّراً.

جائزة ترضية؟

بعد 10 أيام تقريباً على حادثة الجوازات، عثرتْ الشرطة (بقدرة قادر) على محفظة الغَلّة واِستدعتنا إلى التحقيق من جديد. وبعكس المرّة الأولى، جمعونا معاً في غرفة واحدة وكرروا علينا تقريباً نفس الأسئلة الأصلية، أين وكيف ومتى إلخ. كان اِستجوابهم تلك المرّة شكلياً أكثر منه جدّياً، وكأنهم كانوا يعاودون مراجعة ملاحظاتهم وليس مراجعة أقوالنا. بدوا لطفاء ومرتاحين معنا، لا سيّما أننا نحن أيضاً تعودنا عليهم وكنا نبادلهم يومياً بكلمات رومانية تعلمناها من الصبايا مثل،

"شكراً"، و"نعم"، و"لا"، وما إلى ذلك. فجأة بدون مقدمات ومحاضرات أو توبيخات، سلّمونا المحفظة بدون أي خدش، وطلبوا منا التأكد من محتواها. كل شيء كان بمكانه الأصلي، كما لو أن المحفظة لم تفتح بالمرّة. لكن يا للهول، ويا لهول الصدمة، فقد وجدنا فيها من الليرات التركية والدينارة اليوغسلافية أكثر مما كان معنا أصلاً، فضلاً عن بضع دراخمات يونانية؟ لم يكن هناك مجال للخطأ إطلاقاً لأننا كنا نعرف بالفلس والقرش المبلغ الإجمالي الذي بدّلناه في بيروت، ناهيكم أننا لم نحمل أي دراخما يونانية أصلاً، إذ لم تكن اليونان على لائحتنا من الأساس. ثم إن المحفظة نفسها لم تفارقنا لحظة واحدة منذ غادرنا بيروت، لا بل من كثرة تفقدنا لها خلال السفر، عرفنا كل التفاصيل فيها حتى عدد الغرز والدرزات حول جيوبها. وهكذا، تراقصت علامات التعجب والإستهجان على وجوهنا، وأبدينا إستغرابنا للشرطة وشرحنا أسباب ظنوننا، لكن الشرطة تجاهلت أقاويلنا وأكدت أن كل ما في المحفظة كان لنا، ولنا وحدنا! كان تفسيرهم طريفاً، وهو أن "صدمة الأيام" التي قضيناها نفكر بمصيرنا وجوازاتنا ربما أثرت على ذاكرتنا؟ لكن حتى وإن كان تفسيرهم صحيحاً، فكيف بقدرة قادر لم تختلف ذاكراتنا نحن الثلاثة عن بعضنا البعض حول فلس واحد؟

أغلب الظن أن رجال الشرطة كانوا مخادعين. ربما أرادوا إختبار صدقنا وأمانتنا كخطوة أخيرة قبل إنهاء التحقيق وإغلاق الملف! ربما أرادوا منحنا فوائد يومية على مالنا الأساسي من باب التعويض أو التكريم؟ لم يكن غرضنا إطلاقاً أن نبدو صادقين معهم، كنا فعلاً صادقين ومأخوذين بالمبلغ الإضافي! رُزقنا من حيث لم نحسب وأخذنا الجَمل بما حَمل ووقّعنا على وصولات إستلامه باللغة الرومانية وودّعنا رجال الشرطة. من يدري، ربما تعمّدوا منحنا المال الإضافي كلَفتة إنسانية، أو بدل الإزعاج الذي "عانينا" منه خلال فترة الإقامة

الجبرية. لم نكن ندري إنْ كانت الشرطة على علم بمغامراتنا الصبيانية في بيت أمّ أنطونيا أم لا؟ بل مَن يدري، ربما كنا نحن الغافلين عن تحرياتهم ومراقبتهم لنا...

في اليوم التالي أسرعنا، كلٌ إلى سفارة بلده - وأبلغنا موظفيها بحصولنا على جوازاتنا! بدأنا نستعد للرحيل و"لحفلة" الوداع! لم تكن حفلة بمعنى الكلمة، إنما كانت ندباً ونحيباً وبكاءً. كلنا كان عاشقاً ومغروماً! كنا ضحايا الحبّ من أول نظرة. لكن كيف يكون الحبّ من أول نظرة ممكناً مع دزينة بنات مرّة واحدة؟ الواقع أننا لم نحب، ولم نكن نعرف ما ينطوي الغرام عليه من هوى وضياع! فمِن طرفنا، لم يكن بكاؤنا حسرة على فراقهن، بل حرقة على وصول الأمور إلى خواتيمها، وعلى توقف المتعة المجانية والخرجية اليومية واِهتمام الكل بنا. أما من طرفهن، فحزنهن كان أشد وأقوى لأنهن لم يتمكنّ من "وضع اليد" على سلاسلانا الذهبية وخواتمنا الفضية، أو حتى على شيء من ملابسنا. أشياؤنا كانت ثمينة بنظرهم وأشياؤهم كانت جميلة في نظرنا. والمناسبة لم تكن فعلاً حفلة فراق، بل مجرد اِنتهاء فصل من فصول مرحلة جميلة من مراهقتنا. القاسم المشترك بيننا جميعاً لم يكن يومها مرتبطاً بالشرق أو الغرب، بل بشغف الشباب وحبّ المغامرة والحياة.

بولندا عالم آخر

غادر مالك إلى بغداد، ورجع غبريال إلى بيروت، وسارعتُ أنا إلى بولندا.. فجأة، بغياب الرفاق، شعرت لحظة الوصول إلى وارسو بالوحدة والتعب والملل. كان الطقس في مطلع تموز متقلباً وممطراً، وبدا كل شيء مظلماً وكئيباً. وما إن وصلتُ إلى بيت الشباب *"YMCA"* البولندي وسط العاصمة، حتى أُصبت فجأة بنزلة برد قوية.

فقد سقطت على صدري كالبرق، وطرحتني عليلاً على حافة الهلوسة، فنُقلت على أثرها إلى المستشفى الحكومي حيث مكثت يومين كاملين. وتحت العناية الفائقة، تأرجحتْ حرارتي بالدقيقة الواحدة بين برودة القطب الشمالي وسخونة الربع الخالي، وكادت تصيبني بالخرف والهذيان. ولغاية اليوم لا أدري لماذا سُرّحت من العناية، وكنتُ ما أزال مُهَلوِساً..

بعد التعافي، أطلقتُ العنان لجولاتي في شوارع وارسو الممطرة، فإذا بها تكشف لي عن ملامح مُحيّرة وتُعطيني الإنطباع أنها كانت ما تزال تنفض عنها غبار الحرب العالمية الثانية. ومع ذلك، كان هناك تناقض صارخ في معالم المدينة، بين وارسو القديمة التي أُعيد بناؤها بشق الأنفس، وبين المباني الجديدة التي شُيّدت، أو تلك القديمة التي رُمّمت لتواكب العصر الجديد والطراز الغربي، مثل قصر الثقافة والعلّوم تحديداً. كان القصر بمعيار ذلك الزمن ناطحة سحاب مهيبة من الحقبة السوفيتية، ومعلماً بارزاً ومثيراً للجدل بين البولنديين. ورغم قِدمه، كان يرمز إلى هوية المدينة المستحدثة والمعقدة بعد الحرب. لا بد أن الزائر مثلي شعر يومها وكأن المدينة كانت تتأرجح بين الخشوع التاريخي وبين الديناميكية الحضرية الناشئة، مع فخر واضح بتاريخها العريق وتصميمها الأكيد على إعادة البناء والمضي قدماً. كان من السهل حتى على شاب مثلي التنبّؤ بما كانت بولندا تحاوله في الهروب من سلطة السوفيات، وكيف كانت تحضّر نفسها لتكون في موقع عصري عالمي؛ فالإنطباع العام يومها كان يوحي بمدينة تنوي خلق هوية حديثة لها....

"مِنْكْ" أم "ثعلب"؟

أمّي كانت في تلك الأيام مغرمة بجلود الحيوانات، وكان عندنا منها الكثير في لبنان (؟)!! إلا أن فرو الثعالب والمِنك والدببة كان نادراً وغالياً. معاطف الفرو كانت يومئذ موضة دارجة في أنحاء العالم، وكانت في بيروت خلال فصل الشتاء تعرض على أجساد الفنانات وزوجات السياسيين ونساء الطبقة البرجوازية في شارع الحمرا. كان ذلك قبل ظهور جماعات البيئة وحماية الحيوان ومنظمات محاربة المتاجرة بأعضاء البشر. كلها جمعيات عالمية (إحتكارية) قامت أساساً لتنظم اِستغلال التجارة بين الدول، وليس لمحاربتها أو منعها. و"بفضل" هذه "الجمعيات الحيوانية"، صارت هذه السلع متوفرة ليس فقط في أماكنها الطبيعية كما كانت منذ 50 سنة، وإنما في كل عواصم العالم وبأسعار خيالية. ولأن المِنك كان متوفراً أكثر من غيره في بولندا، فكان أرخص فيها مما كان في دول العالم الحرّ. لذا، كانت تلك فرصتي لأشتري معطفاً منه لأمي، لا سيما أنها لم ترتد من قبل سوى ذيل ثعلب عجوز. لكن يومها لم يخطر على بالي أني كنتُ سأجعل أمّي تنتظرني 25 عاماً أخرى. كان معي البعض اليسير من العملة البولندية (الزّلطي) التي كنا قد غيرناها في بيروت، لكني اِكتشفت فجأة أنها كانت عديمة القيمة والفائدة في وارسو؛ فبعكس بلغاريا ورومانيا، كانت بولندا تفرض على الأجانب (باستثناء مواطني الكتلة الشرقية) الحصول على "الزّلطي" فقط من خلال تبديل العملة الصعبة في بنوكها على السعر الرسمي. وهكذا، لم تنفع "زلطاتي" إلا لشراء نثريات من سوبر ماركت وتذاكر متاحف ونقل محلي. بل لم تكفني حتى لمغادرة بولندا، لأن الإنتقال إلى خارجها كان يتطلب من الأجنبي تحويلاً رسمياً من البنك لشراء التذكرة على السعر الرسمي. اِنكسر خاطرني واِنفطر قلبي وحزنت على أمّي!

كان لا بد من التدبّر والتصرّف. فبدل أن أشتري، بِعْت! وبثمن سلسلتي الذهبية، وكانت سميكة من عيار 18، تمكّنت من شراء تذكرة العودة إلى بيروت على الخطوط البولندية! يومها فقط عرفت لماذا تحتاط الدول وتحمي مصائرها بتخزين الذهب في بنوكها المركزية. لم يكن الذهب قدس الأقداس فقط في الدول الشيوعية، وإنما أيضاً على الكرة الأرضية كلها رغم الظهور اللاحق لمنافسات شرسة وعملات اِفتراضية ورقمية. وقد أظهرت السنون الطويلة منذ أيام خوفو وخفرع أن معدن الذهب اِجتاز اِختبار الزمن، وحيّد كل الحواجز وتصدّى لكل العراقيل وتفوق عليها. لذا، فالذهب دليل آخر على تنافس المصالح الإستراتيجيّة بين الشرق والغرب، فضلاً عن اِلتقائها على بقايا الحيوانات (الكروش) وعلى الأسماك والجلود والعاج والفرو واللؤلؤ وغيرها، ناهيكم عن اليورانيوم والمعادن النادرة والديناميت. الولايات المتحدة، مثلاً، لم تعد اليوم تهتم كثيراً بعرض عضلاتها واِستعراض قوتها، بل صار يهمها اِحتكار الموارد الطبيعية النادرة لأغراض التكنولوجيا والذكاء الإصطناعي أينما وُجدت في العالم، وإن كلفها ذلك شراء دول بأكملها مثل غرينلاند، أو خطف رؤسائها كفنزويلا، أو تغيير أقدارها كأوكرانيا!

الفصل الخامس: على طريق جهنم

رحلة الألف ميل

وصلتُ إلى بيروت في التاسع من تموز (1974م) بعد غياب طويل. ورغم حرارة الصيف الحارقة وذروة موسم السياحة، كانت العاصمة تموج بالتناقضات الإقليمية المعتادة بين الشرق والغرب! والمواجهة في المنطقة عموماً كانت محتدة بين القومية العربية وبين الإسلام السياسي، أي بين التيار الإسلامي اليميني وبين الخطّ العروبي اليساري. أما في لبنان، فالقوى اليمينية (الكتائب والأحرار والمَردة) كانت تحضّر نفسها وتستعد لمواجهة الهيمنة اليسارية التي كان كمال جنبلاط يترأس لواءها مع القوى الفلسطينية. ومع أن المواجهة في أيامها الأولى بدت هادئة على السطح، فإن رياح التغيير كانت قد بدأت تنفخ في جمر التحالفات المتناقضة بين اللبنانيين أنفسهم. والدي، يومئذ، لم يكن في بيروت، وأمّي ظنّت أني عدت توّي من رحلة الكشافة في جبل لبنان.

الصراحة أن مشواري مع مالك وغبريال فتح شهيتي على المزيد من المغامرات. فالصيف كان ما يزال في أوله، والشوق إلى ليالي بلغاريا ورومانيا كان في أوجه. وهكذا، لم يأخذ الأمر معي أكثر من يومين فقط وكنتُ على أبواب السفارات اِستحصل على التأشيرات مرّة أخرى لكن بدون مرافقة من أحد تلك المرّة. كل شيء جَهَز من جديد واِكتمل معي إلا التمويل. بيد أن الأبواب لم تُصدّ بوجهي كلياً على "صدقة" من أخي، و"سلفة" من ابن خالتي، و"دين" من خالي، و"إكرامية" من أمّي. ومع أن مجموع التبرعات لم يتجاوز 40 دولاراً فقط، إلا أنها كانت كافية للخطوة الأولى في المغامرة الثانية، لا سيما أنني لم أخش

الزحف على الطريق الطويل على مبدأ "وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا".

تلك المرّة، وإن لوحدي، كنتُ ملماً بالطريق إلى أوروبا ومدركاً للتحديات وعلى دراية ببيوت الشباب والعادات والتقاليد. فقاربت التحضيرات واِستبدلت غَلتي بعملات شيوعية، ولم يبقَ أمامي إلا موعد الإنطلاق وساعة الصفر. وأي خطأ بسيط في التوقيت كان من شأنه أن يؤدي إلى إلغاء رحلتي من أساسها. وعندما سنح لي التوقيت المثالي، كنتُ مستعداً للرحلة اِستعداد الرضيع لثدي أمه. ذلك أن سوابقي مع السياح على شواطئ بيروت وفي حاناتها، وما كنتُ أعرفه عن الغرب من خلال الأفلام الأميركية والدعاية الشيوعية، فضلاً عن مغامراتي مع مالك وغبريال، كلها أعطتني شيئاً من الثقة بالنفس والجرأة على الإستهتار والتسرّع على التهوّر..

دقتْ ساعة الصفر. فقمت باكراً ومشيتُ مع المبكرين مسافة 10 دقائق ممتعة إلى وسط بيروت. هناك اِشتريت منقوشة زعتر من أول فرن صادفته بالقرب من كاراج "الأحدب" الشهير في ساحة الشهداء. كانت مواقف الباصات آنذاك تخدم البلدات الجنوبية والشمالية وجبال لبنان، فضلاً عن سيارات الأجرة للسفر البعيد إلى دمشق وعمان وبغداد. ركبتُ على أول حافلة متجهة إلى الشمال. أخذتُ مقعدي في الصفّ الأمامي خلف السائق مباشرة، وكنتُ فرحاً بالمشوار فرح السجين بحريته. كانت مدينة طرابلس أول توقف لي بعد بيروت، وهي ثاني أكبر المدن اللبنانية بعد العاصمة ولها تاريخ طويل يعود إلى القرن الثالث عشر قبل الميلاد. وخلافاً للاِعتقاد الشائع، لم يكن للفينيقيين أي علاقة بالمدينة قبل القرن السابع ق.م. ذلك أن البحث عن الموانئ الجاهزة سِمة فينيقية (ماركة مسجلة) تحمل بصمتهم الجينية بِامتياز، وليس مستبعداً أنهم اِختاروا طرابلس الغرب قبل طرابلس لبنان حيث

وجدوا فيها ميناءً طبيعياً مناسباً. الفينيقيون، ومنذ أيامهم الأولى، لم يضيّعوا أوقاتهم في إنشاء موانئ لمراكبهم. كانوا يريدون أشياءً جاهزة، ودوماً يتصيدون النتوءات الطبيعية بين التضاريس المحمية ويعاينون الأرصفة الصخرية المناسبة. كانوا يقفزون بين الموانئ الطبيعية كما تقفز العصافير بين الأغصان إلى أن صاروا خبراء في "النطنطة" وبحّارة على المتوسط بلا منازع. ومن مزاياهم الأخرى، بالمقارنة لغيرهم آنذاك، أنهم كانوا يُبحرون جماعات متفرقة، وليس كأسطول بحري موحّد، ما كان يمنحهم السرعة والمرونة للتدبر والمناورة.

فيحاء الشمال

وهكذا، نمتْ طرابلس واِستمرت بالتألق بعد الفينيقيين. وخلال اِنتقال حكم الشرق من البيزنطيين إلى الأمويين، أُطلق على المدينة إسم "ترابلس الشامية" لتمييزها عن "ترابلس الغربية" في ليبيا. وربما خلال العصر الأموي نفسه نُعتت طرابلس أيضاً بالفيحاء لأنها - حسب الرواية التقليدية – حاكتْ بجمالها وتقاليد سكانها مدينة دمشق، التي كانت، هي الأخرى، مهداً لثقافات وأديان متنوعة. طرابلس تدين بتاريخها العريق وشهرتها الواسعة (بالإضافة للفينيقيين) إلى تشكيلة الأقوام التي وصلتها، سواء عن طريق البحر أو البر، كالفرس، واليونانيين، والرومان، والفاطميين، والصليبيين، والسلاجقة، والعثمانيين. فلا عجب أن وصلتْ المدينة إلى ذروتها عام 1115م، وصارت عالمية بِامتياز تحتضن العديد من العقائد والثقافات واللغات والأعراق. وبعد 180 عاماً من السيطرة الصليبية الغربية المباشرة تقريباً، اِستعادت طرابلس نكهتها الشرقية عندما أُجبر الصليبيون على الخروج من شرق المتوسط. ومن يومها، بقيتْ المدينة بأيدي

المسلمين حتى نهاية الحرب العالمية الأولى وإنكسار العثمانيين. وقد مرّ عليها من المسلمين قبلهم، الأمويون والفاطميون والسلاجقة والمماليك. ورغم وجود العديد من المحتلين ذوي الخبرة العسكرية والخطط اللوجستية، إلا أن النفق التاريخي (شكا) الذي يربط اليوم مدينة طرابلس ببقية الساحل اللبناني لم يكن قد بُني بعد رغم الأهمية الحربية لكل الغزاة، ورغم وجود قاعدة معاوية العسكرية التي بناها على بحر طرابلس. وهكذا، بقي الشمال مفصولاً عن لبنان إلى أن بدأ العثمانيون بشق الطرق بغية تخفيف العناء عن بغالهم وخيولهم عام 1904م. وبعدها تغلغل "الحلفاء" أثناء الحرب العالمية الأولى وتم توسيع النفق لاحقاً والعمل عليه بشكل حصري مشترك بين فرنسا وبريطانيا. قلوب "الحلفاء" لم تشفق على الحمير والبغال والخيول، إنما كانت تخفق لبناء أول سكك حديدية لأغراض عسكرية بين لبنان وسوريا وفلسطين. كان ذلك إجراءً ضرورياً منافساً لمشروع دول "المحور" بمدّ القطار الألماني عبر تركيا وسوريا إلى بغداد.

ورغم أهميتها كمدينة ثانية بعد بيروت، فإن طرابلس معرّضة اليوم للإنزلاق على سلالم التاريخ مرّة اخرى؛ ففي معرض أحداث السويداء في "زمن الشرع" (2025م)، مثلاً، تردد ما مفاده أن أحداً من النظام السوري الجديد طلب من أحدٍ في النظام الإسرائيلي مقايضة طرابلس لقاء الجزء الأكبر من الجولان؟ ورغم عواقب الخبر وخطورته، فإنه لم يحرّك ساكناً مع الطرابلسيين وإعتبروه مزحة سمجة. غير أن بعض الموارنة القدامى تمنّى أن يحمل الخبر في طياته بوادر إستقلال مجيد لجبل لبنان. آخرون رأوا فيه دلالةً على تقسيم المنطقة تمهيداً لتوسيع نفوذ إسرائيل بموجب نيّة التطبيع العام تحت إدارة ترامب. الملفت أن البعض النبيه من اللبنانيين حذّر من أن فصل طرابلس عن لبنان لصالح سوريا، قد يجعل سوريا أكثر فينيقية من لبنان بعدد المدن الفينيقية على أراضيها، وهذا، بدوره، سيُحْرم موارنة

لبنان الإدّعاء بالرابط الفينيقي الحصري، خاصة إذا ما اِنكفئوا مع الدروز في جبل لبنان. وهذه مسألة عويصة لا تحمل اللعب بالعواطف، ولا تتحمل أن تُترك لأهواء القُصّر والإنعزاليين. لكن ما لم ينتبه أعيان لبنان إلى حماقاتهم ويخففوا من نرجسياتهم، فقد ينزلق لبنان كله إلى الثقب الأسود حيث تركيا وإسرائيل تتربصان به بعد تضعضع الجدران السورية..

وَحْداني أعيش!

ومن طرابلس إلى الحدود السورية، وصلتُ في منتصف النهار إلى نقطة "العريضة". اِستراحة سريعة ومشوار قصير وفجأة طلّت عليّ طرطوس. إنها عروسة ساحلية على مرمى حجر من جزيرة "أرواد" الفينيقية الشهيرة. وبعد مسافة قصيرة أخرى، وصلتُ منها إلى بانياس، فمرّيت بها مرور العابرين إلى اللاذقية. ومع أن المسافة المتبقية إلى الحدود التركية لم تكن أكثر من 50 كلم تقريباً، فقد كانت الأصعب والأبطئ في ذلك اليوم الطويل. إذ إني اِختبرت على الطريق إليها أشياءً عجيبة، وصعدتُ خلالها على أسطح مركبات من كل الأنواع: صهاريج ماء، وخلّاطات باطون، وحناطير كاز وغيرها. بل إني تسلّقت على شاحنات خِراف ودواب ودجاج. كما تعلّقت بجرارات الخيار والفقوس والخضار، و"فانات" صغيرة لسلال الفاكهة والمونة على أنواعها. كانت وسائل النقل التي اِختبرتها لأول مرّة في حياتي أكثر من كل العملات الشيوعية التي كانت في جيبي آنذاك..

وصلتُ مرهقاً إلى "كسب" على الحدود السورية - التركية. بلدة أرمينية على الجانب السوري تعود إلى العصور الوسطى. كانت عقارب الساعة قد تجاوزت الثامنة مساء، ولم أصدق حقيقة أني

وصلتُ إلى حدود تركيا في نفس اليوم الذي غادرتُ فيه لبنان! كان إنجازاً عظيماً لمسافر مبتدئ وحده على طريق التوسّل و"الأتوستوب". ورغم صغرها وإنزوائها في قرنة منسية على المتوسط، تملك "كسب" مفتاح باب الفصل رسمياً بين لغتين وشعبين وثقافتين. ففيها، غمرني شعور الإنجاز الأول بالإنتقال من حضانة العرب إلى حضن الأتراك! وشعرتُ على حدودها أن مغامراتي الحقيقية كانت على وشك البدء والبداية. فبعد إنهاء معاملات العبور، وكانت سلسة وسهلة، أخذتُ أفكر كيف سأقطع 50 كلم أخرى خلال الليل إلى أقرب مدينة تركية وراء الحدود. وبعد حساب المسافة على قياس آخر خمسين كلم قطعتها من اللاذقية إلى كسب، قدّرت وصولي إلى أنطاكيا مع منتصف الليل. فتوكلت على الله وبدأت المشي نحوها، وهي اليوم معروفة باسم "هاتاي". ورغم أن الطريق إليها دولي سريع، لكن يومها لم يكن مزدحماً إلا بالأشباح والكلاب الشاردة، ولم يكن مُضاءً إلا بعيون القطط والزواحف الصغيرة. بدا خالياً من زحمة الشاحنات والسيارات وأطول من أي طريق قطعته بين مكانين في كل حياتي! وما إن تجاوزتُ بضعة كيلومترات من الحدود السورية التركية حتى أدركت (يا للهول والهبل) أني كنت أمشيها رجوعاً إلى الأراضي السورية، وليس تقدماً بإتجاه أنطاكيا نفسها! فعدلت من مساري لإلتقي بواوي صغير (جرو) وجهاً بوجه، إلا أنه خاف مني مثلما خفت منه، فإفترقنا على إرتياح متبادل وسكينة. ساعة أخرى من المشي بالإتجاه الصحيح حتى طلّ عليّ من جانب الطريق ما بدا أنه حارس أميري (حكومي)، فسألني عن أشياء باللغة التركية، إلا أنه كان سكراناً سكرة نوح بين أبنائه، فرددت عليه بلغة إنجليزية سريعة كما لو كنتُ في طريقي للحاق بطائرة أو قطار وإختفيت في العتمة من دربه.

كان النعاس يغالبني والتعب ينهشني والخوف يتملكني. فعواء الكلاب ودوي الرعد وصفير الهواء كانت وحدها خلطة مخيفة مرعبة لمغامر ساذج في عتمة الليل! فجأة، لاح لي من بعيد ضوء خافت وسط العتمة. فسارعتُ نحوه، وإذا به كوخ صغير لم يكتمل بناؤه بعد وكان مُحاطاً بزرع ضحل "أصلع"! لفيتُ خرقتي على رقبتي ورميتُ نفسي بجانب الحائط وغرقت بنوم عميق. وأكاد أجزم أنه لم يمرّ علي دقائق قليلة حتى كان فوق رأسي شخص يشبه الراهب، ينهال عليّ ضرباً بعصا غليظة تشبه عصي الرعية بأيدي البطاركة. أخذني على حين غِرة، فإنطلقت من دربه منزفاً كالمجنون بإتجاه الأوتستراد. وعند أول محطة بنزين، وُفّقتُ بمَن فتح بابها عليّ، وأدركتُ معهم حجم الضرر على وجهي وظهري وضلوعي. إلا أن عاطفة المسعفين ودفء المكان وفنجان الشاي، ليلتها، كانت بمثابة دزينة غرف للعناية الفائقة! ومع طلوع الضوء وساعات الصبح الباكر، فتحت محطة البنزين أبوابها وأمنّت لي توصيلة بإحدى سيارات المنطقة إلى الإستراحة التالية.

وهكذا، كنتُ في الليالي أرتجف من وحشة المكان وصقعة الجو. ورغم تلك التحديات وخطورتها، كنتُ من الغرور بمكان أتخيل نفسي فيه مستكشفاً جغرافياً عظيماً كياقوت الحموي أو ابن بطوطة. أما في واقع الحال، فلم أكن سوى شبل هزيل ضاع عن "حلمة" أمه بظلام الليل في مهب الريح. ولولا لطف "الكارما" والعطف الإلهي، لما تمكنتُ في ليلتي الأولى الهروب من درب واوي شارد، وحارس سكران، و"راهب" وجد نفسه مفزوعاً أمام شاب مرعوب مثلي.

***

بداية المشوار، على غرابتها، كانت مقبولة نسبياً ومفيدة رغم المخاطر. الصراحة أنني في السنوات اللاحقة، كنتُ كلما خلوت

بنفسي، ذُهلت كيف خاطرت بحياتي على ذاك الطريق الموحش من كسب إلى أنطاكيا. بل إنني لم أصدق أني خاطرت على طول الطريق من أنطاكيا إلى إسطنبول، مروراً بإسكندرون وأضنة وأنقرة! وبالنظر إلى قروشي القليلة، لم يكن أمامي سوى المشي ليلاً تجنباً لحرّ النهار من جهة، وتوفيراً لأجرة المنامة من جهة ثانية. وبعكس السفر بالباص حيث لا يرى الراكب شيئاً من عجائب الطريق خلال الليل، ينقلك المشي وحيداً في العتمة إلى عالم التصوّف والجزع أو الجنون. ولا شك أن أي عاقل يُترك في البرية وحيداً لأكثر من ثلاثة أيام، يجد نفسه متحدثاً مع ذاته، أو كليماً مع الله، أو مهلوساً مع الشياطين! مغامرتي أثناء المشوار الطويل من الحدود السورية - التركية إلى العاصمة الثقافية إسطنبول، كانت مُخطرة مفزعة وضرباً من الجنون والإستهتار. ومع أني كنتُ أضيّع الله في الأضواء والجَلَبة، إلا أني كنتُ أجده في عتمة الظلام وعند الخوف والهلوسة. ولذلك، لم يكن المشوار من بيروت إلى الأستانة (1000 كلم) كله وجعاً وجوعاً وخوفاً. كانت هناك محطات بنزين، ومنشآت مهجورة، وإستراحات، ولقاءات عجيبة مع حراس الحقول على أطراف الأوتوسترادات. كان الوصول إلى إسطنبول جديراً بكل المشقات والهلوسات والجزع.

حشر مع الناس عيد

إنطباعاتي الأولى عن تركيا كانت قد تولدت أساساً من خلال فيلم أميركي مشهور شاهدته في بيروت بمطلع المراهقة، اسمه "قطار منتصف الليل" *(Midnight Express)*. رواية الفيلم تدور عن قصة حقيقية حول سائح أميركي قُبض عليه في إسطنبول بتهمة تعاطي المخدرات، فسجن في أسوأ الزنزانات وعانى الكثير. وبخضم الأحداث المزرية، يُصوّر الفيلم حالات الفسق والتفسخ والفساد عند

"المؤسسة" الأمنية التركية وفي بعض الأزقة والحارات. وهكذا، فهمتُ من الفيلم، يومها، أن تركيا بلد رجعي متخلف وبدائي، بل إن بعض المشاهد في الفيلم أوحت لي أن الأتراك وحوش كاسرة يشبهون سكان الكهوف بسلوكهم وتصرفاتهم. وعلى مبدأ العلم في الصغر كالنقش على الحجر، كانت الأفلام الأميركية تعمل في عقولنا عمل السحر، وتؤثر على تفكيرنا وتنقر في مخيلاتنا. وربما ما ساعد على تعميق اِنطباعي السيئ عن تركيا أننا ترعرعنا أيضاً منذ الحضانة على الإعتقاد بأن العثمانيين حكموا بلادنا بـ"الجزمة والكرباج"، وكانوا قوماً من عِرق هجين غريب، وبرابرة مجرّدين من الأخلاق ومنزوعين من الرحمة. كان الفيلم الأميركي تتويجاً "دارونياً" لما تصورته عن وحشية الأتراك، خاصة أن الناس في "الهلال الخصيب" ربطوا في مخيلاتهم بين وحشية هولاكو المغولي وبين دموية أرطغرل التركماني. كما أن الفيلم كان أداةً إعلامية (بروباغندا) ضمن حملات عدائية بغيضة أطلقها الغرب ضد العثمانيين لتثبيت "تخلّف" الشرق وهمجيته أمام "تحضّر" الغرب ووداعته.

كما قيل لنا من خلال التراث والفلكلور (أي البرمجة) إن الأتراك فوضويون قساة ومتنمرون، وذلك على الرغم من تاريخهم الطويل في التنظيم الحربي والبراعة العسكرية. أغلب الظن أن سمعتهم السيئة وصيتهم الدموي نبعا من صدى عمليات القتل الجماعي للأقليات التي قاموا بها خلال الحرب العالمية الأولى. لكن خلافاً للإعتقاد السائد، فإن الأتراك لم يبيدوا أرمنيين فقط، بل أبادوا أيضاً أيزيديين وكلدان وكاثوليك وفرس وأكراد وشيعة وعلويين ومسيحيين سوريين شرقيين، أي إنهم نكّلوا بكل الأقليات تقريباً على طريقة "ظلم بالسوية عدل بالرعية". بيد أن اليهود وحدهم كانت لهم حظوة مُعتبرة عند الباب العالي، وكانوا عنصراً حيوياً للتجارة والطبّ والديبلوماسية في السلطنة، لأنهم كانوا من الهاربين من "محاكم التفتيش" في الأندلس.

الوضع في الأيام الأولى لسقوط غرناطة 1492م لم يكن خطيراً، لا سيما أن الملكة إيزابيلا الأولى تعهدت للعثمانيين (مداورة) بالسماح للمسلمين واليهود الإبقاء على المساجد والجوامع ودور العبادة ومدارس اللغة. إلا أن الوعود سرعان ما نُكثت بالماء العكر وبالطوابير الخامسة والصراع المحلي على التركة الغرناطية، فأدت بغضون أسابيع قليلة إلى صدور "مرسوم قصر الحمراء". وبموجبه أمرت الملكة إيزابيلا والملك فرديناند بطرد جميع المسلمين واليهود من الأراضي الإسبانية. ومع أن "محاكم التفتيش" الأصلية أقيمت أساساً في روما في القرن الثالث عشر لمحاربة الهرطقة والسحر والبدع، إلا أنها اِستُعملت لاحقاً وتباعاً أداةً سياسية في كل أوروبا الغربية تقريباً، حتى ضد بعض المثليين والمتحولين. كانت التعليمات للرعايا الأندلسيين من غير المسيحيين الكاثوليك صريحة وواضحة؛ فقد خيّرتهم بين التنصّر أو الترحيل أو القتل. ولم تكتفِ بذلك وحسب، بل طلبتْ من المتنصرين الجدد تغيير أسمائهم وترك أبواب بيوتهم مفتوحة وعدم الكتابة باللغة العربية أو العبرية. أما الذين اِختاروا النزوح، فاِشترطت السلطات عليهم التخلي قانونياً عن سندات أملاكهم وأشيائهم الثمينة وحتى كتبهم، وقد وصل عدد المطرودين خلال سنة واحدة إلى قرابة 400000، توزعوا على البلدان المجاورة، كالمغرب والجزائر وتونس. أما المطرودون من البرتغال، فنُقل الكثير منهم بالسفن إلى الأرجنتين وبعض دول أميركا اللاتينية.

وهكذا، كان يهود السلطنة العثمانية مَحميين لأنهم - بالإضافة إلى اِنخراطهم في إدارة المرافق وإسهاماتهم بالمجتمع - لم يكونوا مُجمّعين في بؤرة مكانية واحدة مثل الأرمن أو العلّويين والأيزيديين. ثم إنهم لم يكونوا أيضاً متهمين بالتواطئ مع الروس أو الغرب مثل الأرمن. أما لماذا كل ذلك الإجرام التركي والتنكيل ومصّ الدماء ضد الأقليات، فسببه أن الأتراك أنفسهم كانوا مرعوبين من الغرب في سنوات

ترهلهم الأخيرة قبل سقوط الإمبراطورية. كانت الأحرف مكتوبة على الجدران، وكانوا يشتمّون رائحة الهزيمة سلفاً، ويشكّون بأي جهة أو فئة أو مِلّة تتصل سراً بسفارات الغرب أو تناضل لإستقلالها. وفي ذلك السياق، كان الرعايا الدروز والموارنة، مثلاً، يتنافسون على الأراضي والنفوذ في جبل لبنان، وعلى اِستمالة "الباب العالي" لإستقلالهم مرّة، وإرضاء الغرب لمصالحهم مرّة أخرى. إلا أن المستعمِر العثماني لم يكن حقيقة يأبه لهما إلا بما كانا يقدمانه من خدمات وتملقات وفوائد. كان أعيان الدروز وأعيان المسيحيين يُحصّلون الضرائب والغلل نيابة عن باب العالي، لكن كانوا أيضاً "يأخذون نصيبهم" منها خلسة على مبدأ "السارق من السارق كالوارث من أبيه"! والتنافس المستمر بين الدروز والموارنة أدّى في نهاية الأمر إلى اِستقوائهما بأعداء تركيا ما جعلها تشدّد الخناق عليهما معاً وتضطهد زعماءهما، لا سيّما مع بداية الحرب العالمية. لا بل حُرم الطرفان من مؤن الغداء خلال إعلان النفير العام أثناء "سفر برلك" وظهور ملامح المجاعة الكبرى في جبل لبنان (1915-1918م). كانت المحاصيل والأغذية والمؤن تنقل برمتها من لبنان للمساهمة في إطعام جيوش الدولة العثمانية على جميع الجبهات. ورغم تعرّض معظم ولايات العثمانيين خارج تركيا إلى النقص والعوز طوال الحرب، فإن العرب عموماً كانوا أكثر رعايا السلطنة تذمراً وعصياناً. كانوا يلعبون مع الأتراك لعبة القط والفأر على نطاق واسع ودوري. فالموارنة، على سبيل المثال، طوّروا فكرة التعريب كسلاح هادف وفعّال ليس حباً بالعرب ولا باللغة العربية، إنما نكاية بالتتريك وكيداً بالأتراك، كما سبق وذكرتُ. وموجات المناكفة تلك سرعان ما اِكتسبت زخماً من أدباء المهجر عشية الحرب العالمية الأولى، فتحوّل التعريب إلى مشروع "قومي" لتوحيد "الشعب العربي" ضد العثمانيين. وهنا أيضاً سارع سكان الجزيرة العربية

بقيادة ابن سعود إلى النضال ضد الأتراك، فتعلقوا بعباءة محمد عبد الوهاب ونشروا آراءه الوهابية بغرض تمييز إسلامهم السلفي عن إسلام العثمانيين الحداثي. وفي الأثناء قام الشيعة والعلّويون أيضاً بالتمرد على ممثلي "الباب العالي" في بلاد الشام، وذاقوا الأمرين من الإضطهاد والتنكيل وعانوا ألواناً من التعذيب والملاحقة، تماماً مثل الأقليات الأخرى في الدولة العلّيّة، وإن كانت مذابح "سيفو" ضد الأرمن والأرثوذكسيين أكثرها بربرية.

العالم إسطنبول!

على نقيض رحلتي الأولى مع غبريال ومالك، التي عبرنا فيها إسطنبول بلا توقف، أخذتْ المدينة مني تلك المرّة إهتماماً مركّزاً وطويلاً. فقضيت فيها أوقاتاً ممتعة أمضيتها بحبس النفس من شدة التعجب والبهجة والإستهجان. زيارة المدينة لأول مرّة في وضح النهار تركتني مأخوذاً بخلطة عجيبة من المشاعر الجيّاشة المتناقضة. أحاسيس لم تختلجني من قبل ولم تطرق عتبة خواطري فيما بعد! إنها مدينة لا تشبهها مدينة أخرى في العالم. تعطي للتاريخ روحه وتعيد للماضي أمجاده وتقدم لك عظمة الثقافات المشتركة بأبهى صورها. ورغم موقعها المميز ومعالمها المذهلة، فإنها مدينة مُربكة ومُحيّرة في نفس الوقت. إذ كيف للزائر أن يميّز الشرق فيها من الغرب، وهما يتعانقان معاً على جسر الوصل فوق البوسفور؟ كيف له أن يُحدّد ما إذا كانت إسطنبول مدينةً صناعية، أم تجارية، أم مقدسة؟ ما إذا كانت تخضع لأحكام ديمقراطية يونانية، أو ما زالت تعيش في كنف العصور الوسطى؟ هل هي مدينة عمران وحضارة وحداثة، أم أسطورة جميلة هربت من روايات قصور الحريم وقصص الأولين؟

يكفي أن أسواقها الشعبية الساحرة وأجوائها الصاخبة، لها نكهة عَطرة تميّزها عن أي مدينة أخرى حتى تحت الدخان أو المطر الشديد.

بيد أن تكبيرات المآذن أكثر ما يطرق سمع الزائر عند أول مرّة. ليس فقط بسبب كثرة الجوامع وقربها من بعضها البعض، إنما لأنها تنطلق في أرجاء المدينة بنفس الوقت تقريباً، وإن بنغمات وألحان مختلفة. كما أن هناك أيضاً هديل الحمام في الساحات، ونعيق النورس فوق عبّارات البوسفور، وضجيج زحمة السير، وزمامير المركبات، ومناداة الباعة. وما لفت نظري شخصياً من معالم إسطنبول - بالإضافة إلى تجمعات كلابها الكسالى - كثرة الأدخنة المنبعثة من أسطح مبانيها القديمة. ثم إن قبب الكنائس وحدها تدهش الناظر بأشكالها المختلفة وطُرز زجاجها، وكأنها اِختارت أن تختبئ من أعين الناس بظلال المساجد. ومن بين معالم المدينة، تُحيّرك "آيا صوفيا" بهويتها، فلا تعرف إنْ كانت كنيسة، أم مسجداً، أو متحفاً! إلا أنها تبقى أمّ المعالم المسيحية، وإنْ رفض الأتراك المسلمون الإعتراف بها كنيسةً! ويكفي المسيحيين فخراً أن "آيا صوفيا" كانت أكبر كاتدرائية في الإمبراطورية الرومانية الشرقية. شيّدها الإمبراطور جستنيانوس (527م -565م)، وكان موقعها يُعرف في زمنه باسم "ميغال إكليسيا"، أي (الكنيسة العظمى)، إلى أن تغيّر في القرن الخامس ميلادي وصار "آيا صوفيا"، بمعنى (الحمكة المقدسة). ومن بعده، أضحت التحفة المعمارية كاتدرائية العاصمة، وأعظم مكان عبادة للأباطرة خلال الإمبراطورية الرومانية الشرقية. أُعيد ترميمها ثلاث مرات، وتحديداً عقب نهبها وتخريبها من قبل الصليبيين (1204م و1261م). وعندما دخل السلطان محمد الفاتح إسطنبول عام 1453م، حوّلها إلى جامع، وعزّز أساساتها المتهالكة. وفي عام 1935م، وبأمر من أتاتورك العلماني، حُوّلت الكنيسة إلى متحف شامل للعموم. غير أن الإسلاميين

في المدينة بقوا يعارضون تحويلها لمتحف إلى أن وصل أردوغان للسلطة وأعاد اِفتتاحها كجامع سنة 2020م. وتحت اِعتراضات الحداثيين تلك المرّة، اِضطر أردوغان إلى مسك العصا من الوسط، وخصص قسماً منها للمتحف، وأبقى على المسجد في القسم الآخر ..

***

بصمات الحضارات واضحة في كل حارة وزاوية من إسطنبول. بل إنها تتنافس على الإشهار بزمانها العريق ومكانتها الفريدة؛ فهي مدينة تتباهى بدورها التاريخي في وأد التناقض بين الشرق والغرب وستر عيوبهما. أمر لا يلحظه إلا المخضرمون ولا يغيب دليله على المؤرخين. ويكفي للزائر منهم أن ينظر إلى رؤوس الناس في الأسواق، مثلاً، ليتمتع بمنظر قبعاتهم. كلٌ يعتمر قبعته حسب مسقط رأسه، أو مهنته، أو ديانته، أو نسبة إلى مكانته الاجتماعية. وكل قبعة، بشكلها ولونها وخصائصها، تنطوي فلكلورياً على تاريخ كامل تقريباً من التراث العريق. وبِاستطاعة القبعة وحدها أن "تخبرك" عن نتائج الحمض النووي لمرتديها، بسرد مفصّل وأمين يعود إلى آلاف السنين. فلو فتحت عينيك على وسعهما وركزتهما فقط على مشاهد القبعات، لبدتْ المناظر لك كما لو كانت لوحات فنية مستعارة من قصص أبو زيد الهلالي. ورغم كثرة الملامح وتعدد المعالم، يصعب وصف إسطنبول لمن لم يزرها يوماً ويقف على أجوائها الساحرة وهالتها الآسرة. فالمدينة تطفو على طبقات من أطلال الحضارات الخالدة تحت تربتها، وهي حبلى بسجلات عن حروب أسطورية ومؤامرات لم تُكشف كلها بعد. وفضلاً عن سراديبها تحت الأرض، كانت إسطنبول فوق الأرض مركزاً حيوياً للمقايضة (بورصة) والأعمال، وسوقاً للعوام، و"حمّاماً"، بالإضافة إلى موقعها على الطريق الدولي بين الشرق والغرب! وفي ذروة تألق الإمبراطورية العثمانية،

بين عامي 1500م و1600م، وصل عدد الحمّامات العامة فيها إلى الحدود القصوى، فكان هناك حمام في كل ساحة وزاوية رئيسية وميدان. والملفت أن اليهود، كما عند الأثرياء والتجّار والدبلوماسيين، كان عندهم حمّامهم الخاص وسط المدينة، يفتح طيلة الأسبوع بإستثناء ليالي الجمعة. كانوا ملتزمين بطقوس الطهارة حسبما وردت في التّوراة والتلمود والإسرائيليات. والطهارة عموماً من الأشياء المهمة المشتركة التي يؤمن اليهود والمسلمون بفكرتها، وإن أخذتْ عند المسلمين أنماطاً مختلفة بالشكل، وليس بالجوهر.

لولا قسطنطين العظيم!

"القسطنطينية"، هو الاسم الذي أطلقه قسطنطين الكبير عام 330م عندما جعلها عاصمة لإمبراطوريته. لغاية تاريخ تسميتها آنذاك، كانت المدينة ما تزال تحمل اسمها الأصلي، (بيزنطة)، منذ أن إستولى الرومان عليها عام 196م. ومن حسن حظهم أنهم وجدوا في أرشيفها وخزائنها ما لا يُقدر بثمن من كنوز وعلوم وخرائط بحالات جيدة مذهلة، لا سيّما أنها كانت أصلاً مدينة تابعة للإغريق لوقت طويل. وبذلك صارت القسطنطينية الخزّان العلمي للعالم القديم، ومرجعاً رصيناً لكل شيء ثقافي حضاري. العرب في تلك الفترة (فترة تأسيس القسطنطينية) لم يكونوا على خارطة الحضارة بعد، أقله حسب إعترافهم أنفسهم بعصور الجاهلية قبل الإسلام. وقد ظل الإسمان البيزنطي والروماني (القسطنطينية وبيزنطة) من التسميات الأساسية المترادفة للمدينة حتى بعد وصول العثمانيين في القرن الخامس عشر الميلادي. ومن يومها، بدأ يشار إليها تدريجياً باسم إسطنبول، وهي تسمية لا تُسْتَمد من كلمة الإسلام، وإنما مُستنبطة من عبارة يونانية تعني "لأجل المدينة" أو "بإتجاه المدينة". واليوم لا توجد مدينة في

العالم كله تشبه إسطنبول، لا من حيث الحجم والأبهة، ولا بمستوى العراقة والتاريخ. ولما قضتْ الإمبراطورية العثمانية على البيزنطيين، كانت أكثر حرصاً منهم وتنظيماً على صيانة المدينة، خاصة في ظل حكم محمد الثاني 1458م. ومع أن نظامه كان مؤسسة حكم عائلية تشبه إلى حد كبير حكم ممالك أوروبا في ذلك الوقت، إلا أن السلطان - بعكس ملوك أوروبا - كانت لديه رؤية ثاقبة للإستعانة بأفضل النخب والأعيان من الخبراء والمستشارين، وغيرهم من الموهوبين والرّواد من آسيا وأوروبا على حد سواء. وقد مثّلوا بمجموعهم مختلف الأعراق والأديان والطبقات الإجتماعية والإتجاهات الفكرية الرائجة والمبتكرة. وتردد في السجلات أن محمد الفاتح كان متأثراً بسيرة فيليب المقدوني، وأراد أن يُقلّد أيضاً ابنه الإسكندر، بإعتبار أنه كان يُفضّل الحكمة والجدارة في إدارته على ولاء أبناء جلدته، ويضع الموهبة وسرعة البديهة فوق الإعتبارات المحلية الضيقة. كان الإسكندر يختار الأنسب والأكفأ من جميع الأعراق، من البابليين والمصريين والفرس، وكان يفضلهم على بلادة أبناء العمومة وولاء أهل البيت من المقدونيين والأثينيين.

وحتى قبل ظهور العثمانيين على المسرح الإمبريالي العالمي بوقت طويل، كان مقدراً للقسطنطينية بواسطة الجغرافيا أن تكون مدينة الجلالة والتنوّع والثقافة. ومنذ زيارتي لإسطنبول، لم أتوقف يوماً عن تشبيه تلاقي الشرق والغرب فيها بتلاقي دجلة والفرات بأرض الرافدين. وهذا العنصر من الجذب الجماعي رأيناه يتكرر في بقاع أخرى من العالم وإن بنسب أقل. وكما أوْلَد إلتقاء النهرين في أرض العراق إمبراطوريات عظيمة قوية، كذلك أدّى تلاقي الشرق والغرب بأرض الأناضول إلى ظهور إمبراطوريات عتيدة، كالحثيّة والإغريقية والرومانية والعثمانية. وقبل بروز العثمانيين على الساحة، كانت بلاد الأناضول مقصداً ومطمعاً للشرق، بمَن فيه من

أرمن وفرس وأثور وكرد، كونها كانت حقلاً خصباً للمحيط وممراً سهلاً إلى الغرب. وحتى في عزّ الصدّ البيزنطي المسيحي للجحافل الغازية من الشرق، اِندفع إليها من الغرب أيضاً الصليبيون عام 1204م، ونهبوا القسطنطينية أثناء عبورهم إلى الشرق، ودمّروا الكثير من معالمها رغم أنها مسيحية مثلهم! والقسطنطينية، بِاختصار، كانت بمثابة "المفتاح الماستر" الذي كان يفتح جميع أبواب العالم القديم ويثير غيرة ممالك أوروبا وغيظ الفاتيكان على حد سواء. هكذا كان الوضع عشية ظهور العثمانيين واِستيلائهم على مجد الأناضول. الأمر لم يكن سهلاً ولا بسيطاً على الأوروبيين. إذ "فجأة" طارت القسطنطينية من أيدي الحضارة الغربية بعد نحو 1500 سنة من السيطرة المُطلقة، بما في ذلك النفوذ المسيحي على مدى 400 سنة. ورغم أن الهزيمة النكراء لم تحدث دون عواقب وخيمة على أوروبا، لجهة فرض الضرائب العثمانية على السفن الغربية العابرة في المتوسط، إلا أنها، بنفس الوقت، خلقت للأوروبيين حوافز عجيبة قلبت العالم رأساً على عقب، ومكّنت الغرب مما هو عليه الآن، إذ دفعتهم للإبحار خارج المتوسط بحثاً عن مسارات بديلة، وبالتالي إلى اِكتشاف العالم الجديد.

ووفقاً لبعض البحّاث والمفكرين الغربيين المعاصرين، فإن مكيافيلي (ما غيره) اِستوحى رائعته "الأمير" ونظرية (فرّق تَسدّ) من إعجابه الشديد بدهاء العثمانيين وحكمتهم. فلولاهما لما تمكنوا من الحكم والهيمنة قرابة ستة قرون متواصلة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى. ثم إن حكمهم لم يقتصر جغرافياً على اِمتداد متواصل من الخليج إلى المحيط الأطلسي فحسب، بل تحكّم أيضاً بعقائد الناس المتعددة وبالأديان السماوية والأعراق من سهول روسيا إلى حدود البلقان. مكيافيلي، وقف مندهشاً مذهولاً أمام ثقة العثمانيين بأنفسهم وبجبروتهم، لا سيّما أنه أعرب عن إعجابه أيضاً بتعدد الحقوق التي

كان العثمانيون يمنحونها بالتساوي لرعاياهم في كل الولايات الخاضعة لهم. فحتى العبيد في السلطنة كانت لهم حقوق موحّدة في القرن السادس عشر، على عكس الغرب، حيث لم يُعامَلوا فيه معاملة إنسانية بالمرّة. لا، بل الأهم من تلك الحقوق العثمانية، أنه كان يُسمح للعبيد في إسطنبول بشراء الأملاك والعقارات وبعتق أنفسهم وأنفس أحبتهم من العبودية. كان العبيد قادرين على شراء حرياتهم وتغيير مصائرهم إلى درجة أن البعض منهم أصبح موظفاً حكومياً في "الباب العالي"، وصاحب نفوذ وقرارات في أروقته. و"الباب العالي" في ذلك الوقت كان أكثر أهمية ووجاهة من أروقة "وايت هول" في لندن خلال حقبة الإمبراطورية البريطانية لاحقاً على سبيل المقارنة! ومع أنه لم يبقَ أمير أو ملك أو سياسي أو صاحب قرار في الشأن العام في الغرب إلا ونهل من أفكار ميكافيلي ("فرق تسد" و"الغاية تبرّر الوسيلة" و"القوة فوق الفضيلة" و"الأخذ قبل العطاء" إلخ)، غير أن مبادئ الخداع تلك، وغيرها من وسائل الحكم، كانت سابقة لميكافيلي بمئات السنين؛ فلطالما لجأ الملوك والحكام إلى الرذيلة والخسيسة لتحقيق مآربهم على قاعدة "تمسكن حتى تتمكن". وتبقى الحقيقة واضحة كقرص الشمس: لولا قسطنطين ورؤيته الثاقبة وقيادته البارعة وإداراته العظيمة وفلسفته التي لم يشقها غبار في شؤون الحكم والإقتصاد، لما تألق العثمانيون على تراثه وعظمة بنائه ومجده. ولو لم يُقسّم إمبراطوريته بين أبنائه الثلاثة، لما تمكن العثمانيون من الإستيلاء عليها قطعة بعد قطعة مستفيدين من خلافات الأبناء.

مغمور ومفلس!

كنتُ مراهقاً وحيداً في تلك المدينة الرائعة، أمشي بلا هوادة تحت زخات المطر. مأخوذاً بكل شيء فيها: بأسواقها وحاراتها ومساجدها

وأسوارها والقلاع على تلالها! وكيفما دُرْتُ وتوجهتُ كنتُ أتعثر بمقابر ضخمة في كل مكان، حتى في بعض الساحات وعلى بعض قارعات الطرق! كنتُ محظوظاً فعلاً أن المطاف لم يَنْته بي في واحد من تلك القبور أو بجانبها! نجَوتُ من أيام تعيسة كنتُ أتجوّل خلالها ساعات طويلة بدون زاد ومال. أحياناً كنتُ أتدبّر الأمر "على طريقتي"، وأحياناً كانت الأمور تُدبّرني على طريقتها. وأتذكر، على سبيل المثال، أني حُشرت مرّة في طابور متحف "حريم السلطان" المجاني، فإنتهى الأمر بي "مرشداً" لأحدى السائحات الفرنسيات. لم تكن إنجليزيتها معقولة ولم تكن فرنسيتي مفهومة، إلا أن الكيماء بيننا (والبيولوجيا لاحقاً) ضمنتا لي أكثر من وجبة شهية وسهرة معتبرة وبعض الزاد والخردة لأيام معدودة. وإذا كان من فضل محدد لإبقائي على قيد الحياة طيلة 10 أيام بلياليها، فيعود بالمقام الأول لمحطة السكك الرئيسية في إسطنبول. كانت سكني وسكينتي. على أرصفتها كنتُ أتسكع وأتوسل، وفي حمّاماتها كنت أغسل وإغتسل، وبين مقاهيها كنت أتواعد وأحلم. ومن تكرار ترددي عليها أكثر من مرّة في اليوم الواحد، حفظتُ زواياها وتضاريس خفاياها وأشكال حرّاسها البسطاء عن ظهر قلب. كانت أضواء المحطة في الليل، مثل أضواء إسطنبول، كلها زرقاء خافتة بسبب أجواء الحرب التي كانت مرتقبة بين تركيا واليونان. زجاج المباني والمركبات كان يومئذ يُغطى بستائر أو بألصقة زرقاء "نيلية" للحدّ من كشف مواقعه عن بعد. وهكذا، كان رجال الأمن في تلك الفترة ينتشرون في كل مكان من المحطة، فيشتبهون بي أحياناً، ويظنونني في أحيان أخرى من النشطاء الأتراك الإسلاميين، إلى أن يطمئنوا من لغتي وجواز سفري. وعلى الرغم من الأزمة الجدّية مع اليونان، وإحتمال إندلاع الحرب معها بأي لحظة، كان النشطاء الإسلاميون في تلك الأيام بمثابة الخطر الأكبر على تركيا. أبرزهم مَن كان ينتمي إلى الحركة الصوفية، ويسمونها

"الطريقة"، أشبه بخليّة تبشير كانت السلطات تزعم أن أعضاءها الكبار كانوا يستعملونها غطاءً للمعارضة السرية. وكان من بين الذين أُجبروا على ترك "الطريقة" والعودة إلى "رشدهم" بعد الإعتقال والتوبة، مَن شبّه نفسه بالحلّاج، أو الغزالي، أو الرومي، أو عمر المختار وأمثالهم. كلهم في أزمانهم ضاعوا وهُزىء بهم وسُخط عليهم واحتُقروا. أما أنا، فكنتُ "درويشاً" من الأساس، بلا تفكير وبلا "طريقة"، أبحث فقط عن لقمة أسدّ بها جوعي من يوم لآخر.

ومع أني مررت على أهم المعالم السياحية في المدينة، إلا أن متحف "حريم السلطان" بالذات نال إهتماماً خاصاً مني، فكنتُ أقضي في حضنه ساعتين تقريباً كل يوم أعاين خلالهما لغات الزوّار وأعرض عليهم خدماتي وترجماتي. ولولا حظي اليتيم في بادئ الأمر مع سيدة فرنسية جميلة، لكانت الفكرة من أفشل الأفكار التي راودتني لمحاربة الجوع. إلا أن الجوع وحده رغم ما كان يسببه من ألم - خاصة أمام واجهات المطاعم - لم يكن عائقاً أمام رغبتي في مواصلة المغامرة ومطّها قدر الإمكان. كنت مغموراً بالأوهام وأحلم بالوصول إلى أبعد نقطة ممكنة في الغرب قبل اِنتهاء فصل الصيف. وما شجعني على تصوراتي الطموحة أني وصلتُ إلى إسطنبول مشياً، ومكثتُ فيها عشرة أيام بلياليها دون أن أنفق دولاراً واحداً من "ميزانيتي" الأربعينية. وهكذا، اِختصرتْ محطة إسطنبول للسكك ذكرياتي عن جمال المدينة ومغامراتي فيها. دقتْ ساعة الرحيل عنها، فرحلت بأحد قطاراتها الخردة في أسوأ تاريخ يمكن لإنسان أن يختاره، ويا ليتني لم أرحل!

قطار الجحيم!

في 21 تموز 1974م، وبعد يوم واحد فقط على غزو تركيا لقبرص عقب إنقلاب قادته اليونان ضد مكاريوس، وكان قد اِنتُخب شرعياً رئيساً للجزيرة، توقف قطاري عند الحدود التركية - البلغارية في تمام الساعة 6:30 صباحاً. كانت الرحلة من إسطنبول إلى صوفيا في تلك الأيام تستغرق 31ساعة على قطار "أنتيكا" يعود لأيام الحرب العالمية الثانية. هناك، مع طلوع الشمس على أنباء الغزو التركي، بدأوا بإجراءات الهجرة والجوازات على متن القطار نفسه. ورغم ظروف الحرب بين تركيا واليونان، كنتُ في الليلة الأسبق قد تسللتُ في إسطنبول إلى قطار صوفيا خفية (تهريبة) تجنباً لشراء التذكرة. وكالمغاوير في عتمة الظلام، توجهتُ إلى عربة الدرجة الأولى مباشرة، واِختبأتُ فوق سقفية حمّامها قبل صعود الركاب مساءً بنحو ساعتين تقريباً. ورغم مخاطرتي الجريئة وتهوّري الأحمق، بدت المسألة لي سهلة مضحكة وصبيانية، لا سيما أني كنتُ أعرف محطة إسطنبول وخباياها عن ظهر قلب. هناك في سقيفة الحمّام لفيّت جسدي على بدني لفة الثعبان في جحره، وبقيتُ يقظاً مترقباً مثله..

كانت الحدود بين تركيا وبلغاريا أكثر نقاط العبور البريّة اِزدحاماً بين الشرق والغرب في العالم، حتى قبل الغزو التركي لقبرص. والمنطقة بينهما كانت من الأساس موقع تناقض وتفاعل واِلتقاء منذ حَكَمها العثمانيون حتى اِندلاع الحرب العالمية الأولى. لكن بعد معاهدة "لوزان"، التي أُبرمت لحصر إرث التركة العثمانية وتقسيمها على المنتصرين، أُنشئت إتفاقية جانبية لتنظيم المرور مع حدود تركيا، ومنها سكك الحديد مع بلغاريا. نَمت الحركة في الإتجاهين، وأصبح المعبر بينهما ثاني أكبر ممر برّي على الكرة الأرضية آنذاك. كان مشهوراً أسطورياً بروايات التزوير، والتهريب، والتجسس، وقصص التعذيب على أرصفته وفي أروقة أبنيته المجاورة.

الحدود بين تركيا وبلغاريا لم تكن يوماً طبيعية بأي مفهوم، ولا أنا كنتُ على طبيعتي في ذلك اليوم. لم أكن أحمل سوى خرقة شنطة على ظهري، وكانت كل ما أملك من لباس ومتاع! "أموالي المنقولة" من "ليفا" و"ليوه" و"دينارة" (أقل من 40 دولاراً) كانت موزعة على جيوبي الضيقة. وإذا ما نظرتُ اليوم بمرآة الزمن وتأملتُ نفسي، لإستدركت كم كنتُ ساذجاً وجاهلاً. لم يخطر ببالي أني كنتُ أعرّض حياتي للخطر أو أخلق لنفسي مصيبة فظيعة. كالفأر المحاصر، أمضيتُ الليل بطوله في قطار مهزوز بطيء. فحتى سقيفة حمّام الدرجة الأولى لم تشفع لي في التخفيف من الآلام الحادة في مفاصلي وحوضي ورقبتي. ورغم الروائح الآسنة المتطايرة من تحت مرقدي، كانت رائحة الحرية المنبعثة من خيالي تطغى على كل شيء آخر. ولولا وَمَضات الأمل خلال عتمة الليل لما صمدتُ ساعات طويلة قبل تحيّن لحظة الهروب مع شروق الشمس!

محمد علي كلاي

ما إن توقفت عجلات القطار، حتى دحرجتُ نفسي من سقف الحمّام وخرجتُ من بابه بخِفة إلى باب المقصورة الملاصق. وبدل أن أجرّب حظّي في فتح باب العربة بهدوء، أنزلت نافذته العريضة وأزلقتُ نفسي منها زلق الصابون على الجسد، فهبطت "واقفاً" على رصيف القطار تأهباً للركض بإتجاه المباني الجمركية في الجوار. إلا أن قَدَمَيّ كانتا مُخدّرتين تماماً ولم تُسعفاني على الحركة، دعكم عن الركض، وذلك على الرغم من "الأدرينالين" في عروقي. شعرتُ كمَن كان يحاول التملص في رمال متحركة!

كنتُ أظنُ أن ظهوري في قاعة الجمارك كان سيبدو لسلطات الحدود كما لو كنتُ قد وصلت توي عن طريق السيارات، وليس بالقطار. كانت خطتي تقضي أن أقوم بتقديم باسبوري والتظاهر بأنني سائح من نوع "الأتوستوب" البرّي "الهيبي". كل ما أردته كان تجنب المواجهة مع مفتش التذاكر ومأمور الجوازات على القطار. إلا أن خذلان "سيقاني" لي في اللحظة الحاسمة، أفسد الخطة عليّ، وأدّى بالمفتش إلى اللحاق بي وإمساكي على الرصيف بجانب باب القطار. ومن شدة فزعي وإرتباكي، لَكمتة "بوكساً" قوياً طرحه أرضاً على الفور، تماماً كما طرح كلاي غريمه جو فريزير في إحدى جولات "نزال القرن" بينهما عام 1971م. يومها، كنتُ مثل كلاي، طويلاً رشيقاً متين القامة وسبّاحاً ماهراً. لكن "مرحبا" قامة و"مرحبا" رشاقة أمام ما حدث بعد ذلك. عينٌ ترى وأذنٌ تسمع! لا أدري من أين هبط عليّ مفتشو المحطة وموظفو الجمارك مرّة واحدة. فجأة، وبدون سابق إنذار، ظهر مغاوير بلغاريا كلهم على الرصيف ونطّوا عليّ من كل إتجاه: من فوق القطار، ومن جانبه، ومن تحته! هبطوا عليّ هبوط جند فرعون على موسى، وأحاطوا بي وطوّقوني. أخذوا يقفزون عليّ كالنسانيس ويدورون حولي كالذئاب! منهم مَن ضربني بلكمات عِسرواية، ومنهم مَن نطحني برأسه، ومنهم مَن نكشني بكوعه، ومنهم مَن ركلني ركل البغال! كانوا يهاجمونني بوحشية الدببة وشراسة الأسود بلا هوادة ولا رحمة. لم يبقَ موضع واحد في جسدي لم تصبه نقرة أو لكمة أو ركلة. كانت دمائي تقذف قذف البركان على وجهي، وتسيل من أذنيّ سيل العرم في مأرب. كانت تتسرب من أماكن لم أكن أعرف أنها كانت موجودة في بدني من قبل! يومها فقط - ولم أكن قد أكملت عامي التاسع عشر بعد - عرفتُ نار جهنم قبل الأوان، وأدركتُ كيف يكون العقاب بلا ذنب أو حساب! يومها فقط عرفتُ كيف خسر كلاي لفريزير !=

وعلى أنغام الشتائم البلغارية ووقع الإهانات الشيوعية، واصل "جيش الحدود" ضرباته على رأسي ووجهي وأنحاء جسدي. كانت المجزرة دراما واقعية بالصوت والصورة والنقل الحيّ على مرأى ومسمع ركاب القطار المتوقف. ورغم الدوخة والضياع بدا الركاب لي - من طرف العين - شامتين مستمتعين بالمجان! كان منظري أمامهم مهيناً محرجاً، أكثر إيلاماً وإهانة من أوجاع الضرب والمسبّات، مع أني لم أعرف أحداً منهم ولم يكن وارداً الإلتقاء بأحدهم مرّة ثانية في حياتي.

حدود الجنون والهلوسة!

هروبي من القطار لحظة توقفه كان من شأنه أن يخلّ التوازن الدقيق بين أقوى منظمتين في العالم: "الناتو" و"وارسو"! يومها، كانت الحدود بين البلدين إلكترونية مشفّرة بالكامل حتى قبل بدء العصر الرقمي والإنترنت، بل كانت واحدة من أكثر الجبهات تعقيداً وحساسية وخطورة بين الشرق والغرب على الإطلاق. ورغم مرور نصف قرن على الحادثة، ما زلت إلى اليوم أستهجن فعلتي المتهورة تلك، وأتعجب من مخاطرة التخفّي بقطار يقطع حدوداً إلكترونية بين معسكري الحرب الباردة؟ فمَن منّا يجرؤ اليوم على التسلل عبر الحدود الإلكترونية بين كوريا الجنوبية وكوريا الشمالية مثلاً؟ مَن الغبي فينا اليوم الذي يرضى أن يقضي ليله بطولها مختبئاً في مكان بحجم علبة الكبريت؟ الملفت في حالتي أنني لم أكن هارباً من أحد، أو نازحاً، ولا طالباً للجوء السياسي، ولم أكن مساقاً بأمر محكمة لشهادة ضد أحد. جلّ ما أردته أن أكون سائحاً بالغشّ والمجان..

الصدمة عطلتْ حواسي مرّة واحدة وخدّرتني. صرت اِرتجف كخروف مكة في ليلة الأضحى. ولكن هل التهرّب من شراء تذكرة قطار يستأهل كل ذلك الذّل والبطش والتعذيب؟ ماذا يا ترى سيحلّ بي،

وهل سيعيدونني إلى إسطنبول، أم يتركونني أكمل مشوراي إلى صوفيا؟ أسئلة مضنية كثيرة غيّبتني عن اللحظة ونقلتني إلى عالم آخر. ولعلّي لا أبالغ أن رجال المحطة أنفسهم توجعوا من شدة ضربي، وسئموا من تكرار إهانتي وسبّي. وهكذا، سحبوني من رصيف القطار سحب الكلاب الميتة، وجرجروني إلى مبنى المحطة جرجرة الطرائد. هناك أمروني بالركوع في زاوية من زوايا قاعة كبيرة فارغة، موحشة وباردة، رغم صيف تموز. وبعد لكمات أخيرة على جسدي وبصقات إضافية على وجهي، قيدوني بسلاسل حديدية، تماماً كما كان الإستعمار الأوروبي يقيد العبيد بساحل العاج في القرون الوسطى. ربطوني بشدة وإحكام إلى "شوفاج" ضخم قديم (مدفأة)، وتركوني مفعوصاً بوجه الحائط. تذكرتُ فجأة جدار الفصل العنصري في ضيعتي عند الحدود مع إسرائيل. إلا أني سارعت إلى اِستعادة الوعي وتحسس الواقع من جديد رغم كُسُوري وهواجسي. وبطريقة غريبة مبهمة، كان ألمي مصدر راحتي، إذ أشعرني بآدميتي رغم السلاسل والعزلة والخوف! صرختُ من أعماقي بلا صوت، وبكيت من جوفي بلا دمع، وسلّمت أمري للمجهول.

لكل بداية نهاية...

ساعات طويلة مرّت. فجأة ظهر حارسان من باب جانبي لم أنتبه إلى وجوده من قبل. اِقتربا مني بحذر شديد، كما يقترب النمس من صيده. رمقاني نظرة السجّان وفكّا السلاسل عنّي وغادرا! ورغم تحريري من تلك القيود، بقي جسدي مقيداً بأحاسيس التخدير، كشعور المبتور بأطرافه المبتورة. ولما اِستعدت نصف توازني، اِنتبهت للشمس وهي تغرب من فتحة النافذة، وكانت أشبه بنوافذ الكنائس بقطعها الصغيرة وألوانها الكثيرة. وبعد برهة قصيرة، دخلتْ عليّ صبية شقراء جميلة

في لحظة كدتُ فيها قاب قوسين أو أدنى من فقدان التوازن مرّة أخرى. ورغم هيامي وآلامي، تشدقتُ أمام الحسناء بغروري، وأبرزتُ لها عنفواني، وتخيلتُ نفسي معها كعمر الشريف في قبضة الشرطة بأحد الأفلام المصرية. رمقتني نظرة فاتن حمامة، وبدتْ من ملامحها كما لو أرادت أن تقول: "دعك من التمثيل يا عزيزي، فأنا أفهم أوجاعك وأتعاطف معك"! وبكل أنوثة ورقة وشفقة، سلمتني صينية من القصب الكمبودي، وكان عليها طبق صغير من الكرتون وكوب كبير من البلاستيك مع قطعة من الخبز. وكما دخلتْ عليّ، خرجتْ من عندي وتركتني لمخاوفي وأوهامي. في ذلك اليوم البائس، ورغم أوجاعي الشديدة، "تشرفت" بأكل الفاصوليا على الطريقة البلغارية، وكانت تختلف كثيراً عن فاصوليا الأتراك، وربما ألذ الأكلات التي مرّت على لساني حتى تاريخه. يومها لم أكن أعرف أنني كنتُ سأتعوّد عليها إلى حدود الإدمان..

ساعة تقريباً عن طبق الفاصوليا، رجع الحارسان وقيّداني من جديد. كان واضحاً من سلوكهما أن تعذيبي الجسدي قد اِنتهى ولم يعد مفيداً أو مطلوباً. قاداني مشياً وسط بلدة الحدود، فبدت من شوارعها كما لو كانت ذات تراث عريق يتخفّى بتاريخ تركيا المجاورة. كانت الأزقة عند المغيب شبه خالية من السكان، والسماء رمادية قاتمة بلا طيور رغم دفء الجو. وبعد قرابة ربع ساعة من المشي الأعرج المتوجع والمتعرج، وصلنا إلى ما يشبه مخفر شرطة، وبدا اسم البلدة واضحاً من لوحته المعلقة أمامه، أو ربما كانت اللوحة لاسم المقاطعة نفسها (هاسكوفي). ومن المخفر، مشينا بضع خطوات إلى مبنى مجاور، وكانت فيه زنزانة بمساحة 3X3م. المفارقة أن وسط البلدة نفسه كان في الماضي السحيق "حبساً" (قلعة) ضخمة شُيّدت حصناً منيعاً بوجه الأتراك خلال الإمبراطورية البلغارية الأولى في القرن التاسع عشر.

ولكن قبل ذلك التاريخ، كانت البلدة وجوارها جزءً أصيلاً من الإمبراطورية العثمانية نفسها عقب غزو أدرنة عام 1361م في عهد محمد الفاتح. لذا، لا غرابة أن عاش في حاراتها وأزقتها مسلمون أتراك وإشتغلوا في أعمال خاصة وفي دوائر الدولة العلّيّة. وبالنظر إلى التاريخ المشترك الطويل المستمر، ما تزال هناك أحياء في البلدة تخصّ المسلمين حصراً وتُعرف بأسماء تركية صرفة أو مسلمة صافية. وأغلبية العائلات التركية في البلدة عملت بالزراعة والمهن الحِرفية، مثل صناعة السروج والدبغ والأحذية، بالإضافة إلى الصابون والجلود والفرو. إلا أن تاريخ البلدة مع العثمانيين لم يشفع لي ولم يخفف عني!

زنزانة العمر!

دخلتُ زنزانتي مكسور الخاطر مُطأطِئ الرأس. وعلى طريقة ديوان الأمير بشير في "دير القمر"، كان باب الزنزانة صغيراً ومنخفضاً، وكأنه صُمم لإجبار الداخل منه للإنحناء قسراً، أو لتمكين الحراس من الركلة الأخيرة. لم يكن هناك ما أستطيعه لتغيير قدري، أو للرجوع بالزمن قليلاً، أو حتى للتعبير عن معاناتي باللغة العربية أو الإنجليزية. لا أحد كان سيستمع إلى شكوى "مشاغب شارد" مثلي، دعكم أني كنت غريباً عن بيئتهم ومختلفاً عن ثقافتهم. بل حتى بلغة الإشارة، أو الفصحى، لم أكن قادراً على التعبير والدفاع عن نفسي! يومها صراحة لم أكن أعرف الفرق بين "الهروب" و"التهريب" و"الهَريبة"، بين "الجناية" و"الجنحة" و"المخالفة"، أو بين "العفوية" و"التعمّد" و"القدر"! لم تكن لديّ أي فكرة عما كان يعنيه مفهوم "وارسو" أو "الناتو" أو "عدم الإنحياز". لكن رغم جهلي بمصطلحات "الجريمة والعقاب" و"الحرب الباردة" وتبعات المواجهة بين معسكرات المواجهة، أدركتُ في تلك الزنزانة أن الطعام وحده كان سيكون

"رفيقي" الأمين في وحدتي، وأنني مهما حصل سأكون كالعشب الطري، لن أنكسر. كنتُ واثقاً أنه لا بد من بصيص ضوء في نهاية النفق مهما تعرّج وإمتدّ! وعلى تلك الثقة المفعمة بالأمل والإيجابية رميتُ نفسي على الحصيرة وغرقت في سُبات عميق!

على زقزقة العصافير ونقنقة الدجاج في الجوار، إستيقظت مرعوباً من كابوس الضرب والإهانات. إعتقدت للحظة أني كنتُ أصحو كالمعتاد في مكاني المعهود بمحطة سكك الحديد في إسطنبول! لكن سرعان ما هبط جو الزنزانة على رأسي وأعادني إلى الواقع المرير. هناك عند مدخل باب الأمير بشير كانت تنتظرني ثلاثة أطباق من الفاصوليا الباردة، ومعها ثلاث قطع من الخبز الصلب، وثلاث عبوات بلاستيكية من الماء. كان فرحي بها فرح الطفل بلعبة العيد، وأكلتها كما أكل الحواري "عشاءهم الأخير". وحتى الماء الفاتر، شربته إلى آخر قطرة منه كما لو كان ماءً مقدساً من نهر الأردن. كان التفكر بما حصل معي في آخر 12 ساعة يشغلني ساعات طويلة عن وحدتي في الزنزانة. وعلى "خربشات" الذين دخلوها قبلي، بدأت بـ"خربشة" رزنامتي على جدرانها. إذ إن حرس المحطة جرّدوني من "خرقة" ظهري (شنطتي)، ومن كل أشيائي، بما في ذلك الحزام وأشرطة الحذاء ودفتري وقلمي، فضلاً عن "الأموال المنقولة". فإستعملت للنقش على الحيطان أظافري الطويلة وأزرار قميصي الرثّ. وهكذا، كانت إشارتي الأولى تؤرخ ليومي الأول، 21 تموز..

ورغم الضجر والخوف، أخذتْ الأيام تكرج على روزنامتي كرج الدموع على الوجه. كنتُ، كل صبح في السادسة، أقوم مذعوراً على ضرب الباب ببندقية الحارس ومناداته الغليظة. فكان يستعجلني للنهوض عن حصيرتي والإسراع إلى الحمام. ومع أن المرحاض لم يكن بعيداً عن الزنزانة في الهواء الطلق، لكن لم يكن فيه ماء يُطهّر،

ولا باب يستر، أو محارم تنفع. كنتُ أكتفي بالتبوّل "الإكسبرس" السريع، وأعزّي نفسي برومانسية "تفريغ" المثانة على الحدود الدولية بين "وارسو" و"الناتو" أمام أعين الحراس..

وبإستثناء لحظات الصقيع أثناء الصبح الباكر، كان جو تموز داخل الزنزانة مقبولاً رغم إرتفاع الحرارة في منتصف النهار. كانت أيامي هادئة وآمنة، ولم يكن لديّ ما يدعو للقلق أكثر مما كنتُ فيه. لم أكن رضيعاً بحاجة إلى ثدي أمّي، ولا طفلاً لحماية أبي، أو تلميذاً في مدرسة صيفية، أو موظفاً، أو متزوجاً، أو عاشقاً، أو مديوناً. كنتُ حراً طليقاً في سجني. كل ما همني من الوجود يومئذ موعد خروجي ومواصلة مشواري إلى صوفيا. وجلّ ما أردته من نفسي البقاء بعيداً عن لبنان بإتجاه الغرب وإختبار أشياء جديدة لأضيفها إلى سجل تجاربي. يومها لم أكن أقدّر العواقب ولم إستوعب التبعات!

محاكمة العصر؟

في اليوم الخامس والعشرين على توقيفي، دخل عليّ ثلاثة عساكر لم يسبق أن رأيتهم في أي موقع من قبل. عبارات من هنا ومصطلحات من هناك وضجيج في الخارج. لم تكن لديّ أي فكرة عما كان يجري حولي، بل كنتُ واثقاً أن العساكر أنفسهم لم يكونوا على علم بشيء هم أيضاً. وبعد لحظات من الحركات البهلونية، وجدتُ نفسي مقيداً بالسلاسل من جديد مثل بروميثوس في أساطير اليونان. أخرجوني من الباب الصغير بعناية فائقة وكأنهم كانوا يخرجون تحفة زجاجية قيمة من متحف عريق. ثم سحبوني بهدوء تحت سرب من طيور مهاجرة على مرأى كلب المخفر والدجاج في الحديقة. قادوني مشياً بطيئاً في شوارع البلدة، وكانت قد إستفاقت لحركة الصباح وإزدحمت بالمارة.

كان منظري أمامهم مدعاة اِحتقار واِستهزاء وسخرية، خاصة من قِبل الأولاد والصبيان! بدت المسافة، بفضول الناس وسخطهم، كأنها بطول سور الصين العظيم! كيف يا إلهي لمراهق مثلي أن يُشغلَ بلدة بأكملها عن أعمالها بذاك القدر من التعجّب والفضول؟ كان المارة يُحدّقون بوجهي ويشيرون إليّ كما لو كنتُ الموقوف الوحيد في سجن البلدة، أو جاسوساً خطيراً لحلف الناتو؟ أغلب الظن أن الكل كان "يعمل" على مراقبة "الكل" في بلد لا بطالة فيه ولا ثقة بين أهله. هكذا، وصلنا إلى حصن كبير على جانب ميدان عام، فظهر لي تقليدياً كما تظهر مباني البلديات وسط المدينة. هناك على مدخله المتهالك حرّرني العساكر من السلاسل وسلّموني إلى حرّاس مدنيين. لا بد أن منظري (كما تخيلته) كان "رثاً مُهركلاً" أشبه بإرهابيي السبعينيات، وربما بدوتُ للمارة في الشوارع قبيحاً بائساً مثل جهيمان العتيبي يوم مسكوه في الحرم المكّي! ولغاية ذلك التاريخ لم أكن قد نظرتُ إلى المرآة منذ آخر مرّة بمحطة السكك في إسطنبول!

وبعد خمس دقائق مثيرة من المشي داخل أروقة البلدية، طلعنا درجات قليلة إلى غرفة صغيرة، كانت جدرانها "مزينة" بلوائح وإرشادات وشعارات. كانت تلك الغرفة المتواضعة فكرتهم العظيمة عن قاعة المحكمة. مأموران مدنيان على طرفي طاولة مستطيلة، جلستْ بينهما حسناء في العقد الثالث من عمرها تحت شعار كبير لـ"ميزان" العدالة. كانت ترتدي ثوباً باهتاً يشبه زيّ ممرضات "الصليب" الأحمر الشيوعي. وبالفعل، كانت هي القاضية نفسها و"ممرضة" القانون وخبيرة التحكيم. إنه لأمر مدهش كيف يتشارك الشرق والغرب بأزياء العدالة ورموزها، وكيف يلتقيان على "ميزان" واحد، رغم اِختلاف مقاييس الترافع ومفهوم العدل بينهما. وما لفتني أيضاً المعلقات المبعثرة على الجدار خلف القاضية. كانت هناك ساعة كبيرة وُضعت

تحتها بطاقة بخط اليد تحمل اسمي والتاريخ باللغة اللاتينية، لكن بقية الكتابة في البطاقة والمعلقات كانت باللغة البلغارية أو الروسية!

ومع علمي المسبق يومها أن محاكمتي لن تكون من العيار الثقيل، إلا أني تصورتها مشهداً من محاكمات "نورنبيرغ" الشهيرة. ولكن بعد تبادل كلمات قليلة بالبلغارية ومداولات وجيزة فيما بينهم، طلبت القاضية من الحرس إعادتي إلى الزنزانة. لم أفهم ماذا قالوا وماذا حدث؟ كان الأمر خيبة أمل كبيرة لأنه لم يتسنَ لي حتى إلقاء التحية على القاضية، ولم أتفوّه بكلمة واحدة، لا بالعربية ولا بالإنجليزية، ولا حتى بما تعلّمته سمعاً من دردشات الحراس خارج زنزانتي. كنتُ أتصوّر أن أحداً في المحكمة سيطلب مني الحلفان على القرآن، أو القَسم على الإنجيل، أو أداء اليمين على التّوراة. بل، ولأن بلغاريا كانت بلداً شيوعياً عتيداً لم يؤمن بالله واليوم الآخر، فقد عَنّ على بالي فعلاً أنهم ربما كانوا سيطلبون مني الحلفان على كتاب أطفال أو كتاب أمثال شعبية وحِكم. بيد أن الله عندهم كان قد تقاعد مبكراً منذ الثورة البلشفية عام 1917م، ولم يعودوا بحاجة إلى كتب مرسلة من السماء واِكتفوا بما أرسلته موسكو إليهم من مناشير وتعليمات. أخرجوني كما أدخلوني، وقادوني مرّة أخرى عبر نفس الشوارع الضيقة أمام أنظار نفس المارة الفضوليين، ونفس صيحات السخط والمسبّات والإحتقار. وأمام تلك الإساءات الجارحة، بدتْ زنزانتي بجوار الكلب والدجاج والصيصان جنةً آمنة وعرشاً متيناً.

دارت الأيام.. وطارت!

المحكمة نفسها لم تقلقني، لكنها حيّرتني! أطلقت العنان لتفكيري حول جدوى حضور الجلسة من أصلها؛ فعلى قول المثل: "تيتي تيتي مثل ما رحتي، جيتي". لم أفهم لماذا أخذوني ولماذا ردوني أساساً؟ بيد أن

سكينة الزنزانة وهدوء الجوار، دفعاني للتفكير ملياً بوقائع المحكمة، فلربما كان في الأمر شيء فاتني؟ فأخذت إسترجع صور الطريق إلى المحكمة، وأعيد إلى ذهني كل شاردةٍ عدتْ أمامي أو واردةٍ مرّت على نظري. وبإستثناء رائحتي الكريهة، لم أجد سبباً وجيهاً لإختصار وجودي في المحكمة. مَن يدري، ربما كان إستدعائي مجرد إجراء شكلي لتمرير الحكم النهائي وليس تمهيداً لإستنباطه. وفي معمعة التخمين، ظهرتْ بمخيلتي فجأة بطاقة إسمي والتاريخ أثناء مثولي أمام قوس المحكمة. ويا لدهشتي، فقد كان تاريخ المحكمة متأخراً عن تاريخ حِسْبَتي بثلاثة أيام. إذ إن "رزنامتي" على الحائط كانت تُبيّن 25 خربشة واضحة، مَثّلت 25 يوماً من تاريخ دخولي الزنزانة في 21 تموز.

وعلى هذا الأساس، فإن تاريخ المحكمة كان ينبغي أن يكون 15 آب (وليس 18 آب كما ظهر لي من البطاقة) بالنظر إلى أن شهر تموز 31 يوماً. لكن كيف طار الفرق بيني وبين المحكمة وكنتُ أنقش الأيام بنفسي يوماً بعد يوم؟ فجوة زمنية "عجيبة" إحترت في تفسيرها وحيرتني في غموضها. فقضيت ساعات طويلة أُحلّل الوقائع وأقارن التواريخ في رأسي المشوّش. لم يخطر على بالي (إلا عندما إستسلمتُ و"كعيتُ") أنني غرقت بنوم عميق عندما أحضروني إلى الزنزانة أول مرّة. فلا بد أني فقدتُ الوعي من شدة الضرب والعياء ونمتُ على أثرهما نوم أهل الكهف! ربما خدّروني من أول طبق فاصوليا أكلته قبل وصولي إلى الزنزانة بساعة! ربما تعمّدوا لي الإسترخاء طويلاً بدون آلام وآهات. وربما أيضاً - وهذا الأرجح – أنني كنت مُرهقاً من ليل طويل بلا نوم في مخبأي على القطار منذ غادرت إسطنبول. في جميع الحالات لم يكن نومي طبيعياً، بل كنتُ في غيبوبة سريرية إستغرقت ثلاثة أيام؟ لعلّ الدليل على صحة تقديري أنه عندما

اِستيقظت من غيبوبتي، وجدتُ ثلاث وجبات مكدسة عند باب الزنزانة. يومها لم يخطر على بالي أنها كانت مخصصة لثلاثة أيام، بأمارة أنني لم أُعطَ بعدها إلا وجبة واحدة في كل يوم. اِنكشف الغموض واِنحلّ اللغز واِتضحت الرؤية. لقد غرقتُ في سُبات عميق وضاعت من عمري ثلاثة أيام كاملة! لكن ماذا عن اللغز الآخر؟ ماذا عن قرار "حضرة" القاضية؟ كيف يا ترى أكشف غموضه وأفسّر حيثياته؟ لم يكن لديّ أدنى فكرة عن نظام القضاء في بلغاريا، ولا عن مفاهيمها للعدالة. كما لم يكن هناك مَن يشرحه لي ولو بالإشارة أو الرسم! كان واضحاً أن الإستهتار بقضيتي لم يكن متعمّداً لشخصي، بل كان ممارسةً اِزدرائية روتينية بحق كل السجناء الأجانب، خاصة إذا كانت ملامحهم شرقية مثل ملامحي ...

فأرة في قبضة الأمم

بلغاريا في تلك الأيام كانت موقعاً متقدماً للسوفيات في حربهم الباردة مع الغرب. كانت محشورة بين دولتين من دول حلف "الناتو": تركيا واليونان. كانتا تتربصان بالبلغاريين وتمثلان تهديداً حقيقياً كبيراً لهم من جهة الشرق والجنوب. لذا، كانت حماية حدودها منهما حديث الساعة في الأوساط البلغارية والهاجس الدائم لنظام الحكم الشيوعي. ولا عجب أن البلغاريين في ذلك الوقت كانوا فرحين جداً لإغتنام تركيا فرصة اِنقلاب اليونان في قبرص ما أدى إلى تقسيمها لاحقاً. كان رد تركيا على اليونان "قدراً سماوياً" لراحة بال البلغاريين مدى العمر، لا سيما أنهم كانوا يخشون أي تحركات عدائية مفاجئة من الدولتين، خاصة أن العالم يومئذ كان يعجّ بعمليات الخطف والتفجير بين المعسكرين. وعلى سبيل التأكيد على جدّية خوف بلغاريا من دولتي "الناتو" على حدودها، عرفنا فيما بعد أن النظام البلغاري نفسه أمضى عمراً (منذ 1971م) وهو يُخطط لعملية إرهابية اِستباقية للصيد بالماء

العكر بين اليونان وتركيا. العملية يومها سُميّت بالاسم الرمزي "الصليب"، وكانت ترمي تحديداً إلى إضرام النار في بطريركية القسطنطينية المسكونية (في إسطنبول)، بحيث تبدو للعالم أنها من تنفيذ تركيا ضد اليونان. كانت فكرة النظام البلغاري تقوم (حسب نصّ الوثائق التي رُفعت عنها السرية فيما بعد) على أن "اللعب على النعرة الطائفية" بين الأتراك المسلمين وبين اليونانيين المسيحيين كان من شأنه أن يهزّ العلاقات التركية - اليونانية، ويُجبر أميركا على اِختيار جانب أحدهما، مما كان سيقّسم جبهة "الناتو" لصالح بلغاريا. ومع أن أجهزة المخابرات وسرايا الشرطة السرية في بلغاريا كانت جميعها على أُهبة الإِستعداد لتنفيذ العملية خلال صيف 1971م، إلا أن النظام البلغاري عَدل عن الفكرة وتراجع عن التنفيذ لخطورة العواقب الدولية. ثم إن علاقات بلغاريا بحركات التحرّر العالمية والفلسطينيين واليسار عموماً كان من شأنها آنذاك أن تُوجّه أصابع الإتهام تلقائياً إلى المعسكر الإشتراكي، وليس إلى الأتراك حكماً.

ومع أن تلك الأجواء التآمرية الهستيرية كانت سابقة لتوقيفي، إلا أن مفاعيل الإنطباعات عنها وظروف العالم لم تكن قد تغيرت كثيراً على ضوء الغزو التركي لقبرص. كانت ظروف بلغاريا ما تزال حساسة بجيرتها مع تركيا واليونان للأسباب التقليدية ذاتها.. أما على المستوى الشخصي، فلم أكن أعرف يومها كيف نظر البلغاريون إليّ بسياق التيارات الإقليمية؟ فهل كنتُ بنظرهم عميلاً تركياً، أم يمينياً من كتائب بيار الجميل، أم يسارياً من جماعة كمال جنبلاط، أم قومياً من رجال عرفات في بيروت، أو بعثياً من جواسيس صدام؟ في جميع الأحوال لم تكن نظرتهم إليّ مُحابية أو متفهمة..

الوجهة الصحيحة!

بعد يومين على محكمتي، جاءني النبأ اليقين إلى عقر زنزانتي! فهمتُ بالرطانة البلغارية أن القاضية حكمتْ عليّ شهرين بالإضافة إلى مدة التوقيف. الحكم بتقديري كان أخف بكثير مما توقعت، إذ لم يكن عقوبةً قاسية من نظام شيوعي ذات سمعة ديكتاتورية وحشية. فلو كنتُ اِعتديتُ على رجل أمن لبناني على الحدود مع سوريا، مثلاً، لكنتُ سأقضي سنين شبابي خلف القضبان في منطقة عكار، فضلاً عن رشى وإكراميات وأجور كان أهلي سيتحملونها في الدفاع عني. شكرتُ الله أن الحادثة لم تقع لي في لبنان أو سوريا أو تركيا. وبالرغم من ذلك، لم أفهم لماذا حَرَمني البلغاريون حق الدفاع عن نفسي أو تمثيلي، ولماذا لم يكلفوا أنفسهم عناء الإتصال بسفارة العراق، ممثلة جواز سفري، على الأقل من الناحية الشكلية أو لغرض الإحصاء العام. صدام حسين يومها كان له مع رئيس جمهورية بلغاريا، تودور جيفكوف، علاقات قوية أُضفيت عليها متانة الطابع الرسمي من خلال معاهدة صداقة وتعاون بين البلدين. ومَن يدري، فلربما لم يرغب البلغاريون بتضخيم مشكلتي "الصبيانية"، أو رفعها إلى السفارة وإزعاج السفير بها، أقله مما نضح من الحيثيات المقتضبة والعقوبة المختصرة. لكن كان بإستطاعتهم – لو أرادوا - الإتصال بالسفارة اللبنانية، بإعتبار أن لبنان كان بلد إقامتي الدائمة؟

وبعد صدور الحكم على ورقة بخط اليد، وصل عسكريان إلى الزنزانة في صباح اليوم التالي باكراً جداً. قيداني واِصطحباني مشياً مرّة أخرى على طرقات البلدة وهي خالية تماماً من السكان والحركة. كان واضحاً أن وجهتنا محطة سكك الحديد - خاصة أنه لم يكن في الجوار شيء غيرها. القطار كان متوقفاً في المحطة بإنتظار إنهاء معاملات العبور والتفتيش والجوازات. صعدنا عليه وكان مكتظاً بالركاب النِعاس المتعبين القادمين من إسطنبول. وبترتيب أمني بين سلطات الحدود،

كانت المقاعد الأربعة الأخيرة في آخر القطار قد حُجزت لي خصيصاً، (على شرفي)، بالإضافة إلى مقاعد جانبية للمرافقة الأمنية! هناك، فكّوا قيودي وحشروني بقضبان النافذة، وتركوني لأفكاري وتأملاتي. كان أقصى ما تمنيته في تلك اللحظة الوجدانية ألا يطلّ عليّ مفتش التذاكر نفسه الذي حاولتُ الهروب من دربه قبل شهر تقريباً، أو الأسوء، ألا يتعرف هو عليّ ويتذكّر لكمة محمد علي كلاي على وجهه. كنتُ خائفاً ومرتبكاً، ليس فقط من مفتشي القطار وأجواء المقصورة و"رائحة السفر" التي جرّت معها كل الكوابيس، بل أيضاً من "وضوح الغموض" أمامي ومن توجساتي عن المصير المنتظر.

***

على صفارات الإنذار المألوفة، تحرّك القطار بالإتجاه الصحيح إلى صوفيا. فجأة نقلتني قرقعات العجلات إلى ذكرياتي الأولى مع غبريال ومالك. فمناظر البراري والبيوت والسيارات الكرتونية والشاحنات الشيوعية كلها كانت حاضرة في ذاكرتي. إلا أن الفارق الوحيد، أنني في المشوار الأول كنتُ حراً طليقاً "أنطنط" كالعصفور من مقعد لآخر، وأدخن سجائر أميركية، وأبصبص على الحريم! وبعد ساعات حبيسة - ولم يسمح لي خلالها حتى بشرب الماء - وصلنا عند منتصف النهار إلى محطة "بلوفديف"، ثاني أكبر مدينة في بلغاريا بعد العاصمة. المدينة تقع في منتصف الطريق إلى صوفيا، وتبعد عنها نحو 150 كلم. وما إن توقف القطار على رصيفها حتى أعاد الحرس قيودي وأنزلوني من الباب الأخير بجانب مقعدي، ثم ساقوني ذليلاً أمام عيون المارة وروّاد المحطة وعمالها. خطوات معدودة وإستقلينا سيارة سوداء كانت بإنتظارنا عند مدخل المحطة. يومها، لم يكن الفاكس أو "الواتساب"، ولا الإيميلات والرسائل الصوتية قد ظهرت بعد. بل حتى جهاز "الوكي توكي" كان يُحجز فقط للعسكر ورجال

المخابرات وأجهزة الطورائ. كانت ترتيبات نقلي بالنسبة لهم من الشكليات الروتينية المُعدة سلفاً بواسطة مذكرات ورقية داخلية ومكالمات هاتفية أرضية. الملفت أن كل شيء مع البلغاريين كان يتم بحِرفيّة عالية وبدقة الإنجليز واِنضباط الألمان، أقله بالنسبة لتجربتي معهم في ذلك الوقت!

مخاض عسير

"بلوفديف" لم تختلف كثيراً عن باقي المدن الشيوعية. مبانيها كانت قديمة وساحاتها عريضة وميادينها واسعة. أو ذاك، على الأقل، ما بقي من اِنطباعي عنها خلال مشوار الطريق من المحطة. بعد ساعة تقريباً، توقفنا أمام بناء ضخم لم يكن يخضع لحراسة، أشبه بمصنع مهجور. هناك عند المدخل، فكّوني من قيودي وأدخلوني من بوابة صغيرة ضمن باب كبير يُشبه أبواب المباني القديمة في باريس. كانت الممرات في المبنى نفسه مليئة بطاولات بالية ومقاعد خشبية مترهلة وأدوات نجارة مشوّهة. المكان ظهر وكأنه مركز محاضرات مُهمل، أو محفل لتجمع كوادر حزبية. فجأة، وصلنا إلى قاعة كبيرة فارغة أشبه بقاعات كرة السلة، فتركوني وحيداً فيها بلا كرة ولا سلة! من كلماتهم الغامضة وحركاتهم المريبة، فهمتُ أنهم كانوا سيعودون بعد حين. وبالفعل، لم يكذّبوا خبراً، فقد رجع أحدهم بعد نصف ساعة تقريباً ومعه ما بدا أنها صينية طعام كاملة. الأكل عليها كان ملفوفاً بورق صحف بالية، ومصحوباً بعلب كرتون ملوّنة. لم يكن على الصينية شيء صلب واحد يستعمل لنقر "الخربشة" على الحائط أو للإنتحار! ومن حظي الكبير أن الوجبة تلك المرّة لم تكن جبناً ولا فاصوليا كما في الزنزانة، كانت ما يُشبه شوربة العدس مع طبق من الرز المسلوق ومدعبلات من الكفتة الشيوعية (!). يومها لم تكن طريقة الأكل

السفاري *(Delivery)* قد اِستُوردت إلى أوروبا الغربية بعد، ناهيكم عن أوروبا الشرقية. ومن يدري، ربما أحضروا وجبة الطعام من مأوى عجزة قريب، أو من المستشفى المجاور!

ومع طبق الأكل بين يدي، تركني الحارس أنفرد به على طريقتي، وكان الرجل من النباهة بمكان أن أشار عليّ إلى دلو (سطل) في إحدى زوايا القاعة، متمنياً لي حظاً سعيداً ووقتاً ممتعاً! "ففهمناها سليمان"- فهمت منه أنني سأقضي ليلتي في القاعة وحيداً منفرداً. ومرّة أخرى، فلربما كانت عندهم ملاحظات خطية سلفاً عن طباعي وطبيعتي، ولربما قرأوا فيها أنني لم اِستعمل المرحاض لغير التبوّل منذ أن قبضوا عليّ! فبعد ثلاثة أسابيع من الحصر القاتل، كانت المشكلة معي صحية خطيرة بقوة 8 درجات على مقاس ريختر!

ورغم وحشة المكان وبرودته، وقعتُ بغرام الدلو فيه من أول نظرة. إذ بعد تناول وجبة الغداء مباشرة بدأتْ الإنقباضات في معدتي تعصر على جوانبي وضلوعي عصر الأفعى على فريستها. ورغم الخطوات القليلة التي كانت تفصلني عن الدلو، إلا أن آلام المخاض هبطت عليّ فجأة وحالتْ دون تحركي بأي اِتجاه. جلّ ما أتذكره في نهاية المطاف أني عانيتُ طويلاً وتعذبتُ كثيراً برفقة الدلو قبل الوصول إلى ذروة العذاب ورعشة "الخلاص"! السطل بجواري كان مثالياً لِخِلفة من نوع آخر. وإذا كان من شيء يليق بالذكر عن تلك التجربة المؤلمة، فهو أني ليلتها فقط أدركتُ جسامة "الطَلق" وحجم الألم والعذاب عند النساء. ومع فارق التشبيه، كان "وليدي" في تلك الليلة الطويلة عبارة عن شيء كروي يشبه طابة المضرب التي يستعملها الأميركيون في لعبة "البيسبول". أكبر من كرة التنس بقليل وأصغر من رأس الطفل بقليل ويزيد قطرها عن 8 سم. كان منظر "الكرة" من تحتي شيئاً مخيفاً جداً لمراهق مثلي! وبعكس كرة المضرب المصنوعة عادة من قطع

الفلّين والمطاط، كانت "كرتي" قطعة واحدة من فضلات "اليورانيم الطبيعي" مغطاة بأشلاء دموية وأشياء مقززة! لم تهبط من أحشائي إلا بطلوع الروح وشق النفس بعد محاولات عسيرة ومضنية. ولا بد أنني خلال المخاض أفرزتُ من العرق ما فاض عن طوفان نوح، لا سيما أنه لم تكن معي جارة تُبرّد جبهتي أو داية تُلهيني عن وجعي. كنتُ وحدي مع سطل وحيد في زاوية مظلمة. ومع آخر نفس من الرمق الأخير، طلّ "الفرج" عليّ مبشراً بطلوع الفجر. فتنفست الصعداء وشعرتُ كما يشعر المرتاح بعد الجراحة والمورفين. تلك كانت أسعد لحظة في حياتي قاطبة، لم أشعر بمثلها لا قبلاً ولا حتى اليوم، اللهم إلا يوم ولادة أبنتي الأولى. كانت فرحتي بـ"خلاصي" كفرحة أنثى بعد أول خِلفة لها؟ يومها، تحرّرتُ من سجني وَوُلدت من جديد.

سجن الحرية...

دقائق قليلة من السكينة والراحة، وجاءني الحارس إلى "غرفة الولادة" مع طلوع الشمس! قيّدني من جديد وأخذني إلى سيارة سوداء كانت بإنتظارنا، وتوجهنا مباشرة إلى محطة السكك. وعلى نفس الترتيبات وإجراءات الحراسة في المقاعد الخلفية، إنطلق القطار بنا إلى الوجهة المرصودة. وكما في المرّة الأولى، لم يعطوني وجبة فطور ولم يسمحوا لي بشربة ماء. ربما كانت هناك تعليمات صارمة بمنع الأكل والشرب أثناء نقل الموقوفين والسجناء.

أخيراً وصلنا إلى صوفيا. أجواء العاصمة لم تكن غريبة عليّ. إذ كان لي بضواحيها سجل طويل وذكريات رومانسية خلال مشواري الأول مع غبريال ومالك. ومن المحطة، إنطلقنا مباشرة إلى "بولفار الحيرة والمجهول". وبعد حين، طلّ علينا من بعيد بناء ضخم متهالك أشبه بقصور بلاد العجائب، بل كأنه كان معسكراً للتدريب خلال حملات

الصليبيين في طريقهم إلى الشرق. غير أن الصليبيين لسبب من الأسباب لم تستهوهم صوفيا طويلاً، فكانوا اِبتداءً من الحملة الثالثة يواصلون المسير دون التعرّج عليها والتوقف فيها. ربما صار المعسكر بعد ذلك "مسكوناً"، فتجنّبوه كما تجنّب المسلمون التوقف في "العُلا" خلال رحلتي الصيف والشتاء. إلا أن الغريب في أمر الصليبيين أنهم لم يعرجوا على مدينة "فارنا" البلغارية على البحر الأسود! صحيح أنها كانت خارج طريقهم المباشر إلى القسطنطينية، إلا أن صيتها كأول موقع اِكتُشف الذهب فيه عبر التاريخ (4500 ق.م) كان ما يزال نابضاً ومثيراً للفضول في ذلك الوقت. لذا، فإن إلحاد الصليبيين عن طريق الذهب، كان أمراً مُحيراً، خاصة أنهم لم يتقصدوا الشرق إلا لنهب الكنوز والثروات! لم يقطعوا المسافات الطويلة من فرنسا وبريطانيا لمجرد الصلاة في القدس أو الموت فيها، إنما لنهب الخيرات وتطويع الشعوب، لا سيما أن ملوك أوروبا والكنيسة تحملوا أعباء مادية فلكية...

لم يكن مشوارنا من المحطة إلى السجن طويلاً. فمن ملامحه البالية وتَرهل مبانيه عن بعد، يُخيّل إليك أنك أمام أقدم أثر في صوفيا كلها. إلا أن بناءه لا يعود إلى أكثر من قرن واحد فقط. المفارقة الطريفة أني كنتُ قد مررت به من قبل خلال مشواري الأول مع غبريال ومالك، لكن يومها اِعتقدنا أنه كان مُجمّعاً للحظائر والزرائب من القرون الوسطى. لم يخطر على بالي في حينه أنه السجن المركزي، ولم أتخيل يومها أني كنتُ سأكون في أحد الأيام بضيافته أو واحداً من نزلائه العشرة آلاف. الدنيا لها حِساباتها، والقدر له حِسبته، ومشيئة الله تنهي كل الحسابات معاً. وكالعادة في إجراءات التسلم والتسليم، تمت المعاملة الورقية بسلاسة بين حرّاسي المرافقين ومأموري السجن،

وكان النهار ما يزال على منتصفه. بدا واضحاً أنني كنتُ على مفترق طرق خطير!

عقوبتي بمعيار السجون الكبيرة كانت "مزحة" صغيرة، إلا أن سجن صوفيا لم يكن مضحكاً ولا مُسلياً، خاصة بالنسبة لشاب مثلي؛ فمن اللحظة الأولى بعد تسليم أوراقي وتسجيل وصولي في "سجل الشرف"، جُرّدتُ من ملابسي كلها في باحة السجن أمام نوافذ المساجين، وعُرّيتُ تماماً تحت أنظارهم كما أُنزلتني أمّي من رحمها. ولغاية تاريخه لم أكن قد نزعت ملابسي يوماً خارج الحمّام، أو شطّ البحر، أو في العتمة مع الجنس الآخر! نزع الملابس على الملأ كانت طريقة السلطات لإهانة السجناء الجدد وتحقيرهم لحظة وصولهم.

دقائق على عرائي مرّت كالساعات في الهواء الطلق وتحت شمس دافئة. وصل حلّاق السجن إلى الباحة، وكان مجهزاً تماماً بأدوات الحفّ والقصّ والنتف. فأخذني تحت إبطه بعزم وثقة، وإنتزع "بجرافته" الكهربائية كل الشعر والوبر والزغب من على بدني. فبَدوتُ بين ذراعيه كالكتكوت المنتوف. ثم إستنال أصابعي بخفة، وقصّ أظافري كما يقصّ الطبّاخ جذور الخضروات. ولولا أن أظفري كانت بطول مخالب الدبّ، لغرز مقصّه في لحمي وقطع منه. بعدها انتقلنا إلى المرحلة الثانية، أي إلى ورشة التعقيم والتنظيف. هناك، أخذ "عامل المطافي" بتوجيه خرطومه نحوي، وإنهال يرش الرغوة ويسابق القمل والجرب على تضاريسي. ومن كثرة الأنابيب والإسفنج وسطول الماء والصنابير والمماسح، خُيّل لي لوهلة أني كنتُ شاحنة دولية في مغسلة مركبات آلية. بعدها أعطوني منشفة بطول باب السجن الرئيسي، وكانت من شدة تعقيمها، مقدّدة خشنة تضاهي مناشف الحجّ والعمرة. ربما كانت مصنوعة من الكتان البلغاري، أو من القطن الرخيص، أو الخيش المتين! كان واضحاً أنها صُممت

خصيصاً لترافق المساجين فترة محكومياتهم! وعلى طريقة الحمّامات التركية، أدخلوني إلى ردهة أخرى، فإذا بي أمام رجل بدين كالسومو الياباني بثوب أبيض، نظارته كانت أكبر من السماعات على صدره. ولوهلة، اِعتقدت أنه طبيب بيطري، لكن لما فحصني شكلياً على طريقة القاضية التي حاكمتني بلا همس، أدركتُ أن أعراضي كانت، مثل جريمتي، خفيفة وعابرة. لم يُطلب مني القفز على الميزان، ولا مدّ اللسان، ولا حتى نظرة خاطفة على اللثة والأسنان. ومع ذلك، ناولني أقراصاً، الواحدة منها كانت بحجم رصاصة من عيار 37 ملم. لكن سرعان ما اِكتشفت أنها كانت حبوباً لتليين المعدة وتسهيل الخروج من الطراز الروسي الثقيل. كان يُفترض أن تُعطى لي يوم أوقفوني قبلها بثلاثة أسابيع..

جناح النشطاء

"البلوك D" كان مخصصاً للسجناء الدوليين، ومعظمهم كان ينتمي إلى المعسكر الغربي: مجموعات من المجرمين والجواسيس والنشطاء السياسيين. كان بينهم أيضاً روّاد في الدفاع عن الديمقراطية وحقوق الإنسان، فكانوا يُهرّبون النشطاء البلغاريين إلى الغرب بإستخدام بلغراد وبرلين ووارسو كنقاط للمواعدة والتبادل. إلا أن مشكلتي في السجن أن "بُروفايلي" (سجلي) كان مختلفاً عن سجلات الآخرين حسب المعايير الجنائية، لا بل كنتُ أيضاً أصغر النزلاء فيه. كان يُفترض - بحكم سني وقصر محكوميتي - أن أُودع في سجن الحداثة دون 18 سنة، لا في غرفة 4×3م مع ثلاثة من أخطر سجناء ألمانيا الغربية وإيطاليا وإسبانيا.

الزنزانة في سجن صوفيا كانت منزلي الجديد لشهرين بطولهما. الأمر يومها اِختلف تماماً عن زنزانتي في "هاسكوفي" عند الحدود مع تركيا؛ ففي صوفيا لم أكن سجيناً اِنفرادياً، ولا محبوساً "على العمياني". كنتُ أعرف سلفاً مدة عقوبتي وأسماء السجناء معي ومحيط السجن من حولي. صحيح أنني كنتُ مأسوراً، لكن لم أكن خلف القضبان على مدار الساعة. ثم إني لم أتناول وجبة واحدة كل يوم، بل ثلاث وجبات مع خروج منتظم إلى الحمّام بمعدل مرتين في اليوم الواحد. كانت هناك أيضاً "فرصة الساعة عشرة" صباح كل يوم، ندور فيها مشياً حول أشجار حديقة السجن تحت سماء مكشوفة وهواء نقي. كان "رفاقي" الثلاثة في الغرفة متزوجين ولديهم أبناء، وكنتُ أشعر بغربتهم، وهم بغربتي، وكانوا ينظرون إلي ويعاملونني كواحد من أولادهم.

من طرائف ظروفنا أن أحداً منا الأربعة لم يكن يعرف لغة الآخر، بينما كانوا هم الثلاثة بسبب أحكامهم الطويلة متمكنين من لغة الحراس البلغارية. فكنتُ لذلك أتحدث معهم برطانة عجيبة. خلطة من حركات الأيدي والإشارات الدولية المألوفة وبعض المفردات العربية والبلغارية والإنجليزية. وغالباً ما كان الحوار البهلواني معهم يجعلني أنسى موضوع النقاش من أصله. لكن سرعان ما كنتُ أتكأ في موضوعاتي على تعبيرين إثنين فقط وجدتهما يختزلان موسوعات اللغات كلها: "نعم" و "لا" - *"Da"*و *"Neh"*. الطريف أيضاً أن الإيماء بهما في بلغاريا يعني عكس ما يقصده الغرباء، أو يفهمه كل العالم تماماً. وهذا ما سبق أن تعلّمته في مشواري الأول مع غبريال ومالك. ومثل العديد من اللغات السلافية، فإن اللغة البلغارية مليئة بالتعبيرات المُلهمة والممتعة والمضحكة في أحيان كثيرة. ورغم أنها

لغة "دِبْشة" غليظة وشديدة على السمع لأول مرّة، فإنها مخضوضرة بتعابير منطقية وإبداعية.

الحبس في سجن البالغين كان شيئاً مُحَرِّراً من سخافات المراهقين. حرّرني من "مخاوف الحرية"، ومن الخوف من المجهول. كنتُ في السجن أعرف المساجين باسمائهم وطباعهم وعاداتهم وأعرف الحرّاس. كنتُ أعرف كل شيء فيه من روتين وتوقعات وعقوبات، بينما كنتُ سأتوجس من كل شيء تقريباً فيما لو كنتُ طليقاً حراً. وعلى الرغم من أنني لم أُسجن من قبل ولا من بعد، إلا أن سجني لم يكن يشبه ما كنتُ أشاهده في الأفلام الأميركية؛ فلا وجود لدكان، أو مكتبة، أو "لكانتين"، أو معمل، أو أي شيء يتعلق بالعمل أو الإستجمام. بل حتى المراحيض، كانت مهينة ومُذِلّة بلا أبواب، مفتوحة على بعضها البعض وجنباً إلى جنب كغرف السجناء في الإتجاهين، ناهيكم أنها كانت مجرد حفرة في الأرض على الطراز التركي. جلّ ما كان متوفراً لنا، جرس النداء الميكانيكي، وكانوا يستعملونه لكل شيء تقريباً: لإيقاظنا باكراً، لفرصة الساعة عشرة، لوجبة الغداء، ولبدء العشاء، وللتفتيش اليومي. كانت وجبات الأكل تصلنا إلى الغرفة مباشرة، لا نخرج لها. ولم يمرّ يوم واحد بدون شوربة أو فاصوليا أو جبن بلغاري. وهي أطباق أساسية كانت تُدَوّر علينا بين الأيام وتُستلحق لنا بتفاحة هنا، أو برتقالة هناك، أو قطعة حلوى! كل شيء بالمطلق كان يصلنا إلى الغرفة ويُسلّم إلينا باليد على طريقة البريد السريع المضمون *DHL*: ورق التواليت، والمناشف، والشراشف، إلى الألبسة الداخلية وأشياء الطهارة والكتابة. أما عن أجواء المساجين وشؤونهم، فغالباً ما كانت شريعة الغاب تسود بيننا وتحكم علينا. ورغم وجود تسلسل هرمي وحشي يستغل القوي بموجبه الضعيف، إلا أنني لم أشهد خلال

إقامتي أي أعمال عنف أو جرائم، أو حتى خناقات جدلية، لا بين السجناء أنفسهم، ولا مع الحراس كما في الأفلام.

وخلال إقامتي في السجن زار جناحنا وفد أوروبي من ثلاثة أشخاص، وقيل لنا أنه كان يريد الدردشة العابرة معنا عن أحوال حبسنا، لكن إدارة السجن حذرتنا سلفاً من التمادي مع الوفد. وعندما دخل أعضاؤه إلى الغرفة، كنتُ فرحاً بهم وشعرتُ بأهميتي في مساعدتهم على الترجمة والتباهي بإنجليزيتي أمام رفاقي السجناء. لكن المنحوس أبداً منحوس، إذ كان كل منهم طليقاً بلغات الأرض (إلا العربية)، فتكلموا معنا كلٌ بلغته، ومعي بالإنجليزية. كان واضحاً أنهم لم يكونوا مهتمين بأوضاعنا في السجن، ولا عرضوا علينا توصيل رسائل لعوائلنا أو لسفارات بلداننا. بدا الوفد مريباً كما لو كان "زمرة" عملاء مرسلين من معسكر "الناتو" للكشف على نوع الكاميرات في السجن؟ كانت أسئلتهم عابرة سريعة لا علاقة لها بحقوق السجناء، ولا بحقوق الإنسان. أسئلة عامة سخيفة تركتنا نفكر في مغزاها أسبوعاً بطوله. ربما، هم أيضاً، كانوا تحت تعليمات صارمة من إدارة السجن بعدم الغوص في أي من شؤون السجناء. أغلب الظن أنها كانت زيارة شكلية تحت عنوان "التعاون الحذر" بين معسكري "الناتو" و"وارسو". الأول كان يضرب على وتر "حقوق الإنسان"، والثاني كان يريد اِستغلال الزيارة لإبراز حسن المعاملة.

حرّ ووحيد!

في أحد الأيام فُوجئت بحرّاس السجن يبتسمون على غير عادتهم أمام الغرفة. فتح أحدهم الباب وأمرني "بضبضبة كراكيبي" ولملمة أوراقي وجمع ذكرياتي. كان هناك شيء مبهم حول خروجي قبل الأوان. لم أكن مخطئاً بالتاريخ، ولا بعدّ الأيام تلك المرّة. فرزنامة

السجن كانت في كل مكان، في زنزانتنا وفي الممرات وعند مدخل الحديقة. لكن ربما لسبب إدراي أو قانوني شاءوا أن يفرجوا عني قبل نهاية محكوميتي بيومين. شهران تقريباً مرا عليّ بسجن صوفيا كأنهما كانا أسبوعاً خاطفاً. بدا واضحاً فيما بعد أن "فترة السماح" لم تكن إكراماً بحقي من السلطات، ولا خطأ في العدّ مني! فعملية ترحيلي إلى خارج البلد كانت أساساً ستستغرق بعض الوقت، ما فسّر أن "فترة السماح" كانت محسوبة من أصل محكوميتي لتغطية يومي الإنتقال من صوفيا إلى الحدود التركية. عانقتُ "الرفاق" الثلاثة عناق المسافرين، وودعتهم وداع العاشقين. كان كل منهم قد حفّظني غيباً وإستباقاً رقم زوجته في بلده لطمئنتها عنه عند وصولي إلى بلدي! كانوا يعرفون سلفاً أن إدارة السجن تُجرّد المُسرَّحين من أي رسائل مهما كانت قصيرة أو سرية.

كل ما أتذكره من ذلك اليوم، على أهميته، أنني خرجت من السجن بعد إرتداء ملابسي الأصلية، وكانت قد عُقّمت وحُفظت في المخازن خلال سجني. لكن يا للهول! قميصي زَمّ وكَشّ، وبنطلوني قصر وإنكمش، فإضطررت لتوسيع الحزام ثلاث بكلات مرّة واحدة، وتركتُ القميص مفتوحاً على "الفانيلة" على طريقة شباب الفتوة. كنتُ مسروراً بالعملات التي ردّوها لي، لكن، "الليو"، و"الدينارا" لم تكن لهما أي قيمة خارج رومانيا ويوغسلافيا، اللتين حال حبسي دون زيارتهما. أما "الليفا"، فكانت مفيدة لبلغاريا فقط، لكن لم يكن هناك مجال لصرفها "بضيافة" السجن، ولا هي كانت كافية لأكثر من وجبة طعام واحدة. ومن السجن توجّهنا مباشرة إلى محطة القطار، لكن بدون قيد أو حراسة في تلك المرّة. أرسلوني برفقة موظف مدني من إدارة السجون إلى نفس مدينة "بلوفديف" في منتصف الطريق، حيث كانت "قاعة الولادة" بإنتظاري من جديد! بيد أنني لم أشعر تلك المرّة بمخاض

يكويني ولا أردتُ سطلاً يغريني! وعلى نفس الروتين قبل شهر، أكلتُ أكل "الديليفري" ونمتُ نوم "البدوي" وحلمتُ أنهم حرروني وأطلقوا سراحي (؟).

في اليوم التالي، اِستيقظت على شمس دافئة وأجواء لطيفة. ولدهشتي العظيمة أعطوني ملابس داخلية جديدة وبضعة "تي شيرتات" مزركشة، وبنطالاً مطاطاً لكل الأحجام. كان فيه من الجيوب والدهاليز ما خلّصني من خِرقتي البالية على ظهري، وكان، إلى حد ما، يُشبه زيّ النجارين بحمّالات عريضة على الكتفين وفجوات متنوعة على الخصر لوضع أدوات النجارة. ألبسة شعبية رخيصة لكنها كانت مناسبة ونظيفة. توجهنا إلى المحطة وركبنا القطار بإتجاه إسطنبول، وكنتُ في تلك المرّة طليقاً بين الركاب، لا في آخر المقطورة ولا برفقة العسكر. وخلال الطريق، كنتُ أحادث مرافقي المدني ببلغارية السجون، وقد دعاني إلى فنجان قهوة في كافيتريا القطار وأعطاني بقية علبة سجائر من الطراز الوطني الجيد. وأثناء المشوار، حاولتُ التعرّف على أشخاص من نفس جنسية رفاقي في السجن، وكان أملي، على سذاجتي، تسريع الإتصال بزوجاتهم. لكن يا للهول وألف هول، طارت أرقامهم من رأسي؟ كيف، ولماذا، لا أدري! والعجيب أني نسيتُ أيضاً رقم هاتف أهلي في بيروت وأي رقم آخر، وكأن ذاكرتي أقفلتْ شباك الأرقام لغرض أو لحكمة. وما زال ضميري إلى اليوم يؤنبني على نكث الوعد وخيانة الأمانة.

قفا نبكي لذكرى!

يا للهول مرّة ثانية! فجأة في عزّ الظهيرة وجدتُ نفسي أهبط مرّة أخرى على رصيف محطة "هاسكوفي". نفس الرصيف الذي خُضتْ

عليه "أمّ المعارك" مع مفتشي المحطة قبل ذلك اليوم بثلاثة أشهر تقريباً. صور "المعركة" كانت ما تزال نضِرة في رأسي، وأخذتْ تتسابق مع وجوه الحرّاس إلى مرمى الذاكرة. كل الصور والروائح رجعتْ فجأة بوضوح الشمس إلى ذهني مع أنها لم تخطر على بالي لحظة واحدة خلال حبسي. فلا بد أن كتمها في فكري كان خدعة دماغية تلقائية لحمايتي من الذُهان أو الفُصام. هناك على رصيف "هاسكوفي" بدا كل شيء كما تركته من قبل، مع فارق واحد، كنت حراً في تلك المرّة. ومع أني يومها لم أُضرب ولم أُجرّجر ولم أُحقّر، لكني شعرت كما لو كنتُ أزور أطلال خربة حاربتُ فيها وخسرت..

قادني مرافقي المدني مشياً إلى نِزل متواضع وسط البلدة. هناك ودّعني بحرارة الرفاق وتركني بعهدة موظفي الإستقبال. كانوا على علم مسبق بوصولي، و"أعطوني" غرفة شرحة واسعة بحمّامها الخاص، مع تلفزيون ملوّن وسخّان كهربائي. وكبادرة إضافية، كانت هناك صينية معدنية كبيرة، وُضعت عليها سندويتشات وفاكهة وقطع حلوى ولوازم الشاي والقهوة. كانت الغرفة منوّرة وتطلّ مباشرة على حديقة الفندق وشوارع البلدة. المفارقة، أني كنتُ مشيت في تلك الشوارع من قبل مقيداً، والآن، ها أنا أطلّ عليها حراً مُكرماً. يا لها من دنيا تقرّ علينا وتقرّر عنا! وعلى تعليمات مسبقة، سَمح لي طاقم النزل بكل شيء إلا مغادرة حدود الفندق قبل الإنتهاء من جميع الإجراءات المطلوبة. طلبوا مني أن أكون جاهزاً في بهو الفندق في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي. فقضيتُ الوقت بين الأكل والشرب والإسترخاء أمام التلفزيون وعلى السرير الوثير. اِستهلكتُ كل مظاريف الشاي، وأكلتُ معظم الحلوى، وأخذتُ أحلم باليوم التالي كما يحلم المُتيّم بلقاء الحبيب. يوم الحرية كان على بعد ساعات فقط!

أعطتني وأغدقت!

فطور اليوم التالي بالمقارنة لسجن صوفيا كان خيالياً بكل الأبعاد. أطباق لا تُعد ومناسبة لا تُنسى، لا سيّما بعد شهرين من ترويقة الخبز والجبنة والزيتون. وعلى دَقّة التاسعة تماماً، وصل موظفان مدنيان، ألقيا التحيّة، واِصطحباني مشياً إلى مبنى البلدية الشهير. خطوات قليلة داخل المبنى، وكنتُ في غرفة المحكمة ذاتها. "عَينكَ يا زوزو ترى" و"أذنكِ يا ماريا تسمع"! فمَنْ يا ترى غير القاضية نفسها كانت بانتظاري؟ لكن بنقيض المرّة السابقة، وقفتُ أمامها مرفوع الرأس حليق الشعر والذقن. كنتُ اِبتسم لها بدون خوف أو اِرتباك، واثقاً من ملبسي و"رجولتي" بعد تجربة السجن. يومها، كنتُ، (نفسياً)، قد تخطّيتُ حدود الخوف من المجهول والتوجّس. إلا أن القاضية سبقتني إلى التحيّة واِستعجلت الكلام قبل أن أبادرها السلام. كان بودي أن أزقزق لها بكلمات تعلّمتها في السجن على طريقة "شوفيني شو شاطر"، لكنها كانت أسرع مني وفوتت الفرصة عليّ. "حديثها" كان أشبه بمحاضرة في الأخلاق والقانون والسياسة على مبدأ "عسى أن تكون تعلّمت الدرس يا غبي". أسلوب متعالٍ أغاظتني به وخيّب أملي بها. تمنيتُ لو أنها كانت حاضرتني يوم "نطقت" بالحكم عليّ وهي ساكتة؟

بعد مداولات وجيزة مع فريقها، أنهتْ القاضية وَعظتها الأخلاقية وأطلقتني حراً بصورة قانونية قطعية. وبلفتة إنسانية مؤثرة، طلبت مني الإقتراب منها، لا لتصافحني، ولا لتعاتبني، بل لتوبّخني وتفرك أذني بحنان الأمّ، وتنبّهني بِابتسامة المسامح الكريم ألا أكون عدائياً في المستقبل! ثم فتحتْ جارورها وتناولتْ جواز سفري ووضعت "ملاحظة" على صفحة التأشيرة فيه. وعند تمريره لي، صدمتني بعبارة قالتها بإنجليزية متينة: "بلّغ تحياتنا إلى الرفيق العظيم كمال

جنبلاط"! يا إلهي نطقتها، ليس فقط كأنها كانت متمكنة من الإنجليزية، بل كما لو كانت تعرف جنبلاط شخصياً، أو تعرف يقيناً أن بيتنا في بيروت كان يطلّ على مكتب جنبلاط مباشرة. هناك في "زقاق البلاط" بمقر الحزب التقدمي الإشتراكي، كان جنبلاط يجتمع أسبوعياً برفاقه في الطابق الأرضي بالقرب من النافذة أمامنا. كان حضوره جزءً روتينياً ثابتاً من معالم الحارة. كنا نراه بصورة دورية عفوية، ونلقي التحية عليه حتى عندما صار وزيراً للداخلية. جنبلاط في تلك الأيام كان بطل اليسار وزعيمه المتألق في تلك المرحلة الخطيرة من تاريخ في لبنان. يومها، كان منشغلاً في برنامج عالمي للأحزاب والقوى الوطنية، وقد تجاوز حدود لبنان ووصل صيته إلى كل دول المعسكر الشيوعي، بما فيها الصين الشعبية والإتحاد السوفياتي ودول أوروبا الشرقية. كانت تلك مرحلة أممية قاد فيها نضالًا واسعاً باسم اليسار العربي والقومية والقضية الفلسطينية وحركات التحرّر معاً. كانت سمعة جنبلاط عند دوائر القرار في المعسكر الإشتراكي أكبر من صيت لبنان نفسه في الغرب، ناهيكم أنه كان فيلسوفاً وأديباً ومقاتلاً ومتصوّفاً. ولولا اِغتياله عام 1977م، لكان نابغة الشرق، ولكان غطّى على لقمان الحكيم و"صنّ تزو" معاً. كان طلب القاضية إهداء التحية إلى جنبلاط ملفتاً ومجاملاً وعابراً لم يترك لي فرصة الإستفهام عن المزيد! أغلب الظن أنها قصدت تمرير تحيات بلغاريا ككل، مجازاً، وليس تحياتها الشخصية. غير أنني لم اِستوعب لماذا لم تحاورني بالإنجليزية يوم جرّوني إليها ذليلاً في أول مرّة؟

الكلمة الأخيرة!

بطريق العودة إلى الفندق، دان مني أحد المرافقين من كوادر المحكمة وهمس بأذني أشياءً مثيرة. فهمتُ من فضوله أن "حضرة القاضية"

شفقت عليّ من أول نظرة في أول مرّة، ولم تَشَأ معاقبتي بما نصّ القانون عليه، أو بما كان يسمح لها به! واِستطرد المرافق مفصحاً أنها إمرأة مُطلّقة، ولديها ولد مراهق وحيد بعمري، كان يومئذ يخدم في الجيش بعيداً عنها. وبسبب اِشتياقها له وحسرتها عليه، تعاطفتْ معي كما لو كنتُ أنا أخدم العسكرية بعيداً عن أمّي. ورغم أني لم "أقبض" روايته من أصلها (لم أصدقها)، فإني لم أشكك لحظة واحدة في طيبة قلب القاضية وصدق نيتها. ومن خلال وجودي في سجن صوفيا، مرّ على مسمعي، فعلاً، أن بلغاريا، بعكس الدول العربية، لم تكن تعفي الشبان الوحيدين لأهاليهم من الخدمة العسكرية على مبدأ "لا اِستثناءات" حتى لذوي العاهات والإحتياجات الخاصة – بإستثناء الأمراض العقلية. فكل فرد في المجتمع البلغاري كان يجب أن يكون منتجاً للمجتمع ومدافعاً عنه..

وصلتُ إلى الفندق، و"لفلفتْ" أغراضي وما تبقّى من بقايا الفاكهة والحلوى، وهبطتُ إلى البهو حيث كان مرافقاني المدنيان ينتظراني. اِنطلقنا بسيارة أجرة عادية إلى نقطة الحدود البرية ومعبر الشاحنات. هناك وَدّعاني بأدب واِحترام وتركاني وحيداً لموجة جديدة من القلق وشغل البال. بيد أن الإفراج عني عملياً لم يكن لينتهي بدون "الحبكة الأخيرة" من روايتي في قاعة المغادرين. إذ ما إن سلّمت جوازي لمأمور الهجرة وبدأ بتقليب صفحاته، حتى قام من كرسيه وقفز من خلف المنصة بِاتجاهي كما لو كانت العفاريت قد ركبته فجأة أو حرّضته ضدي! ورغم ذهولي ورعبي، كنت "مسروراً" بعض الشيء لأنني في تلك المرّة فهمت كل الشتائم واللعنات البلغارية بدون مترجم أو عناء. كانت المسبّات أول ما طرق مسمعي وحفظته عن ظهر قلب خلال وجودي في السجن المركزي. الغريب فعلاً أن الشتائم لم تطر من ذاكرتي كما طارت أرقام الهواتف وأشياء أخرى؟ لا بد أن

مأمور الجوازت قرأ شيئاً سيئاً من ملاحظات القاضية على تأشيرتي، أو ربما فَهم منها أنني لم أكن "مغادراً عادياً". أراد التشفّي مني والتهجّم عليّ وأن تكون له معي كلمة "الوداع" الأخيرة. لكن يبدو أنه إستدرك عواقب التمادي بالمحاولة أمام طابور المغادرين. فختم باسبوري، كالشاطر حسن، وبدل أن يُعيده لي باليد، رماه بعيداً عني بأقصى حَيْله بإتجاه الباب أمام أعين الناس. كان الإزدراء يغطي ملامحه والإحتقار ينضح من نبراته وهو يصرخ: "خُذّه يا ابن (الشرطوطة) وأنجُ بروحك". وبالفعل، كانت نصيحة جيدة من رجل سيء! فإنطلقت خارجاً كاللهيب مع الريح بإتجاه الباب إلى الحدود التركية. إلا أن ملاحظة القاضية على باسبوري شغلت بالي وأقلقتني طوال الوقت، رغم الحرية.

الطريق إلى المجهول!

إن فكرة السير إلى جهنم كانت أهون عليّ من التفكير بالعودة إلى بيروت! فالمشوار من حدود بلغاريا إلى إسطنبول كان وحده مغامرة وجدانية موحشة فظيعة، ناهيكم عن بقية الطريق إلى بيروت! كانت رحلة العودة "ملحمة هندية" بكل المعاني، ولم ينقص من عناصرها إلا عبارة "لا حول ولا قوة". كان فيها من الجوع والبرد والخوف والتعب والهذيان ما زاد عن مساحة الأناضول. ويكفي القول إن تجربة السجن في أسوأ دولة شيوعية في العالم، كانت مجرد مزحة أمام جحيم العودة والذلّ على الطريق إلى بيروت. ومع أن المسافة من الحدود البلغارية إلى إسطنبول لم تتعدَ 420 كيلو متراً، إلا أنها كانت مزدحمة بالضباع والكلاب والمشردين، ناهكيم عن مزاجية طقس تشرين وأجوائه المبللة. فتلك الطريق الدولية، بالذات، كانت أخطر طرق تركيا قاطبة. والسبب في ذلك يعود إلى نوعية سائقي الشاحنات

العملاقة العابرة عليه بين أوروبا وآسيا. كانوا وحوشاً آدميين من فصيلة المجرمين واللصوص الدوليين ومن كل الجنسيات. وقد اِستغرق الكابوس معي خمسة أيام طويلة صعبة ومخيفة. لكن على مبدأ النظر إلى "الجزء الملآن من الكأس"، فإنني لم أصب بجرح أو عقصة أو زكام، ولم أتعرّض لمكروه، ولا مسّني هوس أو هيام! قطعتُ المسافة بآفاتها وشرورها ومخاطرها على طريقة "مُجبر أخاك"، وشعرتُ كما شعر هنيبعل في طريقه من قرطاجة إلى روما. إلا أنني، وبعكس البطل الفينيقي، لم يكن معي فيلة، ولا مُونة، ولا ذخيرة. بل حتى ملابسي البلغارية الخفيفة تآمرت، هي الأخرى، عليّ ولم تحمني حتى من برغش المساء وبرود الليل!

***

عندما وصلتُ إلى ضواحي إسطنبول، صادفتُ - بأمّ المعجزات ورعاية الكارما - رجلاً خمسينياً تائهاً بسيارته يسأل عن اِتجاه الطريق إلى الجنوب. من حظي الخارق أنه كان متجهاً إلى حمص، لكن من سوء حظي أنه كان مأزوماً من رأسه حتى أخمص قدميه ومفلساً مثلي! جلّ ما كان يحمل في جيوبه، بالكاد كان يكفيه لبنزين الطريق (1350كلم)؛ فحتى عجلة الطوارئ الإحتياطية في سيارته، تخلّص منها وباعها لملاءة الطريق. الرجل كان أردنياً، غريب الأطوار، يتصرّف بهبل واِرتباك وريبة. مرّة كان يبدو خائفاً إلى حد الجزع، ومرّة يكلّم نفسه إلى حدود الخبل، وطوراً كان يُلقي عليّ فكاهات لا يَضحك لها أبله. كنا، كلما توقفنا عند اِستراحة، طلب لنفسه شوربة عدس (أرخص الأطباق) واِستغنى لي عن بعض خبزها. ورغم أني مررت من قبل بأوقات مُحرجة وصعبة وخطيرة، لكن لم يخطر على بالي مرّة واحدة أن أدعو الله فيها للسلامة كما دعوته وأنا برفقة صاحبنا المعْتوه الأردني. بل إنني أتذكر جيداً أني كنتُ أصلّي بلهفة

وضراعة ألّا تنفجر بنا إحدى العجلات، وألّا يكون هو نفسه إرهابياً من جماعة الإخوان، أو ملاحقاً من الأنتربول، أو مُهرّباً لممنوعات ومحرمات، أو هارباً من مستشفى المجانين، أو متورطاً بجريمة قتل! الإحتمالات كلها كانت تنضح من هيئته وتظهر من ملامح وجهه بوضوح. كانت تصرفاته على الطريق خلف مقود السيارة توحي أنه كان مركوباً بالشياطين، وتعابير وجهه كانت تتغير تبعاً لزحمة السير بين المدينة والأخرى. أما هلوساته، فكانت مخيفة وتتردد حسب تقلبات الطقس أو الأوقات. وقد أدركتُ "قدري" معه من بداية المشوار تقريباً، وأردتُ الهروب من طريقه أكثر من مرة، سواء في الإستراحات، أو بجانب الطريق عند قضاء الحاجة، أو أثناء غفوة الليل. إلا أني لم أجرؤ على ذلك، ولم أقو على فكرة اِنعدام البديل على قاعدة "عصفور باليد". كنتُ مَسْبوعاً منه منذ اللحظة الأولى، ضائعاً ومُفلساً ومُرهَقاً. كنا كلما اِقتربنا جنوباً، توقف برهة بجانب الطريق ولفّ حول السيارة قليلاً وفحص عجلاتها وأطلق هلوساته. حاولتُ قدر الإمكان أن اِستشف من تمتماته إنْ كان يلعن حظه أو يستعطف ربَّه!

بطلوع الروح وخنق النفس، وصلنا ليلاً إلى عمق الجنوب، وتجاوزنا مدينة أنطاكيا. فجأة، توقف صاحبنا بجانب الأوتوستراد، بالقرب من شجرة سرو كبيرة، وسحب من خصره مسدساً، ومن جيبه دفتراً صغيراً! وعلى الفور فصل عن مسدسه مخزن الذخيرة، واِنتزع من دفتره صفحتين فيهما أسماء وهواتف. ثم رمى المسدس ومخزنه بعيداً بإتجاهين مختلفين، ودار نحوي وقال بهدوء: "سأنزلك قبل الحدود بقليل على أن نلتقي بعدها عقب اِنتهاء معاملاتنا. الوقت الآن متأخر، وعادةً لا توجد في هذه الأثناء زحمة. وإذا لم نلتق بعد الحدود بغضون ساعتين، أطلب منك أن تتصل بأحد هذه الأسماء عند وصولك إلى

لبنان، وأخبرهم أني عالق على الحدود"! وعلى قاعدة "ذَرُوني ما تركتكم" وقد ضقتُ ذرعاً بتعليماته، صمتُ كالأخرس ولم أجرؤ على سؤاله عن أي شيء، ولا حتى عن المسدس الذي رماه وتخلّص منه؟ كان همّي أن أخلص منه بأي طريقة! مسافة قصيرة، وأشرفنا على الحدود التركية - السورية. فنزلتُ من سيارته واِفترقنا. أنهيتُ معاملة دخولي بسرعة وأمان وبدون أي سؤال. وحسب "كلمة الشرف" بيننا، اِنتظرته بعد نقطة الجوازات، بدل الساعتين، ساعتين ودقيقتن. ولغاية اليوم لا أعرف حقيقة مَن منا تخلّى عن الآخر، أنا عنه أو هو عني؟ الأدهى، أني لا أعرف لماذا اِنتظرته أصلاً، وقد كان إنفصالي عنه فرصة ذهبية للهروب منه؟ وعموماً شعرتُ في غيابه بسكينة تامة وسعادة مطلقة، تماماً كما شعرتُ يوم خرجتُ من سجن صوفيا. ومع اِقترابي في سوريا من نسيم لبنان مع ساعات الصبح الباكر، بدأ التعتيم الوجداني يُخادع فكري من جديد، وأخذ الإنكار يدفن بعض أحداث الطريق في مقبرة النسيان! كنتُ أعدّ نفسي لمرحلة جديدة... مرحلة البيت والأهل والأمان من جديد..

مطلوب حياً أو ميتاً...

خلال الفترة التي قضيتها في بلغاريا، لم يخطر على بالي لحظة واحدة ماذا كان قد حلّ بأبي وأمّي بسبب غيابي عن لبنان. لم أفكر بهما حتى في أحلك اللحظات التي واجهتها؛ فمن البداية لم أخبرهما بسفرتي خارج لبنان أصلاً. كنتُ مراهناً بعقلي أنهما كانا يعتقدان بوجودي في مخيم كشفي في أحد جبال لبنان. لكن فقط عندما قرعتُ جرس البيت يوم 23 تشرين أول 1974م الساعة 6:20 مساءً، أدركتُ جسامة المأزق وحجم المصيبة!؟ كان أهلي حتى ذلك التاريخ على جهل تام

بمكان وجودي، بل لم يكونوا يعرفون إنْ كنتُ حيّاً أو ميّتاً! كان قد مضى على غيابي أكثر من ثلاثة أشهر!

محمد، أخي الأكبر والوحيد، فتح الباب. نظر إليّ نظرة المكبوس في حلمه، تراجع قليلاً إلى الوراء، كما تتراجع التيوس قبل النطح، ثم اِندفع نحوي ونطّ عليّ وهو يصرخ "عماد، عماد". أخواتي الثلاث، وقد جئن خلفه، نظرن إليّ مذعورات كما لو رأين شبحاً لأول مرّة. فهجمن عليّ هجوم القطط على سيدها بعد غياب. وهكذا، أخذوا جميعاً يتحسسون وجهي وينظرون إلى ملامحي كما لو كانوا يتحسسون مخلوقاً من الفضاء أو من الأدغال. لم يصدقوا عيونهم: كرش منفوخ، ورأس محلوق، ولحية كثة، وأسنان مقززة، وثياب ممزقة، ورائحة كريهة. لا بد أنني كنتُ غريباً وقبيحاً وبديناً. فرغم تضوّري جوعاً على طريق العودة، كنتُ أغرف أحياناً من مكبات الزبالة في الإستراحات ما كان يُبقي كرشي مُدللاً. ثم، وعلى مخزون الخبز والفاصوليا والبطاطا من حبس صوفيا، كنتُ "مبروماً ومُدوّراً" إلى درجة أن ملامحي المعهودة بدت كما لو كانت منفوخة بالسيليكون (لم يكن السيليكون مستعملاً بعد). إلا أن بدانتي يومها كانت شاهداً أميناً على حبسي أمام أهليّ!

ولحسن حظي، لم يكن أبواي ساعتها في البيت. لكنهما سارعا إليه مع اِنتشار الخبر عن طريق أمّ إلياس الدكنجية. لحظات الإستعداد للقائهما في ذلك المساء وتحت تلك الظروف، لعمري، كانت أصعب عليّ من السجن نفسه وأشد وقعاً من طريق العودة. وما إن دقّ الباب معلناً قدومهما حتى سقط قلبي سقوط الحجر، وتمنيتُ لو بلعني تنين أو سحبني تمساح! فدخلا عليّ، وقعدا بوجهي قعود المعزيين بلا نَفس ولا حركة! لا شيء غير صمت رهيب قاتل. ثوان مرّت عليّ، كأنها دهور، وبدأت عيونهما تتحرك نحوي بكل الإتجاهات. أتحفاني

بتحديق مريب وتنمّر لئيم وإساءة نفسية عن بعد. صحيح أني لم أكن أتوقع اِستقبال الفاتحين، لكن كنتُ أتعشم بهما لفتة المسامحين، أقله على مبدأ "العفو عند المقدرة"! لم أتخيل أمّي في البيت أقسى عليّ من القاضية في الغربة، ولا تصورتُ والدي أظلم من سجّاني في بلغاريا! لكني سرعان ما أدركتُ مدى الألم الذي سببته للجميع، خاصة لأمّي. ثلاثة أشهر بلياليها الطويلة، من القلق المُضني والكوابيس والهواجس والدموع والتنهدات، كادت تقضي عليها! كان الأسى ثقيلاً بادياً على هيئتها وكامشاً على ملامحها. تعابير وجهها يومئذ كانت مخيفة إلى درجة أذهلتني وأثارت اِشمئزازي من نفسي. وبأيام قليلة، اِنتهت الهمروجة، ورويداً رويداً بدأتُ اِستعيد طبيعتي، وأعود إلى "طبخ" أمّي وأكلات خالاتي، والإنخراط في السباحة وصيد السمك ولعب الورق مع الأقارب والأصدقاء. ومع مرور المزيد من الوقت، أخذ وزني ينخفض تدريجياً ويعود إلى سابق عهده المحمود. فكنتُ أسعى جاهداً، ليس فقط لإعادة وسامتي، بل لإسترجاع ثقة أهلي بسلوكي والتأكيد لهم أنني لم أكن شريراً ولا متهوراً. كنتُ فقط مراهقاً شقياً ساذجاً..

ردّ اِعتبار

في تلك المرحلة الرمادية من حياتي، كنتُ تائهاً على الخطوط بين المراهقة والرجولة؛ سجن بلغاريا وحده كبّرني عمراً وزادني خبرة. منه، تعلّمتُ التروّي وتحمّل المسؤولية والصبر. لذا، فأول عمل "مسؤول" فكرتُ به للبدء بإعادة الثقة وترميم الجسور، خاصة مع والدي، التوجّه إلى السفارة البلغارية في بيروت لترجمة ملاحظات القاضية على جواز سفري. كانت المسألة تأكلني من شدة غموضها وتقلق مضجعي منذ أن تركت بلغاريا. لكن هل لأسطر قليلة بخطّ اليدّ

أن تظهر فعلاً حقيقة "جريمتي" ومدة عقوبتي؟ أمّي لم تشك لحظة واحدة في روايتي، وقبلت كل أعذاري وجميع تفسيراتي، إلا أن الأمر مع والدي كان مختلفاً. فهو لم يشأ أن يكذّب روايتي، لكنه لم يستسغها أو يتقبلها على علّاتها! ربما اِعتبر القصة كلها من "اِختراعي" للتغطية على شيء أكثر شراً، أو دهاءً! ربما ظنّها أسوأ من مجرد عراك على الحدود، أو لكمة منفعلة على وجه مفتش في محطة للسكك. ربما اِعتقد بخلده أني كنت متورطاً بعملية تهريب، أو تزوير، أو تفجير، أو ما شابه من جرائم وإرهاب..

إلا أن الأمر لم يدم طويلاً قبل أن قطعتُ الظنّ باليقين. فكم كنت سعيداً عندما تسلّمت من السفارة البلغارية الترجمة المُحلّفة والمُصادق عليها كدليل دامغ على الحقيقة، وقد نصّت بالحرف: {حكمتْ محكمة "هاسكوفي" على حامل جواز السفر العراقي رقم "XXXX" بالسجن لمدة شهرين من تاريخ مثوله أمامها يوم 18 آب 1974م، وذلك لمخالفة القانون العام والتسبب بالفوضى في محطة "هاسكوفي" للسكك عند الحدود مع تركيا بتاريخ 21 تموز 1974م}. الأوراق تضمنت أيضاً ترجمة حرفية لتأشيرة الدخول نفسها. ومع أن الترجمة الرسمية المصدّقة كانت كافية لوأد الشكوك حول أسباب سجني، فإن شكوكاً جديدة ظهرت لي فجأة مع حالي! إذ لم يكن في الترجمة أي ذكر واضح لعراك مع أحد، أو لمحاولة الدخول إلى بلغاريا خِلسة في القطار. ولم أعرف يومها إنْ كان ذلك الإغفال متعمّداً من القاضية الحنون، أم تلك كانت طريقة البلغار في التعاطي مع ذلك النوع من الإشكالات الدورية؟ لا بد أنني لم أكن أول المتسللين ولا آخرهم. وتبعاً لأسلوبي الفلسفي في التخفيف من حيرتي، فقد تساءلتُ كيف أكون "متسللاً" بالتعريف القانوني وكنتُ أحمل تأشيرة دخول صالحة أصلاً؟ ولكي أقطع الشك باليقين مرّة أخرى على طريقتي المنطقية،

تقدمتُ من جديد بطلب للحصول على تأشيرة دخول إلى بلغاريا. أردتُ اِختبار الإجراءات والتأكد ما إذا كانت هناك أي ملاحظات جانبية خفية حول إسمي ورسمي وجواز سفري. وكم كانت فرحتي عظيمة عندما أُعيد باسبوري إليّ وعليه تأشيرة دخول "طازجة" مزدانة بألوان الشعار القومي البلغاري. يومها أدركتُ يقيناً أن السفارة البلغارية كانت، كغيرها من السفارات في بيروت، مشغولة بما كان أخطر على بلدها من "ولدنات" مراهق مثلي! كانت السفارة في تلك الأيام منهمكة بمراقبة الحركات المناهضة للشرق الإشتراكي، كقوى اليمين، والبرجوازيين العرب، وحتى الفصائل الفلسطينية الراديكالية والشيوعيين وبعض الأحزاب. وأغلب الظن أنه لم يكن لدى السفارة أي إضبارة عني لأنني لم أكن شيوعياً، ولا من المعجبين بياسر عرفات، ولا كنتُ يمينياً أو محزباً. ولو كنتُ فعلاً ناشطاً سياسياً مع أي جهة، لمنعوا عني التأشيرة بدون أعذار أو توضيح. وعلى الرغم من صدور الفيزا البلغارية الجديدة، بالإضافة إلى ترجمة أسباب حبسي، ظننتُ أن والدي كان سيتنفس الصعداء ويغمره الإرتياح وتلفه الطمأنينة، لكنه، كالعادة، كان منشغلاً عني وعن العائلة في عمله بتحليل الجيولوجيا في صحاري الشرق الأوسط!

المهم أن الهمروجة اِنتهتْ وأعادت الإعتبار لأقوالي ومصداقيتي! كان ذاك الصيف بالنسبة لي ملحمة عظيمة شملت عناصر الوجود كلها واِختبرت خميرتي وفلسفتي مرّة واحدة. كان في مشواري سياحة وفرح وحزن وعذاب وسجن، وأمل! وبصرف النظر عن ترتيب هذه المصطلحات ومسار سياقها، فقد تركتْ من صورها طبعةً في ذاكرتي وحرقة في قلبي!

وعادت حليمة

خريف 1974م كان بمثابة الإستنهاض وأخذ النفس وإعادة البوصلة إلى روتين الواقع المرير في لبنان. فلحقت بموسم الدراسة من جديد وعادتْ حليمة إلى عادتها القديمة في المشاركة بتظاهرات الطلاب وسط بيروت. كانت العاصمة يومها بؤرة دولية للتآمر وجبهة ساخنة في الحرب الباردة بين المعسكر الشرقي والمعسكر الغربي. بل كانت على وشك الحرب الأهلية التي كان جَمرها يستعر بجنون مع كل تطور وحدث. كان علينا، كطلاب ثانوية في مدارس بيروت، أن نسير بمظاهرات صاخبة، إما تأييداً أو معارضةً لأحد معسكري الحرب الباردة، على الأقل مرّة في الأسبوع تقريباً. لكن في حالتي الشخصية، كان تحديد المشاركة بين المظاهرات أمراً لا علاقة له بالإمبريالية ولا بالشيوعية ولا بالقومية. كانت إبرة الإختيار عندي تميل ببساطة إلى حيث كانت توجد أغلبية البنات المتظاهرات، أقله من باب إهتمامي الشغوف "بالقضايا الإنسانية"..

ورغم تكرار الإضطرابات السياسية وتعدد التيارات المتنافسة، كانت بيروت يومئذ جوهرة الشرق، أشبه بمدينة دبي اليوم من حيث الحركة والتألق والإبتكار والجمال والترفيه. لم يكن فيها شيء غير مُتاح أو غير مُباح، أو لا يُقلد، أو لا يُبدّل، أو لا يُزوّر، أو لا يُستعار، أو لا يُؤجّر، أو لا يُرهن! كل شيء لكل المناسبات كان متوفراً بكل الألوان والأحجام: القمار، والدعارة، والتجسس، والسمسرة، والأسلحة، والتهريب، وطباعة الممنوع من الكتب. بل حتى أطروحات "تشي جيفارا" ضد الامبريالية الأميركية، كانت تطفو في كل مكان جنباً إلى جنب مع محاضرات غاندي ضد الإنكليز، وقصص مقاتلي ظفار ضد قابوس، وخطب الثوار في اليمن ضد الإمام. كذلك كانت هناك كتابات الإنفصاليين في السودان والصحراء الغربية وكردستان، فضلاً عن تبشيرات "شهود يهوه"، وأنشطة الماسونية، و"نادي روما"،

و"الروتاري"، و"فرسان مالطة". إلا أن الوجه الفدائي الفلسطيني كان يومها أبرز وجوه بيروت وأوقحها! كان الفلسطينيون في الليل يقيمون حواجز أمنية على بعض الطرق المفصلية والمفارق، كطريق المطار و"الكولا" و"الجامعة العربية" و"الطريق الجديدة" و"المزرعة" و"الشياح"، فضلاً عن حواجز مخيمات صبرا وشاتيلا وطريق المدينة الرياضية. كان السباق يومها على أشده بين أنشطة السياسة في النهار، وبين التحركات الأمنية في الليل، بل أكثر ريبة من السباق على تحقيق أهداف التآمر بين الشرق والغرب على الأراضي اللبنانية..

عشية حرب...

1975م، كان عاماً آخر مليئاً بالإضطرابات السياسية والأمنية. بل كان هو العام الذي غيّر "هوية" لبنان إلى الأبد. ليس فقط لأنه شهد بداية الحرب الأهلية، بل لأنه أكّد أيضاً على زوال "سويسرا الشرق" من كل تاريخه! ومع أن الحرب اللبنانية بدأت بعد حرب تشرين 1973م بسنتين، فقد ظهرت تقارير مخابرتية لاحقة تزعم أن الحرب فُبركت لتلهي المنطقة والفلسطينيين معاً، ولتمرّر طبخة السلام بين السادات وإسرائيل. كان لبنان لغاية نيسان من ذلك العام (1975م) منصة دولية لكل شيء له رائحة عالمية أو أقليمية: نضال عمالي، وكفاح مسلح، وتجارة، وترانزيت، وموضة، وثقافة، وسياحة، وضيافة، وفنون، وشعر، وموسيقى. بيروت في تلك الأيام الجميلة كانت ما تزال ترقص على أنغام *"Woodstock"*، على الأقل بين المراهقين والمتهورين والطيّاش. كانت إذاعاتها تكرر الأغاني الرومانسية الخالدة اِبتداءً من أغاني أمّ كلثوم، وعبد الحليم، وفريد الأطرش، إلى ديمس روسس، وآبا، وتوم جونز، وداليدا. كانت دور السينما في بيروت آنذاك تعرض أشهر الأفلام المصرية والعالمية

لحظة صدورها، كـ"أفواه وأرانب"، و"لا وقت للدموع"، و"أريد حلاً"، و"جواز المتعة"، و"بئر الحرمان"، و"القرش" و"العرّاب" و"جيمس بوند" و"الجمعة 13" إلخ.

وهكذا، فمجرد التفكير في تلك الحقبة وملامحها الثقافية يثير مشاعر "النوستلجة" والحنين عند جيل السبعينيات، ويحرّك فيه ذكريات الزمن البديع. لبنان فعلاً لم يرَ أياماً مثلها لا من قبل، ولا من بعد، رغم نسمات الفرح العابر التي جاء بها رفيق الحريري بعد اِنتهاء الحرب. أما على المستوى الشخصي، فقد كانت تلك الفترة رأس القمة في مراهقتي وذروة الهرج والمرج في عز أيامي. لكن من سوء حظي أنها مثّلت أيضاً ذروة التناقض والغليان السياسي. الماء كان عكراً والصيادون كانوا كثيرين. كان الأشرار وجنود الطابور الخامس يتربصون بكل ثغرة ونزاع وتناقض. فالطائفة الشيعية، مثلاً، وجدت أن من مصلحتها آنذاك محاباة حافظ الأسد والإتكاء عليه نصيراً لحماية الجنوب من عمليات الفلسطينيين. وفي الوقت نفسه، كان هو أيضاً يغازل الفلسطينيين سرّاً ويساند عملياتهم العسكرية ضد إسرائيل على حساب أمن الشيعة. كل طرف في لبنان كان يستقوي بالخارج على جاره، وكانوا معاً يتسلّحون ليوم المواجهة بين الغرباء على أرض لبنان. كلهم كانوا يتأهبون لتغيير الواقع القديم وخلق وقائع جديدة. الشيعة أرادوا وضع حد لإعتداءات الفدائيين. الموارنة أرادوا التخلّص من وجود الفلسطينيين في لبنان. اليسار أراد كسر اليمين، والعروبيون أرادوا الإنتصار على "أدوات" الأنظمة العربية الرجعية في لبنان. أما أميركا، فأرادت تحجيم تأثير السوفيات وإبعاد الشيوعية عن شواطئ المتوسط. وهكذا، كان لبنان يغلي بالبراكين الداخلية ويهتز بالزلازل الإقليمية أثناء تلك الحقبة الخطيرة من تاريخ الشرق الأوسط؟

كان ذلك زمن رسم الهوية الإقليمية. يومها أُعيد فتح قناة السويس للمرّة الأولى منذ حرب تشرين عام 1973م. كان واضحاً أن السادات أنجز الكثير للعالم من خلال تفعيل القناة وتنشيط التجارة الدولية. كما اِستدرج أيضاً عائدات العبور من العملات الصعبة والمساعدات الغذائية والمعدات والنواقص التي كانت مصر بأشد الحاجة إليها بعد حرب الإستنزاف. وعلى صعيد آخر، كانت هناك حرب فيتنام، وكانت أخبارها ما تزال تطغى على صفحات الجرائد الأولى. إذ كان مقاتلو "هو تيشي مِنْه" على وشك الإستيلاء على "سايغون" وهزيمة جنوب فيتنام بأكمله. في المقابل، كانت أميركا على وشك الإنكسار والإنسحاب من فيتنام، لاسيما أنه راح لها ستون ألف قتيل، فضلاً عن مئات آلاف الجرحى والمُعاقين. أما في أوروبا الغربية، فقد كانت عواصمها مسرحاً دموياً رهيباً لعمليات الإختطاف والتفجيرات من قِبل الحركات اليسارية والنضالية وعمليات الردّ والإنتقام! ولعلّ أخطر ما اِنتهت السنة به اِغتيال رئيس الوزراء الإسباني لويس بلانكو في قلب مدريد (20 كانون الاول 1973م)، وقد كان صديقاً مقرباً للديكتاتور فرانكو وخلفاً مخلصاً له. يومها لم يتوانَ مقاتلو منظمة "إيتا" الإسبانية الإنفصالية عن الإعلان عن مسؤوليتهم، لا بل الإعلان عن المزيد من أعمال التفجير ضد الحكومة الإسبانية. كانت تلك فترة عصيبة تشابهتْ فيها شوارع مدريد بشوارع لندن مع الجيش الجمهوري الأيرلندي. كانت مارغريت ثاتشر أبرز معالم تلك الحقبة من بداية السبعينيات كأول إمرأة تُعين لقيادة حزب المحافظين في بريطانيا. يومها كانت ثاتشر أيضاً حديث الساعة والشارع في لبنان والشرق الأوسط بالنظر لإنخراط بريطانيا العميق في الشؤون الإقليمية واللبنانية.

مَن شبّ على شيء

اِنتهى العام الدراسي (1975م) باكراً على غير عادته قبل موسم اللوز و"الجنارك". فعدتُ إلى النَقّ والنكد والتململ من جديد، وإلى الشعور بضرورة المشاغبة والتمرد كالمعتاد. لم أكن أعرف ماذا أفعل بنفسي، لا سيّما أني كنتُ قد اِعتدت على السفر والمغامرات كل صيف. كان هناك الكثير من الأوكسجين في رئتي، والأكثر من الهرمونات في غِددي، وما لا يُحصى من الأوهام في مخيلتي. كنتُ مستعداً لفعل أي شيء للسفر من جديد، حتى ولو زحفاً على بطني أو مشياً على رأسي؛ فبعد المرّة الأولى مع غبريال وابن عمي، والمرّة الثانية وحدي مع نفسي وحالي، صارت المرّة الثالثة طَعْماً موعوداً لا بد منه بأي ثمن. هكذا، سهرتُ من أجله وخططتُ له من جديد ورتبتُ مشواراً آخر مع غبريال. في تلك المرّة عرّفني إلى أعز أصدقائه ورفيق دربه منذ الطفولة، ولم أفهم لماذا لم يكن قد عرّفني عليه من قبل؟ كان "سيرج" شاباً وسيّما مثقفاً، وابناً لكبير الإستراتيجيين في أحد الأحزاب اليمينية الكبرى في لبنان آنذاك. يومها، اِجتمعنا على "كباية" بيرة في أحدى الحانات خلف شارع الحمرا في بيروت. وعلى أغاني "توم جونز" و"جو كوكر" و"بتيولا كلارك" في الخلفية الرومانسية، ناقشنا فكرة المغامرة الجديدة، وحددنا أدوارنا وخريطة طريقنا وآمالنا. ورغم تقارب أعمارنا ضمن جيل واحد، فقد أدهشني سيرج بأسلوبه المنهجي ومقدرته التنظيمة حتى في أدق التفاصيل. كان مُلِماً بشؤون الترحال والسفر ودقيقاً للغاية. وبفضل جنسيته البريطانية وحرصه الشديد، اِرتضيناه قائداً لنا و"وزيراً للخزانة" المفلسة. كان "محاسبجياً" نمطياً ماهراً لدرجة أن دعاباته كانت دائماً بايخة ونُكاته كانت أبداً مُملة. لكن رغم ذلك، كانت قصصه مسلّية من نوع "الكوميديا السوداء" المعبّرة

كـ "الفيل يا ملك الزمان"، و"جحا وحماره"، و"الرجل الذي أكل عنزته"، وغيرها من قصص العِبر والحِكم والتناقض!

المدينة البيضاء

في منتصف حزيران (1975م)، وفي اليوم الموعود - وكنا قبله قد أنهينا آخر معاملات الحصول على التأشيرات - اِتبعنا نفس الطريق الوحيد من بيروت إلى طرابلس، ثم إلى اللاذقية، وأنطاكيا، وإسكندرون، وأضنة، وأنقرة، فإسطنبول. من هناك، توجّهنا إلى بلغاريا عبر نفس القطار "الأنتيكا"، وكنتُ حافظاً لعرباته عن ظهر قلب منذ أيام السجن. توقفنا في نفس الحدود الإلكترونية مع تركيا عند "هاسكوفي"، (حيث سبق أن ضُربت وعُذبت)، وأنهينا معاملات الدخول على متن القطار. وكما كنتُ أتوقع سلفاً، لم يسألني مفتش الجوازات أي سؤال عن أي شيء رغم ملاحظات القاضية على تأشيرتي السابقة. كان المشوار لطيفاً وخالياً إلا من المتعة والتسّلية.

وصلنا إلى محطة صوفيا، ومنها مباشرة أخذنا قطار يوغوسلافيا لقطع مسافة 400 كلم إلى العاصمة "بلغراد" (بيوغراد). والتسمية باللغة السلافية مركبة من كلمتين هما: "بيو"، بمعنى أبيض، و"غراد"، بمعنى المدينة. فوصلناها مع طلوع الشمس، وبدتْ ملامحها مختلفة جداً عن صوفيا وبوخارست. الطريف فعلاً أنه لم يكن فيها شيء أبيض بِاستثناء الحمام في الميادين. المدينة - وإن كانت محسوبة على المعسكر الشيوعي - كانت لها "شخصيتها" الرأسمالية من خلال إعلانات الشركات الغربية في الساحات العامة، مثل، إعلانات "نسلة"، و"كوداك"، و"سيمينز"، و"كوكا كولا"، و"ميرسيدس"، و"رينو"، وغيرها. وبلغراد في أوروبا، تشبه دمشق عندنا، من حيث

إنها أعتق مدينة مأهولة بالتواصل. وهي أيضاً مثل دمشق بوقوع مئات الحروب الكبرى على أراضيها، بل إنها بعد عصر الرومان بُلِعت أكثر من مرّة، وأُزيلت عن الخريطة مراراً، إنْ لصالح البيزنطيين والنمسا، أو لصالح البلغاريين والمجر، أو إبان الحكم العثماني نفسه. وفي الحقبة العثمانية المتقدمة، كان العثمانيون وعائلة "هابسبورغ" الملكية الماسونية (أصلها سويسرا وحكمت بالتصاهر معظم أوروبا) أشرس المتنازعين على بلغراد، إلى درجة أن "طراطيش" الحروب بينهما اِمتدت من البلقان إلى عمق أوروبا، وأسهمت بشكل كبير إلى اليوم في تشكل "الإسلاموفوبيا" والذعر من تركيا، وهو ما نراه مجسداً في قول السلاف الشهير على المستوى الثقافي، "لا حروب، لا أتراك، لا طاعون". وهكذا، فإن الهوية التركية حسب ترويجات "آل هابسبورغ" رُبطت في أذهان الغرب بالموت والعار والدمار. وإلى حد كبير ترسختْ النظرة الغربية في الوعي الجمعي المعادي للأتراك، واِستطاعت الدعاية الغربية أن تصوّرهم قوماً همجياً عدواً للمسيحية، ولاسيما من خلال نشر الدعايات في جميع أنحاء أوروبا، إنْ عن طريق الأفلام والرسوم، أو الروايات الأدبية، أو التاريخية. وبحروب التداور بين العثمانيين وبين "آل هابسبورغ"، وتحديداً في فترات حكم العائلة في 1688م و1717م و1791م، أُرغم العديد من مسلمي البلقان واليهود على اِعتناق المسيحية. وكغيرها من إمارات العثمانيين المشاكسة في ذلك الوقت، حصلت بلغراد على اِستقلالها عام 1878م، وتحوّلت إلى مملكة بذاتها. ورغم كل تلك الإحتلالات التاريخية لأراضيها، أو ربما بسببها، صارت بلغراد واحدة من أكثر المدن الأوروبية تنوعاً وثراء بالثقافات العريضة والمعالم الضخمة. كل محتل أراد ترك بصمته فيها لدرجة أنها صارت متحفاً وطنياً بشهادة الجميع.

***

أمضينا في بلغراد أياماً ممتعة وأمسيات رائعة لا "تُغتفر" ولا تنسى! فبالإضافة إلى المعارض والكنائس المجانية، زرنا كاتدرائية القديس "سافا"، أكبر الكتدرائيات على مستوى البلقان، وكانت، أثناء الليل بأنوارها وظلالها ونوافير ساحتها العريقة، تبدو وكأنها سحابة سريالية من مجرات الكون. كما زرنا أيضاً متحف الفنون، وهو بذاته لوحة فنية بديعة. ثم عرجنا على المتحف الوطني العريق، وكان، هو الآخر، يتباهى في أروقته بآثار المحتلين وتحفهم، وبالمخطوطات القيّمة والمشغولات المحيّرة. أما بارات الليل، فمع أنها كانت تشبه الجمعيات الخيرية والتجمعات الأهلية، كانت تقدم بيرة ممتازة ومأكولات شعبية رخيصة على أنغام فرق موسيقية "حديدية" معتبرة وجدّية. وبعكس أجواء الـ *Pubs* الناعسة في بريطانيا، مثلاً، كان يصعب علينا في الليل أحياناً التمييز بين مقاهي بلغراد وبين حاناتها. كلها كانت مشعة ومزدحمة وحيوية. وكيفما نظرنا إلى بلغراد في تلك الأيام، كان يصعب الإِعتقاد أنها كانت مدينة شيوعية مكتومة مثل، بلغاريا أو رومانيا أو برلين الشرقية؟ كانت عاصمة متحرّرة نسبياً ومنفتحة، بل أقرب إلى الوسط الحيادي منها إلى اليسار المتطرف.

بعد بداية جيدة في العاصمة، واصلنا المضي قدماً (أتوستوب) على الأوتوستراد بإتجاه "سراييفو"، لكن كنا منفصلين عن بعضنا البعض. إذ كان من المستحيل أن يُقْدم أي سائق بكامل قواه العقلية على التوقف لثلاثة شُبّان معاً. كان ذلك الجزء من الرحلة عبر يوغوسلافيا خلاباً بكل معاني التضاريس والحضارة والطبيعة. بعض المشاهد أعاد إلى ذاكرتنا صُور جبال لبنان ووديانه وأهاليه. فحتى مساجدهم وكاتدرائياتهم وأوشحتهم التقليدية وقبعاتهم بدتْ لنا مألوفةً كما لو كانت تعكس ثقافة بلاد الشام نفسها. ورغم ملامحها الأوروبية، كانت

يوغوسلافيا شرقية الهوى أكثر منها غربية، وأشبه بتركيا في جوانب، وبالمتوسط في جوانب أخرى.

مفقود يا ولدي، ثانية؟

وكعادتنا في التقشف والإقتصاد، كنا نتقصد "بيوت الشباب" مباشرة عند الوصول إلى المدن، لكنها لم تكن دائماً متوفرة بسبب ضغوط الطلب عليها والإزدحام في موسم الصيف. الأمر في مدينة سراييفو لم يختلف عن بقية المدن؛ فكنا نقضي جزءً من نهارنا في الحدائق العامة، وأغلب الليل كنا نمضيه في الحانات والأزقة، أو بصحبة ضائعات مثلنا! كانت حدائق سراييفو مذهلة، ولعلّ أجملها وأعرقها حديقة "فيليكي" في قلب المدينة نفسها، وهي مشهورة بترتيب أشجارها على الطرفين وتقودك مباشرة إلى نبع طبيعي يقصده كثيرون لأسباب صحيّة. ولطالما كانت الحدائق "مخرجاً" لائقاً للتائهين والمراهقين و"الصُيّع" أمثالنا. كانت أجواؤها تعكس خميرة المدينة من ناس، وتراث، وعادات، ناهيكم عن تشكيلات الطيور، وتعدد الحمّامات، والمقاعد الطويلة المناسبة للنوم العميق. كان غبريال "سفيرنا الثقافي" في الحدائق العامة، يتحرّى لنا من أكشاكها، وعربات الباعة فيها، عن أسماء أماكن الترفيه المجانية في المدينة. وكان سيرج مسّاحنا الطبوغرافي يُحدد لنا أقصر الطرق وأسرعها وإتجاهاتنا، فضلاً عن مواعيدنا وأوقاتنا. أما أنا، فكنتُ خبير الفريق بالتسوّل، متخصصاً بالشحاذة والإستعطاء، وخاصة من كبار السنّ والصبايا، أبحث دوماً عن السجائر والفاكهة والفطائر.

في صباح اليوم الثاني، صَحونا على نهار مشمس من تحت شجرة معمرة. ولطالما اِستهجنا كيف أن العصافير عندهم لا تخاف من وجودنا بينها رغم صراخنا وملامحنا المشرقية. أما عصافيرنا في

لبنان، فكانت تهرب من دربنا وتترك زغاليلها في الأعشاش خلفها خوفاً منا. سيرج كان العصفور المبكر فينا... وما إن مدّ يده إلى حقيبته لتناول فرشاة الأسنان ومنديله، حتى صرخ صرخة الملدوغ بأعلى صوته. قفزنا فوقه بلا تفكير، ولم نحسب إنْ كان ما عقصه عقرب لعين أو ثعبان ملعون. دار نحونا وصرخ فينا بأعلى صوته، وقال: "يا إلهي، سرقونا!". فإذا بالمسروقات "خزنتنا" (المحفظة)، وفيها حياتنا وباسبوراتنا. يا إلهي! هل يُعقل أن نتعرض لما سبق أن تعرضنا له في حديقة بوخارست قبل سنتين؟ بحثنا في شِنطنا وفي كل الجيوب وحول الشجرة! إنه "ديجا فو" حقيقي، حدث رؤيوي سبق ومرّ عليّ بالشكل والمضمون، بل بالرائحة والتوقيت أيضاً. كانت التعاسة مكتوبة علينا بالخطّ العريض. وعلى الفور، نظر غبريال إليّ نظرة المجرب قائلاً "هيا بنا" إلى الشرطة، فنظرتُ إليه نظرة القارف المشمئِز وقلتُ "اِذهب وحدك.. ثم لماذا العجلة ما دامت السفارات موجودة في العاصمة بلغراد وليست هنا في سراييفو".. يا إلهي من قدر؟ قرفصنا على طريقة الهنود الحمر وأخذنا نناقش المخارج، لكن لم يكن هناك بد من الرجوع إلى بلغراد بعد الإبلاغ عن السرقة عند أقرب مركز للشرطة..

سيرج كان محظوظاً لأن جوازه بريطاني، ما يعني أن السفاة البريطانية كانت ملزمة بإصدار جواز سفر بديل له فوراً، فضلاً عن منحه (أو إقراضه) بعض النقود لتدبير أمره. أما غبريال وأنا، فكنا على علم مسبق بالإجراءات التعيسة، وبضرورة قطع رحلتنا فوراً والرجوع إلى بلدينا من خلال آلية الجواز المؤقت "اللاسيه باسيه"؟ لكن عقلي لم يستوعب حظي السيئ ولم يرض به قدراً مقسوماً. هنا، درتُ إلى سيرج وغبريال بغضب شديد وقلتُ لهما ما مفاده، "لا يهمني ماذا سيحلّ بي بعد الآن، لكني لن أراجع السفارة العراقية مهما حصل.

هؤلاء يريدونني أن أذهب إلى بلد لا أنتمي إليه، وهذا ما لا يمكن أن أقوم به واعياً. عليهم أن يخلّصوا معاملاتي بأنفسهم ويشحنوا نعشي إلى العراق على حسابهم!". كنتُ أتعرّق غضباً وأغلي جزعاً، وكاد قلبي أن يسلم للباري ويتوقف عن الخفقان. وهنا تذكرتُ اِرتعاب مالك من الذهاب إلى السفارة العراقية يوم فقدنا جوازاتنا في بوخارست! اِسودت الدنيا بعينيَّ، وطارت العصافير من جانبيَّ، وخدشتْ المصيبة وجنتيَّ. حاول سيرج وغبريال تخفيف ألمي واِحتواء غيظي، لكن لم يكن باليد حيلة، خاصة أن فقدان جواز سفر أجنبي في بلد شيوعي كان يُعتبر من الكبائر! ولعمري، كم تمنيتُ في تلك اللحظة العودة إلى السجن على معاودة السفارة...

فجأة شقّ موسى البحر بعصاه، فاِنفلق الماء وتحققت المعجزة. اِنتهت المسرحية، وقد اِنطلت عليّ تماماً! فإذا بسيرج أفندي كان يمثّل "فيلماً" عليّ بإيعاز من غبريال، لا لشيء سوى لإستقبال يوم فكاهي جديد للذكرى والتسلية والتنكيت على طريقة "الكاميرا الخفية". أراد سيرج وغبريال اِستفزازي حول جنسيتي ومعرفة ردّة فعلي ومدى غضبي. تباً لهما من بين الأصدقاء! غفرتُ لهما مزحتهما وتناولنا العصير والبسكويت، ورمينا الفتات للعصافير، فعادت تُغرد فوقنا من جديد

الرفيق تيتو

يومئذ كان رئيس يوغوسلافيا، تيتو، ومعه عبد الناصر، ونهرو، زعيم الهند، قوة عالمية من خلال تأسيسهم "حركة عدم الإنحياز" *(NAM)*. كانت الحركة جبهة سِلمية تقف على الحياد بين الإتحاد السوفياتي الشيوعي وبين الولايات المتحدة الرأسمالية. لكن رغم نيتها الحيادية المُعلنة، كانت صبغتها السياسية يسارية اِشتراكية بِامتياز. ولسبب

"فرويدي" لم أفهمه في حينه، كنتُ فخوراً بوجود عبد الناصر عنصراً بارزاً ووقوراً في نشاط الحركة. وربما لذلك السبب لم أشعر - بعكس غبريال وسيرج - أنني كنت غريباً في يوغسلافيا، أو دخيلاً عليها. ومع أن تيتو كان ديكتاتوراً من أعتى طغاة الأنظمة الشيوعية رغم اِنتخابه رئيساً في عام 1953م، إلا أنه، بحسن إدارته (لا صوت يعلو على صوته) وجدارة سياساته (التساوي في الظلم)، اِستطاع توحيد يوغوسلافيا وإعادة بنائها بعد الدمار الذي أصابها أثناء الحرب العالمية الثانية. لا، بل تمكن من إبقائها موحّدة قوية حتى وفاته عام 1980م رغم ديكتاتوريته. الملفت فعلاً أن جنازته حينها كانت أكبر حدث عام في التاريخ. يومها، حضرها مندوبو كل الدول الممثلة في الأمم المتحدة، فضلاً عن جماهير زحفت إلى قبره فيما بعد وغصّت بهم شوارع بلغراد. وحتى جنازة عبد الناصر شهدت، هي الأخرى، تأبيناً مليونياً خنق شوارع القاهرة، مثله في ذلك مثل جنازة نهرو التي أمّها مليونان من كل الأطياف. ورغم الرأي السائد حول اِتهام الثلاثي تيتو - ناصر- نهرو بخصوص ممارسة الكبت والتسلّط على شعوبهم، إلا أن الناس في بلدانهم كان لهم رأي آخر بشهادة جنازاتهم التاريخية.

خلال فترة حكمه الطويلة، قاد تيتو البلاد بِاتجاه التحديث. فأثّر كثيراً وعميقاً على المجموعات العرقية والعادات، وكاد أن ينجح في صهر الإختلافات الثقافية بين الفلاحين الصرب والكروات؛ وهذان المجتمعان أصلاً يشتركان بروابط ثقافية ولغوية واحدة تمثل جزءً لا يتجزأ من هويتهما القومية. كلاهما له تاريخ موجع قوامه المعاناة من بطش العثمانيين والوقوع تحت سيطرتهم لمدة طويلة. وبينما اِعتنق يوغسلافيون وألبان كثيرون الإسلام وأشهروه، كبتَ آخرون معتقداتهم الأصلية وأخفوها بِانتظار زوال الإحتلال التركي. أما أهالي البوسنة، فهم مسلمون من الأساس، وقد جاءت السلطنة العثمانية

ببعض منهم إلى البلقان من الأندلس في خضم حقبة محاكم التفتيش 1492-1590م. في تلك الفترات العصيبة اِنتقل الكثيرون من المسلمين بالسفن من مرفأ مرسيليا، إلى ميناء "دبروفنك" في كراوتيا على البحر الأدريتكي، أو براً منها إلى سرايفو وموستار، وإلى مواقع أخرى كانت تحت سيطرة العثمانيين، بما فيها بلغاريا نفسها.

ومسلمو البوسنة يمثلون ثالث أكبر أقلية عرقية في سلوفانيا بعد الصرب والكروات. وكم كان مؤلماً لي شخصياً أن أقرأ بعد سنوات عديدة عن إبادة جماعية حدثت خلال الحرب الأهلية التي أشعلها موت تيتو. يومها بدا الأمر كما لو أن الجميع كانوا يترقبون وفاته للاِنتقام من بعضهم البعض عن تراكم الأحقاد الدينية والإختلافات الثقافية والعرقية. كنتُ كلما أقرأ شيئاً عن تفكك يوغسلافيا والإبادات الجماعية في البوسنة على أثر التفكك، كان يخُيل لي أن الديكتاتورية أحياناً أكثر رحمة من الديمقراطية، أقله حسبما تبين من غياب تشاوتيسكو وصدام والشاه والقذافي والأسد وعلي عبدالله صالح وغيرهم على سبيل المفارقة. أولئك الطغاة "لم يسمحوا" لله نفسه أن يتدخل في سلطتهم، ولا أن يقرر مصائر الناس عنهم! لكن رغم قسوتهم واِستبدادهم وكفرهم، لم تفقد بلادهم آلاف الضحايا تحت حكمهم مثلما فقدت بعد رحيلهم. الملفت في حالة يوغسلافيا أن ثمة محللين غربيين ربطوا بتحليلاتهم بين حرب البوسنة والهرسك وبين فضيحة مونيكا لوينسكي! يومها زعموا أن كلينتون وسّع تورط أميركا في البلقان فقط ليشغل العالم عن علاقاته الغرامية مع مونيكا! (رأينا فيما بعد كيف أن نتنياهو أيضاً وسّع حربه على غزة ولبنان وإيران لإشغال العالم عن فضائحه القضائية!). وبسبب أصول مونيكا اليهودية، اِفترض البعض وجود مؤامرة صهيونية لإبتزاز كلينتون وإرغامه على "أشياءٍ معينة". الصهاينة - حسب نظرية المؤامرة - كانوا يريدون تدمير مستقبله السياسي كرئيس للولايات المتحدة ما لم يخفف اِعتراضاته

على بناء إسرائيل المزيد من المستوطنات في الضفة الغربية، وعلى مماطلاتها بخصوص عملية السلام، أو حلّ الدولتين.

إثارة فضيحة التحرّش الجنسي علناً ضد كلينتون لم تكن صدفة في وقت، كان نتنياهو يزور فيه الولايات المتحدة، لا سيما أن الرجلين لم يكونا يطيقان بعضهما البعض. توقيت الفضيحة نفسه كان فضيحة بذاتها بالنظر إلى فرضية التآمر الإسرائيلي الصهيوني. بيد أنها بقيت مجرد فرضية تأويلية رغم عشرات المقالات عنها. وحتى عندما ربط البعض لاحقاً بين فضيحة كلينتون في حينه، وبين فضيحة إبستين وتورط ترامب الآن، تبقى نظرية تدبير الفضائح الجنسية لرؤساء الجمهورية وأعضاء الكونغرس والشخصيات العالمية من قِبل الموساد الإسرائيلي، تبقى زعماً صارخاً، كتهمة تدبير العلاقة الحميمة بين جون كينيدي والممثلة مارلين مونرو. فضيحة أدتْ بنهاية المطاف إلى موتها الغامض عام 1962م واغتياله العلّني بعدها بعام، وإن بدا الأمران منفصلين. هذا وقد ظهر فيما بعد على لسان عميل من الـ *CIA* أن وكالة الإستخبارات الأميركية هي التي دبّرت اِغتيال مارلين مونرو بأمر من روبرت كينيدي، شقيق الرئيس جون نفسه! وعلى هذا المنوال، فإن عالم المخابرت والإغتيالات مريب شرس مذهل لا يأخذ المراقب منه حقاً ولا باطلاً، مما يعطيه سِمته المخابراتية السرّية الغامضة. ورغم اِنعدام الأدلة العلمية، إلا أن هناك قرائن قوية تشير إلى تلازم ظهور الفضائح السياسية في العالم مع ظهور تغييرات بنيوية فارقة، كالإنقلابات والحروب أو التحالفات الإستراتيجية.

كانت يوغسلافيا من أجمل البلدان التي مررنا بها وأقلها عنصرية تجاه الغرباء والأجانب. وبعكس تركيا، مثلاً، حيث الطابع الإسلامي فيها يطغى على المعالم الأخرى، فإن مدن يوغسلافيا رغم كنائسها وجوامعها ومعابدها، لم تفرض نمطاً معيناً على زوّارها ولم تكترث

حقيقة لإنتماءاتهم، وكأنها فعلاً كانت غير منحازة في عالم يسوده الإنحياز. ومن كل المدن في يوغسلافيا، يبقى لسراييفو في ذاكرتي مكان مُميّز لأني رأيتُ فيها عالماً مثالياً حتى بظل الديكتاتورية والشيوعية. فالمدينة، بعهدة تيتو "العظيم"، كانت فسيفساء ثقافية مُتنوعة تعانقت بشوارعها المساجد والكنائس والمعابد اليهودية في أفق مسالم واحد. سراييفو، يومها، كانت تمثل نهج تيتو الحقيقي، وتنبض بالحركة والموسيقى والشعر، وتعجّ بالمنتزهات والمقاهي، وتضجّ بعشرات اللغات واللهجات، كنقطة إلتقاء آمنة بين الشرق والغرب. لا، بل كان دورها بين القطبين مركزياً إلى درجة أن الأميركيين إعتبروها هي "بوابة الشرق" وليس أي بوابة أخرى. لذا، لا عجب أن الغرب طحنها طحناً بعد إنهيار السوفيات، وإنتقم لنفسه من دور تيتو الرائد في نطاق عدم الإنحياز. ذلك أن فلسفة التعايش – بمفهوم الغرب – تقوم على "مبدأ" بسيط: "إنْ لم تكن معنا، فأنت ضدنا". أي لا مجال أن تكون معنا ومع غيرنا في نفس الوقت، ولا أن تكون ضدنا وضد غيرنا، أو أن تكون محايداً. الغرب لم ينسَ قورش العظيم، وهنيبعل، وهارون الرشيد، ومحمد الفاتح، وسليمان القانوني، وصلاح الدين وتيتو! هؤلاء وغيرهم تصادموا مع الغرب وأوجعوه، ليس في سبيل الله ولا من أجل القيم والمبادئ، إنما في سبيل الصراع على السلطة والنفوذ. هناك أيضاً قادة شرقيون كثيرون ساعد الغرب على ولادتهم، فإنقلبوا عليه وأوجعوه، أمثال، عبدالناصر والأسد وصدام والقذافي والشاه والخميني.

أبو الإسكندر!

ومن سراييفو في قلب يوغسلافيا إتجهناً على الأوتوستراد (منفصلين) جنوباً نحو سالونيكي في اليونان (مروراً بمونتنغرو، وكوسوفو،

وشرق مقدونيا). هناك عند الحدود كانت نقطة تجمعنا في الصباح الباكر من جديد، فعبرنا إلى اليونان معاً. كان الطقس اِمتداداً ليوغسلافيا، حاراً تحت أشعة الشمس، منعشاً في الظلال، وبارداً في الليل. كانت اليونان يومها مثالية لذوقي وأحلامي. إذ من جملة الأشياء التي كنتُ متحمساً لزيارتها، قبر فيليب الثاني، والد الإسكندر العظيم. فمن خلال المركز الثقافي البريطاني في بيروت كنتُ قد قرأت عن حفريات أثرية بحثاً عنه في سالونيكي، لكن لم تُكتب لي متابعة التفاصيل في حينه. زيارة تابوته كانت فرصة نادرة "لكي ادّعي اِنتمائي إلى الحضارة المقدونية ولأربط أصولي المتواضعة بسلالة الإسكندر العريقة"، أقله من باب التنكيت والدعابة الثقافية. لكننا فوجئنا، بل صُدمنا حقاً أن لا أحد في تلك المدينة العريقة سمع بفيليب، أو كان يعرف شيئاً عن تاريخه أصلاً، رغم معرفتهم بالإسكندر؟ إلا أن مركزاً سياحياً متواضعاً وسط البلد أفادنا بوجود قبر مشتبه به قيد التوثيق في "بلدة فيرغينا"، على بعد حوالي 75 كلم غرب سالونيك، وهي موقع مدينة "أيغاي" القديمة، أول عاصمة لمقدونيا. ولأن الموقع كان بعكس اِتجاهنا تماماً، فلم نكلف أنفسنا عناء المشوار، لا سيما أن فيليب الثاني كان ما يزال مفقوداً "رسمياً" بين القبور الملكية. وقد اِستغرق الأمر سنتين كاملتين من بعد مشوارنا للإعلان الرسمي عن اِكتشاف قبره عام 1977م. وكالعادة مع آثار التاريخ في كل مكان، قرأتُ فيما بعد أن قبراً آخر (القبر رقم 2) وُجد لنفس "الفيليب" في المنطقة نفسها بنفس المواصفات؟ ومثل هذه التناقضات والأضاليل تنشأ دائماً وعادة بسبب التسويات على خلافات مُلكية الأرض، أو حول حق الإستغلال السياحي بين الحكومات وبعثات التنقيب! أكاذيب وبيانات مبفركة لا نعرف الأصلي فيها من المزوّر، حتى وإنْ طرّزوها لنا بترجمات مصدّقة ووضعوها في المتاحف الدولية. إنه خداع ثقافي غربي معلّب ومنظم على مستوى العالم. ولو صحّ فعلاً

أن قبر فيليب الثاني كان غير قبر فيليب الثالث في ضواحي سالونيكي، فيكون الستار قد أُسدل على تاريخ طويل من البحث المضني عنه بمقابر عائلة الإسكندر، وقد ضمّت جبانة العائلة - حسب أقوال بعض المؤرخين - رفاة جدّ الإسكندر ووالده فيليب وعمه. وتردد في الدوائر المعنية أن الهياكل العظمية التي فُحصت وتمت دراستها حتى الآن هي من بين الهياكل الأكثر أهمية في تاريخ أوروبا كله. أما مقبرة الإسكندر نفسه، فهي ما زالت واحدة من أكثر المواقع غموضاً في العالم رغم وضوح سيرة حياته القصيرة. هناك عدة فرضيات قوية عن وجودها في العراق بالقرب من مدينة بابل. لا بل، هناك، من عفاريت الزمن وشياطين التاريخ والمؤرخين، مَن زعم أن ورثته القادة العسكريين الثلاثة: بيرديكاس، وبطليموس، وسلوقس اِتفقوا سراً على إخفاء جثته والتعتيم على دفنه كي لا يُقدس ضريحه أو يصير اِحتكاراً ضمن منطقة نفوذ أحدهم. هناك مَن زعم أيضاً أنه نُقل إلى "فيرغينا" ودُفن إلى جانب والده فيليب. بعضهم رجّح أن يكون بطليموس (الأول) سرق جثة الإسكندر ودفنها بمعبد "زيوس" بواحة "سيوة" في صعيد مصر تأسيساً لهيبة حكم البطالمة في بلاد الفراعنة. وهناك في "سيوه" مواقع آثار ومدافن محمية جيداً وممنوعة كلياً عن العامة يقال إن الإسكندر محفوظ في أحد مراقدها. إلا أن أغلبية البحّاث المعنيين أجمعت على رواية دفن الإسكندر في معبد "ممفيس" أولاً، قبل نقله لاحقاً إلى الإسكندرية. ومما يُعزّز هذه الفرضية - برأي أصحابها - أن أباطرة روما الكبار، بمَن فيهم يوليوس قيصر نفسه وأغسطس وكاليغولا، كانوا يعاودون قبره بِاستمرار في الإسكندرية.

أمّ العواصم!

ومع أن ميدان سالونيكي الرئيسي عريق بتاريخه المقدوني وعلى الأتوستراد الرئيسي إلى العاصمة اليونانية، إلا أنه لم يثر إعجابنا بالمرّة، ولم نشعر في حضرته بالهيبة التاريخية أو حيوية السياحة وتنوّع السيّاح. في جميع الأحوال، لم تكن إقامتنا في سالونيكي موفقة رغم الإستراحة والإسترخاء. لكن مع طلّة مساء اليوم الثاني، وبعد اِختبار حمّامات الميدان والتسوّل في أزقة الجوار، تابعنا المشوار ليلاً بإتجاه أمّ العواصم، أثينا، في الجنوب على بعد 300 كلم تقريباً. كانت وسيلة "الأتوستوب" ليلاً، طريقتنا المعتادة لتوفير كلفة المنامة والمواصلات معاً. وهكذا، بعد ساعات طويلة متعبة على الأوتوستراد، ظهر لي "الأكروبولس" مضاءً بهياً بأشعة الفجر، كما لو كان هو والتاريخ ينتظران وصولي. المعبد ليس فقط تاج أثينا وجوهرة البلقان، إنه نصب تذكاري للروح البشرية والعقل والجمال معاً. رُفع فوق المدينة لأكثر من ألفي عام منارةً للديمقراطية والفلسفة والفن. ومَن يُقدّر أهمية الفنّ والتاريخ، يعرف أن أحجار "الأكروبولس" تنضح بالفكر الغربي، وأنه لا ينتمي فقط إلى اليونان، لكن للعالم بأسره. والأكيد أنه شُيّد من خلال رؤية شخصيات عظيمة فذة ألهمت الشعوب اليونانية وقادتها خلال العصر الذهبي لأثينا..

وكما يفعل الواصلون إلى أثينا عادة، وضعنا زيارة الهيكل نصب أعيننا وضمن برنامجنا ليوم آخر وتوجهنا مباشرة إلى ميدان "موناستيراكي". تلك الساحة الشهيرة النابضة بالحياة، وهي ربما أفضل مكان يُظهر جمال أثينا وتاريخها من خلال الأبنية القديمة المحيطة به ذات التصاميم المعمارية الرائعة. هناك يقف السائح مبهوراً أمام طراز معماري مخضرم تتداخل فيه المحلات التجارية والسياحية العصرية بالمعالم التاريخية العريقة، كلها إلى جانب أزقة المطاعم وممرات المقاهي وحارات الترفيه والإستجمام. إلا أن أهمية الميدان تبقى سياسية بِامتياز بما شهده عبر السنين من مظاهرات التأييد

أو الإحتجاج للملكية أو الجمهورية. فاليونان لطالما اِعتُصرت برياح التغيير منذ الحرب العالمية الأولى عندما اِنقسمت سياسياً على نفسها بين الملك المحافظ قسطنطين الأول، صاحب نظرية الحياد المؤيد لألمانيا، وبين رئيس وزرائه إليفثيريوس فينيزيلوس، الطامح لتحقيق مكاسب توسعية إقليمية. وهكذا أدّت تبعات الخلاف بين الرجلين وآثارها إلى مراحل ديكتاتورية وصراعات ديمقراطية عقيمة، فضلاً عن اِنقلابات عسكرية! إلا أن النهج الديمقراطي هو الذي فاز بنهاية المطاف وأنقذ اليونان من حرب أهلية كادت أن تكون أكيدة. وفي 24 حزيران 1974م، اِنتقل الحكم فيها من الملكية إلى الجمهورية، وأخذت دورها العسكري ودخلت في حلف "الناتو". وسرعان ما اِصطفت مع الدول الأخرى فيما بعد ودخلت في السوق الأوروبية المشتركة، وأنقذتْ نفسها من براثن الإنهيار الإقتصادي والإفلاس عقب الأزمة المالية العالمية عام 2009م.

.. أثينا ليست مدينة رمزية ولا عادية. فهي للغرب بمثابة "بابل" للشرق، بما كان لبابل من عراقة وتألق وتأثير على العالم برمته. وساحة "موناستيراكي" نفسها اِختصار عضوي لحضارة اليونانيين، فيها تختلط أعراق الزوّار والأفكار بمختلف الحضارات والأديان. ولا عجب أنها كانت المكان البديهي الذي اِنطلقت منه الثورة اليونانية، بل كانت وما تزال نقطة تجمع كل الإحتجاجات السياسية والعمالية والعقائدية بين معسكري الشرق والغرب! غبريال وسيرج وأنا لم نكن أطرافاً بالنزاع في اليونان، ولا نشطاء بالإحتجاج ضد حكومتها، لكن تاريخ البلد نفسه كان من صميم اِهتمامنا. بيد أن أولويتنا لحظة الوصول كانت بعيدة كل البعد عن السياسة والثقافة والتاريخ معاً. كنا في ذلك الصبح الحار متعبين نعسانين جوعانين بعد ليل مديد وبرغش عنيد. وبأجسادنا المعْقوصة النتنة "غزونا" حمّامات الساحة أولاً، اِغتسلنا وغسلنا ملابسنا ونشرنا غسيلنا، ثم اِسترخينا على مقاعد

الحديقة بإنتظار فتح المطاعم. وفي "لحظة الصفر" إندفعنا إلى أول مطعم "سوفلاكي"، أكلة كنتُ سمعتُ عنها في بيروت تُشبه الشاورما العربية أو "الدونا" التركية، لكن لم يسبق أن تذوقتها. طلبنا سندويتشاتنا على طاولة منزوية وعضضنا ألسنتنا من النتشة الأولى! وعلى المستوى الشخصي، لم استغرب إن كان "السوفلاكي" أقدم الوجبات السريعة في اليونان، لا سيما أنه ظهر قبل "ويندي" و"تاكو" و"ويمبي" بوقت طويل. كانت له شهرة عالمية حتى قبل وصول "ماكدونالدز" و"كنتاكي" و"بيتزا هاتس". ومع أنه أساساً كان يُحضّر فقط من لحم الخزير، فإنه اليوم يُقدم بالخبز العربيي (البيتا) بكل أنواع اللحوم تقريباً. ولو كان "السوفلاكي" مُخترَعاً أيام الشاعر العظيم هوميروس، لكان الغيارى العرب قد زعموا أن الخبز العربي أيضاً كان موجوداً منذ ذلك التاريخ، أقله ليحتضن "السوفلاكي" ويُبقيه ساخناً. كان لا بد لنا من "السوفلاكي" من أول الطريق في مغامرتنا اليونانية...

وبعد سندويتشاتنا، عدنا إلى حديقة الساحة وإلى نشر المزيد من غسيلنا على المَلأ، ثم "ضربناها" نومة عميقة. وعند الغروب تقريباً، توجهنا مشياً إلى تلة "ليكابيتوس" البانورامية المطلة على المدينة رغم إرتفاعها المتواضع. التجوال بين معالمها ومطاعمها ومقاهيها أخذنا بعيداً إلى عالم آخر من الجمال والمتعة والتاريخ. كنا ليلتئذ مُسْتحمين ومُعَقمين، وكانت "حظوظنا" مع الصبايا وتكسير الصحون و"الأوزو" جيدة من أول محاولة. كنا أحياناً نستهجن كيف نجد طريقنا مع الفجر إلى موقعنا الدائم في حديقة الميدان رغم السكر والضياع. روتين مثير إمتد معنا أياماً جميلة..

حيّ على خير العمل

بعد جولات تقليدية على المتاحف ومعالم المدينة، وكانت مجانية للطلاب في تلك الأيام، شقينا طريقنا في المساء الرابع إلى المرفأ القريب، وكنا، كالعادة، جياعاً متعبين. لم نهدر وقتنا في الكزدرة والبصبصة. بدأنا فوراً بالتفتيش عن عمل نضمن منه اِستمرارنا ليوم آخر. باشرنا "مغامراتنا" الأولى بالبحث عند مطاعم المارينا، حيث الضجيج والصخب والرقص، فضلاً عن تكسير الصحون. كل ذلك اللهو والعبث كان يحدث بجنون وخبل وسط أجواء من الحماس والهيام تحت تأثير "الأوزو" والنبيذ. وللوهلة الأولى، بدا تكسير الصحون كما لو كان تفريغاً "فرويدياً" اِنتقاماً من شيء دفين بعمق الوجدان، أو تعبيراً عن اِرتياح مكتوم بالنصر على الذات، أو أملاً براحة وسكينة..

وجدنا ضالتنا في مطاعم المرفأ، وباشرنا في كنس الصحون المكسورة وغسل الأطباق السليمة. أمضينا أوقاتنا "الثمينة" بتقشير البطاطا وفرم البصل ودقّ التوم. ولم يمضِ يومان علينا في بيئة المطاعم، حتى كنا قد أُتخمنا إلى البلعوم ولم نعد نشعر بحاسة الجوع من أصلها. وعلى ملئ بطوننا واِحتياطنا، "تطورنا" قليلاً وقفزنا من الأرض إلى البحر. فبدأنا "نعتلي الموج" ونتنقّل بين سفن الشحن ومراكب الصيد ويخوت الأثرياء. ومن خلال عملية التنقل "المصدعة"، زرنا جزراً ممتعة ومواقع كثيرة، أقربها للذاكرة "ساموس" و"إيدرا" و"كريت" و"كورفو". لم نعمل معاً على نفس المركب، ولم ننتقل لأكثر من جزيرة واحدة في المشوار الواحد. كنا، عندما نلتقي ونمكث معاً في جزيرة ما، نتفق على اللقاء في الجزيرة التالية. أوقاتنا على متون المراكب كنا نقضيها في أعمال رتيبة وشاقة: بالعتالة، والدهان، وشدّ الحبال، وتوضيب البضائع، وتنظيف السمك وفَرْك الحمامات. أما في جزر التوقف، فكنا نعود من جديد إلى مطاعم

المارينا فيها، وإلى مهاراتنا في غسل الصحون وتقشير البطاطا والبصل. وهكذا، مللنا البحر والأشرعة والمراكب، و"طهقنا" اللحوم والأسماك، وضجرنا من الغناء اليوناني والبوزوكي. كنا من حين إلى آخر نتوق إلى أجواء الطبيعة والجبال والوديان والبساتين، وإلى مأكولات الصواني (صينية كفتة، صينية كبة، صينية بشاميلا)، وإلى الطبيخ والمرق والمعجنات. المفارقة الجميلة أننا كنا في بعض الجزر نجد أحياناً أشجار التين البرّي وعرايش العنب المتمرد وبعض التوت الثائر والخوخ الحائر. براري الجزر في أعماقها بعيداً عن البحر تشبه إلى حد كبير القرى في لبنان، لا سيما مع دروب الدابة وحجارة الجِلال وعشوائيات الزهور والأشواك والصبار.

جدّي أقوى من جدّك؟

سيرج كان صارماً جداً بإدارة العجز في ميزانيتنا. كان يُديرها بالغرام المُقنن على ميزان الجوهرجي! ولسد اِحتياجاتي الخاصة، لم يكن لديّ معه خيار سوى المزيد من توسّل المارة واِستعطافهم. كنتُ مدمناً على التدخين، بينما سيرج وغبريال لم يمسكا سيجارة في حياتهما قط. لم يكونا مثلي مضطرين إلى الشحاذة للحصول على سجائر عينية أو مال لشرائها. أما ما كنا نحصّله من أجور المطاعم، فكانت مبالغ رمزية تذهب مباشرة إلى "خزنة" المشوار بعهدة سيرج. ورغم اِنتشار الكثير من المطاعم والمقاهي في الجزر على مدّ النظر، لم نكن دائماً محظوظين بالعثور على عمل لأكثر من يوم واحد أو لبضع ساعات! كنا دوماً في حالة ترقب واِستنفار خوفاً من يوم جوع آخر، لا سيّما أننا كنا ضخاماً كالجياد ونهّاماً كالحيتان. ورغم القلة والحرمان والدوخان على متون المراكب، اِستمتعنا كثيراً في كل الجزر التي رسونا فيها، خاصة في "ساموس" و"ميكونوس" و"إيدرا". والأخيرة - بإستثناء

الحمير فيها – جزيرة ملفتة من حيث أنها كانت محمية من السيارات والدراجات النارية، إلى درجة أنك تستهجن المشي في شوارعها بدون مركبات، فتعطيك فرصة التمتع ببيوتها البيضاء الساحرة...

في نهاية كل أسبوع، كان سيرج يمنحنا "مكافأة" مالية رمزية، وكانت بالكاد تكفي لكازوزة أو كباية شاي أو فنجان قهوة. كنا نقضي في المقهى على الفنجان الواحد أمسية بطولها نراقب الناس ونغازل البنات ونناقش حروب طروادة. جلّ همنا في تلك الأثناء قضاء أطول وقت بأقل كلفة بدون "خناقة" أو "زعل" أو "كارثة"! وفي إحدى المرات في جزيرة "إيدرا" جلسنا في زاوية بديعة تطلّ على الشطّ مباشرة. كنا نناقش أمور "الدنيا والوجود" كما كان أرسطو وسقراط وأفلاطون يناقشونها. عناوين عميقة لم تكن ضمن نطاق مناقشات الشباب اللبناني أو اِهتماماتهم آنذاك. إلا أن لا سيرج، ولا غبريال، ولا أنا، كنا من النوع اللبناني التقليدي: غبريال كان يحب مناقشة فكرة فصل الخلق عن الخالق، وسيرج كان يغوص في البحث عن مصادر الحكمة والإيمان. أما أنا، فكنتُ أفضل مناقشة فكرة "المُخيّر والمُسيّر"، وإنْ كنتُ "اختار" في النهاية التوجّه إلى مغازلة المدخنات من الصبايا. في تلك المرّة بالذات، طلب سيرج وغبريال فنجاني قهوة عادي، وطلبت أنا كوباً من الشاي السيلاني. يومها لم أكن قد زرتُ سيلان (سريلانكا) بعد، ولا ذقتُ طعم الشاي الأصلي من قبل، إلا أني كنتُ قرأت بإسهاب عن زراعة الشاي وصناعتة من خلال المركز الثقافي البريطاني في بيروت. وعندما طلبتُه من الجرسون، كنتُ أتخيلُ نفسي لورداً بريطانياً من القرن الثامن عشر، يحتسي الشاي على شرفة فندق *Face Galle* الشهير، محاطاً بأصدقائه ومتأملاً شاطئ كولومبو. وعلى الطريقة اليونانية التقليدية أحضر الجرسون قهوة غبريال وسيرج بفنجانين صغيرين مع كباية ماء واحدة. ولدهشتي العظيمة،

أحضر لي إبريقاً نحاسياً كبيراً فيه ثلاثة مظاريف من شاي "ليبتون"، وكان يكفي لثلاثة أشخاص مرّة واحدة. كانت فرحتي عظيمة، ليس فقط لأن الجرسون بدا كما لو قرأ خيالي في كولومبو، بل أيضاً لأن شاي "ليبتون" في تلك الأيام كان شيئاً فاخراً، على الأقل بالنسبة لي. المفارقة أن الأمر اِستغرق معي أكثر من عشرين سنة فيما بعد لإكتشف بنفسي في أكبر مزارع سريلانكا، كيف أن شاي "ليبتون" كان أسوأ أنواع الشاي في العالم. فهم يجمعونه من بقايا أوراق الشاي التي تتناثر من ماكنة التكرير كالرماد على أرض المعمل. فتُكنس يدوياً بمكانس القش (أو بـ"الهوفر") لحساب شركة "ليبتون" العالمية. وأما الشاي الفاخر الذي لا يستطيع اِحتسائه إلا الميسورون، فيُصنع دائماً من أوراق الشاي اليافعة والبراعم الطرية، وقد اِحتكرت بريطانيا تسويقه تحت أسماء لوردات أو محتكرين إنجليز متنوعين، مثل اللورد "إيرل غراي" (ألبرت غراي)، واللورد "تواينغ" (توماس تواينغ) وغيرهما. الطريف أن إبريقي الكبير أغضب سيرج وغبريال، وأثار غيظهما لأنني حصلت منه بنفس السعر على ثلاثة أضعاف ما حصلوا عليه بالقهوة. كان ذلك بمثابة ردّ اِعتبار على مزحتهما معي في حديقة سراييفو.

كنا، من باب الدعابة والتسلية وتمضية الوقت، نستدرج بعضنا البعض إلى المشاكسات والجدال لأتفه الأسباب. فمرّة كنتُ أتحالف مع سيرج ضد غبريال، ومرّة أخرى كنت مع غبريال ضد سيرج، وطوراً كانا لأسباب ثقافية يتحالفان مع بعضهما البعض عليّ، كما حدث في "تمثيلية" جواز السفر. أما في ذلك المساء - مساء الشاي - فتفوقت عليهما بالسخرية والغيظ والنكد. إلا أن نشوتي لم تستمر طويلاً. ففي المرّة التالية بعد أسبوع، توجهنا إلى نفس المقهى، وجلسنا في نفس الزاوية، وبنفس الترتيب تماماً. وللصدفة، جاءنا نفس الجرسون،

وألقى علينا نفس التحية والمجاملة. المفاجأة أن غبريال وسيرج - ولسبب في نفس يعقوب - طلبا شاي "ليبتون" سيلاني، مع العلم أنهما كانا من المدمنين على القهوة التركية (اليونانية) بعادات لبنان. ثم دار الجرسون نحوي وسألني عن طلبي - لم أكن يومها من أنصار القهوة على أنواعها - فأشرت عليه بأني لن أزيح عن الشاي، مشروبي المفضل آنذاك. لكن من نكد الدنيا علينا جميعاً أن الجرسون أحضر لنا نفس إبريق الشاي النحاسي مع ثلاثة أكياس "ليبتون" وثلاثة فناجين! فكانت الطريفة فظيعة لم نصمد أمام مفارقتها، فأخفضنا رؤوسنا وغطينا وجوهنا وضحكنا على حالنا ضحك المبخوعين. لكن المبخوع الأكبر، كان أنا، لأنني غُبنتُ في حصتي بسبب غيرتهما وحسدهما! بيد أن "تصرّف" الجرسون كان ذكياً نبيهاً، فربما أراد أن يهزأ بتذاكينا، وأن يثبت لنا أن أجداده الإغريق كانوا أكثر فطنة من أجدادنا الفينيقيين! صحيح أنهم اِستعاروا أبجديتهم من الفينيقيين، لكن كيّفوها للنهوض بتجارتهم وعلومهم وحكموا بها العالم القديم. أما الفينيقيون، أصحاب الأبجدية نفسها، فإنشغلوا عن البناء بالتناحر والإبحار والمقايضة والتدحرج الناعم الطويل من جزيرة إلى أخرى. وفي حين نظَم اليونانيون قصائد وأشعاراً جميلة (سافو وأنكريون)، وكتبوا ملاحم وميثولوجيا عظيمة، (الإلياذة والأوديسة – هوميروس وهزيود)، لم يكتب أجدادنا الفينيقيون شيئاً مُعتبراً سوى الشتيمة الوحيدة التي نصّها جدنا العظيم "أحيرام" على ضريحه بما يشبه "اللعنة" لكل مَن يَعبث بقبره! الطريف أن متحف بيروت يتألق بناووس أحيرام وكأنه تابوت الإسكندر ويتباهى باللعنة المنقوشة عليه كما لو كانت نقشاً من جلجامش!

إلى الوراء در!

بعد "إيدرا" وصلنا إلى "ميكونوس". وعلى نقيض الأولى، كانت الثانية تضج بالحركة ومزدحمة بمواقع خلّابة وبحر"تيركوازي" فاضح لأسماكه وعمقه. الجزيرة يومئذ كانت تكتنف شطْآناً "خاصة" تبعاً لنوعية السياح وأمزجتهم! كانت هناك خلجان صغيرة للسياح الطبيعيين العاديين وتسمى "الجنة"، وأخرى للمشاهير والفنانين والشخصيات العامة، وتعرف "بالنعيم". أما الثالثة، فكانت "محمية بشرية" متنوعة للميسوريين، والمهوسيين، والبرجوازيين، والأعيان، والحشاشين، والمُحوّلين جنسياً، والنخب الهاربة من القضاء والعدالة. ورغم آفاتهم وسماتهم، كانوا من كل الجنسيات تقريباً، وبينهم من أهل السياسة والأمراء وأصحاب ماركات مسجلة عالمياً. كانت أيامنا على الجزيرة رواية من الروايات وأسطورة من الأساطير، إذ حدث مرّة أن ضيّعنا، (ليست جوازاتنا)، بل بعضنا البعض بين الخلجان والأمواج، فقضينا وقتاً طويلاً نبحث عن حالنا، ولولا بعض فطنة الشباب في عروقنا، لكنا ضايعين إلى اليوم! كان مرفأ "ميكونوس" نقطة تجمعنا من جديد بعد الجزع والتعب والإرباك.

بعد "ميكونوس" كان بودي شخصياً أن أعرج على جزيرة "سانتوريني" القريبة، إلا أن سيرج أفندي كان مصمماً على الإبتعاد قدر الإمكان بإتجاه الشرق لجهة تركيا خوفاً من إضاعة الوقت على حساب الموازنة. وإذا كان من شيء واحد أتندم عليه في حياتي، أني لم "أسبح" خلسة إلى الجزيرة لما تثمله من قيمة تاريخية، خاصة بالنسبة لإهتمامي التوراتي والتاريخي. فالجزيرة، أصلاً، معروفة جداً عند الجغرافيين بـ"ثيرا"، وقد إشتهرت في الزمن الغابر من خلال بركانها الأسطوري الفظيع. صراحة، لا أعرف إنْ كان هناك ربط بين بركان "ثيرا" وبين البركان الذي دمّر الجزيرة وهجّر ساكنيها إلى ساحل شرق المتوسط وليبيا. إذ ورد في المصادر التاريخية أن سُحب

بركان "ثيرا" وصلت إلى مصر وغيرّت مناخها ما فسّر لبعض التوراتيين رواية الكتاب المقدس (الخروج 7- 10) عن مصائب مصر العشر: تحوّل مياه النيل إلى دم، وخروج الضفادع والبَعُوض والذباب، ونفق الأسماك والمواشي، وظهور القروح والبثور والجروح، وتلبد السماء بحمم التسمّم السوداء وسقوط البَرد، وإنتشار الطاعون، وظهور الجراد. ورغم محاولات مؤرخين كثيرين أيضاً ربط البركان بقصة التّوراة، إلا أن ثورته المؤكدة علمياً حدثت بحدود 1600 ق.م، أي بحقبة أحموس الأول، وبذلك لا تستوي الحقبة إطلاقاً مع حقبة موسى بحدود 1250ق.م. لكن ككل التاريخ القديم، لن يجد المراقب اِتفاقاً موحداً على نظرية واحدة. فبينما يجزم البعض أن البركان كان سابقاً لعصر أحموس الأول، يؤكد آخرون وجود لوحة فرعونية مبعثرة وُجدت في معبد الكرنك 1950م ورُمّمت في عام 1967م، وفيها وَثّق أحموس الأول للحدث الفظيع، ووصف فيضان النيل والأعاصير الترابية وسواد السماء وموت الحيوانات إلخ. تلك "الوقائع" التي تسبب البركان بها على مستوى شرق المتوسط وجنوبه، كانت تستأهل مني زيارة الجزيرة، إلا أن اِنعدام روح المغامرة، وعدم التضامن معي من قبل سيرج وغبريال حالا دون رغبتي..

إلى "ساموس" توجهنا. وككل البحار في اليونان، كان بحرها بديعاً، والبيئة من حوله في تلك الأيام كانت نظيفة إلى حدود الطبيعة الأصلية، وخالية تماماً مما نراه اليوم منتشراً من بلاستيك وقمامة. ربما قناديل البحر "الشيء" الوحيد الذي كنا نراه عائماً على سطح البحر، وهي غالباً ما تطفو بالقرب من الشطْآن في عزّ موسم الصيف. ورغم إقامتنا القصيرة في كنف الجزيرة، تمكنا من اِستكشاف بعض الكهوف المثيرة فيها والجداول الساحرة والدروب القديمة. يومها - قبل العنكبة

والعولمة - كانت الجزيرة طبيعية مُذهلة وسريالية بشكل اِستثنائي. فحتى الحشائش والأشواك والصبّار بدت فعلاً بلسماً جمالياً بمناظرها العشوائية واِمتداداتها البديعة. يومها لم نفهم كيف يتشابك التين الأصفر بالتين الأسود مع التين الأخضر والتين الشوكي مرّة واحدة (لا عنصرية في الطبيعة)! ولم نفهم كيف كانت العرايش والأشواك تتعانق بأغصان التوت لتحمي أعنابها وثمارها من الشمس الحارقة. كانت إقامتنا على شواطئ الجزيرة تشبه في بعض أوجهها إقامة القراصنة في جزر الكاريبي. قصيرة ومجادلة ومترقبة. ورغم إقامتنا العابرة في كنف "ساموس"، تمكنا من اِستكشاف بعض الكهوف المثيرة والجداول الساحرة والدروب القديمة، لكن لم نجد كنزاً ولا صناديق ولا هياكل!

وبعد "ساموس" اِنتقلنا إلى "رودوس"، أهم جزر الربط والوصل بكل الإتجاهات؛ فهي لغاية اليوم تربط العديد من جزر اليونان بالعاصمة أثينا، فضلاً عن تركيا. تاريخها حافل بالأحداث المفصلية، لا سيما في أعقاب الفترة المملوكية - الصليبية وعشية بروز الجبروت العثماني. كان أبرز المعالم التي "قصدناها"، موقع تمثال رودوس (الإفتراضي)، ومسجد سليمان القانوني، وأماكن "فرسان إسبارطة". وهؤلاء الفرسان أنفسهم صاروا "فرسان مالطة" بعد إجبارهم على ترك الجزيرة واِلتحاقهم برفاقهم "فرسان المعبد" أو ما يعرف بـ"فرسان القديس يوحنا" في مالطة. وهم لم يتركوا "رودوس" إلا مرغمين بعد معاودة حصارها من قبل عدوهم الأكبر آنذاك الخليفة العثماني سليمان القانوني عام 1522م. وسواء كان تمركزهم في "رودوس" أو مالطة، فقد كان الغرض من وجودهم مضايقة العثمانيين في شرق المتوسط وصدّ تقدمهم بإتجاه ليبيا وتونس وشمال أفريقيا عموماً. كانت زيارتنا إلى "رودوس" من أمتع زيارات اليونان، لأن

الجزيرة نفسها - بالإضافة إلى معالمها العريقة - كانت بمثابة نقطة اِلتقاء السيّاح من الجهات الأربع، حيث ترى من خلالهم تكدس الثقافات بشكل مثير ومحيّر معاً. فالزائر فيها يستطيع الإحساس بتلاقي الشرق والغرب بأوضح صوره من كل المناطق الأخرى. ولولا تقنيات الأكاديميين واِعتبارات المنظمات العالمية، لكانت "رودوس" هي "البوابة" الرسمية إلى الشرق.

ومن أهمية موقع "رودوس" أن أبرز المدن التركية الغربية تصطف على مرمى حجر منها، مثل "فتحية" و"مرمريس" و"إزمير". وهذه الأخيرة كانت وجهتنا التالية في الصباح الباكر بعد "رودوس". أغلبية العبّارات المتجهة إلى إزمير كانت متوسط الحجم من النوع الشعبي، مكتظة بالسيّاح حتى السطوح. كانت يومها وسائل نقل رخيصة قذرة تفوح منها روائح كريهة وغازات سامة! ركبناها واِنطلقنا فيها من الغرب المادي إلى الشرق الرومانسي. من عالم أرسطو المنطقي إلى عوالم الغزالي الشاعرية. وكالعديد من المدن التركية الممتدة من البحر الأسود إلى بحر إيجة، فإن إزمير أيضاً مدينة قديمة جداً لها ثقافتها الإغريقية المميزة وطابعها الشبيه بهوى اليونان وتراثها. غير أنها تجامل الهوية التركية من حيث طبيعة الأسواق (البازار) الكبرى المغطاة، والمواقع الأثرية التي تعكس مئات السنين من التنوّع في الأعراق والبضائع والأديان؛ فسوق "كيميرالتي" في المدينة، مثلاً، أقدم الأسواق التقليدية وأكبرها، ويعود تاريخه إلى أيام عزّ السلطنة العثمانية، ويتميز بطابعه الأصلي من أزقة ضيقة وخانات مزدحمة تأخذك إلى عصور السلاطين وسحر الشرق. أما الجبال المحيطة بها من كل جانب تقريباً، فتحميها من مفاجئات الأعداء والأعاصير معاً. والمدينة نفسها تتمتع بميناء طبيعي عميق يقوم على أرصفته مجمع

ساحر للسيّاح على طراز كورنيشات المتوسط، وفيه مطاعم للمأكولات البحرية المتنوعة ..

كنا نعرف روتيننا جيداً، ولم تكن لدينا صعوبة في الحصول على نصيبنا من الطعام لحظة الوصول! كنا دائماً نستقوي على أصحاب المطاعم بلغتنا الإنجليزية كحافز فعّال لتشغيلنا؛ ومثل اليونانيين، لم يكن الأتراك يتقنون الإنجليزية، وإذا ما عرفوا لغة ثانية، فتكون عادة ألمانية بدائية. ذلك أن الروابط بين تركيا وألمانيا قديمة تعود أساساً إلى عصر السلطنة العثمانية، وسرعان ما تعززتْ من خلال حلف الضرورة أثناء الحربين العالميتين.

طائفية وعنصرية..

وكالعادة مع كل مكان جديد، كان علينا أن "نكزدر" في إزمير ونستكشف أقرب معالمها. فكان أول ما قصدناه للأسباب التقليدية (حمامات وغسل ملابس) أشهر ميدان في المدينة، "كوناك". وبعد راحة وإسترخاء، مشينا خطوات قليلة إلى ساحة "برج الساعة" وجامعها الصغير، وكانت قد شُيّدت عام 1901م لتعكس القلب النابض للمدينة وتكون مركزها التاريخي والثقافي. وهي أبداً المعلم البارز لإزمير ومحاطة بسلسلة كبيرة من المباني التاريخية والأسواق الشعبية والمطاعم. ومن منظور آخر، تعتبر الساحة أيضاً سمة بارزة للطابع العثماني الشهير، ومكاناً شاملاً يستطيع الزائر فيه أن يجد ما يريد ويتمنّى، من الخيط إلى المخيط، فضلاً عن المقاهي العصرية وحانات الشاي التراثية.

هناك عند باب الجامع، بجانب القصر الحكومي ونصب "الرصاصة الأولى"، ومبنى البلدية، اِلتقينا بإمام مراهق ونحيف، شدّه إلينا حديثنا بالعربية. كان يضع على رأسه ما يُشبه عمامة السودانيين البيضاء الضخمة، ويحمل بيده ما يشبه سُبَح المقدونيين الصغيرة، وقد بدت سبحته أطول من لحيته الوبرية. بدا فخوراً بنفسه أمامنا، بادرناه التحية بالعربية، ودعانا إلى المسجد. وهنا أتذكر جيداً أنه اِستعمل كلمة عربية مبهمة لم نكن قد سمعناها من قبل. قال لنا: "تفضلوا إلى "الركائل"؟ غبريال نظر إلى سيرج نظرة دهشة واِستفسار، وسيرج اِلْتَفتَ بدوره نحوي لفتة الطفل المحتار، واِستهجنا معاً كيف لإمام تقي أن يدخن الأركيلة في صحن الجامع! لم نكن جماعة نارجيلات ولا ركائل أو أراكيل! سألني سيرج مستوضحاً تعبير الإمام كما لو كنتُ إعرابياً أصيلاً من قبيلة قحطان، أو ضليعاً بالفصحى من تلامذة سيبويه؟ وعلى طريقتي البهلوانية في تحريك جسدي، اِستوضحتُ الإمام غرضه،

ولدهشتي الشديدة اِستدركتُ منه أن "الركائل" التي قصدها إنما كانت اِلتباساً منه عن "الأرائك"، وهي جمع كلمة "أريكة"، وتعني "الكرسي". وهنا أتذكر جيداً أني سألته: "لماذا يا شيخ لم تسهّل الأمر علينا وتستعمل كلمة "كرسي" بدلاً من الفذلكة اللغوية المعقدة"؟ إلا أنه صدمني فعلاً بزعمه أنه لم يسمع بكلمة "كرسي" من قبل، ولم يعرف معناها؟ ومع أنه كان يعرف معاني المقعد والمجلس والمنجد والمفرش والبساط وغيرها من المرادفات، لكنه لسبب معين وجد كلمة "أريكة" أنسبها. يا إلهي، كيف لإمام مسجد أن يجهل كلمة مثل "الكرسي"، وهي واحدة من أوضح الآيات في القرآن عن وحدانية الله وقدراته ونعمه؟ أغلب الظن أنه لم يكن إماماً ضليعاً، فمن ردّه فهمتُ أنه ربما تتلمذ على أيدي شيخ تركي عجوز من سلالة منقرضة تستعمل كلمات عربية من العصور الجاهلية! كلمات فُصحى تَقلّص اِستخدامها في بلادنا وبقيتْ نضرة متدَاولة في بلاد الترك والصرب والفرس والأندلس على طريقة "أريكة" و"مليكة" و"فريكة" و"ركيكة". وهكذا تدرّج الكلام مع الإمام الفتى وتشعّب، فصار بينه وبين غبريال وسيرج جدلاً مسيحياً إسلامياً تركياً عربياً. أما أنا، فاسترخيت على العشب اليابس أمام المسجد اِستمع عن بُعد إلى النقاش النمطي والأسطوانة المشروخة عن "الطائفية والعنصرية"، وعن "أنتم كفار ونحن أخيار"، و"الله ليس عنده ولد ولا شريك"، و"محمد آخر الأنبياء" "والعرب خونة"، وغيرها من محاججات المسلمين مع "النصارى" من جهة، والأتراك مع العرب من جهة أخرى. كان منظر غبريال وسيرج، وهما يناقشان إماماً فتياً باللغة "اللبنانية الفصحى"، منظراً كوميدياً هزلياً بِامتياز. إلا أن المضحك الهيستيري حقاً، أن لا الإمام كان يعرف شيئاً عن اللاهوت المسيحي والمِلل والأناجيل، ولا غبريال وسيرج كانا يعرفان شيئاً عن القرآن أو عن الفرق بين المسيحي والنصراني، ولا حتى عن الفرق بين البدر والهلال.

كان سيرج وغبريال – كمعظم مسيحيي لبنان - يَعرفان المسيحي فقط على أنه من أتباع المسيح ابن مريم. لم يُدَرَّسوا بمدارس لبنان، أو يسمعوا في عِظات الكنائس، شيئاً عن أن النصارى (عند البعض المسلم) يعتبرون فئة من اليهود الذين (تنصرّوا) لتعاليم المسيح، فكانوا أول من رأى بالمسيح نبياً. وحسب بعض الفقهاء المسلمين، فإن أولئك النصارى لم يذهبوا إلى ما ذهب إليه الأتباع اللاحقون، المسيحيون، ولم يعترفوا لا بألوهية المسيح ولا ببنوته لله، بل اِعتبروه رجلاً كسائر الرجال جاءه الوحي بعد معموديته على يد يوحنا المعمدان. والمسيح - عند النصارى - أشبه بباقي الأنبياء العظماء من حيث أنه أدّى دوره بالرسالة واِنتهى بالشهادة. هناك فروقات كثيرة بين نظرة المسلمين إلى "النصارى" ونظرتهم إلى "المسيحيين"، وهي تتجاوز الإعتقاد وتطال الإعتراف بالأناجيل. إذ يؤمن "النصارى" (حسب فهم المسلمين)، بإنجيل متّى وحده، ويسمونه "إنجيل متّى الآرامي". وهذا تحديداً ما يجعل الكنيسة التقليدية العامة اِعتباره إنجيلاً ناقصاً ومحرفاً ومزيفاً. ولهذه الأسباب المختصرة يَعتبر المسيحيون التقليديون أن "النصرانية" عقيدة مبتورة لا تمت بصلة للديانة المسيحية. لذلك أبغضتها وحاربتها حتى قضت عليها تزامناً مع تهديم الرومان للهيكل اليهودي فى العام 70 م. وعلى هذا الأساس، ينبغي أن يُفهم اللغط اللغوي بين بلدة الناصرة والنصراني، أو بين النصارى والمسيحيين - برأي المسلمين. وفيما يرى النصارى المسيح بشراً مثلهم، مستقلاً عن الله، يراه المسيحيون التقليديون أنه هو الربّ الواحد، لكن يظهر لهم بطبيعته الثلاثية (الثالوث الأقدس): كالآب، والابن، والروح القدس. السؤال: كيف كان لسيرج وغبريال الغوص في أمور لاهوتية في حين أن رجال اللاهوت أنفسهم لم يفهموها بعد، أو يتفقوا عليها، لا سيما أن المسيحية - كالإسلام - فيها طوائف ومدارس ومذاهب وتيارات وجماعات كثيرة، منها الرومية

الملكية، والكاثوليكية، والأرثوذكسية، والأرثوذكسية الشرقية، والأرثوذكسية المشرقية، والبروتستانتية، والكلدانية الكاثوليكية، والسريانية الشرقية، والأثوريوية، والقبطية، والمارونية، والعمادية، واللوثرية، والإثيوبية التوحيدية، والمومونية. هذا فضلاً عن مذاهب وطقوس مختلفة في الكونغو وإرتريا ونيجيريا، وكينيا وآسيا. مسيح واحد، مدارس متعددة وأغراض مختلفة. الخلافات المذهبية في الغرب المسيحي وصلت إلى حدود الهوس وسفك الدماء في القرون السادس عشر والسابع عشر ومطلع الثامن عشر، لا سيما مع بداية الإصلاح البروتستاني عام 1517م، إلا انها لم تقتصر على الحروب بين البروتسانت وبين الكاثوليك، بل شملت على مدى ثلاثة قرون العوائل المالكة والكنيسة والإقطاع والنبلاء والفلاحين إلى درجة أن الله نفسه هرب من أوروبا ورحل إلى الأستانة ومكّن العثمانيين من التوسع غرباً بسبب التناقضات المسيحية - المسيحية. وهو أمر، للمفارقة، تكرر لصالح ملوك الغرب عقب الحرب العالمية الأولى مستفيدين من خلافات المسلمين في الشرق (السنة والشيعة والعلّويين والدروز والوهابين إلخ).

شربنا الشاي وودعنا شيخنا الفتى على إتفاق أكيد أن الأديان والمذاهب كلها "خير وبركة" شرط ألا تتسبب بقتل الناس الذين ظهرت هي من أجل خلاصهم وتطهيرهم من الشرور والحروب والفقر والمرض في المقام الأول. ولطالما كانت أحاديث الحدائق العامة مع الغرباء مدعاة تأمل ومراجعة.

بطل أم شرير؟

نمنا نومتنا، وصحونا صحوتنا، وتناولنا سندويشات "الدونا" (الشاورما) بالقرب من الحديقة. بعدها توجهنا إلى متحف إزمير

الأثري في الجوار، فوجدنا أقساماً منه مقفلة بفعل أعمال الترميم والصيانة. لكن على حظ المبتدئين، صادفنا بالجوار القريب متحف أتاتورك (أبو الأتراك)، وهو من أهم المعالم في إزمير التي تعكس تاريخ تركيا الحديث. المتحف يقع في وسط المدينة تقريباً، وهو البيت الحقيقي لمصطفى كمال مؤسس الجمهورية التركية الحديثة. فيه عاش وفيه توجد معروضاته كما كان يستخدمها بنفسه آنذاك. يومها أُتيحت لنا فرصة الدخول إلى مكتبه الحربي و"تقديم أنفسنا" إليه شخصياً في الطابق الأول. ورغم أن هامته الشمعية (تمثاله) بدتْ مفعمة بالحياة، فإن قامته المربوعة كانت أصغر من صيته الكبير. بدا بحجمه الطبيعي رجلاً عادياً جداً، بل فوجئنا به فعلاً على طريقة: "واعتقدنا أن الباشا باشا فإذا بالباشا زلمي". كان، بتمثاله الشمعي، يحمل عصا من خشب الماهوجني، وينتعل بوتاً بُنيّاً من الجلد الإيطالي الأصلي، ربما كان اِرتداؤه أو فك أشرطته الطويلة يستغرق يوماً كاملاً بدون مساعدة الخدم! كان منظر أتاتورك بالنسبة لي النقيض تماماً لصوره التقليدية الشهيرة التي كنتُ أشاهدها مرفوعة بكل مكان في تركيا خلال زياراتي السابقة. صور تعطي الناظر إليها الإنطباع أنه أمام شخصية ضخمة لرجل عملاق. لا ريب أن ذلك جزء من الدعاية في كل مكان؛ فالكثير من رجال التاريخ عبر القرون صُوّرا للناس على أنهم ضِخام الأجساد، بينما في الواقع كانوا نِحاف الأبدان، أو قصيري القامة، أو عاديين جداً، مثل يوليوس قيصر، وريتشارد قلب الأسد، ونابليون، والإسكندر، وصلاح الدين، وجنكيز خان، فضلاً عن الأنبياء إبراهيم وموسى وداود! إلا أن أتاتورك كان، مثلهم، فذاً بقوة الشخصية وعملاقاً بالكاريزما والهيبة والإرادة.

أبرز ما يخطر على البال من سيرة أتاتورك أنه "شقّلب" تركيا رأساً على عقب، خاصة من الناحية الثقافية. منع اِعتمار الطربوش واِرتداء

العمامة، ثم منع تلاوة القرآن وإستعمال السبح اليدوية في المناطق العامة. ألغى الألقاب السياسية والدينية والإجتماعية. كذلك منع المدَارس الدينية (المدْراس) والمحاكم الشرعية وأزال التكايا والأضرحة. في المقابل، شجّع المواطنين على إرتداء أزياء الغربيين والإحتذاء بقيمهم وسلوكهم وعاداتهم. فتبنّى التقويم المسيحي "الغريغوري" بدل التقويم الإسلامي الهجري، ونصب على رأس السنة أشجار الميلاد في الساحات العامة. من الدستور السويسري إستنبط تشريعات جديدة وإستوحى قوانين مجددة. وفي عام 1928م ضرب ضربتة القاضية وألغى الحرف العربي بالمرّة، ثم أمر بإستخدام الحرف اللاتيني بدلاً عنه. كما قطع إرتباط تركيا بالشرق والعالم الإسلامي إلى غير رجعة. وبعد خمسة أعوام عقب وفاته (1938م)، منحه البرلمان التركي لقب "أتاتورك" إعتزازاً به وتخليداً لإرثه. وحتى اليوم، ورغم بروز الإسلاميين من جديد من خلال نهج أردوغان، ما زالت المبادئ التي أرساها محصّنة بدون ممانعة تذكر، وإن كانت موضع جدل داخلي مكشوف. وحتى قبل وصول أردوغان إلى السلطة بعقود، كان القسم الشرقي من تركيا أكثر إسلامياً وتحفظاً من القسم الغربي المجاور لليونان المسيحية. وهو أمر بيّنه بوضوح رسم الحدود بين البلدين إثر الحرب العالمية الأولى. الواضح أن أتاتورك إستطاع أن ينقل تركيا من عصر التقليد إلى عصر الحداثة، ويحوّل السلطة فيها إلى آلية مواطنية علمانية. وفي معمعة تنفيذه لسياساته الإنقلابية، تربّص بالحركات الإسلامية ولاحق التلامذة الإسلاميين في المدارس والجامعات، ما أدى إلى مواجهات دموية كثيرة ما زال لآثارها جمر تحت الرماد، حتى بعد مرور عقود على رحيله. ولغاية اليوم، تقوم "جهات" مجهولة بمحاولات متكررة لنبش قبره، أو تفجيره بسبب "تضييعه الأمة وتمييعه الخلافة"! البعض يعتقد

أنها مجرد تخريبات من قِبل الطابور الخامس المُكوّن - برأي السلطة - من أكراد وعرب وأرمن.

إزمير كلها بمثابة متحف يستحق التمعن والتقدير؛ فمن بين المواقع التاريخية الهامة التي زرناها أيضاً في المدينة القديمة، "بركة تراجان"، وهي نافورة ماء جميلة تعكس سجل العراقة الثقافية لعصر الإمبراطورية الرومانية. عند اِكتشافها في أواخر القرن التاسع عشر، وهي واحدة من بين أقدم المعالم الرومانية التي ما تزال قائمة في المدينة، قيل يومئذ إنها بُنيت تكريماً للإمبراطور الروماني تراجان (98م -117م) بأثر رجعي، أي إنهم نصبوها بعد زمنه بنحو 700 عام، وكان تراجان أشهر حكام الرومان أثناء ذروة حكمه في عزّ الإمبراطورية. إلا أن تماثيل أتاتورك وبيوت الضيافة التي نزل فيها خلال تنقلاته أيام الحرب العالمية الأولى، تبقى أبرز معالم الثقافة في تركيا بلا منازع!

راحة وبسكوت

كنتُ مع وصولنا إلى إزمير في حالة مَرضية يرثى لها. إذ كان ضرسي الأيمن قد بدأ يوجعني بشكل رهيب ، ربما بسبب الإكثار من أكل التين في جزر اليونان، أو من قِلة العناية وعدم تعقيم الأسنان. كان الوجع أحياناً يصل بي إلى أعالي هملايا في عزّ النهار، وإلى أعماق المحيط الهندي خلال الليل. وبين الليل والنهار كنتُ أترحم مئات المرات على الصداع والمغص والإمساك. لا بل بلغ وجعي في إحدى الليالي حدود الذروة، وصار ملحمة من الشدّ والعضّ إلى درجة أنستي فعلاً مخاض بلغاريا و"وِلادة السطل" في بلوفديف. ورغم صبري وتحملي في الأيام الأولى، كان لا بد من عرض الضرس على طبيب أسنان، أو حتى على طبيب بيطري. إلا أن خزنة "وزير المالية"،

سيرج باشا، لم يكن فيها بند مخصص حتى لحالات الموت والإنتحار. فكان عليّ أن أقضي ساعات إضافية في إستجداء المارة والتوسّل إلى السيّاح! في نهاية المطاف سيطرتُ على الوضع وجمعتُ ما سددتُ به ثمن إبرة الوجع والمضادات الحيوية، فضلاً عن رشوة الصيدلية لغض النظر عن عدم مراجعة حكيم الأسنان!

ولما دقتْ ساعة الرحيل من إزمير، كانت رحلتنا من بيروت قد إستغرقتْ معنا ما يزيد قليلاً عن شهرين. إختبرنا خلالهما جميع أنواع المركبات والقطارات، فضلاً عن المشي والإبحار والنوم في الحدائق العامة والعمل في المطاعم وعلى متون المراكب. ورغم الجوع والتعب والنكد، وأوجاع الضرس والبدن، ورغم بخل سيرج وغلاظة غبريال ومزحهما، كان الأمر - بالنسبة لي على الأقل - ممتعاً للغاية، لا سيّما أنني لم أتعرّض لكف واحد أو إهانة، ولا لوحدة أو ضجر، ولا لخوف أو إرتباك، ولا لهلوسة أو هيام كما تعرضتُ وحدي من قبل. وهكذا، إنتهى الأمر بنا على إكتساب الكثير من المهارات وإظهار المخفي منها، فصرنا، مثلاً، خبراء في غسل الصحون وتكسيرها، وفي الكنس والمسح، وفي تقشير البصل والبطاطا، وحَفْ الصدأ وسدّ الثقوب وضرب البويا، دعكم عن البصبصة والتغزل والتسوّل والتدجيل. أصبحنا شطاراً في السبّ، وعباقرة في الشتم، وبإستعمال الكلمات النابية بطلاقة وبأربع لغات!

***

أيام رائعة تركناها خلفنا وغادرنا إزمير بفرح وتفاؤل. كنا نتوق للوصول إلى بيروت ونتطلع إلى حياة عادية طبيعية من جديد. لكن ما إن وصلنا إلى محطة الباصات في أنقرة مع بداية الليل، حتى دخل سيرج وغبريال في جدال ساخن (خناقة) حول شيء تافه. كان لا بد من فك الإرتباط بينهما والغوص في أسباب الخناقة لمعالجتها. دور

الوسيط أحياناً ليس كفيلاً بضمان الحلّ أو السلامة. بدا أن المشكلة بينهما كانت قد بدأت عندما طلب غبريال من سيرج سلفة (بضع ليرات تركية) من أجل شراء راحة الحلقوم. يومها، كان غبريال "يتوحّم" على شيء يُحلّي نفسه به، خاصة بعد مشوار طويل من ملوحات البحر والمخللات واللحوم. لكن سيرج أفندي - بحكمته وحرصه - لم يكن ليسمح لغبريال بالسِلفة تحت أي ذريعة. كان مُصرّاً بدفاعه على عدم إنفاق أي قرش إلا على الضرورات المتفق عليها أساساً، وتحديداً على أكل وشرب وبعض المواصلات المصيرية. كان سيرج بتفكيره المنطقي يعتقد أن "شهوة" غبريال لراحة الحلقوم لا تقل أهمية عن "شهيتي" للسجائر وحاجتي لمُسكّن الوجع؛ ولو سمح لغبريال بشراء راحة الحلقوم على حساب الصندوق، لكان ينبغي عليه "حكماً وعدلاً" أن يسمح لي بشراء المُسكّن أو السجائر. ثم إن ليراتنا المتبقية في الصندوق بالكاد كانت تكفي لبضع وجبات قادمة، فكيف نهدرها على كماليات مثل الحلوى؟ اِستطرد سيرج مرافعته أمامنا قائلاً: "وأنا أيضاً أشتهي آيس كريم، فكيف أشتريها على حساب الصندوق وليس لدينا فيه ما يكفي لمواصلة الطريق إلى المدينة التالية، ناهيكم عن بيروت؟". كانت مرافعته قويه أعجبتني، وختمها محذراً: "مَن يريد التحلّي أو التسلّي أو التعافي، عليه أن يستجدي المارة ويتوسل السيّاح كما يفعل هشام". ولعمري، أني لغاية اليوم ما زلت أجهل إن كان قوله ذاك مدحاً لمهاراتي في الشحاذة أو حطّاً من قدري بسببها! بيد أن تعبيره القاسي لغبريال أفقده أعصابه وأثار حميته ودفعه لرمي قبضته بوجه سيرج، ولولا أن وجهي كان الحاجز بينهما لنال من وجه سيرج بالمباشر! كان لا بد من توسيع التوسط بينهما لتصغير الشرخ بين رفاق الدرب وأصدقاء الطفولة.

حسمنا الأمر، واِتفقنا على تقسيم الرصيد المتبقي في "الخزنة" بيننا. هنا، ولدهشتي الشديدة، قام سيرج من قعدته بين الباصات وقال: "لا يمكنني تقسيم الخزنة إلا في الصباح عند لحظة "الوداع والإفتراق". وبعد جدل أفلاطوني عقيم حول نوع "القانون" الذي اِستند إليه في منطقه ذاك، قررنا أن ننام على القرار النهائي حتى اليوم التالي! في تلك الليلة، وكان طقسها لطيفاً معتدلاً، قمتُ بلفة سريعة على روّاد المحطة، وتسولّت من المارة والركاب ما كان يكفينا "للعشاء الأخير"، وكان عبارة عن كعكعة سميد بالجبن وقطعة بريوش وعبوة ماء. فسهرنا عليها حزانى بين الباصات الراكنة. وخلال السهرة حاولتُ قدر الإمكان إنعاش الألفة وإحياء الدردشة من جديد، لكن سرعان ما أدركتُ أن لغة الكلام بينهما تعطلت تماماً. كنتُ مستعداً لعمل أي شيء من أجل "الصلحة" شرط عدم الإفتراق ومواصلة الطريق المتبقي من أنقرة إلى بيروت..

محاولاتي إصلاح البين أثناء الليل باءت بالفشل. ومع حركة المحطة وصياح الديك عند الفجر، كان غبريال وسيرج قد وصلا إلى خط اللاعودة واِنفَصَمَت عُرَى الصَّداقة بينهما. تبين أن المسألة لم تكن على "راحة وبس"، إنما حول شياطين قديمة وعفاريت في النفوس. لم أكن أعرف شيئاً عن ماضيهما من قبل، لا سيّما أن علاقتهما كانت تعود إلى أيام الروضة في العصر الكبريتي! وهكذا، على "طريقة الرجال"، قسّم سيرج الخزنة قسمة عدل، وودّعنا بعضنا البعض كالرجال وغادرنا المحطة، كلٌ بإتجاه. المحزن المضحك الملفت أن حصة كل منا لم تكن تكفي للاِنتقال إلى أي مكان بأي اِتجاه أبعد من ضواحي أنقرة ذاتها. كان لدي شعور قوي أن غبريال سيبيع قلادته الذهبية (أيقونة المسيح) ليعود بثمنها إلى لبنان. فقد سبق أن مزح معنا وألمح في إزمير أنه كان مستعداً لبيع المسيح إذا ما اِضطر للعودة إلى

بيروت وحده! ربما كان في حينه يُخطط فعلاً لإنسحابه من الفريق لأسبابه الخاصة!؟ أما بالنسبة لسيرج، فكان بإمكانه الإتصال بوالده (الثري) والطلب منه إرسال تذكرة طيران إلى حيث يريد. يومئذ لم تكن لدينا وسائل للتواصل الإجتماعي الفوري، ولا كان بالإمكان التخمين بما كان سيحدث لنا بعد الإفتراق. ومع أن تلك النهاية كانت مأساوية مؤلمة، لكن لسبب في كبدي كنتُ واثقاً أن كل شيء كان سيكون على ما يرام بالنسبة لغبريال وسيرج، فقد وُلِدا في كنف مريح ودلال وحصانة؟ أما بالنسبة لي، فيوم أنقرة كان كابوساً. صحيح أن الإفتراق لم يحدث بسببي، لكن كان على حسابي!

اِنـهزام أم اِنكسار؟

بدون الإلتفات إلى الوراء، غادرتُ محطة الباصات لجولة سريعة في المدينة كالعادة. وبعكس مدن تركيا، أنقرة لا تتباهى كثيراً في عراقتها رغم أنها العاصمة. فكما يخطئ الناس بـ"سيدني" عاصمةً لأستراليا بدلاً من "كانبرا"، يخطئون أيضاً بإسطنبول عاصمةً لتركيا بدل أنقرة. ومع أنها كانت دوماً مركزاً تاريخياً لحكام الأناضول منذ زمن الحثيين لغاية عصر السلاجقة، إلا أنها لم تصبح عاصمة لتركيا إلا بعد الحرب العالمية الأولى عام 1923م. ولطالما كان اِنعزالها النسبيي، ومناخها المعتدل، وسهولها الخصبة، من عناصر الجذب إليها، والتمركز فيها، لا سيما مع وجود نهرين بمحيطها الشرقي والغربي وبحيرة في وسطها. كنتُ، عادةً، إذا زرتُ مدينة جديدة لوحدي تحت وطأة الإستعجال، قصدتُ فيها ثلاثة مواقع اِختصاراً للوقت والمتعة والكلفة معاً: المتحف الوطني أو الآثار القريبة، وسوق الخضار واللحوم والبازار، ومراتع اللهو والسكر والعربدة. وهكذا، توجّهت مباشرة إلى المتحف الوطني، وفيه لفيّتُ الممرات لفة العروس السريعة. ومتاحف

تركية - بعكس الكثير من متاحف الغرب - مجانية ومتاحة كل الأسبوع، ربما بسبب ضرورات الوجاهة والتباهي بالتراث العريق. متحف العاصمة لم يختلف كثيراً عن متاحف تركيا إلا أنه كان "خجولاً ومتواضعاً". ولو سألتني يومها عن رأيي، لقلت لك أن المتحف لم يُنصف أنقرة بتراثها العميق، تماماً كما لا ينصفها التاريخ البشري اليوم عموماً. ومن المتحف ذهبتُ إلى سوق الخضار (إنتقلت من أقدم معروضات الماضي إلى أحدث معروضات الحاضر). السوق لم يبعد كثيراً عن ميدان "أولوس" الشهير؛ فكان، هو الآخر، متحفاً بذاته وأرشيفاً بشرياً بكل المعالم من حيث طرازه وأعراق روّاده وتراثه. كان بودي لو تمكنتُ من زيارة القلعة الشهيرة ومعالم أخرى، بيد أن مزاجي بعد فراق الأصدقاء حال دون المزيد من الإستكشاف على جوع وقهر وإفلاس..

***

وصولي من أنقرة إلى الحدود السورية - اللبنانية كان شيئاً من كتب الخرافات وسجلات الأساطير. صحيح أن الطريق كانت مألوفة لديّ منذ خروجي من السجن قبلها بعام، إلا أن الظروف تلك المرّة كانت مختلفة تماماً. فما إن غادرت أنقرة على غروب هادئ حتى تعرّضت من أول الأوتوستراد إلى ضرب مبرح من أحد الرعيان "الغيارى". طبعاً لم أكن بوارد سرقة واحد من خرافه، بل ربما رأى بمظهري الغريب خطراً على حياته في مكان لا أحد غيرنا كان فيه. ومع أن الراعي كان بصحبة كلب حراسة كبير من النوع الألماني، إلا أنه لم يتعرض لي لا دفاعاً ولا هجوماً، وقد ذكّرني الكلب يومها بالجيش اللبناني! ولولا نِعاج الراعي التي دافعتْ عني وحَمَتني من عصاه الغليظة، لكنتُ الآن في خبر كان! ولعلّ غلطتي الكبرى في حينه أنني تعديّت المرور أثناء الغروب وسط حقول وبساتين مُسيّجة. كنتُ

أحاول تجنب السير على الأوتوستراد لأنه كان محفوفاً بالمخاطر من جراء قطاع الطرق وسرعة المركبات وندرة الإشارات وإنعدام المعالم السكانية. حياتي يومها كانت على كفّ عفريت وخياراتي كانت كلها صعبة ومخطرة، إنْ على الطريق السريعة، أو بين الحقول والرعيان و"الواويّة". ومن رحمة الله علينا أن الكلام وحده أحياناً لا يكفي للتعبير عن بعض الصدمات الفظيعة والأوجاع وخيبات الأمل والجزع، وإلا لبقيتْ الذكريات الأليمة تدور على ألسنتنا وماثلة أمامنا بما لا يُحتمل أو يصحّ تكراره. نعجات الراعي يومها كانت أكثر إنسانية من حاميها، وأشفق عليّ من رحمة عمر بن الخطاب على الأطفال والنساء!

لا أعرف كيف، لكن بأعجوبة وصلتُ إلى "أضنة". فكان لي فيها نفسٌ وإستراحة. تمركزتُ، كالعادة، في المحطة الرئيسية للباصات، وهناك - ككل محطات تركيا – حركة حركة الركاب والمسافرين لا تهدأ على مدار الساعة. المحطة يومئذ كانت بمثابة خليّة عسل لأمثالي الجوعانين المتعبين. كان الضائع منا يسترجع رشده فيها، ويستعيد أمله بضوضائها على مَكْرمات المُحسنين وعطاءاتهم. "أضنة" ليست فقط من عمر الخليقة، بل هي أيضاً سادس أكبر المدن التركية بعد إسطنبول وأنقرة وأزمير وبورصة وأنطاليا على التوالي. لكن بعكس معظم مدن تركيا، فهي مأهولة بالأتراك والأكراد والعرب والأرمن بـ"التساوي" تقريباً. ورغم الإختلاف الظاهري في معالمها، شعرتُ من أصدائها كأنها مدينة مُكبّرة عن مدينة طرابلس عندنا. كانت مقراً للحثيين في أحيان، وموقعاً تابعاً لحكمهم خلال ثغرات الزمن القديم. أهميتها بنظر المؤرخين تكمن في أنها كانت دوماً مرتعاً منعشاً لكل الغزاة من الشرق والغرب على حد سواء: شعوب البحر، والآشوريون، والفرس، والسلوقيون، والرومان، والبيزنطيون

(الروم). وحتى بعد سيطرة العرب، جاءها السلاجقة عام 1071م وإستولوا عليها فترة وجيزة إلى أن هزمهم الصليبيون من أول حملة لهم. وقد ظلتْ المدينة أسيرة الكرّ والفرّ بين الأرمن والسلاجقة والبيزنطيين إلى أن ضربها الزلزال الشهير عام 1268م. لم يكن ذلك الزلزال خرابها الأول أو الأخير. ومع ضعف البيزنطيين، تخلّى قسطنطين الثالث عنها، ومرّر السلطة عليها إلى المماليك في مصر. أما في التاريخ الحديث، فـ"أضنة" كانت مسرح التحوّل في موقف تركيا من جبهة "المحور" خلال الحرب العالمية الأولى إلى جبهة "الحلفاء" إبان الحرب العالمية الثانية؛ إذ في إحدى ضواحيها إجتمع تشرتشل بالأتراك عام 1943م، وحثهم على تبديل موقفهم من الألمان، ولولا الوعود بضمهم إلى حلف عسكري فيما بعد (الناتو)، لم يكن الأتراك ليوافقوا على الإنقلاب على ألمانيا وخيانتها.

وعلى أجواء المدينة وتراثها العريق إسترجعتُ عافيتي وإبتسامتي وشعرت بإستعداد تام لمواصلة الطريق إلى لبنان. وبقدرة قادر، إنقلب الخوف عندي رأساً على عقب، فصار جرأة ووقاحة، وتحوّل الجوع معي إلى بطر وتخمة. عطف المُحسنين منحني الثقة بالنفس، وقرّبني من كبار السنّ وألهمني. أما النساء العجائز، فوهبنني الأمل وأنقذنني من هيامي وخيبتي. وهكذا، إعتبرت نفسي آنذاك "غير منهزم" أمام الطريق الوعر إلى بيروت، وإنْ لم أكن قد إنتصرت عليها بعد!

اللواء السليب

بوَداعة الرهبان وثقة الشجعان، واصلتُ المشوار إلى المدينة التالية، "إسكندرون". من إسمها تعرف مؤسسها! والإسكندر لم يبنها هناك إعتباطاً، إنما لأنها كانت مدينة فينيقية أصلاً، فمشى على خطى كل

العظماء من قبله ورمّمها ووسّعها ووقّع اسمه على إنجازها. وهذا هو نهج معظم الأوّلين، يشيدون عمرانهم على أطلال أعدائهم أو مَن سبقوهم! وغالباً ما تكون المواقع المختارة قائمة وسط طرق القوافل، أو بالقرب من عيون الماء والينابيع، أو محمية بتضاريس الطبيعة نفسها. وهكذا، تتوسط اللواء السليب أربعة جبال تحيط بسهوله الخضراء وتحميه من المهاجمين. وليس بعيداً إلى الشرق منه تقع سهول حلب الأبيّة، وإلى الجنوب اللاذقية، فيما تحيط به من الشمال جبال طوروس العظيمة.

الإسكندرون قبل الحرب العالمية الأولى كانت جزءً من ولاية حلب تحت الحكم العثماني. أما بعد تقسيم المغانم بين المَلعُونيَّن "سايكس" و"بيكو"، فقد مُنحت المدينة وضواحيها عام 1924م اِستقلالية مؤقتة عن الحكمين التركي والسوري معاً، وسُميّت جمهورية "هتاي". في عام 1926م، أُلحقت "هتاي" بسوريا وظلت بكنفها إلى أن أُعطيت نهائياً لتركيا عام 1939م، فصارت من يومها "اللواء السليب" بالنسبة إلى سوريا. ولئن كان من شيء تعكسه هذه التسمية السورية، فهو أن غالبية السكان في إسكندرون كانوا من عرب سوريا، موزعين بين السنّة والعلّويين والمسيحيين بنسب مختلفة، بالإضافة إلى بعض الأرمن. أما النسيج التركماني في المدينة، فلم يكن يومها يتجاوز 38%. كان من الطبيعي بعد سلخ اللواء عن سوريا أن نزح عدد كبير من السكان العرب والأرمن إلى المدن السورية الكبرى، مثل دمشق وحلب وحمص واللاذقية. إلا أن إسكندرون بقيت رمزاً لسوريا القديمة، لا سيّما أنها مقرّ المرجعية الدينية لبطريرك أنطاكيا، وهو الرأس المركزي للكنيسة السورية بشقيها البيزنطي والسرياني. ورغم حقيقة "أمر الواقع، تعتبر أنطاكيا نزيفاً جارياً في خاصرة الأمة العربية" - حسب تعبير السوريين. ومع أن الحكومات السورية

المتعاقبة اِختلفت في السياسات وتناقضت بالأهداف، إلا أنها أجمعتْ كلها حتى اليوم على عدم الإعتراف بشرعية ضمّ اللواء إلى تركيا. وحتى خليع بشار الأسد، أحمد الشرع، الذي قيل إنه وصل إلى الحكم بدعم من تركيا نفسها، لم يصدر عنه لتاريخه ما يشير إلى اِستعداده للتخلّي عن "اللواء السليب"، ربما على نقيض اِستعداه واِستعجاله للتفاوض بشأن الجولان مع إسرائيل.

إقامتي في محطة الباصات في إسكندرون لم تستغرق طويلاً، خاصة أن الكثير من معالم المدينة التاريخة يقع في الجوار القريب، وقد مشيتُ إليه رويةً براحة القدم وخفية على رؤوس الأصابع. ولعلّ أبرز المعالم التي عرجت عليها مسجد صلاح الدين الأيوبي والكنيسة اليونانية الأرثوذكسية، فضلاً عن المألوف منها، كسوق الخضار وسوق السمك وميدان أتاتورك ومتحف "هتاي" نفسه. وكالعادة، قمتُ "بلفة العروس" سريعاً بين المعالم وتوجّهتُ بعدها مع الغروب إلى المدينة التالية - إلى أنطاكيا العنيدة.

قاب قوسين

على الرغم من أن أنطاكيا كانت على مرمى حجر بحساب العناء والمسافات، إلا أني وصلتها متأخراً مع طلوع الفجر على طقس دافئ بديع. وكبقية المدن الممتدة على الطريق بين بيروت وإسطنبول، كنتُ قد مررتُ بها من قبل مرور الكرام، لكن لم أقضِ بها في حينه أي وقت كما قضيتُ تلك المرّة في طريق العودة. لقد أبهرني فعلاً اِرتباطها العضوي بلبنان من خلال مبنع نهر العاصي، الذي تقع المدينة على الضفة اليسرى منه. وكما في حالة إسكندرون، كانت أنطاكيا، بعد الحكم العثماني عقب الحرب العالمية الأولى، جزءً من سوريا و"الأمة العربية" الناشئة، لكنها سُلخت منها لتُلحق بتركيا سنة 1939م. أما في

الأساس الأساس، فكانت أنطاكيا عاصمة "سلوقس"، وريث الإسكندر في العصر الهلنستي، وكان مسؤولاً عن كل سوريا وبابل وبلاد فارس. وهنا تختلف الرواية قليلاً بحيث تقول إن سلوقس بذاته أسس أنطاكيا وأشرف على قيامها عام 310 ق.م. يومها قيل إنه سمّاها على اسم أبيه "أنطيوخوس"، وقد ظلت زاهرة عامرة حتى عام 27 ق.م. بعدها دخلت المدينة بالحقبة الرومانية إلى عام 395م، وصارت في أوجّها ثالث أكبر مدينة في العالم بعد روما والإسكندرية. ثم اِحتلتها الإمبراطورية البيزنطية وجعلتها إحدى أهم مراكزها الثقافية حتى عشية ظهور العرب على المسرح الدولي سنة 637 م. وبوصولهم إلى السلطة، نَقل العرب عاصمة الحكم التقليدية من أنطاكيا إلى ريف دمشق، فتعرضت إبان الحكم الإسلامي للغزو عدة مرات من الروم والصليبيين معاً، لكن سرعان ما أُلحقت بحلب بعد اِنتهاء الحروب الصليبية، ثم مُررت للعثمانيين، ثم للنفوذ الفرنسي بعد الحرب العالمية الأولى، قبل وقوعها من جديد تحت السيطرة التركية الحديثة سنة 1939م.

كان لا بد من التمتع بِاستكشاف أنطاكيا على خلفية تاريخها الغني؛ فهي ليست مدينة حديثة ولا عابرة ولا صغيرة. إنها بوصلة ضخمة للتاريخ العميق في الشرق الأدنى برمته. وعلى أقدامي المثخنة بالجراح، سرت إلى المدينة العتيقة وتمتعت، كالعادة، بمتحفها الثري وسحر أسواقها وأجواء التراث فيها ومجد الزمن. ومن أعرق معالمها قلعة أنطاكيا نفسها، إذ لم يبقَ محتل في تاريخ الشرق إلا ولجأ إليها واِحتمى فيها: السلوقيون والرومان والبيزنطيون والصليبيون والسلاجقة والعثمانيون. كانت إبان عزّها في القرن السادس الميلادي تتميز بجدران ضخمة تمتد بطول 12 كلم، وتنطوي على أبراج قيل إنها بعدد أيام السنة. والزعم بتعدد أعمدة القلاع بعدد أيام السنة، فكرة

مألوفة عبر التاريخ القديم، وقد تكرر ذكرها - فضلاً عن أنطاكيا - في الصين واليمن وبابل وإثيوبيا. إلا أن كثرة الحروب والزلازل قضت على مجد قلعة أنطاكيا رغم صمود أطلالها إلى اليوم. ومثل الكثير من المدن المجاورة، تحتضن أنطاكيا العديد من الميادين والمتاحف، وتعتبر مركز الدين المسيحي الأول وعاصمة الكنائس المسيحية الشرقية. إنها تأتي بمكانة الكرسي الرسولي الثاني بعد روما، وبأهمية الإسكندرية والقسطنطينية والقدس على السواء. وإلى اليوم ما زال يعيش فيها أقدم الجماعات المسيحية العربية، ويعرفون بـ"الروم الأنطاكيين" وأتباع الكنيسة البيزنطية ويتكلمون التركية والعربية واليونانية، بل ومنهم مَن يعرف لغة المسيح نفسه، الآرامية.

***

ورغم ذلّ التوسّل وهوان الإستجداء والتعب، كانت أياماً رائعة قضيتها في ربوع المدينة. ولو كنتُ يومها أعرف شيئاً عن الحمض النووي، لجزمتُ أن سكان أنطاكيا (أرمن، وكرد، وعرب، وترك) كلهم كانوا أصحاب بذرة جينية واحدة. إذ لا يمكن لعابر سبيل مثلي أن يُفرّق بين ملامحهم، أو حتى بين ملامح سكان الشرق الأدني بأجمعه. كلهم سيان على "ماسورة" واحدة و"موديل" موحّد. ولعمري، لا أفهم كيف أن الناس في الشرق يعايرون بعضهم البعض على أفضلية العِرق ويتنافسون على أقدمية الجذور؟ كيف يُميزون الفارسي عن البيزنطي، والإغريقي عن الروماني، والسلجوقي عن العثماني؟ كيف يحددون العربي من السوري، والأرميني من البابلي، أو الآشوري من الكردي؟ أيعقل بعد مئات العقود وآلاف المصاهرات والهجرات والزلازل والحروب والمجاعات أن تبقى هذه الأقوام متينة كحرير الصين أو صافية كعسل اليمن؟ يومها فقط أدركتُ أن الإنسان يُصاب بالخرف، ليس في آخر أيامه، بل يوم ولادته. فهو يُربّى على ما يرث

عن آبائه بدون سؤال، ويُدافع عن عِرقه وتراثه وإرثه حتى الموت. وإذا لم يكن هذا هو الخرف بعينه، فماذا يا ترى يكون إذن؟ ألم يأت الناس من عجينة ملوثة وخميرة موبؤة، أم أنهم جاءوا كلهم مرة واحدة من صلب آدم؟

وعلى تلك الخواطر الفلسفية والأفكار المثالية، تركتُ المدينة مع بداية المساء وتوجهتُ مباشرة إلى مدينة "كسب" على الحدود التركية مع سوريا. وكالعادة على الأوتوستراد، كان هناك مَن يشفق عليّ وينقلني بسيارته بضعة كيلومترات إلى أقرب محطة بنزين، غالباً من الأوروبيين. وكان هناك مَن يتحنّن عليّ ويحملني إلى المحطة الأبعد ويُعطيني بضع ليرات أو سجائر، وهؤلاء غالباً من العوائل الإيرانية والكردية. وفي المقابل، كان هناك مَن يتمهّل ويُوقف مركبته بجانبي فقط ليشتمني ويوجّه إلي اِتهامات عنصرية، وهؤلاء عادة، من الشبان المحليين الذين ورثوا عن آبائهم التعصّب للقومية التركية. يكرهون العرب لأسباب تاريخية كثيرة، لكن أهمها يعود إلى الموقف الخاذل للشريف حسين، (1853م-1931م) الملقب بـ"ملك العرب"، مؤسس مملكة الحجاز وقائد الثورة العربية في أوائل القرن العشرين. كان الشريف حسين أول من دعا إلى اِستقلال العرب عن الحكم العثماني، وتحالف مع الإنجليز ضد السلطان عبد الحميد أثناء الحرب العالمية الأولى. والأتراك، بسببه، لم يشفعوا للعرب خيانتهم حتى اليوم، علماً أنهم، هم أيضاً، خانوا الألمان لصالح دول "الحلفاء" عشية الحرب العالمية الثانية. وهكذا، نرى الكُلَّ يخون الكُلّ لمصلحة ومأرب، وكلٌ يبيع أهله وعِترته لفلس مبخوش، وهو ما رأيناه جلياً في خيانات "أهل البيت" الواحد أثناء حرب الإسناد بين إسرائيل وحزب الله عام 2024م. ولولا خيانات أبناء الجلدة أنفسهم وأصحاب الدمّ نفسه، لما حققت إسرائيل "نصرها" بتلك السرعة. ومهما قيل في الموضوع،

فإن الخيانة والدعارة أقدم الممارسات التي عرفها الإنسان، وهي عابرة لكل الحضارات والأعراق والأديان!

بلاد الشام، أم الهلال الخصيب؟

وصلتُ إلى مَعْبر "كسب" وتجاوزت الحدود التركية بسلاسة إلى الحدود السورية عند منتصف الليل. فجأة وجدتُ نفسي واقفاً في طابور طويل من الواصلين، بعكس طابور المغادرين! وبالدردشة مع السماسرة وسائقي الشاحنات المنتظرة، يتوّلد لديك إحساس أن المَعْبر السوري كان جديراً بصيته السيء وسمعتة المُخيفة. سائقون عرب وَصفوه لي بمَعْبر "الإحتيال والإعتقال"، وقالوا إن رجال الأمن العام السوري كانوا يتقصدون أحياناً اِعتقال البعض من الشباب السوري بذريعة تشابه الأسماء، ما يجعلهم عرضة لدفع "البرطيل" أو "الخوّة" تجنباً لقضاء "ليلة القدر" في مغفر الحدود! هناك يُحْجزون على ذِمة التحقيق بتلك الذريعة أو غيرها من ألاعيب الفساد، ريثما يأتي مَن يحررهم بأوراق ثبوتية إضافية أو ببعض "المجاملات" (الرشوة). وما كان يتعرّض له الشباب السوري من "بلطجة" وتعدّيات على الحريات الشخصية، كان يصيب أيضاً بعض الشباب الأجانب تبعاً لجنسياتهم..

التهريب بين تركيا وسوريا كان (وما زال) عالماً آخر يمثل نسبة كبيرة من الإقتصاد الأسود على طرفي الحدود. ومع أن أحاديث الركاب كانت تختلف عن دردشات السائقين، لكنهم جميعهم، حول كاسات الشاي وجَوّزات المتّي في مقهى الحدود، كانوا يشتركون في التململ من طول الإنتظار وسوء المعاملة. ولما وصل دوري بعد أربع ساعات، ودائماً مع صياح الديك، ختمتُ باسبوري وتوجّهتُ إلى البلدة على مسافة أذرع قليلة من نقطة الحدود. كان صباحاً مشمساً بديعاً،

مثالياً كما يَشتهيه الشعراء ويَصفونه: سماء صافية، و"غيمات" ودودة، وأصوات ساكنة. كان الجو مثالياً للصيد، لكن الصيادين والطيور معاً كانوا يعرفون وَهْرة الحدود بين سوريا البعثية وتركيا الرأسمالية عضو حلف "الناتو". فلا الصياديون كانوا يجرأون على صيد الطيور، ولا الطيور كانت تخشى بنادقهم، لا سيما أن إطلاق النار على الحدود كان من شأنه أن يُسبب حرباً إقليمية بين الشرق والغرب على خلفية إرث الأحقاد المحلية والتهريب والإرهاب.

وكما في معظم بلدات الجوار، فإن تاريخ "كسب" مثير أيضاً ويعود، هو الآخر، إلى بداية الزمن. فالمدينة تألقت أساساً في عصر "سلوقس"، ثم برزت مجدداً من خلال المملكة الأرمينية التي حكمت الجوار لفترة وجيزة بين عصري اليونان والرومان. كانت "كسب" ملجأً آمناً للأرمن خلال عصور الإضطهاد إبان حكم المماليك والعثمانيين. ولطالما بقيتْ محطة اِستراحة من وإلى البلدات المحيطة، وقد ورد ذكرها في العديد من سجلات العابرين ومخلفات الصليبيين. ورغم أنها كانت في تلك الأيام مدينة معاصرة نسبياً على الطريق الدولية، لكن لم يكن فيها غير أبنية أرميدية قليلة، لا أبراج سكنية ولا فنادق. كانت يومها تشتهر فقط بزرعها العضوي، الخالي من السماد، وعسلها الصافي، وصابونها (الغار). لكن سرعان ما ركبتْ موجة الحداثة، وصارتْ فيما بعد مدينة سياحية متطورة من أهم المصايف وأجملها في محافظة اللاذقية. وهي، بتضاريسها الخلّابة، تقوم على تلة مزنّرة بغابات كثيفة تطلّ منها بشموخ وإباء على البحر الأبيض المتوسط. أما غالبية سكانها، فهم من الجالية الأرمينية الضليعة باللغة العربية.

وحسب روتيني عند دخول البلدات، عرجت مباشرة على وسط البلدة. هناك في ساحة "كسب" طلّت عليّ كنيسة إنجيلية أرمينية، كأنها

واجهة البلدة، أو حارسها الأمين. كانت الدكاكين، مع وصولي إلى الساحة، توّها بدأت بفتح أبوابها اِستقبالاً للصبح الباكر. كان هناك فرن قديم ناعس تفوح منه رائحة الزعتر الأصلي و"ريحة" العجين البلدي. كانت بجانبه مصطبة من "خشب الزمن" للشاي والقهوة والمرطبات! تدبرتْ أمري تحت أشعة شمس لطيفة، وتناولتْ مع صاحب الفرن فطوراً دردشياً مجاناً برفقة كباية شاي أرميني، وكان أقرب إلى الشاي الأخضر! وكالطفل في محل الألعاب عشية العيد، اِنطلقت أتحرّى الشوارع والحارات، فقضيتُ يومي متجولاً رغم اِزدياد الخدوش واِتساع الجروح، وكانت قدماي قد تخدّرتا بفعل النسيان والإهمال. طبوغرافية الشوارع واِنحدارات الطرق والأكواع كانت تذكرتي ببعض المصايف التقليدية عندنا في لبنان. فقط أنواع الحجارة والصخور كانت تختلف بين بيوتنا الجبلية وبين بيوت "كسب". وعندما هبط الليل، وكان بارداً في أواخر آب، لفلفتُ نفسي بكل ما كان معي من ثياب وخِرق ونمتُ بجوار الكنيسة وبحمايتها. لم أشعر بأمن وسكينة في حياتي قط كما شعرت في ذلك المكان وفي تلك الليلة! ربما لم أكن يوماً متعباً كما كنتُ يومها خاصة بعد نهار طويل في المدينة عقب ليل عسير على الحدود وتضاريس صعبة مختلفة...

وعلى طَلّة الفجر وأصوات الطبيعة، صَحوتُ نشطاً وتبعتُ رفوف العصافير إلى "سبيل" الماء. اِغتسلتُ واِرتويتُ وتركتُ المدينة مع أول سرب مغادر قبل قيام أهلها. اِتجهتُ إلى الأوتوستراد المؤدي إلى اللاذقية. يومها، كان الأوتوستراد من أجمل طرق الساحل السوري بشهادة مَن اِختبر السفر عليه نهاراً؛ كان يمرّ وسط غابات نضرة، يقطع تضاريس خلّابة بالموازة مع جبال الساحل، ويعبر ضمن مروج بديعة على مدّ النظر. كان جانبا الطريق يعكسان للناظر من بعيد مشهداً سريالياً سِماته أزهار برّية وأشجار فاكهة وتين وزيتون وعرايش

وغار. والألوان الزاهية والتفاصيل الطبيعية على طول الطريق تذكرك بلوحات "فان كوخ" الشهيرة، التي تُصوّر زهور عبّاد الشمس وحقول القمح والزنبق وما شابه. ومَن يعرف بلاد الشام جيداً، يعرف أيضاً أن تلك الطريق الساحلية بزرعها وخصوبتها مجرد عينة صغيرة من الجوار الأوسع، ما يُبرّر ويُفسّر مفهوم "الهلال الخصيب". و"الهلال الخصيب" مصطلح إمبريالي اِستشراقي أطلقه عالم المصريات الأميركي الشهير جيمس هنري بريستد في كتابه "أوقات الزمن" عام 1916م. فيه حدّد موقع الهلال بسوريا ولبنان وفلسطين والأردن وغرب تركيا والعراق حتى الكويت. وخصوصية "الهلال الخصيب" لا تعود فقط لأنه يشكل هلالاً زراعياً خصيباً، بل لأنه أيضاً كان مهد اِكتشاف القمح والزراعة منذ أكثر من 15000 سنة تقريباً، (غوبكلي تيبه)، ناهيك عن مهد الأديان السماوية...

ماما تيريزا ..

المسافة من كسب إلى اللاذقية تُقدر بحدود 60 كلم فقط. إلا أن قطعها اِستغرق معي ست ساعات طوال، ووصلتها مُنهكاً قبل الظهر بقليل. وأثناء اِسترخائي في ساحة عامة بظلال أشجار البلدية، إذ بامرأة أربعينية، طويلة القامة، تقفز فجأة على العشب أمامي. كانت تضع على رأسها وشاحاً أبيض طويلاً وترتدي فستاناً فضفاضاً حتى كعبيها. وقد ظهر من تحتهما ما يُشبه البنطال المُكشش، أشبه بسراويل مُهرجي السيرك. رمقتني نظرة "موناليزا" وسألتني لماذا استلقي على قارعة الطريق! وللحظة خاطفة، شعرتُ من نظرتها وحرقة سؤالها وغصّة نبرتها، وكأن أمّي كانت تسألني عن حالي، رغم اِختلاف الهيئة والتضاريس البدنية بينهما! وَقفتُ من بعضي لياقة وأدباً، وأخذتُ أشرح لها ظروفي على طريقة الأفلام الهندية. فبالغتُ بوصف الدراما

والأحداث وضخّمت لها من تركيبة التفاصيل، وإنْ كانت الأمور سيئة من أصلها أساساً.

ضربتْ المسكينة كفاً بكف على طريقة عجائز كنعان، ووضعت إحداهما على خدّها، كالملكة زنوبيا يوم داهمها الرومان، ثم أمسكت بيدي و"جرّتني" وراءها بدون طلب أو اِستئذان. وعلى الطريق إلى المجهول، أخذتْ تحدثني بما ظنتْ أنه كان سيخفف عني همي. وما هي إلا لحظات، حتى فهمتُ من تصرفاتها أنها كانت تصطحبني إلى بيتها؟ ذهبتْ خواطري بعيداً، وكادت تقارب أفكار فرويد المخفية عن عنفوان الشباب وكتمان البنات. فجأة، أخذتْ شياطين الرذيلة توسوس برأسي، وعفاريت المراهقة تلعب في عبّي. فمرة خِلتُ الأمر طبيعياً على غرائز الذكر والأنثى، ومرّة ظننت المرأة تعمل لي "عملاً" من أعمال الجنّ، وطوراً تصوّرتها تريدني قضاء أمر لها في بيتها، كنقل خزانة أو دهان كرسي أو تصليح حنفية. مشينا مسافة ربع ساعة تقريباً، ودخلنا في زواريب نتنة وأحياء رثة تشبه دروب مخيمات اللّاجئين الفلسطينيين في شمال لبنان. وكلما عمّقنا في الحارات والأزقة، تكررت عليّ عباراتها، "يا مسكين" و"يا حرام" و"يا قلبي".. كنتُ مع كل نهدة من نهداتها أتنهد متظاهراً، وأخجل من غرابة الموقف، وإرتبك من الحيرة في أمرها. لم أكن خائفاً منها بقدر ما كنتُ متوجساً من نواياها ومتخوفاً من نواياي!

فجأة، وصلنا إلى باب البيت. فمدّت يدها اليمنى إلى عِبّها الأيسر وتناولت شيئاً منه وفتحت الباب. كان مدخل البيت يطلّ على فناء واسع، أو ما يُسمى عندهم بالـ"بَحرة"، وهي بركة صغيرة بنافورة تقليدية مكشوفة على السماء. كانت البَحرة محاطة بـ"تنكات" صفيح مصدأة، عليها ماركات حليب وسمنة وصلصة، وفيها شتل أزهار متنوعة من الياسمين والنارنج والليمون. أجلستني على مقعد من زمن

المماليك، مطرز ووثير، ثم نادتْ بأعلى صوتها: "تعالوا يا بنات"؟ مخيلتي في تلك اللحظة طارت بخيالها إلى حدود سور الصين، وتصورتُ أشياءً من قصص "الحرملك" مع سلطان الباب العالي. لكن لا بيتها كان قصراً ولا أنا كنت سلطاناً!

***

المرأة "طلعت" أرملة وأماً لثلاث بنات صغيرات، أكبرهن في مستهل المراهقة. وبيتها - بإستثناء الفناء الواسع – "طلع" كوخاً بسيطاً مكوناً من غرفتي نوم، فضلاً عن حمّام صغير على بعد خطوات من البّحرة. جاءت البنات وسلّمن عليّ بكل خجل وتهذيب، وأعطتهن أمّهن تعليمات مختلفة. وبعد نصف ساعة تقريباً من دردشة "البؤساء" على طريقة فيكتور هيجو، هبطت علينا، فجأة، سُفرة طعام معتمرة من أعالي السماء. فكانت أول سفرة أهلية أراها منذ غادرتُ بيروت قبل ذلك اليوم بأكثر من شهرين تقريباً. كان عليها من المأكولات ما كنتُ أشتهيه فعلاً ويذكرني بأيام الضيعة: حليب ماعز طازج، ومكدوس باذنجان، وبيض بلدي مقلي بالقورمة والسمنة، وخبز مرقوق، ومربّى اللاقطين، وجبنة وردية معفنة تعود إلى العصر البرونزي. وللحظة، إعتقدتُ أننا كنا سنأكل معاً، فإذا بالسُفرة كلها مُحتكرة لجنابي وحدي! أمر ملفت أن أرملة فقيرة مثلها كانت قادرة على إنتاج فطور مثله!

وأثناء الحوار معها، تبين أنها كانت مشغولة البال ومكسورة الخاطر، ليس فقط على زوجها الراحل، بل أيضاً على أخ كان يخدم العسكرية في الجولان، وعلى ولدٍ وحيد كان يعمل بعيداً عنها في السعودية؟ لا بد أن حظي كان مُحبكاً بالحرير في سحب السماء ومختوماً بماء الذهب بين النجوم. إذ إنه، ومثل القاضية قبلها، التي حكمتني في بلغاريا قبل عام، شفقت الأرملة عليّ وقاربت وضعي الوحداني إلى وضع أبنها وأخيها. ربما تصورتني، هي الأخرى، ولدها الوحيد متروكاً في

الغربة، أو شقيقها مرمياً في خندق التدريب على الحدود مع العدو! أغلب الظنّ أن منظري التعيس على قارعة الطريق أثار حرارة الشوق بعروقها، وقدح في قلبها شعلة الحنان وعاطفة الأمومة. وهكذا، ذاب الثلج وبان المرج وإتضحت الأمور على غموضها. وبعد الإنتهاء من الوجبة والمزاح والدعابة والبكاء، أطلعتني على صور العائلة وعلى المزيد من تفاصيل قصة حياتها. في الأثناء كان الماء الساخن في اللّكن (الطشت) قد جهز لإستحمامي على حطب عتيق، فطلبتْ مني عدم تبذير الماء و"التعاطي" معه بإقتصاد وروية! وعندما إنتهيتُ من الإغتسال، ناولتني "خلطة" عشبية تشبه اللبنة بالكركم والزنجبيل والزعتر، وطلبتْ مني أن أمسحها على قدمّيَ. وبعد الشاي مباشرة، دفعتني برقة وحنان إلى غرفة النوم، وكان فيها سرير واحد. رمتني عليه بلطف وهدوء وسدّت الباب من خلفها وغادرت الغرفة. كان ذلك بحدود عصر اليوم، أو قبل الغروب بقليل.

وحده ربّ العالمين كان يعلم يومها كيف وصل شخيري إلى بيروت قبلي! وكالعادة، صحوتُ على صياح الديك، وتساءلتُ في خاطري كيف لا يخطئ الديك شروق الشمس ولا تتغير نغمة صياحه من بلد لآخر حتى بين دول "وارسو" و"الناتو"! وللحظة ناعسة، خِلتُ نفسي أصحو بكراج الباصات، أو على رصيف في سكة حديد، أو بالقرب من محطة بنزين، أو بجانب جامع أو كنيسة. لكنني سرعان ما إستدركت موقعي ووجودي في غرفة نوم صغيرة على سرير مريح. بعد الفطور وتوديع البنات وتوضيب ملابسي، وكانت "سيدتي" قد غسلتها وجففتها أثناء نومي، أخرجتني من بيتها كما أدخلتني، وسارت بي مشياً إلى محطة الباصات المركزية. هناك مدّت يدها اليسرى إلى عِبّها الأيمن وسحبتْ منه بضع ليرات وسددت عني لمفتش المحطة أجرة الطريق كاملة إلى الحدود السورية - اللبنانية. وكأن ذلك الكرم

وحده لم يكف، فدارتْ نحوي وأعطتني أجرة الإنتقال من نقطة الحدود إلى طرابلس. كانت امرأة عظيمة، حنونة وجبّارة بكل معنى الكلمة، لم اِلتقِ قبلها ولا بعدها بامرأة مثلها غير أمّي. ولغاية اليوم، بعد أكثر من نصف قرن على تلك الواقعة، ما زلتُ أجهل اسمها وواعزها. الأرملة لم تكن من النوع المتديّن لأفسّر حنانها من باب الإحسان والصدقة. ولم تكن من النوع المتعشّم بخدمة أو مساعدة لأنها لم تطلب مني شيئاً على الإطلاق. كما لم تكن من النوع اللعوب لأنها لم تتمادَ بكلمة ولم تغوني بحركة. أنستني همومي وأوجاعي وكل مغامراتي وتركتني محتاراً بأمرها طول الطريق من اللاذقية إلى طرابلس. كانت فعلاً طبعة صغيرة من "ماما تيريزا" بعطفها وإنسانيتها.

العشاء الأخير..

أخيراً وصلتُ إلى البيت في بيروت، وكان ذلك في أواخر آب 1975م. إلا أني فوجئت بالعائلة وقد "هاجرت" بأطلالها إلى جمهورية مصر العربية! يومها، لم يكن هناك بريد إلكتروني أو تلكس ثابت أو حتى إمكانية الإتصال الهاتفي الدولي! كانت فكرة والدي لإعلامي عن خبر اِنتقال العائلة إلى مصر تتمثل بإبقاء أمّي في بيروت بإنتظار عودتي. في تلك الأثناء كان والدي قد شحن الأثاث وخلّصه من ميناء الإسكندرية ونقله إلى البيت الجديد في "مصر الجديدة"! كانت شقتنا في بيروت تشبه المتحف بأغراض مبعثرة وأخرى مغطاة وصناديق فارغة. أياماً بديعة قضيتها مع أمّي ولم ينافسني على حضنها والدي أو أحد من اخوتي. وخلال تلك الفترة القصيرة، لم أتوقف لحظة واحدة من التحدث إليها عن "سيدة اللاذقية"، وعن بناتها وإحسانها معي ولطفها وكرمها. ومع أنه سبق لأمّي أن صدّقت قصة حبسي في بلغاريا قبل ذلك بسنة، لكنها تلك المرّة لم "تقتنع" بروايتي

عن "ماما تيريزا"، وظنّت أني كنتُ أخفي أمراً أو أحاول تبرير أمر مخفي!

أمضينا وقتنا بتوديع الأقارب، وفي التسّوق لأشياء لم تكن متوفرة في مصر آنذاك بسبب نظام الدعم والإعاشات! وضعتْ أمّي آخر اللمسات على تفاصيل الرحلة، ورتبتْ تذاكر الطيران وحددتْ موعد السفر إلى القاهرة. كان أهم ما قمتُ به قبل مغادرة بيروت، وربما آخر شيء فعلته، محاولة معرفة ما حلّ بسيرج وغبريال بعد اِفتراقنا في أنقرة! وعندما ردّت والدة غبريال على مكالمتي الهاتفية، فهمتُ من نبرة صوتها ولهفتها على الفور أنها، هي أيضاً، كانت تتأمل سماع شيء عن وصولي إلى بيروت. فأبلغتني بكل التفاصيل وأكملتْ لي القصة من حيث اِفترقنا. سرني جداً أن غبريال تصالح مع سيرج (من وراء ظهري؟) وحلّا سوء التفاهم بينهما وأكل غبريال راحة الحلقوم في نهاية المطاف. شقيق سيرج في لندن دبّر تذكرة الطيران لأخيه وطلب منه التوجّه مباشرة إلى بريطانيا. بينما رتبت أخت غبريال تذكرته وطلبت منه التوجّه فوراً إلى باريس حيث كانت تعمل مديرة في أحد البنوك. وهكذا، شعرت بسعادة غامرة لأننا جميعاً تمكنا من مغادرة تركيا بأمان وسلامة رغم زوبعة الفنجان ورغم "الراحة والبسكويت". كنا محظوظين جداً لوجودنا خارج لبنان في الوقت المناسب، وقد نجونا فعلاً بأعجوبة من حرب أهلية كانت تلوح في الأفق آنذاك، خاصة أنني كنت أنا أيضاً على وشك ركوب الطائرة إلى القاهرة في اليوم التالي! وفي ليلة السفر، دعتني أمّي إلى "العشاء الأخير" لتوديع بيروت في أحد المطاعم الفخمة. لم تكن الدعوة لي، بقدر ما كانت لأسبابها الخاصة. إذ إن المطعم الذي اِختارته كان من رواسب ذكرياتها مع والدي، وكانت تهواه جداً، ويطلّ مباشرة على صخرتي الروشة. كان طقس أيلول منعشاً على نسيم البحر بين "شخصين"

راشدين. يومها لم أشعر أنها كانت أمّي، بل صديقتي، لأنها ولأول مرّة في حياتي لم تذكّرني بهفواتي ولم تعاتبني عن مشاغباتي وتمردي. وبدل ذلك، كلمتني عن كفاحها الطويل وتنقلها المرير مع أبي من مكان إلى آخر، وعن عمر طويل مرّ عليها معه بسرعة البرق. وكما كنتُ متوجساً مما كان "مكتوباً" لي في مصر، كانت، هي أيضاً، تترقب قدرها، وتترنح بين فرح بمستقبل أفضل وخوف من مصير مجهول..

على اِرتفاع 35,000 قدم فوق المتوسط بالقرب من شاطئ الإسكندرية، فوجئنا بنداء على طريقة "الخبر العاجل". أبلغنا قائد الطائرة بإغلاق مطار بيروت بصورة دائمة ولم يفصح عن الأسباب. كان من دواعي حظنا الخارق أننا تمكنا من مغادرة المطار قبل إغلاقه بأربعين دقيقة فقط. يا له من حظّ أسطوري، ويا لها من "كارما" إلهية. فالمطار وإن عَهد من قبل تخفيضات جذرية في أعداد الرحلات منذ نيسان 1975م، إلا أن الإنطباع تلك المرة كان يُنبئ بتوقف كلي وطويل. في تلك اللحظة الفارقة مع نداء الكابتن، أمسكتْ أمّي بيدي وشدّت عليها كما لو كانت الطائرة على وشك السقوط في البحر. فنظرتُ إليها مبتسماً نظرة الأبطال، ورأيتُ بوجهها ملامح السكينة والرجاء والتمني، وأدركتُ أنها لحظة حرج وفرج معاً. ولو لم نغادر بيروت في الوقت المناسب على آخرة طائرة، لكنا على شبر واحد فقط من إقامة جبرية طويلة في جحيمها! لا ريب أن القدر على رحلة "مصر للطيران" في ذلك اليوم اِبتسم لنا كما لم يبتسم لأحد غيرنا في الوجود. يومها، وقف الشرق الأوسط برمته على مفارق طرق مبهمة كان المجهول أوضحها وأسلمها. ففي لبنان، تدهور التوازن الهشّ بين الطوائف والفصائل واِنفجر حرباً أهلية مفتوحة! فجأة بين ليلة وضحاها اِنحدرت بيروت إلى مدينة متاريس، وأصبح الجيران أعداء، واِختلطت أصداء الشوارع بصراخ المرعوبين وإطلاق النار. أما في

مصر، فقد بدا واضحاً أن دبلوماسية الصلح والهدنة بين مصر وإسرائيل كانت تتقدم خطوة وتتعثر خطوات. السادات، وبتشجيع هادئ من هنري كيسنجر، وضغط قوي من الأوروبيين، عقد إتفاقية سيناء الثانية، مما مثّل خطوة لم يجرؤ أي زعيم عربي على حذوها مع إسرائيل، لا من قبل ولا حتى اليوم، رغم سياسات التطبيع و"إتفاقات أبراهام". وبين هبوط لبنان إلى قعر الفوضى وصعود مصر نحو قمة السلام، حبستْ المنطقة أنفاسها من تداعيات الإنهيار وعواقب التغيير. كانت مشاكسات "الصقور والحمائم" العرب على فرض النفوذ والهيمنة في المنطقة قد وصلت إلى حدود اللاعودة، مما فسّر إشتعال الوضع الفجائي بين الميليشات في لبنان. وإذ تبين لاحقاً أن مطار بيروت أغلق تمهيداً للمعارك الشرسة، فإننا لم نكن نتخيل أن المطار لن يفتح من جديد إلا بعد أكثر من سنة ونصف.

أمّ الدنيا؟

ما إن حطّت الطائرة على مدرج المطار، حتى شعرت بكبدي أن مصر لن تكون على "هواي" رغم هواها السلمي. وعلى مبدأ "المكتوب يُقرأ من عنوانه"، بدتْ القاهرة لي من شباك الطائرة مُخيفة حتى قبل هبوطنا على مدرجها! كانت المشاهد الأولى من الجو توحي بمدينة مقابر ضخمة، مسطحة، بُنيّة اللون، صحراوية المعالم تشبه نسخة مُكبرة عن مدائن الأنباط. وفي الطريق من سُلم الطائرة إلى مبنى الوصول - وكان يومها المطار الوحيد في القاهرة - بدتْ مصر من الملامح المتهالكة في أرجاء المطار ومعالمه الناعسة كما لو كانت "صندوق باندورا" نفسه؛ ففي أعماق تراث مصر وثنايا تاريخها الطويل، تكمن أسرار الشرق وعلوم الأرض، وربما مفاتيح الفلك والآخرة معاً! إذ إنه رغم ملايين الدراسات والأبحاث الجيولوجية

الميدانية، ورغم تخصيص علم قائم بذاته لدراسة المصريات، ما زال الرأي الأكاديمي مُجْمعاً على أن ما نعرفه عن حضارة مصر لا يتعدى قشور السطح. ولما كنتُ قد ترعرعت على متابعة تاريخ مصر من خلال إهتمامي بالتّوراة، فلطالما اِعتقدت أن البلد كله موقع لحضارة عملاقة كانت موجودة قبل تاريخنا البشري المعروف. كنتُ مقتنعاً بأمر من إثنين: إما أن شيئاً ما ضرب مصر من الفضاء، (نيزك شارد، غُزاة من كواكب أخرى أو جرم سماوي)، أو أنها أصيبت بخلل فظيع من داخلها (تنافسات، حرب أهلية، فيضان أسطوري، أو وباء). في الحالتين كانت العواقب مدمرة على مصر، فتهاوتْ على أهلها واِندثرتْ أسرارها معها إلى اليوم. ومع أني كنتُ كوّنت تلك القناعة من أول اِنطباع لي عن الأهرامات من خلال الصور فقط، غير أن قناعتي بقيتْ متماسكة ولم تتغير رغم زياراتي الميدانية اللاحقة للمواقع الأثرية والمتاحف.

كنتُ منذ صغري مفتوناً بالتاريخ القديم ومأخوذاً بقصص التّوراة، وتحديداً بحكايا البطاركة الكبار، اِبتداء من إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إلى يوسف وموسى وداود وسليمان. وبالنظر إلى إهتمامي الشغوف بتاريخ الآباء اليهود، ومرورهم الإفتراضي على مصر، وعبورهم منها، كان يُفترض بي أن أقع في غرام مصر، وأن اعتبر إقامتي في ربوعها مع العائلة شيئاً عظيماً. لكن مشاعر الحبّ والكره لا تُفسّر بالمنطق وحده. "كرهت" مصر من أول نظرة بدون سبب، وفجأة، لم تعد أسرار النيل تهمني، ولا عادت الأهرامات والمومياوات تثيريني.

نكسة ونكبة وضياع؟

في ذلك الوقت، ورغم مغامراتي الشبابية، كنتُ ما أزال غاضباً جداً من خسارة العرب لإسرائيل في "النكسة" عام 67 م. ولغاية اليوم، لا أعرف لماذا سميّناها "نكسة" وقد كانت هزيمة مجلجلة بكل التعابير والأوصاف! كانت خسارة فاقعة وفضيحة كبرى بِامتياز. كنتُ، كمراهق صاعد، أتصوّر أن جمال عبد الناصر كان عملاقاً لا يُهزم، أشبه ببسمارك الشرق الأوسط، أو صلاح الدين بطل القومية وفارس الأمة العربية من المحيط إلى الخليج. الحقيقة المُرّة أن "النكسة" كانت حدثاً جللاً وقع لنا في ذروة حكم عبد الناصر وقوته، وكان ذلك قبل وصولي إلى مصر بست سنوات. ومصطلح "النكسة" قد يلتبس على البعض مع تعبير "النكبة"، كما اِلتبسا عليّ أصلاً في سنين المراهقة؛ فالتعبير الأخير هو الفاجعة الكبرى التي اِنتكب العرب إبانها بسبب تقسيم فلسطين عام 1948م. الملفت أن المشروع الصهيوني عندما بدأه هرتزل في القرن التاسع عشر من خلال كتابه الشهير "الدولة اليهودية"، لم يكن معنياً أصلاً بمكان معين لإقامة اليهود. جلّ همه واِهتمامه كان أن يجد لهم وطناً آمناً، سواء في تكساس، أو أريزونا أو حتى في أوغندا أو فلسطين. المهم بالنسبة لهرتزل كانت مغادرة اليهود أوروبا لأن الأزمان (بالنسبة له) أثبتت أن اليهود لا يتكيفون بالعيش مع الرجل الأبيض، تماماً كما لم يتكيف الرجل الأبيض المسيحي معهم لأسباب عقائدية، أو بسبب إرث الرومان معهم منذ أيامهم الأولى في فلسطين. إذ إن اليهود يومها كانوا أكثر المشاكسين لحكم الرومان، وأشدهم نكداً وشؤماً وبؤساً إلى درجة أن الحاكم الروماني طيطوس اِضطر إلى تهديم المعبد الثاني على رؤوسهم وطردهم من فلسطين عام 70م. كان على اليهود المطرودين الإبتعاد قدر الإمكان عن جغرافية نفوذ الرومان، فتوجّه الكثيرون منهم إلى ثغرات الإمبراطورية الرومانية في شمال أفريقيا وبعيداً الى الحجاز واليمن، فيما رحل القليلون منهم إلى جوار شمال البحر الأسود ورومانيا

وبولندا وأوكرانيا. وهكذا، بقي اليهود في الشتات حيث حلّوا، وإن حافظوا على تقاليدهم وعاداتهم وطقوسهم ولغتهم بلا اِنقطاع. وهذه الميزة (الإستمرارية بلا اِنقطاع) لم تتوفر صراحة لغير اليهود في العالم على نفس الفترة. وعندما حان وقتهم بعد 2500 سنة من الإضطهاد المتواصل، كان من السهل على الحركة الصهيونية وبريطانيا اِستغلال غربتهم وترحيلهم تدريجياً إلى فلسطين، حيث كانت الخُطط أُعدت لإثارة الرعب بين الفلسطينيين ومباغتهم بمجازر الذبح والتنكيل. فهرب الفلسطينيون من طريق اليهود وإجرام الحركة الصهيونية، نازحين مشتتين إلى بلدان الجوار، فكانت "النكبة"...

أما مصيبة العرب الثانية، فتعود إلى حرب الستة أيام مع إسرائيل عام 1967م، وتعني "اِنتكاس" العرب في تحقيق الإنتصار، أي هزيمتهم بصريح العبارة. في ذلك الوقت، (وقت النكسة)، كان القوميون العرب، وأنا رغم صغر سني كنت أحسب نفسي عليهم، يحتقرون الرأسماليين والبرجوازيين والغرب الإمبريالي، ويكرهون أولئك الذين اِغتصبوا أرض فلسطين. كنا نؤمن حصرياً بالإشتراكية الأممية، وبنضال فيتنام، والإتحاد السوفياتي، والصين، وحركة عدم الإنحياز، وكوبا. وهكذا، فإن شعبية عبد الناصر لم تنبع فقط من محاربة الإقطاع وإلغاء نظام "البيك" و"الباشا" و"العمدة"، بل أساساً من جرأته في التصدّي للغرب من خلال تأميم قناة السويس وطموحه في إنجاز سدّ أسوان. بل ربما تربيته الفلاحية المتواضعة لمست عقول الناس ودخلت قلوبهم ودفعته إلى التألق بعد الحكم الملكي المتعالي. فاروق، كان آخر ملك على مصر، والعاشر من سلالة حكام العائلات الألبانية بعودة أصوله إلى جده الأكبر محمد علي باشا. وإذا كان من أمر خطير حدث بسبب "النكسة" في عهد عبد الناصر، فهو أنها سرّعت هجرة اليهود إلى فلسطين وضاعفت أعدادهم بشكل غيّر

الواقع الديمغرافي الفلسطيني إلى الأبد. وبذريعة إعطائهم المنّ والسلوى في أرض الميعاد، سحبتْ منظمة الحركة الصهيونية معظم اليهود الشرقيين من أوطانهم: في العراق واليمن ولبنان وسوريا ومصر وتونس والمغرب والقرن الأفريقي. وتولّتْ إرسالهم إلى فلسطين تباعاً ضمن موجات نزوح منظمة لبناء المستوطنات والإستفادة من "يهودية" الجاليات المُستجلبة. لم يعد سراً اليوم أن اليهود الشرقيين (السفارديم) عوملوا معاملة العبيد منذ لحظة وصولهم إلى خيم التأهيل تحت قيادة اليهود الغربيين. من الواضح أن اليهود الغربيين البيض (أشكناز) كانوا، وما زالوا، فوقيين (عنصريين) في تصرفاتهم وتوقعاتهم ومحظيين في تسلم الوظائف وإدارة البلاد. المسألة اليهودية العنصرية تتفاقم اليوم في إسرائيل، وهي ليست إلا وجهاً من أوجه التفرقة بين اليهود أنفسهم رغم أن اليهود السُمر أكثر صفاءً ليهوديتهم ونقاوة بإيماناهم من اليهود الأوروبيين..

***

وبقدر ما أحببتُ عبد الناصر، كرهتُ اِنتقال والدي من بيروت إلى مصر، وإن كان ذلك ضرورياً بسب اِشتعال الحرب الأهلية في لبنان. في سبعينيات القرن العشرين، كانت مصر على أيام السادات جحيماً بالنسبة لشاب لبناني مثلي اِعتاد على الإنفتاح والحريات والعادات الليبرالية. فالقاهرة في ذلك الوقت، وهي أكبر عاصمة في أفريقيا، كانت تعاني نقصاً حاداً في توفر "الأشياء" التي اِعتدت عليها في بيروت. كانت أسعار السلع، إذا ما توفرت في السوق السوداء، خيالية وبعيدة المنال حتى عن الطبقة الوسطى.

في البدء، لم أتحمّل العيش في مصر رغم إعجابي بتاريخها وتفهمي لوجود أهلي في ربوعها. كنتُ أطمح إلى الكثير من الحرية وأتوق إلى المزيد من المرونة. وكفرخ الطير، كنتُ أبحث عن فرصة

للطيران بعيداً عن عشّ أهلي وعيشهم. وحتى الأكلات المصرية التي كانت أمّي تسترضيني بها، كالملوخية، وصواني الفرن، والمحاشي، لم تستطع إقناعي بالإستمرار في الإقامة في القاهرة دون شكوى أو ملل أو ألم. شعوري، ذاك، لم يكن له علاقة بالمصريين أنفسهم، ولا بطرق عيشهم وتقاليدهم! فهم أناس طيبون يسهل التعامل معهم والإستكانة إليهم بشكل عام. بل بعكس اللبنانيين أو بعض العرب، وبالأخص عرب البترودولار، فهم ليسوا متعجرفين أو متعالين أو مُعقّدين. إذ لديهم ما لا يقل عن 9000 عام من الحضارة المتراكمة المتواصلة، ولا يمكن مقارنتهم بشعوب الشرق الأدنى، حتى ولو كان الآخرون فخورين أيضاً بنفس القدر ولديهم تراثهم العريق وآلهاتهم الخارقة! فقط السومريون العُرُق يُستثنون من المقارنة مع المصريين.

أول الرقص حنجلة

أيامي الأولى في القاهرة كانت "مأساوية" بكل معنى الكلمة. كنتُ أقضي وقتي "مشغولاً بالممل" بين أربعة جدران. أشاغل الضجر في أحلام اليقظة والعبور بالمخيلة إلى الأفق البعيد خارج حدود مصر. كانت "عِيشتي" فخاً محكماً لم أعرف البقاء فيه ولا الخروج منه. لكن بتكرار الروتين والعبث، رضختُ في إحدى المرات مرغماً لطلب أخي - وكان يصرّ عليّ يومياً - مرافقته إلى نادي "هليوبولس" الشهير في مصر الجديدة. كان أفراد العائلة قبل وصولي إلى القاهرة يراودونه يومياً ويقضون فيه أجمل الأوقات؛ ففضلاً عن السباحة والرياضة وما إلى ذلك من أنشطة ترفيهية، كان النادي مرتعاً للبنانيين النازحين من حرب لبنان. كانوا يجتمعون كل صبح على همومهم وأحزانهم بإنتظار خبر من هنا أو نبأ من هناك. أما الفرج، فكان، هو أيضاً، نازحاً مثلنا على ألحان فيروز ووديع وصباح..

وما إن رافقتُ أخي إلى النادي في أول مرّة، حتى صار المكان قِبلتي في كل مرّة. ففيه تعرّفت على شِلّة من الشبان اللبنايين التائهين مثلي. معاً، شكلّنا فريقاً من أربعة فرسان - كنا معاديين للمصريين وعنصريين ضدهم بل سبب. اِستعرضنا كبرياءنا عليهم، وتباهينا بغرورنا أمامهم، وبكل شيء اِستطعناه. ربما كان ذلك تنفسياً فرويدياً عن همومنا بعيداً عن الوطن، أو عن همنا الكبير في تحمّل العيش في مصر مقارنة بما اِعتدنا عليه في لبنان. كنا مُغررين ومغرورين. إلا أن الأيام، بمرور الأيام، بدأت تجاملني، والأحلام، مع تكرار الأحلام، أخذت تداعبني على دوام السهر والغطس ببحور النزوات والملذات! فصار نهارنا عتمة وسهراً خلف ستائر مغلقة. وأصبح ليلنا مضاءً بأنوار "اللهو" والشموع. كنا أحياناً "نغزو" زاويا القاهرة في عزّ النهار، خاصة فنادقها وسط البلد ومقاهي خان الخليلي في ضواحي الحسين والعباسية والأزهر. وفي المساء كنا غالباً ما نقصد المسارح وحفلات الطرب وحانات الرقص في قصر العيني، أو الزمالك، أو رمسيس، أو بناصية الأوبرا. فتاريخ مصر عريق بالفنون والموسيقى والثقافة الترفيهية والرقص الشرقي. كانت مصر في تلك الأيام مركز التمثيل وصناعة السينما في الشرق الأوسط، أشبه بهوليوود اليوم في العالم. وكانت، بغياب لبنان عن مسرح الحداثة، بمثابة الوجهة الساخنة والمرجعية الحصرية تقريباً لغالبية التيارات والمؤشرات والتقليعات الإقليمية الهامة، بما في ذلك النشر والسياحة والسياسية، لا سيما أن الإمارات لم تكن قد ظهرت بعد على خارطة الفن والترفيه والثقافة...

كنا جميعاً (الفرسان الأربعة)، أينما ذهبنا وكيفما نظرنا، نشتم عبق الزمان ونشعر بعراقة التاريخ ونلمس ضخامة التراث. فكنا "نطلع" إلى الشمال والدلتا وإلى الإسكندرية، و"نهبط" إلى الجنوب والأقصر وإلى طيبة (العكس هو الصحيح).. اِستغلينا أوقاتنا جيداً ولم نترك

موقعاً معتبراً لم نزره! ومن بين أمّهات المواقع، زرنا الكرنك ومعبد آمون ودير الملكة حتشبسوت. أما في متحف القاهرة، فكنا نترك "كبرياءنا" كلبنانيين في الخارج (؟!) ونتواضع لنعرّف أنفسنا بالطريقة اللبنانية (تهكمية) إلى أهم الشخصيات المصرية المحنّطة في التوابيت، بمن فيهم رمسيس نفسه وتوت عنخ آمون وتحتمس، فضلاً عن أكثر الفراعنة مشاكسة وإثارة للجدل، المدعو "أخناتون". "صافحناه" (مجازاً) وأجرينا دردشة (إفتراضية) معه حول الرسائل الشهيرة التي كانت ترد إلى قصره في "تل العمارنة". ومع أنها كانت تصله من الكنعانيين والميتانيين والحثيين بلغة العصر الأكادية المسمارية (أشبه باللاتينية في أوروبا القديمة)، إلا أن الجانب الذي يخصنا منها كان خطيراً فاضحاً ومخجلاً بحق أجدادنا الفينيقيين حكام بيروت وصيدا وصور وجبيل. ففيها نجد أجدادنا أسياد البحر الفينيقيين وقد تحولوا إلى متوسلي حماية بسبب قرب ممالكهم إلى الإنهيار على أيدي الأموريين وعملائهم المرتزقة الخابيرو. رسائلهم كانت تستجدي أخناتون وتستعطفه، ليس كنصير أو حليف لهم، إنما كرعاياه المخلصين. كانوا يستهلون الرسائل بعبارات مكررة مخزية مثل: "أنحني تحت قدمي سيدي سبع مرات، وسبع مرات أنحني" إلخ. إلا أن أخناتون كان ذهنياً في مكان آخر حالماً ومشغولاً بأشعاره وفلسفته الوحدانية، فلم يرد على إستغاثات رعاياه ولم تعنه حرائق أساطيل الفينيقيين على السواحل اللبنانية.

وهكذا، عاتبنا أخناتون على تقصيره معنا، وتمادينا معه، وتغزلنا أمامه بجمال زوجته نفرتيتي. كانت هناك في المتحف أشياء كثيرة بديعة ومذهلة. فعلى المستوى الشخصي، مثلاً، كنتُ محظوظاً جداً أني شاهدت بأمّ العين الأواني البدائية وأدوات الطهي وأشياء التجميل والزينة ومعدات الفلاحة والصيانة والزراعة التي كان المصريون

الأوائل يستعملونها في يومياتهم منذ 5000 سنة. شعور فريد رائع أن تنتقل بمخيلتك ووجدانك من حاضر اللحظة إلى عالم "بدائي متحضر" كالعالم الفرعوني..

لم يكن في مصر شيء يَطاله المال لم نجرّبه ونتمتع به. إذ إن "فارسين" من الفرسان الأربعة كانا من أبناء كبار تجّار الصفّ الأول وأثرياء لبنان، الذين اِضطروا إلى نقل تجارتهم من بيروت إلى القاهرة. لم يكن المال مع فريقنا الشبابي تحدياً لأي رغبة، ولا عائقاً لأي نزوة. كنا نختبر أشياءً كثيرة على طريقة "مَن يود أن يفهم كثيراً عليه أن يلعب كثيراً".. وعلى مبدأ "أول الرقص حنجلة"... كان الجنيه المصري يومها مُنهاراً، والعيش في القاهرة آنذاك كان الأرخص على مستوى الشرق الأوسط كله. أوضاع مصر الإقتصادية في بداية عهد السادات عقب حرب 1973م كانت مزرية في كل القطاعات.

تآمر أم تخطيط؟

مع بداية تشرين الأول وبدء الموسم الدراسي، أخذتْ الجالية اللبنانية في القاهرة تغادرها إلى حيث كانت لها علاقات عائلية بإنتظار تحسن الأوضاع. ومن جملة المغادرين مرّة واحدة، كان أصدقائي الفرسان، وقد ترك غيابهم في قلبي فجوة كبيرة. ولولا المناعة التي كنتُ قد اِكتسبتها من تجارب الأيام، لكنتُ قد عدتُ إلى "كآبة" أيامي الأولى في مصر واِستسلمت لليأس بين الجدران، أو ربما كنتُ قد خضعتُ صاغراً إلى "محاضرات" الأهل عن "المدينة الفاضلة" وفذلكات المدرسة عن أخلاق أرسطو. إلا أن معنوياتي كانت ما تزال سارية الصلاحية وشهيتي على المغامرة كانت في أوجّها؛ وكعادتي في المآزق، بدأتُ أخطط سراً من جديد لتحديد خياراتي وتغيير مجرى حياتي، فضمرتُ على ترك مصر بأقرب فرصة ممكنة. لكن إلى أن تلوح بوادر تلك الفرصة المبهمة، كان لا بد في جميع الأحوال من توفير بعض النقود بأي طريقة! قضيتُ تلك الأيام اِنتظر فرصة العمر للتسلل من جديد في اللحظة المثالية. كان جهدي للهروب من مصر عملاً خارقاً أشبه بهروب موسى من درب فرعون! لا جَمْعة العائلة كانت تُسليني، ولا فخامة العيش بين الأندية والخدم كانت تغنيني عن الحرية. والصراحة أن مصر بدون أصدقائي الفرسان كانت بمثابة زنزانة كبيرة. سلوتي الوحيدة في تلك الأيام (بالإضافة إلى أكل المنغا والجوافا)، كانت تنحصر في الإستماع إلى أمّ كلثوم وعبد الحليم ونجاة وفريد. أغانيهم - رغم مصريتها - كانت تشعل في عروقي نار الشغف وتقدح في خيالي أحلام اليقظة وتنقلني إلى عالم بعيد عن مصر وعن أهلي مرّة واحدة. كنتُ أتخيل نفسي ماشياً على الطريق من بيروت إلى أوروبا للمرّة الرابعة. كان غبريال وسيرج أول الأشخاص الذين خطروا على بالي وتبادروا إلى ذهني في ذلك الوقت الحرج من

حياتي. وعلى الفور تواصلت معهما وعرفتُ أن الأول ترك باريس واِلتحق بسيرج في لندن. ومع أنهما كانا يعملان في مكانين مختلفين وسط لندن، إلا أنهما كانا يعيشان في بيت واحد بضواحي العاصمة. أفصحتُ لهما عن نيتي، وسررتُ كثيراً بفكرة الإلتحاق بهما "بذريعة" اِستكمال دراستي في بريطانيا كمخرج لائق أمام أهلي.

بعد سلسلة من الرسائل "التنسيقية"، التي اِمتدت من تشرين الثاني 1975م إلى أيار 1976م، واصلتُ تآمري مع سيرج وغبريال ومناقشة أدق التفاصيل اللوجستية. كان والدي في ذلك الوقت يعمل في شركة جيوفيزيائية أميركية، وكان لديها بريد دائم وسريع مع مكاتبها وموردیها في بريطانيا. كانت الرسائل بيني وبين الرفاق تصل بسرعة البرق من خلال مكتب والدي، على الأقل مرّة كل أسبوعين. كنتُ أعدّ الأيام بالأنفس والدقائق بِانتظار ساعة الصفر. وما إن اِستحصلت على تأشيرتي بريطانيا وفرنسا، (والأخيرة كانت متعددة السفرات) حتى رتبّت أغراضي القليلة، كالعادة، وجمعتُ رسائلي الكثيرة، وكنتُ على موعد مع السُحب. يومها كان العالم الغربي يحبس أنفاسه ويترقب نتائج التنافس على زعامة حزب العمال البريطاني عشية طرح الثقة بهارولد ويلسون. وكان العالم الأوسع مشغولاً أيضاً بأصداء إنطلاق شركة *(Apple Computers)*، وكنا يومها لا نعرف شيئاً بعد عن مقدرتها الخيالية على نقلنا إلى عالم آخر، عالم اِفتراضي حدوده السحاب والذكاء الإصطناعي..

الفصل السادس: أبواب موصدة

إلى بلاد الإنجليز

بعكس المرات السابقة، رأيتُ تلك المرّة أن أخبر والدي سلفاً عن رحلتي إلى لندن "بهدف اِستكشاف فرص الجامعات". بيد أني لم أخبره بنيتي البقاء فيها بصورة دائمة. وحسب ترتيبي المسبق معه، توقفتْ عند مكتبه في الصباح الباكر بطريقي إلى المطار لأخذ المبلغ المتفق عليه، وكان والدي حينها مشغولاً في مكان آخر ضمن نوبته الليلة. لكن تبعاً لتعليماته، سلّمني مساعده صكّين بقيمة 50 جنيهاً إسترلينياً للصك الواحد. كان أحدهما شيكاً سياحياً من إصدار "توماس كوك"، والآخر شخصياً مسحوباً على بنك والدي في جنيف. يومها، لم أكن أعرف الفرق بين الشكين على اِعتبار أنهما معاً كانا من كيس والدي، ويمثلان ما مجموعه 100 جنيهاً إسترلينياً. مبلغٌ - في تلك الأيام - كان كافياً لمدة أسبوع من وجهة نظر والدي، لا سيما بوجود سيرج وغبريال ومكتب للشركة في لندن، فضلاً عن 35 جنيهاً كانت مدخراتي! وقبل مواصلة طريقي إلى المطار، ناولني مساعد الوالد رسالة من سيرج، وهو يرسم اِبتسامة عريضة على ثغره كما لو كان يعرف سلفاً مضمونها!

في التاكسي إلى المطار وسط زحمة السير المعتادة في القاهرة، وعلى أصوات فرامل السيارات وأبواقها المزعجة، ألقيتُ نظرة خاطفة على مضمون رسالة سيرج بقصد إعادة قراءتها على مهل أثناء الطيران. وصلتُ إلى مبنى المغادرة متأخراً واِنطلقتُ من التاكسي بسرعة البرق إلى منصة خطوط الطيران، وكنتُ آخر الواصلين، ثم إلى نقطة الجوازات، فبوابة المغادرة. ولولا اِستيائي الشديد من القاهرة وخشيتي

المطلقة من اِستمرار العيش فيها، لما لحقت بالطائرة وكنتُ آخر الصاعدين عليها. كانت تلك "الهمروجة" بداية محظوظة وإشارة مشجعة!

أقلعتْ الطائرة وحلّقتْ عالياً فوق القاهرة. شعرتُ مثلما شعر يعقوب في منامه عندما رأى "سلماً" ممدودة إلى السماء، لا سيما أني كنت هارباً من أهلي كما كان هو هارباً من أخيه عيسو. فبدتْ القاهرة من السماء في ذاك الصبح الباكر كما سبق ورأيتها أول مرّة قبل ذلك الوقت بتسعة أشهر. مدينة ترابية عبثية، لا أخضر في ألوانها ولا هيئة في تقسيماتها. وعلى كأس من النبيذ الأحمر فوق المتوسط، سحبتُ رسالة سيرج وأخذتُ أقرأها بتمعن وتأن. فجأة، تنبّهت منها إلى تفاصيل مُفرحة لم ألتفتُ إليها في التاكسي. فوجدتُ أنه وُفق بمحاولته و"دبّرني" بنصف دوام عمل في نفس المصنع الذي كان يعمل فيه. كان خبراً ساراً ملهماً وعظيماً، إذ إنه طمأنني على حالي حتى قبل وصولي! يا للقدر ما أجمله عندما يغازلنا! أرجعتُ رسالة سيرج إلى مظروفها وحفظتها بغلاف جواز السفر. وبعد ثلاث ساعات من التحليق الهادئ فوق المتوسط واليونان وإيطاليا، بدأت جبال الألب تطلّ علينا بهية شامخة، لا سيّما أن الطقس في أواخر أيار كان مثالياً لصفاء الرؤية تحت أشعة الشمس. كان المنظر "بانورامياً" سريالياً لدرجة أنني خِلته لوحة زيتية هربت من أحد المتاحف لتعرض نفسها عليّ خصيصاً. ولعمري ما زلتُ أتذكر جيداً كيف اِنبهرتُ بالمنظر الخلّاب وأُخذت به إلى درجة أني سحبتُ ورقة وكتبتُ عنه فوراً مقالة فلسفية قصيرة بعنوان "من شباك الطائرة". ورغم أن الخاطرة لم تتجاوز صفحة واحدة، كانت كافية لاستهجن فيها روعة حالتي وبريق تألقي في الفضاء رغم جلالة القمم وعظمة الجبال.

اِجتزنا سهول ألمانيا واِقتربنا من حقول هولندا. فجأة بدأ قلبي يخفق اِرتباكاً من شدة الإثارة والفرح والتوجس. كان بالي مشغولاً بلقاء سيرج وغبريال بعد شهور طويلة من ذاك الإفتراق المحزن في أنقرة. كانت تعليمات سيرج في رسالته تنصّ بوضوح على ضرورة "التظاهر" عند نقطة الهجرة والجوازات، بعدم وجود معارف لي في بريطانيا. طلب مني أن أزعم لهم أن غرضي من الزيارة - كما في التأشيرة – للسياحة فقط.

وقح وجبان..

حطّتْ الطائرة في هيثرو، وكان الطقس إنجليزياً بِامتياز، قاتماً، أسود، رغم التوقعات بموجة حرّ لاحقة غير مسبوقة. وفيما أخذتْ ضربات قلبي تسابق محركات الطائرة على المدرج، راحتْ معنوياتي تبحث عن قعر لها في كعب الحضيض! فجأة، ولسبب مُبهم، تبخّرت آمالي وتركتني مكشوفاً لأوهامي وعارياً أمام ظنوني! إلا أن زحمة الممرات الطويلة من الطائرة إلى قاعة الوصول، فضلاً عن ضجيج المطار نفسه، شغلت فكري عن همه، وأخذتْ تهدّأ روعي وتطيّب خاطري. وبثبات "مهزوز" وثقة "مريبة"، توجّهتُ إلى منصة الهجرة والجوازات ووقفت بطابورها الطويل. ولما جاء دوري، سلّمت جواز السفر للمأمور بِابتسامة مرتجفة بلهاء. لكن ما إن تناوله مني، حتى ظهرت له رسالة سيرج من جيب الجواز، ومعها طلّ عليه رأس ملكة بريطانيا على طوابع المظروف. وبدون أي سؤال، أو حتى رمشة عين، سحب الرسالة (هكذا) وأخذ يقرأها كما لو كان يراجع وصية أبيه. لم يلتف إليّ لحظة، ولم يعرني أي إهتمام، لا بل لم يُبدِ ملامح دهشة أو تعجب؟ "فعلته" تلك كانت سلوكاً وقحاً وشيئاً غير إنجليزي بالمرّة، بل حتى في دول العالم الثالث كان تصرفه بمعايير اللياقة يُعتبر

خساسة وقلة أدب وإنعدام ذوق! ولما فرغ من قراءة الرسالة، وكانت قراءة طبوغرافية مفصّلة ومتأنية، رمقني نظرة شرطي أمسك سارقاً بالجرم المشهود. أرعبتني نظراته، وجمّدتْ الدماء في عروقي، وربطتْ لساني عن الكلام. كان قليل الحياء وكنت كثير الخجل!

نطق هو أولاً، وسألني مُستهبِلاً كما لو أنه لم يقرأ الرسالة بالمرّة: "أخبرني يا سيد آميلي، لماذا تريد زيارتنا، وكم تنوي البقاء معنا؟". سؤاله كان خبيثاً بالنظر إلى أنه قرأ الرسالة بإمعان وإنكشف له منها غرضي بوضوح. ثم إن لغة سيرج وكتابته كانتا واضحتين، لا بل ربما كانت لغة سيرج أفضل من لغة مأمور الجوازات بمراحل كونه كان متعلماً ومثقفاً ومخضرماً. "مشيتُ" مع المأمور "بخبثه" و"ماشيت" أسلوبه "الإستهبالي" وأجبته أن الغرض من زيارتي السياحة لفترة أسبوع. ببرود أعصاب تابع معي وسألني بتهكم فاضح: "وكم من المال معك، أيها السائح؟". فأجبته: "معي 135 جنيهاً"، (يومها، كان متوسط أجر الموظف في لندن بين 40-50 جنيهاً في الأسبوع). عندها، قرر سعادة المأمور مواجهتي بالجرم المشهود، فرفع رسالة سيرج وأخذ يُلوّح بها أمامي كما لو أني لم أره يتمعن بقراءتها من الأساس؟ الرسالة كانت دليلاً دامغاً على أني لُقّنت "بروفة" المرور وتآمرتُ للدخول إلى بريطانيا تحت أسباب واهية مُبفركة. وهكذا، إنفضحتْ خططي وإنكشفتْ أوراقي وتعرّيتُ من براءتي. كيف يا ربي أشرح لسيرج ورطتي بفضح الرسالة، وكيف أعبّر له عن شعوري بالحرج والخجل؟ يومها، لم أرَ سيرج ولم أحدّث غبريال، لكن لا بد أنهما علما بمأزقٍ أصابني عند الوصول، لأنني لم أخرج من المطار! في الأثناء، قرّب موظف الجوازات وَجهه مني وقال: "تفضل إسترح قليلاً، سيكون معك مسؤول آخر ليستكمل الإجراءات". عبارة "إسترح قليلاً"، التي قالها بكل أدب وإحترام، لم

تعجبني بالمرّة، وقد كلفتني سبعة أيام بلياليها موقوفاً بمركز الهجرة والجوازات التابع للمطار. طلبوا مني تعبئة أطنانٍ من نماذج البيانات، فضلاً عن كتابة "اِعتراف" (إقرار) واضح لتفسير خلفية رسالة سيرج وظروفها. كانوا يستجوبوني يومياً في "مبنى الملكة" (كوينز بيلدنيغ) المجاور للمطار لدرجة خُيّل لي فيها أني ربما كنت أقود عمليات الجيش الجمهوري الأيرلندي ضد السلطات البريطانية دون علمي! ومع أنني لم أُعامل معاملة إرهابي أو مجرم، إلا أني كنتُ متهماً رسمياً بإعطاء معلومات كاذبة.

على ذمة التحقيق!

وبعكس تجربتي السابقة مع حرّاس الحدود الشيوعيين في بلغاريا، كان الحرّاس البريطانيون في مركز الهجرة والجوازات أكثر إنسانية ورحمة، لا يحقّرون ولا يصرخون ولا يضربون! كانوا يقدمون لنا ثلاث وجبات يومياً، في السادسة صباحاً، والثانية عشر ظهراً والسادسة مساء، ناهيكم عن الحمّام الساخن و"سناك" بعد الظهر. كان لدينا في صالة المركز تلفزيون مُلّون كبير يعمل على مدار الساعة. من خلاله تعرّفت لأول مرّة على برامج مشهورة مثل *Dr. Who* و *Coronation Street* و *The Saint* و *Benny Hill*. كانت بريطانيا في تلك الأيام ما تزال تحت أجواء التغيير في رئاسة الوزراء اِنتقالاً من هارولد ويلسون إلى جيمس كالاهان. ومع أنهما من نفس الحزب العمالي، فإن التغيير الذي بدأ قبل وصولي بشهر تقريباً كان له أن يعيد بريطانيا إلى عصرها الذهبي. ولكن حتى بعد شهر كامل على تبادل السلطة بينهما، كانت المؤشرات ما تزال تعيسة جداً. فالحكومة الجديدة كانت تواجه ضغوطاً اِقتصادية جسيمة مع اِرتفاع التضخم والبطالة وإضراب شريحة من النقابات العمالية. كما كانت هناك أيضاً اِضطرابات مقلقة

في أيرلندا الشمالية، حيث أعمال العنف والشغب والإضطرابات كانت حامية الوطيس ضمن حملة الجيش الجمهوري الأيرلندي ضد الحكم البريطاني.

خلال فترة التحقيق معي لم أكن أتصل بسيرج وغبريال، ولا هما حاولا الإتصال بي والإطمئنان عليّ خوفاً من الإستدراج والتورط. كنا جميعاً مرعوبين من ردة الفعل وعواقب إستنطاقي وتوقيفي. ورغم أن سيرج بريطاني الجنسية أباً عن جد، لكنه بنظر القانون كان يأوي غبريال اللبناني بصورة غير قانونية. وغبريال، بدوره، كان يقيم في لندن ويعمل بـ"الأسود" مخالفاً لأنظمة الجوازات والهجرة والعمل. كان الضبّاط ينادون على الموقوفين بأسمائهم من خلال نظام النداء الآلي. ومَن يُنادى على اسمه، كان يتوجه فوراً إلى هاتف معلّق على الجدار بجانب كرسي وطاولة عليها بضع أوراق وقلم وزجاجات ماء صغيرة. كان ذلك الترتيب يومها بمثابة مكالمات *Zoom* أو *What's App* بوقتنا الحاضر.

بعد 7 أيام من "التوقيف الودّي على ذمة التحقيق"، بضيافة جلالة الملكة، أحسست بالملل والتخمة والكسل، لا سيما أني أخذتُ قسطي من الراحة ونصيبي من العذاب! قررتُ وضع حدّ للمشكلة وعدم المضي بعواقبها إلى النهاية. فطلبتُ - بعد الفطور مباشرة - من خلال هاتف القاعة، التحدث إلى مسؤولي المركز والوقوف منهم على إحتمالات ترك بريطانيا. ومع أنهم كانوا أحرص مني على المغادرة، إلا أنهم حاولوا الظهور بمظهر الراغب بمساعدتي "لغاية إستكمال التحقيق وإصدار الحكم النهائي". وهذا، على الطريقة الإنجليزية، كان يمكن له أن "يجرّ" وقتاً طويلاً بلا سقف محدد أو خارطة طريق. وعلى الرغم من أن الإنجليز حريصون على إحترام قيمة الوقت، لكنهم عادة يتأنون جداً في هدره بلا مبرر. كانوا - بسبب حقوق

الإنسان - حريصين ألّا يُتهموا بالتسرّع في بت قضيتي أكثر مما كنتُ أنا حريصاً على دفع التهمة عني! وأثناء المهاتفة بيننا، سألني الضابط المياوم بكل أدب وحرص: "هل لك أن تشرح لنا لماذا تريد مغادرة بريطانيا؟". سؤال خبيث طرحه بطريقة "حنونة" ماكرة كما لو كان يريد إبقائي ضيفاً مُعززاً ريثما ينهون التحقيق! وعلى الطريقة الإنجليزية التقليدية، تمادوا بدهائهم معي وسألوني: "هل الطعام على ما يرام، هل هناك شيء معين تحتاجه؟". كان ردّي حاسماً ومنطقياً: " لقد طلبتُ منكم زيارة بريطانيا لمدة إسبوع، وها أنا قد أمضيتُ الأسبوع بينكم، فحان وقت الرحيل". المسألة بدت كلعبة القط والفأر. هم تظاهروا بإجراء تحقيقات "موضوعية" لمساعدتي في الدخول إلى لندن، وأنا تظاهرتُ بأني لم أكن مستميتاً لزيارة لندن بعد اِنتهاء الإسبوع.

وخلال مناقشة طلب المغادرة، أخبروني أنهم سيعيدوني "إلى البلد الذي جئت منه"، أي إلى مصر. إلا أنهم فوجئوا برفضي الصارم على أساس أنه ليس من حقهم أن يقرروا عني وجهة عودتي ما دمتُ مزوداً بتأشيرة دخول إلى بلد ثالث. فأخبرتهم برغبتي الذهاب إلى فرنسا. يا إلهي، ما إن أنهيتُ المكالمة معهم ووضعت السمّاعة فوق الهاتف، حتى هبطوا عليّ في المركز فجأة كما لو كانوا يحدثوني من وراء الحائط أو من فوق السقف، فاِصطحبوني فوراً إلى غرفتي، وأمروني بحزم أغراضي على عجل. بدوا وكأن لسان حالهم يقول: "ما دامتْ رغبتك الرحيل إلى فرنسا، فلِمَ لا ترحّل على أول طائرة؟ "! وهكذا، أخذوني فوراً ومشياً من مركز الإحتجاز بجانب المطار إلى منصة الخطوط الفرنسية في قاعة المسافرين، وأجبروني على شراء تذكرة ذهاب بلا عودة. هناك في تلك اللحظة اِكتشفت أن شيك والدي الشخصي لم ينفعني. فقد فهمتُ أنه لم يكن بإمكاني صرفه دون أن

يكون لي حساب مصرفي أودعه فيه أولاً. وحتى لو كنتُ قد تمكنتُ من فتح الحساب في لندن لغرض إيداعه، لم يكن صرفه ممكناً لفترة طويلة قبل تحريره في سويسرا أولاً، ثم اِستصدار كارت إئتماني يضمنه. خُيّل لي عند اِكتشاف الأمر أن والدي إما كان ساذجاً مثلي لم يعرف الفرق بين الشيك السياحي وبين الشيك الشخصي، أو أنه تعمّد الأمر لغرض في رأسه أو حكمة عند رب العالمين!

وقّعت للخطوط الفرنسية على شيك "توماس كوك" السياحي (50 جنيهاً) وسددت به قيمة التذكرة، وكانت يومها 26.30 جنيهاً إسترلينياً. ومشكورة الخطوط الفرنسية أنها ردّت لي الرصيد المتبقي بالفرنك الفرنسي، وكان الرصيد 220 فرنكاً على سعر صرف ذلك الزمن، أي بحدود 10 فرنكات للجنيه الواحد. بعدها اِصطحبني ضابطا الهجرة والجوازات إلى بوابة المغادرة، وإنتظرا معي حتى وقت الصعود إلى الطائرة. هنا، ولدهشتي الشديدة، سلّما جواز سفري لقبطان الطائرة باليد، كما لو كان بريداً خاصاً من مارغريت ثاتشر إلى فرانسوا ميتران؟ ومرّة أخرى شعرتُ بالحرج والخجل من المرافقة الأمنية والطريقة المهينة، وإنْ لم أكن مقيداً بالأصفاد كما كنتُ أثناء الإنتقال في بلغاريا. كل شيء بدا بوليسياً سرّيالياً لشاب مسالم مثلي! ولوهلة، تصوّرتُ نفسي عميلاً خطيراً في مهمة سرّية دولية على طريقة جيمس بوند. ومع ذلك، لم أفهم لماذا لم تتصل السلطات البريطانية بسيرج، وقد كان لديها عنوانه من خلال رسالته "الفضيحة"؟ مَن يدري، ربما فوجئوا بطلبي الرحيل قبل توقعاتهم، ما أجبرهم على التوقف عن اِستكمال الإجراءات وإغلاق الملف بنتيجة مغادرتي. وأشكر الله أني لم أذكر لهم شيئاً عن مكتب شركة والدي في لندن، والأهم، أني لم أتصل بهم طلباً للمساعدة، وإلا لكانتْ المسألة قد تفاقمتْ على أعصاب والدي في القاهرة.

هل تتحدث الفرنسية؟

على متن الخطوط الفرنسية، أعلن الكابتن بفرح واضح وحماس شديد أننا سنتأخر عن الإنطلاق قليلاً (؟!). سبب سروره أن طائرة "الكونكورد"، التابعة للخطوط البريطانية، كانت على المدرج بالقرب منا تستعد، هي أيضاً، للإقلاع. وقبل رحلتي إلى لندن بأسابيع قليلة، كانت فرنسا وبريطانيا قد بدأتا بتشغيل رحلات "الكونكورد" عبر الأطلسي بمعدل ثلاث مرات أسبوعياً إلى مدينة دالاس في تكساس. أما أول رحلة "للكونكورد" من لندن بإتجاه الشرق، فكانت إلى البحرين في مطلع 1976م. كان مشهد إقلاع "الكونكورد" من نافذتي - بمعيار ذلك الزمن - خيالياً ينقل الناظر فوراً إلى روايات الخيال العلمي لإسحاق عظيموف. ذلك اليوم كان بالنسبة لي تاريخياً لا يُنسى، إختبرتُ خلاله ثلاثة أشياء لأول مرّة في حياتي: الهبوط في لندن، ومشاهدة إقلاع أسرع طائرة مدنية في العالم، والإستعداد للسفر إلى فرنسا لأول مرّة!

الرحلة من "هيثرو" إلى "شارل ديغول" بالكاد إستغرقت أربعين دقيقة. فجأة، وجدتُ نفسي بقاعة الوصول. وكالعادة، بدأت أتصبب بالعرق وأسرح بالخيال وأتوهم أسئلةً محرجة عن أسباب زيارتي وظروفي. ولما جاء دوري، كنتُ تائهاً بلا جواز سفر وغير متأكد من الإجراءات. وبإتباع تعليمات المأمور، وجدتُ نفسي أتدحرج من شباك إلى آخر، حتى وصلت إلى منصة منزوية في آخر قاعة الوصول. هناك، وجدتُ هاتفاً أحمر معلقاً على الجدار كُتبَ تحته بالفرنسية والإنجليزية عبارة "إرفع السماعة". وكالجندي المغوار، رفعتها كما لو كنتُ أرفع لغماً موقوتاً من حضانة أطفال. برهة قصيرة، وإذ بمسؤول حكومي يهرول نحوي ويقف أمامي حاملاً ملفات برز من

بعضها شعار بريطانيا العظمى! "بونجيور"، قالها لي بنبرة مؤدبة على غير عادة الفرنسيين، وسحب باسبوري من الملف، وسألني عن سبب زيارتي. سؤاله أثار دهشتي وقلقي، لا سيما أن ملف السلطات البريطانية كان بين يديه أساساً، ويفترض أنه كان يتضمن شرحاً وافياً عن أسباب توقيفي في "هيثرو" وترحيلي منه. بصوت مرتجف وفرنسية بدائية تعود إلى أيام لويس التاسع، أجبته بأنني أريد السياحة في باريس لمدة أسبوع. لم يلتفت إلي، ربما لم يفهم ما قلته بالفرنسية، أو أن الفرنسيين لم يهمهم ما كتب الإنجليز عني أصلاً. رفع الختم من حقيبته وطبعه على جواز سفري ورحّب بي بفرنسية عصرّية، وقال ما معناه: "تفضل، ثلاثة أشهر، إقامة سعيدة". وهكذا، دخلتُ إلى فرنسا بلا تحقيق، ولا تعهد، ولا مَن يحزنون! سلّمني باسبوري، وكأنه كان ينتقم لي من معاملة الإنجليز! فغربت عن وجهه مسرعاً قبل أن يُغيّر رأيه. الموقف الفرنسي أذهلني وحيّرني في آن، لم أجد له تفسيراً مقنعاً سوى الكره المبطن بين بريطانيا وفرنسا. ورغم التشابه في تاريخ الإستعمار بينهما، فإن غيرة الجيرة والتنافس التجاري والثقافي يجعلهما دائماً كطفلين يتنافسان على لعبة واحدة، حتى بعد أن دخلا إلى السوق الأوروبية المشتركة. إلا أن حرّ النهار في ذلك اليوم من حزيران، والألوان النابضة بالحياة من حولي، وضجيج المطار، كلها "شغلتني" عن البحث بأسباب الكره بين الإنجليز والفرنسيين. ورغم أني لم أعرف ما كان مُدوّناً عني في ملف الإنجليز، إلا أن فضولي تبخّر كلياً مع أجواء باريس ولم يعد الأمر يعنيني بالمرّة. كان يكفيني أني كنتُ طليقاً حراً في بلد أوروبي غربي ولست مرغماً للعودة إلى القاهرة. كنتُ صافي البال كبحيرة هادئة عند الفجر.

"بيغال" مهد التآمر

لكن أين أذهب بعد "شارل ديغول" ولم يكن معي غير فرنكات قليلة؟ لم يكن أمامي سوى الإستعارة من تجارب القهر ومغامرات التعتير! وكما يفعل السيّاح عادة، أردت التوجّه مباشرة إلى وسط المدينة حيث الحركة والبركة والجَمال. لكن عن أي وسط كنا نتحدث والنساء الجميلات منتشرات في كل الأوساط؟ عن "مونمارتر" و"سان جيرمان" و"الحي اللاتيني"، أو عن "سان ميشال" و"مونبارنس"؟ وبعد قراءة وجيزة في دليل باريس السياحي، وجدتُ نفسي متوجهاً تلقائياً إلى منطقة "بيغال" الشهيرة! هل كان هناك أفضل منها لشاب مثلي يزور باريس لأول مرّة؟ منطقة مثيرة بكل معنى الكلمة، مليئة بالتناقضات والجنون والحركة. فيها رسامون ومهاجرون ومتسولون وكل ما يخطر على البال من نماذج البشر وتشكيلة الأعراق والأجناس والأديان. مناظر عجيبة هاربة من الزمن والجغرافيا شغلتني عن حالتي ووحدتي. لم يحدث أن اِختبرتُ قبل "بيغال" شيئاً مثيراً أو مماثلاً من حيث الجَمال والصبا والإكتظاظ والإختلاط وحظوظ التعارف. ففي شوارعها اِلتقيت بالكثير من التائهين والهاربين مثلي! ولما تعبتُ من "الكزدرة" والتفكير، لملمتُ أفكاري وهربتُ بها إلى حديقة المكان، إلى مرقد الإستسلام والإرتخاء. فأغمضتُ عينَيّ على مقعد وثير وغرقت بالظل تحت النسيم اللطيف في بئر أحلامي. وكما رأى إسحاق ربه "يهوه" يحذره بمنامه بالعبرية من زيارة مصر خلال المجاعة: "لا تهبط إلى مصر وعشْ في الأرض التي سأخبرك عنها"، كذلك جاءني في حلمي، وحذرني أيضاً من العودة إلى مصر، وقال لي بالعربية الفصحى: "إذهب إلى حيث المنّ والسلوى، إذهب إلى غبريال وسيرج، إذهب إلى بريطانيا العظمى"!

كان حلمي في "بيغال" أشبه بالرؤية أو التكليف الشرعي. أفكار كثيرة أخذت تراودني حول طريقة العودة إلى بريطانيا وتدفعني بِاتجاه

خيارات متعددة. وفي نهاية المطاف، قررتُ الرجوع إليها، لكن ليس عن طريق "هيثرو" تجنباً للمواجهة مع رجال المطار. رأيت بدلاً عن ذلك اِختبار حظي بالذهاب "خلسة" عن طريق سكك الحديد. كنت واثقاً (؟) أن السفر عن طريق "المانش" (القناة الإنجليزية) لا يعرّض المسافرين لنفس تدقيقات المطار بسب كثافة الركاب على العبارة بين "كالية" الفرنسية و"دوفر" البريطانية. وعلى سذاجتي وعفويتي، ورغم تجربتي الفاشلة في بلغاريا من قبل، تصوّرت أن "التسلّل العلّني" والتمويه بين حشود المسافرين أمراً بسيطاً وسهلاً. اِعتقدتُ أني سأفلت من طوابير الهجرة بسبب الزحمة وأضيع فيها عن عيون رجال الجوازات. كنتُ مستميتاً، ولم تكن لدي خطة *B* بديلة. لكن سرعان ما اِستدركتُ أنه كان بإمكاني الدخول إلى بريطانيا رسمياً بدون "هريبة" أو مخاطرة! ذلك أن تأشيرتي البريطانية نفسها لم تكن قد لُمست أو خُتمت أصلاً، لا دخولاً إلى لندن ولا خروجاً منها. كانت التأشيرة ما تزال "نضرة" (فريش) سارية المفعول. أما الختم الوحيد الذي طبعه البريطانيون على باسبوري، فكان على صفحة مختلفة تماماً وبعيدة كلياً عن صفحة الفيزا نفسها. هناك، ختموا مربعاً صغيراً، ووضعوا وسطه باليد خطين متقاطعين باللون الأحمر على شكل علامة الجمع. كان الختم بمثابة إشارة "تحفظ" واضحة يحمل تاريخ الخروج من بريطانيا ورقم الملف.

تزوير بالحلال

باريس في تلك الأيام، كما في أوروبا والعالم، بدت هادئة من كل الأحداث الكبيرة تقريباً. لم يكن حديث الساعة في الشارع الفرنسي يومئذ سوى صفقة الدمج بين العملاق "بيجو" والعملاق "سيتروان"، فخر صناعة السيارات والمركبات الفرنسية. كانا آنذاك علامة تجارية

عالمية، ليس فقط بالنظر إلى عراقة تاريخهما، وإنما لجودة تصنيعهما على المستوى الدولي. كان الحدث يومها قومياً بإمتياز، ولم تغب تفاصيله عن ألسنة الفرنسيين حتى في منطقة اللعب واللهو مثل "بيغال"! وبعكس اليوم، كانت فرنسا في تلك الأيام قيمة حضارية ذات شعلة قوية وقدوة عالمية. كانت تسعى لدور الريادة في أوروبا الغربية ولإعادة تموضعها تأسيساً للسوق الأوروبية المشتركة. مشاكل النازحين في تلك الأيام لم تكن قد تفاقمت بعد، وروح التساوي وحقوق الإنسان كانتا سمة طاغية على الملامح العامة في الحياة الفرنسية. إلا أن حديث العامة عن ريادة فرنسا في صناعة السيارات، وجَمال النساء من حولي، وتعدد الأنشطة في المكان، لم تلهني لحظة واحدة عن خطتي الأساس في العودة إلى لندن! ومن وحي رجال العصابات الذين كانوا يتحكمون في حي "بيغال" في القرن التاسع عشر، كانت أفكاري البوليسية تتسابق على اِستنباط "الحيلة المثلى" للتسلل شرعياً إلى بريطانيا. فجأة، نزل الإلهام عليّ وقدح برأسي فكرة "جهنمية"، فأطلقتُ العنان لحماسي. سارعتُ إلى أقرب مكتبة قرطاسية في الجوار، واِشتريت غراءً ورقياً لتنفيذها. كانت عملية اِحتيال وتزوير جريئة، ربما اِستوحيتها من أفلام الحرب العالمية الثانية، أو اِقتبستها عن قصص التجسس!

سحبتُ باسبوري من حقيبتي بحذر شديد كمن يسحب مسدساً من جعبته في الظلام. قلّبت صفحاته إلى حيث كان ختم "هيثرو" على الجهة اليمنى منه. وبعناية فائقة، مسحتُ الغراء على طرفي الصفحة؛ فصارتا صفحة واحدة و"اِختفى" مربع "هيثرو" من أصله. كانت فكرتي ببساطة (وحماقة) أنه كيفما قلّبوا صفحات باسبوري، ما كان لهم أن يروا إلا تأشيرة الدخول البريطانية الصالحة. ومما شجعني على فعلتي، معرفتي المسبقة أن نظام الجمارك والهجرة في تلك الأيام لم

يكن موصولاً بنظام إلكتروني مركزي موحد كما هو عليه اليوم. وقد بدا ذلك واضحاً لي أثناء توقيفي في "هيثرو". وما دامت التأشيرة البريطانية واضحة وصالحة، لم يكن من الممكن على رجال الحدود معرفة أي شيء عن محاولة دخولي السابقة من معطيات إسمي فقط. تفكيري ذلك، لم يكن ضرباً من الجنون، إنما كان إستماتة لدخول بريطانيا بأي ثمن. ومع أن التلاعب ببيانات الباسبور يُعتبر تزويراً فاضحاً يُعاقب القانون عليه، إلا أن إلتصاق الصفحات بعضها ببعض كان يمكن أن يكون قد حصل عفوياً بدون علمي، (!؟) أثناء تناول المربّى أو الحلوى عند الفطور، مثلاً؟ خطتي بلا ريب كانت "خلّاقة" لكن مفضوحة! بيد أني في جميع الأحوال كنتُ أنا الغريق فما خوفي من البلل. فالبمقارنة إلى "جرائم" التهريب والتزوير، إعتبرتُ خطتي ظريفة، خفيفة الظل، من النوع الـ"مهضوم"، أي من نوع "التزوير الحميد"، أشبه بـ"الكذب الأبيض"، أو هكذا أوهمتُ نفسي!

"المانش" الإنجليزي

وعلى إكذوبة المربّى والحلوى، غادرتُ "بيغال" على الفور. توجّهت مباشرة إلى "غار دي نورد" وسط باريس. المحطة عتيقة جداً، وقد صممها المعماري الفرنسي الشهير جاك إغناس، وشيدت على موقع أصلي أصغر بين عامي 1861م و1864م. كانت المحطة في تلك الأيام الأكثر إزدحاماً في كل أوروبا، وثالث أكثر محطات سكك الحديد على مستوى العالم أجمع. كان يمرّ عبرها ما يقارب ربع مليون مسافر، أو 1200 قطار في اليوم الواحد بالإتجاهين لخدمة أربع دول مجاورة (إنجلترا وبلجيكا وهولندا وألمانيا). كنتُ لغاية تلك اللحظة ما أزال أملك معظم ما تبقى لي من رصيد "توماس كوك" في هيثرو (إلا من مصاريف بعض الساندويتشات و"الغراء" وأجرة الباص من

"شارل ديغول" إلى "بيغال"). وهكذا، واثق الخطوة مشيتُ ملكاً إلى مكتب الحجز في المحطة، و"قطعت تذكرة طلّابية مخفضة إلى لندن ذهاباً وإياباً، وكان ثمنها في تلك الأيام 120 فرنكاً، فبقي بغَلتي 60 فرنكاً، حملتُ منها معي بعض الماء والعصائر والسندويشات ولوحاً من الشوكولاتة وصعدتُ إلى القطار. كان فكري مشغولاً على طريقة (المسافر الغامض) برواية أرسين لوبين الشهيرة. مسافر مشتت على القطار يتفاعل مع الركاب الغرباء ولا يعرف مغزى رحلته ولا حقيقة هويته.

***

عام 1976م كان مميزاً في حياتي! ففي حِسبتي وعلى عدّادي، كان العام - رغم فشلي في الدخول إلى لندن - تاريخياً بِامتياز! فبالإضافة إلى الأشياء الثلاثة التي اِختبرتها لأول مرّة، أي زيارة "هيثرو"، وزيارة فرنسا، ومشاهدة إقلاع رحلة الكونكورد، كانت هناك تسريبات خطيرة من الوطن تشير إلى أن سوريا كانت قاب قوسين أو أدنى من اِجتياح لبنان لصالح القوات اليمينية (الكتائب والأحرار والمردة) ضد القوات اليسارية (الفلسطينية والناصرية والإشتراكية والقومية). تلك كانت نقلة نوعية خطيرة جداً في تطورات الحرب الأهلية، ليس فقط لصالح المسيحيين، بل لأنها أسست لبقاء السوريين في لبنان والهيمنة على إدارته. كانت القوات اللبنانية اليمينية في تلك الأيام قد وصلت إلى مأزق وجودي يهدد المسيحيين تحت قبضة عرفات وجنبلاط. وكالمستجير من الرمضاء بالنار، طلب المسيحيون الحماية من حافظ الأسد وإسرائيل على حد سواء. وبينما تلكأت إسرائيل في البداية، لم يتوانَ حافظ في تقديم دعمه، ليس حباً بشمعون وبيار الجميل، وإنما اِحتواءً لطموح جنبلاط اليساري ولردع عرفات عن التأثير على سنّة الشام على حساب الحكم العلّوي. ولولا خطورة

الوضع والِتقاء المصالح، لما رضي المسيحيون بمساعدة حافظ الأسد، ولا هو بهم أصلاً بسبب فكره البعثي الإشتراكي المناهض للفكر اليميني الرأسمالي.

في تمام الساعة 5:30 مساء، غادر القطار باريس متوجهاً إلى محطة فيكتوريا الشهيرة في لندن. كنتُ حريصاً جداً على الإلتزام "بخطتي المبدئية" وعلى عدم المجازفة بتجربة أشياء غبية إضافية. كانت تجربتي السابقة في قطار إسطنبول على الحدود التركية -البلغارية ما تزال ماثلة أمامي، وكانت تطلّ عليّ بوضوح بين المحطة والأخرى. فكانت ذاكرتي تستعيد صور تركيا - بلغاريا، وتلحّ عليّ إجراء مقارنة لها مع فرنسا - بريطانيا. كان هناك فارق كبير بين الحالتين، أقله من الناحية الثقافية والسياسية؛ فعلى الرغم من أن البلدين في الحالة الأخيرة (فرنسا وبريطانيا) مختلفان من حيث اللغة والثقافة، فإنهما ليسا نقيضين في السياسة العالمية كتركيا وبلغاريا، بل على نفس الجانب الرأسمالي، وأعضاء معاً في حلف شمال الأطلسي "الناتو".

كنتُ أتصوّر أن الحدود بينهما في منتصف القناة الإنجليزية (المانش) مجرد حدود اِفتراضية ناعمة، بعكس الحدود الإلكترونية المدججة بين تركيا وبلغاريا. لكن خلاف فرنسا وبريطانيا على تسمية القناة بينهما تعطي المتابع فكرة واضحة عن مدى الإختلاف الثقافي والكره الدفين بين الإنجليز والفرنسيين. كلاهما يرى المعبر المائي الذي يمتد 50 كلم مِلكاً حصرياً له، ويعتبره اِمتداداً لأراضيه الوطنية. الخلاف بينهما شرس قديم ويعود إلى فترة تاريخ رسم الخرائط في القرن الخامس عشر. كلاهما أيضاً يعتقد أن تسميته للممر سابقة لتسمية الآخر. الفرنسيون يزعمون أن اسم "المانش" ظهر على الخرائط الجغرافية قبل "القناة الإنجليزية" لأول مرّة في القرن السابع عشر. الإنجليز، بدورهم، يدّعون العكس ويقولون إن الاسم كان موجوداً منذ ما لا يقل

عن قرن أو قرنين قبل تسمية "المانش"، أي منذ القرن الخامس عشر. وبالفعل، هناك سجلات تاريخية تبين أن المصطلح الفرنسي "المانش"، كان لاحقاً للتسمية الإنجليزية، بواقع المعالم الطبوغرافية المكتشفة لاحقاً. لكن رغم الإختلاف الثقافي المزمن بين البلدين، فإن العالم الذي تسيطر عليه المنظمات الأنجلوساكسونية عموماً، يستخدم اسم "القناة الإنجليزية" بموجب معايير المنظمة الهيدروغرافية الدولية (*IHO*). وهكذا، فالتسميات الكبرى في العالم كانت، وما زالت، عرضة للتنافس بين القوى الإستعمارية كما في مثل "المانش"، وشلالات "فيكتوريا"، و"نياغرا"، و"بالميرا" (تدمر)، وجزر "فوكلاند" (مالفينوس)، و"الخليج الفارسي" (العربي)، و"بحر اليابان" (بحر الشرق)، وجبال "أفرست" (سجارماثا)، و"بيرما" (ماينمار) إلخ.

المضحك فعلاً في هذا الصدد أن الرئيس ترامب، عندما تسلم الحكم للمرّة الثانية، غيّر اسم "خليج المكسيك" وجعله "خليج أميركا"، بل حتى "صديقه" العزيز إلون ماسك طالب، هو الآخر، بتغيير إسم "القناة الإنجليزية" إلى "قناة جورج واشنطن". ومَن يدري، فلربما يأتي يوم يغيّر فيه رئيس أميركي آخر اسم "الربع الخالي" ويجعله "الربع الملآن"، أو يغير "درب اللبّانة" ويجعله "درب الترسانة"، تماماً كما فعل العرب بإختراع تسمياتهم "بجبل طارق" و"الطرف الأغر" و"القاهرة" و"صقلية" و"جزر القمر" و"جزر الخالدات" (جزر الأطلسي) وغيرها من المواقع في عز جبروتهم. فالتسميات تبقى حكراً للأقوياء والمنتصرين فقط. إسرائيل المنتصرة على العرب، على سبيل الإستشهاد، غيرّت في فلسطين أسماءً أصلية كثيرة وبدّلتها بأسماء توراتية تخدم السردية اليهودية من جهة، والصهيونية العالمية من جهة أخرى. لكن بصرف النظر عن تسميات الشرق

والغرب، كان قطاري إلى لندن يحمل على عجلاته أملي العريض بالعبور إلى بريطانيا بدون فضائح وبهدلة!

قطار الأمل

نهار حزيران في أوروبا طويل، ومناظر فرنسا من نافذة القطار لم تبخل عليّ بمشاهد السهول وحقول الزرع. كانت تبدو بصفوفها وألوانها ومواشيها أشياءً رومانسية بديعة ذكرتني بمشاهد المروج والبراري بالطريق من "هاسكوفي" إلى "بلوفديف" في بلغاريا. ومع أني كنتُ أعرف سلفاً ماذا كان ينتظرني عند الحدود في تلك المرّة، لكني كنتُ متوجساً من المفاجآت، وشعرتُ كالتلميذ الفاشل قبل الدخول إلى قاعة الإمتحانات! كان لدي من الأسباب ما يكفي للقلق والخوف. ولكن، على عكس رحلة قطار بلغاريا، لم أختبئ تلك المرّة، لا فوق مرحاض ولا تحت مقعد. بل كـ "الولد الشاطر"، كانت تذكرتي بحوزتي، وكان جوازي صالحاً للخروج من فرنسا والدخول إلى بريطانيا. كان معي في الغَلّة ما يكفي للإِنتقال من محطة فكتوريا في لندن إلى بيت سيرج في الضاحية. كما أني لم أكن أبحث عن لجوء سياسي، ولا كنتُ مهاجراً، ولا على وشك الإلتحاق بجامعة. جلّ ما كنتُ أحاوله ببساطة، زيارة لندن (بالمبدأ) لإطفاء حرارة الفضول بالوقوف على بعض أبرز المعالم السياحية فيها، فضلاً عن لقاء سيرج وغبريال واِسترجاع ما كان بيننا من ود وذكريات..

عندما وصل القطار إلى آخر سكته على الجانب الفرنسي، نقلونا بصفوف منظمة، كالعسكر العائد من الحرب، إلى واحدة من عبّارات "المانش"! كان ركوب السفينة شيئاً مدهشاً وممتعاً للغاية. صحيح أنه سبق لي مراراً ركوب العبّارات في بحر اليونان، غير أن عبور "المانش" على سفينة اِسترخاء ورفاهية فاخرة كان له نكهة أخرى كلياً، إن لنوعية الركاب أو لنوع الخدمات والتسلية والموسيقى. كانت الأنغام مذهلة والرقصات مُغْرية إلى درجة أنه لو كان القديس توما نفسه معنا في ذلك اليوم، لقام ورقص على ألحان الروك واِحتسى من

البيرة ما يضاعف الإبتهاج والفرح. كان الإبحار رائعاً والفرحة صافية، لا سيما أنها كانت أول مرّة أعبر فيها القناة الإنجليزية. الرحلة يومها كانت تستغرق نحو ساعتين بين مدينة "كاليه" و"دوفر"، وكان ذلك قبل شق النفق الشهير بنحو عقدين من الزمن.

فرنسا، آنذاك، كانت ما تزال تنعم بشهر العسل الذي جاء بالزعيم اليميني المحافظ جيسكار ديستان رئيساً للبلاد. وإذا كان من شيء محدد أتذكره عن حكمه، فسياسة العدالة الإجتماعية التي أرساها، وغوصه في حل مسائل الأسرة والطلاق والإجهاض، وإدخال القطار السريع إلى الخدمة *TGV (.RER)*. وعندما أصبح ديستان فيما بعد رئيساً للهيئة التأسيسية لمستقبل أوروبا الموحدة، كان معارضاً عنيداً لإنضمام تركيا إليها، لكنه، لسبب من الأسباب، كان مُحابياً للعرب وصديقاً حميماً لبعض زعمائهم. ظهر معدنه جيداً اِتجاه العرب من خلال تأسيس "معهد العالم العربي" في باريس. كانت كراهيته لتركيا تعود إلى تعصبه للتاريخ الفرنسي خلال الفترة العثمانية، وتحديداً إلى حقبة إتفاقية "سايكس بيكو" التي رتبّت نتائج الحرب العالمية الأولى، وقسمّت بموجبها تِركة العثمانيين بين فرنسا وبريطانيا. كان واضحاً من تصريحاته العلّنية تحذيره الشديد والغاضب لأوروبا (إلى حد الصراخ) من مغبة اِنضمام تركيا إلى السوق المشتركة. كان يردد على مسامع الأوروبيين أن قبول تركيا عضواً في الإتحاد الأوروبي سيجعل من العراق وسوريا وإيران وأذربيجان دولاً مجاورة لحدود أوروبا، في إشارة واضحة إلى اِحتقاره الجيرة مع دول إسلامية. بيد أن البريطانيين كانوا أكثر "لباقة ودماثة وتهذيباً" (خباثة) من جيسكار ديستان، إذ طلبوا منه لاحقاً (في عهد ثاتشر) تبني مبدأ "التقيّة" وإخفاء النوايا الحقيقية لأنه - حسب التعبير الثاتشري - "علينا أن نُظهر معارضتنا لإنضمام تركيا إلى السوق الأوروبية بطرق أخرى، أي

لأسباب لا تتعلق بهويتها الإسلامية". إلا أن طبيعة الرجل (ديستان) كانت صريحة بكرهه للأتراك، بعكس الطبيعة الإنجليزية "الكاميلية" (الحربائية) الخبيثة.

هيلي وأنا

ثاتشر لم تكن قد تسلمت الحكم أثناء عبوري "المانش" لأول مرّة. كانت البلاد يومها ما تزال بعهدة المخضرم جيمس كالاهان، رئيس وزراء حزب العمال لفترة ثانية. عهده شهد فوضى عارمة وأزمات حادة وخلافات قوية حول مسائل الخصخصة والعضوية في الإتحاد الأوروبي وحرب فيتنام. بدت بريطانيا على أيامه يتيمة وحيدة وكأنها "جزيرة منفصلة" عن العالم تماماً! لكن رغم ذلك، كان السيّاح من جميع أنحاء العالم يتدفقون إلى لندن على مدار السنة بشكل ملفت بسبب اِنخفاض الأسعار وتدهور سعر صرف الإسترليني. يومها اِضطر وزير المالية، دينيس هيلي، ولم يكن قد صار لورداً بعد، إلى الإقتراض لأول مرّة من صندوق النقد الدولي بعد أن هبطت قيمة الإسترليني نحو 25% مقابل الدولار بفترة قياسية. وهنا، أتذكر إني في سنين لاحقة سألته شخصياً لماذا أنفق ملايين الجنيهات على قواعد عسكرية، فيما كانت بريطانيا بحاجة ماسة إلى مَن يُنفق عليها؟ طرحتُ سؤالي عليه خلال اِحتفال لجريدة الشرق الأوسط بمناسبة عيدها العاشر. يومها، كان هيلي من أوائل الواصلين إلى قاعة الحفل، ودار بيننا على كؤوس بيرة كثيرة حوار مثير ومجامل عن شؤون الإمبراطورية البريطانية. فقلت له بجرأة المنصب والسكران أني لم أرَ أي فرق بين حزبه (العمال) وبين حزب (المحافظين) عندما كانت الأمور تتعلق بالسياسة البريطانية الخارجية. فالحزبان اِستعماريان بامتياز لم تهمهما المسائل الإنسانية، ولا الأخلاقية، ولا قضية

فلسطين. كان هيلي ربع مخمور، لكن شرساً في دفاعه عن حزب العمال، وعنيداً في تمييز سياسة حزبه عن سياسة حزب المحافظين. فأصرّ أمامي على صدقية نضال حزبه في خدمة الشعب والقضايا الإنسانية أينما كانت. ولفتَ نظري إلى أنه كان أول مَن باشر بتفكيك الكثير من القواعد العسكرية البريطانية حول العالم عندما كان وزيراً للدفاع في السبيعينيات. لكن من سوء حظه أنه ذكر قاعدة "دياغو غارسيا" في المحيط الهندي. فقمتُ بوجهه قيامة المؤمن على الكافر، وذكّرته بالفظائع التي اِرتكبها البريطانيون في الجزيرة، وكيف أفرغوا سكانها عنوة ضد القانون الدولي. عوّضوا عليهم بقشور البصل والتوم، ورحّلوهم إلى جزيرتي "موريشوس" و"سيشل" في المحيط الهندي بين 1968م و1973م. وهكذا حوّلوا "دياغو غارسيا" إلى قاعدة عسكرية قبل أن "يقايضها" هو شخصياً (هيلي) مع الأميركيين لقاء تفاهمات عسكرية مشتركة. وما زالت هذه الترتيبات قائمة إلى اليوم رغم أحكام محكمة العدل الدولية ضد الإنجليز والأميركيين معاً.... وهل يحترم الأميركيون والبريطانيون معاناة الشعوب وأحكام محكمة العدل؟ لقد قضوا على ذكريات شعب عريق وتاريخ طويل كما قضوا على أحلام بقية سكان الجزر في العالم. أمر لم يكن غريباً على الإنجليز أينما حلّوا واِحتلوا. كانوا يأخذون ما ليس لهم (كفلسطين) ويعطونه لمن لا يستأهله (كالصهاينة)! كلامي هذا (على وقع الكحول) لم يُعجب هيلي، فأنهى دردشته معي ووجد طريقه إلى الحمّام. كان الحفل رائعاً، والحضور بمعظمهم كانوا من الجيل العربي القديم الذي "ناضل" مع الإنكليز ضد العثمانيين....

فضيحة على سفينة

على سطح "المانش" الهادئ، كانت إجراءات الجوازات يومئذ تتم على متن السفينة نفسها أثناء الإبحار. كانت السلطات البريطانية من خلال ذلك الإجراء تحول دون "تكدس" المسافرين عند وصولهم إلى البرّ البريطاني في "دوفر". الأهم، وهو الأساس، كانت تجنّب المسافرين أي تأخير عن الإلتحاق بالقطار المنتظر على البرّ البريطاني لمواصلة الرحلة إلى لندن. ومع أول فوج من الركاب عند الجوازات، وقفتُ في الطابور بإنتظار البدء بإجراءات الدخول. حاولتُ قدر الإمكان إخفاء تعرقي ورعشتي وحالتي المرتبكة. وما إن وصلت إلى شباك الأختام، حتى إكتشف مأمور الجوازات أن رعشتي بعمر الشباب لم تكن مُبررة، وتعرقي تحت أجهزة المكيف لم يكن مفهوماً، وخجلي كان مريباً وفاضحاً. كنتُ مضطرباً جداً وخائفاً من عاقبة إفتضاح "الغراء" بين صفحات الباسبور. كان منظري يوشي "بجريمتي" على طريقة "كاد المريب"! هنا، ظهر عليّ طيف أرسين لوبين مرّة أخرى، لكن من خلال روايته (الهارب)، وهي عن رجل تسلّل إلى متن سفينة عبر المحيط الأطلسي. حشر نفسه بين ركاب الدرجة الأولى، ورقص معهم وحاول التخفّي بينهم من رجال الأمن وطاقم السفينة قبل القبض عليه. ومع أن التشبيه بيني وبين بطل رواية أرسين لوبين بعيد، إلا أن كلينا كان يحاول الإحتيال والهروب والتخفّي على متن السفينة.

"جواز السفر من فضلك". طلب الجواز مني وهو يَستهجن منظري المرتبك وحالتي المزرية. سألني إن كنتُ بخير، ثم تناول الباسبور مني وإستفسر عن سبب زيارتي ومدة إقامتي؟ فقلت له أني أرغب ببضعة أسابيع لغرض السياحة. نطقتها سريعة عابرة دون أن أنظر إلى عينيه. لكنه عاود السؤال: "هل قلت بضعة أسابيع؟". أراد التأكد أنه لم يخطئ سماعها. "نعم"، أكدتها له، فإنتقل إلى السؤال التالي: "كم

من المال معك، وأين تنوي الإقامة؟" سألني بطريقة أوحتْ أن كل شيء كان يمضي في الإتجاه الصحيح.. أخبرته أني سأقيم مع صديق في لندن، وأن لدي شيك من والدي بقيمة 50 جنيهاً إسترلينياً بالإضافة إلى 8 فرنكات فرنسية كانت كل ما تبقى في غَلتي. وما إن رمقني تلك النظرة - نظرة الريبة المألوفة من تحت نظاراته، حتى "بقيّت" البحصة بنفسي قبل أن يسحبها مني! فصارحته عن "هيثرو"، وسحبتُ الجواز من يديه بخفة السحرة متظاهراً بمساعدته على إيجاد صفحة ختم المطار. وهكذا، "فركتُ" الصفحة "الملغومة" عن لصقها، وأظهرتُ الختم بوجهه كما لو كنتُ أرفع المسؤولية عن عاتقي. نظر إلى الختم بإستهجان وإستغرب كيف لم ينتبه إليه بنفسه! لكن سرعان ما إستدرك أن شيئاً ما كان "ملعوباً"، ودار وجهه نحوي عابساً ونظر إلي نظرة "يا ملعون الوالدين"، وأطلق كلمة السرّ الشهيرة وطلب مني أن أستريح قليلاً. فجأة، وبسرعة البرق إنتقل فكري ليسترجع صور "هيثرو" وسيناريو التوقيف وأطنان الأسئلة وعشرات الإستمارات إلخ. فهمست بسرّي نادماً وموبخاً: "ما الذي فعلته يا ولد بنفسك هذه المرّة؟". من الواضح أن الإعتماد على كلام "يهوه" أثناء قيلولة "بيغال" كان خطأ جسيماً!

وعلى ذلك المقعد بجانب مأمور الجوازات، بدا الزمن كأنه توقف إلى الأبد! فرغم الحركة والضوضاء من حولي، تحرّك الهدوء بسرعة وصرخ الصمت عالياً ووقعتُ فريسةً للأوهام. ولوهلة، تصورتُ أن الأرض توقفت عن الدوران فقط لتهزأ بي وتسخر مني. لم أكن أعرف ماذا كان ينتظرني على عتبة القدر! ولما رمتْ السفينة مرساتها في مرفأ "دوفر"، نقلوني إلى غرفة إنفرادية في مركز التوقيف على البر البريطاني وتركوني فيها لإستكمل خواطري وأعزّي نفسي. وكما في الأفلام، عدت فجأة إلى الواقع مع دخول صبية شقراء عليّ. لم تكن

ترتدي زيّاً رسمياً، ولا قبعة من أي نوع. كانت بشوشة ومفعمة بالأنوثة والحيوية. وبعد تحية هامسة، أشارت عليّ أن أتبعها. وأي أحمق في العالم يرفض طلب حسناء اللحاق بها بين ممرات ضيقة؟ وأثناء السير معها، دارت نحوي وقالت: "نريد "*Affidavit*" منك عن سبب إبعادك من هيثرو قبل أن نعيدك إلى فرنسا". جملة سريعة قالتها عابرة وهي تقودني بِاتجاه مكاتب الهجرة. ومع أني فهمت جيداً المقصود من عبارة "إعادتي إلى فرنسا"، لكنني يومها لم أفهم معنى المصطلح التقني الذي ذكرته بالإنجليزية "*Affidavit*"....

وفي أحد المكاتب الصغيرة، أجلستني على كرسي يشبه كراسي الحلاقين في بلادنا. وقالت بروية وهدوء: "لدينا ما يدعو للاِعتقاد أنك تنوي البقاء في بريطانيا لأغراض العمل وليس للسياحة، ثم إن ما تحمله من نقود لا يكفيك حتى لتجاوز محطة مترو واحدة في لندن، ناهيك عن إقامة بضعة أسابيع بحالها. أما مبلغ والدك، فلا ضمانة أن له ملاءة أصلاً، دعك من أنه سيستغرق شهراً بطوله قبل أن يُحرر ويصرف. ولهذه الأسباب مجتمعة سنعيدك إلى فرنسا فور إكمال إفادتك وتسجيل أوراقك". عندها فقط، فهمت أن مصطلح "*Affidavit*" يعني "إفادة وقائع"، وهو مصطلح قانوني بِامتياز، وقد لازمني فيما بعد طيلة حياتي! ومن سؤالهم لي عن تفاصيل الواقعة في "هيثرو"، تأكدتُ أن رقم ملفي على جواز السفر لم يفدهم بِاسترجاع الوقائع فوراً. كانت سلطات الحدود في "دوفر" بحاجة إلى بعض الوقت للحصول على نسخة ملفي من دائرة الهجرة في مطار هيثرو ...

واِستكمالاً لتلك الدراما، أوضحتْ لي المسؤولة البريطانية أن بِاستطاعتي اِستئناف قضيتي وطلب إعادة النظر بقرار ترحيلي. لكنها - وعلى طريقة العصا والجزرة - أردفتْ لتنبّهني أنه في حال قررتُ

الإستئناف ضد قرارهم، فإن السلطات ستبقيني موقوفاً في "دوفر" ريثما يصدر القرار النهائي. وسارعتْ لتحذرني، بما يشبه دفعي بإتجاه عدم المضي قدماً بإستئناف القرار، أن عملية التحقيق معي وتقييم حالتي قد تطول وتمتد من أسبوعين إلى ثلاثة أشهر. تلك، كانت العصا. أما الجزرة، فعبّرتْ عنها بأن أكدتْ لي أن عدم إعتراضي على قرار الترحيل يضمن لي معاودة التقدم للزيارة مستقبلاً. وذلك يكون بتأشيرة دخول جديدة من خلال إستئناف القرار بالمراسلة مع وزارة الداخلية البريطانية في لندن. وبمعنى آخر، فإن إستئنافي على قرار الترحيل أثناء توقيفي كان سيسُقط عني حق الدخول إلى بريطانيا نهائياً فيما لو جاءت نتيجته ضدي.

كان من البديهي أن أميل إلى الخيار الأسهل والأسرع، أي تجنب التوقيف، واللجوء إلى مراسلة الداخلية البريطانية من بلد آخر. وما إن أخبرتها بقراري المغادرة، حتى تناولت مني تذكرة العودة إلى باريس فوراً وقادتني من جديد إلى مكاتب الهجرة على السفينة، فأكملتْ إجراءات ورقية كثيرة وطلبتُ توقيعي عليها. ولما خلصتْ، سلّمتني نسخة منها، فضلاً عن إرشادات مُسهبة حول طرق الإتصال بالداخلية البريطانية. عندها، أطلقتني حراً وتمنتْ لي التوفيق بإبتسامة شقية على الطريقة الإنجليزية، وأخبرتني أنها ستمرّر باسبوري إلى رجال أمن الباخرة. وهكذا، عدتُ إلى مدينة "كاليه" الفرنسية مع ساعات الصباح الأولى من اليوم التالي، وكنتُ أعرف سلفاً أين أتوجه لإستلام الجواز. كانت تلك المرّة الثانية خلال 48 ساعة التي أُطرد فيها من بلاد الإنجليز ليستقبلني الفرنسيون بسعة صدر وبشاشة عريضة وبـ"اللغة الفرنسية"! الفارق الوحيد تلك المرّة، أن الإنجليز ختموا عبارة "مرفوض" على تأشيرتي بشكل لا لبس فيه.

غاضب ومنبوذ

وكالمرّة الأولى، شعرتُ من الترحيل الثاني بالحرج الشديد والإهانة المُذلّة. فنذرتُ أن "أنتقم" يوماً لنفسي من البريطانيين شرّ اِنتقام. وكالمرّة الأولى أيضاً على الأراضي الفرنسية، منحني الفرنسيون ثلاثة أشهر إقامة بدون تعجب أو اِستفسار، وكأنهم كانوا فعلاً "يُمرّكون" على الإنجليز أو يكايدونهم! في تلك الأيام، لم يكن لدي أي فكرة فلسفية عن القدر و"المكتوب"، إلا أني كنتُ أخشى أن يجبرني أحدهما على العودة إلى القاهرة مكسور الخاطر وخالي الوفاض. لذلك، عدتُ من محطة "غار دي نورد" مباشرة إلى "بيغال" وبدأتُ أخطط لفصل آخر من أول وجديد. وبِانتظار توافق الخواطر مع ترتيب الأماني، قضيتُ الوقت هائماً على وجهي بلا مال ولا زاد ولا رفيق. كنتُ في وحدتي أتكأ على خبرتي في "الشحاذة" والإختلاط مع السكارى والتائهين والمنبوذين. لكن ظروفي في باريس وحيداً، رغم صعوبتها، كانت أفضل ألف مرّة لي من ظروف القاهرة مع العائلة، على رخائها وبطرها. كان لا بد من التفكير بشيء إيجابي يُبقيني يقظاً في باريس ومتأملاً من يوم لآخر. إلا أني - على ما بدا - لم أتعلّم الدرس جيداً، إذ قررتُ معاودة المحاولة مع البريطانيين، للمرة الثالثة، من خلال الإعتراض على قرار الترحيل عن طريق سفارتهم في باريس!

أيامي الأولى بعد محاولتي الثانية للدخول إلى لندن قضيتها تعيساً متشرداً في شوارع باريس. وكالغجر المتمرد، كنتُ أحياناً أتشاجر مع المغاربة والمارتينيكيين والسنغاليين على أتفه الأشياء: على تنظيف زجاج السيارات عند إشارات المرور، على أفضلية الإستجداء والتسوّل في أماكن معينة، على أسبقية اِصطياد المحسنين، أو حتى على بعض المقاعد القريبة من المداخل الرئيسية للحدائق العامة. كنتُ أتجوّل بحرّية تامة في المدينة خلال النهار، وأقضي الليل مأسوراً في

محطات المترو، أو بجانبها، أو تحت الجسور مع المشردين والسكارى والبؤساء. "سان ميشيل" و"أوديون" كانتا بالنسبة لي أفضل أماكن "التسوّل" للمال والسجائر. وكانت محطة "غار دي نورد" أهمها للأكل الصحي والفاكهة؛ كنت أقصدها، على الأقل، مرّة واحدة في بحر الأسبوع حيث كنتُ أركّز فيها بشكل خاص على العجائز اللواتي كن يحملن سلال الخضار والفاكهة والمونة. وعلى العكس من ذلك، كان شارع "الشانزليزيه" يمثل موقعاً دسماً "للتوسل الفاخر" في عطلة نهاية الأسبوع. كنتُ "أبْري" حذاءي على أرصفته ذهاباً وإياباً، وأتجوّل فيه "كتفاً بكتف" مع أفراد من عائلات حكام العرب، أو مشاهير كانوا يقضون أوقاتهم كالحساسين، "ينطنطون" بين المقاهي الفخمة ويتدحرجون على محلات الماركات العريقة. يومها كنتُ واثقاً أن أحداً منهم لن "ينكشني" بلمحة، أو يتعرّف عليّ بملمح، أو يهمه أمري. كنتُ جريئاً بـ"الشحاذة" (وقحاً)، وخبيراً بأساليبها، وبليغاً بالتعبير عنها. تارة كنتُ اِستجدي المارة بالعربية الفصحى، وطوراً بالإنجليزية على الطريقة الأميركية، وأحياناً باللهجة المصرية! كنتُ أتعمّد الإبتعاد عن اللهجة اللبنانية تجنباً للإحراج المتبادل، خاصة أن اللبنانيين كانوا يطوفون معاً أحزاباً وقبائل وعشائر كرفوف السردين المختلفة.

***

في تلك الأيام كانت أنباء الغزو السوري لصالح اليمين اللبناني على ألسنة كل العرب ومنتشرة بين مقاهي الشانزليزيه. وكأن ذلك وحده لم يكن مثيراً بما فيه الكفاية، فقد أُغتيل آنذاك السفير الأميركي في بيروت فرانسيس ميلوي جونيور (16 حزيران 1976م) ما زاد الطين بلة، وسرّع بتهجير المزيد من اللبنانيين بِاتجاه ليماسول والقاهرة وباريس. وفي الأثناء أيضاً خطف مسلحون فلسطينيون طائرة تابعة لشركة

الخطوط الجوية الفرنسية كانت في طريقها من تل أبيب إلى باريس، فحوّلوا مسارها إلى مطار عنتيبي في أوغندا. كانت الرحلة تقل 250 راكباً، بالإضافة إلى أفراد الطاقم. يومها أرسلتْ إسرائيل قوات كوماندوز إلى المطار لتحرير الرهائن في عملية معقدة، وكان من بين قتلى الكوماندوز شقيق رئيس الوزراء الإسرائيلي بنيامين نتنياهو. وأغلب الظن أن مقتله أجّج في وجدان نتنياهو مزيداً من الحقد والكره تجاه الفلسطينيين وكل مَن يدعمهم. كانت أجواء السياح العرب في باريس عامة، والجالية اللبنانية خصوصاً، مشحونة بالإضطراب والقلق من تفاقم "اِستفزاز" إسرائيل وعدوانها على لبنان وآثاره على المنطقة.

"كزدورة" الشانزليزيه كانت مربحة دوماً. كنتُ أحصل خلالها على ما يزيد عن 50 فرنكاً في المرّة الواحدة. وفي إحدى المرّات ناولتني سيدة عربية في عقدها الخامس ورقة 100 فرنك مرّة واحدة. كانت "جولاتي" اليومية في شوارع باريس حبلى بالمفاجآت، وياما شهدتُ أشياءً ممنوعة، أو مرعبة، أو مثيرة للقرف ومُشْمَئِزّة! ومع أن باريس دائماً جميلة ورومانسية، خاصة للميسورين والعشّاق، إلا أني كنتُ وحيداً في شوارعها ومفلساً، فكان نهارها طويلاً عليّ وحاراً، ومهما تنقلت بين نوافيرها آنذاك، كانت حظوظي معدومة. إذ إن بلدية باريس كانت تقفل صنابير البرك والنوافير لدواعي النظافة ومنع اللعب بالماء بسبب الإكتظاظ. كانت أجواء المدينة في تلك الفترة تشع بالفرفشة والبهجة بسبب المشاهدات الحيّة للألعاب الأولمبية الصيفية التي كانت قد بدأت توّها في مونتريال. يومها، بلغتْ الحرارة في وسط باريس 35 درجة مئوية، وكانت غير مسبوقة على صعيد أوروبا الغربية كلها. وبعكس بلادنا الحارة أصلاً، فإن شقق أوروبا وبيوتها في تلك الأيام لم تكن مُكيفة، ولم تتوفر المُكيفات في فرنسا إلا في الشركات وأبراج

المكاتب والأبنية العصرية. ولا عجب أننا كنا نسمع يومياً عن عشرات الضحايا بسبب موجة الحرّ والغليان، مما أدى إلى نقص خطير في المياه وإعلان حالة الطوارئ في بعض البلدات والقرى. ورغم اللهيب الإستثنائي وموجة الحرّ، كان الإحتفال باليوم الوطني، 14 تموز، ذكرى اِقتحام الباستيل (1789م)، ملفتاً جداً، ليس فقط لأنه أقدم وأكبر عرض عسكري في أوروبا كافة، وكنتُ أحضره لأول مرّة في حياتي، إنما لأن جماهير المشاهدين على أطيافهم كانوا شبه عراة بسبب موجة الحرّ القاتل.

حياة الموتى

اِنتهتْ الإحتفالات واِستمر الحرّ، وكذلك تواصلتْ المواجهات اللئيمة بيني وبين الدنيا في شوارع باريس. لم تكن المعركة من اِختياري، ولا طرق التصدّي لها كانت مشيئتي! كان بِاستطاعتي وضع حدّ للمعاناة بلحظة إرادة، لكني آثرت الذلّ والمخاطرة في باريس على العيش الكريم والملل في مصر. وهكذا، وجدتْ نفسي مضطراً للبحث عن عمل وقور بعيداً عن المتشردين والتائهين وأصحاب السوء. لكن ما السبيل للعمل مع فرنسيين لا يتحدثون إلا الفرنسية؟ ولعمري، أنك تجد الفرنسيين والإنجليز مسطرةً واحدة في التعالي والغرور الثقافي والعنجهية العرقية. كلاهما يرفضان التحدث بلغة الآخر، حتى وإن كان منهم مَن يتقنها ويجيدها. لم تكن هناك أي فائدة مرجوة من البحث عن عمل، أو حتى الذهاب إلى المكتبات لقضاء بعض الوقت فيها! فكل شيء على رفوفها كان باللغة الفرنسية بما في ذلك دلائل السياحة والأطالس والأناجيل!

وعوضاً عن ذلك، فكّرت في البحث عن الحياة في المقابر، وسارعت إلى "نفخ" روحي ورفع معنوياتي من خلال الأموات. لا لشيء سوى

لأؤكد على آدميتي وحرارة نبضي وحيويتي. فتوجهتُ إلى جبّانة "مونبارناس"، وكانت أقرب المقابر إلى وسط باريس. كانت لي مع أمواتها المشاهير شؤون وشجون؛ فبين مراقدها الفخمة، قابلتُ أشباح الفلاسفة والفنانين المشهورين، ورأيتُ شواهد قبور أبطال وشعراء وسياسيين فرنسيين. ومع أني يومها لم أكن أعرف أحداً منهم بعد، فقد شعرتُ وسط قبورهم بنبض الحياة، ومرّ بخاطري معهم شريط حياتي كلها. هناك تحت الشجر، دقّ جرس في رأسي فجأة، وولعت شعلة في بصيرتي، وأدركتُ حظي السعيد. عندها فقط تجسدتْ لي إرادة العيش وشعرتُ أن خيبة أملي من البريطانيين ليست نهاية العالم. كانت مجرد اِنتكاسة عابرة وُجب التغلب عليها وتجاوزها. ولولا "المكتوب" الذي دفعني إلى زيارة المقبرة في المقام الأول، لكنتُ تبعت قدري في شوارع باريس على آفات العيش مع الزعران وأصحاب السوء!

صحافي بالصدفة

وعلى صدى السكون بين الأضرحة، أدركتُ أن الأمور لم تكن على ذلك الحدّ من التردي والتعاسة! ومَن يدري، فلربما جاءتني شحنة التفاؤل من العدم، أو من قديس مقبور سمع آهاتي، فتضرّع من أجلي وعقد مع الله صفقة لصالحي. إذ في اليوم التالي مباشرة، حصلتُ على وظيفة مسائية في واحدة من أشهر المجلات العربية الأسبوعية آنذاك. ومن لطف القدر عليّ أن المجلة كانت تأخذ من شارع "ماربوف"، المتفرّع مباشرة من الشانزليزيه، مقراً مرموقاً لصدورها. كان واضحاً أن حظي يومها وُلد بأعجوبة من رحم الأموات، فكان أقوى من الصخر وأمتن من الصوّان. ورغم أن وظيفتي الجديدة كانت بمنصب "مرمطون" (فرّاش) لهيئة التحرير ولرئيسها وضيوف المجلة من شخصيات، لكن على تواضعها، كانت كافية لحلّ مشكلتي

مع الأزقة والشوارع! المجلة يومئذ كانت تموّل من الغلاف إلى الغلاف من قِبل صدام حسين. كانت بمثابة بوقه الإعلامي، ليس فقط في فرنسا، بل أيضاً على مستوى أوروبا الغربية بغرض تعزيز وجهات نظره في منافسة البعث السوري بقيادة غريمه حافظ الأسد. وعلى الرغم من المبالغ الفلكية التي كان أصحاب المجلة اللبنانيون يتلقونها من صدام شهرياً، إلا أنهم، على الطريقة اللبنانية، لم يدرجوا إسمي في كشوف الرواتب، ولجأوا، بدلاً عن ذلك، إلى تسديد أجرتي بصورة يومية بما يشبه "خرجية" المياوم!.

وظيفتي الجديدة في حقل الإعلام كانت بمثابة "كارما" من السماء. فقد أصابتْ ثلاثة عصافير بحجر واحد: عملاً شغل بالي عن حالي، وسريراً حضن نعاسي واِحتضن جسدي، وسكة مضمونة على درب الإعلام والصحافة. ومع أنها كانت "وظيفة مرموقة" قياساً إلى ظروفي في ذلك الوقت، غير أنني لم أرغب بأدائها طويلاً في فرنسا، لأن عيني اليمنى كانت ما تزال مركزة على لندن. وهكذا، كنتُ أقضي أيام النهار بمتابعة الإستئناف مع السفارة البريطانية، والليالي، كنتُ أسهرها بإعداد الشاي والقهوة لمحرري النوبة الليلية في المجلة. وعلى حرارة شغفي بمتابعة شؤون المنطقة وعشقي للبحث والكتابة، نُقلت بعد فترة قصيرة إلى قسم المراجعة والتصحيح. وبغضون أسابيع قليلة، تمكنتُ من نشر خاطرتي الفلسفية الأولى "من شباك الطائرة"، بالإضافة إلى تحقيق صحفي كان الأول لي على الإطلاق. وكم كانت فرحتي عظيمة عندما أُختير التحقيق موضوعاً لغلاف المجلة من أول ضربة! إلا أن مدير التحرير يومها (لبناني أيضاً) شاء أن يُذيّل التحقيق باسمه ويتألق به من كيسي وعلى حسابي! لكن كان يكفيني ضمراً أن إعلامياً مرموقاً مثله "اِستعار" مادته من "مرمطون" مثلي! لم أُعاتبه، ولم أشتكِ عليه، ولم أفضحه. أغلب الظن أنه كان يومها كسولاً،

فاستسهل الأمر بوجود مادة جاهزة وشيقة. وكما كنتُ كتوماً نحوه، كان هو دمثاً تجاهي، ومتعاطفاً مع ظروفي، وداعماً لي مع الإدارة. بيد أن المسألة نقرتْ في ذهني وحفرتْ في ذاكرتي وأبتْ إلا أن تبقى حاضرة ناضرة رغم مرور السنين. أما مادة التحقيق نفسها، فكانت عن دور "الإسبرانتو" كلغة وصل وإتصال للمفكرين بوجه أجهزة الرقابة لدى الشرق والغرب معاً. ولما كان الشرق الأوسط أحد المسارح الرئيسية في الحرب الباردة آنذاك، فقد كانت "الإسبرانتو" تُستعمل موارِبة بين النخب وبين بعض الشيوعيين العرب، ما جعل مدير التحرير يومها يرى في نشر التقرير فوائد كثيرة و"غمزات" سياسية جمّة. أما دواعي إختياري للإسبرانتو في المقام الأول، فكان بسبب دور عمي البارز في الترويج لها على مستوى الشرق الأوسط، وكان الناطق الرسمي عن شؤونها في المحافل الثقافية العربية. إلا أن أهم موضوع غلاف إشتغلتُ على مراجعته وألهمني في ذلك الوقت كان، بلا شك، عن وفاة الزعيم الصيني، ماو. فسيرته مثيرة وملهمة، وقد مثّلت قدوة لزعماء وثوار العالم الثالث، بل حتى لشاب شغوف من لبنان مثلي. ويكفي أنه وحده كان يدير شؤون قرابة 950 مليون نسمة، أي أكثر من 20% من سكان الأرض آنذاك، فكان يُطعمهم ويداويهم ويُشغّلهم، في حين أن بضعة ملايين من السكان في دول أخرى كانت تعاني من البطالة والجوع رغم قادتها الأشاوس وجهابذة منظمة الغذاء العالمية. كان "ماو" زعيماً سياسياً وقائداً فذاً إستطاع أن يؤسسس الصين الحديثة ويمكنّها من النهج المستدام لمَن جاء بعده. ويُعدّ "ماو" اليوم أحد أروع أقطاب الإلهام للإنسان على مستوى الكوكب رغم أنف الغرب، الذي نادراً ما يشير إليه ويستشهد به أو يقدره!

طريق مسدود

بإقتراب نهاية أيلول 1976م، وصل التوجّس معي إلى حدّ الإرتباك وقارب حدود الإحباط واليأس. لم أعد أفرّق بين معنى الوجود ومعاني البقاء. قررتُ ترك المجلة دون هدف واضح أو بديل محدد. فضاعتْ بوصلتي بمعمعة التناقض ولم أعد أعرف كيف إتجه وإلى أين إرتحل، خاصة أني لم أسمع شيئاً عن قضيتي من الإنجليز. كنتُ في المجلة قد سئمت سماع أنباء الحرب القادمة من لبنان كل يوم، ومللت من تفاصيل فكّ الإرتباط بين مصر وإسرائيل، وأخبار إشتباكات منظمة التحرير في شوارع بيروت، وإنخراطها بالإرهاب العالمي. يومها، أيضاً، برزتْ عناوين الصحف في كل مكان تتحدث عن عمليات "الألوية الحمراء"، و"الجيش الجمهوري الأيرلندي"، و"إيتا" المنشقة عن الحزب القومي الباسكي. العالم في تلك الأيام كان مشتعلاً بنيران الفوضى، وينزلق ككرة الثلج بإتجاه الجحيم. وهكذا، قررتُ العودة من جديد إلى حديقة "بيغال" لأخذ قيلولة أبحث في حلمها عن مخرج مناسب. قيلولة علّها تمنحني حلماً آخر مع "يهوه"، أو تعطيني بصيص أمل للخروج من نفق الدوران على بيدر العبث. المجلة تمنّت عليّ البقاء والتريث قليلاً ووعدت بتسوية إقامتي بصورة دائمة في الوقت المناسب. ورغم أني كنت أجهل ما أريد، كنتُ أعرف يقيناً أني لم أرد الإستمرار في باريس. آفاق العيش فيها كانت محدودة بحدود اللغة ومحصورة بسياسة مجلة! كان أمراً مفرحاً ولفتة عظيمة من أصحاب المجلة أنهم تفهموا ظروفي ورحبوا بعودتي في حال قررت العدول عن قراري..

فجأة، صار أسوأ خياراتي أفضلها. عضضتُ على لساني وقررتُ العودة إلى القاهرة، لا سيما أن السفارة البريطانية قد حسمت الأمر وأعلمتني بعدم صلاحيتها متابعة قضيتي من باريس. كان عليّ - حسب تعليماتها - متابعة المسألة، إما من خلال السفارة البريطانية في

القاهرة حيث أسكن، أو مع السفارة البريطانية في بيروت حيث ملفي الأساس.. السفارة البريطانية في باريس لم تكتفِ بإسداء تلك "النصيحة" فحسب، بل ختمتْ على باسبوري أيضاً عبارة "شوهد في السفارة البريطانية في باريس بتاريخ كذا وكذا". وهكذا، كان قراري بالعودة إلى القاهرة اِعترافاً صريحاً بفشلي الذريع في الدخول إلى بريطانيا، أو في التأسيس لأي خطوة إيجابية بعد ثلاث سنوات من محاولات فاشلة كان سجن بلغاريا أبرز معالمها. عدت إلى مصر مُطأطِئ الرأس مهزوماً على طريقة "تيتي تيتي كما رحتي، جيتي". أهلي لم يشمتوا بي ولم يوبّخوني، لكن رمقوني من نظرات اللوم والغيظ ما جعل الشماتة مجاملة. غِبتُ عن القاهرة نحو أربعة أشهر كاملة وعدت إليها لألملم شملي وأضمد جروحي وأعاود الإنخراط في الحياة الإجتماعية من جديد..

وعادت حليمةّ!

مصر في تلك الأيام، أواخر أيلول، كانت ما تزال حارة كما تركتها في أواخر أيار. سياسياً، لم تكن بأفضل حالاتها بإدارة السادات حسب الدعايات الدولية. لكن بعيداً عن الإعلام الغربي، وبالسرّ عن العالم العربي، كان السادات، قبل ذلك الوقت بسنة، قد ناقش بكتمان شديد خيارات مفاعيل نصر حرب 1973م مع صديقه تشاوتشيسكو. كان الديكتاتور الروماني يومها صديقاً أيضاً لرئيس الوزراء الإسرائيلي، مناحيم بيغن، وحليفاً مخلصاً للشعب اليهودي. وقد تسرّب فيما بعد أنه مرّر للسادات طلب بيغن للسلام، واِستطاع إقناعه بالإستجابة له وبضرورة إحداث "صدمة نفسية" تهز العالم العربي. كان تشاوتشيسكو يرى ضرورةً ماسة لتغيير الذهنية العربية تجاه إسرائيل وجعلها أقل عداء وأكثر تقبلاً للسلام. وبغير ذلك، فإن ثمار النصر

المصري، ورغبة بيغن في السلام، والأجواء العالمية المؤاتية، لم تكن لتجدي نفعاً إذا ما اِستمرت الكراهية بين اليهود والعرب، أو إذا ما ضاعت الفرصة بخروج بيغن من الحياة السياسية لسبب أو لآخر. إلا أن السادات لم يكن بحاجة إلى الكثير من الإقناع، أصلاً، لتصوير نفسه بطلاً قومياً وقائداً شجاعاً ودبلوماسياً نبيلاً على المسرح الدولي؛ الرجل كان نرجسياً حتى النخاع، وكان أساساً يبحث عن طريقة يسمو فيها على محيطه لتخلّصه من عواقب حرب الإستنزاف التي كانت عبئاً ثقيلاً على مصر منذ النكبة.

بغضون أسبوع واحد على عودتي من باريس، عادت حليمة مرّة أخرى إلى عادتها القديمة. فوجدتُ نفسي أتدحرج إلى عالم الصخب والسهر واِنخرط من جديد برفقة السوء على ألحان الضجر والإحباط. إلا أن مزاجي في تلك الأيام كان مُضرباً عن التفاعل، لم تُفرحه مسراتٌ ولم تعكره إخفاقاتٌ. لم يكن لدي هوس بشيء ولا هواية. كنتُ فقط مستاءً من البقاء بجانب الأهل مع اِستمرار الملل واِنعدام التغيير! فحتى زيارة لبنان، وإن بشكل خاطف من باب "شمّ الهواء" وتغيير الجو، كانت غير واردة عملياً بسبب اِحتدام المعارك والحرب الأهلية. كان الطريق السالك الوحيد إلى لبنان عبر بحر الإسكندرية، ومنها إلى ميناء "جونية" شرق بيروت من خلال مرفأ ليماسول في قبرص. هناك في جونية كانت "الكتائب" اللبنانية تسيطر على كامل المنطقة الشرقية، ما كان يجنّبها أي اِشتباك مع قوى اليسار أو الفلسطينيين. لكن حتى ذلك الخيار (الآمن نسبياً)، كان لفة طويلة مدوخة ومحفوفة بالمخاطر بالنظر إلى تقلّب ظروف الحرب بين ساعة وأخرى. كانت تلك الطريق البحرية بمثابة "الحلّ الأخير"، أو "حبل الخلاص" بالنسبة إلى المستميتين لزيارة لبنان أو الخروج منه. وأمام تلك

التحديات، لم يكن لدي أي فكرة عما كان يجب فعله، لكني كنتُ مستعداً لإختبار أي شيء.

الأهل في تلك الأيام كانوا بعيدين كل البعد عن أوجاع الحرب المباشرة. وحتى أقاربنا وأحبتنا كانوا قد تركوا بيروت تدرجاً بإتجاهات مختلفة. منهم مَن اِنعزل مرعوباً في ضيعته، ومنهم مَن ذهب زائراً إلى سوريا ومصر، ومنهم مَن اِرتحل نازحاً إلى قبرص أو لندن أو باريس. كانت العائلة ما تزال تقضي أوقات اِستجمامها خلال النهار بنادي هليوبوليس في مصر الجديدة، أو بنادي الجيزة وسط البلد. ومع غروب كل يوم تقريباً، كان التنزه نشاطاً روتينياً للعائلة والأصدقاء بين المقاهي والمحلات والمسارح. والدتي كانت "تعيش الدور" بتفاصيله وتتقمّص حياة المغتربين الميسورين مع سائق عند الطلب، ومساعِدة منزلية، فضلاً عن بوّاب وجيناتي. وبينما كان الكثيرون في الوطن يعيشون بالملاجئ بدون ماء وكهرباء ودواء، كانت إقامتنا في القاهرة بمثابة القِبلة لكثير من الذين تمكنوا من الهرب، سواء بالبرّ عبر دمشق، أو في البحر عن طريق قبرص. الأمر لم يستغرق معي وقتاً طويلاً للإندماج مع الجميع من جديد. فعوّضت عن ضجري بأن رميتُ نفسي في أحضان الزوّار اللبنانيين "الهاربين" من جحيم الحرب، والذين كانوا يبحثون لأولادهم عن حياة آمنة ومنتظمة في القاهرة. تلك كانت فترة اِستثنائية غريبة لأنني كنت حقيقة بين أهلي وأقاربي، لكن في الغربة.

اِنتفاضة الخبز

مع اِبتداء فصل الخريف، كانت سنتي الأخيرة في مدرسة "فيكتوريا" بمصر الجديدة قد بدأت بدوني. فبالنسبة لي، كانت الدروس في المدرسة مهزلة تربوية وهدراً لأموال والدي ومضيعة لوقتي! وعلى

الرغم من أنها كانت مدرسة خاصة تفتخر بأدائها أمام المدارس الحكومية المصرية، كان منهجها الدراسي بالياً، وقد سبق أن درسته في صفوف الثانوية الأولى في لبنان. ثم إن المعيار الأكاديمي الذي وضعه السادات في سنوات حكمه الأولى لم يكن معاصراً ولا مثيراً للإعجاب، على عكس السنوات اللاحقة بعهد نائبه مبارك. وفي خريف ذلك العام تحديداً كانت أخبار لبنان مخيفة جداً، وقد تجاوزت حدود الحروب "الطبيعية" بين البشر. فصارت حرباً "حيوانية" بين مستشرسين، وأضحى الخارج من لبنان مولوداً والداخل إليه مفقوداً - حسب التعبير الشائع. كانت قصص التوقيفات الطائفية على الحواجز، والقتل العشوائي والقنص من سطوح الأبنية، شيئاً عجيباً من خارج سجلات الحضارة، إلى درجة أن اللبنانيين والفلسطينيين فاجئوا العالم بوحشيتهم وتخلفهم. لم يقتصر الأمر على المتاريس والحواجز بين المناطق المتحاربة، بل قامت مذابح رهيبة في عقر الدار عند أهل البيت الواحد، ومع الكل، وبين الكل ، كما في مجزرة "العيشية"، و"تل الزعتر"، و"الآحاد السود" التي نفذتها القوى المتقاتلة. وهكذا، اِنتهى عام 1976م على ضباب كثيف لم نعرف متى كان سيتبدد..

ولئن كان هناك شيء واحد لن أنساه أبداً عن الفترة التي قضيتها في مصر بالعموم، فاِنتفاضة "يناير 1977م" تتربع على هرم الذاكرة بلا منازع. يومها فقد المصريون عقولهم - وهم نادراً ما يفقدونها - ونزلوا كالثوار إلى الشوارع في جميع المدن الكبرى، بما في ذلك أسوان وبني سويف والمنصورة والإسكندرية. آلاف الطلاب والعمال اِقتحموا وسط القاهرة والأرياف في موجة عارمة من الغضب إزاء زيادة أسعار الخبز والغاز والسجائر والمواد الأساسية. كانوا يغلون غضباً وينفجرون غيظاً لدرجة أنهم فككوا "بانوهات" صور السادات الضخمة ومزّقوها، وحطموا السيارات وأضرموا النار في بعض مراكز الشرطة والمركبات. وهكذا، دمروا الكثير من حافلات

المترو، ونالوا من نوافذ المتاجر والمؤسسات الحكومية التي صادفوها. لم يوفروا حتى مصابيح الشوارع وأوقفوا كل مَن كان يتحرك أمامهم. كانت المظاهرات كثيفة وجاسرة لدرجة أنها بدت وكأن الفراعنة كانوا على وشك الإنضمام إليها. كنا نشهد ولادة تاريخ جديد لأن المظاهرات المخرّبة لم تكن يوماً شيئاً مألوفاً في مصر، ولا من شيم المصريين أصلا حتى أثناء الإستعباد الظالم خلال بناء الأهرامات. وكشاهد عيان بنفسي، رأيتُ البلد يمرّ بمرحلة اِنتقالية صعبة. كان ردّ فعل الناس على الغلاء عفوياً بعد أن كانت مصر قد تكبدت خسائر كثيرة وعانت طويلاً من سياسات شدّ الأحزمة خلال حرب الإستنزاف مع إسرائيل. سنون مؤلمة أدّت إلى اِرتفاع الديون والإحتقان ومستوى الفقر والبؤس. وحتى قبل اِنتفاضة الشعب، كانت مصر تعاني أصلاً من نقص حاد في المواد الأساسية وتخضع لنظام تقنين غذائي صارم، ناهيكم عن الأسعار. كانت أغلبية المصريين تكافح من أجل لقمة العيش بالحدّ الأقصى من أجورها. ولولا متانة صحن الفول واِعتدال الطقس وتدبر المصريين، لكانت المجاعة قد تجرأت عليهم كما تجرأت على غيرهم في القرن الأفريقي. إلا أن صندوق النقد والبنك الدولي سارعا لمساعدة السادات من خلال تقديم قروض طارئة مقابل إعادة هيكلة الإقتصاد وإجراء إصلاحات قاسية مؤلمة، (الوصفة المعتادة لبداية التطويع والتطبيع)!

"قم يا جحش"

عندما اقتربتُ بسيارتي من الطريق الرئيسي المؤدي إلى وسط المدينة - وكنتُ يومئذ في زيارة للإسكندرية مع والدتي وإخوتي - أدركتُ أنني كنت الأحمق الوحيد على الطريق في ذلك اليوم العاصف. فجأة بدأتْ جموع المتظاهرين تزحف نحونا من بعيد كما لو كنا أقرباء

السادات نفسه أو ثلة من أنصاره! سارعوا نحونا بهتافات سجعية مخيفة، فـ"روبكتْ" سيارتي من حِدة الصراخ والزعيق، وإرتبكتُ أنا من شدة الخوف، وتجمّدت أمّي من الذعر والحيرة. وقفتْ السيارة بأرضها بإنتظار إشارة من قائد التظاهرة أو تأشيرة من القضاء والقدر! بدأتْ جحافل المتظاهرين الغاضبين تقترب منا، وكانوا يحملون من الحجارة ما يكفي لبناء هرم رابع. كانت هتافاتهم من النوع الخلّاق الخارق تنادي بالمستحيل والإعجاز. كانت إحدى عباراتهم تطالب عبد الناصر الميت أن يقوم من قبره ليخلصهم من الموت على أيدي السادات. كانوا يصرخونها بنغمة موسيقية جميلة لم ينقصها إلا أداء أسمهان أو صوت أمّ كلثوم: عبارة مصرية سهلة ممتنعة تقول: "أووم يا وَحْش شُوف الجحش بيعمل إيه". أي قمّ يا عبد الناصر يا جبار من مرقدك، وأنظر إلى ما يفعله بنا السادات الأبله. المشهد من واجهتي الأمامية كان مرعباً، وكنتُ متأكداً أننا على وشك فقدان الإتصال بالعالم الطبيعي، أو بالأحرى، كنا على موعد أكيد مع العفاريت والموت. كل الأجهزة في بدني تشابكتْ ولم أستطع مواصلة القيادة بأي إتجاه، ولا التحدث مع اخواتي في المقعد الخلفي. بل حتى "فيتاس" القيادة ومحكم الرجوع للخلف إرتعب، هو الآخر، ولم يعد يُلبّيني. وعلى بكاء أمّي بجانبي وصراخ أخواتي خلفي، تعطلتْ حواسي كلياً وأُصبتُ بما يشبه صدمة إرتباك وشلل. لم يبق أمامي إلا الإستسلام، فحتى الأدرينالين نفسه تخلّى عني وتركني مكشوفاً بعجزي إتجاه أمّي وإخوتي، ورماني لقمة سائغة أمام المتظاهرين.

لم يكن هناك بصيص أمل لأي مخرج. كل ما أتذكره جلياً أن والدتي كانت تبكي وتردد عبارة واحدة كما لو كانت تعاد على أسطوانة مشروخة: "أُلطف يا ربّ، أُلطف يا ربّ، أُلطف يا ربّ". أخواتي خلفي كن أيضاً يصرخن "عالهِلة" (عشوائياً) بلا دعاء ولا رجاء،

وينادين على إسمي فقط (عماد، عماد، عماد) كما لو كنتُ أنا الربّ الذي كانت أمّي ترجو لطفه من المقعد الأمامي؟ لا شك أن أسوأ شعور يصيب المرء في الوجود عندما يعجز عن حماية محبيه وأهله في أحرج الأوقات قبل أن يموتوا أمامه، أو هو أمامهم! لكن بقدرة قادر طلّتْ علينا "الكارما" فجأة، ومعها القضاء والقدر، وعقدوا من أجلنا اِجتماعاً طارئاً في السيارة. فقرروا أننا نستأهل فرصة ثانية للعيش ونستحق أن تُمَدد آجالنا لمناسبة أخرى. وقد تجلّت معجزة ربّ العالمين في حقيقة أن سيارتي كانت يومها تحمل لوحة ترخيص دولية مميزة، تشبه لوحات الأمم المتحدة باللغتين العربية والإنجليزية. كانت العبارة عليها واضحة تشير أنها تابعة لـ"هيئات دولية". فكان ذلك وحده كافياً لإثارة فضول قائد التظاهرة واِهتمامه. وكالزرافة في حديقة الحيوانات، أخفض الرجل رأسه نحوي ومدّ رقبته من شباكي وبدا كأنه أراد قراءة عدّاد السيارة، أو التحرّى عن وجود سلاح فيها. دار وجهه ونظر إلى والدتي نظرة وقور واِحترام وسمعها تُتمتم عبارة "أُلطفْ يا ربّ" بلغة الفينيقيين. ثم لفّ رقبته إلى الخلف ونظر إلى أخواتي، وكن مطأطأت الرأس يبكين بخجل وخوف. منظرنا البائس على بعضنا البعض أثار شفقته أكثر مما أثار ريبته، فطرح عليّ أسئلة سريعة فَهِمَ من ردودي عليها أننا من الرعايا اللبنانيين الهاربين من حرب أهلية طاحنة، ونازحين إلى مصر على أساس قول الله "اَدخلوها بسلام آمنين". وكم كانت فرحتنا عظيمة عندما تفهّم الرجل وضعنا المسالم وسحب رقبته وأومأ إلى رجاله في الصفوف الأولى أن يفسحوا لنا طريق الأمان لننجو برقابنا...

وعلى الطريقة الإستبدادية الفرعونية، سارع أنور السادات بغضون ساعات قليلة وأمر ببطش المُحتجّين وإخماد الإنتفاضة، لكن فقط بعد أن تراجع عن بعض قرارته برفع الأسعار. وعند ذلك المفترق

التاريخي، أخذتْ مسيرة السادات بالتحوّل جدياً من الشرق إلى الغرب، وبدأ العالم الغربي، خاصة بريطانيا وكندا وفرنسا وألمانيا واليابان، يصب اِستثمارات ضخمة في مصر على توقعات أكيدة بقيام السادات بمبادرة جدّية للسلام. واِحتراساً ضد التراجع عن الخطوة السلمية، قدمت الولايات المتحدة اِلتزاماً مادياً سنوياً لمصر ربطته بخطوات النهوض بالسلام، والتطبيع مع إسرائيل..

حامض حلو

بعد بضعة أشهر عن تلك الإضطرابات الشعبية، قارب عقد والدي والعام الدراسي على الإنتهاء. أخذتْ العائلة تتحضر لمرحلة جديدة إثر اِنتهاء عمله في مصر ونقله إلى تركيا. كانت والدتي تتطلع بفرح وشغف للعودة إلى بيتها ودُنيتها في الوطن. لبنان في ذلك الوقت كان قد بدأ يهدأ نسبياً ويميل إلى كفة السلام والإستقرار بعد سنوات قاتلة من الحرب والعبث. كما أن ميليشيات المناطق والطوائف وعملاء الدول والفدائيين بدأت بتسلم تعليمات صارمة من الدول المحرّضة بضرورة إنهاء القتال. الأمر الذي أمّن إعادة فتح المطار وسهّل على اللبنانيين العودة من الشتات. كانت الأسابيع التي سبقت عودتنا إلى بيروت مليئة بالأحداث من كل جانب وعلى كل صعيد. إلا أن موت العندليب الأسمر في آخر يوم من آذار غطّى على أخبار العالم العربي والسلام في المنطقة. ومع أنه توفي في لندن، فإن شوارع القاهرة غرقت يومها بدموع المفجوعين وطنّت بندوب النساء، وهز صراخهن أحجار الأهرامات وكسر خاطر أبو الهول ورفع منسوب النيل.

في تلك الفترة، اِنشغلت والدتي بالتسوّق من العيار الثقيل! مسلحةٌ بشوق العودة إلى الوطن وجنى العمر، قامت "بغزوات" جنون إلى "خان الخليلي" و"الحسين" و"الفسطاط" لشراء مقتنيات دهرية: سجاد شرقي، وقطع زخرفية، وتذكارات عاجية وجلدية. أما والدي، فكان منهمكاً يتابع معاملاتنا ويتأكد من أن سجلات العائلة كلها كانت تسّوى رسمياً حسب الأصول، ويُصَادقُ عليها من قِبل وزارة التربية والسفارة اللبنانية والعراقية في القاهرة، فضلاً عن الخارجية المصرية. ومن جهته، كان أخي محمد يضع اللمسات الأخيرة على خياراته الأكاديمية، وعلى وشك البدء بحياته الجامعية بعيداً عن مصر

ولبنان والعائلة معاً. كان خائفاً من التجربة، لا سيما أن تركيا، التي وقع اِختياره عليها بسبب اِنتقال والدي إليها، لم تكن مثالية للدراسة الآمنة. كانت تركيا في ذلك الوقت دولة غير مستقرة سياسياً ومتأرجحة دوماً تحت حكم اِئتلاف متنافر. كانت التناقضات فيها بين اليمين واليسار والأصوليين والعسكر والطابور الخامس تنبئ بحرب أهلية وشيكة. أما أخواتي، فكن حيارى بين التطلع للرجوع إلى لبنان بفرح وحنين، وبين الحزن الشديد على فراق الأصدقاء المصريين في النادي والمدرسة. شخصياً، وكالمعتاد، لم أكن سعيداً بشيء، ولم يهمني شيئاً. كنتُ ضد قرار العائلة مغادرة مصر أصلاً، تماماً كما كنتُ ضدها ترك لبنان في المقام الأول. أما السبب الحقيقي لإعتراضي، فهو أني كنت "متورطاً" بعلاقة غرامية حميمة من نوع أنطونيو وكليوباترا. كان من الصعب عليّ إنهائها ودياً، ومن المستحيل نسيانها عملياً! كنتُ محروق القلب، مكسور الخاطر، ومشغول البال. وهكذا، كانت تلك الفترة الإنتقالية حامضة حلوة علينا جميعاً.

وداع الهاربين!

في تلك الأيام بعد مغامرة فرنسا، صرتُ كالطفل "الممغوص"، لا رضع ينفع معي ولا حضن يفيد. اِعتراضاتي كانت متواصلة واِحتجاجاتي مستمرة على أتفه الأمور. أهلي الذين خلّفوني لم يفهموا مشكلتي ولم يعرفوا علاجاً لها ولا دواء. وكما لم أغادر معهم إلى مصر يوم تركوا بيروت، لم أغادر معهم القاهرة يوم عادوا إلى لبنان. فبقيت بعدهم في القاهرة بضعة أيام أودّعها على طريقتي الخاصة! إلا إني لم أجرؤ على الإتصال بكليوباترا تجنباً لمواجهتها بقرار العودة. كنتُ في ذلك الوقت اِعتبر نفسي "رجلاً" ناضجاً، لكن "عند

الإمتحان"، كنتُ دائماً أفشل وأُهان، كنتُ عملياً ما أزال مراهقاً تابعاً لنفوذ الأهل وسلطتهم. وبدل مصارحة حبيبتي بحرص وحنان، أخذتُ أرسم سيناريوهات الفراق والوداع في خيالي. فتارة كنتُ أحسب نفسي عنترة على خيمتها، وطوراً كنتُ أظنّ أني روميو تحت شرفتها! لكن في جميع الحالات لم تتعدَ أوهامي حدود الخيال والتوهم! فإنسحبت من "المشهد المصري" بهدوء وخِفْية كالهاربين الجبناء، تاركاً خلفي بعضاً من روحي وأشلاءً من فؤادي. ولعمري، لغاية اليوم لا أفهم لماذا كان الهروب أسهل عليّ من النِزال معها والمصارحة، لا سيما أن الإفتراق لم يكن بنيتي أصلاً، ولم يكن الرحيل ضمن قراراتي من الأساس. كان فراقنا مأساوياً على طريقة "قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لنا". محبوبتي لم تكن "حرة" مثلي. لم تكن جارتي أو زميلتي. كانت مرتبطة بزوج ومربوطة بأولاد، وأكبر مني سناً، وبعيدة عني. أصولها الإيمانية ربما كانت تعود بها إلى حاخامات اليهود الأوائل (72) الذين أسسوا وجودهم في الإسكندرية، وعرضوا على بطليموس الثاني (285-247 ق.م) أول ترجمة منقحة للتوارة من العبرية إلى اليونانية (السبعوية). المفارقة فعلاً أن محبوبتي كانت تشبه ليلي مراد في صباها، ولها من صوتها شبه كبير.

طعم الفراق على متن الطائرة كان مرّاً كالعلقم. وعندما إقتربت الطائرة من ساحل الإسكندرية "فوق بيتها" (مجازاً)، إنفطر قلبي حسرة وندماً، وكاد دمعي يغرق المدينة عليها. ولما قرّبنا من الشاطئ اللبناني، بدتْ بيروت كئيبة ومختلفة - محبطة وملبدة للغاية؛ فحتى شمس حزيران فوق سمائها كانت "مظلمة" على غير عادة. ربما أجواء المدينة كانت بريئة من أوصافي، أو أني أبالغ بوصفها، لكن من شدة حزني وكآبتي تصوّرت لوهلة أننا كنا نطير فوق البحر الأسود..

الطبع غلب

أيام قليلة، وعدتُ من جديد إلى حالة الطفل الممغوص. لا رضع ينفع معي ولا حضن يفيد. إلا أن ظروف بيروت، كمدينة سياسية معاندة، كانت دوماً تغريني للعودة إلى عاداتي القديمة والمشاركة بمظاهرات الطلاب ضد الإمبريالية أثناء النهار والإستمتاع بالرأسمالية خلال الليل! عاودتُ الإتصال ببعض الأصدقاء الذين كانوا زاروا القاهرة عام 1975م مع بداية الحرب. فإكتشفت يومها أني لم أكن وحدي ممن كان يعانى من حالة المغص والضياع والإكتئاب. كلنا بعد الرجوع إلى بيروت كنا ممغوصين من التغيير وتائهين في غموض تلك الفترة المرتبكة! الغريب أنه رغم وجودنا في الوطن، كنا نشعر بالغربة والوحدة وبالأسى والفراغ. كان التأقلم مع عواقب الحرب أمراً صعباً للغاية، خاصة بعد تجربة العيش الرغيد في مصر. إذ كنا قد إعتدنا خلالها على معايير أعلى من معايير لبنان. تلك الحريات لم تكن متوفرة في بيئة ما بعد الحرب. بيد أن إنسداد الأفق يومئذ فتح شهيتي على المغامرات من جديد وأعادني إلى طباعي على طريقة "من شبّ على شيء"، وعلى إختبار أشياء مختلفة، خاصة أن بيروت كانت في ذلك الوقت قد صارت مقبرة للأحلام ومدفناً للآمال...

ورغم الأوقات الممتعة مع أصدقاء مصر القدامى، عزمتُ الأمر على دفن لبنان مرّة وللأبد قبل أن أُدفن به. كنتُ أعرف طبيعتي جيداً ومدركاً لعدم قدرتي على تحمّل المزيد من ظروف لبنان! صدر عني "البلاغ رقم 1"، وأعلنت للعالم قراري تأجيل الإلتحاق بالجامعة وأخذ إجازة مفتوحة لمدة عام كامل. كانت تلك ذريعتي لشراء المزيد من الوقت حتى أتمكن من تقرير المصير، لا سيما أن آفاق المستقبل كانت تبدو مسدودة تماماً. كان القرار من طرفي مَهْرباً ذكياً جَنّبَني الدخول في خلافات جدلية مع والدي على مستقبلي الأكاديمي، وأبعدني سنةً

كاملة عن الضجر على مقاعد الدراسة. وكالعادة، كنتُ بحاجة إلى إعادة النظر ببعض الأمور والبدء بالتخطيط الجدّي للمغامرة التالية! نعم مغامرة جديدة تنشلني من وُحول التخلّف في الشرق والمشرق وما بينهما. فقررتُ تلك المرّة، إدراج أيرلندا على قائمة البلدان التي نويتُ زيارتها، خاصة أنها كانت من الدول الوَدودَة والرخيصة، أشبه ببلدان أوروبا الشرقية في ذلك الوقت. ثم إن نساءها - حسبما سمعتُ في حينه - كُنَّ مذهلات "رسماً وكسماً"، ويتحدثن الإنجليزية بلهجة أيرلندية مثيرة وجذابة. ولربما تسربتْ أيرلندا إلى خطتي بطريقة "فرويدية" كونها تقع على مرمى حجر من حلمي الأساس (بريطانيا)..

الفصل السابع: على خطى الإسكندر

"أكو حكوك وأكو واجبات"

حزيران 1977م في بيروت كان يوحي وكأن المقاتلين على كل الجبهات قد تعبوا من القتال. بدأ الكثير من النازحين يعودون من قبرص وباريس ودمشق والقاهرة تباعاً. يومها بدتْ بيروت كما لو أرادتْ أن تستعيد أنفاسها، لكن الجمر كان ما يزال كثيراً وقوياً تحت الرماد. العالم العربي من حولنا كان مِثلنا مندهشاً من توقف القتال فجأة ومن إطلالة الأمل في الأفق. وعلى الفور اِنبرى الحكماء السعوديون وعملوا على لملمة الأوضاع وحلّ الخلافات بين اللبنانيين. يومئذ برز أول ظهور مبطن لاسم رفيق الحريري في الدوائر المعنية. كان الرجل يعمل، فضلاً عن أعمال التجارة والمقاولة، مستشاراً مقرباً للأمير بندر بن سلطان، وشبه ناطق رسمي باسم السعوديين حول الشأن اللبناني. أما من الناحية الأخرى على الصعيد الدولي، فكان العالم يرقد في فترة هدوء غير معهود تقريباً. لم يكن هناك على مستوى المنطقة سوى حدثين ملفتين: الأول عملية اِغتيال طه كريم، سفير تركيا في الفاتيكان، على أيدي إثنين من الأرمنيين، وذلك اِنتقاماً لمذابح "سيفو" الشهيرة عام 1915م. والثاني، إعلان اِستقلال جمهورية جيبوتي عن فرنسا، وكان تطوراً فارقاً لأن جيبوتي كانت آخر مستعمرات الأوروبيين في أفريقيا. أما أوروبا بشكل عام، فكانت هادئة جداً وكأنها كانت على وشك "الإستعداد" لإستقبال مغامراتي الجديدة..

ولأسباب "كرماوية" لم أفهمها، رفضتْ السفارة الأيرلندية في بيروت منحي تأشيرة الدخول إليها. ولوهلة، تصوّرت أن ذلك كان بسبب الختمين اللعينين اللذين طبعهما البريطانيون على جواز سفري. الأول

كان يشير الى وجود ملف عن توقيفي في مطار هيثرو، والثاني كان يؤكد طردي من بريطانيا عن طريق "كاليه"، مع أني لم أكن قد دخلت بريطانيا في الحالتين. لكن سرعان ما اِتضح لي أن السفارة الأيرلندية إنما رفضتْ منحي التأشيرة لأنها لم تجد مكاناً متاحاً لطبع الفيزا عليه. لم تجد فيه سوى صفحة فارغة يتيمة بآخر الجواز في حين أن تأشيرة أيرلندا يومها كانت تستوجب وجود صفحتين فارغتين متقابلتين. ربما كانت تلك ذريعتهم المؤدبة لرفض دخولي لأسباب لم يرغبوا الكشف عنها! لكن في جميع الحالات، لم أكن لأقبل قرار الأيرلنديين أو استسلم لهم بسهولة، كنتُ مصمماً على متابعة خطتي حتى النهاية.

ومع إشكالية السفارة الأيرلندية، تعطّل الفكر واِنسد الأفق تماماً. لم يتبق أمامي من خيارات سوى الحصول على جواز سفر جديد. لكن السفارة العراقية في بيروت، التي كنتُ أحمل جنسيتي من بلدها، رفضت، هي الأخرى، إصدار جواز سفر جديد، وأعادت على مسمعي ما كان القنصل العراقي في بوخارست قاله لنا من قبل: "لا مانع لدينا منحك وثيقة مرور *Laissez-passer* لمرّة واحدة، تخوّلك (العودة) إلى العراق. هناك بإمكانك التقدم للحصول على جواز سفر جديد". كلام السفارة لم يُحبطني فحسب، بل دمّرني أيضاً وأثار غيظي إلى حدّ الإكتئاب وضيّع علي خططي ورحلتي إلى أيرلندا من أساسها. ثم أي "عودة" تلك التى حدثوني عنها وأنا لم أكن قد زرتُ العراق في حياتي أصلاً؟ فجأة، صرتُ أمام واقع أتعس مما كنت عليه. جُرّدت من باسبوري في السفارة، وكان بمثابة "أمل حياتي" ومفتاح حريتي. وهكذا، سدّوا كل الأبواب بوجهي ورموا مفاتيحها في بئر المجهول. أدركتُ في عقلي، وكبدي، وقلبي، أنه لم يكن هناك بد من الذهاب إلى العراق، وهو ما كان يشكل تحدّياً مخيفاً ..

خرجتُ من السفارة العراقية وتوجّهتُ مباشرة إلى أقرب متجر للمشروبات الروحية - ولم يكن بعيداً عنها. فتناولت زجاجة ويسكي (جوني ووكر) من النوع الأحمر الرخيص وأسرعتُ بها إلى البيت. وبغضون دقائق قليلة اِنتشيت للذروة وسكرت حتى الثمالة. فأخذتُ أهذي بهلوسات مريبة وأطلق خلجات مبهمة، وكنت أفجرّ ما كان تراكم بداخلي من غضب وحقد وتوجّس منذ أيام الطفولة. كنتُ بركاناً عنيفاً. وما إن رجعتْ والدتي من "صُبْحيتها" المعتادة مع الجيران، حتى وجدتني ممسكاً بزجاجة الويسكي مسكة رشدي أباظة يوم خانته هند رستم مع أعز أصدقائه! في تلك اللحظة المصيرية، ضرب نظري نظرها، فأفرغتُ غضبي بوجهها وسألتها بنبرة خرقتْ جدار الصوت: "لماذا بحق السماء يا أمّي لم تتزوجي رجلاً آخر؟". "لماذا تزوجتي عراقياً من كل الرجال؟". "ولماذا بِجاه الربّ لا تحدث هذه الأشياء إلا معي، وما ذنبي ولم أجن على أحد؟" كنتُ أرميها بأسئلة عويصة، وأقذفها باتهامات لا تخطر على بال عاقل، ولا رجل قانون، أو حتى رجل دين. كنت أصرخ بوجهها وأبكي كما يفعل الطفل بوجه أمه بعد التطعيم. ومع أني لم أسمع عويلي بنفسي من شدة السكر، سمعتُ آهاتها وهي تمسح دمعي بدموعها. (جَلستْ والحزن بعينيها وقالت يا ولدي لا تحزن، فالشقاء عليك هو المكتوب!). أخذتني بحضنها وقالت: "أسمعني جيداً يا ولدي، أنت الآن لست في السجن، ولا في بلد آخر، أنت هنا معي في بلدك. وثقْ يا عماد أن أمك لن تسمح لأحد بإجبارك على الذهاب إلى العراق مهما حدث. اِنتظر واَنظر"! ورغم أن كلامها ذاك كان رطانةً لم أفهمها، لكن خفّف من سُكْري وهدّأ من روعي وأعطاني بصيص أمل..

***

في اليوم التالي، وبعد شاي الصباح، جرّتني تحت إبطها إلى السفارة. كنا أول الواصلين إليها. لم تلقِ التحيّة على موظف الإستعلامات، بل دخلتْ معه في صميم الموضوع مباشرة. فأصرّتْ على مقابلة السفير العراقي وجهاً لوجه. لم تكن تعرف أحداً في السلك الديبلوماسي، ولا كانت لها علاقات عامة أو اِتصالات مهمة مع العراقيين. كانت دمثة وصاحبة شخصية قوية. مُحَبَّبة من الصغار ومهيوبة من الكبار وواثقة من نفسها مع الغرباء. ومن وَهرة لهجتها وعنفوانها، قام مسؤول الإستعلامات من قعدته المتعالية، وضرب رقماً على هاتفه، وقادنا بإتجاه المكاتب العلّوية والحذر بادياً على مُحيّاه. لحظات، وكنا بمكتب نفس الملحق الذي سحب باسبوري قبل يوم، فقادنا هو بنفسه تلك المرّة إلى مكتب السفير - حسب إصرار أمي "كمواطنة لبنانية".

بأدب واِبتسامة عريضة، اِستقبلنا السفير بما زاد الخجل على وجهي وأنقص الغضب في عروق أمّي. وتحت صورة صدام حسين، فتح السفير دُرجه وسحب باسبوري وبدا أنه كان ملماً بتفاصيل حالتي من اليوم الأسبق. دار نحو أمّي وقال بحصافة الدبلوماسيين: "سيدتي، أعذريني، فلقد أمضيت أكثر من نصف ساعة يوم أمس أتصفح جواز سفر أبنك (وهنا رفعه ولوّح به أمامها). وإني لأجد الأمر غريباً أن يكون هذا فعلاً جواز سفر تلميذ لم يدخل الجامعة بعد. إنه متروس بالتأشيرات والرقع والبقع والأختام والتواريخ؟". ورغم رصانة السفير، قال كلامه ذاك بمزيج من الإستهجان والتهكم، وشبّه لوالدتي باسبوري المترهل بـ"البوست كارت"، على أساس أن جوازات الطلاب لا تمتلئ بالتأشيرات والطوابع ولا تتلوث بالخربشات والبقع، أقله قبل اِنتهاء مدة الجواز. كانت "لطشة" ذكية منه أنني "ولد" متهور مستهتر ولست تلميذاً مواظباً أو مجتهداً. ومع أن سهام "االنِعرة"

أصابت أمّي بالصميم وأشعلت غيظها، لكن على طريقتها كتمته ريثما اِنتهي السفير من عرضه وسمع عرضها..

وهكذا، اِسترسل السفير "بمحاضرته"، وقال لوالدتي باللهجة العراقية شيئاً مرعباً: "عيني، أختي، أكو حكوك وأكو واجبات، وهسّا صار الوكت لأبنك أن يخدم بالجيش العراقي". عبارة صارخة حسم الأمر فيها بصوت واضح وصريح. ولكن على مَن ترفع سيفك يا عنتر؟ فبعد سماع ذلك الهراء الدبلوماسي و"المحاضرة الأخلاقية" عن الحقوق والواجبات، وقفتْ والدتي وقفة شجرة الدرّ بوجه سفير لويس التاسع، ملك الصليبيين، وقالت للسفير العراقي بلهجة حزم لم أعرف من أين جاءت بها : "رُدّ لي جواز ولدي وأترُك الباقي عليّ". بيد أنه أوضح، وقال لها: "عيني، جواز اِبنتش لا يصلح للسفر. ثم إنه اِستهلك كل الأوراق فيه، وما أقدر أضيف صفحة واحدة عليه، وهو أصلاً من النوع القديم. فقط دائرة الجوازات في بغداد مُخوّلة بإصدار الطبعة الجديدة".. ثم اِستدرك وأضاف: "لكن إنْ يَسّرك أن يكون الجواز عندك، فليكن، على أمل أن يفكر "هوشام" ملياً بمستقبله ويقرر ماذا يريد فعله بعد العسكرية".

كان السفير يتحدث إلينا كما لو كان من الكهنة ورجال الدين يُسْدي المشورة ويقدم الموعظة حسنةً لوجه الله. والدتي لم تستلطف إحسانه ولم تستطبْ حرصه، بل لم يؤثر هذيانه العراقي على مزاجها. وقفتْ فجأة، وسحبتْ من يده الجواز بلباقة الأميرات، وأنهتْ اللقاء معه وجرّتني إلى الخارج معها. وعلى عتبة الباب تماماً، دارت إليه وضمتْ ثلاثة أصابع من يدها اليمنى لتعطيه إشارة "التمهل قليلاً"، وقالت له بلهجة لبنانية: "بكرا منشوف!". وهي عبارة تحذير شعبيه كثيراً ما يستعملها اللبنانيون لإنهاء "البخعات" أو الحدّ من خسائر النقاش. إنها إنذار الجبناء لكن تتطلب إقدام الشجعان. غير أن ما

قصدته أمّي من إنذارها، كان مجرد لفت نظر السفير إلى ضرورة "الإنتظار والترقب"، بمعنى أنها كانت ستعود مرّة أخرى لتحصل منه شخصياً على جواز سفر جديد. المفارقة هنا أن والدتي لم يكن لها حق التحدث نيابة عني أو باسمي لأنني كنتُ يومها قد تجاوزت السن القانوني. كان بإستطاعة السفير - لو أراد - أن يرفض مجاملتها أو الإستماع إليها على حساب القانون. غير أن الشرقيين عادة يُرجّحون التقاليد والأعراف على القوانين لتجنب التصعيد والأحراج أو المواجهة القانونية..

صلاح الدين وأنا

وكما وعدتْ نفذّتْ. سحبتْ أمّي باسبوري من السفارة بعد أقل من 24 ساعة على مصادرته. بيد أنه كان عديم الفائدة من الناحية العملية. وهكذا، لم يكن لدي خيار سوى الإذعان للواقع والإلتحاق بالجيش العراقي بأسرع وقت ممكن! والدتي - ولأول مرّة في حياتها - شعرتْ بالعجز والخيبة والفشل مرّة واحدة، وهو ما كنتُ أشعر به مرات ومرات منذ بداية أيامي في المراهقة. لم يكن وضعها النفسي مريحاً في بيروت بعد العيش في مصر، إذ إنها شعرتْ، مثلي، أن لبنان كان سجناً صغيراً وموبوءً. ورغم حالة الفقر في مصر عموماً، إلا أن أمّي كانت تنعم فيها بأشياء كثيرة لم تكن متوفرة لها في لبنان، أقلها مراودة النوادي مثلاً، والمسارح، والأسواق الشعبية، مثل "الحسين" و"العَتبة" و"خان الخليلي" وغيرها من مواقع التبضع والتراث واللهو. بل حتى "صُبحياتها" مع الأقارب والجيران في بيروت لم تعد تكفيها لإشباع رغبتها وطاقتها. يومها - أي بعد العودة من مصر وتجربة السفارة العراقية في بيروت - اِلتقتْ أوجاعي مع أوجاعها، فاِقترحتُ عليها زيارة سوريا (وَحْدنا)، لا سيما أنها على مرمى حجر

من بيروت. الفكرة بالنسبة لي كانت مناسبة مثالية لجرّ أمّي إلى اللاذقية أيضاً وتعريفها على "ماما تيريزا"، تلك المرأة الفاضلة التي اِستضافتني في بيتها من قبل!

اِنطلقنا بداية إلى دمشق، وكان مشواراً ممتعاً سهلاً رغم زحمة الحدود. "سوق الحميدية"، كان أول وجهة أطفئنا به لهفة الشوق إلى أجواء القاهرة. ورغم أنه ليس بقدم "سوق الحسين"، ولا "خان الخليلي"، لكنه تاريخي وعريق، وقد بُني عام 1780م بعهد السلطان عبد الحميد الأول، ومنه أخذ اسمه. كان لنا فيه، كما في كل مرّة من قبل، أشهى المأكولات والمشويات وأطيب البوظة على مستوى الشرق الأوسط كله. كنتُ - بين معالمه ومحلّاته التراثية - أتصوّر نفسي واحداً من رحّالة الشرق المُداومين أيام السلطنة العثمانية. إلا أنها كانت أول مرّة أزور فيها ضريح صلاح الدين الأيوبي بجوار الجامع الأموي في آخر السوق. كنتُ محظوظاً وسعيداً بلقائه، لكن لم أصدق فعلاً أني كنتُ بحضرة مؤسس الدولة الأيوبية نفسه! فلقد صدمني ضريحه المتواضع بجانب ضريح آخر وسط مكان صغير متآكل ووضيع! ولوهلة صادمة، استرجعتُ ما كان التاريخ الحديث قد سجله عن تلك الغرفة رغم الرُطُوبة فيها والعفن. هناك أطلق الجنرال الفرنسي هنري غورو قوله اللئيم يوم زار مرقد صلاح الدين عام 1919م، فركله بغلاظة واِحتقار وقال كلمته الشهيرة: "قم يا صلاح الدين، لقد عدنا". كان غورو بعبارته تلك يذكّر صلاح الدين بِانكسار الصليبيين للمسلمين (1189م) واِنسحابهم من الشرق بسببه. وبعبارة أخرى، كان يقول له "إن الغرب لا ينسى ولا يسامح. وها قد عدنا لننتقم منك بعد 750 سنة".. لم يكن صعباً أن أتخيل أيضاً ما قاله القادة الغربيون أمام أضرحة كل شرقي آخر شاكس خططهم وحدّ من نفوذهم...

أرشيف الوجود!

في الصباح الباكر من اليوم الثاني، اِنطلقنا إلى اللاذقية. كدتُ أطير فرحاً وأُحلّق فوق السحب والنجوم! ذلك أني كنتُ على وشك أن أجمع والدتي أخيراً مع سيدة المدينة بعد ساعات قليلة. تلك المرأة الطيبة التي دعتني إلى منزلها وغسلت ملابسي وأمنّت على وصولي إلى بلدي بلا مِنة أو مقابل. وبالمثل، كانت والدتي متحمسة أيضاً للقائها، ولتقديم شكرها بنفسها على طريقة الأمّهات. كان الطريق من الشام طويلاً، لكن مسلياً مع سائق متمرس خريج من قسم الآثار في جامعة دمشق. ورغم أني قرأتُ الكثير فيما بعد خلال حياتي عن سوريا وتاريخها، إلا أن أبرز ما علق في ذاكرتي عنها جاءني من ذاك السائق نفسه، ياسر. كان ياسر فخوراً جداً أن دمشق أقدم مدينة في العالم وعمرها 9000 سنة. بل من شدة حماسه لسوريا عموماً وشغفه بتاريخها، خلتها لوهلة أهم من حضارة مصر وسومر معاً. وبالرغم من اِعتزازه الشديد بها، لم يذكر كلمة واحدة عن تدمر ولا عن ملكتي المفضلة، زنوبيا، ولا حتى عن تاريخ الإغريق والرومان والبيزنطيين، كما لو كان ناكراً لوجودهم، أو خجولاً من حكمهم لسوريا. غير أنه كان متباهياً جداً بحكم الأمويين لسوريا واِنطلاقهم منها لتأسيس الدولة الإسلامية الأولى. كان واضحاً من حديثه أنه رأى فيها نواة الحضارة لكل حضارات المشرق وواسطة العقد في "الهلال الخصيب".

الدوائر التاريخية العالمية كانت قبل زيارتنا بسنتين تضج بأنباء مثيرة. كانت تفصح عن اِكتشافات إضافية مبهرة لأنقاض مملكة "إبلا" التاريخية بالقرب من إدلب في شمال سوريا. صحيح أن الموقع الأثري كان قد حُدد أصلاً عام 1964م، لكن التنقيب الرسمي لم يظهر للعلن إلا عام 1975م. ومهما قيل، أو كتب، عن مملكة "إبلا"، فلن يُستوفى مجدها بالنظر إلى أنها أرشيف البشرية المُدوّن منذ 5000 سنة. ويبدو

أن مَن أمر بجمعه مباشرة بعد الطوفان إنما أراد أن يحفظ للبشرية تجارب وادي الرافدين مما كان ممارساً ومتداولاً آنذاك. ويذهب البعض إلى حدّ القول إن مملكة "إبلا" بُنيت أساساً لتكون خصيصاً مكتبة موحدة للعالم القديم. ورغم التعتيم الشديد والسرية التامة على عمليات التنقيب، فما تسرّب عنها إلى العلّن أبهر متاحف العالم وجامعاته ودوائر الإختصاص والمؤرخين. وقد ورد في وصف ملفات "إبلا"، على لسان منظميها، أنها قدمت للعالم ما يزيد عن 17000 رقيم مسماري، ضمت موضوعاتها قصص الخلق، وشجرة الحياة، والطوفان، وزيارة السماء، فضلاً عن رسائل متبادلة مع الفراعنة والجوار السومري الأكادي. أما لغتها، فكانت - حسب إجماع المختصين - مرتبطة اِرتباطاً وثيقاً باللغة الأكادية، وربما من أقدم الكتابات المعروفة. وفي أوجّ مجدها، اِمتدت مملكة "إبلا" شمالاً حتى الأناضول، وشرقاً لغاية سومر وأكاد وآشور، وجنوباً إلى أقصى ريف دمشق وحدود درعا.

واِختفت من الوجود!

وصلنا إلى ما يُشبه ساحة اللاذقية بالقرب من الجامع الكبير. هناك توقفنا عند محل حلويات مشهور وحملنا معنا صينية حلوى كبيرة، واِنطلقنا نبحث عن "ماما تيريزا". كانت ذاكرتي قوية، والزمن الفاصل عن "الواقعة" لم يكن بعيداً. كنتُ، بتسرع الشباب وحرارة التوقع، واثقاً أني كنتُ سأجد بيتها بسرعة وسهولة. وهل تجرؤ الذاكرة على نسيان ذلك البيت؟ جلّ ما كان عليّ فعله التوجّه إلى محطة الباصات، حيث تركتني آخر مرّة، لأعود منها بخطواتي قليلة إلى الوراء مسترجعاً معالم الجيرة وملامح الجوار.. كنتُ أعرف الطريق خطوة خطوة عن ظهر قلب. بل، لعمري، كنتُ أتذكر كل كلمة قالتها

وكل لفتة أبدتها. لكن عن أي محطة باصات كنتُ أبحث، وقد ظهرت محطات كثيرة غيرها منذ ذلك الحين؟ سائقنا ياسر لم يترك كاراجاً واحداً أو محطة إلا وقادني إليها، لكني لم أستشبه بشيء، ولم أجد شيئاً أمشي منه بثقة، كما لو أن المدينة التي عرفتها أصيبت بزلزال واِختفت! عند تلك النقطة العبثية، أخذتْ أمي تنظر إلي نظرة "هل أنت متأكد يا صبي؟". "هل المرأة كانت فعلاً في اللاذقية وليس في بانياس أو طرطوس، مثلاً؟". "هل كانت هناك امرأة أصلاً؟". وبين التهكم والشماتة، ضعتُ في الشوارع وضاعت هي مني في غياهب الذاكرة، فطوى النسيان مكانها إلى الأبد. كانت خيبة أمل عظيمة، وحسرة كبيرة، وغصّة ما زالت تعصر في قلبي! ومع فقدان الأمل بالعثور عليها، قصدنا مطعماً للسمك على البحر مباشرة، واِسترجعتُ لأمّي فيه ذكرياتي مع ماما تيريزا، وعدنا أدراجنا إلى دمشق.

مقدسات شامية

في اليوم الثالث، قررتْ أمّي زيارة "صيدنايا". كان عندها نذر أرادت قضاءه في الدير. ربما كان بخصوص سفرتي المرتقبة إلى العراق، أو ربما بخصوص أمر كان يعنيها مع الوالد، أو ربما لشيء خاص! وعلى خطاها، ضمرتُ أنا أيضاً أمراً ونذرتُ من أجله مغادرة الشرق في أقرب فرصة ممكنة! فالشرق بالنسبة لي لم يكن يوماً مكاناً يُعتمد عليه أو يُؤمل منه. ولطالما أحسست بشيء ضده منذ كنتُ طفلاً في الضيعة بمواجهة إسرائيل. لم أكره الشرق بسبب إسرائيل، فهي عدوة بالتعريف، ولم يكن متوقعاً أن تتصرف معنا بغير الظلم والإستبداد والهيمنة، بل، ما قززني من الشرق عموماً أننا لم نبالِ لضخامة التحدّي معها، ولم نتوحّد ضدها، أقله كجهة متضررة من اِغتصابها لأرضنا، رغم "لحمة الإسلام والعروبة والفلسطينيين". بل، العكس

تماماً، ربما لم نبالِ ولم نتحد، بسبب خلافاتنا حول الإسلام والعروبة والفلسطينيين!

المشوار لصيدنايا كان سهلاً ومريحاً، ولم يكن الأول بالنسبة لنا. فقد سبق وزرناه كعائلة مع جيراننا المسيحيين في بيروت. ورغم مراجعة الكثير عن تاريخ المدينة وديرها، إلا أني لم أقف على مصدر واحد أكيد لإسمها الآرمي. المؤكد أن مكانة الدير نفسها تعود إلى أيام البيزنطيين، وتحديداً إلى عهد جوستنيان الذي أمر بتشييده في القرن السادس الميلادي. والدير - من شدة أهميته الدينية - يأتي في المرتبة الثانية بعد كنيسة القيامة عند المسيحيين. كان من دواعي فرحي أني في مساء ذلك اليوم أعددت مقالة مسهبة عن صيدنايا، وبعثتُ بها إلى المجلة في باريس. كنتُ قد أبقيت خطوط الإتصال مفتوحة مع المجلة منذ تركتها، وواصلتُ مراسلتها متطوعاً كلما وجدتُ شيئاً جديراً بالنشر. لكني رغم ذلك، لم أتابع إصداراتها ولم أعرف ماذا كان ينشر فيها من مراسلاتي القليلة. ومما يؤسف له فعلاً أن اسم "صيدنايا" اِقترن بعد الثورة السورية (الإسلامية 2025م) بسجن بشار وبروايات التنكيل والتعذيب والإخفاء. حولوا الرفعة والقداسة إلى مقلع ومسلخ كما لو أرادوا القول إن سلطة الأسد كانت فوق سلطة كل القديسين!

أمّي لم تكن محجّبة، لكنها كانت تقيّة مؤمنة. لم أرها يوماً تصلي، لكن لم يغب عن ثغرها لحظة ذكر الله، ليس فقط في أوقات الشدة، بل أيضاً في عزّ البهجة والفرح. ومع أنها "سيدة" من عائلة "السيّاد" حسب التقليد الشيعي، إلا أنها لم تعرف من الأئمة إلا الحسن والحسين، ولا من بنات أهل البيت سوى فاطمة وزينب. تقواها كان عصرياً، وإيمانها كان ليبرالياً. ورغم ذلك لم تفوّت الصيام وليلة القدر وعاشوراء، ناهيكم عن "زيارات" الأولياء والقديسين حيث اِستطاعت.

في اليوم الرابع توجهنا لزيارة "العتبة" (مقام مرقد زينب)، حيث تذكر سجلات الشيعة أنها توفيت في الشام. لكن أعمال الصيانة والترميمات التي كانت تجرى على المكان في ذلك اليوم حالت دون رغبتها. وعلى الرغم من أن منطقة "الست زينب" مقدسة وإيمانية بِامتياز، إلا أن الزائر إليها لأول مرّة يخالها منطقة اِستجمام وسياحة لكثرة مطاعم المشاوي فيها و"مقاهي الشاي". وكما يستمد المزار قداسته من زينب نفسها، وهي أخت الحسن والحسين، يستمد جواره العراقة أيضاً من تاريخ زوّاره المفكرين والرحّالة العرب، ومنهم مشاهير عظام مثل إبن بطوطة وياقوت الحموي وإبن عساكر. الملفت فعلاً أن التراث الشيعي عموماً فيه مواقع عديدة لـ"زينب" و"زينبيات" من أهل البيت، لكن ليس هناك ما يؤكد حقيقة هوية زينب المقصودة في الشام، إن من الناحية التاريخية الصرفة، أو لجهة الحمض النووي بعيداً عن العادات والتراث والتعصب. يومها قضينا يومنا بين الخيطان والمنسوجات والبرادي في سوق الخياطين وسوق الحرير. وللحرير في بلاد الشام (سوريا ولبنان) تاريخ يعود بجذوره إلى القرن الأول الميلادي، وكانت زراعة التوت قد اِنتعشت بسبب اِستعمال الحرير وتسويقه في العصور الإسلامية الأولى، واِستُخدم في كسوة الكعبة. وسرعان ما تلقفه الأمير فخر الدين في لبنان لتجارته، ومما ساعده على تثبيتها بين القرى أنه اِستطاع أن يؤمّن اِستقلالية لحكمه في جبل لبنان، وخاصة أنه كان بمثابة المُسوّق المحتكر للحرير اللبناني لدى أصدقائه في توسكانا وفرنسا. كان لفّ الحرير في بلاد الشام آنذاك مرتبطاً بأنامل الحريم كاِرتباط السيجار اليوم بأنامل الصبايا في كوبا. وبذلك أعطتْ صناعة الحرير نسوة بلاد الشام دوراً فعالاً للإنتاج، فتضاعف عدد الكرخانات بتضاعف الإستثمارات من الشرق والغرب على حد سواء.

في اليوم الخامس، خاتمة المسك، تحركنا باكراً وقصدنا آخر محطة لنا في مشوار سوريا. "معلولة"، وتعتبر من أروع الأماكن التي يمكن زيارتها في سوريا، وهي مختلفة عن المواقع الأثرية الأخرى. فبالاضافة إلى مناخها المعتدل على مدار السنة وموقعها الجبلي الذي لا يبعد أكثر من 60 كلم عن دمشق، فإنها مميزة جداً لأكثر من سبب، أوضحها كثرة الآثار المسيحية ومغاراتها العميقة وشوارعها الضيقة، فضلاً عن تاريخها المرتبط مباشرة بحقبة المسيح نفسه، وإنْ لم يزرها. معلولة تُعتبر واحدة من أعرق المراكز الدينية المسيحية في كل المشرق، وفيها دير "مار موسى" و دير "مار سركيس"، والأخير يعود إلى القرن الرابع الميلادي، وهو واحد من أقدم الأديرة في المنطقة كلها. وتحتوي معلولة أيضاً على الكثير من الكهوف ومواقع الرهبنة والزهد؛ ففي دير "مار تقلا"، مثلاً، تجد المؤمنين "يحجّون" إليه بِاعتباره رمزاً للقداسة والإجلال. ويكفي أنه يضم رُفات القديسة "تقلا"، ابنة أحد القادة السلوقيين، وكانت من أتباع القدِّيس بولس نفسه، وقد رافقته في تبشيراته وعاشت بعد موته حياة مأساوية أسطورية لم تسلم فيها من أذى حكم الزمن وكلام الناس. فإنتهى أمرها في الدير هرباً وستراً وزهداً. وهذا ما أعطى الدير صبغة خلوة الرهبنة المقدسة، حيث تقام فيها الصلواتُ وترتفع منها التضرُّعات. ومع أن بطريركية الروم الأرثوذكس في القدس، على وجه التحديد، تعطي "تقلا" هالة كبيرة من القداسة، فهي تحظى بنفس القدر من الإجلال بين كنائس العالم المختلفة بما فيها الكاثوليكية والقبطية. وكما عند مؤمني الطوائف الأخرى في تعظيم قديسيهم، بحيث تتعدد مراقد نفس القديسين في أنحاء مختلفة من العالم، كالنبي شيث وإبراهيم وهود ويونس والحسين وصالح وغيرهم، هناك عدداً من المزارات للقديسة "تقلا" تجسّد تضحياتها ومعجزاتها، وأهمها ضريحها في "سيليفكي"

في تركيا، وقبرها في معلولا. هناك أيضاً مزارات أخرى مرتبطة بها بالقرب من لارنكا قي قبرص، وسراديب الموتى في روما.

إلا أن أبرز ما يميز معلولا عن المواقع الأثرية الأخرى في العالم، أن سكانها ما زالوا ينطقون بنفس اللغة التي نطقها أجدادهم منذ آلاف السنين. ففي مصر، مثلاً، لن تجد اليوم قرية واحدة ينطق أهلها باللغة التي نطقها القدماء، ولا في العراق تجد مكاناً يستعمل اللغة الأكادية في يومياته، أو في أوروبا اللغة الإغريقية، بل حتى في سوريا نفسها لن تجد في تدمر أو حماة، مثلاً، مَن ينطق الآرامية مثل آهالي معلولا، تماماً كما نطقها المسيح في أيامه. صحيح أن العبرية والعربية واليونانية اِستمرت منذ وقت طويل، وما تزال، لكنها ليست بقدم الآرامية، ولا باِستمرارها بدون اِنقطاع. ورغم الفرق الشكلي والبسيط بين الآرامية والسريانية، ما يزال هناك اِلتباس كبير عند البعض! فالأولى هي اللغة المحكية القديمة منذ القرن الحادي عشر ق.م.، وكانت منتشرة أولاً في مدن الحكم السورية آنذاك. أما السريانية، فكانت اللغة الأكاديمية التي اِعتُمدت للكتابة اللاهوتية والتعليم بعد ظهور المسيح في القرن الأول. لذا، فهي ليست لغة مستقلة عن الآرامية بقدر ما هي فرع أو ثمرة منها. وهذا ما يُفسر أن الأوصاف والأسماء بمعظمها كانت تكتب بالسريانية وما زالت منتشرة في بلاد الشام بصيغتها الأصلية تقريباً.

بعد وقت حافل بالإنبهار بين المرتفات الصخرية والكهوف، عدنا إلى حيث كانت سيارتنا، وعاد ياسر بنا إلى ساحة معلولا. هناك قصدنا مطعماً شعبياً، ربما كان يحمل إسم أحد القديسين مثل "مار جرجس" أو "أبو توما" أو "أبو جورج"، أو شيئاً من ذلك القبيل.. فكان الغداء، على بساطته، من ألذ الأطعمة التي تناولناها خلال زيارتنا لسوريا. أدخنة البخور وروائح المشاوي كانت تُرجعك إلى أيام الرومان

الأوائل في المدينة. كل شيء في معلولا كان يوحي لك أنك لست في سوريا، ولا في أي بلد عربي، إنما في مكان هاربة معالمه من تاريخ الشرق القديم. وكم كنتُ محظوظاً أنه كُتب لي زيارة معلولة مع والدتي، خاصة أنه لم يسبق أن زرناها.

المواجهة مع صدام حسين

رجعنا إلى بيروت في عزّ آب 1977م. وكالعادة، عدتُ إلى البحر حزيناً أراقب الأفق بإنتظار الخلاص. فجأة، سمعتُ بموت ألفيس برسلي، فزاد رحيله حزناً على أحزاني وأشعل بداخلي نار الغضب والتمرّد من جديد. كنتُ من المهوسين بصوته والمعجبين بوسامته وحظوظه مع النساء. ومع أن موته كان صدمة للشباب جميعاً في لبنان، لكن لم يثر عند الصبايا مظاهرات البكاء والنحيب كالتي أثارتها عندهن وفاة عبد الحليم من قبله ببضعة أشهر. كانت المناسبة الحزينة دافعاً إضافياً لي لمواجهة واقعي المزري مع صدام وجهاً لوجه. كان لا بد لي من كسر حاجز الخوف، والسفر إلى بغداد لتغيير جواز السفر. لكن من أين يا ترى أبدأ في العراق؟ لم تكن لديّ فيه جذور واضحة ولا أصدقاء. صحيح أن والدي كان له فيه بعض الأقرباء، إلا أن البلد بالنسبة لي كان كجزر الفوكلاند بالنسبة للبريطانيين: لا يعني شيئاً خارج الشكليات المفبركة والمزاعم التقسيمية منذ الحقبة العثمانية. لم يكن بداخلي أي شعور وجداني بالإنتماء إلى العراق رغم تاريخ جدّي وجدتي فيه وإحترامي لحمورابي. العراق بالنسبة لي كان، وما يزال، مجرد بلد عربي آخر، مثل تونس والسعودية والسودان، وإنْ كان تاريخه العريق يعود إلى طوفان دجلة والفرات، وإلى سفينة نوح ونبوّة إبراهيم - حسب الروايات الدارجة.

كان من الضروري الوقوف على رأي والدي من الخدمة في الجيش العراقي! فاِنزويت بنفسي أعدّ الأيام لرجوعه من السفر بفارغ الصبر. ورغم عذاب الإنتظار وبئس المصير، بدا عند عودته كما لو كان غير مهتم بمصيري بالمرّة. ربما كان متعباً من صحاري الشرق، أو ربما لأن شؤوني كانت من اِختصاص والدتي بسبب أسفاره المتواصلة. إلا أنه في تلك المرّة شعر بضيقي وحيرتي، ولمس جدّية مواجهتي مع صدام. أخذني جانباً وقال لي خبطاً بالمباشر: "اسمع يا بني، لا خيار أمامك سوى الإلتحاق بالجيش!". هكذا قالها ورفع عن عاتقه المسؤولية، وكأن المسألة كانت تخصنّي وحدي، أو كما لو كنتُ أنا من أنجب ولداً اسمه هشام؟

وعلى مبدأ "إِذَا هِبْتَ أَمْراً فَقَعْ فِيهِ"، بِاعتبار أن تجنبه أعظم من الخوف منه، أردف مُمعناً بكلامه، وقال: "كلما أسرعت يا بني في الذهاب إلى العراق، كان أفضل لك على المدى الطويل. عليك أن تتعلم كيف تواجه الأمور رأساً برأس، لأن التأجيل ينقلب عليك وبالاً من الفشل والندم فيما بعد، ولسوف تبقى المشكلة تطاردك إلى أن تقضي عليك أو تموت. فاِضرب يا ولدي الحديد وهو حامٍ، وواجه قدرك عيناً بعين وسناً بسن، ولا تنسَ أن تراسلنا عن أحوالك من العراق". وعلى تلك البساطة، (أو الحكمة)، ختم والدي رطانته سعيداً، وربما فخوراً بالنصيحة التي اِعتبر أنه "اِبتكرها" خصيصاً لي. فالمسألة - برأيه - كانت تتمثل بِاختيار الإقدام والمواجهة على الخوف والتردّد، لأنّ الخسارة عندما يبقى المرء مشلولاً أمام الخوف، لا تعادلها خسارة في المستقبل، فيتحوّل الإنسان المتردد الخائف إلى إنسان مشلول أمام أيّ اِحتمال أو خوف أو حذر.

بيد أن الموضوع بالنسبة لي لم يكن بتلك البساطة على الإطلاق، لا سيما أن عواقب الإلتحاق بجيش صدام لم تكن مدروسة أصلاً. ولغاية

تلك اللحظة الفارقة في حياتي، لم تكن المسألة قد صارت "قدراً" مكتوباً أو "حظّاً" مقسوماً بعد. كانت مجرد مناقشة عامة مع والدي حول الخيارات والمسؤوليات والذنوب! وعلى الرغم من أن المأزق نفسه لم يكن من صنيعتي، إلا أنه رُمي على كاهلي، وكان عليّ وحدي تحمّل أعباءه؟ لم أفهم مشيئة الله، ولا حكمة أبي، ولا عدم اِكتراث الأقارب بمشاعري ومستقبلي! بدا حُرْصهم جميعاً على وجداني، تماماً كالنشيد الوطني، مفعماً بالحماس لكن لا يطرب ولا يفيد. ومَن يدري، فلو كان مالك، ابن عمي، ما يزال في العراق في ذلك الوقت، ولم يكن في مانشستر يدرس بجامعتها، لكانت مغامرتي المرتقبة في بغداد مقبولة ومحمولة. فكل الأقرباء هناك كانوا بعيدين كل البعد عن بيئة لبنان عامة، وعن أجوائي المتمردة تحديداً. لكن كيفما قلّبتُ المسألة في رأسي ونظرتُ إلى المأزق في خيالي، كان لا بد لي من المواجهة مع صدام والتوجّه شرقاً إلى بابل على خطى الإسكندر والإمساك بالشمس من وهجها!

الفصل الثامن: بداية الوجود – سومري وافتخر؟

عاصمة المنصور

يوم 13تشرين الأول 1977م، وصلتُ إلى بغداد في الخامسة مساءً. لم يثرني عجب ولم يخالجني خوف ولم تنتابني ريبة. لا حرارة، ولا شوق، ولا وجدان، ولا شيء بالمرّة *"Zeltich"*. إنها لفكرة رومانسية أن يزور المرء "بلده الأصلي" لأول مرّة في حياته، طواعية لا إكراهاً.. إلا أن الزيارة في حالتي لم تكن مفهومة، ولا قابلة للإستيعاب! وبعكس كل المطارات التي زرتها من قبل، وقفتُ في قاعة الوصول بطابور "مواطني البلد" لأول مرّة في حياتي. بدا الأمر سخيفاً جداً، بل مضحكاً، أن إصطف مع العراقيين وأنا "لبناني" قحّ. لم أترك مَسبّة في القاموس اللبناني، إلا وأطلقتها بخلدي على العراق وأخت العراق وأبو العراق، ولم أنسَ شتيمة من الأزقة في لبنان وتركيا واليونان إلا ورميتها على جدّي وجدّتي وأهلي وعلى الساعة التي رأيتُ النورَ فيها؟ كنتُ مدركاً سلفاً أنني سأُسْتنطَق عن أمور لا أعرف شيئاً عنها. كل خطوة خطوتها في الطابور بإتجاه منصة الجوازات كانت تَحقن توجسي وتَقدح فضولي. ولما وصلتُ إلى مأمور الجوازات، ناولته باسبوري، وإبتسمتُ له، وسلّمت أمري إلى الله.

الطريف فعلاً أن الرجل كان يُشبه صدام حسين، لا، بل إن معظم رجال المطار كانوا يُشبهون صدام وجهاً وكرشاً وقامةً إلى حد التوأمة. على الفور، رمقني نظرة إستهجان وإزدراء كما لو كنتُ هارباً من حجر صحّي أو مصحّ عقلي! وعلى طريقة السفير العراقي في لبنان، رفع جواز السفر عالياً ولوّحه بوجهي سائلاً: "ما هذا؟"،

مستغرباً حالته المُترهلة وملامحي الشبابية المُستفِزة. كنتُ يومها أرتدي بنطالاً من طراز "البرمودا" و"بوطاً" حربياً رثاً و"تي شيرت" بدون أكمام.. وعلى الفور، شرحتُ له بلهجة لبنانية وبأسلوب مقتضب، غرضي من الزيارة كما فهمته من السفارة العراقية في بيروت. ورغم عبسته، بدا كلامي مضحكاً له، إن لجهة روايتي العجيبة، أو بسبب لهجتي الغريبة عليه. فسألني مندهشاً: "هل أنت من أصول فلسطينية، أو أردنية، أو سورية؟". أخبرته بكل ما أعرف، لكنه بدا أكثر اِرتباكاً، لا سيما أنه لم يكن ليعرف حقاً ما إذا كنتُ عراقياً أصيلاً أو متجنساً. إذ إن الجوازات العراقية آنذاك - بعكس الجوازات الأوروبية - لم تكن تُرمّز بغرض التمييز بين أصول حامليها. عندها أطلق "كلمة السرّ" الشهيرة، وأمرني بالجلوس على "أريكة" بالقرب منه. ومع أن تعليماته كانت باللهجة العراقية الثقيلة، إلا أنها ذكرتني بتجربة مطار "هيثرو"، وكيف أن الإنتظار على أريكتهم اِستغرق أسبوعاً كاملاً؟ توجّهت بسري إلى الله ورجوته أن يُبْعد عني شرّ العراقيين، خاصة أن السلطات العراقية في زمن صدام، بعكس السلطات البريطانية - لم تكن مُتفهمة، ولا مَرنة، ولا صبورة، مع المسافرين المشبوهين.

بعد اِنتظار وجيز، وصل ضابط من المخابرات إلى "أريكتي". وعلى مبدأ "ليس لدي ما أخسره"، كنتُ مستعداً للاِستجواب حتى التعرية، ومطمئناً إلى وضعي بالعموم. لم أكن متواعداً مع أحد، ولا أحد كان يعلم بقدومي أصلاً. عاودتُ لضابط المخابرات شرح قضيتي بالتفاصيل المملة، وأخبرته أنني "عراقي" جئت لأخدم العسكرية في "بلدي" ولأستحصل على باسبور جديد. عجّلت أسطوانتي وشرحتُ له أن والدتي لبنانية، وأن والدي عراقي بـ"الصدفة"، ولم يزر البلد منذ كان العراق مملكة أيام فيصل الثاني، عام 1954م، أي قبل

ولادتي. ثم أوضحتُ له أن جدّتي، أمّ أبي، عراقية أصيلة، من عائلة "الظالمي"، وقد أمضت عمرها ذهاباً وإياباً مع جدّي اللبناني بين لبنان والعراق. وهكذا، أخبرته أن جدّي الشيخ كان عالم دين بارز يدرّس "الحديث" و"الفقه" بحلقات النجف في فصل الشتاء، ويعود إلى قريته في جنوب لبنان خلال الصيف. وعلى الرغم من أني كنتُ أعرف أسماء بعض العلماء الشيعة الذين تتلمذوا على أيدي جدّي، ومنهم مَن صار مشهوراً فيما بعد أو أصبح ناشطاً مناهضاً لحكومة بلاده، فإني لم أجرؤ على البوح بأي اسم خشية إثارة الريبة والتورّط بما لا يخصني. يومها، كنتُ أعلم يقيناً عن طريق الأقارب أن آية الله الخميني نفسه كان أحد رجال الدين الذين تقاطعت دروبهم بحلقة من حلقات جدّي في صحن مسجد النجف، حيث تلقّى أكثر من حصة فقهية في حَضرته.. كان جدّي مدرسةً فكرية "يُقلدها" الكثيرون من الشيعة العرب، ومرجعاً متيناً لتعلم أصول الدين والتقوى والإستقامة. ومَن يطّلع على تاريخ المذاهب الإسلامية، ويَختبر علومها، يعرف الفروقات الشكلية بين مدرسة الشيعة العرب في النجف وبين مدرسة الشيعة الفرس في قمّ. فبالإضافة إلى حبّ أهل البيت وتمجيدهم عند المدرستين، تركّز المدرسة الأولى على تفضيل الهاشميين (آل هاشم) على بني أمية (الأمويين). بينما تولي المدرسة الثانية اِهتماماً خاصاً بالعنصر القومي (الفارسي) وتفضيله على العرق العربي عموماً..

سألني الضابط عن مقر إقامتي في بغداد، فسألته بدوري إنْ كان يعرف نِزلاً شعبياً وسط العاصمة، خاصة أني كنتُ أجهل مدة إقامتي وإجراءات الإنضمام إلى الجيش. وليتني طلبتُ منه أكثر من ذلك، إذ قام من مقعده على الفور وأحضر لي عنواناً لفندق رخيص كما لو كان يعرف سلفاً صاحب الفندق أو وضع ميزانيتي. ختم دخولي بجانب ختم الخروج من سوريا على آخر ربع صفحة كانت متاحة في باسبوري المُتهالك. رَبَتَ على كتفي وتمنّى لي إقامة ممتعة وحظاً سعيداً، تماماً

كما فعل والدي قبله! المسألة لم تكن معقدة ولا طويلة كما تصورتْ، بل كانت سريعة وإستثنائية. ومن قاعة الجمارك تناولتُ حقيبتي وإنطلقت مسرعاً لإستنشق نسيم المساء الدافئ، وأشمّ الهواء العراقي الساخن مع أول نَفس من سيجارة "مالبورو" الأميركية. لهجات الناس من حولي كانت مختلفة جداً عما اِعتدته في لبنان ومصر وسوريا. لحظتئذ لم أكن أعرف متى، أو ما إذا كنتُ، سأتمكن من رؤية مطار بغداد مرّة ثانية؟ هل كنتُ سأبقى على قيد الحياة، مثلاً، أم سأقتل على إحدى الجبهات؟ الخدمة في الجيش العراقي كانت أمراً مبهماً تماماً، ولم أشأ التفكير في متاهاتها عند الوصول! خطتي للتعامل مع المجهول كانت آنية وبسيطة على مبدأ "لحظة بلحظة": الوصول إلى الفندق أولاً، والقيام بلفة العروس حوله، وتناول العشاء بجواره، ثم التوجّه إلى أقرب ثكنة في اليوم التالي. يا إلهي، كم كنتُ ساذجاً وخفيف الظل؟

خريف الغضب

كان طقس تشرين في بغداد أحرّ من آب في بيروت وأصعب منه. أما على الجبهة السياسية، فكان حافلاً بالتوترات والإضطرابات، لا سيما أن السادات كان على وشك "إدهاش" العالم بزيارته التاريخية إلى القدس. فقط أسبوع واحد كان يفصله عن إثارة مشاعر النقمة عليه، والرفض له، والغيظ منه عند جميع العرب. كانت "مبادرته" بالنسبة للشارع العربي صدمةً وجدانية أقوى من صدمة "النكسة" نفسها. فجأة، تغيّرت الظروف وإنقلبت الأوضاع، وصار الكلام عن السلام بين مصر وإسرائيل حديث الناس في كل مكان من المحيط إلى الخليج. في الأثناء، كان لبنان، كعادته، يترنح بين هدنة هشّة ومهادنة رخّوة. كانت قوات الردع العربية (أغلبها سورية) قد بدأت تنتشر على النقاط الحساسة في شوارع بيروت بموجب قرار توصلت إليه مصر

والسعودية عام 1976م. إلا أن القصف الجوي الإسرائيلي على جنوب لبنان في ذلك الوقت، بسبب "حركشات" الفدائيين من الأراضي اللبنانية، وقع على رؤوس الجنوبين وحدهم، (معظمهم شيعة)، فدفعوا من بيوتهم وحقولهم، ونزح 300000 منهم بإتجاه بيروت. وبعبارة أخرى، لبنان في ذلك التشرين كان مفصوماً عن الواقع متقلباً بين سلم وحرب على جمر النزاعات بين الفلسطينيين والموارنة من جهة، وبين المسلمين والمسيحيين من جهة أخرى، وبين اليمين واليسار، وبين الشرق والغرب، وبين سوريا وإسرائيل، وبين الشياطين والعفاريت على الجهات الأخرى! أما منظمة التحرير، فكانت غارقة بعزلتها السياسية، رغم موافقة الأميركيين على فتح مكتب شكلي لها في واشنطن قبل ذلك بسنة. مبادرة السادات زادت الطين بلة على خطط المنظمة، وأضعفت قدرة عرفات على ضبط الأمور مع كل الفصائل الفلسطينية. فصارت الفصائل تنظم عمليات إستشهادية فردية من جنوب لبنان مستقلة عن أي إجماع، اللهم إلا من أوامر حافظ الأسد.

الأوضاع السياسية في شمال أفريقيا لم تكن أفضل حالاً. القذافي إصطف مع صدام ضد السادات، وبدأ الرجلان يخططان لإحباط المشروع السلمي في المنطقة. الأدهى أن تحالفهما ضد سلام السادات نضح عنه عمليات دموية إرهابية كثيرة في أوروبا وأجزاء أخرى في العالم. وفي القرن الأفريقي إشتدت الحرب بين إثيوبيا والصومال، وكذلك توسّعت النزاعات في الصحراء الغربية بين جبهة البوليساريو وموريتانيا. الأوضاع الإقليمية في ذلك الخريف وصلت إلى حد إندلاع الحرب بين أميركا والإتحاد السوفياتي. فكان الجواسيس الدوليون والأجهزة السرّية ورجال المخابرات في العالم يتوزعون على ليماسول والقاهرة ودمشق وبيروت وطهران. تلك كانت الجبهات التقليدية الساخنة في الحرب الباردة بين الشرق والغرب. وعندما كنتُ أسكن في القاهرة، أو بيروت، أو باريس، كنتُ أعرف سلفاً مواقف

الناس من القضايا الكبرى. أما في بغداد، فكنتُ كالأطرش بزفة العرس! الأخطر أنني كنتُ أجهل عدوي! مَن سأقاتل بعد اِنضمامي إلى الجيش: الأكراد في الشمال، أم الشيعة في الجنوب، أم البعث السوري، أم الفلسطينيين في مخيمات العاصمة؟ صدام حسين كان رجلاً غامضاً لم يكن التنبؤ بتصرفاته أو قراراته أمراً سهلاً. مستقبلي تحت حكمه بدا قاتماً كآفاق السلام الإسرائيلي - الفلسطيني.

عندما وصلتُ إلى النِزل، اِلتقيت عند منصة الإستقبال بصاحبه "نارام". ولوهلة خاطفة، خُيّل لي أني رأيته من قبل. وجهه كان ودوداً مألوفاً وقريباً من القلب. الأغرب، أنه هو أيضاً، ساورته نفس الإنطباعات عني والمشاعر! ورغم أني غالباً ما أنسى الأسماء والتواريخ، إلا أنني عادة لا أنسى الوجوه والأماكن. المُجفل في الأمر فعلاً أنه فاجئني إلى حدّ الذهول بسؤاله إن كنتُ أعرفُ شخصاً اسمه "عماد"؟ يا إلهي، يا للصدفة، ويا للعجب! إنه "إسم القربى" لأسمي الرسمي، لا أحد غير أهلي وأقاربي يعرفه أو يناديني به. طبعاً لم أكن "عماده"، ولا العماد المقصود كان لبنانياً مثلي. كان واضحاً أن مفارقات الدنيا بدأت تتسلّى بي وتفاجئني باكراً. الفندق كان "نفنوفاً" صغيراً (15 غرفة)، إلا أن غرفتي بحمامها كانت الأكبر بسياق مداعبة المفارقات والمصادفة، والسرير فيها كان مريحاً تحت نافذة عريضة. لم يكن في الفندق فناء أو مطعم، لكن من حسن الحظّ أيضاً أنه كان بوسط بغداد تماماً مجاوراً لمطعم شعبي يعمل على مدار الساعة. وكان بين نارام وصاحب المطعم (أبو جاسم) ترتيب مفيد للنزلاء. وهكذا، كانت لي فيه "عشوة" خفيفة وشاي ثقيل.

معسكر الرشيد

"ببوطٍ" حربي مترهل، وحقيبة ظهر رثّة، ونظارات ستيف ماكوين، بدوتُ على المرآة أقرب إلى سائح أميركي في شوارع القاهرة منه إلى عراقي على وشك الإلتحاق بالعسكرية. غادرتُ الفندق وركبتُ أول تاكسي إلى أقرب ثكنة. كانت القاعدة العسكرية المنشودة حسب سائق التاكسي تُسمى "معسكر الرشيد"، وهي الأكبر في العاصمة والأقرب إليها. لا، بل هي أول معسكر تأسس في بغداد في زمن العثمانيين. منه، كانت تنطلق "الجندرمة" التركية لقمع الإنتفاضات والحركات الشعبية. وبدا أن المعسكر حافظ على دوره في قمع الشعب العراقي حتى أيام الإنتداب البريطاني. فكان "أول منزل" للجيش البريطاني بعد زحفه إلى العراق عن طريق البصرة. لا عجب أن الإنجليز طوّروه فيما بعد، وأقاموا عليه مدرجاً للطائرات، وشيدوا فيه وحدات إدارية وطبية وعسكرية وثكنات. وهكذا، بقي المعسكر مَعلماً حربياً بارزاً حتى بعد اِنسحاب البريطانيين عام 1937م. ورغم أن البريطانيين قصفوه عام 1941م، واصل الجيش العراقي اِعتماده عليه وعزّز من دوره في حماية العاصمة.

كانت تلك أول مرّة أزور فيها ثكنة عسكرية حقيقية في حياتي خارج مواقع القِلاع والحصون الأثرية. وكما توقعتُ، اِرتبك حرس البوابة من حضوري أمامه يوم الجمعة! لكن ما إن أفصحتُ لكبيرهم بلهجتي اللبنانية عن رغبتي بالإنضمام إلى الجيش العراقي (هكذا)، حتى اِنقلبتْ تعابير وجهه رأساً على عقب، وبدا كما لو وقع على صيد ثمين. وعلى الفور، هاتف مسؤولاً في الداخل وطلب مني مرافقته. هناك في مكاتب الإدارة، وتحت صورة كبيرة لصدام، اِستقبلني ضابط رفيع - حسبما بدا من "ديكور" لبسه وقبعته! هو، أيضاً، كان يُشبه صدام بشاربه الغليظ وبدلته الكاكية وكرشه المتدلي! وكما في المطار،

"شغّلت" له أسطوانتي على تفاصيل قصتي المعتادة وتوجيهات السفير العراقي بضرورة الإلتحاق بالجيش إلخ. اِقترب مني قليلاً، وقال "كلمة السرّ" الشهيرة: "اِسترح لحظة". وبعد دقائق قليلة، عاد برفقة ضابط كبير مثله وأحد المساعدين. وهنا، طلب مني أمامهما إعادة كلامي من جديد، وكأنه أراد هو أيضاً التأكد مما سمعه. ومن ردة الفعل وتعابير الوجوه، فهمتُ أن "روايتي" ربما كانت أفضل نكتة سمعوها في حياتهم لغاية تاريخه. أخذوا يسخرون مني ويستهزئون بي بشكل هستيري بدون أي اِعتبار لمشاعري وكبريائي. وبين الريبة والدهشة، لم أفهم لحظتها إن كانوا يتهكمون عليّ بسبب ظروفي مع السفارة العراقية في بيروت، أو بسبب لهجتي اللبنانية. وهكذا، نطق أحدهم العبارة الشهيرة مرّة أخرى، وقال "اِسترح قليلاً". خرجوا جميعاً مقهقهين كما لو كانوا يحضرون مسرحية حيّة لعادل إمام! تلك العبارة، (اِسترح قليلاً)، كانت قد بدأت تفعل فعلها وتأخذ طريقها بفكري لتصبح روتينية في الدوائر الرسمية. ورغم لياقتها، كانت العبارة مؤذية جداً لأنها كانت تسترجع دوماً ذكرى مطار "هيثرو" في مخيلتي.

بعد ساعة تقريباً، اِقترب مني رجل طويل القامة، ذو كرش مدلوق، ورقبة مفتولة. راح يطرح أسئلة معلوكة نوقشت عليّ مراراً من قبل. وفي نهاية المطاف، طلب مني أن أترك له عند حرس البوابة عنوان النزل ورقم الهاتف ونسخة عن جواز السفر. إلا أن المستجد الوحيد في كلامه أنه "أمرني" بالإسراع إلى مراجعة وزارة الدفاع مباشرة بعد عطلة نهاية الأسبوع! كان طلبه ذاك ملفتاً لأنه زاح عن الروتين والشكليات وغاص في لبّ الموضوع وحدد الخطوة التالية. وبِابتسامة عريضة بحجم كرشه، قادني بنفسه إلى بوابة الخارج. سارعتُ إلى أقرب مكتبة في الجوار وصورّت دزينة نسخ عن جواز السفر وبياناتي وتركتُ له ما أراد عند البوابة. وخلال عودتي إلى الفندق، سرحتُ

ببدانته واِستهجنتُ كيف يسمحون لرجل بدين مثله الإلتحاق بالعسكرية؟

صدّام وأنا

الوضع في بغداد بدا أكثر تعقيداً ورعباً مما كنتُ أتخيل. فقط عندما عدتُ إلى الفندق وأخبرتُ نارام بما حدث في معسكر الرشيد، أدركتُ الأمر على حقيقته وخطورته. نارام من التابعية الآثورية، وكان بسبب الألفة الفطرية بيننا منذ اللحظة الأولى، الشخص الوحيد الذي أخذت أتعوّد على وجوده بجانبي. وبمرونته ودماثته، كان أقرب إلى طباع أهل الشام منه إلى العراقيين، وبدا جديراً بالثقة، وكان مختلفاً كلياً عن صاحب المطعم البدين البشوش، (أبو جاسم)، وعن مدير الفندق، النحيف الشقي أحمد، وعن صاحب الدكانة المقابلة فيصل (أبو غازي). ودكانته، على صغرها، كانت أشبه بمحلات الخردة عندنا، فيها من العجائب ما لا تجده بالسوبر ماركت اليوم. فبالاضافة إلى صناديق الخضرة البائتة تحت الشمس الحارقة، وعِلب الملبن والتمور على الرفوف، كانت عنده قرطاسية من زمن المأمون، و"ديكتيلو" مُرخصة من أيام الإنتداب البريطاني، وماكنة تصوير مستندات حديثة، عارضاً فوقها التصريح الحكومي لإستعمالها. وفضلاً عن أشياء كثيرة لا توصف، كانت عنده أيضاً طوابع بريدية ومالية ونماذج حكومية عن طلبات الوزارات ودائرة النفوس والضمان الإجتماعي. وكدتُ أجزم أنك لو طلبتَ منه سمّ الفئران لوجدته على الرفّ بجانب أكل القطط! أبو غازي في عقده الثالث كان نبيهاً سريع البديهة، له من كل واد عصا. فكان سمساراً ودكنجياً ومختاراً ومعقباً للمعاملات وسائقاً خاصاً في أوقات الفراغ!

وعندما أطْلعت نارام على "خبرية" المعسكر وإستخفاف الضباط بقضيتي، كان رأيه أن الإلتحاق بالجيش تجربة صعبة حتى على العراقيين أنفسهم، فكيف بالغرباء مثلي، خاصة إذا ما نقلوني إلى مناطق بعيدة عن العاصمة. إستطرد ملاحظاته، وأخبرني أن هناك حلاً سريعاً لمشكلتي لكنه يتطلب "بعض النقود وبعض الجرأة وبعض المخاطرة". في بادئ الأمر، ظننته يلمح إلى حل المسألة برشوة أحد الضباط، أو اللجوء إلى سمسار متخصص بتزوير الجوازات. وأمام إنعدام البدائل، كنتُ منفتحاً على كل الإحتمالات، لا سيما أن الجرأة كانت ملعبي، والمخاطرة كانت هوايتي. وعليه، إبتهج نارام بإنفتاحي على الموضوع، وأعجبته مرونتي، ونادى فوراً على أحمد، وطلب منه أن يُحضر "قوري" شاي من عند "أبو جاسم". عقد حاجبيه وحدّق بعيني و"بق البحصة" قبل وصول الشاي، وقال بثقة تامة: "ماكو غير إصبعك".

لم أفهم عبارته فوراً، لكن سرعان ما إستدركت أنه قال: "ماكو غير نقطع إصبعك". كلماته أذهلتني (حتى أنت يا بروتوس؟)، لكن لم أصدقه. ولو كان أبو غازي هو مَن قالها لصدقته بدون رمشة عين. وهكذا، خِلت نارام يمازحني بإنتظار وصول قوري الشاي. إلا أنه كان جدياً مثل صدام، ومثل سفيره، ومثل والدي. فمن خلال قطع السّبّابَة من يدي اليمنى، أستطيع التخلص من الخدمة العسكرية إلى الأبد. إذ إن من شأن ذلك - حسب رأي نارام - أن يطيح بأهليتي الجسدية لأغراض إطلاق الرصاص والقتال! ورغم جسامة الإقتراح وخطورته، كان يُفترض بي أن أفكر جدياً بالمقايضة بين قطع إصبعي مرّة واحدة، وبين تعرضي للموت بحروب قادمة عدة مرات؟ المخيف فعلاً، أن نارام لم يكن يمزح! فعلى عكس جيوش العالم المتحضّر، لا تلتزم الجيوش العربية لمجنديها بفترات زمنية محددة، ولا بإعتبارات

شخصية اِستثنائية. وما لم يكن "المجرور" إلى الخدمة حائزاً على شهادة جامعية بإمتياز، فقد ينتهي الأمر به "عالقاً" بالجيش ومعلقاً بطرف الحياة لسنوات طويلة. جنود مصر في سنوات حرب الإستنزاف، مثلاً ، كانوا خير دليل على تلك الورطة. فمنهم مع مرور الوقت مَن صار أسيراً لدى إسرائيل، ومنهم مَن أُجبر على البقاء في الخنادق، ومنهم مَن مات في الثكنات على الحدود من حرقة الفراق وجحيم الإنتظار والمرض. أما الناجون من خدمة الجيش المصري، فقد عادوا إلى حياتهم "الطبيعية" مجانين مقهورين مغبونين بعد خدمة متواصلة اِستمرت من عام 1962م إلى عام 1975م. وأمام تلك المعطيات المفزعة راح قلبي يخفق بسرعة الضوء، وكاد الجزع ينال مني ولم أزل بعد في بداية المَهمة. بدا لي واضحاً من أول الطريق أني كنتُ أمام خيارين: إما قطع السّبّابَة وتقبل الواقع المبتور مدى الحياة، أو الخدمة العسكرية والمخاطرة بحياتي من أجل بلد لا يعنيني ولا أنتمي إليه! المفارقة المحزنة أن قطع الإصبع بدا الشيء "الأسلم" لغريب وحيد تائه مثلي. كنتُ بحاجة إلى رأي آخر. رأي لا يناقش مع والدِيّ، لأن مجرد الحديث عن البتر والدماء كان سيقذف الرعب في نفوسهما، ويخلّف عذاباً لا يهدأ في ضميريهما. راجعتُ أوراقي المبعثرة ووجدتُ عنواناً لعمتي، وكانت تسكن في منطقة "المنصور" بالقرب من سباق الخيل. اِتصلتُ بها، ففوجئت بوجودي في العراق واندهشت لخبريتي مع الجيش، لا سيما أن أحداً من عائلتي لم يزر العراق من قبل. وبدوري، فوجئت أنا أيضاً كيف أن والدي لم يتصل بها ولم يخبرها بشيء عن زيارتي. أغلب الظن أنه لم يشأ أن يُحمّلها همي، أو يحمل هو همها بسببي، أو يكون واسطة العقد بيني وبينها. فتركتُ الأمر على أمره. كان واضحاً أن وزارة الدفاع العراقية أيضاً تعلم بقطع الإصبع مخرجاً لتفادي الجندية، لكن لم يكن بيدها إلا تنفيذ القانون. وهكذا، كان قطع الإصبع سراً مفشياً..

بعد عطلة نهاية الأسبوع، وعلى فطور دسم عند أبو جاسم، رحتُ أحضّر نفسي باكراً لموعدي مع وزارة الدفاع. فـ"الكاهي" و"الكايمر "والعسل مع "اِستكانة" الشاي أخذتْ تفعل في رأسي ما لم يفعله "ريوق" من قبل. ولعلّ "الكايمر" وحده من كل الأطباق هو الذي هدّأ روعي واِحتوى أوهامي وأطلق النشاط في عروقي. إنه "معشوق الجماهير" العراقية. "شيء" مُكوّن من قشطة حليب الجاموس وغني بالفيتامينات ومتروس بالطاقة، لدرجة أنه ينقلك من شعور التوجّس والإحباط إلى مزاج الفرح والأمل، كما لو كان مخدِّراً ومنشطاً معاً! يؤكل عندهم عادة مع "الصمّون"، وهو خبزهم الشعبي تقريباً.

الجندي المجهول

في ذلك الصباح، وصلتُ إلى البوابة الرئيسية لوزارة الدفاع، وكان مصيري ينتظرني بفارغ الصبر. وعلى طريقة معسكر الرشيد، أحاط بي جنديان على شاكلة صدام ورافقاني مباشرة إلى مكتب فخم فيه ثلاثة ضباط من المناصب المُعتبرة جداً. كانوا يسترخون على مقاعدهم الوثيرة كما يسترخي موظفو الدولة عادة في بلادنا! أحدهم كان يحمل مسبحة زرقاء، وبدا من حجمها والنجوم الثلاث على كتفه كما لو كان كبيرهم بمرتبة عميد؟. وبعبارة "الله بالخير" المعتادة عندهم، اِستقبلوني بابتسامة ترحيبية عريضة، وأومأ لي صاحب المسبحة بالجلوس قريباً إلى جانبه. كان واضحاً أنهم على علم مسبق بقدومي بتوصية من معسكر الرشيد. وما إن هبط السؤال الأول عليّ، حتى أخرجتُ أسطوانتي، كالعادة، وبدأت أقصّ عليهم روايتي من جديد، بدءً من دراستي ومدرستي، مروراً بسكني وإقامتي في مصر، وعن عمل والدي وجذوره، وأخيراً عن توجيهات السفير العراقي وإقامتي في بيروت.

دار أحدهم نحوي وسألني "خبطاً لبطاً" ما إذا كنتُ عضواً فاعلاً في أي ميليشيا من ميليشيات لبنان؟ لم يسألني إن كنت فدائياً في منظمة "فتح"، مثلاً، أو ناشطاً في حزب البعث السوري، أو اِنتحارياً في كتائب الجيش الثوري الأيرلندي؟ بدا واثقاً أني كنتُ لبنانياً ميليشوياً من النوع الدولي؟ ورغم سذاجتي وقلة خبرتي، شعرت أنهم كانوا مهتمين بصورة خاصة بكل الأشخاص الذين قابلتهم خلال رحلاتي الصيفية إلى أوروبا الشرقية. كان واضحاً من أسئلتهم "المركزة" أنهم كانوا مأخوذين بتعدد سفراتي إلى الدول الشيوعية مقارنة إلى سني ووضعي الدراسي. كانوا يَدورون حولي لتكوين صورة كاملة عن "شخصيتي الحقيقية" وفهم دوافعي للخدمة العسكرية، (وكأني أنا من اِختار تأديتها من تلقاء نفسي؟). بيد أن ما أثار دهشتي فعلاً أنهم كانوا خفيفي الظل مرحين معي طوال الحوار (الإستجواب)، بل كثيراً ما كانوا يتهامسون مع بعضهم البعض ويبتسمون دهشة واِستغراباً، وأحياناً كانوا يقهقهون، وكأنهم يتفرجون على مسرحية فكاهية. لا شك أن لهجتي اللبنانية كانت مدعاة للسخرية وأحد أسباب تهكّمهم. لكن رغم ذلك مرّت معهم لحظات ثقيلة تبادلوا خلالها عبارات فضحت سرّ تسليتهم واِستهجانهم! إذ قال أحدهم للآخرين كلاماً مؤلماً ما زال يطنّ في أذني إلى اليوم: "مسكين هذا المُخَبّل (الأحمق)، يريد الإلتحاق بالجيش طواعية، فيما نحن نهرّب أولادنا للخارج. هاي شلون أهله تركوه هيتشي لمصيره؟". كانت تعليقاتهم عن سذاجتي وعن "اِستخفاف" أهلي بحياتي مهينة جارحة ومزعجة. لكني فعلاً كنتُ أحمق، لأنني تصورت أن ضبّاط صدام كانوا سيكونون فخورين بقدومي من لبنان لخدمة العراق! بيد أنهم، و"لحسن حظي"، عاملوني كما لو كنتُ أجنبياً، أو عراقياً من صنف آخر. كل ما كان يهمني منهم في تلك اللحظات معرفة مسار اليوم التالي. متى سأغادر الفندق واِنتقل

إلى الثكنة وإرتدي الزيّ العسكري؟ نقودي كانت محدودة، ولم يكن معي ما يكفي لأكثر من بضعة أيام.

"كرّ فأنت حرّ"

بين الجدّ والمزح، وبعد مداولات وتصفحات في جواز السفر، قال صاحب المسبحة: "دعوه يحضر إفادة مدرسية، وإشملوه بالعفو من العسكرية بموجبها واعيدوه إلى عائلته"! لكن رغم خبر العفو المفاجئ، شعرتُ لحظتها كالمرأة التعيسة العالقة بين زوجها وأبيها! هل أرسلني والدي إلى الجيش للتخلص من مشاكلي، أم أن الجيش العراقي أعادني إليه كي لا يجازف بمشاكلي؟ طبعاً الخاطرة كانت في غير محلها لأن فكرة الإلتحاق بالجيش وردت أصلاً عن طريق السفير وكان والدي يومها مسافراً.

وعلى طريقة "كرّ يا عنترة فأنت حرّ"، كانت تعليمات العميد واضحة ونبرته جليّة، وأنهى كلامه بحزم قائلاً: "حضّروا لي إستمارات العفو مع الإفادة المدرسية وبرقية وزارة التربية، ولا تنسوا صوَره الشمسية وبصماته والرسوم". هدية سماوية هبطت عليّ من أقاصي المجرات! كانت صدمة سارة، وقد كذّبت ما كان نارام قد أخبرني به عن قسوة الجيش العراقي وعدم إحترامه حتى لخريجي الجامعات بأمارة عبارة يرددها الجيش أمامهم: "خريج مريج، الكلُ يتشطف بالأبريج"، أي إن كل المنتسبين الجدد على مرتبة تحقير واحدة بنظر قيادة الجيش.

وبإنتهاء ذلك اللقاء التاريخي بوزارة الدفاع في ذلك اليوم، 17 تشرين الأول 1977م، أي أربعة أيام فقط من وصولي إلى بغداد، بدا أن فيلم "البؤساء" الطويل قد إنتهى قبل بدئه. تبخّرت دراما قطع الإصبع، وتحولت كوابيس الليل إلى أحلام جميلة. فجأة، تذكرتُ رَطانة والدي،

وعَنّتْ على بالي فلسفته الشهيرة (إذا خشيتَ أَمْراً، فقم له)، يا إلهي كم كان حكيماً ومحقاً! وهكذا، أُزيحت الصعاب من طريقي وكأنها كانت مجرد تهيؤات وأوهام. خرجتُ من وزارة الدفاع منتصراً بدون حرب، ولم يكن قد حان موعد الغداء بعد. فبقدرة قادر "فُرجت الأمور وكنتُ أظنّها لا تفرج". ومع ذلك، فإن فرحتي بإنتهاء المشكلة كانت أقل من حزني على حلّها، وكأني، على فلسفة فرويد، كنتُ أتمنى ضمراً البقاء في العراق لخدمة الجيش! طبعاً لم يكن ذلك بدافع النخوة وحبّ الوطن، إنما بواعز الإستكشاف والفضول، خاصة أنني كنتُ أساساً قد خططت لأخذ سنة إستراحة كاملة قبل الإلتحاق بالجامعة. كانت "فكرة" البقاء في العراق رومانسية بذاتها، فقد راقت لي ودغدغت مشاعري، لكنها بلا شك كانت خطيرة بأبعادها وعواقبها. إذ إن وزارة الدفاع العراقية أشارت عليّ بضرورة إستكمال دراستي بلا إنقطاع إجراءً إلزامياً لتفعيل الإعفاء من الخدمة. وهكذا، فكل ما تبقى عليّ فعله للخروج من العراق كان إحضار إفادة مدرسية من لبنان..

ذاك الفرج المبين كان قدراً جميلاً، وقد استوجب الإحتفال الفوري. طرتُ من فرحتي وسابقت نفسي إلى أول تاكسي بإتجاه الفندق. وما إن وصلتْ، حتى بشّرت نارام، وطمئنته على إصبعي أولاً، وسارعتُ للإتصال بوالدي. وبدل أن يطير من الفرحة مثلي، ظنّ أني كنتُ أتوهم أشياءً تحت حرارة شمس بغداد، فقال محذراً: "لا يبدو أن ما تقوله، يا بني، صحيح أو منطقي". فالسلطات العراقية لن تسمح لك بمغادرة البلاد بتلك السهولة والسرعة!". كلماته تلك سقطت عليّ كحمم البراكين وتركت أوشاماً على خواطري ما زالت بارزة إلى اليوم. تعليقه على فرحتي لم يُحبطني فحسب، بل أوحى أنه لم يرد لي العودة إلى بيروت؟ تحاملتُ وتجاسرتُ، وطلبتُ منه موافاتي بإفادة مدرسية

مصدّقة من الجهات المعنية وإرسالها للفندق بأسرع وقت ممكن. ورغم أن والدي كان مقتنعاً بما قال، لكنه سارع لإنهاء المطلوب منه، لا سيما أنه كان قد شرع عند عودته من مصر بتصديق جميع الوثائق العائلية والمدرسية تحسباً لكل الظروف والإحتمالات!

لم يستغرق الأمر مني بضع ساعات حتى استعدتُ بهجتي كاملة. أما نارام، فبعكس والدي، كاد يطير فرحاً وبهجة لأجلي. كانت له تفسيرات مبتكرة ومثيرة حول قرار وزارة الدفاع إعفائي من الخدمة العسكرية، منها، مثلاً، أني وُلدت خارج العراق، وقد لا يكون عند الحكومة أي سجلات عني خارج السفارة في بيروت. (شخصياً رأيتُ في تفسيره ذاك شيئاً من منطق. إذ إن الوثائق العراقية في بيروت كانت قد اِحتُرقت، أو أُتلفت، أو فُقدت، أو سُرقت عدة مرات خلال معارك الميليشيات في محيط السفارة العراقية. وفي عز أيام الحرب اللبنانية لم يكن هناك غير الحقيبة الدبلوماسية وسيلة آمنة للبريد السريع بين بيروت وبغداد، وكانت تستعمل أساساً لنقل "أشياء" أكثر أهمية وخطورة من مجرد سجلات الرعايا العراقيين وجوازاتهم). ثم إني كعراقي "متلبنن" - حسب تعبير نارام - كنتُ عنصراً "غريباً" عن العراقيين في نظر قيادة الجيش العراقي، وربما نُظر إلي نظرة اِرتياب بسبب عدم توفر معلومات وافية عني في دوائر الدولة. وأغلب الظن أني كنتُ بنظرهم "مادة غامضة" (أو ملغومة) قد تسبب لهم اِلتباسات، هم كانوا في غِنى عنها أمام مجنديهم ضمن نسيج البيئة المحلية. وأنهى نارام تفسيراته قائلاً: "وفي جميع الأحوال، إن إعفاءك من الخدمة العسكرية أمر مُبرّر بدواعي حاجتك إلى إكمال دراستك بموجب ما يسمح به القانون". ومَن يدري، فلربما كان نارام نفسه بعثياً أو واحداً "منهم"، أو عميلاً سرياً مسؤولاً عن تتبع تحركاتي وأفعالي أثناء وجودي في بغداد؟ ومَن يدري أيضاً، فلربما كان هناك آخرون

يتجسسون عليّ وعلى نارام معاً. فنظام صدام التجسسي كان عادلاً بظلمه على الجميع..

تحت السواهي دواهي

وبإنتظار وصول الإفادة المدرسية من بيروت، كنتُ يومياً أزور مَعلماً من معالم العاصمة، خاصة مناطق السياحة المجانية، كحديقة الزوراء والمتحف الوطني والمواقع التاريخية والثقافية. وقد إستهويت الكتابة عن بعض المعالم الثقافية، وأعددت من عنديات تحقيقاً صحفياً ميدانياً من ثلاث حلقات وأرسلته إلى المجلة في باريس. كانت المجلة - بسبب تبعيتها لنظام صدام - متوفرة لدى نقاط بيع الصحف وبعض المكتبات بوسط العاصمة. فجأة، وعلى ضوء الفرج من الخدمة العسكرية، أصبح كل شيء بعيوني أكثر لمعاناً ونضارة وبهجة. وحتى نارام نفسه رفع الكلفة كلياً بيننا بعدما أيقن أني فَلتُ من الخدمة وسأغادر العراق قريباً. فدعاني إلى عشاء تكريم وتعارف مع عائلته في منزله. كانت لفتة كريمة وخطوة جريئة منه بالنظر إلى أن العادات العراقية محافظة جداً ومتحفظة، خاصة مع الغرباء والأجانب. ولكن ما فاجئني وأثار دهشتي فعلاً أنه، وعلى عكس فندقه المترهل في منطقة شعبية وسط بغداد، كان يسكن في بيت عصري كبير في منطقة "الجاديرية"، حيث كانت تقطن طبقة ميسورة وديبلوماسية وبعض كبار أعضاء البعث. كانت حديقة منزله الأمامية تشبه بوكيه كبيرة من الورود والأزهار، وكانت حديقته الخلفية مطرزة بأشجار الفاكهة، أشبه ببستان إستوائي كبير. ولسبب من الأسباب، بدا نارام في بيته أكثر ثراء وأناقة من حاله وهندامه في فندقه المترهل؟

وأثناء وجودي مع عائلته وأصدقائه المقربين، سحبني نارام بهدوء جانباً وطلب مني توخي الحذر بما أقول وأردد أمام الحاضرين. وهنا

باح لي أن واحداً من أقاربه الحاضرين كان عضواً ناشطاً في حزب البعث، لكن نارام نفسه لم يكن يعرف مَن هو تحديداً (؟). كان تحذيره لي صادماً وغريباً، وقد ذكّرني بما قرأته مرّة عن ألمانيا النازية، حيث كان كل فرد من أفراد الأسرة يتجسس على الفرد الآخر بتفويض سري من "الجستابو"! كلهم كانوا أعضاءً في الحزب الحاكم برئاسة هتلر، وكلهم كانوا تحت الرقابة. طبعاً، كلامه لم يرهبني كثيراً لأنني لم أكن بعثياً، ولا شيوعياً، أو نازياً. كان نظام التجسس العائلي لحساب البعث أحد أساليب صدام المعروفة لإقامة جدران دفاعية لتمكين سيطرته وحماية نفوذه وسلطته. الأمر مع صدام لم يقتصر فقط على مراقبة خصومه الواضحين، مثل الشيعة والشيوعيين، بل كان يراقب أيضاً أنصاره المقربين في حزب البعث على الطريقة النازية. صدام كان مهووساً بالأمن القومي، ومتوجساً إلى حدّ الوسوسة من الخيانات، وقد أقام بسبب هواجسه مراقبات سرّية، وزرع لها جواسيس في جميع أنحاء البلاد، خاصة في العاصمة والنجف وكربلاء وكركوك والموصل.

وبخلاف "أسوار أريحا" والجدران العتيقة في المدن العربية، بغداد لم تكن فيها من الأساس بوابات أو تحصينات أمنية حقيقية عبر التاريخ. كانت وَهرة العباسيين في الماضي وحدها بمثابة جدران الحماية المنيعة التي كانت تعكس جبروت الحكم وروعته آنذاك. لا عجب أن "هولاكو" عندما اِقترب منها عام 1258م وجدها مكشوفة تماماً بإنتظار دخوله عليها. فدخلها ببساطة وسهولة، وتمكن من تدميرها بأقل من أسبوعين بلا مواجهة صريحة أو مقاومة تذكر. وبخلاف عواصم الإمبراطوريات التقليدية الأخرى، كانت إمبراطوريات ما بين النهرين تَستخدم مواقع مختلفة كعواصم لها، ولم تستخدم نفس المواقع المركزية، كما هو الحال، مثلاً، مع أثينا وروما وثيبا والقسطنطينية. وعلى مبدأ "ياما تحت السواهي دواهي"، كانت

"العيون والآذان" في كل منزل ضرورية لصدام إلى درجة أن بعض المواطنين كانوا يستمعون "صمتاً" وسراً إلى هيئة الإذاعة البريطانية من خلال السماعات الذاتية تجنباً لوشاية أحد من أفراد العائلة! كان صدام حريصاً على ألا يَنبت له معارضون من داخل حزبه، كما فعل البويهيون مع الخليفة العباسي، المطيع، في القرن العاشر الميلادي. وكذلك كان متوجساً إلى حد الإرتباك من ولاء بعض الشيعة لإيران، خاصة في كربلاء والنجف. ولكن رغم حرصه وتوجساته وإحتياطاته، ظهر له في نهاية المطاف "هولاكو" من نوع آخر، جورج دبليو بوش، وإستباح العراق. فمن خلال الغزو الأميركي عام 2003م، إنهارت بغداد تحت قصف بوش بذريعة "أسلحة الدمار الشامل" وعدم إحترام حقوق الإنسان ومساندة الإرهاب. ذرائع الأميركيين بدت "أكثر جدية" من حجج صدام في تبرير حكمه!

إقتصاد الجبابرة

أمسيتي مع نارام وعائلته أثارت خلجات وجدانية قديمة، لكن كانت ممتعة للغاية. نقلتني من أجواء الإرتباك والعسكر إلى الهدوء والسكينة. في صباح اليوم التالي، دقّ نارام باب غرفتي على غير عادته وقال: "وصلتك رسالة من بيروت". قالها بفرح وحماس كبيرين، كما لو كان يعلم مقدماً ما كان بداخلها. بلهفة المشتاق، تناولتها منه خطفاً، ولم تكن رسالة، بل طرداً دسماً معتبراً! وبالفعل، كانت فيه أيقونة الفرج بذاته. طردٌ صغير بحجم الكتاب غيّر قدري وحمل مفاتيح جديدة لوجهتي ومصيري. نارام إشتم منه رائحة النقود، فاطمئن سلفاً على تسديد دَيني عنده. كانت هناك رسالة مقتضبة من والدي، وكاسيت مسهبة من والدتي، وشيكات سياحية من "توماس كوك". والأهم من ذلك كله، كانت هناك صاحبة الجلالة، "الإفادة المدرسية" نفسها.

الملفتُ في الأمر أن الطرد يومئذ وصلني من بيروت بسرعة عجيبة، كما لو كان بريد العراق قد تأسس لمصلحتي فقط! تلك ربما كانت واحدة من "فوائد" الإستعمار البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى! إذ إن بريد بغداد آنذاك كان ما يزال يُقلّد في أنظمته البريد الملكي البريطاني ويحذو حذوه في تسليم الرسائل والطرود يومياً إلى معظم العناوين في بغداد الصغرى.

الحكومة العراقية في تلك الأيام كانت تسيطر على النظام النقدي في البلاد عموماً، إلا أن سوق المال اِستمرت مُحرّرة من أي قيود عملية. فالحصول على العملات الأجنبية كان متاحاً للجميع، وإن بسقوف محددة من خلال المصارف الحكومية. كانت هناك ضوابط شكلية لكمية العملة الصعبة المراد تلقيها أو تحويلها، لكنها في معظم الحالات كانت سخيّة جداً لمن أراد السياحة أو الدراسة أو الطبابة في الخارج. وعلى الرغم من ثراء العراق، كانت السلع الأساسية، مثل الخبز والبيض والدقيق والرز، تُدعم تماماً من باب التوكيد لمصلحة محددوي الدخل، فيما كانت الخدمات الحيوية، كالتعليم والطبابة مجانية بالكامل. ومع وفرة النفط والتمور والمعادن والمياه والأسماك والمواشي، كان العراق دولة مكتفية ذاتياً بالموارد البشرية والطبيعية. كان اِقتصاده يسير بسرعة البرق على سكك موازية لإقتصاد الجبابرة. ولولا ذلك الإكتفاء الذاتي الذي حققه العراق، لما زجّوه أصلاً بحرب طاحنة مع إيران، وورطوه بغزو مميت للكويت، واِنهكوه بحرب مع الأميركيين، وأخرى مع المقاطعة الدولية. والعراق في تلك الأيام لم يكن مُكتفياً وحسب، بل كان عائماً على أرصدة هائلة من الإحتياط النقدي والذهب، فضلاً عن النفط ومياه دجلة والفرات. ثم إن نسبة المتعلمين من سكانه كانت عالية جداً مقارنة بدول الجوار، وكان منهم عدد لائق من العلماء في حقول الجيوفيزياء والكيمياء والطاقة النووية والنفطية والغاز. وقد تمكنوا من الوصول إلى مراتب عليا من خلال

البعثات الحكومية والتمويلات السخية لبرامج الأبحاث والتطوير. ولولا الخوف من قدراتهم العلمية على تطوير العراق ونقله إلى مراتب الدول العظمى، لما اِصطادتهم إسرائيل واحداً تلو الآخر كلما أشرفوا على الإنتهاء من بعثاتهم وقاربوا العودة إلى العراق.. ولأن عمليات الإغتيال سرية بطبيعتها، فلا يوجد عدد موثوق عن العلماء والأكاديميين العراقيين الذين صفتهم مخابرات "الموساد"، لكن قدّروا بالحد الأدنى بما يزيد عن 5500 بينهم طيارون وباحثون!

ورقة جوكر

مسلحاً بإفادة مدرسية أصلية ومصدّقة من الجهات المعنية، سارعتُ إلى وزارة الدفاع كما يسارع الفائز لإستلام جائزته. وحسب التعليمات، سلّمتها إلى قسم الشؤون القانونية مع صوري الشمسية والرسوم المطلوبة. كانت الإفادة بمثابة ورقة الجوكر، وقد أنجزتُ من خلالها المَهمة المستحيلة وعَبرت بها من ثقب الإبرة وتنفست الصعداء. وبعد أيام قليلة أصدرتْ لي وزارة الدفاع ما يُسمّي عندهم بـ"دفتر الخدمة العسكرية" كدليل رسمي على إعفائي من الخدمة. كان شعار "نسر الدولة" محفوراً على غلافه، تماماً كما كان يُنقش في الماضي على آثار البابليين رمزاً لإينانا، إلهة الحب والحرب. بل حتى الآشوريون الأوائل، كانوا يستخدمون النسر أيضاً في منحوتاتهم وعلى مبانيهم. أما نسر العراق الحديث، فربما قصدوا منه الإشارة إلى فترة اِنتقال السلطة من الملكية إلى الجمهورية أيام عبد السلام عارف. ولطالما كان النسر رمزاً للقوة والجبروت عند معظم الحضارات القديمة، بل حتى في بلدان حديثة أيضاً، لأنه الطير الوحيد الذي يطال طرائده من الأرض والبحر والسماء ولا يطاله أحد. في ذلك اليوم، كنتُ أنا نسر الأرض كلها، إذ تمكنتُ من هزيمة صدام وضبّاطه

وجيشه معاً، وإن عن طريق الصدفة والحظّ. أخذتُ دفتر الخدمة العسكرية - وهو بحجم كفّ اليد - ومسكته مسك الحبل على الجرار وقلّبت صفحاته كما لو كنتُ أتصفّح "لفائف قمران". فكان - على حجمه الصغير - كبيراً بنظري وعظيماً بنظر الجيش العراقي. كنتُ مذهولاً بقيمته العملية، ومنتشياً بالفرح، ومغموراً بالراحة. كان حظي يومها محبوكاً في السماء بأياد من حرير..

حملتُ الدفتر بجيبي وطرتُ به إلى نارام. أردت شخصاً غيري أن يلمسه فوراً ويقنعني أنه كان أصلياً. وعندما مسكه وقلّب صفحاته، لم يؤكد صحته فحسب، بل لفت نظري منه إلى أننا فهمنا قرار العفو بطريقة مغلوطة! لم يكن عفواً مشروطاً بإنهاء الدراسة، بل كان عفواً خالصاً صافياً بموجب قانون صدر قبل وصولي إلى العراق ببضعة شهور. لا بد أن حظي كان فعلاً محاكاً على "البكلة" بمشيئة ربانية! وعلى الفور اِتصلت بوالدي، لا لأبلغه بالأخبار السارة فقط، بل أيضاً "لأغيظه" بحصولي على الإعفاء النهائي من الخدمة العسكرية. أردتُ - على طريقة فرويد - أن أثبتَ له أنه كان مخطئاً في تقديره، (إن السطات العراقية، يا ولدي، لن تسمح لك بمغادرة العراق بسهولة). لكن ها هي سمحت يا أبي؟ كنتُ صبيانياً في تصرفي، وكنتُ ما أزال أتحسس طريقي بين المراهقة والرجولة.

مسكوف أم مشقوف؟

ومع دفتر الإعفاء من الخدمة في جيب، وفلوس "توماس كوك" في جيب آخر، حان الوقت لردّ الجميل لنارام على مواقفه وشهامته معي. وهل كان هناك أشهى من السمك للتعبير له عن اِمتناني وشكري؟ بغداد كانت واحدة من أفضل المدن في تقديم السمك النهري، ويُسمى

عندهم "المسكوف". هناك على ضفة دجلة يقع شارع "أبو نواس"، وهو مشهور بتقديم "المسكوف" على الطريقة التقليدية العريقة. غالباً ما تكون سمكة "المسكوف" سمينة بدينة بطول الذراع تقريباً، وتُوزن عادة حية أمام الزبائن، ثم تُفلق من ظهرها شقفتين على قطعة واحدة. وهكذا، تُرفع السمكة "المشقوفة" على أسياخ حديدية وتُشوى عن "بعد قريب" على نار حطب منثور حولها بشكل دائري. وتبعاً لحجم السمكة ودهنها، يستغرق شويها عادة ساعتين ونيف. وكمعظم الأشياء في العراق، يعود تاريخ "المسكوف" إلى عصور ما قبل الزمن. وهو يحظى بشعبية كبيرة على اِمتداد دجلة والفرات. نهران خالدان سكنتْ على ضفافهما - بعكس ضفاف النيل - أعراق متنوعة كثيرة ذات ثقافات متعددة. ومن يُراود مطاعم المسكوف في "أبو نواس"، لا يسعه إلا أن يسرح بخياله إلى أجواء العصور القديمة، ويستشعر عبق أرض "شنعار" وعظمتها. بلد حافل بتاريخ العز والفخر، أقله من باب الإنتماء إلى حضارة وادي الرافدين الخالدة؛ بيد أن أجواء التراث على ضفاف دجلة تعكس أيضاً - للمفارقة - مزيجاً من مشاعر الحزن والهمّ والقلق. أحاسيس تنضح جلياً من الأغاني العراقية، وتلعلّع طرباً على مسامع آكلي المسكوف والسكارى. وبدل أن تُعزز مشاعر البهجة والفرح، تفجّر في الرؤوس خواطر الحنين، وتثير في النفوس أسى الأحزان، وتعيد إلى الذاكرة مأساة نوح والطوفان! وباستثناء المصريين، فإن العراقيين هم أكثر الشعوب دراية بتاريخ بلدهم وجغرافيته بين دول الشرق الأدنى كلها. وهم بمعظمهم يعرفون العراق باسمائه المختلفة، كبلاد ما بين النهرين، أو شنعار، أو عيلام، أو بابل، أو سومر، أو غيرها من أسماء تعلّموها منذ الصفوف الإبتدائية.

نوادر كثيرة سمعتها في "أبو نواس"، لكن أطرفها أن أكل "المسكوف" مع التوابل الهندية والمخللات العراقية يجعلك خبيراً في تاريخ حضارات العراق القديمة!؟ يومها لم أكن فقط شرهاً أكولاً، لكنني كنتُ أيضاً شرّيباً ذويقاً للعرق، وهو في العراق يُصنع من التمر وأنواعه. أما في لبنان، بلد الكرمة والعريش، فيُصنع من العنب، لكنه لا ينافس حِدة العرق العراقي ولا مدى تأثيره على الحسّ والوعي. وعلى الألحان الوجدانية تحت تأثيره، كنتُ مع نارام كمن يطفو خفيفاً في عالم أحلام اليقظة، لا سيّما أن المطعم كان مفتوحاً على الهواء الطلق ومطلاً على ضفة النهر مباشرة تحت شجر الصفصاف. ولعمري، ما زلتْ أسمع إلى اليوم صوت الموج وزقزقة العصافير وحفحفة الأوراق وهمسات الناس من حولي. كان مشهداً سريالياً خلال النهار، مع العلم أن شهرة المكان قامت أساساً على أجوائه الرومانسية في الليل. كان شارع "أبو نواس" عصرياً بمعايير ذلك الزمن ومفعماً بحركة السيّاح ورجال الأعمال، إلا أن العوائل عموماً كانت تتجنبه بسبب وجود القصر الجمهوري بمواجهته مباشرة على الضفة الأخرى! ومن شدة الإنسجام والسرور مع جليسي نارام، تمنيتُ لو أن غداءنا اِستمر حتى العشاء، لكن لكل بداية نهاية. فقد كنا بوجبة الظهيرة آخر إثنين في المطعم. كان أكثر ما لفت اِنتباهي عند دفع الحساب، أن الجرسون العراقي لم يرضَ بأخذ البقشيش، كما لو كان برطيلاً! فبالرغم من أني تركت له 30% من قيمة الفاتورة تعبيراً عن اِمتناني لخدمته، وعن فرحتي بإعفائي من الخدمة العسكرية، فقد رفض قبول البقشيش بشكل قاطع. كانت تلك أول مرّة أحاول فيها "تكريم" جرسون منذ وجودي في العراق. الثقافة والعادات الإجتماعية أيام صدام كانت مختلفة جداً عما صارت عليه بعده. كان البقشيش في العراق يُعتبر نقيصة اِجتماعية وإهانة شخصية. وكان معظم العراقيين آنذاك يرون في "الإكرامية" إشارة تحقير ومذلة. ظاهرة ثقافية نابضة تعطي

الغرباء فكرة واضحة عن إباء الشعب العراقي وكبريائه، وعن خِصال وسمات رافدية تعود إلى العصور الأولى. ولولا المقاطعة الأميركية الغاشمة قبل غزو العراق لما أُجبر الناس على التعاطي بالأمر الواقع وقبول أشياء كانت تعتبر من الكبائر..

اليهود بأرض الرافدين

العراق، بالنسبة للغرب، هو بابل وملحمة جلجامش وآلهات الأنوناكي. إنه مصدر القوانين التي إستنبطها السومريون لبناء حضارتهم. هو مسقط رأس واحدة من أقدم اللّغات وأصعبها على وجه الأرض. ولولا كتابات السومريين وإبتكاراتهم لما تطوّرت الحضارات من أساسها أصلاً، أو ربما لما كان سفر "البدء" نفسه قد ظهر في التّوراة. ورغم آلاف السنين والتطورات التكنولوجية، ما زال العالم يستعمل النظام السومري الستيني، ويقصد به تقسيم الزمن بدقة إلى وحدات تتكون من مضاعفات الرقم 60، مثل 60 ثانية في الدقيقة إلخ. وكان السومريون في ذلك الوقت يستخدمون النظام الستيني للملاحظات الفلكية، ولقياس الزوايا والوقت. أما من الناحية الثقافية الإجتماعية، "فشريعة حمورابي" وحدها تعتبر تُحفة أخلاقية ما زال بعض موادها يُطبق في الغرب إلى اليوم ضمن قوانين "حقوق الإنسان". والواقع أن الشريعة، التي تتألف من 282 مادة، وتحمل اسم حمورابي، ليست من تأليف حمورابي نفسه، ولا من إستنباطاته وحده، كما يُروّج في الدوائر التاريخية والغربية، بل هي خلاصة لقوانين وأعراف كثيرة كانت مستخدمة في زمن أجداد حمورابي، ويعود تاريخها الأساسي إلى عام 2200 ق.م. إلا أن عظمة حمورابي، لم تنبع فقط من مجد حكمه ومدى سيطرته وهيبته، بل أيضاً من حكمته بضرورة جمع تلك المواد، وإصراره على إتخاذها معايير أخلاقية منصفة لسلامة العيش والتعامل والمساءلة. وقد يكون من أسباب عدم

اِعتراف الغرب بأقدمية الشريعة، أن الإعتراف نفسه يفضح المسألة ويبيّن الوجود الأخلاقي في بلاد الرافدين حتى قبل ظهور إبراهيم بألف سنة على أقل تقدير. ما يعني أن إبراهيم قد يكون نهل من الشريعة السومرية لتصويب معتقداته الأخلاقية..

أما بالنسبة للعرب، فالعراق أرض الخلافة العباسية ومقر هارون الرشيد (800 م). في عهده تأسس "بيت الحكمة" الشهير، وكان يضم أضخم مكتبة في العالم آنذاك كما لو كنا نتحدث عن مكتبة الكونغرس في عصرنا الحالي. كان "بيت الحكمة" بمثابة المنتدى الأممي لحركة تبادل المعارف والترجمة في ذلك الوقت. بغداد يومئذ كانت القناة الرئيسية لتمرير الأعمال المهمة ونقلها من اليونانية والهندية والفارسية والسريانية إلى العربية. وبمهارة عجيبة، اِستطاع علّماء العصر نسج كتابات لا تحصى من الأعمال الأدبية والقصص وربطوها ربطاً جمالياً "متملقاً" بعصر الرشيد. فكانت منها، على سبيل المثال، روايات دهرية عظيمة ترددت على ألسنة الناس، مثل "ألف ليلة وليلة"، و"كليلة ودمنة". قصص أخرى خالدة تم اِقتباسها من يوميات القصور أو تعريبها بشكل رائع واِنتشرت على نطاق الدولة العباسية من المحيط إلى بلاد فارس. وقد صارت هذه القصص فيما بعد مصدر إلهام لمفكرين غربيين كثيرين، وربما تحورت "كليلة ودمنة"، مثلاً، على يد جورج أورويل، فاِستلهمها وطوّعها بطريقة أخرى لكتابه الشهير "زريبة الحيوان". وهكذا، فإن المفكرين والفلاسفة عبر التاريخ يقتبسون لعلّومهم وآدابهم وفلسفاتهم ما يستطيعون غَرفه من المستودع البشري.

***

أما فيما يخصّ اليهود تحديداً، فالعراق هو "الموقع الرهيب" لمنفاهم الأول. هناك كانت لهم ملحمة الإشتياق للرجوع إلى الوطن، كما

جسّدته فرقة "بوني أم" الألمانية في أغنيتها الشهيرة، وإختصرت فيها سبعة عقود من الإغتراب والعذاب، وتقول الأغنية: "على ضفاف أنهار بابل، هناك جلسنا، نعم وبَكينا عندما تذكرنا صهيون.. بَكينا عندما طلب منا الملاعين الذين سَبونا أن نغني لهم ونطربهم. طلبوا منا أن ننشد لهم من أناشيد صهيون. لكن كيف نرتل أناشيد الربّ في أرض غريبة؟". ورغم كلماتها المأساوية المعبّرة، إلا أن لحنها مفرح بإمتياز ويؤدي غرضها. لكن بأغنية أو بدون أغنية، فإن اليهود لا ينسون عذاباتهم عبر القرون، وهي لا قيمة لها بدون إعتبارين أساسيين: السبي في العراق، (الأول والثاني) ومدينة أورشليم. وعن السبي الأول، تقول الرواية التوراتية إن ملك الآشوريين تغلث فلاسر الثالث (745-726 ق.م) سيطر على مملكة إسرائيل، ونقل الكثير من سكانها قسراً إلى حاران وخابور في شمال العراق. تلك العملية كانت واحدة من الأمثلة العديدة لسياسة تهجين التوطين التي إعتمدها الآشوريون. أما السبي الثاني، وهو الأكبر والأطول والأشهر، فتم خلال الحقبة البابلية الثانية على أيدي الملك نبوخذ نصر. وكان ذلك بعد أن دمّر معبد اليهود في أورشليم عام 586 ق.م (هناك من المفكرين والبُحّاث مَن يشك أن أورشليم هي القدس نفسها) وجرّهم أسرى على مراحل إلى أرض المنفى في العراق. وعلى ضفة الفرات بالقرب من الفلوجة اليوم في محافظة الأنبار، ظل اليهود مسبيين 70 عاماً تقريباً، إلى أن حررهم الإمبراطور الفارسي قورش الكبير، وقد أُطلقوا عليه اسم "الماشّياح" لمساعدتهم في العودة إلى مدينة أورشليم. و"الماشّياح" لقب يشير إلى مكانة قورش الفريدة في التوراة، بإعتباره شخصاً غريباً عن اليهود أعطاه الله مهمة تحرير شعبه المختار. بيد أن اليهود، (وهنا الخديعة الكبرى)، لم يكونوا وحدهم الذين أُسِروا وقُيدوا بالسلاسل، أو أُعيدوا إلى ديارهم، ولا أُجبَروا على شيء لم يتعرض له غيرهم من أسرى الأقوام الأخرى. بل العكس تماماً، منهم

مَن تمكن من الإرتقاء إلى مناصب عليا في حقل الخدمة المدنية والعمل في مرافق الدولة الأخمينية وقصورها.

المفارقة بعد 2500 سنة على تحرير الفرس لليهود من براثن الأسر البابلي، أن الودّ بينهما تحوّل إلى عداء مرير إثر وصول الخميني إلى الحكم وإشتد في أعقاب حرب غزة (7 تشرين 2023م). لكن التعبير الأصحّ، هو أن العداء قائم أصلاً بين الإسرائيليين وإيران، وليس إطلاقاً بين اليهود وبين الفرس. هاتان الدولتان (إيران وإسرائيل) تتنافسان بشراسة من أجل السيطرة على العرب وسدّ فجوة الزعامة، خاصة بعد إعدام صدام. ومن وقائع حرب غزة في 2024م، بدا واضحاً للعالم مدى إجرام البلدين وإستعدادهما للتدمير والقتل في سبيل النفوذ والهيمنة. كل منهما يدّعي الحقّ والفضيلة متذرعاً بنصوص مقدسة (التّوراة والتلمود بالنسبة لإسرائيل) و(أقوال أهل البيت ودعوى ولاية الفقيه بالنسبة لإيران). وفي 13 حزيران 2025م، وصل النزاع بينهما إلى حدود الإنتحار السياسي، وإلى هاوية المواجهة العسكرية على مبدأ "يا قاتل يا مقتول". كانت حرباً تجريبية طاحنة" دامت 12 يوماً بين طيران إسرائيلي مُهيمن على أجواء إيران، وبين صواريخ محكمة على شوارع إسرائيل. ولولا هلاك إيران من جهة، والدمار الكبير الذي لحق بإسرائيل من الجهة الأخرى، لما توقفا عن القتال مع أول مبادرة هدنة من قبل قطر بإيعاز من أميركا. إلا أن إستئناف الحرب لحسمها نهائياً مرهون بمسألة وقت في ظل حكم نتنياهو وترامب!

والعراق الذي لطالما كان في التاريخ العتيق ملاذاً رائعاً لكل الأقوام، وطريقاً خصباً بين الغرب والشرق، تدحرج عبر الأزمنة إلى قعر الأمم، وصار منطقة مقسّمة بين الطامعين بنفطه وغازه وموارده. ووفقاً لعلّماء الجينيات والوراثة، يعتبر العراق اليوم الخط الفاصل

بين الأعراق البارزة: بين العرب، وبين الأكراد، وبين الأتراك، وبين الفرس. وبات موضوعاً لا مفر من طرقه بين الأكاديميين والمؤرخين واللاهوتيين، حتى وإن لم تكن بلاد ما بين النهرين من ضمن اِختصاصهم! أما بالنسبة لي شخصياً، فالعراق، وإنْ كان مسرحاً وجدانياً عابراً، فقد عشش في مخيلتي مدى العمر. كنتُ أثناء وجودي فيه تماماً كاليهودي المسبي على ضفاف دجلة، أنشد مع صباح "عالضيعة يمّا عالضيعة"، وأبكي مع وديع "على الله تعود يا ضايع في بلاد الله"..

رقم الحظ

بعد أربعة أشهر من الروتين القاتل، والمفارقات المضحكة في دوائر الدولة، اِكتملت كل الإجراءات والمستندات. فكان يوماً رائعاً آخر يوم سلّمتُ دائرة الهجرة جواز سفري المترهل مع الإفادة المدرسية المصدّقة ودفتر الخدمة العسكرية وصوري الشمسية والرسوم. قدمتها لهم من شباك التدقيق، وكنتُ أتحدّاهم في خلدي أن يجدوا لي غلطة واحدة أو نقصاً أو هفوة. فتناول المأمور المستندات مني ودقق فيها، ثم مال نحوي وسألني (كالعادة) إنْ كنتُ مصرياً أو فلسطينياً (؟). وما إن بدأت بتشغيل أسطوانتي المشروخة، حتى اِستطرد قائلاً: "لا تبالِ إني أمازحك - فبموجب تقرير أحد الرفاق بشارع الرشيد، ورد أنك مصري التبعية من أصول عراقية"! يا إلهي! هل كان كلامه زلة لسان عن وجود تقرير استخباراتي عن حالي وأوضاعي، أم كانت إشارته مجرد زكزكة متعمدة؟ في جميع الأحوال، كانت ثقتي بنفسي يومها أكبر من ثقة صدام حسين بطارق عزيز، وكانت فرحتي بإنهاء المعاملة أعظم من فرحة الإسكندر يوم دخل بابل. وهكذا، اِنتهى كل شيء معي على ما يرام وحصلت من ضابط الجوازات على إيصال

لإستلام الجواز الجديد بعد أسبوع من تاريخه، وكان الإيصال يحمل رقماً مميزاً، هو (222).

كان أسبوعاً طويلاً، أمضيته بمزيد من "الكزدرة" و"شمّ الهواء" وإستكشاف أسواق بغداد القديمة. ومن خلالها عرجت على مناطق تاريخية عريقة أشعرتني كما لو كنتُ أتجوّل مع أبي نواس أو معروف الرصافي. ومررت بمناطق أخرى غريبة مشبوهة شعرت فيها كما لو كنتُ مراقباً من الخليفة المنصور نفسه. ومن بين الأماكن الملفتة، زرتُ أيضاً سوق الهرج والغزل، ومنطقة الدورة وأحيائها البالية، وهي من الأسواق القديمة التي يعود بناؤها إلى الدولة العباسية. كما تفقدت ساحات الفردوس، والميدان، والملكة عالية (التحرير لاحقاً)، وساحة السباع في منطقة الحدادين، فضلاً عن حارات تراثية عريقة في بغداد القديمة، مثل الكاظمية والبتاوين والشورجة. كان شارع المتنبي بالنسبة لي بمثابة بوصلة مركزية لكل الأماكن التي كنت أقصدها، منه كنت أنطلق بكل الإتجاهات، حتى عندما لم يكن السير منطقياً أو مناسباً أو قريباً من خلاله. أما المناطق الحديثة نسبياً التي تقصدتها في العاصمة، فكانت: الداودي، والمنصور، وعرصات الهندية والجادرية. وفي إحدى المرّات "تسللت" ليلاً إلى منطقة "أبو نواس"، فوجدتها تشبه جانباً من جوانب حي "بيغال" في باريس!

أمك، ثم أمك ثم أمك!

بعد إنقضاء الأسبوع باللحظة والثانية، كنتُ من أوائل الواصلين إلى دائرة الهجرة. إلا أن طابور المنتظرين أمام شباك إستلام الجوازات كان، يومها، أطول من طوابير الجمعيات التعاونية في القاهرة أيام السادات. منها، كان واضحاً أن العراقيين يحبون السفر والهروب من شمسهم الحارقة. كانوا يتحضرون للمغادرة باكراً رغم بعدهم عن

اِنتهاء الموسم الدراسي وبدء العطلة الصيفية. ولما جاء دوري بعد طول اِنتظار، ناولت الموظف إيصال رقمي السحري (222)، فسحب ملفي بموجبه، وفاجأني بقنبلة دخانية من العيار الثقيل، وقال: "أنت ممنوع عن السفر". يا إلهي، قالها ببرود واِستخفاف، لكنها صدمتني وأولعت نار جهنم في عروقي! وللحظة، خُيّل لي أنه ربما كان قد سمع ما دار بخلدي منذ أسبوع حين تحدّيتهم أن يجدوا لي نقصاً واحداً، أو هفوة في المستندات؟ أفزعتني كلماته المفاجئة وأحبطني قرار المنع من السفر دون جرم أو ذنب. فجأة، عنّت على بالي كلمات والدي من جديد: "إن السطات العراقية، يا ولدي، لن تسمح لك بمغادرة العراق بسهولة". شعرتُ لحظتئذ أنه كان محقاً على طول الطريق منذ البداية..

وبِاِستيضاح دواعي منع السفر، أحالني موظف الجوازات إلى ما يسمى عندهم بـ"قسم لوائح الممنوعين"، وهو يتبع إدارياً لجهاز المخابرات الداخلية. وبِاِستثناء المجرمين والمعارضين السياسيين والجواسيس، فإن الممنوعين من السفر كانوا آنذاك ممن يريدون التهرّب من الخدمة العسكرية، أو التملّص من أحكام قانونية ضدهم في قضايا إرثية أو تجارية. وعند شباك "لوائح الممنوعين"، فهمتُ أن تشابهاً بالأسماء كان السبب في منعي من السفر. ففي تلك الحالة تقوم دائرة الجوازات، عادة، بوقف إجراءات إصدار الجواز ريثما تتأكد من إسم الأم، بِاِعتباره العنصر الفارق لتحديد الهوية الحقيقية لطالب الباسبور. من حظي الكبير أن اسم أمّي مميز جداً ونادر الإستعمال رغم شهرته العالمية. فإسم "بلقيس"، كما ورد في الإسرائيليات والتلمود عن ملكة سبأ، قليل التداول بين الناس في العالم العربي. لا بل من لطف الله عليّ أنه لم يكن لديهم "هشام" غيري من أبوين اسمهما "بلقيس" و"حسن" بنفس تاريخ ميلادي! وهكذا، لم يطلبوا مني سوى إثبات اسم أمّي رسمياً لإنهاء الإلتباس ورفع المنع. لكن من أين في

بغداد أحضر لهم ما يثبت اسم أمّي، ومن أي وثيقة؟ فحتى التّوراة والإنجيل والقرآن، حيث ورد ذكرها لأول مرّة في التاريخ، كملكة سبأ، لم تذكر "بلقيس" بالإسم، مع أن اِرتباطها بسليمان أشهر من اِرتباط صدام بالعراق..

***

عدتُ مكسور الخاطر إلى "قاعدتي" عند نارام، وسارعت إلى مهاتفة والدي. وكعادته الهادئة في مكتبه المكيف، هوّن المسألة عليّ وأكد لي وجود وثائق كثيرة تربط اسمي باسمها، لكنه اِستمهلني لإجراء المصادقة عليها من الجهات المعنية. كان من البديهي لحظتئذ أن أسأله عن وثيقة واحدة فقط تربطنا نحن الثلاثة معاً، وتسمى عادة "شهادة الميلاد"؟ إلا أن عذره كان أقبح من ذنب؛ فقال متفلسفاً ما مفاده: "لا تكثر السؤال عن الغيوب، فإنك إن علمت فما تسرك". واِستطرد شارحاً أسبابه وقال: "يا ولدي على أيامنا لم نكن نكترث بالشكليات، ولا السفارة العراقية في بيروت كانت تسألني عنها بالمفرق، لأن كل العائلة كانت تنزل على خانتي وعلى جواز سفري بالجملة". يومها فقط فهمتُ أني كنتُ مجرد خربشة مسمارية على ورق، اسم من أسماء، ولست شخصاً معتبراً بذاتي. أما اليوم، فلم نعد خربشات مسمارية، صرنا أرقاماً ورموزاً. وبغياب شهادة الميلاد المُبرمة، لا بد أني وُلدت بمكان ما بين العراق ولبنان في عهد الملك فيصل ورئيس وزرائه نوري السعيد. عام 1955م، كان عاماً تاريخياً بِامتياز، إذ سجل أيضاً ولادة "حلف بغداد" قبل ولادتي بأشهر قليلة. كان الهدف الرئيسي من تأسيسه بناء جبهة يمينية لصدّ المدّ الشيوعي المتغلغل في المنطقة. فبالإضافة إلى المملكة العراقية، ضمّ "الحلف" تركيا والباكستان وإيران. كان واضحاً آنذاك أن عبد الناصر هو الذي كان مستهدفاً من مآرب "الحلف" بسبب تحالفه الوطيد مع السوفيات. فكرة

"الحلف" نفسها كانت جرثومة زرعتها بريطانيا لنخر البناء العربي، تماماً كما كانت فكرة تأسيس الجامعة العربية "دسيسة" لضرب الوحدة! فالأولى أُعدت على مبدأ "فَرق تَسد"، والثانية على قاعدة "تجميع الخصوم للنيل منهم مرّة واحدة". وبقي العراق عضواً في "حلف بغداد" حتى تمت الإطاحة بالملكية عام 1958م. لا بد أني كنتُ مجبولاً بظروف تلك الحقبة ونتاج اِنتقال الحكم في العراق من الملكية اليمينية إلى نفوذ الجمهورية الناصرية. وهكذا وُلدتُ في زمن مشاكس وعصيب، ما يُفسر مشاكساتي وعصبيتي من كل الأزمان والمناسبات السياسية..

بعد أسبوعين تقريباً على قرار منع السفر، وصلتني بالبريد السريع الوثائق المطلوبة وفيها هوية أمّي. ولطالما كانت، هي وليس والدي، تنقذني في اللحظات الأخيرة من براثن "الأذى والشرور". والدي كان يساعدني بكل شيء تقريباً إلى أقصى الحدود، لكن فقط من باب الواجب والإنصياع للقدر. أما أمي، فكانت دوماً تذهب إلى الخطوة الأبعد وتُلهمني أبداً على تطويع الظروف وتغيير القدر.

عدتُ إلى القسم المختص وقدمت هوية أمّي وطلبتُ رفع المنع عني بموجبها. سرّني جداً أنهم لم يسوّفوا معي ولم يماطلوا. وهكذا مُنحتُ إفادة "فك اِرتباط" بأي اسم مشابه لأسمي بموافقة مطلقة لا رجعة فيها. كان موظف "لوائح الممنوعين" خلوقاً مجاملاً، وأدار حواراً اِجتماعياً معي شعرتُ من خلاله أنه كان ملماً بأدق التفاصيل الشخصية عني، إلى درجة أقلقتني وحيرتني! لحظتها فقط، أيقنتُ أنه كان هناك بالفعل تقرير مفصل عن حياتي كما كنتُ أناقشها يومياً مع نارام؟ مَن يدري، ربما كان هو أيضاً "رفيقاً" من رفاق البعث يراقب تحركاتي ويتأكد للنظام من روايتي وحقيقة هويتي. وربما من حظي العظيم أني لم أكن أخبر أحداً بما كنتُ أرسله من تحقيقات صحافية ميدانية عن معالم

العراق إلى المجلة في باريس. ومع أنها لم تكن تحقيقات سياسية أو مبهمة، فإن المجلة لم تكن تنشر كل مراسلاتي، ولا تحت اسمي الصريح أصلاً، بل كانت تكتفي أحياناً بتذييلها باسم "مراسلنا في بغداد"...

وطلّ القمر

أخيراً وبعد مخاض عسير، صدر الجواز وطلّ القمر. وبصورتي البشوشة على صفحته الأولى، شعرتُ بسعادة لم أشعر بمثلها من قبل. لكن مهلاً، مهلاً، يا عزيزي، عَلامَ التسرّع بالبهجة والإحتفال؟ كان واضحاً أني إستعجلت أمري وقفزتُ فوق قدري، وكأنني لم أكن أستحق الشفقة أو إستأهل الراحة. فبمراجعة بيانات الجواز، إكتشفت أن اسمي طُبع باللاتينية كما يُلفظ بالعراقية، أي "هوشام" *Hosham* بدل "*Hisham*". كان ذلك خطأ فادحاً يستوجب التصحيح الفوري ويترتب عليه إعادة إجراءات إصدار الجواز من أول وجديد. لكن رغم جسامة الخطأ وأثره على كل الوثائق التي كانت تحمل اسمي باللاتينية - كما في الشهادات المدرسية من لبنان ومصر ووثائق أوروبا والتأشيرات وغيرها - إلا أني كنتُ في تلك اللحظة الوجدانية قد وصلت إلى حدّ الإستسلام. لم أعد إحتمل المزيد من القلق والجزع، ولم تعد عندي طاقة للشكوى أو مراجعة أي دائرة حكومية. كنتُ أخشى أن يتسبب طلب التصحيح بعرقلة أخرى تحول دون الحصول على الجواز من جديد. فآثرت "التطنيش" عن الخطأ، وعضضت على لساني، وتوكلتُ على الله. ورغم فداحة الأمر، أحسستُ كما لو أن باسبوري وأنا وُلدنا من جديد، لا سيما أنهم أعادوا إلي الجواز القديم محذوفاً من السجلات.

منذ تلك اللحظة الفارقة، أصبحتُ حرّاً قادراً على مغادرة العراق في أي وقت بلا قيد أو شرط. فقررت اِسترجاع أنفاسي قليلاً، واِستكشاف أكبر قدر ممكن من معالم العراق قبل عودتي إلى لبنان. وببال هادئ وثغر مبتسم، كنتُ متأكداً أنني بصدد جولة سياحية ممتعة خالية من المراجعات الرسمية والهموم. كان من الطبيعي لشخص مثلي، أن يكون النبي إبراهيم أول مَن يخطر على باله. فسيرته وأثرها على الأديان السماوية كانت ملعب اِهتمامي وحيرتي. ولطالما تمنيتُ زيارة مسقط رأسه حتى قبل قدومي إلى العراق. وهكذا، توجّهتُ إلى موطنه الأصلي في مدينة "أور" التاريخية، كما ورد اسمها في التّوراة، وهي اليوم بلدة "تل المقير" على بعد 15 كلم من مدينة الناصرية. لكن هناك من المفكرين التوراتيين مَن يدّعي أن إبراهيم لم يُولد في "أور"، إنما وُلد في "أور-فا" بالقرب من مدينة حاران في تركيا. وكمعظم عناصر قصص "البدء" في التّوراة، تبقى هذه المسألة تأويلية في دوائر الأديان والإختصاص. وبعد جهد وعناء، وصلتها (أور)، ولم أجد فيها غايتي كما اِشتهيت وتصوّرت. لا قداسة، ولا فخامة، ولا هيبة، ولا رهبة. فآثارها ليست ضخمة كآثار مصر، ولا مهيبة كمنحوتات البتراء، ولا شاهقة كأعمدة بعلبك! إنها مدينة متواضعة مشيّدة من طوب وطين وليس من حجارة وصخور. ولولا زيارة بابا الفاتيكان لها عام 2020م وتسليط الضوء على أهميتها من جديد، لبقيت "أور" منسية مُهملة كما رأيتها في حينه. صحيح أن أطلالها لا تطغى على حواس الزائر ولا تثير دهشته، لكنها بالتأكيد تهمس في خياله وتداعب مخيلته. إذ إن مجدها الفعلي لا يكمن فيما تبقى منها، إنما في قصتها الخالدة التي تفوقت على محيطها ضمن تاريخ مشترك بين السومريين والأكاديين والبابليين.

بعد "أور"، كرّت جولاتي بكل الإتجاهات، فزرتُ البصرة و"الحِلّة "و"الثرثار" والكوفة والنجف وبابل والسامراء والموصل. وفي كل هذه الأماكن كانت هناك أشياء تُفرح وتُحزن وتُحيّر. ومثلما فاجئتني "أور" بخيبتها وسكونها، "صَدَمتني" النجف وكربلاء والكوفة بمعالمها التراثية وإزدحامها، وإن كان زخمها مكشوفاً بصبغة شيعية طاغية. هناك فيها مزارات عديدة مكتظة بعشاق علي والحسين وأهل البيت. ولا يمكن للزائر إلا أن ينتقل بخياله إلى العصر الإسلامي الأول، وإلى خلافة الإمام علي وتاريخ الشقاق والفرقة، إبتداء من موقعة "الجمل" وصولاً إلى "واقعة كربلاء". تاريخ مدن الشيعة في العراق صعب وبائس، ورغم مئات السنين وعشرات الحكام، نرى تاريخهم معانداً لا يريد النهوض من حُفَر التراث، كما لو أن نفض الغبار عنه شرك بعيون المستفيدين من إستمرار الحزن!

الشيء البديع المشترك بين معظم المدن التي زرتها، فضلاً عن الآثارات، كان الأطعمة الشهية التي إختبرتها في إستراحات الطرق، مثل تمّن العنبر (الرز) مع اليَخاني، والدولما، والكباب التركي بالسماق الكردي، و"العمبة" الهندية، والمخللات الفارسية. وبعكس جنوبه، فإن شمال العراق يلفتك بتنوع سكانه وتكدس تراثه. فبالأعراق وحدها، هناك كرد، وترك، وعرب، وفرس، وآشوريون، وتركمان، وكلدان، وأرمن. وهم أيضاً يَضمون خلطة مذاهب منوعة من المسيحيين النسطوريين، والسنّة، والشيعة، واليزيديين، واليهود، والزرادشتيين، والصابئة المندائيين. كلهم في تلك الأيام كانوا يعيشون بسلام وودّ وإطمئنان. وما يلفتك في الشمال أيضاً أنه جنّة طبيعية لا تختلف تضاريسه عن تضاريس لبنان، مثلاً، لا من حيث التنوّع والخضرة ولا من حيث الجمال والمناخ. لا، بل فيه من الشلالات ما

لا يوجد مثيل لها في لبنان، كشلالات "شرانش" و"بيخال" و"كلي علي" بمحافظة أربيل، على سبيل الإستشهاد العابر.

جولاتي في العراق في أيامي الأخيرة كانت ثقافية بِامتياز، خالية من الإجهاد والإحباطات. كيف لا، وقد أمضيتُ أشهراً طويلة مضنية في لعبة "القط والفأر" مع رجال يشبهون صدام في كل مكان؟ كانت فترة مرهقة مروعة، نفسياً وفكرياً وجسدياً، وكادت تكلفني إصبعاً من يدي اليمنى وتدمّر مستقبلي. وهكذا، بعد أيام معدودة على جولاتي، اِنتهت الآلام، وصار العراق بتاريخه وتراثه خلفي تماماً. كانت النهاية معجزة بكل معنى الكلمة. ربما حدثت بسبب ما كانت أمّي قد نذرته في دير "صيدنايا"، أو ربما بسبب "كارما" إكسبريس من عند الله.

وداعاً يا "وطن"..

رغم إطلالته الجميلة، جلب آذار عام 1978م موجة عارمة من الإضطرابات والإرهاب الدوليين. كانت هناك قنابل بكل الإتجاهات، وإختطاف طائرات في الشرق والغرب على حدّ سواء. فحتى "حركة عدم الإنحياز"، كانت تُتهم، هي الأخرى، بالإنحياز مرّة نحو اليسار ومرّة نحو اليمين تبعاً للأهواء الدولية والمصالح. وبخضم تلك الأجواء المُخطرة، كنتُ مدركاً للعواقب وحريصاً على عدم حجز تذكرة العودة إلى بيروت على الخطوط العراقية. كنتُ أخشى من قيام بعض الفلسطينيين بخطف الطائرة بسبب عداوتهم للبعث العراقي وكرههم لصدام. خوفي لم يكن نابعاً فقط من إحتمال خطف الطائرة العراقية، وإنما من إحتمال إعادتها بعد الخطف إلى عاصمة بلدها (بغداد)، فأعود من حيث بدأت! وهكذا، حجزتُ تذكرتي على الخطوط اللبنانية (الميدل إيست) بحيث إنْ خُطِفتْ، أُعيدتْ (بتقديري) إلى عاصمة بلدها (بيروت) وليس إلى بغداد..

في صباح يوم السفر إلى بيروت، الخميس 23 آذار 1978م، كنتُ مرتبكاً جداً ومتوجساً على غير عادة. يكفي أني لم أكن أتوقع رؤية مبنى مطار بغداد للمرة الثانية بتلك السرعة، أي تحديداً بعد خمسة أشهر وعشرة أيام وبضع ساعات بالتمام والكمال! وكما في دخولي إلى العراق، وقفتُ بطابور العراقيين، وسلّمتُ جواز السفر الجديد بكل ثقة وشجاعة. ختموه بكل ترحاب وسرعة بدون أي سؤال أو إستفسار! وكم كان شعوري رائعاً أنني كنتُ أغادر العراق وأصابعي العشرة كانت كاملةً كما دخلته بها. وعلى إرتفاع 35000 قدم فوق بادية العراق، ولم نكن قد تجاوزنا حدود القُطر بعد، كنتُ قد بدأت بثالث "تنكة" بيرة منعشة، وكانت من ماركة "ألماظة، فخر الصناعة الكحولية في لبنان آنذاك إلى جانب صناعة نبيذ "كسارة" وعرق "أبي

سعدى". المسافة من بغداد إلى بيروت قصيرة نسبياً، لكن، مع حرارة اللهفة للقاء أمّي ورؤية الأحبّة، بدت الرحلة طويلة جداً. كنتُ مسترخياً آمناً، فما عسى أن يصيبني وأنا على ساعة فقط من بيروت؟ لكن "ما كل ما يتمنّى المرء يُدركه"؛ فمهما اِحترس الإنسان وخطط، يبقى "المكتوب" أقوى من كل الإحتياطات، يبقى أمراً لا يُصدّ، ولا يؤجل ولا يُلغى، وإن من على طائرة "الميدل إيست". فجأة، شعرت بشيء ثقيل "يكبس" على صدري وبمغص قوي يعصر في بطني. لم يكن غمّاً بسبب الكحول، ولا هماً بسبب أصداء متراكمة واِرتدادات وجدانية دفينة، إنما كان شيئاً جسدياً عضوياً يشبه أعراض التسمم!

واِختفى القمر!

بعد ساعة ونيف من السُكْر والترقب، وصلتُ إلى مطار بيروت مترنحاً كالسائر في نومه! كان مزاجي قد تعدّل في قاعة الوصول على "هيصة" الركاب واِبتساماتهم. فجأة، طارت أوجاعي ولم تعد الدنيا تسعني من الفرح والبهجة، وصرت مفعماً بالتفاؤل والأمل. رميتُ لمأمور الجوازات باسبوري الجديد بفخر واِعنزاز كما لو كنتُ أسدد ديناً قبل أوانه! تلقّفه مني بسرعة وخِفة، وطبعه بختم الأرزة اللبنانية، وردّه إليّ بلمح البصر. فهرولت لسحب "شنطة حمزة" من الجمارك، وتوجهتُ مسرعاً للبحث عن الأحبّة بين المستقبلين. ومن بين عشرات الوجوه، طلّ عليّ وجه أمّي مميزاً منوراً، فركضت نحوها ركض العدّاء بخطواته الأخيرة. رميتُ نفسي في حضنها كما لو كنتُ طفلاً ضائعاً وجد أمه لتوه. وعلى حرارة لقائها ورائحتها المعهودة، اِنهمرت بالبكاء وتشبثتُ بها تشبث الغريق بطوق النجاة. خالتي بجانبها، خجلت من بكائي أمام الناس واِستهجت تصرفي بدهشة واِستياء. لكن أمّي

أدركت أنه بكاء المرارة والخلاص والإشتياق والحرية والأمل بعد أشهر من الأسر والكبت والعناء والجزع!

كنتُ متحمساً ومتلهفاً لأخبرها بما عانيتُ منه في دوائر صدام، وكيف كنتُ "البطل المقدام" الذي سحب الباسبور من مخالب الوحش وأنيابه. مَددت يدي إلى جيبي على طريقة السحرة لأظهر لها جواز السفر الجديد كما يظهرون الأرانب من قبعاتهم. أردتُ أن أبهرها به كما بَهرتها بعودتي من العراق بغضون أشهر قليلة، خاصة أنها عايشت معي تفاصيل سحب الجواز منذ البداية. وما إن وضعتُ يدي في جيبي لأسحبه لها، إختفى. فبحثتُ عنه في جيب آخر، ثم آخر، ثم في كل الجيوب، ولم أجده. فإرتميت جاثياً على الأرض، وأخذت أبحث عنه في جيوب شنطتي، ولم أجد له أثراً. عضضت على لساني، وضربتُ كفاً بكف، وأدركتُ أني فقدته! وكالمجنون، تركتُ أميّ وخالتي وتوجّهت فوراً إلى منصة الإستعلامات في المطار. وبعد الإعلان عن فقدانه بمكبرات الصوت، وعقب التدقيق في قسم "المفقودات والموجودات" والأمن العام والحمّامات، أكدتْ لي سلطة المطار عدم العثور عليه، وأشارت عليّ بضرورة مراجعة مكاتب الأمن العام اللبناني في العاصمة لتأكيد تاريخ الوصول وترتيب تداعيات الإقامة...

مسكينة أمّي، لم أكن لها كبقية اخوتي. كانت دوماً تترقبني على نار المجهول وجمر الصبر. تنتظرني على البحر "غريقاً"، وتراني في البيت "سكراناً"، وفي المدرسة "متمرداً"، وبالغربة "مسجوناً"! وها هي الآن تشهدُ بسببي فصلاً آخر من الألم والعذاب. لكن لماذا يا ربي لا تحصل هذه الأشياء إلا معي؟ هل يُعقل أن أفقد جواز السفر بلحظة واحدة وقد إستغرق الحصول عليه نصف سنة؟ ماذا لو قد كنتُ قطعت إصبعاً من أجل الحصول عليه؟ أيعقل أني إفترضت أسوأ الإحتمالات، وتعمّدت القدوم على الطيران اللبناني لتجنب العودة إلى العراق، فقط

لأجد نفسي مضطراً للرجوع إلى العراق مرّة أخرى؟ يا له من كابوس في وضح النهار! لقد بدا الأمر لي في ذلك اليوم كما لو أن القدر والبيرة و"الميدل إيست" تآمروا عليّ معاً! يا له من تحوّل عجيب ومرعب في مجرى الأحداث: من فرح عظيم فوق السُحب إلى حزن شديد على أرض المطار. كانت لحظة الوصول "دراما" مأساوية بكل المعايير. فهل كانت أيضاً نذير شؤم لأشياء أسوأ كانت تنتظرني في لبنان؟ وحده ربّ العالمين كان يعرف مقدار خيبة أملي وشدة خوفي من المجهول. وبوصولي إلى عتبة البيت، كانت أحلامي بمستقبل أفضل قد تبخرت تماماً..

ردح وشتائم

بيروت في ذلك الوقت كانت مثل بقية العواصم العربية. مُربكة في التعامل مع "زلزال" السلام الذي فجّره السادات فوق رؤوسنا. كانت مدينةً مشلولة وجدانياً تحت تأثير زيارته الصاعقة إلى إسرائيل في تشرين الثاني 1977م. لبنان، بسبب ضعفه الأزلي، كان دائماً يسترشد بمواقف جامعة الدول العربية ويحتمي بقراراتها. الجامعة، بدورها، تمنّت على السادات الأخذ بالإجماع ووقف محادثاته السلمية. بيد أن صدام حسين أراد الإدانة الصريحة والعزل التام لمصر، وكان بالمرصاد للسادات من خلال تهييج العالم العربي ضده. ومن ضمن أدواته أنه دعا إلى عقد مؤتمر قمة عاجل في "طرابلس الغرب" بكانون الأول 1977م. وإستطاع تمهيداً له - من خلال "صحافة صفراء" أسسها مع مخابرات القذافي للردح والسبّ - أن يوحّد المتشددين ضد مصر لأول مرّة في التاريخ! فصارت لندن وباريس وبيروت وقبرص أوكاراً إعلامية شرسة ضد السادت منذ زيارته لإسرائيل. لكن رغم التأليب العريض والرصد المادي الهائل، فشلت

القمة العربية بتحقيق جبهة موحّدة ضد ما وُصف بـ"سلام السادات". وهكذا، اِنقسم العرب بين صقور وحمائم، فأخذ "المحافظون الحمائم" موقفاً مجاملاً للسادات، وسارعوا إلى بناء منصات إعلامية دعائية ضخمة تسانده من أوروبا. لم يكن غرضها الردّ على ردح صدام وحسب، بل كانت أيضاً تهدف مبطناً إلى تمرير صفقة السلام، وتحضير المنطقة لمرحلة جديدة. كان لبنان بسبب ذلك الصراع المرير ما يزال ورقة خطيرة وجبهة مشتعلة!

على تلك الخلفية، كانت سفارة صدام في بيروت مشغولة حتى أذنيها بالترويج لحروب دعائية شرسة ضد الجميع: ضد السادات وحافظ الأسد والعرب المحافظين، فضلاً عن إسرائيل وأميركا. كانت المخابرات العراقية في ذلك الوقت تدعم أطرافاً ميليشاوية لبنانية متناقضة (يمين ويسار) وتمدها بالأسلحة والمال. كما كانت غاطسة بمعارك شرسة للسيطرة على منصات الدعاية والعلاقات العامة ضد "مؤيدي السلام" من خلال توظيف مرتزقة الصحافة اللبنانية. كانت الحملة الإعلامية العراقية ضد السلام من الشراسة بمكان إلى درجة أن صدام ضخّ أموالاً هائلة ورصد ميزانيات فلكية واِستقطب لسرديته أكفأ كتّاب أعمدة الصحف للاِستفادة من صدمة السادات وإدانته وعزله في المنطقة.

وجدته!

وهكذا، لاحت في الأفق شرارات جولات قتال جديدة بين ميليشيات الحرب في لبنان. تلك كانت بمثابة أذرع "قوى النزاع" على المنطقة "غبّ الطلب". مواجهات بالواسطة بين صقور العرب بقيادة العراق من جهة، وبين الحمائم بقيادة السعودية من الجهة المقابلة! لبنان كان ينزلق بسرعة من جديد إلى القعر المخيف حيث المتاهة والمجهول. لم

يكن هناك بصيص أمل لمستقبلي في تلك الأجواء، ولا شعاع أفق بدون الباسبور على الإطلاق. كانت الرؤية معدومة، واليأس كان أوضحها وهو يتسلل إلى وجداني كالسرطان. بيد أن الحياة أحياناً تخالف البداهة وتخدع المألوف. إذ ليس كل شيء فيها يُفسر على قواميس العلّوم والمنطق. هناك أشياءٌ تختبئ فجأة بين حواجز العلّم، وتختفي عمداً في الماورائيات! إذ في صباح اليوم التالي لوصولي من بغداد، وبعد ليلة طويلة من الكوابيس مع الغربان والأفاعي، ضرب القدر ضربته، ورنّ جرس الهاتف بيتنا في التاسعة تماماً. رفعتْ أمّي السماعة وأخذتْ على الفور تكرر عبارات "نعم" و"نعم" و"نعم"، فظننت أنها كانت تستمع لدردشات خالتي وهي تطمئن عني بعد حادثة المطار. لكن ما إن أنهتْ المكالمة حتى ضمّتْ يديّها إلى رأسها ورفعته إلى السماء وصرخت بأعلى صوتها كما لو كانت قد سمعت نبأ وفاة عزيز. دارتْ نحوي بلهفة، وضمتني بشدة، وانهمر الدمع من عينيها شلالاً غزيراً. فراحت تتمايل أمامي وتردد كالمجنونة: "وجدوه وجدوه وجدوه"! المكالمة لم تكن من خالتي، بل من السفارة العراقية، وبدا من مضمونها أن أحد العراقيين وجد باسبوري في المطار قبل يوم وسلّمه إلى السفارة. لكن بقي السؤال يدور برأسي إلى اليوم: لماذا لم يسلّمه إلى سلطة المطار، ولماذا من كل المسافرين، يكون من وجد باسبوري عراقي التبعية؟ أمر محيّر، ربما أرادت "الكارما" أن تبني "شيئاً" عليه فيما بعد؟

***

مسلحاً بالباسبور الجديد للمرّة الثانية، كنتُ في سباق مع الوقت قبل اِشتعال المعارك على الجبهات من جديد. فتوجهتُ فوراً إلى السفارة البريطانية. وبدل أن أتقدم بطلب للحصول على تأشيرة الدخول، طلبتُ موعداً لمقابلة القنصل شخصياً للإفصاح له عن تاريخ حالتي الخاصة

وظروفي الإستثنائية. في اليوم الموعود، رشيّتُ بدني بعطري المفضل آنذاك، "بريوت"، وكان يومها عطر الأناقة والوسامة للرجال العصريين في كل العالم. اِرتديت للمناسبة أجمل ما كان عندي، ولم يكن "الجينز" يومها مألوفاً أو مقبولاً. كان الجيز فقط لعمال البناء والسخرة والحمّالين على "البور". وكعادة الإنجليز أينما حلّوا، كان القنصل جوناثان دمثاً مؤدباً وبشوشاً. رحّب بي كما لو كنتُ صديقه من أيام الرضاعة. والسبب في ذلك أن قسم الإستعلامات في السفارة كان أخبره سلفاً عن سابق جهودي بالترويج للموسوعة البريطانية. صارحته بالقصة من بدايتها، وأخبرته بتفاصيل ما حصل معي في "هيثرو" و"كاليه"، وأطلعته على مراسلتي اللاحقة مع وزارة الداخلية البريطانية من باريس. والأهم من ذلك كله، أني أبلغته رغبتي بإستكمال دراستي الجامعية في بريطانيا بمعية إبنة عمي، وكانت يومها تدرس وتقيم في بريطانيا، لا سيّما أن وضع لبنان كان على شفير الإنفجار من جديد. كان اللقاء مع القنصل فرصة مناسبة أيضاً لأشرح له ما حدث لي في بغداد لناحية تغيير اسمي على الباسبور. فإستهجن الأمر وسألني لماذا لا أتقدم للتأشيرة باسمي الجديد دون الدخول بمتاهات جانبية أو سابقة ما دام الجواز القديم قد أُلغي أصلاً. بيد أنه سرعان ما اِستدرك أن ملفي في الداخلية البريطانية كان مسجلاً تحت الإسم القديم الصحيح. الرجل قدّر صراحتي وصفاء نيتي، وطلب مني المسارعة إلى تغيير الاسم بإفادة تصحيحة من السفارة العراقية في بيروت، لإصدار الفيزا بموجبها عند الموافقة. وهكذا، شعر معي وأحضر بنفسه بعض نماذج الإجراءات الرسمية وأرفقها بعنوان إبنة عمي في بريطانيا وبصورة عن جواز سفري القديم، فضلاً عن إفادة اِستنطاق *"Affidavit"* أخذ توقيعي عليها، ووعدني بمتابعة التأشيرة بنفسه. كان القنصل ودوداً صادقاً وأوضح أن الأمر حول مصير التأشيرة قد يستغرق ثلاثة أشهر في أقصى الحدود. وحسب

الإجراء المعتمد آنذاك، ختم جوناثان باسبوري الجديد بالعبارة القانونية القائلة: "شوهد بالسفارة البريطانية في بيروت بتاريخ كذا وكذا"..

كنت واثقاً أن مَن يَفلت من براثن صدام في عقر داره في بغداد، لا بد أن ينفذ من سفارته في بيروت مرّة أخرى. "الجماعة" في السفارة كانوا قد اِعتادوا عليّ أصلاً، فتوجهت إليهم وكنتُ أخشى أن يحيلوا مسألة تعديل اسمي إلى دائرة الهجرة في بغداد من جديد. لكن يا للقدر ما أجمله عندما يبتسم! يومها فوجئت أن السفير العراقي المشاكس (الذي كان قد أجبرني على زيارة العراق)، نُقل إلى بلد آخر، وأن السفير الجديد كان مُرحِباً ومُستعداً لمساعدتي في طلبي..

لا بد أني قصصتُ روايتي عشرات المرات بطرق مختلفة لموظفين كثيرين. إلا أن طريقتي مع السفير الجديد اِختلفت رأساً على عقب. إذ لم يكن هناك ما أخشاه إطلاقاً، خاصة بعد أن وقع المحظور أصلاً وزرت العراق فعلاً. وكالقنصل البريطاني، اِستهجن السفير العراقي عدم تصحيح الخطأ باسمي يوم حصولي على الجواز في بغداد، لكنه تفهّم أسبابي وسارع إلى تصحيحه "على الساخن". وكإجراء اِحتراسي، أوضح السفير في أحدى الصفحات بخطّ يده سبب الإلتباس بين الإسمين باللغتين العربية والإنجليزية. كان ديبلوماسياً نبيهاً، ومتفهماً، واثقاً من نفسه ومن دوره كسفير في أهم سفارات العراق في المنطقة. فَهم الإلتباس على حقيقته وتفهّم ظروفي على حقيقتها ولم يرَ في تصويب الخطأ تجاوزاً لصلاحياته مع بغداد. إلا أنه طلب مني مراجعة الأمن العام اللبناني فوراً لإعلامهم بالتعديل وتصحيح اللازم.

"مازة" الوداع

معضلة أخرى أُزيلتْ من دربي وأُزيحتْ من كوابيسي، وحان وقت الإحتفال من جديد! دعوتُ شِلّة صغيرة من المعارف والأصدقاء إلى غداء على مائدة معتبرة في مطعم "السلطان إبراهيم"، وكان يومها بالقرب من السفارة العراقية على شاطئ "الجناح" مباشرة. وبسبب أدخنة المدافع وروائح القتال والرصاص بين الميليشيات، كانت الأيام الأخيرة من نيسان خالية من أجواء الربيع والطيور والزهور، وكانت تنبئ بصيف حار مناخاً وحرباً. إلا أن أجواء المطعم في تلك الأيام كانت ما تزال محسودة وبهية. وحسب أصول أكل السمك في المطاعم اللبنانية الراقية، كان يفترض أن يقدموا "السلطان إبراهيم" وحده مع الخبز المقلي والطحينة والسلطة. لكن ما إن هبط "أبو سعدى" (العَرق البلدي) حتى أنزلوا معه كل أطباق "المازة" اللبنانية التقليدية. صحون صغيرة، لكن تحمل في مكوناتها "الحمض النووي للشعب اللبناني" بأسره وتشهد على تنوّع أصوله. لا أحد يعرف جازماً عدد الصحون الكامل، لكنها لا تُقدم كلها في كل المناطق. فالفول المدمس، مثلاً، لا يُعترف به شرعياً من ضمن المازة اللبنانية في المناطق المسيحية، على اِعتبار أنه مصري الأصل. بينما تشمل المازة بنفس المناطق المسيحية، البسترما والسجق، وهما طبقان من أصول أرمينية. وهكذا، نرى كل منطقة في لبنان تخترع أسبابها حسب مرجعيتها الطائفية أو وجدانها العرقي. وحتى عندما يكون الطبق موحَّداً تماماً في عناصره وطريقة تحضيره كملك المازة "الكبة النية"، مثلاً، فإننا نرى اللبنانيين يتفقون على تفسير الدواعي، لكن يختلفون على هوية المحتل. فالمسيحيون، مثلاً، يقولون إن أجدادهم كانوا يتجنبون إشعال النار لطبخ اللحمة في الكهوف اِحتراساً من لفت اِنتباه جند المماليك إليهم. وهي نفس الرواية نراها تتكرر عند الشيعة، لكن خوفاً من جند

الصليبيين! المفارقة أن كلمة "المازة" نفسها ليست لبنانية من الأساس، بل فارسية (الميزا)، وتعني طاولة "مائدة". ما يُفسّر أن اللبنانيين أنفسهم خلطة متنوعة من جملة قبائل وعشائر وأعراق نزحت إلى لبنان من الجهات الأربع عبر التاريخ. أي إنهم أحفاد الهاربين من الخدمة العسكرية في بلادهم الأصلية التي كانت تغزو لبنان منذ القدم. ففيما مضى كانت القوات الغازية المتحاربة تلتقي على سواحل لبنان أو عند سهل البقاع، تتقاتل بشراسة وضراوة إلى أن ينتصر أحدهما ويُجبر الآخر على دفع الجزية والضرائب. المصريون والبابليون والآشوريون والفرس واليونانيون والرومان والعرب والعثمانيون والفرنسيون، كلهم مروا على لبنان أثناء عبورهم شرقاً أو غرباً، وكلهم تركوا وراءهم "عيوناً" و"جواسيس" و"آذاناً" "وهاربين" من الخدمة العسكرية. هؤلاء، وغيرهم ممن اِستقروا في لبنان، جلبوا معهم إرثاً وعادات وتقاليد، منها ما يظهر جلياً من خلال أطباقهم المفضلة، ومنها ما ينضح خفية من سلوكهم. وهكذا، فالكل في لبنان أضاف شيئاً من وِجدانه إلى "المازة" بالمفرق، ما أدّى إلى تفرد الشعب اللبناني وتميزه عن محيطه والجيران..

وبعكس المصريين الذين لم يختبروا غُزاة كثيرين، بالنظر إلى أنهم على ضفاف نهر واحد من الصعيد إلى الدلتا، فإن للبنانيين أنهاراً كثيرة واِختلافات كبيرة في مفاهيم الحدود والولاء والهوية. نجدهم أبداً في غيرة شديدة وتنافس شرس ونكد. إلا أن "المازة" من هذا المنظار تعكس وحدة جامعة بينهم وفخراً وطنياً شاملاً بعد فخرهم بشجر الأرز. لبنان لم يكن يوماً مكتفياً ذاتياً، أو "عصامياً"، أو أمة، أو مُوَحَّداً. بل حتى في أوجّ تاريخه، بين 1200 ق.م و800 ق.م، كان الفينيقيون فيه أشبه بالأوليغارشيات ضمن "دول-مدن" مستقلة. كانوا تجاراً يقايضون السلع، وخبراء في البحارة والمبادلة. كانت لكل قوم

منهم سفنه وآباره ومدنه الخاصة به، ليس فقط في صور وصيدا و"بريوت" وجبيل، لكن أيضاً على اِمتداد الشواطئ الجنوبية والشمالية. لذا، فلبنان اليوم ليس بإمكانه الزعم أن "فينيقيا" تقتصر فقط على شواطئ لبنان الحديث. إذ إن التسمية بأصلها اليوناني كانت ترمز إلى شرق المتوسط كله من ساحل عكا إلى شواطئ الأناضول.

***

كان غداؤنا عند "السلطان إبراهيم" بمثابة "العشاء الأخير" قبل الإنهيار الشامل! في صباح اليوم التالي، ذهبتُ إلى السفارة الفرنسية وتقدمت لتأشيرة دخول متعددة الزيارات. ولسبب سِرّه عند نابليون، كان الفرنسيون يومها أقل تطلباً وأكثر تفهماً من البريطانيين! فقد منحوني الفيزا في نفس اليوم، وأخذ كل شيء ينزلق سليماً في مكانه الصحيح. وهكذا، بدأتُ التخطيط لرحلتي القادمة إلى فرنسا في نهاية أيار، أي بعد عودتي من العراق بشهر ونصف. كنتُ في تلك المرّة عازماً على عدم العودة إلى بيروت تحت أي ظرف مهما كان طارئاً أو قاهراً. فأزمات المدينة كانت تتفاقم بسرعة، وأجواؤها كانت تتلبد بغيوم الحرب والمفاجآت. كان صبري قد نفذ تماماً، وقدرتي على التحمّل قد تبددت بالكامل، فسئمت بيروت ومللت الشرق الأوسط برمته. وبِاستثناء بعض البوادر للسماح لمنظمة التحرير الفلسطينية ببعض التمثيل الدولي، لم يطرأ أي جديد على القضية الفلسطينية، أو على المواجهة بين صدام والسادات. أميركا في تلك الأيام لم تكن تقيم علاقات دبلوماسية مع المنظمة، ولم تكن تعترف بها كممثل وحيد للشعب الفلسطيني. بل على العكس، كانت تضعها على قائمة وزارة الخارجية الأميركية للمنظمات الإرهابية. أما على الجبهة الأوروبية، فكان هناك خبر آخر هز الأوساط الغربية؛ يومها تم الإعلان عن العثور على جثة رئيس الوزراء الإيطالي الأسبق ألدو مورو، وكانت

قد تُركت بداخل سيارة في روما بعد أن رفضت الحكومة الإيطالية مقايضة حريته بالإفراج عن 16 من السجناء الإرهابين. كنتُ قد سمعتُ عن اِختطاف ألد مورو من قِبل منظمة "الألوية الحمراء" عندما كنتُ في بغداد، لكن لم أكن أتصوّر أن إيطاليا يمكن أن تخذله وتضحّي به نظراً إلى وطنيته!

ورغم موجة العنف في أوروبا، كانت أجواء أيار عموماً مؤاتية للسفر، وكنتُ على أهبة الإستعداد لها. ومن شدة حماسي لبداية جديدة وخشيتي من ظروف تعيسة غادرتُ لبنان على عجل حتى دون اِنتظار نتيجة التأشيرة البريطانية...

الفصل التاسع - طريق الحرير

الثالثة ثابتة

حطّت الطائرة في مطار "أورلي" بمنتصف النهار، وكالعادة، سارعتُ بعد ختم الدخول إلى أقرب كافيتريا في قاعة الوصول. هناك، على ساندويتشي المفضّل وفنجان القهوة، اِسترخيت قليلاً على مشاهدة المسافرين، وأخذت اِسترجع ذكرياتي الباريسية وأستعيد أنفاس الحرية بعد غياب طويل. ومن المطار توجّهت مباشرة إلى مكاتب المجلة بالقرب من ميدان روزفلت. كان اِلتحاقي بالمجلة تلك المرّة سريعاً وشبه رسمي. وعلى الفور ألحقوني بقسم المراجعة والتصحيح، وصرتُ من خلاله أساهم للضُجُر بتوليف الكلمات المتقاطعة، و"اِخترع" للحيارى الطالع والأبراج. وتدرجاً صرت أقدم كتابات قصيرة ومقتضبة (*fillers*) حول موضوعات تهم الجالية العربية والمغتربين، خاصة عن الروابط السياحية والثقافية بين الشرق الأوسط وبين أوروبا. ومن حسن حظي أني وُفقت بغرفة صغيرة (*Cave*) في مستودع قريب من المجلة، فكانت مسكناً آمناً ومقراً هادئاً لإقامتي رغم حرارتها المرتفعة والرطوبة فيها ورائحتها العطنة...

خلال وجودي في باريس كنتُ أزور السفارة البريطانية على الأقل مرّة في الأسبوع لمتابعة تأشيرتي. كانوا في كل مرّة يحيلوني إلى سفارة بريطانيا في لبنان على أساس أن طلبي الجديد قُدم للداخلية البريطانية من خلالها. إلا أني لم أبالِ بهم ولم اِلتزم بتعليماتهم وتابعت مراجعاتي الأسبوعية عبثاً. ومن نِعم الحظوظ عليّ أيضاً أنه كانت هناك موظفة اِستقبال فرنسية "فرفورة"، بشوشة ومُجَامِلة، فكانت تسمح لي بالمراجعة من باب اللياقة والأدب، كما لو كانت تريدني

ضمناً أن أكرر زياراتي لتكرر رفضها؟ المسألة معها تعدّت حدود الإجراءات، وصارت "زقزقة" وغزلاً متبادلاً (!). وفيما كان وضعي في باريس يتحسن يوماً بعد يوم، كان الوضع في لبنان ينزلق إلى الهاوية بسرعة خيالية، خاصة بعد قيام السوريين بدور "مختار الضيعة" بين الأطراف المتقاتلة! كان اللبنانيون آنذاك يذبحون بعضهم البعض على بطاقة الهوية (التذكرة) الطائفية. ومع أن القوات اليمينية كانت يومئذ تتحضر للنضال ضد السوريين، كانت أيضاً تُعاين بعضها البعض على دور الريادة والهيمنة على القرار المسيحي. فنتجتْ عن ذلك أشياء معيبة ومؤسفة: مجازر مأساوية في الأزقة المتواجهة حتى في مناطق المِلة الواحدة، وراح ضحيتها أنصار ومحزبون وأقرباء. وعلى الأثر بدأ الدبلوماسيون الأجانب يغادرون لبنان تباعاً ونقلوا خدماتهم مرّة أخرى إلى دمشق ونيقوسيا. وتبعاً لتلك التطورات المتسارعة، تفهمتْ السفارة البريطانية في باريس وضعي، وتعهدتْ (بمعية فرفورتي الفرنسية) بتتبع طلبي مع مَن تبقى من طاقم السفارة البريطانية في بيروت من خلال القنوات المتاحة. كان ذلك مثالاً واضحاً على "إنسانية" الإنجليز بتفهم أوضاع النازحين من لبنان في باريس في تلك الفترة من تاريخ لبنان تحديداً.

بنهاية تموز 1978م، وبغياب أي تقدم على جبهة التأشيرة البريطانية، بدأتُ أفكر جدياً بالإستقرار النهائي في فرنسا. فسارعت لدرس طلبات الحصول على الإقامة الدائمة وإجازة العمل والاجراءات المرافقة! ومن مؤشرات التسهيل أيضاً أن المجلة وافقت مبدئياً على تحمّل أعباء رسوم الإقامة، فضلاً عن تقديم سلفة تأهيلية متواضعة. غير أن "الكارما"، كالعادة، كان لها رأي آخر. إذ من المفارقات العجيبة أن السفارة البريطانية بباريس اِتصلت بي فجأة لتبشرني بوصول برقية بشأن تأشيرتي. ليلتها لم أرَ النوم لأن أحداً في السفارة لم يخبرني

بمضمون البرقية ولا مصدرها. ربما كانت رفضاً واضحاً بالأحرف العريضة، أو طلباً لوثيقة جديدة أو اِستفساراً عن وثيقة قديمة. كل شيء كان وارداً إلا ما كان "مكتوباً" في السماء - بعكس كل التوقعات.

ومع أول مترو بطلوع الضوء، وصلتُ باكراً ولاهثاً إلى باب السفارة المغلق. هناك اِنتظرتُ طويلاً مرعوباً كما لو كنتُ اِنتظر حكماً بالإعدام أو البراءة. حياتي كلها كانت على المحك بالنظر إلى قراري عدم العودة إلى الشرق الأوسط خالي الوفاض مهما كلف الأمر. ولما فُتحت الأبواب، اِستقبلتني "فرفورتي" بابتسامة ساحرة مختلفة عن اِبتساماتها السابقة. وبعد اِنتظار قصير تحت "نظرها" و"بإشرافها"، سلمتني إلى الشخص المعني، فقال: "وصلتنا برقية من "الهوم أوفيس" (وزارة الداخلية) في لندن موجهة إليك شخصياً". ناولني البرقية وأخذ توقيعي على اِستلامها. ويا لها من برقية: "عزيزي هشام، نعلمك أن قرار طردك من بريطانيا قد أُلغي. واِبتداء من تاريخ هذه البرقية يُسمح لك بدخول المملكة المتحدة عبر أي من منافذها دون اِستنطاق"! يا إلهي، أمزحة تلك من مزحاتك، أم اِختبار آخر، أم معجزة؟ كان مضمونها اِستثنائياً غير معهود من البريطانيين، أقله حسب خبرتي ومعلوماتي، فكانت بذلك أهم برقية قرأتها في حياتي. لكن على غرابة القرار، اِعتبرته عادلاً بكل المعايير كوني لم أدخل بريطانيا لأُطرد منها أصلاً، ناهيكم أني لم أُرتكب جرماً مبرماً أو جنحة. اِنتظرتُ قليلاً وصدرت تأشيرتي بموجب البرقية مزدانة بألوان علم بريطانيا. يومها ودّعت "فرفورتي"، ونِلت منها قبلة على الملأ بذريعة حماسي للتطورات وحصولي على الفيزا! إلا أنه لم يكن اللقاء الأخير بيننا!

وهكذا، توجّهت فوراً إلى إدارة المجلة، سلمتها بريدها وأشياءها، ومررتُ "بكرمها" على قسم المحاسبة (الصندوق)، وجمعت منه مبلغاً معتبراً وأخذت بريدي وأشيائي. إنسحابي من المجلة لم يكن أمراً صعباً

ولا محرجاً، لا سيّما أن إسهاماتي الميدانية لم تكن تظهر باسمي أصلاً، ولا طلب الإقامة الرسمية كان قد قُدم بعد. كانت فكرتي حينها جليّة واضحة: قضاء آخر ثلاثة أسابيع في اِستكشاف الجنوب الفرنسي وشاطئ الريفيرا. فاِنطلقتُ مفعماً بالأمل والفرح إلى قهوتي المفضلة القريبة في الشانزليزيه قبل مغادرة باريس. وعند مراجعة الأوراق على فنجان القهوة، وجدتُ ضمن حزمة بريدي رسالتين مستعجلتين: الأولى من بنت عمي في بريطانيا تخبرني فيها أنها اِستُنطقت بخصوصي من قِبل الداخلية البريطانية، وأرفقتْ لي فيها صورة عن نفس البرقية التي تسلّمْتُها من السفارة في باريس. والثانية، كانت من قنصل السفارة البريطانية في بيروت، جوناثان، (عن طريق قبرص)، وأرفق لي فيها أيضاً صورة عن نفس البرقية. يا إلهي، فبعد ثلاث زيارات إلى باريس، وثلاث برقيات من ثلاث جهات مختلفة بيوم واحد، جاءني الفرج ثالوثاً، ووصلتْ الرسائل معاً لتؤكد من جديد على الحكمة القائلة: "فلما اِستحكمتْ حلقاتها، فُرجتْ، وكنتُ أظنّها لا تُفرج". لا بد أن أمّي وإبنة عمي وجوناثان، كانوا يعملون بأياد من حرير على موجة خفية واحدة، وربما بصموا من خلالها أيضاً على مبدأ "الثالثة ثابتة"..

"على طريق الريفيرا"

غادرتُ الشانزليزيه مفعماً بالأمل والحياة إلى الأوتوستراد السريع. وكعادتي في التنقل على الطرقات، لجأت إلى "الأتوستوب" والمشي والزحف والدحرجة! فقطعت مسافة 770 كلم من باريس إلى مرسيليا بغضون خمسة أيام! كان ذلك وقتاً قياسياً بقاموسي على حِسبة المغامرات السابقة! ومثلما رأى بولس شعاع المسيح واِهتدى "على طريق دمشق"، رأيتُ بخيالي أشعة العرش البريطاني تهديني إلى

الإتجاه الصحيح على طريق الريفيرا. وكما نذر بولس حياته لتعاليم المسيح، نذرتُ نفسي لحياة جديدة اِنطلاقاً من لندن. فأخذتُ ألاعب خواطري على الطريق وأسارع بها لأنهاء الرحلة. ومن مرسليا ركبتُ القطار بإتجاه الحدود الفرنسية - الإيطالية. كان ذلك الخط شيئاً مهماً في شبكة السكك على طول الطريق حتى نقطة اِلتقاء جبال الألب بشواطئ المتوسط. ذاك الشريط الساحلي - بتعرجاته البديعة - آية من الجمال، مدهش بمناظره، ومثير للإعجاب والبهجة. وقد أذهلني سحر الجنوب وجمال أريافه مقارنة بأي شيء كنت قد رأيته من قبل. هناك على الساحل الفرنسي تتنافس المنتجعات الفخمة مع الفنادق العريقة، وتتقارع التلال مع الهضاب والبوادي، وتتلاقى الشطآن على أرصفة الأسواق. مُناخ الريفيرا يُعتبر من أكثر المُناخات مثالية في العالم، خاصة خلال فصل الصيف. كان مروري عبر "سان تروبيه"، و"سان رافائيل"، و"سان ماكسيم"، و"كان"، و"أنتيب"، و"نيس"، و"مونت كارلو"، مروراً أخّاذاً بديعاً ساحراً، وتجربة فريدة مميزة من تجارب العمر. لكن لسوء الحظ لم يكن هندامي يومها مناسباً لزيارة الكازينو الشهير في موناكو. كان عليّ الإنتظار بضع سنوات أخرى لدخوله واِختبار حظوظي على طاولاته!

أثرياء بالجملة

ورغم فرحتي وإعجابي بما كنتُ أشاهد في الـ"كوت دازور"، إلا أني شعرت بالغثيان لرؤية أثرياء عرب يزاحمون المشاهير في المقاهي والمحلات وردهات الفنادق. كانوا آنذاك يتباهون بثروات البترودولار وسيارات "الرولز رويز" التي كانوا يحضرونها معهم خصيصاً للعرض والبطر! كانوا يجرّون خلفهم حاشيات كبيرة من المرافقين اللبنانيين، سواء للترجمة والتدبير أو "لأشياء" أخرى، أقلها

اِختبار فرص التداول في مشاريع وصفقات ومآرب. ولقد اِستغرق الأمر معي فيما بعد سنوات طويلة لأدرك أن الخليجيين لم يكونوا المجموعة الوحيدة التي كانت تستهدف الساحل الفرنسي وتستعرض على شواطئه ثراءها وغرورها. كان هناك بريطانيون (نفط بحر الشمال)، وإيرانيون (نفط الأحواز)، وأميركيون (نفط تكساس)، ونيجيريون (نفط دلتا النيجر)، وهنود (مهاراجا)، ويابانيون (زياباتسو)! كلهم كانوا ملياردييين حتى النخاع، سواء من الفئات البرجوازية التقليدية العريقة، أو من فئات أغنياء الصدف وحديثي النعمة. وتلك الأخيرة صارت فئة ثرية فجأة بسبب الثغرات القانونية الخبيثة التي يخترعها الغرب تعمداً لصالح أصحاب السلطة. بسببها يستطيعون التهرّب من دفع الضرائب، والصيد بالماء العكر واللعب بالطوابير الخامسة، بل وتغيير أنظمة بحالها. كلهم كانوا يملكون مراكب ويخوتاً ترسو في المارينات الساحرة المنتشرة على طول الريفيرا، فضلاً عن طائرات خاصة ترقد بإنتظارهم بمطار مدينة "كان". كانت مهن معظم أولئك "السواح" المميزين وأنشطة أعمالهم تتراوح بين سمسرة صفقات النفط وتجارة المخدرات وتهريب الماس والآثار، مروراً بالدعارة الدولية والإتجار بالبشر، إلى إبرام الصفقات السياسية والعسكرية، بالإضافة إلى التخطيط للمشاريع الضخمة وتبييض الأموال وما إلى ذلك. ومن بعض الأمثلة الصارخة عن المشاريع العملاقة التي كانت تناقش على طاولات مطاعم الريفيرا وفي حاناتها آنذاك، سدّ النهضة في إثيوبيا (قبل ولادته)، ومترو القاهرة (قبل ولادته)، والنهر الصناعي في ليبيا (في بدايته)، ومناجم الذهب في السودان، واليورانيم في درافور، ونفط شرق الفرات بسوريا (قبل اِستخرجه)، والأقمار الإصطناعية العربية "عربسات" (قبل إطلاقها)، فضلاً عن مشروعات فندقية وبنكية وإعلامية وفضائيات وإذاعة. مشاريع لم يكن من السهل إطلاقها لولا آلاف

"المستشارين" والسماسرة والعملاء الذين جرّبوا حظوظهم في الريفيرا على حساب الدول المعنية.

***

كانت مونت كارلو آخر الخطّ بالنسبة لي. مكثتُ يومين فيها، وطلعتُ إلى قصر موناكو لألقي التحية على الأمير رينيه (مجازاً). كانت زوجته الأميرة غريس كيلي، الممثلة الشهيرة، ما تزال يومها على قيد الحياة قبل حادثة السيارة، (على طريقة الأميرة ديانا، والممثلة ماري وورد، وأسمهان). ومن سُور قصره البهي، كان الناظر يستطيع رؤية المارينا والجبل المطلّ فوقها. وإلى اليوم ما زال ميناؤها يعرف تاريخياً بمرفأ "هرقل"، وقد اِستخدمه الإغريق والرومان والبيزنطيون منذ العصور القديمة. ولتسميته بـ"هرقل" تفسيرات عديدة، منها ما رُبط بالشخصية الإغريقيّة الأسطورية الشهيرة، ومنها ما نُسب إلى هرقل البيزنطي، (الذي راسله النبي محمد ودعاه للإسلام تحت شعار "اسلم تسلم")، ومنها ما اِقتُرن بالتراث والتقليد، كما في اِستعمالاتنا لاسم بطرس، مثلاً، فنقول "كاتدرائية بطرس"، و"ميدان بطرس"، و"برج بطرس"، أو كأماكن حُسبت على الإسكندر وسُمّيت باسمه بعده. والطريف فعلاً أن لغة أهل إمارة موناكو، بالإضافة إلى الفرنسية والإيطالية، خليط مميز بين اللغتين، بما يسمى اللغة "المواناكية". وكم محظوظة هي موناكو لأنها تتمتع بحماية "فرنسا الدولة" وتقع مستقلة تماماً تحت جناحها الإعتباري.. إنها ترتيبات هيمنية ذكية لإحدى أقدم عوائل أوروبا المتجذرة، "غريمالدي"، التي تحكم الإمارة، وإن بتقطع وجيز، منذ 1296م رغم التغيرات والحروب. إنها المعادلة الذهبية، معادلة "الحماية الأبدية" لقاء "الولاء الأبدي"، ناهكيم عن ترتيبات تجسسية وضريبية يستفيد منها الطرفان!

وعند عودتي إلى باريس، كان آب هادئاً على غير عادة. لم يكن هناك في العالم خطف من العيار الثقيل، ولا مذابح ولا ثورات. فحتى عملية اِحتجاز الرهائن بسفارة العراق في باريس كانت قد اِنتهت توّها بتحرير الرهائن وقتل الفاعل الإرهابي. وبمعزل عن الحادثة نفسها وتداعياتها على الصراع الخفي بين صدام والسادات، كان السادات وبيغن قد قبلا دعوة جيمي كارتر للاِجتماع في كامب ديفيد من أجل التوصل لمعاهدة سلام.. كذلك تسرّبت أخبار مماثلة عن اِقتراب توقيع معاهدة صلح بين الصين واليابان. أما في لندن، فكان أحد الباصات التابع لطيران "العال" الإسرائيلي يتعرض لهجوم من قِبل جماعة فلسطينية مجهولة. كانت عمليات الإغتيال والخطف والتفجير آنذاك تقع عشوائياً بدون توقيع من أحد. وبذلك السياق، سمعنا في باريس مرّة ثانية عن اِغتيال عز الدين الكلق، الممثل الدبلوماسي لمنظمة التحرير في فرنسا مع مساعده عدنان حمّاد. كان الخبر مؤشراً واضحاً على اِحتدام التنافس بين الفصائل الفلسطينية حول إدارة الكفاح المسلح ضد إسرائيل، بل ربما كان دليلاً أيضاً حول الصراع على النفوذ الفلسطيني في لبنان تحديداً. وفي الطرف الآخر من الشرق الأوسط، كان الشاه يومئذ قد بدأ يخضع لنبض الشارع ويعلن عن نيته إدخال حريات سياسية على شاكلة حريات الغرب وطرحها للبرلمان. يومها قال في توضيح مبادرته: "سنمنح أقصى قدر ممكن من الحريات السياسية، وحرية التعبير والصحافة، وحرية تنظيم مظاهرات عامة في حدود القانون"، لكنه حذّر في الوقت نفسه أن "النظام الملكي الإيراني، ومصير إيران ليسا شيئاً يمكن العبث به". كانت بادرته متأخرة وجاء وليدها ميتاً..

على وقع تلك الأحداث كنتُ اِقترب من ضواحي باريس. رحلتي إلى الريفيرا في سنّ مبكرة فتحت عينيّ على أشياءٍ لم تكن مخيلتي تجرؤ

على الإقتراب منها. ربما كانت تجربة ضرورية تمهيداً لزيارة بريطانيا المرتقبة! وقد اِستغرق الأمر معي ثماني سنوات أخرى قبل زيارة الريفيرا من جديد. ولما أتيحت لي الفرصة في المرة الثانية، كنتُ جاهزاً لها ومُجهَّزاً ببدلة سهرة أنيقة أدخلتني إلى الكازينو على طريقة "ألكبوني" ونجوم هوليوود. يومها ربحتُ على طاولاته 2600 فرنكاً، وكان ذلك بلا شك حظّ المبتدئين!

شكسبير: تكون أو لا تكون

في 25 آب 1978م، وصلتُ إلى محطة "غار دي نورد" في باريس عائداً من الريفيرا، وكانت وجهتي عاصمة الضباب. بدتْ إجراءات الأمن على أرصفة المحطة مشددة جداً رغم مرور أسبوع على اِغتيال عز الدين الكلق ومهاجمة باص "العال" الإسرائيلي في لندن. ورغم أن الحادثتين بدتا فرديتين منعزلتين عن عمليات الفلسطينيين "التقليدية"، فقد سلطتا الأضواء على ضرورة التشديد على الحراسة الأمنية عبر منافذ السفر في كل أوروبا. وبالنظر إلى وجود جالية كبيرة من الإيرانيين في باريس، كانت أصداء حادثة تفجير سينما "أروكس" في مدينة عبادان الإيرانية ما تزال تتفاعل في أجواء العاصمة الفرنسية. حادث هزّ نظام الشاه في خضم تطورات الإحتجاجات، وراح ضحيته 444 قتيلاً، وأحدث موجات من الإستنفار والريبة بين كل الأطراف المتورطة: المخابرات (السافاك)، وحزب "تودة" الشيوعي، ورجال الدين. ورغم جبروت الشاه وعظمته، فهو لم يقوَ على المواجهة أو الصمود طويلاً، فأطيح به بعد أقل من سنة على حادثة السينما بثورة شعبية عارمة غيّرت تاريخ البلاد إلى الأبد..

ورغم متعة مشوار الريفيرا، كانت مشاعري تحت قِبة "غار دي نورد" كئيبة ضبابية؛ فمن جهة كنتُ حزيناً لمغادرة فرنسا، ومن جهة أخرى كنتُ متوجساً وقلقاً من رحلة بريطانيا. وكآخر رحلة قمتُ بها من "غار دي نورد" قبل ذلك الوقت بسنتين تقريباً، ركبتُ نفس القطار بنفس التوقيت إلى محطة فيكتوريا في لندن. وما إن تحرك القطار على نغمات عجلاته المألوفة، حتى راق بالي وهدأ فكري. كانت أوراق باسبوري الجديد تلك المرّة مُحرّرة من أي لصق عجيب أو تشويه. وكان معي من المال ما تبقى من "تعويضي" من المجلة. أما بالنسبة لإقامتي في بريطانيا، فقد رتبتها سلفاً، ليس فقط مع غبريال، لكن اِحتراساً أيضاً عند أحد أقاربي في مانشستر. وبسبب تجاربي السيئة بنقاط العبور، كنتُ أتوقع أسئلة كثيرة على متن السفينة من "كاليه" إلى "دوفر"، لكن تبعاً لقانون "ميرفي" العجيب، الذي يحصل بموجبه عكس التوقعات، فإن أحداً لم يُوجّه لي أدنى ملاحظة، لا مباشرة ولا مداورة. عجيب أمرهم! كنتُ في تلك المرّة مستعداً تماماً لأي سؤال، لا بل كنت راغباً في الردّ على أي سؤال!؟ مَن يدري، ربما كانت عندهم أيضاً نسخة عن برقية وزارة الداخلية البريطانية، أو ربما كانت هناك إشارة غامضة مكتوبة بالحبر السري على تأشيرتي؟ المهم أن الإنجليز ختموا باسبوري الجديد بلا سؤال، ومنحوني عليه إقامة صريحة لمدة ستة أشهر كاملة بدون "أحمّ أو شروط". وهكذا، "فُتحتْ الأندلس" لي أخيراً، وكنتُ في طريقي إلى قرطبة. كان قطار الصباح الباكر من "دوفر" إلى فيكتوريا بطيئاً جداً ومزدحماً بأنفاس كثيفة تحت مطر غزير. وعلى نقيض طبيعتي المتأقلمة، اِنقبض قلبي وشعرتُ بغربة شديدة على الأراضي البريطانية منذ اللحظة الأولى؛ فحتى لغة الإنجليز من حولي بدتْ، يومها، مختلفة كلياً عما كنتُ اِعتدته ومارسته..

***

وصلتُ إلى محطة فيكتوريا وهبطتُ من القطار بتلهف شديد، فإذا بوجه غبريال يطلّ من رصيفها كالبدر العملاق. كانت ملامح وجهه من بعيد تغطي على كل الوجوه. رآني واضحاً كما رأيته رغم أدخنة المحطة وزحمتها، فركض نحوي، وأنا نحوه، وكان لقائاً حميماً عاصفاً لفت إنتباه الواصلين وأثار فضولهم. ومن مفارقات القدر وسوء الحظ أن سيرج كان توّه قد غادر بريطانيا نهائياً إلى باريس قبل وصولي بساعات قليلة. فقد صودف أننا كنا على قطارين بنفس الوقت لكن بإتجاهين مختلفين! قطع القدر الدرب علينا وحرمنا اللقاء على مدى العمر! يا إلهي، كم ظالمة أنتِ يا دنيا، تعذبين المعذب بدون ذنب ولا إنذار. وأني إذ أفهم حكمتكِ مع المُرفهين والمحظيين ومع الغارقين بالشهوات، فإني لم أفهم كيف لم يُكتب لي بعد ذلك اليوم لقاء سيرج وشكره على ذكرياتي الحلوة معه وعلى صداقة صافية وقيمة راقية. دنيا حقيرة لئيمة خطفت سيرج مني، فيما بعد، وقتلته بحادث سيارة مروع وأليم في أحد شوارع باريس. راح صاحبي باكراً ولم يكن قد تجاوز الأربعين من عمره، مخلفاً وراءه رضيعاً وزوجة عروساً وغبريال..

وبعد أيام على وصولي، وكانت فترة رائعة برفقة غبريال، بدأتْ حياتي الجديدة تأخذ روتينها الإنجليزي وتتضح معالمها رغم ضباب المدينة وأخبار الشرق الأوسط. "طريق الحرير" أمامي بدتْ معبدة بالآفاق الجميلة منذ اللحظات الأولى. لم يكن لدي غير إحساس قوي بالفرج المطلق والأمل. لكن ما إن مرّ أسبوع واحد على وصولي إلى لندن حتى سمعتُ عن إختفاء موسى الصدر مع مساعدَيه، عباس بدر الدين والشيخ محمد يعقوب، وكأنهم كانوا "فصّ ملح وذاب" - حسب التعبير المصري! هكذا، فجأة، ضاع الإمام ورفيقيه بين الشرق والغرب؛ إذ

بعد ستة أيام من سفره إلى ليبيا بدعوة شخصية من القذافي، قيل إنه غادر الجماهيرية إلى روما على خطوط "أليطاليا"، ليتابع منها رحلته إلى بيروت. إلا أن الخطوط "الطليانية"، التي أكدتْ حجوزاتهم آنذاك، جَزمتْ بعدم صعودهم إلى الطائرة. الصدر لم يكن الأول، ولن يكون الأخير، من ضحايا التصفيات والخطف والإغتيال والتغييب. فبالإضافة إلى التاريخ القديم، وفيه ألغاز سياسية كثيرة عن حوادث غامضة، كاِغتيال أخناتون، وأحيرام، والإسكندر، ويوليوس قيصر، وزنوبيا وغيرهم الكثير، فإن التاريخ المعاصر حافل، هو الآخر، بأسماء رنّانة، منها، على سبيل المثال، كينيدي، وكالفي، وغاندي، ورابين، وأولف بالمة، وألدو مورو، والأميرة ديانا إلخ. لا ريب أن لتلك التصفيات أهداف اِستراتيجية يرسمها مخططوها لتغيير التاريخ أو لتعديل مجرى أحداثه، فتكون "ولادة قيصرية" لمآرب وسياسات محددة. ماذا لو لم يُغتل الخليفة عثمان، مثلاً؟ أو الملك فيصل، أو عبد الناصر، أو السادات؟ هل كانت المسارات قد تغيرت، أم كانت ستأخذ طرقاً مختلفة؟ أنباء الشرق الأوسط في تلك الفترة كانت تثير في عروقي مشاعر الغيظ والألم والإحباط رغم بيئتي الجديدة الموعودة في رحاب لندن..

***

شيئاً فشيئاً، أخذتُ أتعوّد على أمطار العاصمة وعلى روتين العمل (بمعية غبريال) وطِباع الإنجليز. وبغضون فترة قصيرة "صرتُ راشداً من أهل البيت" في لندن.. فجأة أصبحتُ رجلاً مستقلاً بظروف وأحلام وغرفة جديدة، متحرراً بحالي عن ضيافة غبريال! ومع أنني لم أكن بحاجة إلى اِتقان اللغة الإنجليزية مطلقاً، فقد اِضطررت للاِنخراط بمعهد لتعلم الإنجليزية لأسباب تتعلق باِستمرار إقامتي. ومن الصُدف العجيبة أني عندما كنتُ في بيروت، كنتُ أُروّج لنفس

كورسات اللغة التي أعطيت لنا في لندن؟ الدنيا مسخرة تهزأ بنا على حسابنا وتدور فينا من حيث بدأنا. والطريف فعلاً أن صفّي يومها كان نسخة طبق الأصل عن الصفّ الفكاهي المضحك الذي كان يظهر في البرنامج التلفزيوني الكوميدي الشهير *"Mind Your Language"*.. "طلاب" أجانب من جنسيات متنوعة يدرسون الإنجليزية من الثامنة صباحاً حتى منتصف النهار بمعدل ثلاثة أيام أسبوعياً. وكما في البرنامج التلفزيوني، كنا جميعاً نعمل بشكل غير قانوني طيلة أيام الأسبوع. كان الأمر أشبه "بفضيحة مستورة"، لكن بعلم المخابرات، ووزارة الداخلية، وشؤون العمل، وربّ العمل، والمدرسة معاً. كانت الأجهزة كلها تعلم بحضورنا وغيابنا وأشياءٍ كثيرة عن تحركاتنا وعملنا. (حبذا لو ظهر الحرف اللاتيني على نفس السطر وإن بتصغيير البنط)..

أمضيت سنتي الأولى في لندن بغرفة صغيرة ضمن بيت لم ينتبه صاحبه إلى وجودي فيه. كنتُ أتبع "طبيعتي الثانية" بالمشي على رؤوس الأقدام، فأدخله وأخرجه كزوار المقابر والمزارات. كنا في بيروت نعيش في مكعبات إسمنتية وكتل باطونية وشقق صغيرة، وكنا دائماً محاطين بجيران من الإتجاهات الأربعة. تربينا على تعليمات صارمة بضرورة توخي الحذر والهداوة بالمشي وبالكلام وبغلق الأبواب. أما بالنسبة إلى الإنجليز، فبيوتهم، قلاعهم. يفعلون بداخلها ما يشاءون. فحتى العامل البسيط منهم كان، منذ قيام الثورة الصناعية (1760م)، يتملك بيتاً مستقلاً ضمن صفّ بيوت متلاصقة، ولم يكن يستأجر شقة مثل أقرانه في أوروبا. الأمر الذي جعل نسبة مُلّاك البيوت في بريطانيا 60% مقابل 10% فقط في أوروبا. لذا، فالبريطانيون عموماً مغرمون ببيوتهم إلى حد الهوس ويقضون أوقاتهم في حدائقها والعمل على جز العشب فيها وتزيينه. ولا عجب أنهم يرهنون حياتهم كلها للبنك لقاء قرض عقاري لشراء "بيت العمر"

عوضاً عن هدر المال على إيجارات لا تجدي. ربما في ذلك ما يُفسر بُخل الإنجليز وإصرارهم على التوفير لتسديد قروضهم قبل آجالها. ومن عاداتهم أيضاً أنهم يشترون بيوتاً أخرى صيفية ليس فقط لقضاء عطلاتهم فيها، بل لتأجيرها غرفاً مستقلة "للمبيت والإفطار" *(B&B)* لزوار المدن. وما لفت نظري أيضاً أن حمّام البيت الذي سكنته كان مُقاماً خارج البيت نفسه وسط الحديقة على طريقة معظم البيوت البريطانية القديمة. ولغاية اليوم توجد بيوت كثيرة في لندن نفسها ما زالت مراحيضها موجودة في الحدائق الخلفية. وهذا شيء كان دارجاً منذ أيام الملكة فيكتوريا قبل مئة عام. الملفت أيضاً أنها سِمة تشبه ما كان عندنا في لبنان في القرى، حيث كان "بيت الخلاء" يُبنى في حقل البيت، فنضطر للمشي إليه مرتجفين بصقعة الصبح.

مدينة الحرية والضباب

لا يمكن لزوّار بريطانيا اليوم أن يصدقوا أن لندن في السبعينيات كانت مدينة أشباح بعد الخامسة مساءً! لم يكن بالإمكان الحصول على ربطة خبز أو زجاجة حليب أو بقالة! فقط محطات الوقود كانت تبيع الضروريات، مثل السجائر والبسكويت وبعض المعلبات والإسبرين والقرطاسية. بل حتى الساندويتشات الجاهزة، لم تكن متوفرة في تلك الأيام خارج نطاق حانات السكر والسمر. بريطانيا في تلك الأيام كانت بوضع يُرثى له على جميع الأصعدة. فلا عجب أنها كانت تسمى "رجل أوروبا المريض" عن حق وحقيقة. كانت هناك ضوابط مشددة على حركة رأس المال، وإضرابات مستمرة، وبطالة واضحة، وارتفاعات فظيعة في نِسب التضخم. ومن الملفت الصارخ أيضاً أن لندن، رغم وضعها المزري، ظلت مكاناً مشهوراً للحريات الفردية والسياحة والإسترخاء وصرعات الموضة و"البانكس" والموسيقى

ومناخات تحرير المرأة والفنون. بقيتْ لندن حلقة وصل دولية للمؤامرات العالمية والمعارضات الأممية وحركات التحرّر حول الأرض. لكن رغم اِستقطابها كوادر التغيير وأفكار الإبتكار وتأثيرها على العالم، كانت لندن في الليل مكاناً كئيباً ومملاً، تشبه في بعض جوانبها عواصم أوروبا الشرقية، لا سيّما عند جنوب النهر (التايمز)، حيث كانت مباني الإسكان الشعبي الحكومية (كاونسل) تشبه السجون وتطغى على كل المناظر.

في تلك الأيام، خريف 1978م، كنتُ أقضي أيام الآحاد في حديقة "الهايد بارك". هناك بوسط لندن كانت تلتقي تجمعات النقاش والجدل عن الشرق الأوسط، وتسحب اِهتماتي إليها سحب المغناطيس. فحلقات المواجهة بين الفلسطينيين والإسرائيليين كانت يومئذ أكبر حلقات التجمّع حجماً، وأسخنها ضجيجاً، وجدلاً. وكم كانت صدمتي كبيرة عندما شاهدت أشخاصاً إسرائيليين لأول مرّة في حياتي منذ أيام الضيعة في الستينيات. كانت بالنسبة لي لحظة لا توصف، كما لو كنتُ اِرتكب جرماً أو أمارس محرماً أو أشارك برذيلة! نظرتي إليهم - بعد أن تركتُ الضيعة وكبرتُ – اِختلفت كثيراً عن أيام الطفولة، فصرتُ أراهم وحوشاً كاسرة مجرمين قتلة مغتصبين وحثالة. كل ذلك كان جزءً من تأثير دعاية الكره العربي الذي تربينا عليه، إن في الأزقة والمدارس، أو من خلال المظاهرات مع الفلسطينيين واليسار عموماً في شوارع بيروت!

كانت الملاسنات المشحونة بين المجموعتين دائماً تصل إلى حدّ السباب والشتائم والتشابك بالأيدي. العرب كانوا يصرخون بوجه الإسرائيليين: "أنتم قتلة النساء والأطفال في مذابح دير ياسين وقانا"... "أنتم مفجرو فندق الملك دايفيد وعصابات الهاغاناه"... "أنتم الإمبرياليون الجدد"... "أنتم توأم الفصل العنصري"، وما إلى ذلك من

إدانات وإتهامات وشعارات. أما الأسرائيليون، فكانوا في المقلب الآخر يهتفون: "منظمة التحرير الفلسطينية لعنة وسُمّ"..."الأرض وُعِدت لنا وحدنا"... "الفلسطينيون مبتزوّن وقتلة وإرهابيون"! هذه الشعارات التقليدية وغيرها الكثير كانت تُهتف كل يوم أحد من العاشرة صباحاً حتى الرابعة بعد الظهر بلا توقف. ورغم حماسي الشديد للفلسطينيين وفطرتي بضرورة التفاعل معهم، إلا أني كنتُ أتردد وأتجنّب الإقتراب من الخطباء خوفاً من إلتقاط الصور من قِبل أي متفرج أو رجال الشرطة، وإن عن طريق الخطأ. كان ملفتاً جداً لشاب مثلي أن البريطانيين الذين تسببوا أصلاً بنكبة فلسطين من خلال "وعد بلفور"، كانوا هم أنفسهم يفضّون العراك بين العرب والإسرائيليين كما لو كانوا وسطاء محايدين؟

عطلات نهاية الأسبوع في لندن لم تكن في ذلك الوقت كما هي عليه اليوم؛ فباستثناء كرة القدم والحفلات الموسيقية في بعض الحدائق العامة، لم تكن هناك مراكز تسوّق (مولات) أو أماكن ترفيهية على نطاق واسع. فحتى شوارع المتاجر العريقة، مثل *Selfridges* في أكسفورد و *Harrods* في "نايتسبريدج"، كانت مهجورة تقريباً لأن "سكوتلاند يارد" (البوليس البريطاني) في تلك الأيام كان مشغولاً بمراقبة تحركات الجيش الجمهوري الأيرلندي. فقط مناطق *Edgeware Rd* و*Bayswater* و*Paddington* و*Nottingham Hill* كانت تبدو أكثر إزدحاماً حيث توجد المطاعم الصينية والإيطالية واليونانية، فضلاً عن العربية.

الاخوة الإعداء

في عام 1976م، كان اللبنانيون منشغلين في حربهم الأهلية ومستعجلين جداً على آخرتهم. معارك الشوارع بين العمارات والأبنية

جعلت بيروت بمثابة "طورا بورا" على النسخة الشامية. حتى برلين نفسها في آخر الحرب العالمية الثانية لم تشهد من الخراب ما شهدته بعض الأحياء اللبنانية ووسط بيروت. بل إن العالم كله لم يشهد حرباً أهلية طاحنة كما شهد لبنان. كان المقاتلون والمرتزقة والقناصة جميعاً تحت تأثير حبوب الهلوسة على أنواعها، فضلاً عن وخز الأبر وشرب الكحول وشمّ "الغِري". وليس سراً اليوم أن جهة مركزية ملعونة واحدة كانت تزوّد كل الأطراف اللبنانية بأدوات التسطيل ومواد التخدير لإبقائهم على الزناد والقتال. رجال المخابرات الدولية - بالإضافة إلى السعوديين والعراقيين والسوريين والمصريين - كلهم كانوا متورطين في خطط الحرب وتنفيذ سياقها. لا، بل الأدهى أنهم كانوا يتشاركون في موائد السكر والتخطيط والتآمر على أطباق المازة بوادي العرايش في زحلة وسط البقاع، بعيداً عن دوي المدافع وأزيز الرصاص في بيروت والمناطق المشتعلة. قد تعتقد أن اللبنانيين، بعد تجربة الحرب، تعلّموا الدرس من كيسهم وعلى حسابهم، لكنهم للأسف، ورّثوا أحقادهم لأبنائهم، وعلّموهم كيف يتبعون الزعماء الميليشاويين كالظل حتى في عتمة الليل!

وعلى الرغم من جهود المؤرخين لرسم صورة صادقة عما حدث، إلا أنهم فشلوا في نقل الواقع الذي كان القتال عليه في لبنان. السبب في ذلك أن الحروب الأهلية في إسبانيا وأميركا وروسيا، مثلاً، كان مواطنوها منقسمين بالتساوي بين خيارين وطنيين متناقضين: بين سلطة حاكمة من جهة، وبين قوى وطنية معارضة في الجهة المقابلة. أما الحرب الأهلية اللبنانية، فكانت مختلفة تماماً عن نمط الحروب الأهلية و"التقليد"، لأن اللبنانيين إبانها كانوا يقاتلون بعضهم البعض من أجل "أجندات" الغرباء على أرضهم. ولأن لبنان صغير بحجمه، فإن رجال الميليشيات فيه كانوا يعرفون بعضهم البعض جيداً. ويكفي أن يتخيل المرء شراسة القتال بين أهالي المنطقة الواحدة من شارع

إلى شارع، ومن برج إلى برج، ومن منزل إلى منزل. كان القتال يومها أشرس بمراحل مما ذكره التاريخ عن الحروب بين الإنجليز والفرنسيين، مثلاً، أو بين اليونانيين والأتراك على سبيل المقاربة. وقد ظهرت فيما بعد قرائن واضحة حول بيع الميليشيات اللبنانية أعضاء من جثث أعدائها من مختلف الطوائف. الأدهى أن بعض الميليشيات أبرمت اِتفاقات مُحرّمة لقاء أموال زهيدة لإستقدام نفايات نووية من بعض دول أوروبا الغربية. ومن "نخوة" الميليشويين و"غيرتهم" الوطنية (إستهتارهم)، كانوا يطمرون تلك النفايات السامة تحت بيوت أهاليهم في قراهم النائية، وتحت جبال قريبة من جرودها وخلف دور العبادة أو بجوارها. المفارقة الغريبة أن تلك الميليشيات نفسها نزعت عنها بدلاتها القتالية، وصارت هي نفسها اليوم ترتدي ربطات عنق وتحكم لبنان "الحضاري" وتتلقى زيارات دولية وتحيات أممية وتشريفات.. إنه عالم دجل ودجالين سواء كانت الراية باسم الإسلام أو المسيحية، أو باسم الشرق أو الغرب!

لبنان قبل الحرب كان بمثابة "سويسرا الشرق" والوجهة المفضلة لجميع العرب، خاصة أصحاب المال والنفط من العراق ودول الخليج. كانوا قد اِعتادوا على التدفق إلى جبال لبنان طوال الصيف، فيما كان بعضهم يقضي أوقاته على الشواطئ الرملية والمنتجعات الساحلية. ذاك النوع من الترفيه الصاخب والأجواء المتحررة من الضوابط التقليدية لم يكن متاحاً أو مسموحاً له في بلدانهم، ناهيكم عن القمار وأشياء أخرى في كازينو لبنان. والعرب عموماً - في تلك الحقبة الإنتقالية من التقليد إلى التحديث - لم يكونوا مهتمين كثيراً بالثقافة أو التراث أو الآثار، بينما كان لبنان يعكس تاريخاً تراثياً غنياً نسجته حضارات الشرق الأدنى، أبرزها حضارة المصريين والإغريق والرومان!

وبسبب الحرب في لبنان، إنتقل الخليجيون من الإصطياف في ربوعه إلى الشرق الأقصى أولاً (شرق آسيا)، وتحديداً إلى إندونيسيا وماليزيا وتايلاند. لكنهم لم يجدوا ضالتهم فيه. لم يكونوا مستعدين للتعامل بثقافاته المتعددة ولا متقبلين لعاداته الغريبة ورطوبته العالية. فواجهوا مشكلات كثيرة، أقلها عدم توفر اللغة العربية والمطبخ الشرقي. وهكذا، بدت بريطانيا -بغياب لبنان - خياراً مثالياً، خاصة بالنظر إلى طقسها المعتدل في الصيف وطبيعة أهلها المؤدبة وسهولة اللغة. ومع أن البيئة في بريطانيا مثّلت للعرب فرصة ممتازة، لكنها كانت مثالية وأفضل للبنانيين أنفسهم ولرجال الأعمال. إذ رأوا بتوجّه العرب إلى الغرب "فرصة العمر" للهروب من جحيم لبنان وأزمات المنطقة. هرولوا مسرعين وراء السياح العرب وتوافدوا إلى لندن لتلبية إحتياجاتهم من مأكل ومشرب وترفيه وسياحة وترجمة ورعاية صحية، فضلاً عن شراء العقارات وإقامة الدعاوى عنهم وتمثيلهم..

موطئ قدم..

"مطعم لبنان" كان أول مَعْلم عربي فخم إفتُتح بوسط لندن في شارع "إديجوار رود" *Edgeware Rd* عام 1975م. كان ذلك قبل ذهابي إلى بريطانيا بعام واحد تقريباً. من بعدها كرّت السبحة وتلاها عدد كبير من المطاعم العربية الأخرى في المناطق الراقية. *Charing Cross. و Regent St وMayfair وKnightsbridge و Noting Hill*
هناك في "مطعم لبنان" عملتُ نادلاً خلف البار منذ لحظة وصولي إلى لندن. كان غبريال رجل الصالة الأول ومسؤولاً عن الإدارة والصندوق. وبسبب طبيعة العمل، كان لزاماً عليّ أن أتعلّم أسماء النبيذ وإختبر أنواعه ومناطق إنتاجه وسِماته، بالإضافة إلى تصنيف كؤوسه وإستعمالاتها. أحياناً، كان يُخيل لي أن العالم كله مصنوع من زجاج

وكحول وفلّين، وأن الناس خُلقوا لشرب الكحول على طريقة "داوني بالتي كانت". ورغم أن المطعم كان صغيراً لا يتسع لأكثر من 60 زبوناً في الوجبة الواحدة، إلا أنه كان أشبه بالكعبة يَأْتِون إليه مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ. يومئذ كان "مطعم لبنان" المكان العربي الوحيد في لندن الذي يوصّل الطلبات إلى بيوت العرب في لندن الصغرى. والإزدحام عليه ليل نهار كان شيئاً خيالياً لا يوصف، وشغلنا فيه كان أشبه بعمليات مغاوير الجيش. يكفي، مثلاً، أن شراشف الطاولة الواحدة فيه كانت تتغير سبع مرّات في اليوم الواحد على مدار الأسبوع، فكان ذلك أداءً قياسياً غير مسبوق. أما "زاوية الشاورما" المُطلة على الشارع، فكانت تجذب المشاة إلى طوابير طويلة من الإنتظار، وأحياناً تحت مطر غزير، لا سيّما أن الشاورما كانت مرغوبة أيضاً من الإنجليز والسياح الأوروبيين على حد سواء. كان المطعم يومئذ بمثابة مطبعة نقود لا تهدأ!

التهافت على "مطعم لبنان" آنذاك لم يكن بدافع الجوع أو الفجع، إنما بواعز التمتع بالأجواء العربية في بلاد الإنجليز! ولئن كان من شيء مُلفت عن تلك الحقبة في ذلك المطعم تحديداً، فهو همسات الزبائن وأحاديثهم. كانت الوَشوَشات بينهم تحت تأثير الكحول تصل إلى المطبخ أحياناً، وتتراوح عادة بين الغزل وبين التجارة وبين التآمر والقمار. زبائن عرب كثيرون كانوا يتوجهون بعد العشاء مباشرة إلى نادي الـ"بلاي بوي" الشهير القريب في شارع "كيرزون". هناك كانت طاولات القمار تتنافس على الترحيب بالخليجي والإيراني والأميركي. أولئك كانوا فئة الأثرياء والمقامرين الجدّيين في تلك الأيام. هناك أيضاً كانت أحاديث العرب على الطاولات تدور حول صفقات ضخمة لتأسيس عيادات عربية في "هارلي ستريت"، وصحف ومجلات في "فليت ستريت"، ومتاجر ألبسة وموضة في

"نيو بوند ستريت"، فضلاً عن بنوك وبيوت اِستثمار في حي المال في "الستي" نفسها، ووكالات سمسرة وعقارات في "نايتسبريدج" و"ماي فير"..

العرب واللبنانيون رأوا بعام 1976م عاماً اِستثنائياً لتغيير وجه الشرق الأوسط. في تلك الأيام لم أكن قد دخلتُ لندن بعد، بل كنتُ ما أزال ببداية مغامرة الخدمة العسكرية في العراق. كان العرب الأثرياء متعطشين جداً للاِستثمار في بريطانيا مع اِنعدام فرص الإستثمار في الشرق الأوسط المتأزم ولبنان المُلتهب. أما اللبنانيون أنفسهم، فكانوا ينضحون بشهية الديناصور للمجازفة برساميل العرب على مشاريع متعددة؛ منها ما كان مجدياً، ومنها ما كان مجرد هراء أو للوجاهة، ومنها ما كان اِحتيالاً "صافياً" أو دجلاً مبطناً، ومنها ما كان يفتقر للمهارة وحسن الإدارة..

المفارقة أن لندن المتحفظة والمنعزلة نسبياً في ذلك الوقت، بدت أكثر دراية وخبرة بخصوصيات العرب وأهوائهم من بيروت نفسها. والمُلفت أيضاً أن سرعة التأقلم العربي بمناخ الأعمال في لندن داهمت الجميع وأخذتهم على حين غِرّة. فبرزت لندن يومها فجأة كمركز أساسي لنخب الشرق الأوسط ودوائر القرار الإستراتيجي و"مطبخ العلاقات". كانت أحاديث روّاد المطاعم الفخمة والنوادي الليلية - كما في مونت كارلو - تدور بمعظمها حول عمولات وصفقات نفط وأسلحة وآثار ومخدرات وتبييض أموال. وما أثار إعجابي ودهشتي معاً أن كل مَن عمل بتلك البيئة العربية الجديدة وخَدَمها في تلك الحقبة بالذات حقق ثروة معتبرة. ويكفي، كمثال على ذلك أن الندلاء، الذين عملوا في "مطعم لبنان" في صيف 1975م، ما لبثوا أن صاروا أنفسهم أصحاب مطاعم مشهورة في لندن، أو شركاء في نواد أو مؤسسات تجارية كبرى، أو أصحاب عقارات وسط لندن! ورغم أني

كنت ما أزال في العراق في تلك السنة، متخلفاً عن الركوب بموجة الثراء الأولى وطفرة الجنون، فإني، وللحق، واكبتُ الموجة الثانية وعاصرتُ بيئة الإستثمارات الإعلامية من بداياتها تقريباً! وظاهرة الإنتشار العربي والثراء الفاحش لم تقتصر فقط على بريطانيا، وإن كانت هي أولى المحطات خلال حرب لبنان، بل طالت أفخم المواقع والمدن العالمية حيث كان الأثرياء العرب والعائلات المالكة يقضون معظم أوقاتهم في الصيف، مثل ماربيا، وباريس، و"كان"، وجنيف. وهكذا اِنطلق العرب من لندن في صيف عام 1975م، وعبّدوا طرق البدائل عن الشرق الأوسط "بإنتظار وصولي" إليها في صيف 1978م! ..

عندما تشرق من الغرب

حياتي الجديدة بعد عام تقريباً من التفاعل مع لندن كانت صاخبة، وإن لم تكن كلها حافلة بأشياء مجدية. ففي فترة الصباح أيام الأثنين والأربعاء والجمعة، كنتُ أداوم بمعهد اللغات حتى منتصف النهار. وكنتُ في بقية أيام الأسبوع - ما عدا يوم الأحد - أصارع مشقة العمل في "مطعم لبنان" من الظهيرة حتى الثانية صباحاً. كان الأحد يوم الإسترخاء الممتع والمثير في حديقة الـ"هايد بارك". وهكذا، بقيتُ مواظباً، كالعسكر، على ذلك الروتين الصارم إلى أن غيّرته الظروف وغيّرتني؛ فبلفتة عجيبة من لفتات القدر، وجدتُ على دَرج بيتي في أحد الأيام رسالتين: الأولى جاءتني رداً على طلب وظيفة كنتُ قد تقدمت لها في شارع الصحافة. والثانية، كانت من وزارة الدخلية البريطانية تعْلمني فيها بالموافقة على طلبي الإقامة الدائمة دون قيد أو شرط. وهكذا مرّة أخرى، توالتْ الأخبار الجيدة وأخذتْ تكرّ على دَرج بيتي بين أسبوع وآخر. وما هي إلا أيام قليلة حتى اِنتقلت إلى مسكن

جديد وتعرّفت على حسناء إنجليزية رأت بوجهي ما رأيت بوجهها اِستعداداً لبداية جديدة. يا إلهي، إن القدر عندما يبتسم يُذهل ويحيّر! فخلال أسبوع واحد فِزت بإقامة دائمة، ووظيفة رصينة، وشقة شرحة، و"عروس" جميلة! كانت عروستي تعمل ممرضة جرّاحة مبتدئة بواحدة من أكبر مستشفيات العاصمة وأقدمها..

***

"أنابيل"، حسناءٌ جميلة، عِسراوية من "سندير لاند" بشمال بريطانيا. في يوم من أيامي في "الهايد بارك"، شدّت اِنتباهي أثناء لعبها مع البطّ وهي حافية القدمين على طرف البحيرة. فستانها الشقي جذبني إليها وقدّها الميّاس أغواني. كان نقاء بشرتها ملفتاً، وكان مُحْياها كالبدر المضيء في عتمة الليل، "فَلَم أَرَ بَدراً ضاحِكاً قَبلَ وَجهِها، وَلَم تَرَ قَبلي مَيِّتاً يَتَكَلَّمُ" (المتنبي). أما عيونها، فأشبه بـ"عيون الْمَهَا بين الرُّصَافَةِ والجسْرِ، جَلَبْنَ الْهوى من حيثُ أَدري ولاَ أَدري" (بن الجهم). وفوق جمالها وحسنها، كان شعرها الكستنائي السميك يتدلى شلالاً صافياً بين نهديها. ومثلما لفتني حضورها الجميل وأسكرني جمالها، لفتتها بصبصاتي البريئة وبراءتي. نظرة، فاِبتسامة، فغمزة، فتعارف. ومع أنني تُيّمتُ بها، وأعَجَبْتها من النظرة الأولى، كان لقاؤنا فضولياً متبادلاً وليس حباً من أول نظرة. لم أستطع الإقتراب منها ولمس يديها قبل موعدنا الثالث. يومها هَبّت النيران في جوانحي وتطاير اللهيب من جوانحها، فسقطت الحصانة عن أدبي واِختبأ الحياء عن وجهها، ولامستْ شفتاي شفَتيها بقبلة كان عنوانها "نحن هنا". شتاء ذلك العام كان دافئاً جداً عليّ، وصقيعاً مراً على بريطانيا وعُزّابها. (شعر المتنبي ينبغي ان يكون نفس البنط)

إمرأة من حديد

في العام 1979م، بدتْ بريطانيا على حافة الإنزلاق بسبب إضرابات عمال القمامة والسكك والشاحنات وموزعي المواد الغذائية. كادت الثقة بحكومة كالاهان العمالية تنهار كلياً، وكان "شتاء الغضب" قد بدأ بمطلع السنة على تلال القمامة في شوارع لندن. وحتى المدارس اِضطرت، هي أيضاً، إلى إغلاق أبوابها بسبب البرد القارص وشحّ التدفئة. فواجهت الحكومة حملة شرسة للتصويت على الثقة حول أدائها.. وهكذا خسرتْ ثقة الشعب وأُعلن عن اِنتخابات جديدة بغضون أسابيع، واِنتهى "شتاء الغضب" على أمل التغيير المنشود. وفي عزّ الربيع، فازت أول امرأة في التاريخ البريطاني لرئاسة الحكومة، وبدأ عصر جديد مع مارغريت ثاتشر. ومعها، وصل حُبّي مداه لمعشوقتي أنابيل، فتعثرتُ كما يتعثر الرجال، ووقعتُ في شباكها وبقبضة الزواج. كانت أيام الصيف معتدلة وجميلة، وقد شغلتنا الأمور المنزلية واِختيار أثاث البيت عن أحداث العالم.

في تلك السنة، قررنا قضاء عيد الميلاد في مسقط رأسها. كلانا، يومئذ، كان يعمل بوسط لندن من التاسعة صباحاً إلى الخامسة مساءً، أنا في "شارع الصحافة"، وهي في منطقة "تشيلسي". تلك كانت أول مرّة أغادر العاصمة فيها منذ وطأتها. فما كنتُ قد زرته من قبل لم يتعدَ بعض الحدائق العامة والمتاحف وحديقة الحيوان. وهكذا، ما إن سنحت لي الفرصة لزيارة *Tyneside*، حتى قفزتُ لها كما تقفز القرود للموز. ومع أني كنتُ زوج أنابيل "بدوام كامل" في شقة واحدة، إلا أنني لم أكن أعرف عنها الكثير ولا هي عني. "سندير لاند" يومئذ كانت معقل حزب العمال وفخر الكادحين والبروليتاريا، ولطالما اِعُتبرت جوهرة التاج البريطاني في بناء السفن وبإسهامها في اِقتصاد البلاد، وإن لم تطلها منه حصة عادلة. كانت أنابيل قد سبقتني إلى "سندير لاند" ببضعة أيام لحياكة الترتيبات والتوقعات اللازمة. ومن نفس محطة

"فيكتوريا" التي كنتُ قد ألفتها وتعودتُ عليها، أخذتُ القطار باكراً يوم 23 كانون الأول 1979م وإنطلقت به شمالاً. ورغم أنفاس الناس فيه والشمس الساطعة من خارجه، كانتْ البرودة يومها مُرّة والصقيع لا ينسى، خاصة أنها تزامنت أيضاً مع الذكرى الأولى لإغتيال الكاتب الماركسي مالكولم كالدويل (الإسكتلندي). كان واحداً من المفكرين الإنسانيين العظماء الذين كنتُ أتابع مسيرتهم بإعجاب عن كثب. نذرَ حياته للقضية الكمبودية ومات برصاصها. و"الخمير الحمر" في تلك الأيام لم يرحموا أحداً، خاصة مَن كان مثل مالكولم، يلاحقهم على إقترافاتهم الدموية ويدوّن للعالم مجازرهم البشعة. كان طقس كانون الأول في ذلك العام "حربائياً" إستثنائياً لأنه لم ينذرنا بإمكانية تساقط الثلوج إطلاقاً. لكن، ما إن مرّ عيد الميلاد على يوم مشمس لطيف، حتى قرر الطقس فرض هيبته وإنقاذ سمعته، فأسقط علينا من الثلوج أرقاماً قياسية. بعضها تجاوز متراً ونصف المتر في مع تدني الحرارة إلى ما دون العشر درجات مئوية تحت الصفر، وكان ذلك طقساً غير مسبوق أو مألوف.

ميلاد بأقصى الشمال!

القطار إلى "سندير لاند" إستغرق ما يزيد عن أربع ساعات، وأعاد إلى مخيلتي صور الثورة الصناعية والمحركات البخارية وعصر المناجم. أشياءٌ كنتُ قد قرأتُ عنها مطولاً وكثيراً في المدرسة في لبنان. وعلى صوت العجلات النمطي ورتابة نغمتها، خُيّل لي كما لو كنتُ على أول قطار فحم إنطلق في بريطانيا عام 1802م. زيارتي الأولى إلى "سندير لاند" كانت تختلف إلى حد كبير عن كل سفرياتي السابقة في العالم. فلأول مرّة في حياتي كنتُ متزوجاً، وما كان يخصني ويعنيني كان يخصّ زوجتي ويعنيها بنفس القدر. فكان اللقاء

بأفراد عائلتها يُشغلني عما كان يدور في القطار حولي. كيف سينظرون إليّ وكيف سأُعامل، لا سيما أني لم أكن قد اِلتقيتُ يوم زفافنا في لندن إلا بأمّها واختها؟ لم أكن مسيحياً مثلهم ولا أوروبياً! كنت غريباً عن بيئتهم وهم عن بيئتي. لم تكن لديّ أي فكرة عما كانوا يتوقعونه مني خلال عطلة الميلاد، بإستثناء تبادل هدايا العيد والإبتسامات والمجاملات؟ جلّ ما كنتُ أعرفه لتلك المناسبة في حينه، ثلاث كلمات فقط: "بابا نويل"، و"ديك الحبش"، و"شجرة الميلاد"!

أخيراً وصل القطار إلى رصيف "سندير لاند" بمنتصف النهار. كانت المحطة "متعبقة" بأبخرة "الهوت دوغ" ونسائم الكستناء وروائح "البيرغير". أرصفتها بالإتجاهين كانت تزهو بأجواء اِحتفالية مفرحة وبجوقة أطفال عيد الميلاد. ولعمري، كم كان رائعاً أول عيد ميلاد أحضر مراسمه بشمال بريطانيا. كان مشهداً مُسّراً خلاباً، خاصة مع زينة العيد بكل زاوية وعند كل مفترق. أما أشعة الشمس ولهجة الشماليين والأنفاس المنبعثة من أفواه الناس، فكانت إضافات لطيفة تتعانق أمامي وتتراقص من حولي. بل حتى المتسولون في الشارع خارج المحطة، بدوا هم أيضاً أنيقين بملابسهم الإحتفالية وقبعاتهم الحمراء وزماميرهم الصاخبة. وبعد لحظات جميلة من الدهشة والإعجاب، جاء دوري في طابور الإنتظار وركبت التاكسي..

سألت السائق إذا كان يعرف "تلة الهلال" *(Cresent Hill)*، فردّ عليّ بابتسامة عريضة ولهجة "شمالية لطيفة"، وبدا متأكداً من العنوان، ثم قال: "سأجده لك حتى وإن لم يكن مسجلاً في أطلس الشوارع". يومها لم يكن لدينا "غوغل للطرق"، ولا أقمار اِصطناعية لأغراض الناس اليومية، أو ألعاب إلكترونية على هواتف نقالة. سائق التاكسي كان تسليتي الوحيدة، لم يكن "مهرجاً" وثرثاراً فحسب، بل كان يحدثني بسرعة العدّاد أمامه. لهجته الإنجليزية على مسمعي، كانت كالأرمينية

على مسمع المصري. ففيها من كلمات "الجرود" (الجوردي) ما لم أكن معتاداً على سماعه، أو كانت موجودة أصلاً في قاموس أوكسفورد. كنتُ في غاية الدهشة والسرور ونحن نمرّ بالأزقة القديمة وعلى الجسور المتنوعة وفي الأنفاق. والمدينة، رغم فقرها، تتمتع بتاريخ عريق وتقاليد غنية. فسكانها شغيّلة من الطراز الجدّي، وقد عملوا على مرّ القرون بصناعات الملح والفحم والشحن. بيد أن ذهنية مارغريت ثاتشر التي بدتْ مُتيّمة بسوق السمسرة و"الخدمات"، أدتْ إلى إضعاف المرتبة الدولية التي كانت "سندير لاند" تتمتع بها. والأدهى أن إهمال ثاتشر "لسندير لاند" أسقطها من تصنيف "أكبر مدينة لبناء السفن في العالم" إلى مجرد مدينة أخرى في بريطانيا. المفارقة أن "سندير لاند" لم تبرز أساساً، ومنذ القرن الرابع عشر، إلا على بناء السفن الحربية، ناهيكم أنها بحلول منتصف القرن الثامن عشر، اِرتقت وصارت واحدة من أشهر مدن بناء السفن التجارية في الغرب كله. ويكفي تاريخها المكافح أن المدينة بَنت ما يقارب ثلث سفن المملكة المتحدة خلال قرن كامل، وهذا شيء لا يُقدّر تماماً إلا على خلفية الطبيعة البحرية لبريطانيا العظمى!

وبنظرة فضولية واِبتسامة صبيانية من مرآته، سحب السائق اِنتباهي من أفكاري وشدني إليه بالسؤال: "من أين أنت يا ريس *(Gov.)* "؟ فأجبته على الفطرة بدون تفكير: "من الشرق، من لبنان". هنا، دار رأسه فجأة إلى الخلف، ورمقني نظرة اِعتراف كنسي وقال: "هل تعلم يا سيدي أنك أول شخص "ملون" يركب سيارتي خلال حياتي"؟ كان واضحاً أنه لم يقصد إحراجي أو الحطّ من قدري، بل فقط أراد التعبير عن فخره بإنجاز شيء لم ينجزه من قبل؟ لكنني، رغم حسن نيتة، لم أستلطف كلماته بتاتاً، بل العكس، كان تعبيره غليظاً عليّ مؤلماً ومهيناً. وما لبث أن سألني من جديد إن كنتُ مسلماً، أو متزوجاً من أربعة

نساء، أو أشرب الكحول، أو أصلّي خمس مرات؟ أسئلته كانت غريبة عن طبيعة الإنجليز نفسها وخارج السياق المتحفظ الذي كنت أعرفه عنهم. لكن "الطبيعة السندير لاندية" أقرب إلى طبيعة سكان الجبال عندنا في لبنان، فطرية عفوية، لا خبث فيها ولا مآرب. إلا أن اِنطباعات السائق المسكين عن الشرق كانت نمطية بإمتياز تعكس جهل البسطاء عموماً وبُعدهم عن الواقع خارج الجزيرة البريطانية! وهكذا، فالأمر لم يستأهل مني ضرورة تصويبه لأن اِنطباعات الرجل كانت قد اِنطبعت بداخله وتراكمت في وجدانه عبر قرون طويلة، ربما منذ حملات الصليبيين. فكوني شرقياً من لبنان، لا بد أني كنتُ بنظره عربياً مسلماً، وبالتالي متزوجاً من أربع نساء، وممنوعاً من أكل الخنزير وشرب الخمرة. لم أزعجه في عيد الميلاد ولم أخيّب أمله، فطمئنته أنني مسلم بالولادة وأنهيتُ الحوار معه قبل الإنزلاق إلى الحديث عن الصحراء والجِمال والنخيل وألف ليلة وليلة وياسر عرفات!!

وصلنا إلى (*Cresent Hill*) فتمنيتُ له عطلة سعيدة، وقرعتُ الباب على أهل زوجتي. رائحة البيت فاحت بوجهي، وأجواء الإحتفال لفتْ حولي وضمّتني، وصدى أغاني الكريسماس أدهشتني. كان ذلك أول عيد ميلاد اِحتفل به منذ ولادة المسيح (وقت طويل)!؟ فعيد الميلاد لم يكن يعني لنا الكثير في صغرنا، رغم أننا كنا نجتمع حول شجرة الميلاد على الكعك والشاي وترتيلات فيروز. بيروت كلها على أيامنا في السبعينيات كانت تتزين للميلاد وتتباهى بالشجرة والمغارة والحَمل وأضواء الزينة. أهل زوجتي أتحفوني بضيافة ملفتة ضاهت ضيافة حاتم الطائي، وإنْ لم يذبحوا ناقة أو جمل على شرفي. وما إن حلّ مساء اليوم التالي (عشية الميلاد) حتى توجّهنا إلى إحدى الحانات التقليدية القريبة، وبدأنا بـ"الشرب" باكراً. وبمنتصف الليل تماماً خرجنا من الحانة إلى الهواء الطلق، وراقبنا أشياءً غريبة في سماءٍ

صافية على غير عادة، والسعادة تغمرنا إلى حدود النشوة. يا إلهي، كم كان رائعاً شعور الفرح والسكينة تحت أضواء النجوم مع أحبّة غيارى وسكارى. وأما اِحتفال اليوم التالي، يوم العيد نفسه، فكان خيالياً على "جثة" ديك كبير، غابت عني أصوله، فلم أعد أعرف إنْ كان رومياً أو تركياً أو حبشياً أو هندياً، لكن مع فطيرة الـ"يوركشير بودينغ" لم تعد أصوله مهمة بالمرّة. إذ إن الفطيرة وحدها كانت بالنسبة لي كل الخبرية والعيدية؛ فهي تشبه كعكة البريوش المنفوخة بحيث يوضع بجوفها مرق الديك بجانب قِطع البطاطا والبروكلي والملفوف الصغير. أفراد العائلة كانوا فرحين بوجودي بينهم، ولم ينتبهوا إلى لون بشرتي كما اِنتبه سائق التاكسي!

أنا أفكر، فأنا عنصري

بيد أن ملاحظات سائق التاكسي، وإنْ كانت صحيحة وعفوية، إلا أنها أزعجتني وأثارت حنقي وعكّرت مزاجي خلال العيد. وما أزعجي أكثر من أي شيء آخر هو "اِنزعاجي" نفسه، لأنه أكّد عنصريتي حتى النخاع، وإلا فلماذا يُغضبني تعبير صحيح ودقيق؟ أين المشكلة أني لست أبيض أو أوروبياً، أو كوني حنطياً من بلاد الشرق، مثلاً؟ أفكار التعصّب والعنصرية بقيتْ في ذهني وشغلتْ بالي حتى بعد رجوعنا من العطلة إلى لندن. ومع أن الموضوع من أساسه لم يستأهل تلك الحمية والنرجسية، لكنه فضحني لأني كنتُ اِعتبر نفسي آدمياً إنسانياً مثالياً، فإذا بي أتعرّى أمام حالي لإكتشف فجأة أني كنت منافقاً عنصرياً كميلياً بِامتياز. لكن رغم ذلك، كنتُ بداخلي ممتناً جداً لسائق التاكسي ومشكوراً؛ فقد خدمني خدمة العمر باكراً ونوّرني دون أن يدري! لم يكن من طبيعتي أن أترك الأمر يَمرّ مرور الكرام، فقررت الإستقصاء عن أسباب عنصريتي والغوص في جذورها. فاِتصلت بوالدي، وكان

يومئذ يعمل في صحراء "الربع الخالي" لجهة سلطنة عُمان! وبدون مقدمات مطولة سألته: "كيف تشعر يا أبي إذا تقدم "عبد" أسود للزواج من ابنتك؟". سألته كما لو كان مستقبل حياتي متوقفاً على ردّه! (وليس ردّها)!

والدي، بذهنيته المنفتحة ومعرفته بطبيعتي المتفذلكة، لم يستهجن سؤالي من أصله. كان معتاداً على سلوكي الغريب وفكري العجيب. ومع ذلك، كان يعرف سلفاً أن وراء أسئلتي أسباباً وجيهة. فرد عليّ بدون تردد وقال :"الأمر يا ولدي لا يخصني، إنه متروك لأختك. جلّ ما أريده لها أن تكون بصحة جيدة وسعيدة، بغض النظر عن لون زوجها، أو ديانته، أو مهنته، شرط أن تكون مهنة مَكْفيّة مُعلَنة وقانونية". والدي كان واضحاً في قصده ومباشراً، وقد سرّني جداً ما سمعت منه. فاِغتنمت الفرصة وسألته عن صحراء عُمان، فرد بتهكم نادر وقال: "إن الله خلق "الربع الخالي" لإختبار قدرة الأشرار على تحمل الجحيم. لكن لا تقلق يا بني، لدينا هنا مكيفات أميركية وثلاجات ألمانية. عليك أن تزورنا يوماً، وتتعرف بنفسك على الحضارات القديمة، وعلى حياة الإبل في الصحراء، وزراعة اللبان في محافظة ظفار، وصيد محار اللؤلؤ على الشطْآن، وفن بناء القوارب الأصلية، ومسارات التوابل، وطريق الحرير من الهند والصين". والدي كان يفهم شغفي بالحضارات القديمة جيداً، فكان يحدثني عن تاريخ عُمان وبحّاريها كما لو كان مديراً لهيئة السياحة العُمانية أو الآثار!

وبعكس الإختبار مع والدي، كنتُ أعرف سلفاً أنني لن أستطيع اِختبار المسألة مع أمّي عن طريق الهاتف. لم تكن من النوع الذي يتفهم فلسفة الغوص بالأعراق والأجناس أو الأديان! لكن عندما سنحت لي الفرصة بعد ذلك خلال زيارتي للبنان في عطلة الفصح (نيسان)، اِغتنمتُ الفرصة وسألتها صراحة وجهاً لوجه. فبدل أن تجيبني كما

أجابني أبوي، وَلوَلتْ عليّ (يا ديلّي، يا ديلّي) وصرختْ بوجهي صرخة "إياك ثم إياك"، واِستغفرت: "أعوذ بالله منك يا عماد. كيف تجرؤ على سؤالي بمثل هذا الغباء؟ أختك لا يمكن أن ترضى "بعبد" أسود، ولا يمكن أن تُجبرني على قبوله - لا سمح الله". ومع أن جواب أمّي كان واضحاً وحاسماً، كان عنصرياً أرعن دفعني فوراً إلى تذكيرها بأنها هي أيضاً ليست متزوجة من رجل أبيض أساساً، لا سيما أن "سمرة" والدي شديدة واضحة. فدافعتْ عن نفسها بشراسة وقالت: "هذا شيء مختلف يا ولد. سُمرة والدك مدبوغة من شمس الضيعة عندما كان طفلاً". دفاعها ذاك كان عذراً أقبح من ذنب، لكن فهمتُ منه ما كنتُ أصبو إليه أصلاً. أمّي مثلي (أو أنا مثلها) عنصرية حتى النخاع، مع فارق واحد أنها بيضاء البشرة ولم تُدبغ بشمس ضيعتها عندما كانت طفلة؟

وهكذا، اِكتشفت فيما بعد أن أمّي لم تكن وحدها بعنصرينها. العالم كله عنصري مُعتّق منذ أيام سام وحام ويافث وسارة وهاجر وغضنفر. كلٌ يرى الوجود من بيئته ويقيسه حسب ظروفه. فعندما نزح السوريون، مثلاً، إلى لبنان في أعقاب الحرب السورية (2013م)، قام عليهم لبنانيون كثيرون بتهم عنصرية. وعندما تهجّر الأوكرانيون في الحرب مع الروس (2022م) أثيرت عليهم نعرات العنصرية حتى من أقرب جيرانهم في بولندا. وهكذا، يُعاير السعودي جاره القطري، والإماراتي يستخف باليمني، والمصري بالسوداني، والتونسي بالليبي، وهلم جراً. الأدهى من ذلك كله أننا في الشرق نشتكي من عنصرية الغرب تجاهنا، وهو ربما بالشكل أرحم بنا منا! إذ إننا رأينا أبشع نماذج العنصرية والكراهية أثناء توسع داعش في سوراقيا. قتلوا واِضطهدوا، ثم نكلوا بكل مَن اِختلف عنهم من كرد وشيعة وإيزيديين ومسيحيين وصابئة. مَن قال إن العنصرية تنال اللون وحده، أو العقيدة

وحدها، أو الفرق الطبقي، أو حتى المهني؟ كل اِختلاف يمكن أن يكون عنصرياً. فحتى الصومالي الحنطي يحتقر عرق جيرانه المختلفين عنه، مثلما يحتقر السوداني "العربي" جاره الدارفوري لأسباب ليس اللون أحدها. كلنا عنصريون، ونحمل في وجداننا أطناناً من الإنطباعات المتراكمة في الحمض النووي عبر القرون. بل حتى ضمن أبناء البلد الواحد والعِرق الواحد والديانة الواحدة والمذهب الواحد، نجد من الفروقات ما نريد التفضيل بينها لمصلحتنا. إنها طبيعة صراع البقاء و"الأنا" عند البشر...

الفصل العاشر: متاريس المواجهة

فرس وإيرانيون!

في رحاب النعيم البريطاني والتألق المهني بمسيرتي، بدأتْ أنباء الحرب بين إيران والعراق تطغى على أخبار العالم اِبتداء من أواخر أيلول 1980م. صدام لم يكن أصلاً معجباً بالخميني عندما كان الخميني منفياً على أرضه في النجف. كما لم يستهوِ ثورته عندما حكم إيران وصار على الحدود بوجهه. إذ كان من أهداف الثورة "تصديرها، ومؤازرة الشيعة، ومناصرة المظلومين في العالم". كان الخميني مُصرّاً على تطهير النظام الإيراني من "مخلفات" الشاه، وعلى رسم نهج جديد لإستقطاب الشيعة (كل الشيعة) إلى مفهوم "ولاية الفقيه". كما أن صدام، بغياب الشاه عن المنطقة، أراد، هو الآخر، أن يستبد بدوره فيها ويبدو بطلاً عربياً قومياً ضد الفرس. وربما شبّه نفسه في خلده بسعد بن أبي وقاص، وهو يحارب "بأمّ المعارك" ضد فارس في القادسية! ومع أن أهل الخليج رحّبوا بسقوط الشاه، لكن لم يكونوا مرتاحين لا للخميني ولا لمحاولات صدام ملئ الفراغ. ولو نظرنا في مرآة التاريخ اليوم، لوجدنا أن الثورة الإيرانية كانت "مرسومة" بعناية فائقة وموجّهة بحرص شديد من قِبل الإستخبارات الأميركية. ذلك أن الخميني كان أصلاً منفياً في النجف تحت أعين المخابرات العراقية بمعية الأميركيين. وكانت إيران يومها تغلي ضد سياسات القمع والظلم بتشجيع من خصوم الشاه في الداخل والخارج على السواء. وقد وصل الأمر مع الشاهنشاه محمد رضا بهلوي أنه فقد البوصلة ولم يعد يستمع إلى "نصائح" حلفائه الأميركيين

حول ضرورة مكافحة الفساد، وتنفيس الشارع، والتخفيف من عنجهية إدارته لأوبك، وأدائه المتسلط في الخليج..

كان "السافاك" يومها يعتقل المعارضين ويلاحق النشطاء ويضيّق على الشارع. لكن الأميركيين هم أصلاً من درّب "السافاك"، وهم خبراء ودهاة بإيجاد الحلول (الآنية). كان الأميركيون يحرصون على ألا تفلت إيران من سيطرتهم، لا سيّما أن الحزب الشيوعي الإيراني "تودة" كان قاب قوسين أو أدنى من قلب الحكم لصالحه. كان هناك خطر حقيقي من توحّد أقوى حزبين شيوعيين في المنطقة (إيران وأفغانستان) لصالح السوفيات. وهكذا، كان الخميني بمثابة "الجوكر" بأوراق الأميركيين ضد الشاه وضد حزب "توده" وضد السوفيات معاً. الرجل كان شرساً بكرهه للشاه، وعالماً مرموقاً، وتقياً، ومحبوباً من الجماهير الشيعية. لكنه لم يكن بالضرورة على علم بمَن كان يُراكم له الأمور ويدفع بها سواء لصالحه بحكم إيران، أو ضده لتوريطه بحرب ضروس مع صدام، أو لإشغاله بخلافات مع العلمانيين والشيوعيين على حد سواء. لم يكن سراً أن جهة دولية ما موّلت رحلة الخميني من باريس إلى طهران على طائرة فرنسية خاصة. الخميني لم يكن يملك ثروة ولا أجهزة مخابرات خاصة به، أو أجهزة تنصت تصل أذنيها إلى أبعد من قمّ وشيراز وبازار طهران، لكن كان معه أنصار أتقياء وتجّار كبار يرتعبون من إمكانية حكم اليسار والشيوعيين، فضلاً عن الطابور الخامس. وهكذا، اِستطاع الأميركيون من خلال تلك البيئة العريضة اِستغلال حقد الخميني على الشاه، واِستثمار الزخم الإسلامي في إيران وأفغانستان، ومساندة الثورة الإيرانية والمجاهدين الأفغان وصدّ السوفيات. كما أنهم نجحوا في صقل توجهات إيران الجديدة بمسار المنظمة الإسلامية لإدانه "الكفار الشيوعيين". وفي المقلب الآخر، أشعل الأميركيون الحرب بين العراق وإيران، فكانت واحدة من أكثر المؤمرات وضوحاً

للمراقبين الدوليين، وقد دُفع صدام إلى بدئها وغُدر به ولم يرَ بغروره أبعد من أنفه. وعلى نفس المنوال غُرّر بالخميني، هو الآخر، فأخذته العزة بالإثم ولم ينتبه إلى المؤامرة التي هدفت إلى تحجيم ثورته ولجم طموح صدام معاً. وكأن ذلك التآمر وحده لم يكف، فقد حاول الخبثاء أيضاً الصيد بالماء العكر من خلال إقحام حادثة الهجوم على المسجد الحرام في أواخر تشرين الثاني 1979م. إلا أن حركة جهيمان العتيبي، المسؤولة عن الهجوم في مكة، لم تكن مرتبطة لا بإيران ولا بالعراق ولا حتى بالإخوان المسلمين. كانت حركة سلفية "جزيرية" بحتة، معارضة لحكم آل سعود تحديداً بسبب الفساد وسوء الإدارة - حسبما ورد في اِعترافات جهيمان نفسه قبل إعدامه.

"أكو حكوك وأكو واجبات" - الجزء الثاني!

في بداية العام 1981م، كانت أجواء لندن مشحونة بالغضب من سياسات ثاتشر، خاصة مع السود والهنود. وبمطلع الربيع، نشبت أعمال شغب مناهضة لنهجها في الأحياء الشعبية بجنوب وغرب لندن وفي مدينة ليفربول. ورغم عظمتها وجبروتها تحت قيادة المرأة الحديدة، صُدمت بريطانيا من شراسة التعبير ضد حكم ثاتشر ومن حجم التخريب والأضرار بالممتلكات العامة. جُرح 300 من رجال الشرطة وحُرقت 100 من المركبات والباصات واِعتُقل العشرات من المحتجين السود. ولولا وُعود جدّية رسمية من أعيان وشخصيات ومنظمات بريطانية، وضمانات خطية من ثاتشر نفسها بإقامة إصلاحات تطهيرية فورية، وخاصة في صفوف الشرطة، لكانت أحداث الشغب قد امتدتْ إلى العديد من المدن البريطانية وهددتْ الأمن السلمي في مناطق الجاليات. وحتى أوروبا، لم تكن الأوضاع العامة فيها أفضل حالاً بِاستثناء خبر اِنضمام اليونان إلى السوق الأوروبية.

أما التطور الكبير، فجاء من الشرق الأوسط كالعادة. يومها فوجئنا بموافقة إيران الخميني على "صفقة العصر" للمبادلة مع الأميركيين، فأطلقت سراح 52 رهينة من السفارة الأميركية، بعد 444 يوماً، وتحديداً يوم اِنتخاب ريغان. كان ذلك تسليفاً مدروساً من الخميني لريغان لفتح صفحة جديدة بين إيران وأميركا. وبدوره، أفرج الرئيس الأميركي الجديد عن ثمانية مليارات دولار من أصول الإيرانيين المجمدة. المبلغ بمعايير ذلك الزمن كان فلكياً بِامتياز ومثّل إنعاشاً لخطط الخميني وآماله. وهكذا، فهمنا فيما بعد أن وصول ممثل أميركي فاشل من هوليوود إلى البيت الأبيض، ريغان، كان عملاً سرياً مشتركاً بين أجهزة الدولة العميقة في أميركا وبين إيران لإقصاء كارتر وتغيير نهجه اليساري من جهة، ولإطلاق سراح الرهائن والترويج لنهج الخصخصة، التي "أوجدوا" ثاتشر وريغان لحمل لوائها، من جهة أخرى. كان واضحاً أن الثنائي ثاتشر- ريغان "أُعِد" بعناية فائقة في مطابخ "المؤسسة" العالمية (الأنجلو - صهيونية) للترويج لتحرير الأسواق وعتق المؤسسات الحكومية والخصخصة والعولمة كنظام عالمي جديد.

***

في تلك الأثناء، كانت ثلاث سنوات كاملة قد مرّت على صدور باسبوري الجديد وحان وقت التجديد لأول مرّة. فتوجّهت في صباح يوم مشمس إلى السفارة العراقية في لندن، وكانت العاصمة يومها ترقص فرحاً وتضج سروراً بخبر خطوبة ديانا على الأمير تشارلز.. أما بالنسبة للخارج، فكانت أنباء الحرب مع إيران قد بدأت تشغل الأوساط الديبلوماسية بشكل مقلق ومفزع. كان التوجّه العراقي الرسمي (الدعاية) يُروّج لفكرة أن الحرب العراقية على إيران إنما كانت دفاعية اِستباقية بِامتياز. بل كان الإعلام العراقي يدّعي مبالغة

أن ضمّ محافظة خوزستان الإيرانية، إنما هو جزء من الدفاع المقدس عن العراق. والأدهى من ذلك كله، أن الإعلام العراقي كان يحرّض عرب خوزستان (وفيها أعراق أخرى) على التمرد والإنفصال عن إيران. بيد أن عرب خوزستان أنفسهم لم يكونوا على موجة صدام إطلاقاً، ولا على وتيرة حماسه وإستهتاره. وفي الأثناء، اِجتمع الخليجيون وأسسوا مجلساً للتعاون فيما بينهم بمعزل عن صدام، أو ربما بسببه، أو خلف ظهره. ومع أنه حاول فرض نفسه والدخول معهم، لكنهم فشّلوه وأفشلوه. كان من مصلحة الخليجيين إبقائه خارج مجلسهم وتمويل حربه ضد الخميني لإطالة الحرب بينهما من جهة، وإضعاف الرجلين معاً على طريقة "فرق تسد" من جهة أخرى. إلا أن للكارما حكمتها؛ فهي أبداً تترقب وتحاسب. ولربما ما شاهدنه من اعتداءات إيرانية على دول الخليج خلال الحرب على إيران (2026م) بمثابة فاتورة متأخرة عن أيام صدام والخميني!

موظفو السفارة العراقية في لندن كانوا "صدّاميين" أكثر من صدام نفسه. تكلموا معي وكأن وجودي في لندن وحده كان خيانة عظمى، أو كما لو كنتُ شخصياً مسؤولاً عن اِستبعاد صدام عن مجلس التعاون الخليجي! وبالرغم من أنه كانت لي تجارب سابقة مع عراقيين رسميين في بوخارست وبيروت وبغداد، لكن لم أُعامل معاملة اِحتقار وعداء كما عوملت بسفارة العراق في لندن. طلبوا مني أشياءً ومعلومات لم يكن الردّ عليها سهلاً أو ممكناً. أرادوا - على سبيل الإستشهاد - تزويدهم بعناوين وأسماء معارفي وأقربائي العراقيين في كل العالم. لا، بل، أمروني بكل وقاحة أن أخبرهم مَن كان منهم شيوعياً، أو زار إيران، أو معارضاً لصدام أو لحزب البعث؟ بيد أن المسألة معي لم تكن مسألة مبدأ فحسب، لكنني حقاً لم أكن أعرف من هم أقربائي العراقيين أصلاً. بل إني لم أكن أعرف ماذا كانوا يعملون أو أين

يسكنون، ناهيكم إنْ كانوا شيوعيين أو مؤمنين أو من عبّاد الشمس والشياطين. ذلك أن وجودنا وترعرعنا في لبنان قطّع الأوصال العراقية بيننا وفرّق العوائل بعضها عن بعض في الإتجاهات الأربعة، لا سيما بعد هجران الضيعة وخرابها بسبب الإعتداءات الإسرائيلية المتكررة والحرب الأهلية لبنان. لكن ماذا عساي أن أفعل مع موظفي سفارة جهلة لم يهمهم من العالم إلا تلبية أوامر حزب البعث، أو أن يكون صدام راضياً عن غبائهم وسعيداً بهبلهم. كانوا "جِرصة" قومية في لندن! لم يحترموا كرامات المراجعين ولم يتفهموا ظروفهم. (لا تفركوا أياديكم كثيراً، فنظام ما بعد صدام يحمل نفس الجينات الغرورية والإنتقامية والعنجهية!)...

وعلى حساب التكرار، لم أكن عراقياً كالعراقيين، ولم أرث الخوف من النظام أو من صدام مثلهم. كما لم يتسرّب إليّ وجع التوجّس من سياساته، ولم تعنني بأي شيء. كنا في لبنان نشارك في التظاهرات كل يوم ضد كل شيء. فالإثنين ضد المدرسة. والثلاثاء ضد الإمبريالية. والأربعاء ضد الشاه. والخميس ضد فيصل. والجمعة ضد رجال الدين. والسبت ضد اليهود وإسرائيل. أما الأحد، فضد الكتائب والأحرار والفاتيكان معاً. لم نعرف الخوف يوماً، ولم نخشَ من العواقب، لا من مخابرات الشاه في بيروت، ولا من رجال صدام، ولا حتى من عيون كسينجر. وعلى ذلك النَفس وتلك النبرة، رفضتُ تزويد السفارة العراقية بأي معلومات حتى عن أسعار الفجل وتقلبات الطقس، وأصريت على تجديد جواز السفر كحق مكتسب بموجب القانون العراقي والدولي. وكعادتي في اللجّ والعناد والشكوى، طلبتُ مقابلة القنصل..

يومها، (نيسان 1981م)، كانت الأنباء من لبنان محبطة للغاية. فالجيش الإسرائيلي كان يغزو جنوب لبنان في محاولة لطرد منظمة

التحرير إلى شمال الليطاني. كان القتال أسطورياً شرساً، فأودى بحياة 1000من المدنيين اللبنانيين و18 جندياً إسرائيلياً. يومئذ كان بيغن مصراً على طرد الفلسطينيين من جنوب لبنان بسبب هجماتهم المتكررة على مستوطنات إسرائيل. كان تارة يَغِير على مواقع منظمة التحرير بين كروم العنب وحقول الزيتون، وطوراً كان يستهدفها بقصف عشوائي ممنهج على مدى أيام بحيث لا يترك مجالاً للملمة القتلى وسحب المعطوبين! (المفارقة أن نتنياهو اليوم {2026م} يصرّ أيضاً على طرد مقاتلي حزب الله من جنوب لبنان إلى شمال الليطاني لنفس الأسباب!)...

في اليوم المحدد مع القنصل العراقي، توجّهت إلى السفارة، وكانت تلك رابع زيارة على مدى ثلاثة أشهر. وكعادة الدبلوماسيين، كان الرجل دمثاً مؤدباً بشوشاً وقد اِستقبلني بمكتبه كما لو كنتُ من أقرباء صدام نفسه! طلب لي "كوب" شاي، وكانوا يقدمونه في لندن على الطريقة التركية بـ "إستكانة" صغيرة ومكعبات من السكر. حديثنا كان صريحاً ومسهباً، وقد أعدتُ على مسمعه أسطوانة قصة حياتي من أولها، وذلك على مبدأ "لم يكن عندي ما أخسره"! وهكذا، أبدى الرجل من حلاوة اللسان تعاطفاً (أغاتياً)، لكن بعصارة المرارة اِختصر المسألة وأعاد عليّ باللهجة العراقية نغمة "أكو حكوك وأكو واجبات"، وقال: "سأنطيك {لاسيه باسيه} إلى العراق، وهناك اِشرح وضعك وجدّد جوازك". كان واضحاً أن روايتي لم تعجبه من أصلها، وعملي مع السعوديين في جريدة "الشرق الأوسط" لم يسرّه إطلاقاً. أسقط بيدي، فقلت له منهياً المقابلة وموضحاً: "عندما طُلب مني تأدية الواجبات من قبل، زرتُ العراق وكنتُ مستعداً لأداء الخدمة العسكرية. يومها لم أكن أعمل، ولم أكن أتعلم، ولم أكن متزوجاً، ولم

يكن أهلي واخوتي مشردين. أما الآن يا سعادة القنصل، فلدي أشياء أهم بكثير من الموت بحرب بين بلدين لم أترعرع في أحدهما". ورغم نبرتي العالية وسخطي الغاضب، ودّعَني القنصل بكل أدب واِحترام وتمنّى عليّ بدماثة التملق زيارة العراق بأسرع وقت ممكن بما كان يشبه التحذير المبطن. وعند خروجي من مكتبه لم يَفته أن يذكّرني أن السفارة بخدمة الرعايا العراقيين.

سجين حرّ

موقف السفارة كان خيبة أمل محبطة وصدمةً كبرى. ذلك أني كنتُ في تلك الأيام بحاجة ماسة إلى جواز سفر صالح؛ فبعكس أيام المراهقة والشباب، لم أكن تلك المرّة أحتاجه للسياحة وشمّ الهوا، بل لمتطلبات العمل في الجريدة، وتحديداً لمعاينة نقاط توزيعها في عواصم أوروبا والمطارات الكبرى. كان السفر حاجة قصوى وشرطاً لإستمرار وظيفتي وضمان مستقبلي المهني. ورغم أهمية الموضوع وكثرة معارفي في الوسط الإعلامي وإمكانية التوسّط لحله مع بعض النافذين، إلا أني شئت أن أُبقي المسألة ضمن خصوصياتي، لا لشيء إلا لأني كنتُ قد مَللتُ من إعادة الأسطوانة المشروخة عن "قصتي مع الزمن"! ومَن يدري، فلربما كان الغوص في خصوصياتي مدخلاً إضافياً لمشاكل جديدة كنتُ أساساً في غنى عنها..

وهكذا، صرتُ سجيناً في بريطانيا الحرّة. عاودت المحاولة مع السفارة من جديد، لكن تلك المرّة كانت بواسطة البريد المضمون بعيداً عن الشخصنة والمواجهة الحيّة. المراسلة بالبريد المضمون وفرّت لي فرصة أنسب وحيزاً أوفى لعرض المشكلة وتزويدهم بصورة دفتر الخدمة العسكرية، حيث أن نصّ الإعفاء فيه واضح من وزارة الدفاع نفسها. لكن بإستثناء التوقيع على إستلام رسائلي المضمونة، لم يأتني من العراقيين أي ردّ على الإطلاق، لأن الردود كانت ستُحسب عليهم وتؤدي بهم حتماً إلى مكان يفضح نواياهم. كان عراقيو السفارة مرتبكين بسبب الحرب مع إيران وبسبب تعليمات التشدد من بغداد، ولم يرغبوا في تحمّل مسؤولية غربلة إنتماءات العراقيين في الخارج، أو المخاطرة بالتعاطف مع أحد منهم!

المسرح الدولي يومها كان على وشك البدء بمشهد جديد. إذ إن فرانسوا ميتران أُنتخب رئيساً للجمهورية الخامسة، وكان أول رئيس إشتراكي

يحكم فرنسا وله مع العراق علاقات جيدة. ومن طرفها، إستغلت إسرائيل مرحلة الغموض والفوضى في المنطقة وباغتتْ العراق بضرب مفاعله النووي "أوزراك" عبر الأجواء السعودية، أو ربما بمساعدة طائراتها للإنذار المبكر "أواكس". فراح لفرنسا، التي بَنت المفاعل، قتيلان وبعض الجرحى. بيد أنه تسرّب من ثقوب العلاقات فيما بعد أن تعاوناً مخابراتياً على ضرب المفاعل حصل سراً بين الإسرائيليين والفرنسيين. أي إن المفاعل لُغّم سلفاً من الداخل من قِبل الفرنسيين أنفسهم بانتظار لحظة عبور الطائرات الإسرائيلية فوقهم. لكن تلك بقيت تسريبات وإشاعات لم يؤكدها أحد أو ينفها..

ربّ ضارة نافعة

في تلك الأثناء، (آب 1981م)، كانت السعودية تحضّر لحل أزمة الشرق الأوسط. يومها قام ولي العهد الأمير فهد بالإعلان عن مبادرة سلمية أراد للفلسطينيين منها تأسيس دولتهم على حدود عام 1967م. ومن حسن حظي أننا اِنهمكنا بسببها بأمور تنظيمية داخلية في الجريدة شغلتني عن السفر لبعض الوقت. وعلى مبدأ "ربّ ضارة نافعة"، كانت تواقيع السفارة العراقية على تسلم رسائلي المضمونة (على مدى تسعة أشهر) بمثابة خلاصي من فذلكات السفير وخداع السفارة. إذ لم يستغرق حلّ مشكلتي مع الهجرة البريطانية بعد ذلك أكثر من إجتماع واحد وثلاث رسائل اِعتيادية ورسم زهيد. "الإنجليز" تفهّموا وضعي تماماً، ومرّروا طلب تجنيسي على وجه السرعة، وأصدروا لي باسبوراً مؤقتاً بغضون شهرين فقط. كان الجواز يختلف باللون عن الجوازات البريطانية العادية ويُسمى عندهم "شهادة هوية". كانت التعليمات على غلافه الداخلي تنصّ بصريح العبارة: "إن هذه الشهادة صدرت للتعريف عن هوية حاملها، وهي لا تؤثر بأي شكل من

الأشكال على جنسيته". إلا أن قانون الجواز المؤقت يمنع حامله من السفر إلى بلد الجنسية نفسها، أي إلى العراق في حالتي، وأضيف إليه لبنان، على أساس أنه كان غارقاً بحرب أهلية وغير آمن أصلاً. كانت فرحة عارمة لا توصف، أشبه بفرحتي يوم وجدتُ باسبوري الضائع في بوخارست، ويوم خرجتُ حراً من سجن صوفيا، ويوم حصلتُ على الجواز الجديد في بغداد، ويوم وجدته بعد ضياع في السفارة في بيروت، ويوم تسلمت تأشيرتي إلى بريطانيا في باريس. كلٌ من تلك المناسبات كانت حدثاً اِستثنائياً مفرحاً بمثابة ولادة من جديد وحياة جديدة! وعلى نفس المنوال، قررتُ تجربة آفاق الباسبور البريطاني الجديد واِختبار ردود الفعل عليه وفعاليته. قصدت أولاً زيارة ألمانيا الشرقية، حيث كانت واحدة من عماتي تسكنها وتعمل فيها ولديها تصريح صحفي للاِنتقال بين برلين الشرقية وبرلين الغربية. كانت زيارة موفقة للغاية لم أُسئل عند الجوازات عن أي شيء إطلاقاً. قضيت أياماً جميلة رغم بدائية المكان. كل شيء في برلين الشرقية كان يشبه مدن المعسكر الشرقي تماماً، فأعادت معالمها إلى مخيلتي ذكرياتي الجميلة في بلغاريا ورومانيا وبولندا ويوغسلافيا. وحتى في تلك الأيام، بداية الثمانينيات، كانت الأسعار في برلين الشرقية رخيصة لا تُصدق، بل تجعلك تتعجب من أدائهم الإقتصادي وتندهش!

وإذا كان من اِنطباع عام علق معي عن ألمانيا الشرقية في تلك الأيام، فهو أنها كانت ديكتاتورية شمولية ودولة اِشتراكية رائدة. كنا في صغرنا نعرفها من صيتها الشعبي بالدفاع عن العمال والفلاحين ودورانها بفلك السوفيات. ولغاية سقوط حائط برلين عام 1989م، كانت ألمانيا جبهة مواجهة ساخنة مع "الناتو" ضمن الكتلة الشرقية. كان حكمها مرتبطاً بالديكتاتور المخضرم إريك هونيكر، تماماً كما كانت يوغسلافيا مرتبطة بتيتو، ورومانيا بتشاوشيسكو، وبلغاريا بجيفكوف. ومع أن هؤلاء الرجال كانوا بمثابة الحرس الشيوعي القديم

للسوفيات وسط أوروبا، إلا أنهم كانوا أيضاً مشاكسين للجنة المركزية السوفياتية في موسكو. ومن الأمثلة الكثيرة على ذلك أنه في أحد اللقاءات مع اللجنة، قال هونيكر للرئيس غورباتشوف بوجهه: "نحن لا نحتاج إلى مساعدة منكم لإعادة البناء، فلدينا في ألمانيا الديموقراطية الإقتصاد التاسع على مستوى العالم، والأجير البسيط عندنا يسكن شقة لا يزيد إيجارها الشهري عن 70 مارك، (15 دولاراً)، ونسبة البطالة لدينا 0 %." كان هونيكر ما يزال يعيش في الماضي، ولم يستشعر من غورباتشوف سعيه للتحديث ونفض ذهنية الحرب الباردة. كان ردّ غورباتشوف سريعاً وحاسماً، فقال له: "مَن يتأخر عن نبض الشارع وهمسات الناس تعاقبه الحياة". وهكذا، سقط حائط برلين على رؤوس الحرس القديم واحداً تلو الآخر، بمن فيهم حكام ألبانيا وبولندا وكل المعسكر الشرقي. فقط تيتو وحده، كان قد مات قبل ظهور غورباتشوف وحركته التصحيحية (بيريتسرويكا).

من حسن حظي أيضاً أن جدار برلين كان ما يزال قائماً على أيامي، وسرّني جداً أني عَبرت منه إلى برلين الغربية من خلال معبر "تشارلي". كانت إجراءات الأمن فيه يومها تضاهي أي إجراءات أخرى في العالم بإستثناء كوريا الشمالية. قضيتُ أياماً ممتعة في برلين الغربية، وظهر الإختلاف فيها شاسعاً بين الشرق والغرب، وكان أوضح من الفرق بين تركيا وبلغاريا على سبيل المقارنة. وعندما سقط جدار برلين بعد زيارتي له ببضع سنوات، وقد صودف ذلك مع ولادة ابنتي الكبرى، سعيت وحصلتُ على حجر صغير من الحائط، و"برْوَزْته" على جدار غرفتي، وسميّت ابنتي باسم المدينة (برلينا). ومن برلين الغربية، توجّهت إلى المدينة الساحرة، هامبورغ، وقد لفتني يومها أن الطيران الألماني الغربي "لِفْتْ هانزا" كان ممنوعاً من التحليق فوق برلين بموجب تسويات الحرب العالمية الثانية! وهامبورغ، على أيامي كانت تكتسب رونقاً دولياً خاصاً بسبب مينائها

البديع، وهو من أروع الموانئ، وربما الخامس عالمياً من حيث القدرة الإستيعابية، رغم تراجع الغرب عموماً أمام موانئ الشرق في سينغافورة والصين وكوريا الجنوبية وجبل علي. وعلى نفس جواز السفر البريطاني المؤقت، تكررت سفراتي بكل الإتجاهات وزرت دولاً رأسمالية وشيوعية وعربية وأفريقية عديدة. الغريب الملفت أنني لم أسئل مرّة واحدة في أي من تلك المطارات عن أي شيء بخصوص أسباب حصولي على "باسبور الهوية" المؤقت، في حين أنني كنت بالباسبور الطبيعي من قبل أتعرض للمساءلة في كل معبر وفي كل مطار وميناء. أغلب الظن أن الدول التي زرتها كانت تحترم الباسبور البريطاني أكثر من اِحترامها للباسبور العراقي!؟

مات السادات .. بقي السلام=

على تراكم التناقضات وإنتشار الفوضى في المنطقة، أُغْتيل أنور السادات أثناء اِحتفاله الثامن بنصر حرب "6 أكتوبر". جنود مصريون من "تنظيم الجهاد الإسلامي" بقيادة الملازم الأول خالد الإسلامبولي هجموا عليه من أمامه وقتلوه أثناء العرض العسكري. وورد بعد إعدام الإسلامبولي، أن رصاصات أخرى من خلف السادات أو جنبه هي التي أصابته وقتلته؟ (نظرية المؤامرة). وعلى الفور أصبح نائب السادات، حسني مبارك، الرئيس الرابع لمصر بعد محمد نجيب، وعبد الناصر، والسادات. كان واضحاً لكبار الشاغلين بشؤون الشرق الأوسط أن "إزاحة" السادات من المشهد الدولي بعد توقيع السلام كان ضرورة دولية اِستراتيجية، وإن لم يكن التنظيم الإسلامي نفسه مُدركاً لها أو طرفاً فيها. يومها تسرّب أن الأميركيين كانوا حانقين جداً على السادات بسبب تصريحاته "الفضائحية" العلّنية، وزعمه القيام بتدريب المجاهدين الأفغان ضد السوفيات بطلب مباشر

من أميركا نفسها.. السادات كان سليط اللسان، جريئاً وصادقاً، صاحب مَلكة حكواتية إلى حد "الجرصة" الديبلوماسية في الدوائر الإستخباراتية أحياناً. إلا أن تلك التسريبات كانت مجرد أقاويل بين سطور بعض الكتّاب في الصحف الغربية. وبعيداً عن مسألة اِغتيال السادات، بقي السلام مع إسرائيل سارياً ومعترفاً به من خليفة السادات، حسني مبارك، ومدعوماً من عرّابيه الأميركيين رغم أنف الممانعين العرب وجبهة الرفض التقليدية (العراق، سوريا، ليبيا، الجزائر، واليمن الجنوبي)...

بيد أن سنة الشرق الأوسط بعد اِغتيال السادات لم تنته إلا على خبر التفجير الضخم المأساوي للسفارة العراقية في بيروت. كان هجوماً اِنتحارياً شنيعاً تردد أن مقاتلي حزب الدعوة الشيعي العراقي نفذوه بمركبة مفخخة (15 كانون الأول 1981م). ومن شدة الإنفجار وضخامته تدمرت السفارة بالكامل واِختلط حطامها بدماء الضحايا، فصار عجناً أحمر. يومها تردد أن عددهم وصل إلى 61، بينهم السفير العراقي نفسه وزوجة الشاعر السوري نزار قباني، بالإضافة إلى جرح 110 آخرين. ولأني كنتُ مُلماً بمبنى السفارة، وكان لي في ممراته دردشات ومراجعات كثيرة مع الموظفين، فقد أثار التفجير غضبي وحزني كما لو كنتُ أعرف أحداً من الضحايا أو السفير شخصياً. كانت تلك أول مرّة في حياتي أشعر فيها بشيء من اِنتماء للعراق، وقد كان إحساساً غريباً لا يُفسر إلا على خلفية حنيني للمسكوف على ضفة الفرات؟

إبادات بلا دموع

وما إن طلّ علينا عام 1982م، حتى سمعنا بأخبار شنيعة عن مذابح رهيبة. فرغم أدلتها والأصداء الدولية حولها، لم نصدق وقوعها ولا

أرقام ضحاياها. في البداية اِعتقدنا أن المخابرات البريطانية ضخّمتها لأسباب اِستخباراتية كيدية تخصّها وحدها. إلا أن حافظ الأسد ما لبث أن اِعترف "بمواجهات" عنيفة مع الناس في حماة. أما الصحيح، فإنه اِقترف إبادة موصوفة بحق شعبه. مجزرة مهولة نفذها بسكان حماة في شباط من تلك السنة، واِستمر ت 27 يوماً على عويل النساء وبكاء الأطفال وصراخ الرجال. يومها تسرّب أن قوات سرايا الدفاع السورية نفذتها بوحشية غير مسبوقة في التاريخ الحديث بهدف القضاء على المعارضة الإسلامية في المدينة. فأعادت الكارثة إلى أذهان المراقبين مذابح جنكيز خان ومجازر هولاكو (!). أرقام الضحايا بالآلاف تساوتْ "عدلاً" بين قتيل ومفقود وجريح. بيد أن الشبكة السورية لحقوق الإنسان لم توثق أكثر من 10 آلاف حالة قتل و4 آلاف مفقود. وبدا للمراقبين يومها أن "المجزرة الأسدّية" كانت مُعدّة سلفاً ومخططة بدهاء ودقة، وكانت قد بوشرت بحصار تام للمدينة وإغلاق محكم لمنافذها. وككل حالات الإبادة والتنكيل في العالم وفي الضفة وغزة، كنتُ أتوجّه سراً إلى الله بعتمة الليل وأسأله عن حكمته ومشيئته! عقلي يومها لم يستوعب كيف لرئيس جمهورية سوريا أن يُبيد أبناء جلدته السوريين بدم بارد، حتى وإن كانوا "إخوانيين" يُنَغَّصُون الحكم عليه منذ منتصف الستينيات. يوم حماة وقف الشرق والغرب معاً بصمت تام كما لو كانا يحضران اِحتفالاً بمناسبة الجندي المجهول. مناسبة سخيفة دجلية لا دمع فيها ولا بكاء. وقف العالم كله متفرجاً وكأن سلطة حافظ الأسد كانت أجدى من الحق، أو أن مصالح الغرب كانت أهم من الإنسانية. بدا العالم بارداً أنانياً موحشاً لم يتعلّم شيئاً من دروس التاريخ. لا من إبادات هولاكو، ولا من مذابح عبد الحميد، ولا من محرقة هتلر، ولا من جرائم الخمير الحمر. ولولا تقاعس الغرب عن اِتخاذ المواقف الحاسمة، لما حدث بعد ذلك إبادات أخرى في حلبجة أيام صدام، ولا في روندا، ولا في

البوسنة، ولا ضد الروهنيغا في ميانمار، ولا في دارفور، ولا في اليمن، ولا في غزة ولا في السودان... حقوق الإنسان لا تُفعّل إلا عندما يكون الإنسان أبيض مسيحياً، أو تكون المصالح الأوروبية مهددة..

وعلى مقلب آخر، كادت بريطانيا في تلك الأيام تفقد وعيها تماماً. إذ قامت ثاتشر بشن حرب ضروس على الأرجنتين بما عُرف آنذاك بحرب "الفوكلاند" (المالوين). ففي ربيع تلك السنة أبحر الأسطول البريطاني آلاف الأميال بأهم وأضخم السفن الحربية وأكثرها تجهيزاً. ومع أن المرأة الحديدية اِستطاعت تأديب الأرجنتين في نهاية المطاف واِستعادة الجزر وفرض سيطرتها التامة عليها، إلا أن الكلفة الإجمالية كانت فلكية خيالية بالمعيار البريطاني. ولولا إرادة ثاتشر الفولاذية واِستدراكها السياسي، لكانت العلاقات الأميركية - البريطانية قد تدحرجت إلى الحضيض بسبب تعرض مصالح أميركا في الأرجنتين إلى الخطر والإبتزاز. ورغم اِحتواء الحرب لصالح بريطانيا بعد 74 يوماً من الجحيم، إلا أن عدد الضحايا من البلدين تجاوز الألف، فضلاً عن مئات الجرحى والمعطوبين. كان ذلك صراعاً على النفوذ والنفط والغاز في مياه المحيط حول الجزر. الملفت في المسألة اليوم أن أسرائيل تتشارك الآن مع بريطانيا في عمليات التنقيب والتطوير والإنتاج على أسس غير مفهمومة، لا سيما أن بريطانيا نفسها بغنى عن التقنية الإسرائيلية وعن مزاياها الجغرافية؟ كان الأمر سيكون مفهموماً أكثر لو أن التعاون بينهما كان على أمور اِستخباراتية بخصوص الشرق الأوسط عموماً، وعن تحركات الفلسطينيين خاصة، أو تجسساً على أنشطة الإخوان المسلمين أو أنشطة اليسار أو حزب الله في القطب الجنوبي، مثلاً! أغلب الظن أن التعاون العسكري بين إسرائيل وبريطانيا يدور حول أبحاث أمنية حربية عسكرية مشتركة أو تجارب تكنولوجية تصب في نطاق حفاظ "المؤسسة" على الهيمنة العالمية.

في تلك الفترة أيضاً، جرت في لندن محاولة اِغتيال سفير إسرائيل، شلومو أرجوف. وعلى الفور اِتهمت بريطانيا وإسرائيل منظمة "أبو نضال" اليسارية الفلسطينية. كانت المنظمة يومئذ مجموعة مرتزقة دولية تُؤجِر نفسها (مقاولة) لتنفيذ عمليات إرهابية غب الطلب، بعيداً عن دوافع القضية الفلسطينية وأهدفها. لم تكن المنظمة وحدها في تقديم ذلك النوع من الخدمات الإرهابية، كان هناك أيضاً أحمد جبريل ومنظمته الدموية. وهكذا اِستغلت إسرائيل الحادثة (أو ربما كانت هي مَن دبّرته أصلاً، أو مَن اِستأجرت له منظمة "أبو نضال" أو منظمة أحمد جبريل). وعلى الإثر قام شارون في مطلع حزيران بغزو جنوب لبنان ضمن عملية أطلق عليها اسم "سلام الجليل". وفي 6 حزيران وصل شارون بدباباته إلى بيروت وهاجم منظمة التحرير والسوريين والميليشيات اليسارية والإسلامية واِحتل أول عاصمة عربية في تاريخ الصراع. وبعد 88 يوماً من محاصرة بيروت، كان وسيط أميركا فيليب حبيب، اللبناني الأصل، يضع اللمسات الأخيرة على اِتفاق ترحيل المنظمة من لبنان وتوزيع مقاتليها بين الدول العربية. كان أبو عمار آخر الخارجين في 30 آب 1982م متوجهاً إلى تونس. وفي الأثناء، توفي الملك خالد وتسلّم العرش ولي عهده فهد، فأخذت المنطقة تستعد لعصر جديد أساسه خطة السلام التي كان فهد قد اِقترحها قبل تسلّم العرش. ومما شجع السعودية على اِقتراح السلام، أن مصر تمكنت عملياً من اِستعادة سيناء، وإنْ كانت اِستعادة مشروطة بنزع السلاح من كل سيناء. تلك كانت إشارة أمل ونصر مبين لجهود السلام وثمرة أولية من ثمار توقف القتال مع إسرائيل. كانت إسرائيل قبل إعادة سيناء إلى مصر قد شيدت فيها - وأزالت - ما لا يقل عن 18 مستوطنة منذ النكسة، فضلاً عن قاعدتين عسكريتين، جوية وبحرية.

صبرا وشاتيلا

ورغم مساعي السلام وحماس المعتدلين العرب لإنهاء الصراع مع إسرائيل، كانت مجزرة صبرا وشاتيلا أهم حدث مأساوي شهده العالم في تلك الفترة (أيلول 1982م). فعدد القتلى بالكيلو متر المربع الواحد لم يكن له مثيل في التاريخ المعاصر. إذ بوغت المدنيون بهجوم وحشي من قِبل حزب الكتائب وجيش لبنان الجنوبي بالتواطئ مع جيش الإحتلال الإسرائيلي. كان ذلك بعد أسابيع قليلة من معارك شرسة دارت في بيروت الغربية تحت أعين القوات الدولية، وبعد أيام قليلة من اِغتيال الرئيس المنتخب بشير الجميل. ورغم عدم وجود معلومات مبرمة موثوقة، فقد تردد يومها أن المذبحة كان مخططاً لها قبل اِغتيال بشير، وذلك لإستكمال "تعقيم" بيروت من الفلسطينيين بعد طرد المنظمة وعرفات. وتردد أيضاً أن عدد الضحايا كان أكثر من 3500 قتيل، بيد أن إسرائيل نفسها - ومن خلال تحقيقات لاحقة (لجنة كاهان) - ذكرت أن عددهم تراوح بين 700 و900 من المدنيين، أغلبهم من الشيوخ والأطفال والنساء. وبواقع التحقيق الإسرائيلي نفسه، كان واضحاً أن رجال القوى اللبنانية اليمينية وجنود جيش لبنان الجنوبي (أنطوان لحد) اِقترفوا الإبادة الشنيعة تحت أعين وحراسة الجيش الإسرائيلي بإمرة شارون نفسه. كانت الفِرق جميعها قد طوّقت المُخَيَّمَين مسبقاً تمهيداً لدخول الكتائب تحت قيادة إيلي حبيقة. وكان لحبيقة مع الفلسطينيين ثأر شخصي سابق خلال مذبحة الدامور عام 1976م، حيث فقد فيها عائلته وخطيبته، فضلاً عن 580 قتيلاً من خيرة الشباب ما عدا الجرحى والمعطوبين.

وعلى الرغم أن مذبحة صبرا وشاتيلا هزّت أرجاء العالم وجماعات حقوق الإنسان، لكنها لم تؤثر على ضمائر الدول الكبرى، لا في الشرق ولا في الغرب، ولم يُحاسب أحد عليها بالمرّة. بل على العكس،

فإن الكثيرين ممَن اِشتركوا بتنفيذها صاروا فيما بعد نواباً ووزراء وسياسيين كباراً ومحظيين. غير أن "الكارما" وحدها كانت كفيلة بالإطاحة بالرؤوس الكبيرة، فتحركت أيادي الحرير ضد مُعْطي أوامر المذبحة، وكان لها معهم فيما بعد أسلوبها الخاص. شارون، مثلاً، بقي سنوات طويلة "ميتاً" بقبضة العذاب والكوما. وحبيقة، رغم اِنخراطه بالعمل السياسي الحكومي، فقد أُغْتيل في بيروت بوضح النهار. أما أنطوان لَحد، فرغم تقاعده، تعرّض لمحاولة اِغتيال (على يد سهى بشارة) فأقعدته جليساً في المستشفى فترة طويلة، ومات في باريس منفياً عن وطنه لبنان. ورغم أن مذبحة صبرا وشاتيلا كانت الأكبر في لبنان من حيث عدد الضحايا منذ حرب العام 1860م بين الموارنة والدروز، غير أنها لم تكن إلا واحدة من سلسلة المذابح على اِمتداد البلد. كانت هناك مجزرة "تل الزعتر"، و"الدامور" "والكرنتينا"، و"العيشية"، و"الصفرا"، و"إهدن"، و"الزرارية"، و"ضهر الوحش"، والشوف، و"السبت الأسود" على المرفأ، ما عدا مجازر الحارات والزواريب والحوض الخامس والخندق الغميق..

حروب لبنان ومذابحه سابقة للنكبة، وتعود بأسبابها إلى كعب التاريخ، لا سيما أن تكوينة لبنان متناقضة بعناصرها الطائفية والمناطقية والأنثربولوجية. المحزن فعلاً أن كل فريق من الأفرقاء اللبنانيين يعتبر نفسه صاحب الفضل في تأسيس لبنان، كما لو كانوا هبطوا عليه من السماء ولم يأتوه نازحين من أنطاكيا والرقة وحلب وحوران وفلسطين ومصر والحجاز واليمن. ولو كان نزوحهم إليه زعماً خاطئاً، لكان اللبنانيون قد اِتفقوا على تكذيبه من خلال كتاب تاريخ موحّد. وبدل أن يقرّوا لبعضهم البعض أن لبنان الحديث صنيعتهم كلهم ويمضوا لبنائه وتطويره، نراهم يدورون في أوحال النقاش العبثي

ويغرقون في أعماقه على طريقة "أبوي أقوى من أبيك"، و"شنبي أطول من شنبك"...

"بداية جديدة"

تحت وطأة تراكم العمل وضغوطه، اِنزلقت الأوضاع على الجبهة العاطفية مع زوجتي أنابيل ولم تعد العلاقة وردية كما كانت. تغيّرت نوبة عملها في المستشفى واِختلط همّ الليل عليها بهموم النهار. فصرتُ أبحث بغيابها في الليل عن أشياء تشغلني. ورغم أنها اِسترجعت روتينها النهاري وتركت التمريض ليلاً من أجلي، إلا أن الجرّة اِنكسرت وسبق السيف العَذْل ولم تعد هناك فائدة من لوم أو ندم! يومها، كنتُ قد تجاوزتُ إمكانية الرجوع إلى حضنها أو اِستقبالها بحضني. وهكذا، اِفترقنا على ما تبقى من الودّ والتفاهم بعد ثلاث سنوات من الحبّ والإحترام. وفيما رجعتْ هي إلى بلدتها الأبيّة "سندرلاند"، اِنتقلتُ أنا إلى شقة جديدة بمنطقة هادئة في شمال لندن، وعدتُ "وَحْدانياً" عشية التحضير والإستعداد لولاية ثاتشر الثانية. في تلك الأيام لم أكن مقيداً بشيء أو ملتزماً مع أحد، كنت حراً كالصقر الشاهين. باسبوري البريطاني المؤقت كان دائماً في جيبي أو على خصري، ولم ينقصني في تلك الأيام إلا الإسترخاء القليل والإستكشاف الكثير من معالم الترفيه والسياحة. كانت عطلات نهاية الأسبوع سلوتي الوحيدة من رتابة لندن وهموم العمل وأخبار ثاتشر والشرق الأوسط!

"باسبور حريمي"

خلال ربيع العام 1983م، وفي واحدة من عطلات نهاية الأسبوع المُمددة، قررتُ فجأة وبدون تخطيط مسبق زيارة أمستردام. كنتُ قد

سمعتُ الكثير عن دراجاتها وقنواتها ومطاحنها الهوائية. وقيل لي في تلك الأيام إن الهولنديين خُلقوا من أجل ثلاثة أشياء: الصراع مع الماء، والزراعة، وركوب الدراجات. ولو لم أزر أمستردام، وأر بنفسي، لبقي الإنطباع الخاطئ عندي أن هانوي في فيتنام كانت أكثر المدن اِستعمالاً للدراجات الهوائية في العالم. ظاهرة ملفتة في شوارع أمستردام تجعلك تندهش كيف يميزون دراجاتهم بعضها عن بعض في المواقف والمحطات؟ ورغم تلك الملامح العامة، فالهولنديون أيضاً رواد في الصناعة والتكنولوجيا والتجارة. أما على الجانب "الثقافي"، فالمدينة لها أيضاً "صيتها الوردي". فالمنطقة الحمراء في وسطها مشهورة دولياً، ومن أبرز مزاياها أنها تعرض مفاتن النساء بواجهات عمومية، وأحياناً في الهواء الطلق بدون حواجز زجاجية. وبسبب مكانتها المتقدمة بين العواصم الكبرى وفي صناعة اللهو والمجون، فإن أمستردام لا تُضاهى ولا تُقارع. ويكفي أنها توفّر لبائعات الهوى حماية كاملة ورعاية صحيّة لا يوجد مثيل لها بأي مكان آخر في العالم. كانت رغبتي في زيارة هولندا لأول مرّة ثقافية بِامتياز، وكان مزاجي بتلك الأيام مؤاتياً على أجواء فصل الربيع وعطلة الفصح!

اِتصلت بهيلين، (هيلانة) إحدى صديقاتي، حسناء إنجليزية من نوع "حسن صبي"، وعرضتُ عليها مرافقتي إلى هولندا. كانت من "الصنف" المشاكس على طريقة زنوبيا مع الإمبراطور أورليان. ورغم أنها كانت بمنتصف العشرينيات من عمرها، كانت خبيرة بالسفر على نطاق واسع، وإنْ بحدود أوروبا فقط. ورغم إعجابنا المتبادل بألغاز الفضاء والقانون واِختبار المطاعم، كنا على نقيض تام بالذهنية ووجهات النظرت والتطلعات. المفارقة أننا كنا نتشارك بصفات شخصية نافرة وفجّة، كالعناد وسلاطة اللسان والطموح والفضول. لم نكن متهوريَن، إنما من روّاد المغامرات والتحرّر

والجدل. جلّ ما أردته من دعوتها لأمستردام ألا أكون وحدي بشوارعها. وكل ما أرادته من قبول الدعوة أن تقضي وقتاً ممتعاً برفقتي.

***

وصلنا إلى محطة "فكتوريا" باكراً عن موعد القطار. كانت العاصمة يومئذ مأخوذة بأخبار أكبر عملية سرقة منظمة في تاريخ بريطانيا. ستة ملايين إسترليني أُخذت عنوة بتهديد السلاح من شاحنة مصفّحة لنقل الأموال. كان المبلغ آنذاك يقارب 40 مليوناً بسعر اليوم على أقل تقدير، وكانت العملية على شفاه الناس في كل مكان لفترة طويلة، لا بل إنها "ألهمتْ" عملية أخرى أضخم وأكثر جرأة وتعقيداً بعد أشهر قليلة. يومها سُرقت سبائك من الذهب المختوم من أحد مستودعات مطار "هيثرو" وقدّرت بنحو 26 مليون إسترليني، أي قرابة 175 مليوناً على سعر اليوم. ومن طرافة تلك الفترة أنه كان هناك أيضاً مَن أذهل الناس وخطف الأبصار و"سَرقَ" تمثال الحرية نفسه من نيويورك! ففي بداية الربيع من ذلك العام، وقف العالم مذهولاً أمام أكبر عملية خداع بصري وسحر في تاريخ البشرية. لم تكن "ناراً باردة" على إبراهيم مع نمرود، ولا سحر موسى بالعصا والأفعى مع الفرعون. كانت عملية فن وبراعة وخداع أمام العالم أجمع. إذ قام دايفيد كوبرفيلد، الساحر الأميركي العالمي الوسيم، بإخفاء تمثال الحرية، على ضخامته، أمام جمهور كبير وبالبث الحيّ عبر محطات التلفزة. كانت خدعته يومئذ حديث الناس في كل مكان، بل إنها طغت على أنباء الحروب والكوارث. كانت خدعة بصرية معقدة اِنطلت على المخدوعين البسطاء حول العالم! ورغم بداية "نهاية أسبوع" طويل، كانت محطة "فيكتوريا" هادئة على غير عادة؟

اِشترينا تذاكر القطار واِنتقلنا "لقتل" الوقت إلى بار المحطة مباشرة. ومع أول رشفة من كأس النبيذ "تذكرتْ" هيلين فجأة أنها "نسيت "جواز سفرها في مكتبها! كان ذلك شيئاً خطيراً هبط عليّ هبوط الرعد بدون برق، فأعاد إلى مخيلتي فجأة مصائب الجوازات التي كنتُ قد عانيتُ منها عبر السنين. وكالمعلم مع تلميذ خامل نسيَ فروضه، صرختُ بوجهها وسألتها بتهكم شديد: "هل تعتقدين أننا بمعرض نزهة على الأقدام إلى الهايد بارك" مثالاً؟ لم ترد عليّ ولم تعرْ المسألة أي اِهتمام، كما لو أن الأمر لم يَعنها من أصله، أو أنه لم يستأهل ذلك "النباح" والغضب؟ فمن وجهة نظرها، وقع المحظور واِنكشف المستور! وبدل أن أهدأ على منطق ردّها وبلادته، أخذ فكري يتلبّد بالأوهام وراح دخان الغيظ يتطاير من كل ثقب في بدني! أخذتني على حين غِرّة، ولم أعد أعرف ما كان يجب فعله سوى إطلاق العنان لحركاتي البهلوانية وتحركاتي العبثية بكل الإتجاهات! طارت فرحتي وضاعت عطلتي وخاب أملي..

"تعالَ معي"، أمسكت هيلين يدي وجرّتني كما تجرّ الأمّ طفلها الشقي! اِندفعت بي اِندفاع العسكر إلى مكتب البريد المجاور في المحطة. هناك، بِابتسامتها المعهودة وبرودة أعصابها العجيبة، شرحتْ لموظف البريد المسألة واِعتذرت له عن نسيانها جواز السفر كما لو أنها نسيت شمسيتها في البيت. و"بباقة" من التملق والغزل والدلع، أوضحتْ له أنها لن تكون قادرة على إحضار الباسبور واللحاق بالقطار قبل اِنطلاقه، لا سيما أنه كان الأخير لأمستردام في ذلك اليوم! ولدهشتي العظيمة، سألها موظف البريد عن هويتها، أو أي شيء يؤكد اِرتباط اسمها بصورتها. على الفور ناولته بطاقة المترو السنوية (كارنيه)، وكانت عليها البيانات المطلوبة. وببرودة أعصاب مماثلة، (ماركة إنجليزية أصلية)، طلب منها التوجّه إلى ماكنة التصوير

المجاورة وإحضار أربع صور ملونة. كنت أراقب ما كان يجري أمامي بدهشة المسحور، ولم أعرف مَن كان منهما أغبى من الآخر! إذ كيف يمكن لهيلين أن تسافر خارج بريطانيا بلا باسبور، وهو بالتعريف الرسمي الوثيقة الرسمية الوحيدة المطلوبة للسفر أصلاً؟ ثم كيف لموظف بريد "أحمق" أن يسمح لها بالسفر عبر حدود دولية من خلال بطاقة مترو؟ المشهد صعقني، ولوهلة تخيلتُ أن هناك كاميرات مخفية لبرنامج تلفزيوني فكاهي. لكن سرعان ما تصورتُ اِحتمالاً آخر بوجود إجراءات تخفيفية أو ترتيبات خاصة لجوازات "الحريم"، وتوهمتُ المشهد - تحت وطأة الغضب والإرتباك - مجرد كابوس عابر بوضح النهار!

بريطانيا في تلك الأيام، على عكس معظم البلدان الأخرى، لم يكن فيها نظام الهوية أو البطاقة التعريفية. حكمتْ سكان الأرض واِستنبطت لهم تشريعات وإحصاءات وهويات، إلا أنها لم تستطع ترويض شعبها في بلدها نفسه؛ البريطاني بحياته كلها لم يستسغ فكرة حمل الهوية وإبرازها لأي أحد، وإن بأوامر الملكة نفسها. هو يخشى قيام الحكومة تحميل الهوية ببيانات رقمية إضافية سرية عن حياته الشخصية! الإنجليزي، رغم هدوئه وتحفظه، إنسان صارم وعنيد لا يحب القيود ولا يستهوي الجماد. فحتى قوانينه، هو لا يلتزم بتطبيقها إلا بالقطعة حالة بحالة! لذا، لا عجب أن آخر مرّة اِستعملت بريطانيا فيها بطاقات هوية إلزامية كانت أثناء الحرب العالمية الثانية. كان ذلك بذريعة مكافحة العملاء المدسوسين ومراقبة الجواسيس البريطانيين الذين كانوا يعملون لصالح الألمان. ورغم حصافة الذريعة، لم تلقَ الفكرة قبولاً حسناً ولم تدم طويلاً. ومع أن الحكومة حاولتْ إعادة طرحها في تشريع عام 2006م، لكنها فشلت فشلاً ذريعاً مرّة أخرى. إنها مسألة وقت قبل أن يدرك المواطنون البريطانيون أهمية اِقتناء الهوية، إن لم

يكن بالنسبة لهم مباشرة، فأقله للسيطرة على مشكلة الهجرة التي أخذت تؤثر على عيشهم، خاصة بعد أن خرجتْ بريطانيا من الإتحاد الأوروبي وإكتظت بنازحين من الصومال وسوريا والعراق ورواندا والباكستان وأفغانستان، بل حتى من أوكرانيا ورومانيا وتركيا. أغلب الظنّ أن قانون بطاقة الهوية سيُقر قبل نهاية 2026م.

***

أحضرتْ هيلين صورها، وبإبتسامة مغرية عريضة سلّمتها لموظف البريد حسب طلبه. فأعطاها نموذج بيانات (أخضر) من أربع نسخ كربونية، وطلب منها تعبئتها ودفع رسوم رمزية. كل ذلك كان يحدث أمامي بينما كنتُ ما أزال تحت وقع الصدمة مع المجريات الغريبة بينهما. كيف لم أكن مصدوماً وقد مرّت عليّ قبل ذلك تجارب مريرة مع رجال الحدود، والسفارات، وتشابه الأسماء، وقرارات المنع والترحيل، وعدم التجديد، والتريث على الأرائك ليوم القيامة، ناهيكم عن قطع الأصابع؟ كان المشهد خانقاً لدرجة أنني فكرتُ - من غيظي - إنهاء علاقتي فوراً مع هيلين وتركها في المحطة لبلادتها ولأوهام البطر عندها مع موظف البريد! فالناس الطبيعيون حول العالم - حسب قناعتي وتجربتي - يُقدسون جواز السفر أكثر مما يُقدسون كتبهم المقدسة، بل بعضهم يُفضل الموت على أن يكون بدونه أو يفقده. ورغم أن جواز السفر "كتيب صغير" بوريقات قليلة، لكن يعطي حامله حساً بالكرامة وعزة بالنفس، ويمنحه صفة "بني آدم" على مدى العمر من بين سمات وتأشيرات وأشياء أخرى.

ولو لم أكن شاهداً حيّاً بنفسي على ما حصل أمامي بين هيلين وموظف البريد من فذلكات قانونية، لما كنتُ لأصدق الرواية من أحد، حتى وإنْ بصموا لي بالعشرة وحلفوا على الإنجيل والقرآن أمام بابا الفاتيكان وشيخ الأزهر! إذ إن إصدار جواز سفر بأقل من نصف ساعة بدون

أوراق ثبوتية مبرمة، حتى لكبار القوم والمحظيين، يُعتبر ضرباً من الإعجاز، بل معجزة بكل معنى الكلمة - أقله بالنسبة لمُلوّع مثلي ومُلتاع. هيلين حَلّقت عالياً من الفرح بإنجازها، والأهم أنها برهنت أن غضبي كان تسرعاً، بل اِرتباكاً ولادياً - حسب تعبيرها. نظرتُ إليها مندهشاً مذهولاً كما لو كانت ساحرة شمطاء. "صدر" الجواز العجيب (الإستمارة الخضراء)، وكان صالحاً لمدة 72 ساعة كافية لثلاث ليال بطولها!

التجربة كانت خارقة من منظور رجل شرقي لا أصل له ولا رجولة عنده بدون جواز سفر. اسألوا مَن كانت عندهم جنسية وسُحبت منهم، سواء في الكويت، أو البحرين أو الإمارات أو أي بلد آخر. واليوم، بعد كل تلك السنين، فإني على اِستعداد لمراهنة العالم كله أنه لم يعد بالإمكان لأحد الإستحصال على وثيقة سفر بأقل من أربعة أسابيع في الحالات المستعجلة، وليس قبل إجراء تدقيقات معقدة ومطوّلة. بل، وقد لا اِستغرب أن يأتي يوم قريب يُمنع فيه البريطانيون المتجنسون من زيارة بريطانيا (أو مغادرتها) إلا بشروط معينة؟؟ "رزق الله" على تلك الأيام قبل "بن لادن"، وتفجيرات نيويورك، وخطف رئيس فنزويلا؛ فتلك الأيام على زمني في بريطانيا، مثلاً، كانت عصراً ذهبياً سِمته البساطة والعفوية والثقة. أيام مدهشة كان بإمكانك الدخول فيها إلى أي بنك أو مؤسسة، وإنجاز أي معاملة بحوار بسيط. كلامك وحده في ذلك الزمن الجميل كان حجتك وسندك، لا سيما أن نظام البلد بأكمله كان قائماً على مبدأ الإحترام والثقة! أما اليوم، فلا أحد يصدق أحداً بدون تدقيق وتمحيص. فوزارة الداخلية في بريطانيا ودول أوروبية أخرى، على سبيل المثال، أصبحت تطلب الآن اِختبارات الحمض النووي قبل إصدار أول جواز سفر لرعاياها في بعض الحالات! الأنكى أن السلطات الأميركية باتت اليوم ملزمة - بموجب

قوانين ترامب - بفحص أرشيف الهواتف الذكية ومراجعة إيميلات مَن يتقدم للحصول على تأشيرة دخول، ناهيكم عن التدقيق بظروف المتقدمين للحصول على البطاقة الخضراء أو الجنسية. صارت السلطات تنبش في الهواتف عن الهفوات وتُفلّي ملفات المهاجرين كما تُفلّي القرود بعضها البعض من القمل.

كيدهن عظيم

رغم إشكالية جواز سفر هيلين من البداية، كانت عطلة نهاية الأسبوع في أمستردام ممتعة للغاية. فبعد أن سوينا الأمر وتصالحنا على نغمات عجلات القطار، اِتفقنا على نسيان محطة فكتوريا والتوقف عن ذكر الحادثة، لا سيما أنها دَبغت فكري دَبْغ الصبغ على الحرير. وكما يفعل السياح، عادة، زرنا أبرز معالم المدينة، ومنها متحف "فان جوخ" الشهير وساحة "دام" العريقة و"المنطقة الحمراء" نفسها! وبعكس ما اِعتقده، اِكتشفت أن "المنطقة الحمراء" حارة ثقافية بِامتياز، فضلاً عن أنها آمنة وهادئة لروادها. ورغم أن الحشيش والماريجوانا لم يكونا على أيامي مسموحَين في المقاهي والحانات كما هو عليه اليوم، إلا أن متحف الجنس كان مسموحاً وملفتاً بصوره الفاضحة ومجسماته المخجلة، لا سيما تلك المستوحاة من فترة الإستعمار الهولندي مع بداية ظهور الكاميرات. كانت هناك فيه أشياء كثيرة تستحق المشاهدة والتقدير الثقافي، أقله بالنظر إلى خلفية الصور التاريخية الواقعية من بيئة، وحيوانات، وأدوات، وألبسة، ومزارع، ومستوطنات. غير أن أكثر ما وددت مشاهدته ولمسه وشمّ عطره، الزنبق الأسود. ذلك أننا عندما كنا صغاراً بالإبتدائية في بيروت درّسونا قصة الروائي الفرنسي ألكسندر دوما مع الزنبقة السوداء. فاِندهشنا منه يومها وأُلهمنا كيف أن مزارعاً هولندياً تمكن من "خلق" زنبقة سوداء بما كان يشبه

الإعجاز، لأن الطبيعة، على طبيعتها، لا تنتج نباتات سوداء بمعنى السواد الحقيقي بعكس إنتاجها لحيوانات سوداء. هناك ألوان بنفسجية غامقة، أو بنية شديدة، لكن لا يوجد في عالم النبات السواد القاتم النقي لأسباب تتعلق بأشعة الشمس وعلم الأحياء! ورغم الشهرة العالمية "للتيولب" الهولندي الأسود، بيد أننا لم نجده حتى في محلات الورود والأزهار المتخصصة بغير المألوف. قيل لنا يومها إن مزارعه كانت خارج العاصمة ونتاجها كان محدوداً لأغراض غير تجارية. فكانت خيبة أمل كبيرة، وإن أقاموا له فيما بعد (2004م) متحفاً صغيراً يحكي تاريخه ويعرض تطور مراحل سواده...

بعد 68 ساعة تقريباً، وقبل إنتهاء "باسبورها" الأخضر ببضع ساعات، كنا قد عدنا إلى محطة "فكتوريا" آمنين سالمين. ومع قبلات الوداع على رصيف المحطة، نظرتْ إليّ هيلين من طرف عينها وقالت بدلع مستفز: "يسرني أن أخبرك أني وجدتُ جواز السفر، وكان محشوراً بين أغراضي في ثنايا حقيبتي"! قالت ذلك وكأنها كانت تخبرني عن شيء بسيط عابر؟ كلماتها "صعقتني" في الصميم مجدداً، وهبطتْ على مسمعي كقنبلة من العيار الثقيل. مفاجأة جعلتني "أكفر" بجنس حواء إلى وقت طويل. يا إلهي، كيف كان باسبورها معها كل الوقت، وأين خلال الرحلة إنتبهت لوجوده، بل لماذا غضّت النظر وسكتت عنه حتى عودتنا؟ هل كان الأمر خباثة، أم صراحة، أم غباء، أم إستهتاراً؟ مهما يكن، فقد غثّني موقفها وأثار غيظي وإشمئزازي. وهكذا، على ضيم مني، وأسف منها، مضى كلانا في طريقه..... إلى غير رجعة!

الفصل الحادي عشر: وجاهة وتألق

ملوك الإعلام

بعد سنوات من المثابرة والعمل الدؤوب، إستقوت الدنيا عليّ وحمّلتني أثقالاً على سُلم التألق والترقي؛ ففي منتصف ربيع 1983م، إستهلت المجموعة الإعلامية التي كنتُ أعمل لديها العمل على تطوير أنشطتها إنطلاقاً من مقرها بشارع الصحافة في لندن (فْليت ستريت). يومها كانت جريدة "الشرق الأوسط" أبرز إصدارات المجموعة، وكانت تُطبع يومياً بوقت واحد في لندن والرياض وجدة وفرانكفورت وباريس ومرسيليا وبيروت والرباط. عملية الإنتاج تلك كانت معقدة جداً وجبّارة بكل المعايير. ذلك أن تقنية تلك الأيام كانت بدائية، ولم تكن تكنولوجيا الإنترنت متوفرة بعد لضمان إرسال الجريدة وتوزيعها على نطاق واسع! ولما كان نشر الصحيفة على مستوى العالم من أهم أهداف المؤسسة، فقد إستثمرت ملايين الجنيهات للإستحواذ على أحدث التقنيات المتاحة في ذلك الوقت، وكانت تُعرف بتقنية الـ "بايج فاكس" *(PageFax)*. وهي، بتعريفها المبسط، عبارة عن مسح ضوئي سريع لصفحة جريدة كاملة متروسة بالنصوص والصور والبيانات والرسوم، بمدة لا تتجاوز نصف ساعة. وبالإضافة إلى أجهزة الإرسال الضخمة بمقر الشركة في لندن حيث كانت الجريدة تُحرّر بالكامل، كانت هناك أيضاً أجهزة إستقبال ضخمة في المدن والأمكنة المُتلقية، التي غالباً ما كانت هي نفسها مطابع محلية.

وهكذا، كانت كافة وجهات الطبع والتوزيع في العالم تتطلب وجود أجهزة ضخمة لإستقبال صفحات الجريدة من لندن بكلفة مليون إسترليني للجهاز الواحد في الموقع الواحد (على سعر ذلك الزمن)، ما عدا كلفة الصيانة والتدريب ولوازم التشغيل، فضلاً عن كلفة خطوط

الهاتف الدولية التي كانت تُوفّر خصيصاً للجريدة. لذا، فأي عطل في الإرسال كان يتطلب منّا اِستئجار طائرة خاصة (من مطار غاتويك) لنقل أفلام صفحات الجريدة *(Positives)* للمطبعة السعودية خلال الليل، أقله إلى جدة أو الرياض حيث يكون الملك متواجداً. والمبهر فعلاً أنه كان من المستحيل حتى على كبريات الصحف الغربية العالمية آنذاك، مثل "الفايننشال تايمز"، و"الغارديان"، و"التلغراف"، أن تحقق إصداراتها وتطبعها وتوزعها حول العالم بنفس الوقت بدون اِستثمارات فلكية، وهو ما لم يكن متوفراً لها! كانت الصحف العالمية يومها تستعين بتقنية "الشرق الأوسط" إيجاراً، بما فيها "يو أس أيه" الأميركية، و"أساي شيبون" اليابانية. تلك المقدرة التقنية والمادية كانت ميزة فريدة "للشرق الأوسط" وسِمة تألقية تنافسية اِكتسبت الجريدة بسببها شهرة عالمية في الوسط الصحفي حول العالم آنذاك، فضلاً عن لونها الأخضر المميز كناية عن لون علم السعودية.

***

كالعادة، كانت أحداث المنطقة بمعظمها في ذلك الوقت، بمنتصف ربيع 1983م، ما تزال تدور حول قضايا فلسطين ولبنان ومصر وإسرائيل. ولعلّ أهم حدث بلا منازع كان ما وُصف يومها بـ"اتفاق 17 أيار" بين لبنان وإسرائيل. كان الإتفاق عبارة عن مشروع سلام رسمي جدّي متكامل لولا ظروف الحرب الأهلية واِعتراض الزعامات السنيّة والشيعية عليه؛ كل القوى اليسارية اللبنانية توحّدت عليه وعارضته بشدة رغم الخلافات بينها. ومع أن أمين الجميل، الذي عمل طويلاً على إنجاز الإتفاق، قد حشد له التأييد الكافي من الخارج، إلا أنه فشل في تحصينه من الداخل، فاِهتز حكمه واِنْهار الإتفاق. أما على جبهة الغرب، فكان أهم تطوّر في ذلك الوقت (حزيران 1983م) فوز مارغريت ثاتشر بولاية ثانية ساحقة. كانت بريطانيا يومها غارقة

في صراع شرس بين حزبي العمال والمحافظين، تحديداً حول أوضاع عمال المناجم ووضعية نقابة الصحف والمطابع. فرأت ثاتشر بإستثمار السعوديين في جريدة "الشرق الأوسط" النموذج المثالي لإستعمال التكنولوجيا لتخفيف اليد العاملة وتحديث قطاع الصحافة والإعلام! ومع أنها لم تُصرّح بذلك علناً، لكنها لم تخف إعجابها بجهود السعوديين في الريادة الإعلامية. كان السعوديون يومها حقاً ملوك الإبتكار والإعلام، وكان إستثمارهم بالتكنولوجيا نموذجاً مجدياً في الإستثمار الذكي بعيداً عن خيارات التوظيف بالعقارات أو الأسهم الأميركية. والصحف البريطانية، كلها تقريباً، كانت يومها أسيرة نقابتي المحررين والطبّاعين، وكانتا يساريتي الهوى تحافظان على وراثة الوظائف من الأب إلى الابن وترفضان التحديث والمكننة بالمطلق. كان واضحاً أن ثاتشر قد صممت على إضعاف قبضة النقابات عموماً من أجل تعزيز سمعتها في تبني سياسات التحديث والخصخصة والسوق المحررة. كما أن عزيمتها كانت تشتد يوماً بعد يوم على حرارة نجاحاتها في أعقاب خصخصات هامشية كانت قد إستهلتها منذ تسلمها رئاسة الحكومة، فضلاً عن نجاحها المُبهر في خصخصة شركة الهاتف البريطانية العملاقة *BT*. كان ذلك أول "تعويم" حكومي لها، خاصة أنها "خلقت" منه نموذجاً إحتُذى به عالمياً، وكان "بصمة" واضحة عن عزيمتها وجعل اسمها ماركة مسجلة تحت لقب "السيدة الحديدية". مواقفها تلك لم تمكنها النيل فقط من نقابة المحررين والطبّاعين، بل قوّتها على النقابات الأخرى، كنقابة المناجم في مقاطعة "ويلز" ونقابة بُناة السفن في "سندير لاند". كان لعنادها الفضل الكبير في طرح أسلوبها المميز حول المُلكية الخاصة وإقتصاديات التعويم التجاري، إلى درجة أن طريقتها تلك صارت لاحقاً "مدرسة" في الإقتصاد تُدرس في الجامعات حول العالم...

مصيبة بحجم المجرّة

في صباح باكر من أحد الأيام الممطرة القاتمة، تلقيتُ مكالمة دولية مزعجة وغريبة. رئيسي على الخط الآخر، المدير العام، أخذ يصرخ عليّ بدون سلامات وتحيات ومقدمات ويسأل: "بحق السماء ما الذي يحصل عندك؟". يومها، كان يحادثني من المغرب حيث كان يرافق بعض أفراد العائلة السعودية المالكة. اِستهجنتُ لهجته واِرتعبتُ منه، لا سيّما أنه لم يسبق له أن تجاوز حدوده معي على ذاك النحو المعيب. رجوته تهدئة روعه وشرح أسباب غضبه. فرد منفعلاً وسألني كما لو كان يتهمني بشيء خطير: "هل رأيت الجريدة اليوم؟". وقبل أن أجيبه، "أمرني" بمراجعة أخبار الصفحة الأولى والرجوع إليه فوراً. وبينما كنتُ أتناول الصحيفة من رزمة بريدي اليومي، اِقتحم مكتبي مدير التوزيع (إنجليزي) مُلوّحاً بالجريدة، وكأنه تعلّم العربية فجأة، أو كأنه كان يرفع مسؤولية ما عن عاتقه أمامي، وسألني: "هل رأيت هذا؟". نظرتُ نظرة خاطفة، فإذا "بالهذا"، الذي كانوا يتحدثون عنه، مانشيت الجريدة على 8 أعمدة بالخط العريض يقول: "الميليشيا اللبنانية توافق على وقف إطلاق النار". "حسناً، أين المشكلة في ذلك؟"، سألته بعصبية، فأوضح قائلاً: "أنسَ العنوان وأنظرْ إلى الصورة". صُوَر الجريدة في تلك الأيام لم تكن ملوّنة، والصورة المقصودة أظهرت مجموعة من رجال الميليشيات المُلثمين وهم يرفعون إشارة النصر. "حسناً أين المشكلة؟"، سألته مجدداً، لكن إجابتة تلك المرّة كانت صاعقة تماماً، وقال: "ركّز وأنظر إلى الغرافيتي خلف رجال الميليشيا". نظرتُ إلى خلفهم، ويا ليتني لم أنظر؟ يا إلهي، تباً لها من مصيبة كبرى بحجم المجّرة! ففزت من مقعدي مهزوز البدن، ووقفت وقفة المسبوع، وصرختُ فجأة كما لو كنتُ أرى جثة ميت أمامي،

(ربما كانت ستكون جثتي قريباً!). الغرافيتي على الجدار خلف مقاتلي الميليشيا كان ينصّ بالعربية الفصحى: "الموت لآل سعود"! تجمدتْ الدماء بعروقي وضاعت أفكاري وعجزتُ عن الكلام. لم أعرف كيف أرد على المدير العام، وكان ينتظر رداً مني في المغرب. هل يُعقل أن صحيفة دولية رصينة تملكها السعودية وتوزع حول العالم تنشر شعاراً مناهضاً للعائلة المالكة؟ يا لها من فضيحة سياسية وورطة إدارية، ويا له من حساب عسير وبئس المصير! وقبل أن أعاود الإتصال بالمدير العام، كنتُ أفكر سلفاً بنصّ اِستقالتي من باب الإستباق والتحسب! اِتصلتُ به على الفور وشرحتُ له أنني رأيت الصورة المشؤومة واِعتذرت بشدة وإخلاص عن مدى الإحراج رغم براءتي وعدم مسؤوليتي...

"دعك من الإعتذار الآن. أريدك أن "تسحب" الجريدة من كل الأسواق فوراً". كان ذلك أمراً مباشراً وحازماً ومستحيلاً - ربما أطلقه مجاملة أمام جُلّاسه أو لمصلحة أحد من سامعيه. وتابع يقول بصوت وصل أزيزه إلى قوقعة أذني من شدة الغيظ والغضب: "أريدك أن تفتح تحقيقاً فوراً لمعرفة ملابسات المؤامرة"! هل قال "مؤامرة"؟ نعم قالها بوضوح لا لبس فيه! لكن مَن يا ترى كان يتآمر على مَن؟ وهل فعلاً كان الأمر يستوجب كل البلبلة وإجراءات التحقيق؟ أخذتْ أتصببُ عرقاً واِرتعش من شدة الخوف والقلق. المسألة بدتْ جدّية جداً، وكان فيها من الغموض وعناصر المؤامرة ما يستحق التحقيق فعلاً على طريقة شارلوك هولمز؟ ورغم قناعتي أن الأمر لم يكن متعمداً أو يستأهل اِجتماعات على مستوى رؤساء الأقسام من هيئة التحرير إلى لجنة التصحيح، إلا أني باشرت التحرّي المبدئي، لكن على طريقة القاضي بهلول. إذ كنتُ أعرف سلفاً أن اِختيار الصُوَر، عموماً، وخاصة صُوَر الصفحة الأولى، كان من مسؤوليات رئيس التحرير

وحده، أو مدير التحرير بغيابه. وفي جميع الأحوال كانت مراحل اِختيار عناصر الصفحة الأولى، من عناوين وصُوَر وكابشن وتصميم، تصب في نهاية المطاف عند رئيس التحرير نفسه وتنتهي بتوقيعه الشخصي، فيكون، تقنياً، هو المسؤول الأخير الآمر الناهي. في تلك الفترة تحديداً كان رئيس التحرير سعودياً، قديراً مخضرماً، أي من النوع الذي اِختبر بريطانيا جيداً وعاش فيها طويلاً. لا بد أنه أُختير بعناية فائقة وتم التأكد من سجله الأمني وتاريخه السياسي قبل تعيينه للمنصب الحساس. ثم إن الصفحة الأولى عادة ما تكون واجهة النظام السعودي الناطقة باسمه والعاكسة لوجهة نظر المملكة حيال قضايا الساعة. وحتى فريق التحرير نفسه كان يتبع ضوابط أمنية هرمية دقيقة وصارمة. وعليه، فأغلب الظن أن الأمر كان خطأ عفوياً، اللهم إلا إذا كانت هناك فعلاً "مؤامرة سعودية" من الداخل ضد السعودية نفسها، وهو ما كان من سابع المستحيلات، خاصة في زمن الملك فهد.

صراع الجبابرة

أما عن خلفية الأوضاع في تلك الأيام، فكان العالم يشهد تصعيداً حامياً بين موسكو وواشنطن. ليس حول بقاع النزاع في العالم، ولا على خطوط التماس في ألمانيا الشرقية وبلغاريا، إنما تحديداً بسبب أنظمة الصواريخ الباليستية العابرة للقارات والأسلحة النووية. وحدث أن وقعتْ حادثة "منفصلة" عن النزاع الأميركي - السوفياتي، لكن كانت بعمقها متصلة به مباشرة. إذ قررتْ أميركا فجأة غزو جزيرة "غرينادا" وتغيير نظام الحكم فيها. ومع أن الإتحاد السوفياتي وكوبا اِشتركا في الدفاع المُبطن عنها، لكن السوفيات لم يريدوا حرباً عالمية ثالثة بسبب جزيرة صغيرة تبعد 160 كلم عن فنزويلا. وربما ما حصل

بعد ذلك بأسبوع فوق أجواء الإتحاد السوفياتي كان أيضاً جزءً من لعبة القطة والفأر بين واشنطن وموسكو. إذ إن السوفيات أسقطوا طائرة مدنية (رحلة *007*) تابعة لحليفة واشنطن، كوريا الجنوبية، وكانت في طريقها من نيويورك إلى سيول عبر ألاسكا. مات جميع مَن كان على متنها وعددهم 269 راكباً. من جملة ما قيل عن الحادثة يومها إن الأميركيين تعمّدوا إختبار أنظمة الدفاع السوفياتية عملياً، فطيّروا *F16* بظل جسد الطائرة الكورية المدنية، قبل أن يعترضها السوفيات بطائرة سوخوي سو-15. أي إن الأميركيين خاطروا بالركاب عمداً لتحيق إستخبارات عسكرية متقدمة. وهو أمر لم يكن جديداً عليهم، ولا حصراً بهم. كل الدول الجبّارة تُضحي بالغالي والنفيس، وبالآب والابن وروح القدس من أجل مصالحها. وعلى نفس المنوال، شهد أيلول أيضاً حوادث أخرى مريبة، إن فوق ليبيا وسيناء أو القرن الأفريقي. إلا أن إنفجار طائرة طيران الخليج (رحلة *771*) ومقتل جميع ركابها الـ 117 بظروف غامضة في أجواء دولة الإمارات بالقرب من مطار أبو ظبي، أكد على إشتداد عمليات "السبوتاج" (التخريب) بين المعسكرين السوفياتي والأميركي. كانت رياح التغيير في المنطقة بتلك الفترة مرهونة حكماً بالصراع العالمي الشرس. أما الصين، فلم تكن في ذلك الوقت قوة عالمية بارزة، أو قوية كما هي عليه اليوم، لكنها كانت داهية ومهادنة وذكية تعمل على مبدأ "تمسكن حتى تتمكن". وهذا، بالفعل ما لمسنا نتائجه لاحقاً أثناء الحرب الإقتصادية مع ترامب في فترة رئاسته الثانية.

***

وعلى نغمة "المؤامرة" السعودية بجريدة "الشرق الأوسط"، خلصتُ من التحقيق السرّي وحملتُ نتائجه بيدي وهرولتُ بها إلى مكتب المدير العام، وكان قد رجع من المغرب. تقريري كان ينطوي على

شقين: الأول حول الخطوات اللوجستية عن سحب الجريدة من الأسواق، والثاني عن الفضيحة نفسها وصورة رجال الميليشيا. وبمعزل عن رطانة تقريري وطبيعة عملي في الجريدة، فهمتُ من المدير العام يومئذ أن الناشر نفسه طلب من رئيس التحرير السعودي إجراء تحقيق سرّي ومستقل بغرض تظهير موضع الخطأ وتحديد المسؤولية، ما يعني أن تقريري بالنسبة لهم كان مجرد إجراء شكلي!

بعد أيام قليلة رنّ جرس الهاتف بمكتبي وعرفت سلفاً هوية المتصل. يومها لم تكن التكنولوجيا متاحة بعد لإظهار رقم المتصل مسبقاً. كانت على الخطّ الآخر سكرتيرة المدير العام وبصوتها نبرة اِنذار وتحذير: "المدير يريدك حالاً.. أترك كل شيء ووافِه إلى غرفة الإجتماعات". اِندفعتُ إلى القاعة، كما لو كنتُ أعلم سلفاً أنني سأخسر الحوار معه وأُتهم بالتقصير. كنت مستعداً لكل الإحتمالات، بل للأسوأ، وكانت اِستقالتي جاهزة في جيبي للرمق الأخير. لكن ما إنْ دخلتُ إلى القاعة حتى كانت "الكارما" قد سبقتني إليها. فاجأني المدير بِابتسامة عريضة وبدا لطيفاً هادئاً كما عهدته دوماً من قبل. "صباح الخير"، ألقيتها تحية عليه متأملاً أن يُفسّر لي "أسرار الآلهة" ويُطْلعني على شيء مفيد مبرم. ماذا "عدا وبدا"، وماذا حدث لصراخ الأمس القريب ونظرية المؤامرة؟ كانت الأفكار تدور بخاطري على بيادر منفصلة وعلى مستويات مختلفة! وأخيراً فتح فاهه ونطق: "قرأتُ تقريرك بتمعن، وأنا أقدّر اِستنتاجك بِاحتمال الخطأ العفوي". بدا، كما لو كان على وشك أن يقول "ولكن"، ثم اِستطرد، وقال: "يبدو أن المسألة كانت مجرد خطأ بسيط وسنتعامل معها من الآن وصاعداً بطريقتنا الخاصة". عندها فقط فهمتُ أن الأمر كان أكثر جدّية مما توقعتْ، وقد اِنتقل إلى مكان آخر! يومها، تولّد لدي اِنطباع واضح أن المسألة كانت فعلاً خطيرة تستوجب تحقيقاً من نوع آخر، لكن المدير العام اِختار أن

"يزيحني" من دربها كي لا يطلعني على تحقيقات سرية. كان الناشر، وليس المدير العام، هو المسؤول المطلق أمام العائلة المالكة فيما يخص سياسة الجريدة وأخبارها! وهكذا، لم أعلم في نهاية المطاف ماذا حلّ بجملة التقارير، وأي مناقشات سرّية جرت بشأنها في الغرف المقفلة، سواء في لندن، أو الرياض، أو جدة، أو ماربيا، أو طنجة....

كبش الفداء

تنفستُ الصعداء وسافرتُ لقضاء إجازتي السنوية. إلا أن المسألة لم يُغلق مَلفها وإن كنتُ شخصياً قد أُبعدت عنه. عند عودتي من السفر، طلب رئيس شؤون الموظفين الإجتماع معي في مكتبه، وكانت العادة قد جرتْ أن اِلتقي به في مكتبي. "جيم" كان إنجليزياً عتيقاً من الجيل القديم، جيل المحاربين القدامى في الهند. ورغم فارق العمر بيننا، كنا على هوى واحد بذهنية المنطق والإنضباط والمحاسبة. وما إن دخلتُ مكتبه وألقيتُ التحية، حتى بادرني بالقول: "لقد سمعتُ بغيابك عن حادثة الصفحة الأولى، وأريدك أن تعلم أن المدير العام طلب مني "تفنيش" "زيد" من الموظفين، فوددت إعلامك قبل أن تُفاجيء بالأمر كون "زيد" يتبع لإحدى إداراتك". قال قوله ذاك بثقة وحزم، كما لو كانت الإدارة العليا قد بتتْ المسألة واِتخذتْ قرارها. كانت فعلاً "صفقة" مبرمة رُتبتْ خلف ظهري أثناء عطلتي.

هبط الخبر عليّ كالصاعقة لأن "زيداً" من الموظفين أُختير "كبش فداء" عن الخطأ الفادح. غضبتُ جداً وكاد الغيظ يأكلني، ليس فقط لأن الموظف "المختار" كان بريئاً من أي تقصير ولم يكن أصلاً في موقع متصل بالخطأ، بل لأن رئيس شؤون الموظفين لم يتبع الإجراءات

السليمة حسب الأصول القانونية. فحتى تلك اللحظة، كان لدي اِنطباع فولاذي وقناعة صوّانية أن المدراء الإنجليز عموماً مهنيون صادقون، خاصة في أقسام "شؤون الموظفين" وقوانين العمل والسلامة، حيث عادة ما يتبعون نصوصاً قانونية صارمة لضمان السلامة العامة وعدم التحيّز والإنصاف والموضوعية. اقتربت من وجه جيم وسألته إن قرأ تقريري واطلع على نتيجة التحقيق، لكن بدا أن سؤالي له كان متأخراً ولم يعنه بشيء! ومع ذلك حذرّته من مغبة فصل أي موظف بدون ذنب (تبلياً) أو السماح بمثل تلك الممارسات المجحفة. فاليوم، مثلاً، حصلت مع زيد، وغداً قد تحصل مع عمر أو إلياس. هنا، قاطعني "جيم" بحزم قبل أن أتمادى بِاتهام مباشر لقسم شؤون الموظفين، فقال: "هش، لا تكن ساذجاً ومثالياً، ولا تأخذ الأمور على محمل شخصي. هذا {أمر واقع}، وإذا كان من عزاء لك عن "موظفك"، فأطمئنك أن الرجل عُوّض بشكل اِستثنائي وكان راضياً جداً".. قالها خلاصةً للموضوع وأنهى النقاش بها معي!..

إن عبارة {الأمر الواقع} التي برّروا فعلتهم بها تحمل أوجه تسلّط لطالما رفضتها واِحتقرتها. وعادة ما يستخدمها المسؤولون في مناصب السلطة كأسلوب ديكتاتوري مخادع. الطريف فعلاً أن أول مرّة وردت تلك العبارة في التاريخ بهذا المعنى القاطع، كانت من قِبل الإله "يهوه" نفسه إلى كليمه موسى على جبل سيناء (حسب الرواية التوراتية). يومها، كلّم "يهوه" موسى وطلب منه أن يُخبر قومه "بني إسرائيل"، المنتظر في كعب الجبل، بتعليماته المقدسة. فدار موسى إلى "يهوه" وقال له "أعطني إشارة واحدة منك تثبت أني كلمتك لكي أقنع بها شعبي". فرَد يهوه عليه قائلاً: "دعكَ منهم، وقل لهم {أنا مَن أنا}" (إهْيِهْ أشِرْ إهْيِه)، أي (أنا لا إله إلا أنا). وبعبارة أخرى، إنه {أمر واقع}. وهكذا، اِستمر هذا المصطلح جارياً معنا وعلى حسابنا منذ ذلك

الزمن العجيب. دارت الأيام، وسرّني جداً أن اِلتقي مصادفة بالموظف المعني "زيد" في مطار دبي بعد أكثر من عقد من الزمن. وكان، لفرحتي، قد أصبح مراسلاً قديراً لإحدى الفضائيات الأجنبية، على طريقة "رُبَّ ضارة نافعة". كان، يومها، في طريقه إلى اليمن لتغطية حرب الإنفصال (1994م). ففي تلك الفترة، كان الأمين العام للحزب الإشتراكي في اليمن الجنوبي، علي سالم البيض، يقود حركة الإنفصال عن الشمال، بينما كان نظيره في اليمن الشمالي، علي عبد الله صالح، يقود جهود الوحدة بين صنعاء وعدن. بدا "زيد" مرتاحاً جداً لآفاق عمله الجديد وردد لي ما مفاده "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم". إلا أنه غمز لي، من زاوية أخرى، وقال إنه كان "محظوظاً" أنه أُخْتير "كبش فداء" لخطأ لم يقترفه بواقع تطور مهنته مع هيئة إعلامية عالمية. وأنهى كلامه مازحاً: "إذا كان في كبش الفداء مكافأة مالية وترقية مهنية، فلا مانع لدي أن أكون خروفاً مدى العمر"...

أول الغيث قطرة

مارغريت ثاتشر في تلك الأيام كانت مشغولة عن العالم بترتيب سياستها الداخلية، خاصة بموضوع "الجيش الأيرلندي". إذ إن أنشطته في تلك الحقبة (خريف 1983م) كانت شوكةً في خاصرتها، وكانت تحدياتها مع نزلاء سجن "مايز" الشهير في أيرلندا الشمالية تتقلب بين هروب السجناء، أو عصيانهم، أو إضرابهم عن الطعام. ولعلّ أخطر تطور شهده السجن حينئذ كان يتمثل بهروب 38 سجيناً في أكبر عملية تمرد في التاريخ البريطاني. يومها، مات ثلاثة حرّاس، لكن قُبض فيما بعد على 19 هارباً على التوالي. ورغم الطبيعة الداخلية لأزمة

السجن، إلا أن ثاتشر اِتهمت عملاء السوفيات بالصيد في الماء العكر. كلهم عند الحشرة يتذرعون وقاحةً بتدخل الغرباء في شؤون بلادهم!

بيد أن التفجير الذي تعرضت له القوات الفرنسية والأميركية في بيروت كان بلا منازع الحدث الجلل على مستوى العالم آنذاك. يومها، (23 تشرين الأول)، فُجّرت شاحنتان مفخختان في أبنية كانت تسكنها قوات أميركية وفرنسية تمثل بعثة حفظ السلام للبنان. كان الهجوم من تدبير جهة إسلامية لبنانية، وراح ضحيته241 عسكرياً أميركياً و58 عسكرياً فرنسياً و6 مدنيين ومهاجمين. جماعة تدعى "الجهاد الإسلامي" أعلنت مسؤوليتها عن العملية، وقالت "إن الهدف منها إجبار القوة المتعددة الجنسيات على ترك لبنان". ومع أن الأميركيين رجّحوا تورّط "حزب الله" في العملية، فلا هم عرضوا أدلتهم على ذلك، ولا حزب الله اِعترف بشيء. وفي نهاية المطاف، أُرغمت القوات الأجنبية على الإنسحاب من لبنان، وتردد حينئذ أن قتلى قوات المارينز وحدهم كانوا أكثر عدداً من قتلى أي تفجير تعرضت له المارينز منذ الحرب العالمية الثانية!

ومن "زكزكات" الحرب الباردة أيضاً أن سياسي الغرب منحوا جائزة "نوبل" للسلام للزعيم العمالي البولندي "ليخ فاليسا". وذلك بذريعة تقديرهم لأعماله في إرساء حقوق العمال ونشر الديمقراطية. أما حقيقة منحه الجائزة، فكانت لجهوده (بدفع منهم) عن نقل بولندا من المعسكر الإشتراكي إلى المعسكر الرأسمالي. كان "فاليسا" بمثابة قطعة شطرنج بيد الغرب، فكانت نقلة بولندا إلى المعسكر الغربي "ضربة معلم" موجعة في خاصرة السوفيات، وعجّلت بعواقب زلزالٍ كان وقوعه وشيكاً على باقي دول معسكر وارسو.. كان سقوط بولندا بيد الغرب وبمباركة بابا الفاتيكان، يوحنا بولس الثاني، بمثابة أول الغيث لإنهيار المنظومة الشيوعية حول العالم.. إلا أن البشائر المُبطنة قبل

ذلك تمثلت بعناصر كثيرة، منها التفوّق الغربي التكنولوجي على السوفيات، وغزو "غرينادا"، وضغوط الثنائي الخطير "ثاتشر – ريغان"، وتوريط السوفيات بالوحول الأفغانية، فضلاً عن التناقضات الداخلية عند السوفيات أنفسهم.

أخ ولدته أمك

في آذار من تلك السنة (1984م)، قررتُ زيارة أخي في طرابزون التركية. آخر مرّة كنتُ قد رأيته فيها قبل ذلك الوقت كانت في القاهرة عام 1976م. سنون مرتبكة طويلة ولئيمة مرّت على اِفتراقنا؛ هو كان طالب علم في جامعته، وأنا كنت طالب هوى في مهب الريح! طرابزون مدينة مشهورة على البحر الأسود، وكمعظم مدن تركيا، تعود في عراقتها إلى قعر الزمن. المرء لا يستغرق وقتاً طويلاً ليدرك لماذا وُصف البحر عندهم بالسواد. فمياهه تحت الضباب الداكن تبدو للعين المجردة أشد سواداً من الكحل، وأكثر قتامة من الفحم. ولولا زَبد الموج وتلاطم الأمواج لخال المرء نفسه أمام بحر من نفط أو بحيرة من زفت. وقد يستهجن الزائر مثلي كيف لطيور النورس أن تحافظ على شهية التحليق فوق مياهه الداكنة والصيد على شطْآنه..

كان لقائي مع أخي بعد ثماني سنوات حاراً حميماً. وقد هالني منظره الرثّ وبدا لي عجوزاً مرهقاً نحيفاً وشاحباً. الدنيا لم تكن لطيفة معه، ولا هو عرف كيف يلاطفها في مدينة قاسية لا مكان فيها للبسطاء أو الضعفاء. والأدهى، أن جواز سفره العراقي كان منتهياً منذ مدة ولم تكن السفارة في أنقرة بوارد تجديده له على نغمة "أكو حكوك وأكو واجبات وأكو عسكرية وأكو صدام وأكو بعث ومخابرات وتعاون بيننا". وككل أفراد العائلة، أخي لم يكن يعرف العراق (إلى اليوم) ولم يزره يوماً، واِقتصر اِرتباطه بالعراق على تجديد الجواز من سفارته فقط.. كان واضحاً أن السفارة العراقية في أنقرة تسببت بتخلفه عن

الإقامة التركية، وبالتالي راكمت عليه أزماته القانونية والنفسية. تباً لهم مجرمون!

أكلنا وشربنا وإختبرنا زيارات الحمامات التركية والمقاهي والمساجد والمقابر. تلك كانت فرصة أخي ليمتحن معلوماته أمامي عن المدينة. فعمل مرشداً سياحياً وبَهرني بلغته التركية وفهمه للثقافة المحلية. إلا أن ظروفه الشخصية عاودت تخيّم علينا وتشغل فكري بطريقة لم يشغلها أمر مثله في حياتي من قبل. كانت أوضاعه مزرية جداً، وحالته يُرثى لها... وقع في براثن الفُصام وتأذى من الإنفصام قبل زيارتي بأشهر قليلة، وكان "القدر" أسرع مني إليه، كانت قصته مع مرض الذهان قد "كُتبتْ" في السماء وخُتمتْ بالشمع الأحمر من يومها.. هذا المرض عموماً لا يختلف عن أي مرض مزمن آخر كالسكري مثلاً، إنما يصيبُ الدماغ بدل الكلى، على سبيل التشبيه. ومع أن أخي لم يفقد الإتصال بالواقع، لكن واقعه كان ينحت من مهاراته ووعيه وذاكرته مع كل يوم. كان بحاجة ماسة إلى العلاج الفوري والعطف والإحتضان. ورغم أنه اليوم يعيش في بلده لبنان وسط أهله ويتمتع برعاية تامة وإشراف طبي متواصل، إلا أنه لم يستعد عافيته العقلية كما كانت قبل أن تنال منه السفارة العراقية وطرابزون. مَن يدري، فلربما كانت هناك أسباب أخرى تكمن في أجواء المدينة نفسها، أو تحديات الجامعة، أو العيش وحيداً وبعيداً عن الأهل خلال الحرب الأهلية في لبنان، أو اِجتياح إسرائيل لبيروت، أو أحداث أخرى لم يَبح لنا بها أو نعرف عنها شيئاً. لم يكن أمامنا مع علاجه غير عبور المحيطات وتسلق الجبال والغوص بأعمق الوديان. لكن في نهاية المطاف، وعلى الآية الكريمة، "قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا"...

مرحبا مبادئ

ورغم ظروف أخي المحزنة، قمنا بجولات عديدة في المدينة وزرنا جامعته (الأميركية) وأطلعتُ من مدرّسيه على أدائه وسيرته، فكانوا معجبين به جداً لولا حالته الخاصة. وهكذا، جرّني معه لزيارة أديرة بيزنطية رائعة، وقلعة طرابزون، وبيت أتاتورك! وكمعظم البيوتات التي اِقتناها في المدن الكبرى، جعلوا منزل أتاتورك بعد رحيله متحفاً وطنياً. وكم كانت دهشتي عظيمة عندما زرنا جامعاً بنفس اسم "آيا صوفيا"، وهو غير جامع "آيا صوفيا" الشهير في إسطنبول، وكان قد حوّل من كنيسته الأصلية بعد غزو محمد الفاتح. وفي أحد المشاوير مررنا بمرفأ طرابزون الشهير، وله على التاريخ فضل كبير، إذ خدم إمبراطوريات عظيمة بما حملته من عتاد وبهائم وبضائع وجنود. ولفتني أثناء الطريق إليه مشهد مئات الشاحنات المتوقفة على جانبي الطريق. كان المنظر مهيباً لوناً وطولاً وتنوعاً. إذ بدتْ الشاحنات من أعلام بلدانها وأحجامها "ملحمة" أسطورية تعكس رموزاً تراثية وثقافات متنوعة. كلها كانت تنتظر تفريغ البواخر والناقلات العملاقة المبحرة من موانئ الشرق والغرب معاً، أي من دول "الناتو" و"وارسو" على السواء. ومن خلال أحد المقاهي المجاورة المكتظة بسائقي الشاحنات، تبين لي أن نصف الشاحنات تقريباً كان متجهاً إلى العراق، فيما النصف الآخر كان متجهاً إلى إيران على طريقة "فرق تسد". الشاحنات لم تكن تحمّل بطيخاً ولا قرعاً، بل كانت متروسة بالأسلحة والعتاد وقطع الغيار، كما لو أن العالم كله كان يزوّد البلدين ويريد للحرب بينهما أن تستمر ليوم القيامة (مرحبا مبادئ وقيم). ورغم أن مسافة الطريق من طرابزون إلى حدود العراق من جهة، وإلى حدود إيران من جهة أخرى، تزيد عن 1000 كلم للطريق الواحدة، لكنها كانت - من وجهة نظر المحرّضين - "تستأهل" عناء الإجتياز يومياً للإبقاء على نيران الحرب! ذلك أن مصانع الأسلحة في الشرق والغرب كانت يومئذ تعمل على مدار الساعة، وكانت تمويلات

البترودولار من قِبل العرب و"الغيارى" تُحوّل إلى المصانع بلا حساب أو رقيب. صفقات سمسرية فلكية كانت تُوحّد اِرتباط الشرق بالغرب على دماء الأبرياء في إيران والعراق. وربما بسبب قتامة البحر الأسود، وشاحنات القتل والإبادة، وظروف أخي التعيسة هناك، كرهتُ طرابزون كره العمى والجهل، ورأيت فيها مكاناً للشؤم والنحس. وإذا كانت هناك بضعة أمكنة تحظى بحقدي عليها في العالم، فطرابزون تتربع على قمتها. المحزن أنك تستطيع "الإنتقام" من شخص أهانك أو أذاك (إن أردت)، لكن كيف تنتقم من مدينة دمّرت حياة أخيك، وأفسدت حياة أهلك، وسمّمت حياتك مدى العمر؟ ولو لم يكن جواز سفري البريطاني آنذاك يمنع زيارة العراق ولبنان، لكنتُ حملت أخي على ظهري إلى السفارة العراقية في أنقرة، كما سبق لأمي وحملتني إليها في بيروت، ولكنتُ استحصلتُ له على التجديد. من مفارقات القدر أن أمّي، التي هرولتْ إلى إسعاف أخي يوم تركته في طرابزون، هي التي أمسكتْ بخناق السفير العراقي في أنقرة ونالتْ منه تجديداً طارئاً لباسبور أخي بسبب وضعه الصحي. فسارعتْ به وسوّتْ إقامته التركية ونَشلته تحت إبطها من أنياب العراقيين والأتراك على السواء. ورغم طول المسافة وعذاب المشوار عن طريق دمشق، أوصلته آمنا برفقتها إلى شطّ الأمان في بيروت. أما أنا فعدتُ إلى لندن مفطور القلب مشوش الفكر مصدوماً مكسوراً... لكن على طريقة لعبة الفأرة والقطة مع القدر، وجدتُ عند وصولي رسالة من وزارة الداخلية البريطانية تُعلمني فيها بقبول طلب تجنسي الكامل. يا إلهي، كيف تمزح معي هكذا دائماً وتمازحني عند مفترقات الطرق؛ فمِن متوسل لتأشيرة دخول إلى مواطن بلا قيود! ومن يومها صار بإستطاعتي الإدلاء بصوتي واِختيار ممثلي في البرلمان البريطاني. ورغم قناعتي بسوء ثاتشر ومعارضتي الشرسة لسياساتها، إلا أنها حظيت بصوتي فيما بعد مرة واحدة اِحتراماً لتجنسي في عهدها.

ابن سعود وروزفلت

في العام التالي (1985م)، قام الملك فهد بزيارة رسمية لواشنطن. كان الغرض الرسمي المعلن تمتين العلاقة الإستراتيجية بين البلدين؛ فمن المنظور السعودي البحت كانت الزيارة مفصلية حاسمة لأن ريغان، يومها، كان يقود العالم الحرّ بنهج جديد، ويمثّل مع ثاتشر قوة طاغية على السياسات الدولية. من جهتها، كانت السعودية تلعب أدواراً جوهرية على مستوى الشرق الأوسط، فضلاً عن دورها المركزي في جبهة "أوبك" الملتهبة. على تلك الخلفية، وعلى إزدياد عمليات الإرهاب في العالم والتحوّل الملفت في سياسات الإتحاد السوفياتي، تمتْ زيارة الملك فهد التاريخية. ونظراً لأهميتها وكثافة برنامجها، تمنّتْ علينا إداراة الجريدة آنذاك بذل أقصى الجهود لتأمين مواكبة واسعة النطاق والإسهاب في توضيح العلاقات بينهما، وهي تعود في أوجّها إلى إجتماع الملك عبد العزيز ابن سعود مع الرئيس روزفلت عام 1945م. يومها، غادر إبن سعود والوفد المرافق له مدينة جدة على متن السفينة "يو إس إس مورفي"، وكان روزفلت بإنتظاره على متن الطراد الحربي "يو إس إس كوينسي" في البحيرة المُرّة الكبرى بمصر. العديد من المراقبين الغربيين رأوا أن العلاقة الأميركية السعودية حينئذ كانت بمثابة "زواج مصلحة" بكل معنى الكلمة. إذ حصل الأميركيون بموجبه على "خصومات" كبيرة على أسعار النفط السعودي، بينما حصل السعوديون بالمقابل على "حسومات" إستثنائية على إستملاك الأسلحة الأميركية والخبرة في البنية التحتية والمعرفة التكنولوجية. ورغم الإتفاق على كل الأمور تقريباً، إلا أنه بقيتْ هناك بينهما مسألة هامة تتعلق بفلسطين. كل طرف كانت لديه رؤيته وأجندته الخاصة بسبب ظروفه الداخلية؛ روزفلت طالب الملك الإسراع إلى مساعدة اليهود على إنشاء "وطن" لهم في فلسطين بذريعة "الهولوكوست"، فرد ابن سعود عليه أن على ألمانيا المسارعة

لإنشاء وطن لهم في ألمانيا نفسها أو في أوروبا ما دام الألمان - وليس العرب - هم مَن تسبب بالمحرقة. ابن سعود أراد ضمان اِستقلال الفلسطينيين بعكس ما رُوّج زوراً عن تواطئه مع الأميركيين! وفي النهاية اِكتفى الرجلان بالوعد على تحقيق العدالة والمساواة، وأكدا لبعضهما البعض أنهما سيجدان حلاً من شأنه حفظ ماء الوجه لكل الأطراف. كان الإجتماع اِستثنائياً بامتياز ومهّد لعلّاقات تاريخية ما زالت مستمرة حتى يومنا هذا رغم التباين بينهما حول دولة إسرائيل ودورها في المنطقة.

"بيريسترويكا"

أجواء العالم في تلك الحقبة كانت تحمل بذور تغيير جوهري على جبهة السوفيات والأميركيين معاً. غورباتشوف تسلّم أقوى منصب في الإتحاد السوفياتي كسكريتر عام للحزب الشيوعي، وكان ذلك التطور أقوى إشارة على التغيير المرتقب. كان من شأن وصول غورباتشوف إلى السلطة أن يُحدث اِرتدادات ثورية على مستوى العالم، بما في ذلك أفغانستان والشرق الأوسط. وعلى الفور شرع غورباتشوف في التحضير لإنهاء الحرب الباردة بإصلاحات جذرية جبّارة عُرفت يومئذ بـ"البيريسترويكا". ورغم الترحيب بها دولياً بحرارة، إلا أن الأنظمة العربية يومها هَابتها وخافتْ على نفسها من عواقبها، لا سيّما على ضوء اِنهيار الأنظمة الشيوعية في أوروبا الإشتراكية واحدة تلو الأخرى. ومن اِرتدادات المواجهة بين فلول اليسار واليمين على مسرح أزمة الشرق الأوسط في تلك الحقبة، برزت اِعتراضات عالمية وتمثلت بموجات إرهابية جديدة. ففي حزيران من ذلك العام كان اِختطاف حزب الله لطائرة *TWA* (الرحلة *847*) في أثينا أوضح نذير لعمليات اِختطاف وهجمات إرهابية لاحقة. وقد خطف الحزب الطائرة

إلى روما أولاً، وعلى متنها 153 راكباً، وإنتهى بها في مطار بيروت بمقتل أميركي وجرح آخر. أما عند بوابة الفصل بين أوروبا وأفريقيا، فلربما كان فتح الحدود بين جبل طارق وإسبانيا في مطلع العام 1985م أكثر الأنباء إثارة وإختلافاً عن المألوف. فقد كان تطوراً إيجابياً ملفتاً منذ سدّها فرانكو عام 1969م وعزل جبل طارق عن محيطه. وعندما مات الديكتاتور الإسباني، إعتقد كثيرون أن البوابات ستفتح من جديد، لكن الأمر إستغرق عشر سنوات أخرى بعد رحليه.

"البيض" الأبيض!

زيارة الملك فهد إلى واشنطن حققت أهدافها وسجلت نجاحاً باهراً من جميع النواحي. كان من بين نقاط النقاش مع الأميركيين موضوع المخطوفين الأجانب في بيروت، ومنهم الأميركي "تاري أندرسون". أميركا كانت تنشد توسط الملك فهد للضغط على حافظ الأسد، وللضغط بدوره على الخاطفين اللبنانيين، الذين تردد أنهم كانوا من جماعات إسلامية، أو من حزب الله تحديداً.

لكن ما أشبه اليوم بالأمس. ففي صباح اليوم التالي لزيارة الملك فهد، تلقيتُ باكراً مكالمة من رئيسي "يولول" فيها ويصرخ طالباً أن أقابله بمكتبه على الفور. وما إن دخلت عليه، حتى رفع الجريدة بوجهي وأخذ يلوّحها كما لو كان يندبُ حظه فوق نعشي. وكما كان متوقعاً، فقد أفردت الجريدة يومها تغطية واسعة لزيارة الملك فهد، وكان عنوان المانشيت مثيراً وملفتاً للغاية! ليس بالمعنى الإيجابي، ولا بالطريقة المثلى، إنما بالغرابة والطرافة معاً. كان عنوان الجريدة خطأً إملائياً فادحاً ومحرجاً للغاية، وكاد يطيح ليس فقط برؤوسنا جميعاً، لكن أيضاً بمستقبل الجريدة نفسها! لكم أن تتخيلوا ما كان قد دار بخلد

جلالته عندما قرأ مانشيت الصفحة الأولى بالخط العريض: "الملك فهد يقوم بزيارة مهمة إلى {البيض الأبيض}"؟ يا إلهي من هفوة، ويا لها من مصيبة! وهكذا، أخذتْ الهواتف ترنّ علينا في المكتب كأجراس الفاتيكان عند اِنتخاب بابا جديد. كنتُ أقف أمام مديري مذهولاً أسمع عويله، وأراقب بهلوانياته، وألطم معه قدري بصمت ودهشة. كنا على وشك الإستقالة معاً..

وكالمرّة السابقة، اِقترب مني وقال: "أعتقد أن هناك مؤامرة لإحراج السعوديين، وعلينا معرفة هوية المتآمر بأسرع وقت ممكن". فقلت له على طريقة الدراويش "إن بعض الظن إثم"، والمسألة ربما تكون مجرد خطأ لغوي، لا سيّما أن التشابه كبير بين كلمتي "البيت" و"البيض". لكن على مَن تقرع مزاميرك يا داود؟ الرجل أساء النية وحسم أمره بوجود مؤامرة وصدّني! وعلى طريقة التعامل مع موضوع الغرافيتي من قبل، طلبتْ إدارة الصحيفة من نفس الإنجليزي اللعين "جيم"، رئيس "شؤون الموظفين"، البحث لهم عن "كبش فداء" جديد. ومرّة أخرى، توجّهتْ الأمور لتبرئة فريق التحرير السعودي من أية مسؤولية. لكن كيف ذلك، وهو المسؤول الأول والأخير عن اِستنباط العناوين واِبتكار المانشيت والتدقق بها اِستباقاً للطبع والتوزيع قبل طلوع الشمس؟ وهكذا، يَفلت "الكبار" دائماً من عواقب أخطائهم لأنهم يحملّونها زوراً وظلماً للصغار! ومرّة أخرى صدمني اِستعداد الإدارة ترجيح سوء النية على حسنها، كما صدمني حجم التآمر بين الإنجليز في قسم "شؤون الموظفين" وبين العرب في إدارة الجريدة لتهريب اللوم من سعوديين إلى غير سعوديين. وحتى لو كانت الجريدة لبنانية، مثلاً، لكانت المسؤولية قد مُررت أيضاً من لبنانيين إلى غير لبنانيين، ومن مصريين إلى غير مصريين، وهلم جراً. لا عجب أن الأمم المتحدة ومحكمة العدل الدولية والمنظمات العالمية، كلها، تهرّب

الذنوب من ضمائر الكبار والأقوياء لترميها على عواتق الصغار والضعفاء، ممهورة بشهادات الزور ومطبوعة ببصمات المأجورين. إنها معايير مزدوجة لخلق "أكباش فداء" على مدّ النظر. ولولا أن الملك فهد نفسه أبدى حكمة شديدة ورجّح اِحتمال الخطأ اللغوي على سوء النية، وأوقف إجراءات التحقيق، لكانت الجريدة قد "تطربقت" على رؤوسنا جميعاً وقُدمنا أكباش فداء لا ناقة لنا فيها ولا جمل.

مشوار إلى الفضاء

في منتصف نفس العام 1985م، "طلع" الأمير سلطان بن سلمان إلى الفضاء مع "ناسا". وعندما عاد من دورانه حول الأرض على متن المكوك «ديسكفري»، رأتْ الشركة السعودية أن تنتج كتاباً بانورامياً مصوراً عن الرحلة للأهمية التاريخية. كان الكتاب بقلم مفكر سعودي متخصص بحقل الطيران والفضاء. إلا أن إنتاجه وُضع بعهدتي وتحت إشرافي مع التوصية على التركيز على عنصر الصور، اِبتداءً من لحظة ترشيح الأمير للمهمة، واِختياره، حتى رجوعه إلى الأرض. وكان قد حدث قبل ذلك أن قامت المنظمة العربية للاِتصالات الفضائية بترشيحه، وهو أصلاً طيار مدني، وكان يبلغ من العمر حينئذ 28 عاماً، وحاصلاً على البكالوريوس في الآداب والإعلام من جامعة "دنفر" بولاية كولورادو الأميركية. إعداد الكتاب كان يستوجب تضمينه بعض الصُوَر النادرة عن حياة الأمير وعن طفولته، وهي أصلاً خارج صور "ناسا" النمطية. أما الصُوَر الخاصة المميزة التي أخذها الأمير بنفسه أثناء الرحلة، فكانت مُلكه وحده وقد حفظها في زاوية من زوايا كاراج فيلته في ماربيا. لكن، رغم توسلاتي معه، لم يسمح لي باِستعمال أي منها حتى وإن كان الكتاب حصرياً عن سيرته وإنجازاته.

وهكذا، كان لا بد لي من البحث عن صُوَر نادرة للأمير بطرق أخرى، ربما عند بعض المراجع المهنية. قصدت مدينة "مونترو" في سويسرا، أولاً، وراسلت شركة أرشيف عالمية متخصصة بصور العوائل المالكة. فأشارت عليّ الإتصال بأحد المصورين المتعاونين معها بالقطعة! ورغم أن الدخول إلى سويسرا في ذلك الوقت لم يتطلب تأشيرة من حاملي الجوازات البريطانية، لكن جنيف في أيلول من تلك السنة كانت تتحضّر لقمة عالمية خطيرة جداً بين ريغان وغورباتشوف في تشرين الثاني. كانت التحضيرات الأمنية في المطار ضخمة، وكانت المنافسة بين جواسيس الشرق والغرب غير مسبوقة. وعندما جاء دوري لختم الجواز، نظر المأمور إليّ و"قلّب" الباسبور بكل الإتجاهات. ومع أنه سبق لي أن زرت جنيف من قبل أكثر من مرّة، إلا أنهم في تلك النوبة طلبوا مني التنحّي جانباً، وقال المأمور كلمة السرّ الشهيرة، "اِنتظر قليلاً وسنكون معك"! عشر دقائق سريعة مرّت، فجاءني شاب مدني وعرّف عن نفسه بإنجليزية تشبه الفرنسية، وصحبني معه إلى مكتب جانبي يشبه مكاتب التصريح الضرائبي. هناك أخذ يسألني أسئلة غريبة عجيبة عن طبيعة عملي - ولوهلة اِعتقدت أنهم اِستشبهوا باسمي، أو اِرتابوا من مهمتي. وبعد ساعة من المجاملات والشكليات، دخل معي بصلب الموضوع، وزعم أني لم أصرّح عن ساعة اِشتريتها في جنيف قبل ذلك الوقت بسنة. والساعة المقصودة فعلاً كانت ثمنية جداً وبلغ ثمنها في تلك الأيام 160 ألف جنيه إسترليني، (225 ألف دولار) سددتها بواسطة كارت اِئتمان من أميركان إكسبريس من النوع البلاتيني. كان "يفترض" بي يومئذ أن أُصرح لهيئة الضرائب في المطار عن المشتروات الباهظة عند المغادرة، غير أني لم أرَ ضرورة لذلك لأنه لم يكن هناك ما يستحق التصريح عنه بالنظر إلى أن الساعات كانت معفاة من الـ (*VAT*) أصلاً. لكن يبدو أن المتجر نفسه أخطأ بالإجراءات ما اِستدعى

اِستجوابي في المطار. ومع أن المسؤول الشاب عالج موضوع الضريبة المضافة وتفهم الوقائع، إنما أراد الإلحاد عن مهمته والإستطراد لمعرفة مصير الساعة نفسها؟ هنا، قلت له بصريح العبارة "إن المسألة خاصة، ولا يسعني مناقشة الموضوع إلا بأمر قضائي"! فجأة تغيّرت ألوان وجهه و"أطلق سراحي" على الفور، فتابعت مشواري إلى "مونترو". مدينة رومانسية صغيرة تقع على ضفاف بحيرة جنيف وتطلّ على جبال الألب. والبلدة تشتهر بكرمتها المميزة، ونبيذها اللذيذ، ومهرجانها العالمي لموسيقى الجاز، فضلاً عن قلعة "شيلون" أبرز معالمها السياحية. وعندما يصل الزائر إلى "مونترو"، عليه، أولاً وقبل كل شيء، الإسترخاء فوراً في أحد مقاهيها وتأمل مناظرها الريفية الرائعة ومشاهدة المشاهير والأثرياء على أرصفتها. ومهما كان المزاج في حضرتها، فلن يفلت الزائر من عبق البلدة القديمة حيث ترتفع كنيسة "القديس فنسنت" العريقة.

هناك بالقرب من وسط المدينة اِلتقيت بالمصور العتيد ووجدتُ ضالتي بحوزته. كان متخصصاً بأخبار "ناسا" وبصورها ومكاكيك الفضاء! وقد حصلتُ منه على نتف من الصور الفريدة والنادرة وكنت مسروراً جداً بإنجازي. بيد أن مشروع الكتاب لم يحظَ لاحقاً بإجماع المعنيين، فأُلغي رغم التكاليف الباهظة التي تحملناها! لكن مع ذلك كانت تجربة مفيدة، لا سيما أن العرب لم يكن عندهم غير الأمير سلطان رائداً فضائياً في تلك الأيام. المُلفت أن بعض الصحفيين العرب المتملقين، طلع علينا يومها بعناوين "مُطبّلة" أشارت إلى عبقرية الأمير بين روّاد الفضاء، وهو أصلاً بريء منها. بل منهم مَن كان وقحاً إلى درجة الإستشهاد بالقرآن دليلاً على تملقه للأمير وللسعودية، واِقتبس آية الرحمن 33 ("يا معشر الجن والإنس إن اِستطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان"). لا بل، الأدهى

من ذلك أيضاً أن إعلاميين كثيرين من الصفّ الأول ربطوا رحلة الأمير سلطان برغبة السعودية الإنتقال من عصر النفط إلى عصر الفضاء، وحمّلوا الأمير طموحات فضائية لم يكن هو يتبنّاها أساساً، ولا المملكة كانت قد صرّحت بها. إنه الرياء الشرقي في تمجيد الحاكم ومدح أبنائه منذ أيام شعراء البلاط في العصر العباسي. وعلى النقيض من ذلك، كتب صحفيون غربيون مقالات اِنتقادية هجائية ضد السعودية (وليس ضد "ناسا") واِتهموها "بشراء اِختيار دور الأمير" لأنها لم تحصل على مشاركته بمنافسة شريفة بين الدول، لا سيما بالنظر إلى مواقف السعودية بالنسبة للديمقراطية وحقوق الإنسان ودور المرأة. وهي كتابات غربية تحقيرية رأينا شبيهاً لها عندما فازت قطر بإستضافة المونديال لكأس العالم عام 2022م. فقد لاقى اِختيار قطر آنذاك اِنتقادات مماثلة عن "فساد" وعن "برطلة" وعن "مخالفة" حقوق الإنسان وحرية المرأة، وأضافوا عليها مسألة حقوق المثليين وشرب الكحول، ناهيكم عن حرارة الطقس والبيئة عموماً.

قلم، وراهب، ومحكمة

وعلى تلك المناويل، حدثتْ أخطاء كثيرة ذهب بسببها كبوش فداء وضحايا وأبرياء خلال فترة عملي الطويل في الجريدة. ولعلّ أكثر تجاربي طرافة في تلك الأيام ما نتج عن إعلان دوري كان يُنشر يومياً على الصفحة الأولى. وعلى بساطته، كان الإعلان على يسار الصفحة ملفتاً بمساحة ربعها الكامل (25X25 سم)، ولم يكن فيه غير صورة قلم حبر جاف. لا اسم ولا سعر ولا عنوان! وصودف أن ماركته باللاتينية (*Cross*)، أي "الصليب". فجأة، تحوّلت المؤسسة من جريدة يومية إلى سنترال حكومي، وصارت إداراتنا تتسلم مكالمات دولية من عرب ومسلمين وغيارى من جميع أنحاء المعمورة. مكالمات كانت

عاصفة متزمتة نارية وغاضبة.. فيها ما كان يشتمنا بالفصحى وبكل اللغات. ومنها ما كان ينضح بالتهديد ويطفو على القدح والذمّ. وبينهم مَن كان يطالب بوقف الإعلان فوراً وتقديم الإعتذار عن "فعلتنا الشنيعة بالترويج للصليبيين". لم نصدق ما كنا نسمعه، أو نُتهم به ونتعرّض إليه بسبب إعلان تجاري عن قلم يُباع في كل المكتبات في الدول العربية والإسلامية، وفي السوق السعودي نفسه! كان الأمر بالنسبة لنا في إدارة التوزيع، شيئاً مضحكاً ومحزناً معاً لكن جدياً وخطيراً. ولئن دلّت الحادثة على شيء، فعلى هشاشة الغيرة الإسلامية عند البعض بسبب مغالطات من بعض أئمة الجوامع، أو بسبب تخلّف التعليم الديني في بعض مدارسنا. ورغم محاولاتنا مع القراء تبرير نشر الإعلان وتوضيح المصادفة بين ماركة القلم والصليب المسيحي، إلا أن أحداً من المعترضين لم يصدقنا وإعتبرونا جريدة ذات أغراض تبشيرية ماسونية صهيونية مبطنة. الغريب فعلاً أن التُهم والإعتراضات لم تأت من بلد إسلامي واحد، ولا من مجموعة رجعية في بلد معين، إنما جاءتنا من المغرب كما من السعودية، ومن الكويت كما من مسلمي لندن أنفسهم، ما يعني أن التزمت آفة وكان عريضاً وعميقاً. الأدهى من ذلك أن مهن القراء المعترضين تراوحت بين القطاعات الخاصة والعامة على تنوع التخصصات، ثم إنها لم تقتصر على فئة عمرية معينة. لكن ما أثار الذهول والدهشة حقاً أن القراء المعترضين كانوا متابعين شغوفين يجيدون القراءة والكتابة. إذ ما إن مرتْ أيام قليلة، حتى بدأت أكياس البريد الجوي تصلنا من كل أنحاء الأرض كما لو كان كُتابها يتبرعون بسخاء لأيتام فلسطين أو ضحايا صبرا وشاتيلا؟ تلك الظاهرة الإعتراصية العاطفية المتزمتة كانت دائماً تنفجر علينا في لندن كلما ظهر "تعدٍ" على الإسلام، حقيقياً كان، كما في كتاب "آيات شيطانية" لسلمان رشدي، أو توهماً، كما في حالة قلم "كروس". وإنك أحياناً كنتَ تستهجن كيف يقوم المسلمون الغيارى

كلهم مرّة واحدة على نفس الشيء رغم فوارق المذاهب والجغرافيا والتراث والأوقات، كما لو أنهم يؤدون فريضة الحجّ بأمر إلهي!

***

وهكذا، على نفس الهوس، حدث في يوم من الأيام أن انطلقت هواتف المؤسسة ترن بين الطوابق على غير عادتها بحثاً عن رئيس التحرير أو المدير العام أو أي مسوؤل رفيع آخر. كان المتصلون مستائين جداً من سلسلة مقالات أدبية تنشر دورياً على حلقات عن "حضارة الأنباط في العلّا والبتراء". مكالمات القراء تلك المرّة لم تكن مجرد اِعتراضات بسبب خطأ في المعلومات أو التواريخ أو الأسماء أو ما شابه، إنما كانت تحديداً بسبب ورود كلمة "راهب" في سياق الموضوع! المادة الأدبية نفسها كانت غنية بمصطلاحات الكنائس البيزنطية والمخطوطات والآثار المسيحية. إلا أن الكثيرين من القراء المسلمين اِعتبروا كلمة "راهب" مدسوسة بنيّة مُبيّتة. فاِعترضوا بحمية وغضب كما لو أن الجريدة كانت تروّج عمداً لدين غير الإسلام، باِعتبار أن الإسلام نفسه خال من فكرة الرهبان؟ يا إلهي كيف قام الغيارى كلهم بنفس اللحظة على نفس الكلمة وكأنهم كانوا مبرمجين على مفاتيح معينة؟ المفارقة أن محرر الصفحة المعني، وكان مسلماً ملتزماً حريصاً على مشاعر القراء وأحاسيسهم، اِستبدل كلمة "خوري" في النصّ الأصلي بكلمة "راهب" ظناً منه أنها أخف وقعاً وألطف سمعاً على آذان الغيارى المسلمين. ولولا أهمية دور "الراهب" في سياق المقالة الأدبية وأمانة التاريخ، لكان قد ألغى دوره من المقالة أصلاً؟

وما إن بدأنا التعامل مع عواقب ردّ الفعل، حتى تبين لنا أن الشكاوى بمعظمها كانت بسبب ديانة كاتب المقالة (وليس محرر الصفحة)، وكان مسيحياً لبنانياً. وهكذا، اِعتبر الكثير من القراء مقالته ترويجاً

مبطناً منه للمسيحية، مع العلّم أن الكاتب كان زميلي ومعرفتي الشخصية وأقرب إلى الخطّ العلّماني اليساري منه إلى النهج الإيماني! لكن ما كان غريباً بالنسبة لي، يومها، هو كيف يتقبل بعض المسلمين كلمة "خنزير" بمعرض تحديد المحرمات في القرآن، ولا يتقبل كلمة "خوري" أو "راهب" في سياق قصة أدبية؟ لم يكن العيب بكاتب الرواية، ولا بمحرر الصفحة، ولا بهوية الجريدة وأهدافها، بل في شريحة بعض القراء المسلمين الذين ينظرون إلى العالم من خلال تفضيل الإسلام على كل الديانات الأخرى كما لو كانوا هم شعب الله المختار. الآية القرآنية تقول: "يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم"، والقاعدة الشرعية تقول: "مَن تعصّب لدينه خرج عن دينه". الملفت، أن الموظفين الإنجليز الذين ألمّوا بالمسألة وتعاملوا بطرود البريد وردود الفعل، وكلهم مسيحيون، لم يُصدقوا سبب الإحتجاج وحجم الإعتراض، فإلتزموا الصمت المطبق مجاملة لنا، ونظروا إلى الأرض أمامنا، "خشية أن "نأكلهم أحياء" أو نجلدهم أو نطردهم، فيما لو كانوا تبسموا أو إستهجنوا"! (مبالغة وصفية، لكن كان فيها شيء من واقع)!

تلك وعشرات غيرها كانت مجرد أمثلة لطالما شغلتني أثناء عملي في الجريدة السعودية وإستفزتني. كان يُخيل لي بسببها أحياناً أن منطقة الشرق الأوسط بؤرة غير طبيعية، أو تربة موبؤة، أو ولّادة لأمراض عقلية وعِقد نفسية. إذ إن غالبية الشكاوى التي كانت تصلنا من القراء دورياً كانت ترتبط بما تعتبره مسّاً بتعاليم الدين الإسلامي، كما لو أن ربّ العالمين متفرغ فقط لشؤون المسلمين والشرق الأوسط والعرب! نظرة عربية إسلامية نرجسية، لا تنفع مناقشة جذورها وأسباب إستمرارها خارج كتب الإختصاص.

***

من طرائف ذلك الزمن الجميل أيضاً، أن موظفين لبنانيين إثنين إشتبكا يوماً بالأيدي على أمر تافه وسخيف. كانا يعملان معاً في قسم "الإخراج والإنتاج". وعندما وصل خبر عراكهما إلى مسمعنا في مبنى الإدارة المجاور على بعد خطوات قليلة، كانت الشرطة البريطانية قد وصلتْ قبلنا بأعجوبة وسحبت المُعْتَدِي منهما إلى المخفر بسرعة البرق. كان وصول الشرطة بتلك السرعة إلى مسرح "الخناقة" بذاته أمراً مريباً لنا ومحيراً. ربما كانت الشرطة تراقب الجريدة سراً على مدار الساعة من مكان قريب بدون علمنا؟ أو ربما كان محررونا أو رئيس التحرير تحت حراسة حكومية مبطنة، لا سيما أن توجّه الجريدة يومئذ لم يكن عروبياً جماهيرياً. وهكذا، بعد يومين من الحادثة، وجدتُ نفسي واقفاً بمحكمة "أولد بايلي" (أعرق محاكم بريطانيا) ممثلاً عن الجريدة، ومترجماً للزميلين. أغلب الظن أن تلك المحكمة بالذات أُختيرت لسماع القضية بسبب وقوع موقع الحادثة تحت إداراتها الجغرافية من جهة، ولأن المُعتدِي هدد المعتدَى عليه بسكينة، (مشرطة العمل) ما اِعتُبر جرماً جدّياً، وإنْ لم يُجرح.

كان الزميلان أقرباء دمّ من نفس المِلّة ونفس الضيعة. عملا معاً بجريدة "الحياة" في بيروت أيام صاحبها الأصلي ومؤسسها كامل مروة. كان المُعْتَدَى عليه أصغر سناً ويعمل ساعياً بسيطاً في "الحياة"، فصار في لندن أكثر تألقاً يعمل منسقاً بارزاً بقسم إخراج صفحات "الشرق الأوسط". أما المُعْتَدِي، فكان أصلاً متألقاً في جريدة "الحياة" حقبة لبنان سويسرا الشرق، لكن الأيام دارت عليه في لندن وضيّعته في ضبابها. كان في عزّه يعمل مصوراً لامعاً يغطي أخبار القصر الجمهوري بعهد إلياس سركيس، ومتعاوناً قديراً مع وكالة "دالاتي ونهرا" الشهيرة. كانت لديه في بيروت حياة عصرية وصديقة أوروبية وسيارة "جاكور" سبور من نوع *E-Type*، إلا أن وظيفته في "الشرق

الأوسط" في لندن كانت أقل لمعاناً وإقتصرت فقط على طباعة الأخبار المتفرقة لصفحة المجتمع والتسلية والكلمات المتقاطعة. أمر يبدو أنه كان يحزّ بنفسه وينخر كبرياءه ويُخجله ضمناً.

وقف المتهم خلف القضبان، فيما كان المُعتَدى عليه مسترخياً على مقعد الماهوغاني بمواجهة القاضي مباشرة. أما أنا، فوقفت على "منصة الترافع" بين قوس المحكمة وقفص الإتهام. وبعد مداولات سريعة وشروحات لقواعد الإجراءات التمهيدية وإرشادات الإستماع، لا سيما أنه لم يكن هناك محامون عن الطرفين، إستهل القاضي كلامه وأكد للإثنين من البداية أن المحكمة ليست معنية بأي جروم إقترفاها أو جنح سابقة لحضورهما، ولا بما يمكن أن يهدد وضعهما القانوني في بريطانيا، حتى وإن كانا مخالفين لشروط الإقامة. (قمة في الإنسانية والتحضر). إستطرد القاضي جلسته بجملة أسئلة سريعة للطرفين أراد أن يعرف منها إن كانا من نفس الجنسية، أو من نفس القبيلة، أو من نفس الديانة، أو من نفس المذهب، أو من نفس القرية، أو نفس العائلة، أو نفس الحزب السياسي. لم يترك شيئاً من الإحتمالات إلا وسأل عنها، كما لو كان قاضياً؟؟؟ أنهى كلامه بالسؤال عن عملهما السابق في بيروت وأنشطتهما الإجتماعية في لندن.

المُبهر حقاً أن جناب القاضي فَهم لبّ الخلاف بأقل من ساعة. وفي الأثناء كان المتهم من وراء القضبان يُوجّه الشتائم والتهديدات بالقتل للمعتَدَى عليه أمام القاضي ومساعديه باللهجة اللبنانية الزقاقية. كانت مَسباته، على شناعتها وقبحها، تخرج بطيئة متلعثمة من فمه كما لو كان سكراناً، فيما لم يكن كذلك بسبب حبسه! لا أحد يدري إن كانوا يعطون المجرورين إلى المحكمة إبرة مهدأة، أو أنه يومها كان يعاني من "متلازمة الإنسحاب" بسبب إدمان ما؟ ومن شدة غضبه وغيظه لم يأبه للمحكمة، ولا للقاضي، ولم يبال بصورة ملكة بريطانيا على

الحائط. الرجل كان يغلي حنقاً، والدخان كان يتطاير من أذنيه، خاصة أن المعتَدَى عليه كان يبادله ببرود اِبتسامات صفراء ساخرة. القاضي أنذر الجاني وأمره بلجم لسانه والإعتذار، لكنه لم يتوقف عن السباب ولم يكترث. جلّ ما كان يريده النيل من غريمه والإنتقام. هنا، أمر القاضي بسحبه فوراً وإرجاعه إلى السجن، ودار إلى المعَتَدى عليه وخاطبه بلهجة العارف: "أنت شخص ملعون *(Wicked)*. إنك من النوع الخبيث المُستفِز. سأوصي المحكمة أن تضعك تحت الرقابة السلوكية لمدة عام كامل. فويل لك إن سمعتُ بإشكالية معك في أي مكان في المملكة المتحدة خلال عام". حسم القاضي أمره بالقضية وكوّن فكره من جلسة سريعة، ولم يسمح للمعتَدى عليه الكلام أو الدفاع عن نفسه، لا سيما أنه رأى مدى شماتته وتشفيه بالمتهم. وعلى الفور، دار إلى مساعديه وأصدر حكمه غيابياً بحبس المُعتَدِي مدة أسبوع واحد فقط بدون غرامات. اِنتهت المحاكمة والإجراءات وخرجتُ من قاعة المحكمة، وهي على الطابق الأرضي. وما إن وصلتُ إلى الشارع وهممت لركوب التاكسي، حتى أمسكني حارس من المحكمة وقال: "إن القاضي يريدك حالاً"!

هرولنا إليه معاً. فنظر إلي نظرة اِحترام ووقور، وقال: "اِعذرني، يا سيدي، لم أشكرك على وقتك معنا وعلى جهدك بالترجمة وحيادك في التعبير. يسرّني أن أعلمك أن المحكمة لها أن تسدد بعض أجرك بموجب "النموذج *XYZ*". وأرجو أن تقبل شكري الجزيل والخالص نيابة عن فريق المحكمة، ويسرني أن أتلقى منك ملاحظاتك على مجرى المحاكمة بموجب "اِستمارة *MNO*". كلامه ذاك كان شيئاً غير مسبوق وموصوف. إذ لم يسبق أن شكرني أحد في حياتي بتلك الطريقة اللبقة على شيء فعلته، حتى عندما اِنتشلت بنتاً بعمر الورد من الغرق على شاطئ بيروت، ورفعتُ بنتاً أخرى من كعب مصعد

هوتْ تحته عندما فتحتْ بابه وكان فوقها! من يدري، فلربما كان أهالي البنتين في الحالتين في شبه غيبوبة، فضاع الشكر منهما أو ضعتُ أنا من هول المصيبة!

كان القاضي في قمة الأدب والتحضّر، أدهشتني نباهته وحكمته وعدالته! فالخلاف بأصله بين الزميلين سببه أن المُعتَدى عليه كان يغيظ المُتهم بأنه أحسن حالاً منه وأكثر تألقاً. كان تصرفه صبيانياً تافهاً، تفاقم مع الأيام وجعل المتهم يطلع عن طوره ويفقد صوابه في لحظة حرجة! وبعد المحكمة، بقيتُ أسابيعَ طويلة أفكر بالعدالة البريطانية، ومعجباً بالقاضي وسعة صدره، وأتعجب كيف كان له أن يغوص في مشكلة تافهة بين شابين أجنبيين، ويتحرّى أبعادها السياسية والإجتماعية والدينية. فلو كان العراك بينهما حصل في الرياض أو القاهرة أو بيروت، مثلاً، لكانت الشرطة قد "رقعتهما" بدناً معتبراً بأقل من دقيقة واحدة وأرسلتهما إلى أقرب طبيب بيطري لتقطيب الجروح وتجبير الكسور. بلادنا في الشرق لا تسمح بهدر أموال الدولة على قاعات المحاكم والماهوغاني وعلى لعب أولاد، خاصة إذا كانوا من عائلة واحدة، ومن العامة، أو من بيئات شعبية لا سند لها ولا اِعتبار. لكن من حسن حظّ الزميلين أنهما كانا في "الغرب الأمبريالي" حيث العدالة بين السكان لا تفرّق بين مواطن وبين غريب، أو بين لبناني وبين سوداني إلا بالتقوى ودفع الضرائب. فرغم بشاعة الغرب المادية ومظاهره الإلحادية، غير أنه أكثر رقياً وعدلاً ورحمة على شعوبه من "إيمان" الشرق وروحانيته. الغرب لا تَهُمه إبادة مليون رواندي، لكن تَهُمه شكوى مواطن عادي واحد عنده. فالجماعة في الغرب يعملون على صيانة بلدانهم وأمنها ورخائها، بموجب أصوات ناخبيهم فيها، حتى وإن كانت الضحايا نعاجاً. وهنا تحضرني حادثة طريفة كدت بالصدفة أكون لها كبش الفداء مع نفس المحكمة ونفس القاضي! أحد الموظفين قرر من عندياته نحر خروف أمام مبنى

الشركة بمناسبة اِحتفالية معينة. فحضرتْ الشرطة ورجال الأطفاء والمخابرات والبلدية، وأحاطوا بالمبنى دفاعاً عن الخروف وبحثاً عن الجاني... فوجدتُ نفسي مرّة ثانية أترجم لخروف بريء في عالم متناقض.

الجماعة في الغرب يعملون على اِستغاثات الضعفاء وآلام المقهورين والخراف في بلدانهم وليس خارجها. بل غالباً ما يقترفون المجازر خارج بلدانهم ويتسببون بالإبادات ويبررون الفواحش بذريعة حماية خرافهم ومصالح شعوبهم وحقوق الإنسان عندهم في المقام الأول.

مجاعة على أنغام الروك

في ذلك العام (1985م) "أمطرتْ" الدنيا علينا في بريطانيا اِحتجاجات شعبية جديدة. وسرعان ما اِمتدت خلال العام إلى إضرابات عمالية مكثفة طالت مناجم الفحم ومصانع السيارات ومعامل الأدوية والأغذية. ومن عواقب الإحتجاجات المباشرة أنها أحبطت اِفتتاح مصنع ضخم جديد لشركة "نيسان" في سنديرلاند. ورغم الحِراك الشعبي والإضطرابات، شهد العام أيضاً أول طرح عالمي لهاتف محمول في بريطانيا (فودا فون). كما شهد أيضاً صفقة بيع فندق "دورشستر" اللندني العريق لسلطان بروناي، ومتاجر "هارودز" الفخمة لرجل الأعمال الشهير محمد الفايد. أما على المستوى الشخصي، كان عام 1985م عام زواجي الثاني! ورغم أن الرجال، عادة، ينسون مناسبات زواجهم، لكن في حالتي، تزامن عرسي مع حفل دولي أسطوري لمكافحة المجاعة والقحط في إثيوبيا (*"Live Aid"*) للمغني العالمي بوب غيلدوف. كان حفلاً عالمياً ضخماً جمع غيلدوف خلاله تبرعات معتبرة للتخفيف من المجاعة في القرن الأفريقي. وما

زلت أتذكر بحزن وأسى كيف أُنفقت التبرعات الضخمة على تنظيم الحفل نفسه وإدارته وعلى أجور الفنانين والمشاركين ونثريات النقل والإيجار والحراسة إلخ. جاءت 100 مليون جنيه إسترليني من التبرعات يومها (350 مليون دولار أميركي بسعر اليوم) بمثابة صفعة صادمة بوجه العالم الحرّ ومبدأ حقوق الإنسان. إذ لم يبق لإثيوبيا وجيّاعها من مجموع التبرعات سوى خردة بقيمة 3 ملايين إسترليني! ومن الوقاحة في مكان أنهم برّروا ذلك على مبدأ أنه لولا الحفل في المقام الأول، لما حصلوا على ذلك المبلغ أصلاً - حسب تعبير غيلدوف نفسه! أما بالنسبة لي، فلم يكن ذلك حفلاً خيرياً، بل تأبيناً مأساوياً، منّن الغرب فيه إثيوبيا من كيسها وعلى حسابها، مع العلّم أن العكس هو الصحيح! فلولا المجاعة في إثيوبيا لما اِشتغل عاطلون عن العمل في بريطانيا خلال أشهر طويلة على تنظيم الحدث وإدارته. وهكذا هي المبادرات الغربية بأغلبيتها تُغلف دهاءً بالعنصر الإنساني وتُلف سراً بأقمشة الطمع والجشع. إلا أن الحدث الأبرز في تلك الحقبة كان رياضياً بِامتياز، وقد تمثل بفوز فريق "مانشستر يونايتد" بكأس الإتحاد الإنجليزي في ملعب "ويمبلي"، وكان الإحتفال به يومها جنونياً أسطورياً غطّى على حفل المجاعة وخردة الجيّاع.

الفصل الثاني عشر: ميلاد ملغوم

إرهاب بالجملة

في تلك الأيام واصلت عمليات الإرهاب زخمها في العالم. وفي أواخر أيلول فجّر فلسطينيون يختاً إسرائيلياً في قبرص وقتلوا ثلاثة إسرائيليين. وكالعادة، دفعت الحادثة إسرائيل للإنتقام وضرب مقر منظمة التحرير في تونس، وقتل ما يزيد عن 60 من أعضائها. ورداً على الرد، إختطف فلسطينيون سفينة سياحة إيطالية (أكيلي لَارو) من قبالة ساحل مصر وعلى متنها 650 راكباً. كانت السفينة يومئذ في طريقها من الإسكندرية إلى ميناء أشدود في إسرائيل. ولولا قيام الحكومة الإيطالية بالضغط على منظمة التحرير، وقيام مبارك بتهديد عرفات شخصياً، لما اِضطر عرفات إلى التنديد بالعملية والتوسّط لمعالجة عواقبها. وبالفعل اِنتهت العملية على مقتل أميركي واحد فقط، ليون كلينغهوفر، وكان مُسناً مُقْعَداً. وعلى إثرها، ظهرت الإجراءات الأمنية شديدة وواضحة في جميع المرافق والمطارات ومحطات السكك في كل أوروبا. فكان لا بد من حصول لقاء فوري بين الزعماء الكبار لتبريد المواجهات في العالم، ولوضع حدّ للعبة الدمار الصامتة في الحرب الباردة بين موسكو وواشنطن. يومها تنفسنا الصعداء على أخبار اِجتماع ريغان وغورباتشوف في جنيف لأول مرّة.

على الرغم من تخفيف حدة التوتر على الجبهات بين الشرق والغرب، توالت الأحداث، وخطف رجال أبو نضال رحلة "مصر للطيران" *(648)* في تشرين الثاني 1985م، وكانت متجهة من أثينا إلى القاهرة. فأجبروها، أولاً، على الهبوط في مالطا، وكان على متنها 92 راكباً. إلا أن السلطات المصرية أرادت أن تُقلّد السلطات الإسرائيلية بتحرير

الرهائن في عملية عنتيبي، فأرسلت إلى مالطة فرقة من وحدة الكومندوز *(777)*. وبدل أن تحرر الركاب، قضتْ عليهم وقتلتهم (عن سوء خبرة وتقدير) وراح منهم 60 قتيلاً. كانت العملية المصرية فشلاً ذريعاً أثارت أصداء عالمية ناقدة ومتذمرة. وقبل نهاية العام بقليل، حصل هجومان على منصات طيران "العال" الإسرائيلية في روما وفيينا في وقت واحد. كان الحادثان حمّامي دمّ بكل معنى الكلمة، لا سيّما أنهما وقعا أثناء فترة عيد الميلاد ونهاية العام مع اِزدحام المطارين، وراح ضحيتهما 18 قتيلاً و120 جريحاً. أما المنفذون، فكانوا "فدائيين" فلسطينيين يتبعون "لأبو نضال" (الإرهابي المقاول) لحساب أحد الأنظمة العربية! وعلى تلك الخلفية الدموية سارت السنة بعناد شديد نحو نهايتها، وبدأنا نحن نفكر بقضاء عطلة الميلاد ورأس السنة..

وكعادتي في مداعبة الخواطر، قررنا (أنا والمصون زوجتي) قضاء عطلة رأس السنة الجديدة في البندقية. مدينة تربض فوق أرخبيل مكوّن من بقايا جزر صغيرة، وتربطها جسور مشاة وقنوات عائمة، ويحيط بسكانها البحر من كل مكان. ولأول وهلة بدتْ المدينة كما لو أنها لوحة فنية رسمتها أنامل رفايال أو مايكل إنجيلو من القرون الوسطى. لم أكن مهووساً بالطعام الإيطالي، ولا بالهندسة المعمارية، ولا حتى بتاريخ اليهود في المدينة رغم أهميته. جلّ المسألة أن زوجتي وأنا كنا يوماً نشاهد التلفزيون البريطاني حيث رأيناً إعلاناً رومنسياً عن بوظة إيطالية. كان العاشق الولهان بالإعلان واقفاً على جندوله تحت جسر صغير ويمد يده لحسناء واقفة على الجسر ومعها قرن بوظة! كان ينشد لها لحناً جميلاً بلغة إنجليزية، لكن بلهجة إيطالية ساحرة، يتوسل فيه أن تعطيه "كورنتو" البوظة. الإعلان التلفزيوني وحده كان كافياً لإثارة فضولنا على خلفية مللنا في لندن أثناء العطلة،

فقررنا قضاء رأس السنة على الماء وتحت الجسور بحثاً عن تلك الرومانسية والبوظة؟! والبندقية لمسلمي القرون الوسطى، كانت مدينة مهمة جداً على مدى سبعة قرون. في تلك الأيام الخوالي كانت المدينة بمثابة المنتدى الجامع لمسيحيي أوروبا مع مسلمي المحيط قبل تمكن العثمانيين من السيطرة الكاملة على المتوسط. وهي سيطرة دفعت الأوروبيين (1500م) إلى التفكير جدياً بطرق أخرى للإلتفاف على ضرائب العثمانيين، فأُجبروا على إستكشاف العالم الجديد، كما لو كان العثمانيون هم الحافز الذي دفعهم إلى إكتشافه!

الإرهابي وأنا

في اللحظات الأخيرة قبل السفر، دعونا اثنين من أصدقائنا لمشوار البندقية معنا. زميل صديق من طرفي على شاكلتي، وزميلة صديقة من طرف زوجتي على شكلها. كلاهما كانا عازبين لم يعرفا بعضهما البعض من قبل، وخارجين توهما من علاقات فاشلة! كنا جميعاً "رحّالة" متمرسين مُلمين بثقافات الدول وبأنظمة الطيران وإجراءات المطارات. أنهينا الإجراءات الروتينية وتمهلنا - لقتل الوقت - في التوجه إلى بوابة الصعود، مفضلين الدردشة والتدخين في إحدى حانات المطار.

وعلى عكس معظم البلدان الأخرى، فإن رجال الشرطة في بريطانيا، عادة، لا يحملون أسلحة ما لم تكن هناك إخباريات مسبقة عن أنشطة الجيش الجمهوري الأيرلندي، أو "الألوية الحمراء" الألمانية، أو منظمة التحرير الفلسطينية، أو الجبهة الشعبية، أو جماعة "الباسك" الإسبانية. مطار هيثرو خلال عيدي الميلاد ورأس السنة، كان يومها ضمن الحالات الإستثنائية القصوى التي كانت تُنشر خلالها قوات مسلحة إحتراساً وتحسباً. والمسافرون في تلك الأيام كانوا بمعظهم

مُدخّنين من الطراز الثقيل المدمن، إذ كان التدخين (بإستثناء السيجار والغليون) شيئاً إعتيادياً في كل مكان. بل العكس تماماً، كان عدم التدخين هو السلوك الشواذ في كل الأمكنة بما فيها الطائرات، وإن كانت تُخصصُ للمدخنين المقاعد الخلفية الأخيرة على متنها. الأغرب من ذلك، أن التدخين الكثيف لم يكن موضة وحسب، بل كان دليلاً ملموساً على إنشغال المدخنين بهموم العمل، أشبه بإنشغال الركاب اليوم في المطارات وعلى الطائرات بأجهزة الكمبيوتر والهواتف النقالة. ومع أن المقاربة بين السجائر والأجهزة الشخصية مضحكة بعض الشيء، لكنها دقيقة. فالمدخنون يومها كانوا يضعون سجائرهم بأطراف أفواههم كما يحمل المسافرون اليوم أجهزتهم على أطراف أكتافهم.

***

..... "تعلن الخطوط البريطانية الرحلة *BA594* المتجهة إلى البندقية عن فتح بوابتها، على المسافرين التوجّه فوراً إلى البوابة رقم 31". تركنا البيرة على أنصاف كباياتها وركضنا مسرعين، وكنا أربعتنا مدخنين من الطراز الأصيل، فوصلنا إلى بوابة الإقلاع لاهثين في اللحظة المناسبة! مقاعدنا كانت محجوزة بقسم المدخنين في آخر الطائرة بجوار ببابها الخلفي. وما إن إسترحنا إستعداداً للإقلاع حتى لعلّع جهاز النداء في الطائرة منادياً: "المسافر هشام، يرجى التعريف عن نفسك لأحد أفراد الطاقم حالاً "! زوجتي وأنا كنا جالسين على جهة النافذة، وشاهدنا حراس الأمن يخرجون من سيارة جيب عسكرية عليها ما يُشبه الأطباق اللاقطة. أسرعوا إلى كعب الطائرة بأسلحتهم بعيداً عن مدى نظرنا ورؤية الركاب. وقبل أن نستوعب ما كان يجري حولنا من هرج ومرج، عاود جهاز النداء رسالته منادياً: "على هشام التعريف عن نفسه لطاقم الطائرة فوراً". هنا، اصْطِكت ركابي وإصفر

وجهي وبدأ بدني ينضح عرقاً وبيرة. يا إلهي، فجأة نسيتُ كيف أعرّف عن نفسي: هل أركع على رِكَابٍ مهزوزة وأرفع يدَّي فوق رأسي كما في الأفلام، أم أصيح بصوت اِختفي من الخوف والإرتباك، أم أترك الأمر لطاقم الطائرة أن يكتشفني بنفسه؟ أخذنا "أربعتنا" ننظر إلى بعضنا البعض نظرة ريبة وحيرة وفزع. بل حتى زوجتي رمقتني، هي الأخرى، نظرة "إياك ثم إياك أن تكون متورطاً". فجأة، تهاوتْ أعمدة الأحداث كلها على ذاكرتي. يا إلهي! لماذا لم تخطر على بالي هجمات الفلسطينيين على منصات "العال" في مطار روما؟ مَن يدري، فلربما كان في الأمر ما تعلق بهجماتهم الإنتحارية وملاحقة الهاربين منهم عبر مطارات أوروبا.

ولما أعادوا النداء للمرّة الثالثة، تبخّرت الأوزان عن صدري تماماً وتنفست الصعداء. ففي تلك المرّة ذكروا إسم المطلوب كاملاً، ولم يكن إسمي. إنه العطف الإلهي واللمسة الحريرية والكارما معاً. ولكن بالتأرجح بين مشاعر الإرتياح وبين الشعور بالريبة، تضاعف قلقي فجأة وزاد خوفي واِنتقل مزاجي إلى مكان أضيق وأشد. إذ إن صديقي بجانبي وأنا نحمل نفس الاسم الأول (هشام)، ولم ندرك بداية مَن منا كان المقصود إلى أن أذاعوا الاسم كاملاً. فنهض صديقي هشام من مقعده مرعوباً مذهولاً مثل الأرنب، ولوّح بيده المرتعشة لأحد أفراد الطاقم. وقبل أن يَرفُ لنا رمشٌ وتمرّ على بالنا خاطرة، ظهر رجلان مسلحان فجأة وكأنهما كانا مختبئين في الحمامات خلفنا، وأمسكا هشام بوحشية وغلاظة وأخرجاه بوقاحة وفظاظة على مرأى ومسمع كل الركاب. أما نحن الثلاثة، (زوجتي وأنا وصديقتها)، فأُصبنا صدمة العمر وتجمدنا في مقاعدنا، وللحظة لم نتفوّه بحرف الألف ولم نتنهد بآه واحدة.

***

من نوافذنا، رأينا هشام يهبط على درج الطائرة مُساقاً برهبة البنادق. أخذنا نناقش "الحقائق" فيما بيننا بهمس وحذر. كان تفجير مكاتب "العال" في مطاري روما وفيينا الشيء الوحيد الذي تبادر إلى أذهاننا. هشام كان يحمل جواز سفر بريطانياً ويعمل في الجريدة معي ويقيم في لندن منذ "زمن الطوفان". لم يكن هناك ما يثير الريبة حوله سوى أنه كان لبنانياً من أصول فلسطينية ممن حُمِلوا إلى لبنان أيام النكبة 1948م. ورغم حداثة عهده بالحصول على الجنسية البريطانية آنذاك، كان هشام، كأي فلسطيني آخر، شغوفاً في الدفاع عن القضية الفلسطينية ويعتبرها أمّ القضايا، لا سيّما أنه وُلد في خضم النكبة ولم يجنِ على أحد. أهله جرّوه من فلسطين إلى المنفى ضمن متاعهم وهو لم يزل في الثالثة من عمره. لم يكن خجولاً في وصف مشاعر الأسى والحرمان والتغرّب التي اِختبرها متنقلاً بين مخيمات اللاجئين في لبنان قبل التدحرج إلى لندن للدراسة والإستقرار. الرجل صديقي "اللزم"، وكنت أشاطره ليالي الأنس والسفر وأعرف أمه وإخوته. ثم إنها لم تكن أول مرّة أسافر معه فيها. أتذكر أننا قمنا مرّة في جولة عمل معاً على البحر الأحمر لجهة مصر. فوقف على شطّ "نوبيع" ونظر إلى الأفق وتنهّد طويلاً. دار نحوي وأعاد على مسمعي ما كانت غولدا مائير قد قالته لزوجها يوم وصلت إلى فلسطين من أميركا عام 1921م: "إني أشتم رائحة أهلي"، في إشارة منها إلى الأفق القريب في خيبر السعودية. يومها قال لي إنه يشتم رائحة جدوده في الأفق القريب. كانت فلسطين نزيفه الدائم والوجع الذي ورثه عن المرحوم أبيه. ومن "حسن حظ" صديقي هشام أن المنية توفته قبل أن يرى ماذا فعلوا له عام 2025م بقطاع غزة، ونسائها، وأطفالها، والمعطوبين فيها! ولو لم يخطفه السرطان منا، لكانت صور الإبادة في غزة قد قضت عليه بدون نفس. خطفه المرض باكراً في بداية خمسينياته، تاركاً لبناته حمل الحلم عنه بالعودة إلى فلسطين يوماً...

"هذا قائد الطائرة يحدثكم" .."يؤسفني أننا سنتأخر 30 دقيقة تقريباً، سنقلع حالما تُحَلّ مشكلة الأمتعة". لكن، أي أمتعة تلك التي كان الكابتن يحدثنا عنها، لا سيما أننا أنهينا معاملاتها قبل ركوب الطائرة بدون أي عراقيل؟ كانت عقولنا مرتبكة تنهشها المخاوف على هشام من جهة، وتشغلنا الوساوس منه، من الجهة الأخرى. فمن ناحية، لم يكن بالإمكان الإستمرار بمجاملته فيما لو كان متورطاً بشيء إرهابي، ومن الناحية المقابلة، لم يكن ممكناً التخلّي عنه والتظاهر بعدم معرفته، وهو صديقي الحميم! صراع القلب والعقل في داخلي كان على أوجّه. قلب يريد المساعدة بأي طريقة ممكنة، وعقل لا يريد التورط تحت أي ذريعة كانت. مأزق أخلاقي لم يكن الخروج منه سهلاً، ولم أكن أفلاطون عصري أو أغسطين زماني لأفهم أسباب القلب ودواعي العقل. كنتُ أعرف أمراً واحداً فقط أن مأزقي الأخلاقي لم يكن بين العقلانية والعاطفة، إنما بين إرادة وإرادة. لكن مع ذلك كنتُ بحاجة إلى حكمة لقمان وصبر أيوب ومنطق أرسطو. هشام كان صديقاً وفيّاً، وزميلاً داعماً، وجاراً شهماً. ولوهلة خِلت نفسي في كابوس على مدرج المطار وودت لو كنت مكانه، مخرجاً لحالي. أما صديقة زوجتي، فلربما اِعتقدت أنها كانت أكثر النساء حظاً على وجه الأرض. فقد "اِنكشف" أمر هشام قبل دخولها معه بعلاقة كانت مرتقبة. لا بد أن ملائكة الربّ يومها كانت تحرسها من الوقوع في براثن الحظ التعيس. كانت نبيهة ولم تعلق إطلاقاً، لا تعاطفاً مع هشام، ولا اِستياءً منا لجمعهما في المقام الأول. إلا أن جذورها الأردنية، هي الأخرى، جعلتها تبدي تحفظاً خافتاً على خلفية هشام الفلسطينية. فالأردنيون "الأصليون" يميزون حالهم عن الفلسطينيين كما لو كانوا يعتبرون أنفسهم عرقاً آخر؟ هذه عقدة الشعوب مع حدود الجغرافيا والجيرة، كما بين لبنان وسوريا مثلاً. المؤكد أن الأردنيين والفلسطينيين من نفس الطينة والعجينة، ولا يمكن للآخرين التمييز

بينهم، لا في اللهجة ولا في الشكل ولا في السلوك، ولا حتى في القيم الأخلاقية. وبإستثناء وادٍ صغير ونهر متواضع وبحر ميت، ليس هناك ما يفصل بين الشعبين، بل تَبقى القلوب على الجانيين تنبض بهوية جامعة، وإن كان البعض يتباهى على الفلسطينيين بأردنيته، كما لو كان أكثر تحضراً رغم وجود الكثير من البدو والعشائر في بادية الأردن.

وحده الله في ذلك اليوم كان يعلم ماذا كان يدور برأس صديقي هشام، وماذا كان يجري معه بين أيدي رجال الأمن. أمسكتُ بجاكيت المضيف وسألته عما كان يجري على المدرج، وقبل أن يجيبني بهمسة، طلع علينا قائد الطائرة منادياً على مكبر الصوت: "معكم قائدكم يتحدث إليكم مرّة أخرى"... "لقد تم التعرّف على الحقائب والأمتعة، ونحن الآن بإنتظار تصريح الإقلاع بغضون لحظات قليلة، أشكركم على تفهمكم وصبركم". الركاب شعروا بالإرتياح الشديد، وقد كانوا على وشك الإقلاع، لكن نحن كنا مذهولين لأن هشام لم يصعد إلى الطائرة ولم يكن بيننا... وما هي إلا دقائق قليلة قبل إغلاق باب الطائرة، حتى طلّ هشام من ضباب العدم. و"عينك" يا رجل ترى نظرات المسافرين وهم يرموقونه نظرة حقد وإحتقار، ليس فقط لأنه كان السبب في تأخيرهم، إنما لأن إبتسامته كانت مستفزة أعرض من جناح الطائرة نفسها. رمقوه نظرات تحكي بدون كلام وتصرخ بدون عويل: "هذا أنت يا إبليس النحس؟"... "ألا تعرف أنها عطلة الميلاد ورأس السنة يا ملعون الوالدين؟" إلخ. وبقدر ما كان الركاب مستائين من طلّته، كنا نحن الثلاثة نحلق طرباً وفرحاً. وما إن جلس على مقعده بيننا وأخذ نفساً بعمق المحيط قال لنا: "لا تسألوني عن أي شيء، سأخبركم بكل شيء بعد الإقلاع وبعد البيرة". وفجأة، تحوّلتْ ملامحي من جديد وعاد لوني إلى طبيعته ولم أعد واقعاً تحت مقصلة الأخلاق وصراع العقل والقلب. وحتى صديقة زوجتي تغيّر لونها، هي

الأخرى، وبدتْ متحمّسة من جديد للخوض في تجربة شيّقة مع هشام...

ركاب الطائرة من حولنا كانوا غاضبين جداً من التأخير. منهم مَن كان على موعد عند الوصول في مطار البندقية، ومنهم مَن كانت رحلته "ترانزيت" ويخشى عدم اللحاق برحلة المواصلة إلخ. وعلى الرغم من البلبلة الأمنية وتحريك العساكر، تبين من رواية هشام أن السبب في سحبه من الطائرة، ماكينة حلاقة. لقد نساها "شغّالة" في حقيبته، فكانت بالإضافة إلى رجرجاتها، تطلق من بطاريتها موجات كهربائية قصيرة المدى، فإلتقطتها أجهزة الفحص عند تحميل الحقائب في بطن الطائرة. ولدقائق حرجة إعتقدوا أنها كانت قنبلة موقوتة، لا سيما على ضوء تفجيرات مطاري روما وفيينا في تلك الفترة. يومها لم تكن "الرجّاجات الجنسية النثوية" شيئاً مألوفاً عند السفر كما هو عليه اليوم، وإلا لكانت آلة الحلاقة قد عولجت كما تعالج الرجّاجات اليوم! وما إن وصلنا إلى البندقية ودخلنا مبنى الوصول في مطار (ماركو بولو)، حتى إنطلق مكبر الصوت بلكنة إنجليزية إيطالية غير عادية منادياً: "الرجاء من المسافر هشام التوجّه فوراً إلى شباك الجوازات رقم 7". تلك المرّة لم نأخذ النداء على محمل الجدّ لأننا أدركنا سلفاً أنه كان نداءً روتينياً لإستكمال إجراءات هيثرو وإقفال الملف من جهة الوصول..

الحادثة على طرافتها أظهرتْ رداءة معدني وسوء طبيعتي تحت أسيد الإختبار. إذ إني رسبتُ في معاني الصداقة والرجولة والشهامة والوفاء معاً؛ فللحظة كدتُ أتخلّى فيها عن صديقي حتى قبل معرفة التهمة الموجهة إليه، ناهيكم عن صحتها. ومَن يدري، فلربما كنتُ مستعداً أيضاً للتخلّي عن زوجتي فيما لو كانت، هي الأخرى، من أصول فلسطينية أو أردنية! الغربيون يجهدون أنفسهم لترجيح عناصر

الإنسانية والعدالة على مبدأ "إن بعض الظن إثم". أما العرب، فيرجّحون الخبث والظنّ على ترجيح حسن النيّة! فلو أن ما حدث لنا في هيثرو، كان قد حدث في مطار القاهرة أو طرابلس الغرب أو دمشق، مثلاً، لكنا جميعاً وُضعنا في سجون منفردة واتُهمنا بالعمالة، أو العمل السرّي في خلية إرهابية، ولكان التحقيق معنا سيأخذ اِسلوباً آخر عبر كواكب بالقرب من الثقب الأسود. وحتى لو كانوا اِكتشفوا أن الذبذات مصدرها آلة حلاقة تافهة وليست قنبلة موقوتة، لكانوا اِتهمونا بزرعها وتشغيلها عن بعد للتشويش على أجهزة الطائرة عمداً! وفي جميع الحالات ما كانوا ليرحمونا لأن الشكّ، وليس حسن النية، أصل العقلية الظنية العربية! ومَن يدري، فلربما كان بإمكانهم أيضاً نصب فخ لنا واِتهامنا بالتجسس لحساب بريطانيا، على أساس أن باسبورتاتنا جميعها بريطانية، وكلنا من أصول أردنية وعراقية ولبنانية وفلسطينية. تشكيلة جذور مثالية للشك والريبة والظن!

الفصل الثالث عشر: أندلوسيا

الزعران الأربعة

عام 1986م لم يكن أفضل من الأعوام التي سبقته. فبِإستثناء خبر اِنضمام إسبانيا والبرتغال إلى السوق الأوروبية المشتركة، واِنفصال أستراليا عن العرش الملكي في بريطانيا، لم تشهد أوروبا الغربية تطورات إيجابية على الإطلاق. كانت ما تزال تتعاطى مع اِنفجار "تشيرنوبل" في أوكرانيا وتراقب عواقب اِنبعاثاته النووية ووصولها إلى قلب السويد. كما كانت أيضاً تتوجس المزيد من عمليات التفجير وخطف الطائرات، خاصة عقب حادثة مطار أثينا، وتفجير ديسكو "لا بيلا" في برلين الغربية حيث لقي أميركيان وألماني حتفهم وجُرح 230، فضلاً عن حادثة مدريد المدوية. ذلك أن التفجير في العاصمة الإسبانية كان تذكيراً دموياً بالمطالب الإنفصالية لمنظمة "إيتا" في الباسك، وقد أدّى إلى مقتل عشرة أشخاص وإصابة ستين آخرين. في الأثناء، قررت مارغريت ثاتشر القيام بزيارة تاريخية إلى إسرائيل، وكانت أول زيارة من رئاسة الوزراء في بريطانيا.

لعبة القط والفأر بين ريغان والقذافي اِمتدت خلال السنة، واِستهلها ريغان بفرض عقوبات اِقتصادية صارمة على ليبيا اِستكمالاً للعقوبات الدبلوماسية. وكأن تلك الإجراءات وحدها لم تكن وبالاً كافياً على القذافي، فقد جمّد ريغان أصول ليبيا في الولايات المتحدة، (ليعوّض منها عن دفعاته لإيران!)، واِشتبك مع القوات الليبية فوق خليج "سرت" في آذار من تلك السنة، وحاصر منافذها الحيوية. لم يكتفِ بذلك فقط، بل عاود اِعتداءه من جديد وقصف طرابلس الغرب رداً على تفجير الديسكو في برلين الغربية.

أما في اليمن، حيث كانت للقذافي أصابع تمويلية، فكانت المواجهة الدموية بين حلفاء أميركا وحلفاء السوفيات على أشدها. وبعد شهر طويل من العنف والتوتر في عدن بين أنصار علي ناصر محمد (الإتحاد السوفياتي) وبين عبد الفتاح إسماعيل (الولايات المتحدة)، مَالت النتيجة لصالح أميركا بعد سقوط آلاف الضحايا. كلها "خسائر الضرورة" في قواميس لعبة الأمم. صراع الشرق مع الغرب لطالما اِمتد حول الكرة الأرضية منذ اِختلف هابيل وقابيل. إنه تناقض الزرع والمرعى، الشمس والقمر، القوي والضعيف إلخ. وعلى جبهة بيروت، كان النزاع بين الشرق والغرب شرساً، وكان كل يوم يمرّ فيها يشهد عشرات القتلى والجرحى والمخطوفين بصور وحشية بربرية. تلك كانت أسابيع حافلة بالمآسي الإنسانية على كوكب الأرض. أما في الفضاء، فقد خسرت "ناسا" سبعة من روّادها خلال رحلة المكوك "تشالنجر" بعد 73 ثانية فقط على إطلاقه من "كيب كانافيرال" بولاية فلوريدا. الحادث، يومها، هزّ العالم وضعضع برامج "ناسا" وأخّر خططها فترة طويلة. بيد أن السوفيات سرعان ما اِستغلوا الفشل الأميركي وأطلقوا محطة "مير" الفضائية بنجاح باهر، فبقيت تعمل في الفضاء قرابة عقد ونصف العقد من الزمن. وبإستثناء الشرق الأقصى الهادئ نسبياً، بدا العالم الغربي وكأنه كان ينزلق نحو المزيد من التخبّط والفوضى. وإذا ما عمّق المراقب نظرته إلى بؤر التحريض، فكان سيجدها أساساً في الزعران الأربعة، في إسرائيل وبريطانيا وفرنسا وأميركا.. هذا الرباعي الشرس، ورغم ريادة أميركا فيه، كان في الثمانينات الآمر الناهي في شؤون البشر، ومُحرّك الأرض على محورها يومياً، ومسؤولاً عن دورانها حول الشمس مرّة كل سنة! وحتى لو لم يصرحوا علناً عن نواياهم السيطرة على الأرض، كان واضحاً أن "الشياطين الأربعة" كانوا على صفحة واحدة بالنسبة إلى تغيير نظام الحكم في العالم لصالح مصالحهم. وهذه

المصالح واضحة مرّة بحجة العولمة، وطوراً بذريعة المناخ، ونوبة بخدعة التصدّي لفيروسات الخنازير والطيور والقرود والوطاويط والبقر والكلاب والغنم، دعكم عن أمراض البكتيريا والأوبئة، مثل إيبولا والأيدز، وآنثراكس، وعن غازات الكلوراين والماسترد والسارين، وعن إشعاعات اليورانيوم والقنابل القذرة وغيرها الكثير. الزعران الأربعة كانوا في الثمانينات مشغولين بالتجارب الذكية لتطوير أسلحة الدمار الشامل، النظيف منها والنتن. ولا أحد يستطيع اليوم أن يؤكد أو ينفي ما إذا كان وباء "كورونا" قد فَلت من مختبراتهم عن طريق الخطأ، أو سُرّب عمداً لتحضير العالم لتبني طرق جديدة للعمل والإدارة عن بعد، تقليلاً للتكلفة والإختلاط، أو لمنع التجمع والتظاهر، أو لأسباب أخرى.

مملكة العجائب

في تشرين الثاني 1986م تزوّج أعز أصدقائي السعوديين في جدة. وعلى جهلي بأسباب عدم دعوتي أو حضوري زفافه، كنتُ أعلم علم اليقين أن زواجه ما كان ليدوم طويلاً. إذ إن السعودية في تلك الأيام كانت دولة مختلفة تماماً عما صارت عليه منذ توَلّى الحكم الملك سليمان عام 2015م. فالمرحلة السليمانية مثّلت وَثبة نوّعية اِجتماعية متطورة جدًا عن المراحل السابقة. قبل سليمان، لم تكن السعودية متطرفة بتقاليدها الإسلامية فحسب، بل كانت أيضاً متزمتة في تطبيق التعاليم الإسلامية. كانت لديها هيئة دينية مستقوية تراقب الناس في المحلات والمعارض والأماكن العامة. وويلٌ لمَن كانت الهيئة تقبض عليه متلبّساً بعمل تعتبره مخالفاً للأعراف الإسلامية، حتى ولو بسبب وجع في الضرس أو مغص في المعدة! كانت "هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر" تتشدد في تطبيق تعاليم محمد بن عبد الوهاب

وإرشاداته السلفية. تعاليم صارمة كان يحارب بها الحكم العثماني في ولايات الحجاز واليمن وعُمان في القرن الثامن عشر. كان ذلك - كما أوضحت سلفاً - بذريعة محاربة أعمال البدع والتحديث ومدّ سكك الحديد وإقامة أعمدة التلغراف..

ورغم العمران الحديث في أرجاء السعودية (سيارات فاخرة وأجهزة إلكترونية وبُنى تحتيّة متطورة وأبراج وفنادق ومصانع إلخ)، إلا أن المملكة بقيتْ متأخرة من جوانب كثيرة. فمثلاً، لم يكن يُسمح للنساء فيها بقيادة السيارات، أو السفر بدون مَحْرم، أو الظهور بلا حجاب، حتى في عيادات النساء أو حَضَانات الأطفال. كن يُجبرن على إطاعة أزواجهن كسلطة مطلقة تتجاوز في أحيان كثيرة سلطة الدولة، أو حتى أحكام الشرع نفسها. ورغم50 سنة من اِستمرار البناء والنمو المرتبط بالنفط وصناعته، ما تزال السعودية، وهي بحجم أوروبا الغربية، صحراء شاسعة رهيبة، بِاستثناء منطقة عسير في الجنوب الغربي على طول الحدود مع اليمن. وخارج نطاق صناعات النفط والبتروكيماويات لم تكن السعودية تظهر على رادارات العالم أصلاً، اللهم إلا بصورتها النمطية عن النخيل والرمال والجِمال والزوجات الأربع! صورة العرب على أنهم بدو متخلفون وعدوانيون جاءت أساساً من نظرة هوليوود إلى السعوديين منذ أيام "قام وبلى". نظرة مُبيّتة مُجحفة ومُغرضة لأسباب سياسية وترفيهية تتعلق بإدارة الدعاية والرأي العام الغربي.

بيد أن السعودية رغم التناقضات فيها اِستطاعت أن تتغير نسبياً وتغيّر صورتها في أذهان الغرب، لا سيّما منذ أنها أصبحت عضواً في مجموعة العشرين. ولولا الأزمة الإقتصادية التي ضربت العالم عام 2008م، لكانت مجموعة السبع قد رفضت اِنضمام السعودية إليها، خاصة أنها (السعودية) كانت أكبر الإقتصادات المساهمة في تغذية

صندوق النقد الدولي في العالم. كانت دعوة مجموعة السبع لبعض الدول الغنية خطوة غربيّة خبيثة وماكرة للتعويض عن خسائرها من جهة، ولتوسيع نفوذها على حساب الأعضاء الجدد، ومنهم السعودية، من الجهة الأخرى.

شهر العسل في أندلوسيا

صديقي السعودي (عادل) ينحدر من عائلة متدينة عمل شيوخها طويلاً بالتبشير للدعوة الإسلامية، خاصة في شرق وجنوب أفريقيا. والتبشير بالإتجاهات الأربعة كان أبداً نشاطاً حيوياً تموّله الحكومة السعودية بميزانيات ضخمة، ولا سيما بين القبائل النائية بوسط أفريقيا وجزر المحيط الهندي. ومع أن عادل مسلم سني متدين، إلا أنه، بعكس الكثير من المسلمين، لم يفرض إسلامه يوماً على أصدقائه غير المسلمين أو الملحدين، أقله من تجربتي معه. بل لم يحدث أبداً أن عبّر عن اِستيائه من آرائي المتمردة وعاداتي المتحررة. فصداقتنا كانت مثالية وأكبر من أي اِختلافات مذهبية أو قومية أو سياسية. لم يكن للدين مطرح في العلاقة بيننا، إذ إنها كانت موضوعية حقيقية مبنية على الإحترام المتبادل والمودة والثقة.

عادل، وبدون سبب واضح، اِختار "أندلوسيا" لقضاء شهر العسل. مَن يدري، فلربما حنّ بعروقه إلى أيام الأندلس، وهي ما زالت نابضةً عند الكثيرين في الوجدان العربي - الإسلامي. الملفت حقاً أن الأوروبيين العاديين لا يعرفون لغاية اليوم أن حكم العرب في إسبانيا آنذاك كان مثل حكم الأميركيين اليوم لجزر هاواي، أو إلى حدّ ما، أشبه بما كان عليه حكم البريطانيين لهونغ كونغ قبل إرجاعها للصين عام 1997م. كثيرون من الإسبان ينحدرون من أصول أوروبية - كاتلونية مسيحية، لكن أُجبروا على نظام "الذميّة" بواقع الهيمنة

الإسلامية. المفارقة أن العرب، كقوم "جزيري"، لم "يفتحوا" إسبانيا بأنفسهم حسب الإنطباع السائد، بل إن مَن دخلها طارق بن زياد (الأمازيغي) (711-718م) بأوامر موسى بن النصير (العراقي) ومعه 8000 مقاتل. وهكذا، تأسست الأندلس بعضلات المقاتلين "الأمازيغ". وهؤلاء أقوام عريقة منتشرة بشمال أفريقيا اِعتنقت الديانة الإسلامية، وشكّلت رأس حربة لإجتياح إسبانيا باسم الإسلام عامة. لكن إخضاع إسبانيا للسيطرة الإسلامية لم يؤثر إطلاقاً على ممالك شمالها (نفارا وأراغون وأستورياس وليون وقشتالة)، ولا على بقية أوروبا. كثيرون لا يصدقون أن غزو إسبانيا والبرتغال لم يكن ممكناً لولا أن الإسبان أنفسهم رحّبوا بالغزاة المسلمين لأسباب التناحر الداخلي والمنافسة بين حكامهم. إنهم ببساطة أرادوا الخلاص من تعاسة العيش. والأمر يومها كان أشبه بترحيب الفرس والروم بدخول العرب والمسلمين إلى مناطقهم بسبب التناحر بينهم والأمراض والإضطهاد إلخ. ولو لم يكن الناس "مفعوصين" بين نزاعات الفرس وبين الروم وعلى شفير الكفر والموت، لما تمكن العرب أصلاً من فتح بلاد فارس والشام ومصر بأعداد متواضعة من المقاتلين، ولما دخل الناس أفواجاً في الإسلام من كل فجّ عميق خلاصاً من ظلم الفرس والروم.

ولئن كان هناك شيء بليغ اِشتهرت إسبانيا به تحت الحكم الإسلامي لسبعة قرون تقريباً (713م-1490م)، فهو صفاء العيش المشترك بين المسيحيين والمسلمين واليهود. لكن الفترة الأندلسية اِنتهت أولاً بسبب المواجهات بين الإسبان والعرب، ثم بسبب تراكم التناقضات بين "الشوام الأوائل" (أوائل العرب الواصلين إلى الأندلس أيام الأمويين) وبين "الشوام المتأخرين". ثم، بين العرب عموماً من جهة وبين الأمازيغ من جهة أخرى، ثم بسبب نعرات عرب الجزيرة أنفسهم بين

"العدنانيين" وبين "القحطانيين"، فضلاً عن صراعات الأجيال مع "المولودون" الذين وُلدوا في الأندلس من أصول عربية وتنصروا أو تهودوا. وهكذا، اِندثرت الأندلس إلى غير رجعة وأنتجت في نهاية المطاف إسبانيا التي نعرفها اليوم. العجيب أن إسبانيا التي نعرفها اليوم خالية دينياً وثقافياً من أي تأثير إسلامي أو عربي على حد سواء رغم 700 سنة من الإحتلال المستمر. هذه مفارقة في غاية الأهمية بالمقارنة إلى "الإستعمارات" الأخرى.. ذلك أن المستعمرات السابقة للبرتغال في البرازيل وأنغولا والموزمبيق، مثلاً، ما زال يتكلم سكانها الأصليون البرتغالية بفخر واِعتزاز. وكذلك هو الأمر مع الإسبانية في معظم دول أميركا الجنوبية. أما الإنجليزية، فحدث ولا حرج! بل حتى الدولة العثمانية نفسها تركت خلفها كيانات ما تزال تنطق بالتركية مثل شمال قبرص، وكوسوفو، وشمال مقدونيا، وأجزاء من بلغاريا واليونان، فضلاً عن جيوبٍ في البوسنة وشمال العراق.

***

صديقي عادل اِختار برنامجه لشهر العسل من خلال شركة بريطانية متخصصة في معالم شبه جزيرة إيبريا والمغرب. كانت فكرته أن يقضي أولاً يومين معنا في لندن ليعرّفنا على عروسه (غادة) ويتسلم حجوزاته وينطلق معها إلى "أرض الأجداد". في اليوم الموعود، طلّتْ علينا العروس بزيّ سعودي والحناء ما زال نضراً على يديها. حسناء يافعة رائعة الجمال والأنوثة. زوجتي وأنا اِندهشنا فعلاً كيف لم تكن مُحجبة، وكيف لم تَبدُ سعودية بأي شكل من الأشكال رغم لبسها التقليدي. كان أسلوبها "مودرن"، وحديثها مواكباً لمجريات العصر والأحداث. تلقت تعليمها الجامعي في الولايات المتحدة، وكانت على دراية تامة بـ"الثقافة والقيم الغربية". لكن ما صدمنا حقاً أنه لم يسبق لهما أن اِلتقيا سوى ثلاث مرات، ما يعني بلغة الدارج أن زواجهما

كان "مُرتّباً" حسب العادات والأعراف. والزواج التقليدي في السعودية غالباً ما كان يومئذ يُدبّر بين العائلات والمعارف بمعزل عن مشيئة العروسين ومشاعرهما. الموضوع مُعقّد وله فلسفة اِجتماعية خاصة لا علاقة لها بالضرورة بتعاليم الإسلام أو بالثقافة العربية.

وَدّعنا عادل وغادة وتمنيّنا لهما التوفيق بشهر العسل! لكن لم يمرّ يومان فقط بعد مغادرتهما، حتى رنّ جرس الهاتف بمكتبي في لندن، وإذا بعادل معي على الخط! "كيف شهر العسل معك يا عزيزي؟". سألته ببراءة الأطفال ولهفة المتطفلين. "الواقع أنني أتصل بك لخدمة! هل لك ولزوجتك الإنضمام إلينا غداً مع عطلة نهاية الأسبوع"؟ سؤاله الغريب أخذني على حين غِرة، فسألته للتأكد: "هل تقصد غداً "غداً" في إسبانيا؟". عندها فقط شعرتُ أن شيئاً ما كان يستوجب القفز إلى إسبانيا بأقل من 24 ساعة؟ أخبرته أني سأناقش الأمر مع زوجتي وأعود إليه فوراً. اِتصلت بالزوجة المصون وكان رد فعلها مشابهاً لردي ولم تبدِ تحفظاً على المشوار، بالنظر إلى أننا كنا أصلاً على وشك البدء بأجواء نهاية عطلة أسبوع طويلة. لم تكن لدينا أسرة بعد، ولا اِرتباطات اِجتماعية ولا مشاكل عائلية! وعلى الفور اِتصلت بعادل وبَشرّته، لكن حذرته أن وصولنا سيكون رهناً بما سيتاح لنا من وسائل نقل، خاصة مع وجودهما في منتجع يبعد بضع ساعات عن أقرب مطار إليه! عادل كاد يطير من الفرحة وأصرّ عليّ الإسراع وكأن المسألة كانت مُلحّة وطارئة.

بيد أن الأمر لم يكن كما توقعنا. جلّه أن كل منهما كان يريد طرفاً ثالثاً لمساعدته على كسر الجليد بينهما. فالزاوج المُدبّر ليس سهلاً أو مثيراً كزواج الحبّ والغرام. والعلاقة بينهما كان يشوبها خجل وتكلف وتحفظ وما شابه من رموز الإحتراس والعفاف والبراءة. لكن ما إن دخلنا على الخطّ بينهما حتى أخذ الموضوع مساراً آخر على نبرات

صوتي العالية وثرثرة زوجتي العاتية. قرار عادل بدعوتنا إلى الإلتحاق بهما كان بالفعل نبيهاً وصائباً. إذ اِنتهى الأمر بي وبزوجتي إلى تمديد عطلتنا معهما وقضاء "أسبوع عسل" كنا نحن أيضاً بحاجة إليه لأسباب مختلفة. وكما يفعل العشاق عادة، قمنا جميعاً بزيارة العديد من المدن والمعالم السياحية، ولعلّ أهمها كان قصر الحمراء في غرناطة، وجامع قرطبة الكبير، وقصر الجعفرية، وبلدة ميخاس الرومانسية. وبنفس الحماس والأهمية تسللنا إلى مطاعم مُخضرمة وديسكوهات شبابية صاخبة وبرّاقة. وبهذا السياق لم يكن الديسكو في تلك الأيام معروفاً أو مقبولاً في السعودية، بل حتى كلمة "مرقص" كان ذكرها شيئاً مُستهجناً مُعيباً في أرض الحرمين، مكة والمدينة.

الرقص الحلال

كان من دواعي سروري وزوجتي مشاهدة عادل وزوجته وهما يرقصان على أنغام الفلامنغو الإسباني والبوب الغربي. كان ملفتاً أن أراه يتمايل يميناً ويساراً على صوت الموسيقى، بدل النخّ والركع على تكبيرات الصلاة. لا أخفي أني تساءلت ضمراً ماذا لو شعر عادل بالرغبة في الرقص مع زوجته بعد عودتهما إلى السعودية؟ بيد أن السؤال نفسه لم يكن واقعياً لأن السعودية آنذاك لم تكن تسمح بقيادة النساء للسيارات أساساً، دعكم عن الرقص والإختلاط مع الرجال. فالأمر يومها كان بِاستحالته يشبه اِستحالة قيام "العبيد" السود قبل قرن من الزمن بالرقص مع البيض، أو لعب البولو معهم، أو البريدج، أو الغولف أو التنس. فهذه النشاطات كانت لغاية السنوات القليلة الأخيرة محتكرة للبيض فقط. والعقل المسيحي الأبيض آنذاك لم يكن يتصوّر يوماً أنها كانت ستتاح "للسود" أو للتنافس فيها معهم. كان من غير المعقول أو المقبول في تلك الأيام أن تسمح السعودية برقص حلال

وبمهرجان وطني مختلط، دعكم عن حفلة موسيقية أو ديسكو على الطريقة الغربية. والشيء بالشيء يذكر، فحتى الغرب نفسه لم يكن فيه قبل خمسين عاماً مَن تخيّل تشريع المثلية الجنسية - على سبيل المثال. أو الأصعب من ذلك وصول إمرأة مثلية إلى منصب رئاسة الوزراء، أو اِلتحاق شخص مثلي بالجيش، أو أن يصبح رجل مثلي الهوى قاضياً، مثلاً، أو رجل دين. وعلى هذا المؤشر، ليس من المستحيل يوماً أن نتخيل إمرأة "عبدة" سوداء تصير رئيسةً لوزراء بريطانيا، أو ملكةً على عرش السعودية، أو نرى علماً فوق دولة فلسطينية مستقلة، أو تفككاً للولايات المتحدة، أو وحدة حال في كوريا وقبرص وأيرلندا. كل شيء تحت الشمس ممكن! السودان اِنقسم إلى سودانين والعراق إلى ثلاثة أقاليم ويوغوسلافيا إلى سبعة دول. الآن، وبعد أربعة عقود على زواج عادل من غادة لم أكن لأتخيل المراقص والسينما والحفلات تنتشر في السعودية اِنتشار الجِمال والأبل. بل ظهرت دور الترفيه أيضاً حتى في مكة والمدينة حيث يوجد تخطيط عملاق لنشاطات سياحية عصرية. واِستطراداً، يمكن لنا الآن تخيل أي شيء بالمطلق: عالم بلا حدود، برلمانات جوّالة، اِمتيازات (فرنشايز) للحج والعمرة ولزيارة الفاتيكان، عيادات للتحويل الجنسي والتلوين البشري وزراعة المعلومات وتضييق الثقوب وتوسيع الذاكرة.. إلخ. ولو كنتُ أعرف منذ سنين أن كل شيء ممكن على هذا النحو، لكنتُ اِتخذت قرارات مختلفة جذرياً في حياتي!

ما حدث من اِنفتاح وحريات مع السعودية منذ 2015م لا يمكن أن يُقاس ويُفهم إلا من خلال ما كان قبل ذلك من بيئة صارمة وظروف متحفّظة قاسية. السعودية أدركتْ اِحتياجات الشباب وأخذتْ تستثمر بكثافة في تطوير صناعة التسلّية والترفيه والسياحة إلى درجة أنها صارت سبّاقة في المنطقة، لا بل رائدة ومنافسة مع القاهرة وبيروت ودبي. وقد أثار هذا التطور خلافاً تنافسياً شرساً بين مصريين

وسعوديين إلى درجة أن الطرف السعودي اِعتبر السعودية أعرق من مصر، فنسب إليها قبائل نجد (وطسم وجيس وتميم وشمر) والحضارات الثمودية والقيدارية و كندة ودادان والعلّا. منطق السعوديين يقوم على أنه إذا كان يحق لمصر أن تنسب لنفسها تاريخاً بآلاف السنين قبل تسميتها، فيحق للسعودية نفس المنطق ثقافياً وتاريخياً. أما جينياً، فكما ليس هناك ربط بالحمض النووي بين خوفو وبين عادل إمام أو عبد الناصر، مثلاً، كذلك ليس هناك روابط بين عمليق (جدّ العمالقة في نجد واليمامة) وبين ناصر القصيبي أو الملك فيصل، على سبيل المقاربة. ثم إن بعض السعوديين يزعمون أن الكعبة بناها آدم آدم (الطبري)، ما يعني أنها أقدم من هرم "خوفو" نفسه! وهكذا، تستمر النقاشات التنافسية بين الأعراق على قاعدة مهزوزة لا أساس علمي لها ولا دليل. اللهم إلا إذا كان العلّم قد أخطأ عندما أعلمنا أن البشر والشمبانزي يتشاركان بنحو 96-98% من تسلسل الحمض النووي *DNA*.

وعلى مبدأ التطور الإجتماعي في السعودية، لا شك أنها مسألة وقت قصير قبل أن نرى ظهوراً لدور الأوبرا والنوادي بالإضافة إلى العديد من ميادين سباق الخيول والجمال، وربما سباق الكلاب أيضاً أسوة بأنشطة الغرب، بعيداً عن موضوع الحرام والعيب والنجاسة. ومهما كانت الأسباب الفعلية أو السياسية أو التكوينية، فإن الإنتقال الحالي في المملكة من عصر البداوة والتحفّظ إلى عصر الحداثة والإنفتاح يبدو اِنتقالاً سلساً وسريعاً، وإن لم يَخلُ من بعض التحديات والعقبات الإجتماعية واِعتراضات الشيوخ وكبار السن وبعض الناقمين والحاقدين.

وبينما كان عادل يقودنا على الطريق الدولي إلى مطعم مشهور في "الكوستا ديل سول"، "طلع" علينا من "كوع" الطريق فجأة كميون

شحن ضخم ذو عجلات كثيرة على طراز "أمّ أربع وأربعين". وقبل أن نستدرك قدرنا، أخذ عادل يتمتم صلاته بالفصحى، وراحت غادة تردد أدعية بالعامية الحجازية، وإنطلقت زوجتي ترطّن همساتها بلهجة لا يفهمها عاقل أو مؤمن. أما أنا، فصريخي كان أقرب إلى المسبّات والبذاءات اللبنانية. ورغم عتمة المكان وفداحة الإنزلاق، لم نصب ولا السيارة بأذى، وكأن الربّ يومها كان ساهراً على سلامتنا. وهكذا، طارت شهيتنا وتعكّر مزاجنا، فلم نواصل طريقنا إلى المطعم المشؤوم، وعرجنا بدلاً عنه إلى أقرب إستراحة مشعة. وعلى فناجين القهوة، هدّأنا من روعنا وعدنا إلى الجدال والقهقهة كما لو أن شيئاً لم يحدث!

"طريفة" و"طارق" و"الطرف الأغر"

قررنا ترك الأندلس خلفنا والتوجّه إلى المغرب. في الصباح الباكر كنا على الأوتوستراد السريع بإتجاه مدينة "طريفة" بمحيط جبل طارق. ربما كان إسمها مستمداً من "لطيفة" بالنظر إلى موقعها اللطيف المواجه لغرب جبل طارق مباشرة، أو ربما تحوّل من صفة "المدينة" إلى "الظريفة". إلا أن التسمية الحقيقية، حسب إجماع المصادر التاريخية الإسلامية، تعود إلى القائد الشهير، المُختلف على أصوله بين العرب والأماريغ، "طريف بن مالك". فقد ورد في السجلات أنه خدم تحت موسى بن النصير، وكان أول من إستطلع شبه الجزيرة الأيبرية وأرسى سفنه الإستكشافية ببحر طريفة (قبل طارق بن زياد بسنة كاملة). وبذلك صارت المدينة منذ البداية حصناً منيعاً وسهّلت لطارق التغطية العسكرية منه، ومكّنته من السيطرة على الجبل. والطريف بأمر "طريفة" أن طريف بن مالك فرض ضرائب على مرور السفن إليها وبجوارها، فصارت الرسوم نفسها مع الوقت

تُعرف بالـ"طعريفة" أو التعريفة أو التعرفة. لكن هناك مَن يخالف هذا التفسير ويزعم أن "التعريفة" كلمة عربية مستمدة من "العُرف"، والعُرف هو أن يدفع التجّار رسوماً على بضائعهم إلخ. لكن بصرف النظر عن السبب في تسميتها، فإن النقاش حول اسمها ألهمنا للغوص في مناقشة تاريخ الوجود العربي في إسبانيا من أصله. فبينما اِعتبرته أنا اِحتلالاً سافراً كأي اِحتلال إمبريالي في العالم، اِعتبره عادل "فتحاً مبيناً" على الطريقة الإسلامية النمطية. فراح - على الطريق إلى طريفة - يقصّ علينا نظرياته الإسلامية العربية التاريخية، لا سيما أنه كان عاشقاً للتراث العربي وفخوراً جداً به. وعلى طريقة يشوع بن نون، عندما دخل فلسطين لأول مرّة، وجعلها أرضاً لليهود، أصرّ عادل أن جبل طارق أرض عربية بالنظر إلى أن طارق بن زياد كان أيضاً أول من دخلها من العرب منذ أكثر من 1300 سنة (711م). كنا، لقتل الوقت على الطريق الطويل، نتبارى بالتهويل الثقافي ونتباهى بالعِرق والإنتماء عن غرور وخبل وجهل. لم يكن معنا حسيب، أو خبير، أو مؤرخ، أو رجل دين ليحسم النقاش بيننا.

وبغلوه المعهود، كان زعم عادل بعروبة جبل طارق مستفِزاً لي كما لو كنتُ شخصاً إسبانياً. ومَن يدري، فلربما كان سيزعم أيضاً أن طارق بن زياد كان سعودياً مثله، أو واحداً من أقربائه!؟ وعلى نفس منوال الجدل الهرطقي، قلت له: ما دام "الدخول الأول" بقاموسك هو معيار العروبة والبطولة والإنتماء، فلا بد أن الصخرة (الجبل) لبنانية وليست عربية لأن الفينيقيين كانوا أول من وطأها قبل طارق بن زياد بألفي سنة؟ وهكذا ذكّرته أيضاً أن المدعو طارق بن زياد لم يكن عربياً أصلاً، بل أمازيغياً أصيلاً. ومن يدري أيضاً، فلو كان معنا شخص إنجليزي في السيارة، لكان قد ذكّرنا، هو الآخر، أن الصخرة وشعبها وقرودها لم تعد تحت سيطرة الفينيقيين، ولا تحت نفوذ الإسبان، ولا

عادت مُلكاً للعرب. ذلك أن "الجبل" صار بريطانياً ممتازاً منذ العام 1700م. وحتى تسميته بـ"جبرولتر" الحالية، وإن كانت مستمدة أصلاً من اسم "جبل طارق"، إنما تعكس أمر الواقع الآن والمُلكية البريطانية الحالية. فالهوية الأصلية ذابت في الصراع بين الأمم وتلوثت بجراثيم الشرق والغرب معاً. وبالمثل، فإن ميدان "ترافالغار" الشهير في وسط لندن، هو أيضاً، تسمية مُحوّرة من الأصل العربي "طرف الغرب"، لكنها هي، أيضاً، تعكس أمر الواقع الآن والهوية البريطانية الحالية .وكما أن هناك كثيرين في العالم لا يعلمون أن الفلبيين سُمّيت نسبة لملك إسبانيا، فيليب الثاني، كذلك هناك مَن يجهل أسباب تسمية جبل طارق وغيره عشرات المئات من المواقع حول العالم. ومن كثرة هذه المواقع التي تحمل أسماء مركبة أو مكررة نجد حتى خرائط "غوغل" نفسها ترتكب أخطاء جسيمة، لا سيما في مواقع النزاع.

آدم شيخ العرب

عادل ينتمي إلى فكر عربي نرجسي عريض يعتبر العرب أساس كل شيء. لا بل يعتبرهم أساس كل شيء جيد ومفيد وإيجابي. نزعة نرجسية قومية ضيقة ومغلوطة. عادل ليس حالة شوفينية خاصة، أو منفصلة عن العالم العربي، أو شاذة. هناك مفكرون عرب كثيرون مثله يعتبرون حضارات الشرق الأدنى القديمة، كالسومرية والبابلية والأكادية والأشورية، اِمتداداً عربياً أصيلاً، لا بل - من شدة غرورهم وتزمتهم - يعتبرون آدم نفسه عربياً نطق بلغة الضاد وناقش شؤون الخلق بها مع حواء قبل ظهور ولديهما. وهكذا أيضاً يعتقدون أن شبه الجزيرة العربية أرض البدء والخلق، ومسقط رأس الفينيقيين والهكسوس والعماليق والأموريين والميتانيين والخابيرو وكل ما خلق الله من أقوام وما سيخلق فيما بعد؟ أما دليلهم على هذا التعصّب، فليس

مهماً بالنسبة لهم ما دام الزعم قد جاء إليهم بالتواتر من مصادر عربية أو إسلامية، وإن خلتْ من أي أساس علمي أو أنثروبولوجي. وتفسيرهم لهذا المنحى المغاير عن تفسير الإجماع العلّمي أن هذه الأقوام عربية المنشأ، إنما ألقابها السياسية ومواقعها وأزمانها هي التي تسبب التباين حسب اِعتقادهم. فالإختلاف، مثلاً، بين الأمويين والعباسيين والنبطيين والتدمريين والأندلسيين لا يُلغي (في قواميسهم) أنهم عرب! وعلى هذه النظرة الملتبسة، يزعم بعض العرب أيضاً أن الإسكندر نفسه اِنحدر من أصول بابلية نبيلة تصل بجذورها إلى حمورابي نفسه، وهو عربي آخر - حسب منطق الأموي والعباسي والأندلسي إلخ.

ففي عالم التنافس على المزايا الخاصة والمكانة الأرقى وعلى التفرد، يعتقد البعض العربي - ومنهم صديقي عادل – أن العرب نواة العالم المتحضر، بل نواة كل حضارة أو شيء متحضر في العالم. ويحاول هذا البعض دحض الإتهام بأن العرب بدو يفتقرون إلى عناصر الحياة المتحضرة في الصحراء، مثل فرض الضرائب وتشريع الأنظمة وشقّ الطرق وإقامة السجون والفلسفة وما إلى ذلك. والأدهى أن هذا البعض يزعم مكابرة واِستخفافاً أن غياب هذه العناصر من حوزة العرب ليس لأنها لم تكن موجودة من أصلها، بل ببساطة لأن علماء الآثار لم يتمكنوا من العثور على الأدلة حولها وإنشاء الروابط بينها والقرائن عليها بعد – حسب دفاع البعض!

أما وقد وصل محمد بن سلمان إلى السلطة، فهذا - برأيهم - تطور مهم يساعد على إظهار التاريخ الحقيقي للعرب. فالأمير الشاب متحمس لكشف تاريخ السعودية، وقد اِستهل عهده بالسماح لعلّماء الآثار البدء بالتنقيب المنهجي لأول مرّة في تاريخ المملكة. وهكذا، بدأنا نسمع عن اِكتشافات جديدة مثيرة ومهمة. ولعلّ أهم ما أُزيح النقاب عنه حتى الآن

مخلفات أثرية في "العلّا" شمال غرب شبه الجزيرة العربية. إذ تردد من بعض دوائر الأنثربولوجيا أن هناك عناصر بشرية يعود عمرها إلى تسعة آلاف سنة. ويعتقد البعض أن تغيّر المناخ، بما في ذلك فترات طويلة من التعرية والتصحّر، ربما يكون قد دفع سكان "العلّا" القدامى إلى الشمال الشرقي نحو بلاد ما بين النهرين قبل 4 آلاف عام، أي على الأقل قبل ظهور "الحقبة العبيدية"، مما يُعلّل أسس الحضارة السومرية – برأي هذه الدوائر. وإذا صحّت هذه الفرضية، فيكون سكان بلاد النهرين وأحفادهم وذرياتهم عرباً أقحاحاً من الحجاز، وبالتالي فإن نوح - حسب هذا البعض - عربي أصيل! والمثير للدهشة فعلاً أن بعض المنحوتات القديمة التي إكتُشفت مؤخراً في العلّا تُظهر "دلالة" على أعمال زراعة وتدجين وعظام بشر وبهائم قُدّر تاريخها بـ 12000 سنة. ومع ذلك، فمن الناحية التقنية البحتة، ما زال الحكم النهائي سابقاً لأوانه خاصة مع عدم وجود ميزانيات مستقلة كافية لإجراء الحفريات والإكتشافات المبكرة. وهذا الوضع هو ما يجعل الأرضية التاريخية خصبة للإِصطياد بالماء العكر ولجوء بعض علماء الآثار إلى تلفيقات فاضحة أو إلى إِستنتاجات فجّة، كما رأينا في كثير من حالات الخداع والتزوير في القرنين الماضيين.

لا أهلاً ولا سهلاً؟

عند وصولنا إلى مدينة "طريفة" توجهنا مباشرة إلى ميناء "الإنتقال العظيم" من قارة أوروبا إلى قارة أفريقيا. ومع أن العالم بينهما متباين جداً ومختلف كثيراً، إلا أن المسافة قصيرة وباهتة. قفزنا بسيارتنا إلى العبّارة وإستغرق المشوار أقل من ساعة واحدة إلى مدينة طنجة في المغرب. كان البحر هادئاً رغم أجواء نهاية العام، وكانت الرحلة سهلة ممتعة رغم إِكتظاظ العبّارة بالعائدين إلى ديارهم. الملفت أن الركاب

المغاربة والأفارقة كانوا "يتحدثون" بلغة لا يستطيع غيرهم فهمها، مزيجها الفرنسية والإسبانية والعربية والأمازيغية. ثم إن تدفق عشرات الآلاف من المهاجرين المغاربة والأفارقة إلى إسبانيا عبر التاريخ، لم يساعد في الحدّ من مشاعر كراهية الأجانب داخل الجماعات الإسبانية البيضاء اليمينية المتطرفة. لذا، فَمَثَل "الجار للجار ولو جار"، لا ينطبق على الدول التي تفصل بينها بحار، كالمغرب وإسبانيا، ناهيكم عن تاريخهما الإستيطاني. المغرب اِحتل الأندلس نيابة عن الشرق، والإسبان اِحتلو المغرب نيابة عن الغرب (مجازاً). وبِاستثناء عدم الإستلطاف المتبادل بين إسبانيا والمغرب، ليس هناك شيء مشترك بينهما إطلاقاً رغم التاريخ الطويل ونظاميهما الملكيين: لا لغة، ولا ديانة، ولا ثقافة، ولا حتى عادات وتقاليد. إنها فعلاً مفارقة!

عبّارتنا إلى طنجة لم يكن عليها زاد يؤكل. بيد أن المطبخ المغربي كان عزاؤنا العظيم وأملنا الموعود عند الوصول. رسونا واِلتحقنا بطوابير الوافدين على العبارة نفسها، ولم نكن بحاجة إلى تأشيرة دخول. وكالعادة، كنتُ أول المبادرين وسلّمت جواز سفري. وبلغة عربية كلاسيكية واضحة، سألني مأمور الجوازات بلا تكلّف ودون مقدمات كما لو كان يعرفني شخصياً: "هشام، لماذا أنت بريطاني؟". سؤال غريب لم يُوجّه لي مثله لا من قبل ولا منذ ذلك الحين إطلاقاً! أسئلة الحدود والمرور عادة تتعلق بأشياء تقليدية كسبب الزيارة، والمدة وعنوان الفندق، وما شابه. لكن لغرض بنفس يعقوب، رفع المأمور صوته واِستطرد لشرح سؤاله: "لماذا من بين 22 دولة عربية اِخترت بريطانيا لتحمل جنسيتها يا هشام؟". للحظة وردية خِلته يمازحني على الطريقة المغربية، فأجبته مازحاً بدوري على الطريقة اللبنانية أنني بريطاني بالتجنس لأنني متأهل من بريطانية، (ليس السبب الحقيقي

إنما تجنباً للدخول في متاهات تاريخ السفارة العراقية إلخ.) ثم درتُ رأسي إلى الوراء وأشرت له إلى زوجتي خلفي!

ولدهشتي الشديدة، كان الرجل جاداً ووقحاً للغاية. أشار إلى زوجتي بأصبعه أن تقترب منه وكرّر سؤاله عليها بنبرة عسكرية: "لماذا أنت بريطانية؟" سألها باللغة العربية كما لو كان يعلم سلفاً أنها تتقنها بطلاقة رغم ملامحها الأوروبية الواضحة. أجابته بخجل وخوف وقالت: "والدي تزوج إنجليزية". وبردها الحاسم ذاك، اِعتقدتُ أن الأمر اِستغرق مداه واِنتهى. لكن لدهشتي مرّة أخرى تابع المأمور اِستنطاقه وسألها من جديد: "ولماذا والدك تزوج من إنجليزية؟". عندها، في تلك اللحظة البائسة، فقدتُ ما تبقى من صبري وصوابي ولم يعد مستوى السكري عندي يسعفني على المنطق؛ فصرختُ في وجهه ونبّهته من تجاوزه حدود اللياقة والأعراف المناقبية والقانونية. لم أكتفِ بذلك، بل تماديتُ بغضبي واِستفزيته أن يرفض دخولنا إلى المغرب بدل إذلالنا بأسئلة شخصية سخيفة غير مبرّرة. ومع تلك الشوشرة الفاضحة، تراجع قليلاً وأمرني بضبط أعصابي تحت طائلة المحاسبة، وقال "كلمة السر" الشهيرة وطلب منا الإنتظار جانباً. إلا أن حرصي على أن يواصل عادل وزوجته المشوار بدون المزيد من الإحراج أو التعقيد، منعني من تصعيد المواجهة ودفعني للتريث والتروي..

السعودية، تاريخياً، ترتبط بالمغرب اِرتباطاً سياسياً وثيقاً، ولديهما علاقة جيدة ومميزة. أغلبية العائلة المالكة السعودية تقضي موسم الصيف من كل عام في خلوات للنقاهة والصيد والترفيه. الملوك السعوديون والعديد من أعضاء الأسرة المالكة يمتلكون من القصور والممتلكات في المغرب ما يعود تاريخها إلى عقود طويلة. ولطالما دعمتْ السعودية المغرب ضد الجزائر في النزاع حول الصحراء الغربية. وما زالت السعودية إلى اليوم ترفض الإعتراف بمطالب

البوليساريو، بينما تساعد المغرب في تمويل مشاريع للصحراء الغربية، مما يحبط تطلعات البوليساريو إلى الإستقلال. أما في الأساس، فكانت الصحراء الغربية تتبع لإسبانيا حتى عام 1975م، إلا أن أغلبية سكانها رفضتْ الإقتراح الإسباني بالخضوع بعد ذلك لإدارة مشتركة من المغرب وموريتانيا، ما أشعل التناقضات المحلية وأدى إلى قيام جبهة البوليساريو في المقام الأول. ومنذ تأسيسها عام 1976م، وجدتْ جبهة البوليساريو نصيراً لها في الجزائر (أو ربما الجزائر أرادت نصرتها لأسباب حدودية مع المغرب). الأمم المتحدة نفسها نظرت في المسألة وإعتبرت جبهة البوليساريو الممثل الشرعي للشعب الصحراوي، وأكدت على حقه وحده في تقرير المصير. ومع أن موريتانيا سحبت مطالباتها من الصحراء عام 1979م، غير أن المغرب أحكم السيطرة على معظم أراضي الصحراء، بما في ذلك جميع المدن الكبرى والموارد الطبيعية.

والمغرب هو النظام الملكي الوحيد بين دول شمال أفريقيا، ما يجعل تفاعلاته مع الممالك العربية الأخرى فريدة من نوعها على كل الأصعدة. التوتر في العلاقات المغربية- السعودية أمر نادر، إلا أنه أحياناً يمرّ بمطبات عابرة لكن لا تؤثر على سير المصالح المشتركة. ومن هذه الأمثلة أنه عندما رفض السعوديون بشكل غير متوقع دعم ترشيح المغرب لمونديال 2026م، إنقطعت العلاقات فجأة بين الدولتين وخرجت عن نطاق السيطرة، لكن فقط لفترة وجيزة قبل أن أُعيد ترمميها بسرعة على مبدأ زوبعة في فنجان.

دخول الأبطال

وصودف في يوم سفرنا إلى المغرب أن العلاقة السعودية المغربية كانت تمرّ، دون علمنا، بلحظة صعبة من التوتر السياسي. فالأجواء

بينهما كانت قد تجاوزت الدوائر الضيقة وتسربت إلى الحدود والمعابر. اِقترب عادل وغادة نحو مأمور الجوازات ببطء شديد كما لو كانا يدخلان كنيسة أثناء قداس الأحد. فنظرا إليه بخوف واِرتباك وسلماه جوازيهما. هتف المأمور مبتسماً مُرحباً: "من السعودية؟". "أهلاً وسهلاً في بيتكم الثاني". إلا أنه سرعان ما لاحظ أنهما لا يحملان تأشيرة دخول، فقال: "اِعتذر، لن أسمح لكما بالدخول بدون فيزا". قوله ذاك وقع علينا جميعاً وقع الصاعقة، خاصة أننا كنا واثقين أن السعوديين كانوا معفيين بموجب العلاقات الخاصة بين المملكتين. كان واضحاً من كلامه أنه كان يتقصدني شخصياً بالنظر إلى أننا جميعاً كنا ضمن فريق واحد. وبما أنه لم يكن قادراً على منعي وزوجتي من الدخول إلى المغرب بواقع جوازينا البريطانيين، فقد "اِصطادني" من خلال منع صديقي وزوجته من الدخول بذريعة الفيزا. عادل ذُهل ولم يُصدق أنه كان فعلاً بحاجة إلى تأشيرة لأنه كسعودي سبق وزار المغرب عدة مرات بدون تأشيرة، ناهيكم أنه كان مقرباً من "البطانة" السعودية والسفارة في الرباط. بيد أن مأمور الجوازات أصرّ على موقفه على أساس "أن القوانين قوانين"، لكنه اِستدرك من باب الحيطة والحذر، وقال له: "أعطني دقيقة للتأكد مرّة أخرى، وتفضل اِسترح وزوجتك مع أصدقائك". لم نكن على اِستعجال في الأمر، ولم نهتم لأمره، وسلمنا أمورنا إلى القضاء والقدر.

وبينما كنا نناقش اِستعدادنا للعودة إلى إسبانيا صاغرين على نفس العبّارة، ظهر فجأة رجل مدني رثّ المظهر كريه الرائحة. اِقترب من عادل وهمس له قائلاً: "بإمكاني أن أقنع مأمور الجوازات السماح لك ولزوجتك بالدخول، لكن لكل شيء ثمن". فرك إبهامه والسبابة وإصبعه الأوسط وحركها معاً كعلامة نمطية عن المال و"البرطيل". ومع تحفظي الشديد على مواصلة الحديث مع رجل لا نعرفه،

اِستمهلني عادل قليلاً وسأله عن الثمن المقصود، فأشار عليه بمبلغ 15 دولار للتأشيرة الواحدة. المبلغ لم يكن محرزاً وكان أقل بكثير من رسوم التأشيرة نفسها فيما لو استُحصلت من السعودية سلفاً. لم يكن لدينا ما نخسره أصلاً لأننا لم "نبرطل" مأمور الجوازات نفسه، وإنما "أعطينا (حَسنة) قيمتها 30 دولاراً لمتسوّل مسكين على العبّارة". زيارة المغرب كانت تستحق مخاطرة الرشوة والبرطيل أمام اِحتمال العودة إلى إسبانيا محبطين. وهكذا، خُتم جوازهما ودخلنا جميعاً المغرب دخول عقبة بن نافع! ومن حسن حظنا أن ميناء طنجة نفسه يقع في قلب المدينة تقريباً حيث الشاي المغربي كان بإنتظارنا عند أول اِستراحة معتبرة طلّت علينا. وإذا كان من مَعْلم تاريخي ثقافي واضح يُحسب لطنجة، فهي أنها كانت من المحطات المغربية الرئيسية لإستقبال الأفواج الأولى من اليهود المطرودين من الأندلس خلال حقبة محاكم التفتيش. أما غيرهم من "الموريسكيين" المطرودين، وتعني "أشباه المسلمين" (الذين أُجبروا على التنصر)، فقد قصدوا أماكن أخرى في المغرب مثل تطوان وشفشاوان وسبتة ومليلة. كانوا أصلاً من سكان الممالك الشمالية في إسبانيا مثل فالنسا وأراغون. والملفت بأمرهم، ليس فقط أنهم كانوا آخر من أُجبر على مغادرة الأندلس، بل إنهم ما زالوا يطالبون السلطات الإسبانية على اليوم برد الإعتبار لهم. وبعكس اليهود الذين وعدت إسبانيا والبرتغال بإعادة تجنيسهم إذا ما أثبتوا صلتهم بالأندلس، فإن مطالب "الموريسكيين" معنوية فقط وتنطوي أساساً على المطالبة بالإعتذار الرسمي عن شتاتهم وعذاباتهم. وما يدعم مطالبتهم أخلاقياً أنهم كانوا رعايا صالحين في ممالك الشمال واِعتنقوا المسيحية رغم الوجود الإسلامي في الأندلس. وهنا نرى الدجل الغربي بأجلى صوره. يطالب الغربيون تركيا بالإعتذار للأرمنيين والتعويض لهم عن مظالم التاريخ، بينما لا يعبّرون مطالب "الموريسكيين" التاريخية ولا يقدّرون مشاعرهم.

وكيفما نظرنا في زوايا الأرض نرى المعايير المزدوجة سِمة جامعة بين الشرق والغرب على حد سواء.

كسكس بعمر الزمن

بعد اِستراحة في المدينة القديمة توجّهنا إلى أفخم فندق في طنجة في تلك الأيام. كان لنا فيه حجز مسبق، فأنهينا الإجراءات واِسترحنا قليلاً ثم اِنطلقنا لتنفيذ "المَهمة"! مَهمة البحث عن أكلة "الكسكس" حسبما داعبتْ مخيلتنا وتراقصت على شهيتنا طول الرحلة من إسبانيا. والمغرب، صراحة، لا يُبَاشر مشواره ولا يُكتمل بدونها، فكيف والجوع كان يعصر بنا ويصارع أمعاءنا؟ قصدنا أعرق مطعم في طنجة وأشهرها. مطعم له سمعة دولية، ويظهر في مشاهد العديد من الأفلام الأميركية مع نجوم هوليوود. كان المطعم بتصميمه "موقعاً" مثالياً فريداً لإظهار التناقضات الشاسعة بين الشرق والغرب، وبين الإسلام والمسيحية، وبين الأوروبية والأفريقية، ناهيكم عن الملامح الأمازيغية المحلية والأندلسية المجاورة. لا عجب أن كل المشاهد التي كانت تصوّر في الأفلام الأميركية كانت تؤخذ من زوايا مختلفة في صالة المطعم نفسه. فتصميم الفسيفساء وحده كان مثيراً للدهشة والإهتمام والإعجاب معاً، خاصة مع الأشكال الهندسية الساحرة على الجدران والأسقف. أما "موائد" الطعام نفسها، فكانت عبارة عن بُسُط مفروشة على الأرض ومُمَدّدة على سجاجيد مريحة مزركشة وتُفصل بعضها عن بعض بوسائد وطراريح. وما إن تجلس عليها وتسترخي حتى ترفض قدماك القيام عنها بلا مقابل أو بسهولة. إلا أن الجلوس على الأرض الخشنة لغير أهلها مزعج للغاية. ما زلت أتذكر بوضوح كم عانيتُ يومها وتألمت من قعدتي. ومع أني حاولتُ المقايضة بين أوجاعي وبين أجواء المطعم ولذة الطعام، إلا أني بقيتُ جوعاناً وموجوعاً. أما بالنسبة لعادل وغادة، كان الجلوس على الأرض طبيعةً ثانية لهما وممارسة معتادة، بل عادة عريقة تعود إلى زمن الجاهلية الأولى. وهي ممارسة نابعة بالأصل من البيئة الصحراوية حيث لا كراسي تنفع على رمل، ولا طاولات تفيد!

أما الكسكس، فكان خيالياً ليس فقط لأننا كنا نأكله في بيئته الطبيعية الأصلية، بل إيضاً لأنه كان وجبة المطعم الرئيسية ويحظى بالدلال والدلع والعناية. وهو أساساً ليس حصراً للمغرب وحده، وإنما طبق شمال أفريقيا بالعموم، أشبه بطبق الملوخية بمصر وبلاد الشام على سبيل المقاربة. ورغم أني تناولت الكسكس في أماكن كثيرة في العالم، إلا أني لا أعرف تحديداً مكوناته ولا طريقة إعداده. فهي تختلف جزئياً من بلد لآخر. لكن بالعناوين الكبرى، فإن كسكسنا في طنجة كان يحتوي على ذرة وسميد وبصل ولحم ودجاج وخضار ومرق. ولعلّ طبخه على البُخار وتقديمه بأوان فخارية ما يجعله مميزاً في المطابخ العالمية. وكما يُطبخ بطرق ونكهات مختلفة، يُسمى أيضاً بأسماء متنوعة، وإن كان حرفا "الكاف" و"السين" ملازمين لكل التسميات المسلّية، مثل كسكسي وكسكسو وسيكسيكو وسكسكو، إلخ. الملفت أن الطبق دخل عالم الثقافة من خلال منظمة "اليونيسكو" التي أدرجته على قائمة التراث الغذائي الإنساني بطلب من دول شمال أفريقيا. ومع أن تاريخ طبخه ليس معروفاً بالتحديد، إلا أن مراجع كثيرة تعود إلى القرن العاشر الميلادي ذكرته بوضوح في أماكن مختلفة من حوض المتوسط. لكن أقدم آثارات وُجدت لأواني طبخ الكسكس تعود إلى ملك أمازيغي يُدعى ماسينيسا نوميديا في الحقبة بين 148-238 ق.م. ربما "الفريكة" هي الطبق الوحيد الذي يضاهي الكسكس في الشرق الأدنى، وعمره 4000 سنة...

وكالعادة مع الأماكن، أمضينا يومنا الثاني في اِكتشاف معالم طنجة. ولا ريب أن أهم سمة فيها أنها تطل بوضوح على ملتقى بحر المتوسط بالمحيط الأطلسي، وتمثل مختبراً عضوياً لعبور البشر بين أفريقيا وأوروبا منذ أيام "أرضو" و"لوسي". ولطنجة من التراث أيضاً معالم أسطورية تتعلق بقصة الطوفان وحمامة نوح؟ ومن أشهر المعالم التي

زرناها ما يسمى بمغارة "هرقل"، وهي تحمل باسمها من الإثارة أكثر مما تنطوي عليه فعلاً على أرض الواقع. إلا أن أسوار المدينة العتيقة كانت تحفة تاريخية تعود إلى حقبات مختلفة من أيام الرومان حتى البرتغاليين والإنجليز وفترة السلاطين. وكيفما نظرنا في المدينة، كنا نرى التاريخ مسطراً على الشوارع والأزقة وعلى القبب وفي الأسواق.

سبتة ومليلة!

في اليوم الثالث، اِنطلقنا باكراً بإتجاه الشرق لزيارة سبتة ومليلة. مدينتان "إسبانيتان" لكنهما تقعان على الأراضي المغربية نفسها! أما الوضع السيادي معهما، فيشبه وضع جبل طارق البريطاني على الأراضي الإسبانية تماماً. المضحك المبكي في هذا التشابه أن الملك خوان كارلوس الأول، ملك إسبانيا، وخلال زيارته للبرلمان البريطاني في نيسان 1986م، طالب البريطانيين بإعادة جبل طارق إلى مملكته، بالنظر إلى أن الجبل جزء أصيل من إسبانيا نفسها ويقع على ذات الأرض. من الجهة المقابلة، كان جلالته يتجاهل مناشدات مشابهة من الملك المغربي بإعادة سبتة ومليلة إلى المغرب بموجب نفس المنطق الإسباني ووقوعهما على الأراضي المغربية. عجيب أمر الإسبان، يرون حقهم جلياً مبرماً في جبل طارق ولا يرون أي حق للمغاربة في سبتة ومليلة. وإذا لم يكن هذا خداعاً فماذا يكون؟

في ذلك اليوم التاريخي وقف الملك الإسباني في البرلمان البريطاني، وقدم أطروحة طويلة أمام النواب البريطانيين عن "حق إسبانيا في اِسترجاع أراضيها"، و"حق العودة"، و"العدالة"، كما لو كان ياسر عرفات نفسه يخطب عن أرض فلسطين في الأمم المتحدة. وعندما فرغ (الملك، وليس عرفات) من شرح مظلوميته، اِنبرت له مارغريت

ثاتشر وقالت بدبلوماسية إنجليزية خبيثة: "إن حكومة جلالة الملكة ترحب بكم في بريطانيا العظمى، وتؤكد لجلالتكم أنها ستفكر في الأمر بعناية، وستبلغكم بالنتيجة في الوقت المناسب". كان واضحاً من اِستعمالها لعبارة "الوقت المناسب" *(Due Course)* إنما قصدت بها أنه وقت لن يأتي أبداً، لا في حياة الملك الإسباني، ولا في حياة الملك المغربي، ولا في حياة ثاتشر، ولا في حياة الملكة إليزابيث الثانية. ذلك أن مصطلح "الوقت المناسب" اِختراع إنجليزي بمثابة تكتيك دجل ورياء مُتعمد يستخدمه البريطانيون بدهاء عندما يُحشرون في الزوايا، أو يُواجهون اِستحقاقات مصيرية حول مسائل معلّقة، مثل جبل طارق وهونغ كونغ وفلسطين وباكستان وأفغانستان ومنطقة البحر الكاريبي والعراق، فضلاً عن الفوكلاند وقبرص وتايوان وزيمبابوي. المفارقة أن العرب أيضاً لديهم مصطلح مماثل "للوقت المناسب"، وهو عبارة عن كلمة "خير"، بمعنى "إن شاء الله"، وهم يستخدمونها أيضاً رطانة لوعد مفتوح بلا أفق ليوم القيامة! ومثل موقف الإنجليز مع الإسبان، اِستعمل العرب كلمة "خير" مع الأندلسيين الإسبان للتهرّب من مغادرة بلادهم ومماطلتهم 700 سنة. الملفت، أن الإسبان لديهم، هم أيضاً، عبارة للمراوغة، وهي "مانيانا" (غداً)، وقد اِستعملوها مع مستعمراتهم للمماطلة بوعود فارغة كما في سبتة ومليلة وجزر الكناري وغوام... كلٌ يسرق من الكل، والكل يماطل الكل، والكل لديه لغة مطواعة ومصطلاحات مناسبة للتأجيل والتسويف واللفّ والدوران.

***

وصلنا إلى سبتة "الإسبانية". تقنياً، كان علينا مغادرة المغرب أولاً قبل الدخول إليها على أراضيه. كان الأمر مضحكاً مبكياً وغريباً معاً. فقط عندما تجاوزنا نقطة الجوازات المغربية مع سبتة، أدركنا أن إشكالية

التأشيرة المغربية عند قدومنا من "طريفة" كانت مجرد مسرحية مثّلها علينا مأموران فاسدان يعملان على إبتزاز المسافرين حسب الحالة أو الظروف. إذ تبين لنا أن السعوديين لم يكونوا بحاجة إلى تأشيرة دخول فعلاً رغم الخلاف العابر الذي كان قائماً بين المغرب والسعودية آنذاك. كان الفساد يومها سِمة مغربية واضحة في كل خطوة خطوناها...

الطريق الدولي من سبتة إلى مليلة طويلة ومتعرجة، لكنها كانت ممتعة وخلّابة. فالمتاجر على صفّي الطريق مصنوعة من خيم مُلونة تُعرض فيها تمور وأحذية "علاء الدين" وأدوات صيد وجلاليب تراثية وهدايا أمازيغية تذكارية وحرفيات يدوية. ومن بين أمور أخرى، كانت المنطقة - وما زالت - تشتهر بصناعة الجلود الطبيعية والتلوين والأصبغة. قطاع متخصص يديره رجال أعمال وسماسرة إسبانيون ويوظف آلاف العمال المغاربة كأيدي عاملة رخيصة، تعمل كلها لحساب أشهر بيوتات الأزياء في باريس ولندن وروما ونيويورك. كانت أغلبية المعامل الجلدية في الجانب الإسباني تحظى بوكالات حصرية لأشهر الماركات الجلدية في العالم بحيث كانت المنتوجات الجلدية تباع في عواصم الموضة في الغرب بأضعاف مضاعفة عن كلفتها. ولطالما كانت موانئ سبتة ومليلة تتناوب التبعية تاريخياً بين إسبانيا والبرتغال، وتتداور الدولتان على شحن العاج والذهب ونقل العبيد. الموانئ حافظت على تاريخها العريق ولم يتغير تأثيرها على أنشطة السوق السوداء والتهريب بين أفريقيا وأوروبا حتى بعد أن مُنحت لإسبانيا حصرياً عام 1580م. كانت سبتة ومليلة مهمتين للغاية في القرون الوسطى، وما تزالان تحظيان بحماية إسبانية شديدة ومراقبة خاصة ضد تهريب المخدرات وأفواج المهاجرين غير الشرعيين، وتحديداً منذ اِنضمام إسبانيا إلى الإتحاد الأوروبي في مطلع ذلك العام (1986م).

كان مؤلماً لنا أن نلاحظ عدم التكافؤ في مستوى المعيشة والأسعار على جانبي الحدود بين طنجة من جهة، وسبتة ومليلة من الجهة الأخرى. ورغم مصانع الجلود وحركة السياحة، فإن البطالة المغربية في المدينتين الإسبانيتين كانت من أعلى المعدلات على صعيد إسبانيا. وما زالت المدينتان حتى اليوم نقطتي جذب لآلاف التجّار وعمال الحِرف اليدوية الذين يعبرون الحدود يومياً لكسب لقمة العيش، تماماً مثلما كان الفلسطينيون يعبرون من الضفة الغربية وغزة للعمل في إسرائيل قبل "طوفان الأقصى" وحرب غزة. إن مجرد مشاهدة المغاربة يتدافعون كل يوم للحصول على تصاريح للعمل في المدينتين، وحدها مشاهدة تدمي القلوب وتثير الحزن وتدفع إلى السؤال حول النهاية والمصير من كل هذا البؤس..

وجدتها!

أنهينا مغامراتنا و"شهر العسل" وعدنا إلى لندن بهِمة متجددة ونشاط جديد. لكن ما إن وصل عادل إلى جدة، بعد إسبوع حتى سارع إلى الإتصال بي من جديد. وضعتُ يداً على قلبي وأخرى على سماعة الهاتف ورجوتُ الله ألا يطلب مني موافاته إلى السعودية لكسر المزيد من الثلوج بينه وبين عروسه!

بصوت مرتجف ونبرة مُشوّشة قال: "هشام، زوجتي فقدت عقد زفافها أثناء المشوار". ولوهلة لم أصدق ما كنتُ أسمعه. كنتُ في حيرة من أمري ولم أعرف لماذا خالجني شعور بالذنب والإحباط! المشكلة أن أياماً طويلة مرّت علينا منذ أن غادرنا المغرب. وإستطرد قائلاً : "زوجتي متأكدة أنها تركت القلادة في حمام غرفتها في فندق طنجة". وَعدته الإتصال بالفندق والعودة إليه بالمستجدات. كان مُستَهجَناً عدم قيام مسؤولي الفندق الإتصال بنا فيما لو كانوا قد وجدوا القلادة فعلاً،

خاصة أن بياناتنا الشخصية وأرقامنا كانت موجودة عندهم بموجب حجزنا المسبق. فإما أن زوجة عادل كانت مخطئة بشأن المكان، أو أن أحداً من خدم الفندق وجد القلادة فعلاً و"تناسى" تسليمها لإدارة الفندق، أو أن مَن وجدها قد اِستقال من الفندق وتقاعد بثمنها وغادر المغرب إلى جزر الكاريبي! شعوري الشخصي أن غادة فقدتْ عَقدها في أحد الديسكوات في إسبانيا على أنغام الموسيقى الصاخبة والرقص الشغوف. يومها لم أكن أعرف ما إذا كان عادل قد اِشترى القطعة من "هاتون غاردن" في لندن، أو من سوق الماس في جدة، أو من أحد مصانع المعدن في جنوب أفريقيا. لكني فهمت لاحقاً أن العقد كان موزناً وثميناً من عيار"*D*" وبنقاء "*VS*". وكم كانت دهشتنا عظيمة وحظنا من السماء عندما أكدت لي إدارة الفندق في طنجة العثور عليه محشوراً بين مسند السرير وبين الجدار! وأغلب الظن أن إدارة الفندق الغربية كانت لديها أنظمة أمانات صارمة، وإلا لكان من السهل نكران وجود العقد فيما لو كانت إدارة الفندق شرقية بدائية، أو مغربية محلية. ومن تلك التجربة، يستطيع العاقل أن يعرف أن الغالي عادة رخيص، والرخيص غالباً مكلف. معظم الفنادق العالمية تستثمر الملايين بماركاتها التجارية كمدخل للثقة والأمن والأمانة والنظافة.

الفصل الرابع عشر: معارك مع الوجدان

"بيتي يا بويتاتي"

سنوات بريطانيا من 1978م إلى 1993م كانت مضطربة جداً وحبلى بالأحداث الكبرى. فالسيدة الحديدية ثاتشر كانت في حالة حرب دائمة مع العالم بأسره. داخلياً، كانت لها معارك حامية الوطيس مع نقابات عمال المناجم والمطابع والنقل العام والسكك. خارجياً كانت منشغلة بمعارك حربية وسياسية وتآمرية ضد الرئيس غالتيري في الأرجنتين، والقذافي في ليبيا، وموغابي في زيمبابوي، والثائر بوبي ساند في الجيش الجمهوري الأيرلندي. كما شغلتها أيضاً الحرب العراقية - الإيرانية، وعملية التطبيع بين إسرائيل ومصر، فضلاً عن معاركها الدبلوماسية حول عضوية بريطانيا في أوروبا. كلها كانت قضايا ضخمة اِستنزفت الكثير من وقتها ووقتي معها! تلك الفترة كانت حاسمة لإستكمال تشكيل "العالم الجديد" على أنقاض العالم الذي كنتُ أعرفه من قبل!

وبمسؤوليات أكبر ومنصب أرفع، وصل الدور لي لأُحلّق عالياً في فضاء رحب واسع. اِشتريت بيتاً لأول مرّة في حياتي اِستعداداً لإستقبال ابنتي الأولى، برلينا. قبل ولادتها كنتُ أملكُ شقة جميلة من غرفة نوم واحدة، بالقرب من وسط لندن، تطلّ على منطقة "البندقية الصغيرة" الشهيرة. حاراتها راقية ومترابطة مستوحاة بتنسيقها ومناظرها من مدينة البندقية نفسها في إيطاليا. ورغم وقوع شقتي على الطابق الخامس من البرج الوحيد في المنطقة، كان يصلني إليها كل صباح: البريد، والحليب، والعصير، والزبدة، والخبز، فضلاً عن جريدتي المفضلة آنذاك (الغارديان). لا بل إن البريد العادي كان

يصلني أحياناً مرتين أو ثلاث مرات في اليوم. ومع أننا لم نكن نعيش في عصر السرعة ولا عصر "الديليفري" ولا الإنترنت، كان العيش سهلاً، وكنتُ أعيش مرفهاً مكتفياً. غير أن ما لفتني من تجربة الإنتقال من الشقة إلى البيت، أنني اِضطررت إلى شراء أشياء كثيرة لم أكن أحتاجها من قبل، مثل عِدة "البَستّنة" لترتيب الحديقة، وعِدة المشاوي، وكوخ صغير لبرلينا، وأسمدة للورود، وأدوية للزرع، وفيتامينات للحشيش، ومشافط لسحب ورق الشجر، وبراميل للمّ قمامة الجذوع، ومُعدات لتشحيل الأغصان، وأدوات أخرى وما إلى ذلك. اللائحة طويلة والعناية بالحديقة وحدها كانت مَهمة مُتطلبة يبدو أني لم أُخلق لها ولم أكن من هواتها. إذ إن العيش في شقة محدودة كان بسيطاً مريحاً وممتعاً، سواء مع القهوة والجريدة والبريد في الصباح، أو مع النبيذ والتلفزيون والكتب في المساء. وهكذا، صار العيش في بيتٍ بضواحي لندن فجأة عملاً مملاً شاقاً، بل أضحى كما لو كان مداورة بين أعمال النجارة والحِدادة والسنكرة والزرع والبيئة، ناهيكم عن ضرورة الإلمام بقوانين الجيرة والبلدية. كنتُ في الشقة قبل الإنتقال إلى البيت على خطوات قليلة من الحانات، والمقاهي، ومراكز الترفيه والتسوق، والمسارح، والمتاحف، والمكتبات، والموضة والشباب. أما في بيئة البيت في الضاحية، فصرت أقرب إلى مشاهدة الثعالب في الصبح الباكر، والسناجب، والأرانب، وكبار السن، ومسارح الأطفال في الحدائق العامة، وشجر اللوز والبلوط والكستناء، وعربشات الكبوش والتوت، ومناظر البطّ والقطط والكلاب والنمل والنحل والبزاق، وكل شيء يذكرك بالطبيعة على طبيعتها. ومع أنها مناظر جميلة خلّابة إذا ما تعوّد المرء عليها يوماً بعد يوم، إلا أني كنتُ كالسمكة خارج الماء بعيداً عن وسط لندن،. فالعيش صيف شتاء في بيت مع حديقة أمامية وأخرى خلفية لأول مرّة في حياتي، كان أمراً مستغرباً ومرهقاً معاً. فبِاستثناء بيت جدي في الضيعة منذ أيام الخليفة المأمون، وسكني

العابر في بدايتي في لندن، لم أسكن من قبل في بيت أرضي مستقل. المسألة معي، كانت ولا زالت، ترتبط بالتعوّد والذوق أكثر منها بالضرر أو الإستفادة. بتعبير بسيط، كان شعوري بالإنتقال من شقة إلى بيت أشبه بالإنتقال من حياة العزوبية إلى حياة الزواج – حلّوة ومُرّة في آن؟

برلينا وأنا

في يوم من أيام الربيع، أخذتُ ابنتي إلى "مول" جديد، وكان قد افْتُتح بجوارنا كآخر صرعة في موضة التسوّق العصري. برلينا، آنذاك، كانت تبلغ من العمر ثلاثة أعوام تقريباً، لكن لطالما بدتْ أكبر من عمرها منذ ولادتها. وما زلت أتذكر يوم "خَلّفَتْها" أمّها بعد 12 ساعة من معاناة الطَلَق وأوجاعه، فهبطت علينا كالبَرَد الثقيل بما يقارب 5 كلغ، وبدتْ بحجمها الضخم وهيئتها المهضومة وعينتيها الصغيرتين كدبّ الباندا يوم ولادته (بدون مبالغة). الأعجب من ذلك، أنها وُلدت بشعر أسود قاتم كثيف على رأسها أشبه بشعور أطفال قبائل الأمازون. وربما بسبب ملامحها الإستثنائية لم تزحف يوماً، ولم "تحبو" أو تتدحرج كما يفعل حديثو الولادة. في يوم مشمس في الحديقة، ولم تكن برلينا قد تجاوزت شهرها التاسع بعد، وقفت فجأة من مطرحها على الحشيش، ثم نظرت إليّ نظرة فخر واِعتزاز ومشتْ أمامي كما لو كانت أصغر عارضة أزياء في العالم؟ ظاهرة خلقية نادرة أذهلتنا جميعاً، لا سيما أن أسنانها - على نقيض مشيها - لم تنبتْ إلا بعد عامين ونصف العام من ولادتها! ومن أغرب عاداتها خلال أشهرها الأولى أنها كانت تضرب رأسها على الوسادة عشرات المرات قبل أن تتعب على "نغم" ضرباتها وتنام. كانت في كل مرّة من تلك المرات "تشقل" رأسها عالياً وترسم اِبتسامتها لتهبط بقوة كما لو كانت تقيس خوارزمية

الجاذبية. وفي أحد الأيام قررتُ اِختبار "فلسفتها" من تلك العادة النادرة، فرميت لها شرشفاً على أرض الغرفة، وبقيتُ بجانبها لأمنعها من ضرب رأسها. ويا للهول، أكاد أجزم أنها "قالت بخلدها"، وهي تنظر إلي نظرة مداعبة وشقاوة، "ليست عليّ يا بابا"! لقد اِستشعرت بالفيزياء والفطرة والغريزة أن الأرض صلبة، وغير السرير، فلم تضرب رأسها ولم توجع رأسي. وضعتْ خنصرها بفمها، على عادتها، ونامت تلك الليلة بدون "أنغامها"...

ومع بداية خطواتها الأولى، كان علينا أن نبحث لها بكل أرجاء بريطانيا العظمى عن حذاء يناسب ضخامة قدميها. كنا غالباً ما نوصي على أحذيتها من عيادات طبية متخصصة، أو نشتريها من أقسام النساء في محلات الأحذية. وفي ذلك السبت الربيعي في "المول" الجديد، كنتُ في مهمة البحث عن حذاء جديد لها. وعلى غير عادتي وُفّقت يومها من أول محل، وكانت برلينا مسرورة جداً بحذائها الجديد، فتمسكتْ بصندوقه ضمن كيس المحل وضمته إلى صدرها بحرص وحذر، فيما توجهتُ أنا لدفع ثمنه فخوراً بإنجازي العظيم!

***

التفتُ إلى برلينا، فلم أجدها. فجأة طارتْ، تبخرتْ، ضاعتْ مني في زحمة المحل واِزدحام السوق. لم أغب عنها أكثر من ثانية واحدة ولم تغب عن نظري لحظة. ولو حلّفوني اليوم بكل الكتب السماوية والدينية، لأقسمت أنها لم تتحرك قيد أنملة من تحت عينـي. إلا أن الوهم شيء، والواقع شيء آخر! وعلى الفور طلبتُ من موظفي المحل - وكان له بابان - أن يبحثوا لي عنها داخل المحل، وتحت المقاعد، وفي الحمّامات! أما أنا، فركضت من المحل، كمن يهرب من لهيب حريق، أفتش عنها كالمجنون في الشوارع المحيطة والمحال المجاورة. كنتُ أنادي على اسمها بما يكسر حاجز الصوت ويصل إلى مسامع الصقور

في أعالي الجبال وإلى الصُمّ في قعور الوديان. كان اسمها يطلع من كعب أحشائي وليس من أوتار حنجرتي. الناس من حولي كانوا يبادلونني تعابير الإستهجان والأسف، ويرمقونني نظرات العطف والشفقة. فكنت بينهم كالثور الهائج في إحتفالات توليدو، لم أر شيئاً من أمامي ولم أشعر بشيء من حولي. كنتُ أبحث فقط عن طفلة تشبه أطفال الأمازون! وحده الله يعرف ما كان يدور برأسي ويسري بعروقي في تلك الأثناء! فبالإضافة إلى خوفي على سلامة ابنتي، وجزعي من عجزي عن العثور عليها، كان فكري يأخذني إلى مطارح أكثر إيلاماً ويطرح عليّ اِسئلة أقل ما يقال فيها إنها كانت مميتة قاتلة. ماذا لو أن متحرشاً رذيلاً خطفها؟ كيف سأرجع إلى البيت بدونها، وماذا سأقول لأمّها؟ ففضلاً عن غضبي من نفسي وألمي، برلينا كانت أيضاً أمانةً برقبتي، فكيف لا أرد الأمانة لأصحابها؟ ثم كيف وبماذا أعوّض عنها لجدودها، وقد كانت أول حفيدة لهم في العائلتين؟ أسئلة عنّتْ على بالي بسرعة الضوء في خضم البحث عنها، لكن العثور عليها في نهاية المطاف كان عندي أهم من أمّها وجدودها وحياتي معاً.

بعد نصف ساعة من البحث والعبث رجعتُ إلى المحل لأتحرَّى إن كانوا وجدوها فيه! كنتُ ألهث متعباً، لا سيّما أنني كنتُ يومها من المدخنين الشرهين. كنتُ محروق القلب، مكسور الخاطر، ضائعاً تائهاً ولم أتلقَ من خواطري سوى التأنيبات والتوبيخات. كيف لناضج مثلي أن يفقد طفلة مثلها؟ وبلحظة دخولي إلى المحل أعادتْ الذاكرة عليّ وجه أمّي يوم ظنّتْ أن البحر بَلعني عندما كنت في الخامسة من عمري. وحده ربّ العالمين يعلم كيف شعرتْ والدتي خلال تلك الساعات الطوال! هناك أمور لا يفهمها المرء في حياته إلا بعد الإنجاب. مارغريت ثاتشر، ورغم مكانتها العالمية، فقدت أعصابها وانهارت يوم أخبروها بضياع ابنها مارك في صحراء الجزائر أثناء رالي "داكار" في مطلع 1982م. فنزعتْ قناع المرأة الحديدة عن

وجهها، وضربتْ مصالح بريطانيا العظمى بعرض الحائط، بما فيها التحضير لحرب فوكلاند على بعد ثلاثة أشهر فقط. صارت ثاتشر يومئذ فجأة أمّاً طبيعية كأي أمّ أخرى في غابات الأمازون، أو جزر الفوكلاند، أو حماة، وصار ولدها كأي ابن آخر في العالم!

نظر موظفو المحل إلى عيوني كما لو كانوا يتوقعون أن تكون برلينا معي (!). فهمتُ من نظراتهم أنهم هم أيضاً لم يجدوها لا تحت مقعد، ولا في حمّام، ولا خلف خزانة. أُسقط في يدي، وأخفضت رأسي، وبدأتْ اِنزلق في متاهة الحيرة وهوة اليأس. فجأة، ومن سواد العدم، طلّتْ برلينا علينا كما يطلّ البدر كاملاً من وسط الضباب. وللحظة، لم أصدّق عينيّ عندما رأيتها تدخل إلى المحل برفقة إمرأة خمسينية. لا بد أني كنت أكثر الآباء حظاً وسعادة على وجه الأرض في تلك اللحظة. لم أركض نحوها، ولم أنادها باسمها، "جمدتُ" بأرضي كما لو أن القطب جمّدني! رمشتها من طرف العين واِنفجرتُ "ضاحكاً" بطريقة هيستيرية "غاضبة" قطعتْ الشعرة بداخلي بين اليأس والفرج. سارعتُ إليها كما تسارع اللبوة لنشل شبلها، وحضنتها كما لو كنتُ أحضن ابنتي الوحيدة بعد ضياع!؟ بيد أن برلينا، لم تشعر بشيء سوى بفرحتها لأنها كانت تمسك حذاءها وتبتسم ببلاهة الأطفال. ولولا كيس المحل بيدها لما تنبهتْ فاعلة الخير الخمسينية لاسم المحل، ولما أرجعتْ برلينا إليه. شكرتها على نباهتها وحسن تصرفها وعانقتها عناق العاجز عن التقدير والإجلال. ووددتُ بحرارة اللحظة أن أعطيها صادقاً كل ما كنتُ أملك، أو أقدم لها شيئاً يعبّر عن اِمتناني وفرحتي وراحتي، لكنها اِكتفت بنيتي، وبتقبيل برلينا، وبتصفيق موظفي المحل. سلوكها النبيل لم يكن اِستثنائيا منفصلاً عن ممارسات الكثير من الإنجليز في ذلك الزمن الجميل. تلك كانت عموماً أخلاقهم وطبيعتهم الثانية في التعالي عن التقدير المادي.

حملتُ ابنتي مثل الكنغر على صدري. لم أشأ التخلّي عنها إلا لحضن أمّها. دقيّت الباب بهبل وجنون، ولما فتحته، رميتُ لها برلينا مع حذائها كما يرمي الحطّاب حمله، وهربتُ منها إلى الغابة القريبة بلا كلمة أو تفسير! نادتني بأعلى صوتها، لكن لم أكترثُ ولم أبال! تركتُ برلينا تشرح لها ما حصل معنا على طريقة "شاهد ما شفشي حاجة". جلّ ما أردته بتلك اللحظة أن أكون وحدي، وأن أطلق العنان لدموعي تطفئ لهيب غيظي، وتعيد إليّ رشدي. عجب العجب أني اِختبرتُ بظلال الشجر أقصى أنواع الحزن والفرح في آن. كان حزناً مفرحاً وألماً مريحاً. وربما أقرب شعور لما شعرته في تلك اللحظات، مع فارق التشبيه طبعاً، كان يوم فقدت جواز سفري بعد عودتي من العراق، فوجدته في السفارة في اليوم التالي. بل ومن خلال تجاربي اللاحقة في الحياة، بِاستطاعتي أن أؤكد الآن أن فقدان وظيفة، أو وفاة عزيز، أو خيانة حبيب، أو هدم منزل، أو ضياع جنى العمر، أو خسارة قضية في محكمة، أو فقدان إصبع أو حتى بَتْرُ يد، وسواها من مسائل مصيرية - كلها يتضاءل وقعها وتنحسر عواقبها مقارنة بسوء يصيب طفلك قرة عينك! شعور غريزي رهيب كاسر. وكما كُتبتْ لي من قبل حياة جديدة بعد تجربة العراق، كذلك كُتبتْ لي حياة أخرى بعد العثور على برلينا. لكن إيجاد أطفالنا في الحالات الحرجة أو إنقاذهم من تحديات الزمن، لا يعني بالضرورة أن بِاستطاعتهم أن يجدوا أنفسهم عندما يكبرون وسط مشاعر الأسى والحزن من آلام الطفولة في عالم يحركه "التيك توك" والإنترنت والذكاء الإصطناعي.

يهودي على الأصول..

بالإضافة إلى نشر الأخبار وتلميع الدور السعودي، كانت جريدة "الشرق الأوسط" على أيامي بمثابة وكالة "علاقات عامة" تخدم

العائلة المالكة وتدير صورتها الدولية من لندن. كان كبار موظفيها وصحفييها يحصلون على مزايا مادية مغرية ومعاملة تفضيلية. فكانت رواتبهم ومخصصاتهم "دسمة" جداً إلى حدّ أنها كانت مطرح حسد وغيرة من معظم صحافيي لندن وإعلامييها. من حسن حظي أني كنتُ واحداً من أولئك المحظيين الذين أُنيط بهم إعداد مقتطفات عن أقوال الصحف العالمية حول شؤون العائلة المالكة. فكان أبرز الأخبار وأدق التعليقات و"زبدة" التحليلات ترسل من قِبلنا أسبوعياً إلى صنّاع القرار في المملكة، وإلى كبار رجال الأعمال والدبلوماسيين ومستشاري الحكومة والسفارات. كانت أكوام القصاصات تصلني من وكالات إخبارية عالمية متخصصة بـ"رصد" الأخبار المنشورة حسب اِختيار موضوعاتنا واِهتماماتنا، فكنا "نتصيد" منها التغطيات المميزة من مطبوعات العالم بعدة لغات. كان عملي آنذاك (قبل الإنترنت وأجهزة التواصل الذكية والأدوات الرقمية) يتطلب الإستعانة بالكثير من المتعاقدين ومصممي الغرافيك وقراء القصاصات بصورة دائمة. فكان إصدار "النشرة الإخبارية الأسبوعية" (150- 200 صفحة) يعتمد على جهود نوعية من الخبراء بشؤون المملكة ومتابعي أخبارها، فضلاً عن جهود مترجمي القطعة، وهو ما كان يستهلك جزءً كبيراً من الميزانية المخصصة.

يوسف، كان أحد هؤلاء المترجمين بالقطعة وزميلاً عزيزاً. كان يتمتع بشخصية فلسفية لطيفة هادئة ومسالمة. وقبل ولادته بأعوام قليلة، هُرّبَ أبواه وإخوته من اليمن ضمن عملية "بساط الريح" السرّية التي نفذتها الوكالة اليهودية لتهجير اليهود إلى إسرائيل في أعقاب النكبة. كانت العملية قد سبقتها تفجيرات مشبوهة في أماكن اليهود في اليمن والعراق وتونس، فصُورت العملية لهم على أنها الخلاص من جحيم الترهيب والعبودية وسط العرب. والعملية نفسها لم تكن لتتم بدون دعم

المخابرات البريطانية ومباركة الملك فيصل الثاني في العراق والإمام أحمد في اليمن الشمالي والحبيب بورقيبة في تونس. ورغم أن اليهود في اليمن والعراق وتونس لم يشكوا من المعاملة المحلية أصلاً، ولم يطلبوا الإنتقال إلى إسرائيل، إلا أن التهجير رُوّج له بينهم على أنه مشوار الخلاص إلى "أرض الميعاد" كما في وُصفت في التّوراة. وبعد ولادة زميلي يوسف بثلاثة أعوام في أرض الميعاد، وعلى أنباء "سرقة" إسرائيل الأطفال من ذويهم لأسباب التنشئة بمعسكرات التأهيل للأجيال التالية، هَربت عائلة يوسف من إسرائيل واِستقرت في مدينة برمنغهام البريطانية، وكانت يومئذ تبدو "مستعمرة" يمنية صغيرة نمت منذ الأربعينيات. كان يوسف معجزة لغوية، موهوباً ومتمكناً من العبرية والألمانية والفرنسية، بالإضافة إلى لغتيه الأمّ الإنجليزية والعربية. وباستثناء دردشات عابرة معه، لم أكن يومها (منذ 41 سنة) أعرف الشيء الكثير أو المفيد عن اليهود بالعموم، ولا عن تاريخهم في اليمن خصوصاً، ناهيكم عن أسباب وجودهم في بريطانيا أصلاً. كل ما كنتُ أعرفه جيداً كان يدور حول "يثرب" وفلسطين والأندلس. الأكيد أن موضوعهم مُحيّر لدرجة أنه لا يوجد إجماع أكاديمي عن أصولهم بِاستثناء ما ورد في التّوراة نفسها، أو اِعتماداً على التفاسير التلمودية. ومنذ صدور كتاب كمال الصليبي عن أصل اليهود في منتصف الثمانينيات من القرن الماضي، فرّخت الكتابات التوراتية شرقاً وغرباً، ولم يبقَ مهتم أو باحث توراتي إلا وغطس في بئر التخمين والإجتهاد حول أصولهم. منهم مَن أرجع اليهود إلى جذور أمّورية، ومنهم مَن اِعتبرهم من عوائل الفراعنة، أو عرباً بدواً، أو يمنيين من سلالة بلقيس. ومنهم من رآهم أحفاداً للهكسوس، أو عبيداً من نوبيا، أو الحبشة، أو أو أو.. لكن لغاية اليوم لم يظهر أحد بعد بأدلة قاطعة مبرمة تدحض أو تؤكد أياً من المزاعم والأقاويل. وإلى أن يظهر النبأ اليقين، ستبقى أغلبية الناس تعتمد على

التّوراة مصدراً أكيداً، وإن كانتْ هي نفسها لم تذكر أشياءً كثيرة عن مصر التي زارها إبراهيم وأخذ هاجر منها وعاش حفيده يوسف فيها؟ التّوراة لم تذكر النيل، مثلاً، ولا الأهرامات ولا "أبو الهول" ولا الهكسوس، ولا حتى نفرتيتي وأخناتون وغيرهم الكثيرين. كيف ذلك وقد عاش اليهود في مصر قروناً من الزمن، وهربوا منها وتاهوا في صحرائها؟ هروبهم عبر سيناء كان أسطورياً من أبرز قصص التّوراة، لا بل إن التّوراة بدأت به مباشرة بعد رواية الخلق تحت عنوان "الخروج"! ومع أني زرتُ اليمن فيما بعد عدة مرات، وقابلت مؤرخين يمنيين وحكواتيين ومرشدين سياحيين، فإني ما زلت عديم المعرفة بتاريخ اليهود الحقيقي لأن روايتهم مشبوهة حتى من قِبل أهل الإختصاص أنفسهم!

وبالإضافة إلى موهبته اللغوية وطلاقة لسانه، كان يوسف "رزمة" تناقضات فكرية وثقافية غريبة. فمن ناحية كان شيوعياً ملتزماً، ومن ناحية أخرى يهودياً متديناً، ثم كان ناصرياً عروبياً متحمساً يعيش وفقاً لمجموعة من المبادئ و"القيم الإنسانية العظيمة". كل شيء في الكون كان - حسب قناعته - يُقاس بقدر المعاناة والنضال البشري. ونزولاً عند رغبتي، وعلى "زجاجات" بيرة في أحدى الأمسيات، أوضح لي يوسف قناعته الشخصية أن اليهود هم الشيوعيون الحقيقيون، لا سيّما أنهم تحمّلوا أعمال السخرة والأشغال الشاقة والإستغلال المهين على أيدي الفراعنة أثناء بناء الأهرامات! إلا أن كلام يوسف ذاك كان أكثر رومانسية من أن يؤخذ على محمل الجدّ، خصوصاً أن آخر الأهرامات، أي هرم "خفرع"، بُني قبل ولادة إبراهيم بقرون طويلة. ما يعني أن اليهود "يتمنون" لو أنهم كانوا قد عملوا بالسخرة فعلاً على بناء أهرامات مصر، أو لعبوا يوماً بحضن أبي الهول أو بذقنه قبل اِختفائها بعوامل التعرية والتصحر! وبسياق منفصل، ذكّرني بما قاله مرّة رئيس الوزراء الإسرائيلي مناحيم بيغن لأنور السادات عن دور

اليهود في بناء الأهرامات، بل أضاف يوسف على دور البناء، مساهمات اليهود في صيانة الأهرامات، كما لو كان الغرض من زعمه أنه حتى لو شكك أحد في نظرية بناء اليهود للأهرامات، فلن يستطيع التشكيك بنظرية صيانتهم لها. غير أنه لم يخبرني بردّ السادات على زعم بيغن؟ وكأن ذاك الزعم وحده لم يكفِ عن "إسهامات" اليهود في مصر، اِدّعى يوسف أنه لولا وجود اليهود وشقائهم الأسطوري في مصر، لما نجا إرثهم اليهودي واِستمر متماسكاً كل تلك القرون الطويلة!

ورغم ثقافته العريضة وشيوعيته وعلمانيته، كان يوسف فخوراً بتراث أجداده اليهود، ومعجباً بمحافظتهم على معتقداتهم وثقافتهم ولغتهم وفولكلورهم مستمرةً بلا اِنقطاع حتى اليوم. وهذا - برأيه - دليل خارق على أن اليهود مؤمنون حقيقيون بمبادئ سليمة وقوية صمدتْ بالذاكرة الجماعية والعناد أمام اِختبار الزمن! مرافعة شغوفة قدمها لي عن قناعة وفخر. لكن كان عليّ أن ألفت نظره إلى أن فكرة صيانة الأهرامات من قبل اليهود إنما بدعة ذكية من اليسار اليهودي للتوفيق بين معتقداتهم الشيوعية (عمال وبروليتاريا) وبين معتقداتهم اليهودية! ثم كيف يتجاهل الشيوعيون اليهود العناصر الأصلية المرتبطة بدينهم وابراهيم. ألم يكن البطريرك نفسه برجوازياً عتيداً؟ ألم يلتقِ بفرعون العصر وكان عنده سلطة ورجال ومواش وأراض مطوّبة باسمه، فضلاً عن الهدايا التي أتحفه بها الفرعون نفسه بما فيها زوجته هاجر؟ - وفقا للكتاب المقدس!

اليهود عرب

ولغاية اليوم ما زلنا نجهل أصل اليهود... لماذا اِستقر بعضهم في اليمن أو الحجاز أو إثيوبيا مثلاً. هناك فرضيات كثيرة مختلفة عن أصولهم

وتحركاتهم، أشهرها أن مجموعة من الأعيان اليهود والأثرياء فروا من فلسطين إلى اليمن قبل تدمير الهيكل مباشرة حوالي 630 ق.م، وتحديداً بعد نبوءة إرميا بالكارثة! بينما هناك مؤرخون آخرون يعتقدون أن اليهود اليمنيين يعودون إلى أبعد من ذلك التاريخ، تحديداً إلى سلالة وكلاء الملك سليمان التجاريين وممثليه في مملكة سبأ، أي حوالي 950 ق.م. الأطرف من ذلك كله أن بعض المؤرخين يعتقد أنه يمكن إرجاع الجالية اليهودية في اليمن إلى تاريخ أبعد من تاريخ سليمان نفسه، وتحديداً إلى أولاد موسى من زوجته الحبشية - اليمنية "صفّورة" عام 1240 ق.م. وهكذا، يكون يهود اليمن وفقاً لبعض المؤرخين هم المؤمنون الأصليون، وهم عرب من اليمن أنقياء لم يغادروا شبه الجزيرة العربية أبداً. أي إنهم لم يختلطوا مع مؤمنين من نوع آخر ولم يتلوثوا بإعتقادات أخرى. ووفقاً لهذه النظرية، تمكن يهود اليمن من الإحتفاظ بخصائصهم الأصلية لأنهم بقوا معزولين جغرافياً في اليمن حتى يومنا هذا، وإن غادر الكثير منهم إلى إسرائيل بعد النكبة وبعد النكسة تباعاً. وربما في هذه الميزة المُهمة ما يُفسّر سبب تعامل الوكالة اليهودية العالمية والعديد من المنظمات اليهودية الأميركية مع يهود اليمن بإهتمام خاص وإحترام فائق كما لو كانوا فعلاً غير ملوثين بجينات دخيلة! ومن شدة إهتمام الوكالة اليهودية العالمية بيهود اليمن، مثلاً، أنها تنظم رحلات سنوية إلى صنعاء لإحتضانهم وتقديم أموال لهم من خلال تبرعات دورية سخية. المفارقة أنه لا يوجد يهود عرب آخرون في الشرق الأوسط يحصلون على نفس المستوى من الدعم المنتظم والإعجاب والإهتمام.

لا عجب أن يوسف كان فخوراً بجذوره اليهودية، لكن بالنظر إلى عروبته أيضاً كانت لديه رواية تختلف جوهرياً عن الرواية التوراتية التقليدية. كان مصّراً أن أجداده اليهود اليمنيين لم يكونوا متواجدين من الأساس في شمال اليمن (مملكة سبأ) ولا في جنوبه، ولم يكونوا أولاد

موسى أصلاً، بل جاءوا إلى اليمن قبل ظهور موسى بوقت طويل. لا بل قبل ظهور إبراهيم نفسه؟ وحسب اِعتقاده، فهم برزوا مباشرة بعد الطوفان في حضرموت، وهي المنطقة الفاصلة بين عُمان واليمن. هناك – برأيه – كانوا أول مَن آمن بالله الواحد لأنهم اِتبعوا نبيه العربي "هود"، أي قبل ولاية إبراهيم بوقت طويل. الملفت أن "العهد القديم "نفسه صمتَ عن ذكر "هود" كلياً مع أن الكتاب المقدس ذكر من الأمم والأقوام ما لم تذكره السجلات العلمية قاطبة. بيد أن البعض القليل من اليهود والمسلمين الغيارى حاول التوفيق في المسألة من خلال الإدعاء أن نبي العرب "هود" هو نفسه النبي "عابر" عند الإسرائيليين. ووفقاً لصديقي يوسف، فقد أُجبر اليهود على الفرار مع هود (2300 ق.م) وهاجروا من حضرموت في ثلاثة اِتجاهات على مراحل زمنية مختلفة: شمالاً عبر الحجاز، وجنوباً عبر إثيوبيا، ومباشرة عبر البحر الأحمر إلى مصر والأردن .

خلفية يوسف العربية ربما أثرّت على تعاليمه، فاِنحاز بها عن التيار السائد لليهودية. كان واضحاً من أحاديثي معه أنه يؤمن أن اليهود عرب في الأصل من قوم "عاد"، وقد أُسيء فهمهم، فاِضطُهدوا وشُتتوا لأنهم كانوا أقلية بين قومهم، وكانوا يؤمنون برسالة "هود"، فهربوا معه وعُرفوا باليهود نسبة إلى اسمه. وعلى هذا الأساس، مَن يدري، فلربما تطلع علينا يوماً نظرية أخرى تخبرنا أن اليهود جاءوا من دبي أو دلمون أو دزفول. كانت المحادثات بيننا دائماً عميقة، وقد اِعتدنا الإستمتاع بها أثناء حفلات "الباربكيو" عنده في البيت. ولكن يوسف كان يعلم جيداً أنه لا توجد آثار ولا قرائن تدعم أياً من هذه الفرضيات الرومانسية.

في أيامه الأولى، عمل يوسف كمحرر في النشرات الإنجليزية في برمنغهام وكارديف قبل أن يتزوج وينتقل إلى لندن. وعلى الرغم من

ثقافته الواسعة واِهتماماته الإنسانية القوية، إلا أنه لم يشارك أبداً في أي مبادرات سياسية أو أنشطة اِجتماعية أو تظاهرات. كان أهل ثقة قنوعاً ودقيقاً بمواعيده في تزويدي بالترجمات المطلوبة. كان أباً لولد وبنت يشبهان الملائكه خلقاً وشكلاً. كانا (4 و6) يرافقانه أحياناً الى المكتب في نهاية الأسبوع أثناء تسليمه مواد الترجمة. كان يعيش مع عائلته على الطريقة الإنجليزية النمطية في منزل جميل به حديقة كبيرة. وعلى الرغم من شغفه وفخره بجذوره اليهودية اليمنية، إلا أنه كان محايداً بشأن تعلم أولاده ديانة أخرى، بل لم يكن يمانع ذهابهم إلى الكنيسة كل أحد مع والدتهم الإنجليزية.

مرأة تكره الرجال

عندما تخلّتْ الشركة عن خدمات يوسف، بدأ المشهد الدولي الجديد يطغى على كل شيء آخر. كنا شهوداً على نضوج "قصة غرام" قوي بين ريغان وثاتشر وعلى كره الاشتراكيين والشيوعيين. فقد اِكتشفا أن ما بينهما من كيمياء وهرمونات كان يكفي لقلب مفاهيم العالم رأساً على عقب. بل ربما قَلْبُ العالم رأساً على عقب هو ما كان مطلوباً لهما من "المؤسسة" الأممية تحضيراً لظروف وبيئة أخرى. وهكذا، عملا معاً على تنفيذ رغبتهما الإقتصادية بالخصخصة، والسياسية بالترويج للهيمنة الأنجلو - ساكسونية، خاصة بعدما حصلا من غورباتشوف على المطلوب دون تنازل أو مهادنة. وعلى الرغم من فوزها بالحرب الباردة لاحقاً، غضبتْ ثاتشر جداً من السقوط المفاجئ والسريع لجدار برلين، وبدل أن تسارع إلى الإحتفال بسقوطه، تطاير الدخان من أذنيها غيظاً وعلّقت يومها قائلة: "إن الجدار ينهار بأسرع مما نتوقع ونتمنّى". أصابها ذعر وضربتها دهشة وخاب ظنّها لأن وجود الجدار قائماً بين الشرق والغرب كان بلا شك يحمي مصالحها

الدعائية ضد الاشتراكيين والشيوعيين. إذ إن الإتحاد بين البرلينيين على جانبي المدينة لم يكن تطوراً مفرحاً أو مشجعاً لثاتشر في بداية الأمر.

ومنذ ذلك الحين تغيّر العالم بشكل لا رجعة فيه. اِنتقل من الجامد إلى الناعم، ومن حالة التناظر إلى الرقمي، ومن الثابت إلى المحمول والجوّال والنداء الآلي والإنترنت والذكاء الإصطناعي. وقد اِستمر " الثنائي" الأنجلو - أميركي في التمتع بهيمنة دولية وفرض قواعد جديدة لأجنداته المحلية والعالمية بغياب الشيوعيين والسوفيات. وفي تلك الأثناء كان النظام العائلي في بريطانيا يمرّ بأزمة حادة بسبب ما كان يعرف وقتها "بجهاز رعاية الطفل"، وهو واحد من الأمثلة الفظّة على سياسة ثاتشر المحلية الصارمة التي ساعدت على حياكة سمعتها "المرأة الحديدية". كان جهاز رعاية الطفل كابوساً لكل أبّ وَجدَ نفسه في إشكالية عائلية مع زوجته أو شريكة حياته. إذ بصرف النظر عن مسؤولية تدهور العلاقة بين الزوج وزوجته أو شريكته، كانت ثاتشر (عبر مؤسسة الطفولة) ترتب مع أرباب العمل خصم نفقات الأطفال مباشرة من رواتب آبائهم لصالح أمهاتم. الأمر الذي أدّى إلى قدر كبير من التحيّز والإجحاف والخلافات والبؤس والكراهية. وصل الأمر بالكثير من الرجال إلى حدّ اِفتعال إشكالات بغرض دفع أرباب العمل إلى طردهم، فلا يبقى لهم أجر يُخصم منه. وفي تلك الحالة، كان المطرودون من العمل يهرولون إلى تسجيل أسمائهم على لوائح الإستفادة من نظام البطالة الحكومي على حساب ثاتشر نفسها! فلا الأولاد في تلك الحالة كانوا يستفيدون، ولا الأمهات، ولا الآباء، ولا الدولة. وبنهاية المطاف لم يكن هناك خيار أمام ثاتشر سوى تفكيك (مؤسسة الطفولة) واِستبدالها بهيئة أكثر إنسانية، لكن ليس قبل أن اِنتُهكت حقوق العديد من الرجال، واِنتهى الأمر بهم إلى البطالة أو

الإنتحار أو الإدمان على الكحول أو المخدرات. كانت ثاتشر مجرمة بحق العائلة، وإن كانت نيتها معاقبة الرجال المتهربين من دفع النفقة. هناك من الرجال مَن اِختار الهروب الأبدي إلى بلاد الشمس والإسترخاء في إسبانيا أو اليونان أو جنوب فرنسا أو جزر الكاريبي. وفي المقابل كان كره ثاتشر للرجال المُبعدين أو الهاربين عن أولادهم يفوق كرهها للقذافي ومانديلا وغالتيري معاً.

يهوه وكريشنا في أكسفورد

وعلى الرغم من التظاهرات الصاخبة ضد سياسات ثاتشر في عام 1989م، كانت هناك أيضاً مسيرات ثقافية مسالمة لا علاقة لها بقضايا الأطفال والعائلة. كانت جمعية "هاري كريشنا"، على سبيل المثال، إحدى تلك المجموعات المتظاهرة التي كانت تتردد على العاصمة من وقت لآخر. أتباعها كانوا خليطاً من "الهيبييز" الحالمين والدراويش والصوفيين. كانوا يحملون أدوات موسيقية وطبلات بدائية وبعض الدفوف الرخيصة وزمامير وأشياءً ملونة زاهية. أرديتهم طويلة تشبه ملابس رجال الكنائس والراهبات لكن ليست من القماش الكنسي الفاخر، إنما من الكتان الأسمر الخشن. كانوا يَجوبون الشوارع ترويجاً لمعتقدهم المسالم وفقاً لفلسفة هندية قديمة. وقد نُقل عن هاري كريشنا في زمنه اِعتقاده أن الموسيقى و"الإهتزاز" والتمايل والرقص (الشطح والوجد والوجدان) لها تأثيرات مباشرة على الروح النائمة فينا. بعض الأتباع يعتقد أن هناك أدلة كافية للإعتقاد بأن كريشنا نفسه كان شخصية حقيقية تاريخية عاش وهلّل للخالق منذ حوالي 5000 عام. وإذا دلّ هذا على شيء، فعلى أن التهليل والإبتهال والحضرة وترديد أسماء الخالق المقدسة، إنما هي ممارسة عالمية قديمة، وإن أخذتْ أشكالاً وأساليب مختلفة تبعاً للثقافة والجغرافيا. فكثير من الناس

في جميع أنحاء العالم يستمتعون بالرقص والدوران الشغوف على طريقة الدراويش حتى بلوغ مرحلة الطفرة والغياب عن الوعي والإلتحام بطبقات العلا عند ربّ العالمين - أقله هذا هو الهدف من اِبتهالات الصوفيين، ومن تأملات الموالي عند أتباع جلال الدين الرومي، مثلاً. هذه الرقصات في أرجاء العالم، وإن اِختلفتْ بأشكالها وأنواعها وهمهماتها، تصب كلها في محيط الإدراك الماورائي الميتافيزيقي البعيد. كلهم يرقصون على موسيقى صاخبة (أو هادئة) بحيث تأخذهم بالوجد والوجدان بعيداً عن بؤسهم المؤلم الآني، وعجزهم عن فهم واقعهم الغامض ومغزى الحياة المعقد، وبعيداً عن تفسيرات أرسطو ونيتشة وكاميو وسارتر وديكارت وابن ميمون وأمثالهم.

وبينما كنتُ أتسوّق مرّة لعيد الميلاد في شارع أوكسفورد وسط لندن، أثارت اِنتباهي جماعة "هاري كريشنا" وهي تطلّ زاهية من التقاطع مع "ريجنت ستريت". كانت مناظر ملابسهم المزركشة وآلاتهم الموسيقية البدائية والعقود الصفدية على صدورهم والزنانير حول خصورهم، مميزة وغريبة. النساء بينهم كن جميلات حسناوات بدون ماكياج وفي ريعان الصبا. فجأة، لاح لي من بينهم خيال شخص مشهور كما لو كان يخفي ملامحه من وراء غربال. يا إلهي، مَن هذا؟ إنه وجه مألوف أعرفه جيداً، لكن مَن هو يا ترى؟ خطوت قليلاً إلى الأمام لأُرضي فضولي، فإذا به هو بذاته! فما إن ضربتْ عيناه عينيّ، حتى قرفصت لا شعورياً من شدة الدهشة، وحرتُ بمنظره بين الذهول والضحك. إنه زميلي وصديقي العزيز يوسف! بدا بجلجابه الأحمر الطويل "كريشنيا" أكثر من كريشنا نفسه، حليق الرأس، يتمايل تحت زخات المطر على دقات الفرقة ومزاميرها. مظهره الغريب- مقارنة بمظهره الأسبق بربطة العنق وأزرار الأكمام ومنديل الجيب - كان منظراً سريالياً بِامتياز. ولوهلة جَمدتُ بأرضي ولم أعرف ماذا أفعل

وكيف أتصرف! لم أصدق ما كنتُ أراه بأمّ العين، لكني لم أستطع منع نفسي من الإندفاع إلى معانقته بحرارة! بدا بارداً وغير مهتم أولاً، لكنه سرعان ما اِبتسم وأشار عليّ بعلامة التريث. فسألته كيف حاله وكيف الأطفال؟ "لا تسأل! زوجتي تخلّتْ عني واِستولت على المنزل وأخذتْ حضانة الأطفال بمعية ثاتشر ورمتني إلى الشارع. لقد فَقدتُ كل شيء، فضلاً عن قدرتي على دعمهم والتواجد معهم! لم أعد أُؤمن لا بلينين، ولا بيهوه، ولا بعبد الناصر! لقد خذلوني جميعهم! ها أنا أجرّب حظي الآن مع هاري كريشنا علّه يبقيني على قيد الحياة بسلام وأمان وكرامة". ثم أنهى كلامه المحزن موضحاً: "حياتي الآن خالية من المتاعب، كل شيء هنا مجاني تماماً. جلّ ما عليّ فعله الهتاف قليلاً، والرقص قليلاً، والإسترخاء كثيراً". كان واضحاً من ملامح وجهه وتعابيره أن الزمن غَلبه ورماه في أحضان كريشنا!

حزنت جداً على وضعه وفزعت على وضعي من غدر الأيام. اِبتعد عني مع زملائه الرهبان وهو يرقص معهم ملوحاً بيديه عالياً وضارباً بالدفّ على خصره مرّة وعلى وركه مرّة. وربما اِستنتج في سرّه أن البطالة كانت أفضل له من السماح لمؤسسة "رعاية الطفل" اِقتطاع نفقات أطفاله مباشرة من راتبه لصالح طليقته. منظر يوسف في تلك الحالة البائسة، بعيداً عن أطفاله ومنزله، خيّم على فكري وأرعبني لفترة طويلة! لن أنسى شكله بالعباءة المزركشة حليق الرأس يرقص تحت المطر ويُهلل مُبتهلاً بحياة كريشنا بعد أن كان يحلف بحياة يهوه. يا لها من دنيا لئيمة نزعت عنه بدلة الأكابر، وألبسته قماش الدراويش، وجرّدته من أحاسيس السعي والطموح، وجعلته مجرد نعجة ضمن قطيع غنم وسط لندن في عهد الجنيّة ثاتشر! ليس سهلاً على أبّ العيش بعيداً عن واقعه الطبيعي وعن أولاده. كاد العالم يطبق عليّ عندما فقدت ابنتي لنصف ساعة، فكيف لو كنتُ مكان يوسف مرغماً على

العيش بعيداً عن أولادي كل الوقت؟ يومها شكرتُ ربي (بالإنجليزية) ورجوته ألّا يختبرني في العيش بعيداً عن أولادي! إلا أن السماء يومئذ كانت مُلبدة بالغيوم الكثيفة، فلم أعرف إن وصل دعائي إليه أو تبعثر بالأثير وتشوه بالترجمة.

إن حكمة المرء أو ثقافته أو تدينه أو تفانيه، لا قيمة لها مع عواصف الزمن وأهواء القدر. فعندما تتآمر الدنيا مع "المكتوب" على إنسان، ينتهي الأمر به راقصاً بالدفّ، أو سكراناً في الأماكن العامة، أو نزيلاً بالعصفورية. ومع ذلك، يبقى الإبتهال علناً أفضل بكثير من الإدمان على الكحول أو المخدرات أو الجنون. وسواء كان يوسف يهودياً من اليمن، أو مسيحياً من لبنان، أو مسلماً من الأندلس، كان وجعه كوجع الكثيرين من الرجال الذين حُرموا من رؤية أولادهم. لا شرق ولا غرب عندما تقع المصيبة ويحلّ الوجع والكرب.

مؤامرة عيد الميلاد

في أحد الأيام، دخل الرئيس التنفيذي إلى مرحاض مكاتبنا في لندن. فكّ حزامه وأنزل سرواله، ثم دار وجهه نحوي ورسم اِبتسامة الراحة بعد الحصر. سألني مجاملاً ما إذا ما كنتُ مرتاحاً بعملي ومع الشركة! يا له من سؤال غريب يطرحه رئيس تنفيذي على أحد مرؤسيه في الحمّام؟ كان بإمكانه مجاملتي بسؤال عن الطقس، مثلاً، أو أي شيء آخر؟ لم يكن سهلاً عليّ إخباره أني مرتاح، وكنت يومها بصدد طلب "زودة" على راتبي. كما لم يكن مناسباً الإعراب له عن عدم راحتي لأن ذلك كان سيتبعه شرح مستفيض لم يكن الحمّام مناسباً له. أجبته إجابة "عامة وعوّامة" مفادها أن العمل في الشركة جيد لكن هناك دوماً مجالات للتطوير والتحسين. وبينما كنا نتوجّه لغسل أيدينا تحت يافطة كبيرة تقول: "اِغسل يديك قبل المغادرة"، أعرب لي عن اِستيائه

من أداء الشركة، وقال إنه غير راض عن أشياء كثيرة... تلك كانت، إلى حد بعيد، من أكثر المحادثات المحرجة التي أجريتها بحياتي في مرحاض عام. وما فهمتُ منه يومها أن أحداً من موظفي الشركة لم يأخذ سياسته حول "الثقة والتمكين" *(Trust and Empowerment)* على مَحمل الجدّ. كانت فلسفته تقوم على ضرورة رفع الحواجز والتكلّف بين الرئيس ومرؤوسيه، وعلى تمكين كل موظف من أخذ القرار المناسب بنفسه بمعزل عن موافقة مديره. كانت سياسة جريئة جبارة ومبتكرة في ذلك الوقت منذ 35 سنة، لكن كانت أيضاً تنطوي على مخاطر كبيرة وعواقب جسيمة. كان المدير التنفيذي مقداماً ومستعداً لتحرير الشركة من البيروقراطية العقيمة في كل فروعها حول العالم. إلا أن موظفي الشركة بالعموم، خاصة في مصانعها، لم يكونوا مستعدين لخوض التجربة وممارسة سياسة التمكين. كانوا خائفين من تحمّل المسؤولية وحدهم بدون تعليمات مباشرة من مدرائهم من ناحية، ومن اِضطرارهم إلى تغيير روتينهم الآمن الرتيب من الناحية الأخرى. تجربة فريدة لم يكونوا مستعدين لخوض غمارها، الأمر الذي كاد يحبط المدير التنفيذي لولا عناده. يومها أدرك أنه سيفشل في تطوير الشركة ونقلها إلى عالم عصري ما لم يُجبر الموظفين على التعاون مع رؤيته (وهذا بحد ذاته أمر ضد مبدأ التمكين نفسه!).. أما بالنسبة لي شخصياً، فقد كانت سياسته المقترحة أروع ما اِكتسبته في حياتي من خبرة على المستويين المهني والشخصي. إذ إنها مكنتّني من الإستقلال التام بقرارتي والشعور بالمزيد من الجرأة والثقة. نظرتُ إلى المدير التنفيذي نظرة "نحن لها"، و"بشرّته" أني من أقوى مشجعيه في الشركة وأتطلع إلى المزيد من سياسة الثقة والتمكين والترويج لها، لا سيما أنها جاءت مواكبة بالوقت المناسب مع اِنطلاق عصر الإنترنت. كلامي في الحمّام كان بمثابة النغمة التي أراد سماعها، فأطربته وشجعته على عدم الإستسلام ومواصلة

المحاولة. كنتُ سعيداً أن كلماتي كانت ملهمة له وقد ساهمت فعلاً في تحديد مسار الشركة. فصرت بعد ذلك أزور الحمّام واغسل يديّ عدة مرات في اليوم على أمل المزيد من التغيير في الشركة....

وتماشياً مع تلك السياسة (الثقة والتمكين)، قرر ثلاثة من زملائي، كبار مديري المبيعات في بريطانيا، اِختبارها في أول فرصة متاحة. وبدل أن يختبروها كما يفترض من خلال مسألة تجارية تتعلق بالزبائن أو الأسواق أو الأجهزة، قرروا وضعها على المحك دهاءً في مسألة داخلية لا علاقة لها بالروح المقصودة منها. فمع اِقتراب عطلة ميلاد عام 1992م، قرروا ضمّ فرقهم الموزعة جغرافياً في بريطانيا، للاِحتفال بسخاء وفخامة في لندن، عوضاً عن اِحتفالات المناطق المتفرقة المتواضعة. وتأسيساً على ذلك، تم الإتفاق بين الرؤوس الثلاثة على نقل الإحتفالات الفرعية من الضواحي وضم ميزانياتها المنفصلة بميزانية اِفتراضية واحدة موحدة. فتمتْ الإجراءات وأُرسلت المذكرات للقاء في أحد مطاعم منطقة "سوهو" في آخر يوم عمل قبل بدء عطلة الميلاد ورأس السنة.

ذلك اليوم (جمعة)، كان أول يوم تتساقط الثلوج فيه. كانت تهبط ببطء شديد لكن بكثافة سميكة تنبئ بإقفال الشوراع الفرعية. ورغم زينة الشوارع الرئيسية المؤدية إلى "سوهو" حيث مكان المطعم، كانت أجواء المدينة خافتة حزينة ليس فقط بسبب تساقط الثلوج وقتامة الطقس، وإنما بسبب تفجيرات الجيش الجمهوري الأيرلندي. ففي وقت سابق من ذلك الأسبوع الحزين، قام الجيش بعملية اِنتحارية في شارع أكسفورد، مما أدى إلى تعكير الأجواء الإحتفالية وإثارة الرعب في نفوس المحتفلين والمتسوقين على حد سواء.

عندما وصلتُ إلى المطعم، كان المكان مزدحماً يغصّ حتى آخر طاولة، وقد حُجز بأكمله لنا وحدنا بما كان يُشبه اِجتماعاً سنوياً لجمعية

عمومية. إلا أننا سرعان ما حولناه إلى سيرك للتهريج ومهرجان للسكر والعربدة والنهم. كانت قائمة الغداء وحدها أطول من صبرنا على قراءتها، وتتكون من سبع وجبات دسمة، بما فيها الأجبان والحلوى والآيس كريم، بالإضافة إلى خاتمتها السعيدة مع الكونياك والبراندي والقهوة. بيد أننا اِستهلكنا كميات كبيرة من الشمبانيا (على الواقف) حتى قبل الجلوس والبدء بالسكر الجدّي مع الطعام! وهكذا، تواصل الإحتفال بحماس وشغف وكانت أجواؤه تعارفية حامية بديعة وممتعة. ومع كل نكتة وطرفة، كانت قهقهاتنا ترتفع إلى حدود التهوّر والإستهتار مما اِضطر صاحب المطعم إلى إغلاق أبوابه علينا صداً لصريخنا وحفاظاً على اِلتزامه بقوانين ترخيص الكحول الصارمة مع بلدية "سوهو".

بعد ست ساعات متواصلة من الأكل والسمر والسكر، أخذنا نغادر المكان مع بداية المساء. تفرقنا في مجموعات صغيرة تبعاً لطبيعة العلاقات بيننا، وسرنا بإتجاهات مختلفة، ليس للعودة إلى بيوتنا أو فنادقنا، لكن لإستكشاف المزيد من معالم "سوهو" ومسارحها الرذيلة وغيرها من الأنشطة الشبابية. وعلى الرغم من تساقط الثلوج بلا توقف، كانت الأمسية "دافئة" حسب تطلعاتنا وتوقعاتنا. وقبل اِستدراك الأمر، وجدتُ نفسي في أول الصباح بعد منتصف الليل مع مجموعة من زملائي السكارى في مطعم "مروش" اللبناني في حي "بيشومب بْلْايس" العريق في نايتسبريدج. كان الحي آنذاك بمثابة محطّ رجل للطبقة المخملية يرتاده أرستقراطيون وفنانون وجوهرجيون وسياسيون ورجال أعمال وعملاء، أشبه بـشارع "فوبورغ سانت أونوريه" في باريس. ولغاية يومنا هذا ما أزال أجهل كيف اِنتهى الأمر بنا من منطقة "سوهو" المبتذلة وسط لندن إلى حي بيشومب الراقي في غربها، وكيف خرجنا من عند "مروش" مع صلاة الفجر؟ لكن

الشيء الأكيد أن أحداً غيري من الزملاء لم يكن يعرف العاصمة البريطانية مثلي بالنظر إلى أنهم جميعاً كانوا من سكان ويلز، أو وسط بريطانيا وشمالها. كان اِحتفالاً رائعاً بميلاد المسيح، وقد اِستغرق معنا 15 ساعة متواصلة من الجنون والمجون والمتعة والفرح الخالص! كانت بداية رائعة لعام جديد، بالأحرى، خاتمة جيدة لعام منصرم.

فضيحة بجلاجل

بعد أسبوعين من العام الجديد والراحة التامة، عدنا إلى معمعة العمل وصخب الدوام.. ولدهشتي العظيمة، وجدتُ على مكتبي مذكرة عاجلة تستدعيني إلى مكالمة جماعية مع المدراء الثلاثة الذين خططوا لإحتفال الميلاد. فقد أدركوا - وأنا من بينهم - أننا جميعاً تجاوزنا حدود سياسة "الثقة والتمكين"، وقدمنا فواتير "فلكية" لقاء ثمن الغداء والسكر واللهو والفنادق. كانت التكلفة الإجمالية للاِحتفال عصيّة على التصديق، وقد تجاوزتْ حدود المعقول حتى بمعيار الشركات العامة العالمية. إذ إن آلاف الجنيهات تبخّرت تحت ثلوج العاصمة وبُدّدت من باب "الثقة والتمكين" على حساب مساهمي الشركة العموميين بذريعة "روح التعاون الجماعي بين فرق المبيعات". *Teamwork*!

الغرض من المكالمة الجماعية بيننا كان للتنسيق حول إيجاد الذرائع المنطقية للاِستهتار والتبذير. شخصياً، لم أصدق أن كبار مدراء شركة عالمية كانوا مرتبكين إلى حدّ الهلع بتبرير فواتير حفلة الميلاد، حتى وإن كانت مبالغ فلكية. لقد اِفترضت سلفاً أن المدراء الفرسان الثلاثة كانوا قد حسبوها جيداً وقدّروا العواقب بمهنية عالية. لكن يبدو أنهم لم يتوقعوا وصول تكلفة الغداء والعشاء والسكر والعربدة والفنادق والمواصلات إلى حدود الثقب الأسود؟ وفي كل الأحوال، أذعنتُ "للمؤامرة"، وتضامنتُ مع المدراء الثلاثة وضممنا جميع الفواتير معاً

وقسمّنا مجموعها على أربعة شكلياً بين دوائرنا، ومرّرناها للمحاسبة على أنها نفقات "ضيافة" لزبائن وهميين! ولا أخفي أن اِرتعاب المدراء الثلاثة من المساءلة أرعبني وطيّر النوم من عيوني. نقاشنا أثناء المكالمة دار أساساً حول ضرورة الإتفاق على رواية واحدة فيما لو سئلنا (كذبة واحدة)..

***

اِنكشفت مؤامرتنا بسرعة ووصل خبرها إلى مجلس الإدراة والمالية المركزية في كندا. فبعد يوم واحد من العودة إلى العمل في العام الجديد، راجت الفضيحة في أروقة الشركة وصارت حديث الساعة وكادت يومها تغطي على فضيحة كلينتون مع لوينسكي. وعلى وجه السرعة، فتحت الشركة تحقيقاً من "النوع الجنائي" لمعرفة كيف ومتى وأين ومَن إلخ. ذلك أن الشركة عامة ذات مساهمة عمومية وأسهم متداولة في بورصات العالم وليست شركة محلية خاصة. وهكذا، تسلمنا جميعاً إنذارات شخصية للتحقيق، وخُصصت لنا ثلاثة أيام كاملة لإستجواب كل مَن شارك بالإحتفال. وفي اليوم المضروب، حضرتْ لجنة عليا من المقر الرئيسي في كندا إلى مكاتبنا في لندن باكراً، وكنا ننتظرها اِنتظار المعزّيين لوصول النعش! قاد لجنة التحقيق نائب الرئيس العام (بولندي عتيد)، وكانت له عندنا سمعة جمال باشا بين الأرمن. وبينما كانت اللجنة تتهيأ للتحقيق، كان الزملاء "المتهمون" يجلسون مطأطي الرؤوس كأفراد عصابة محشورين في كركول صغير. كانوا ينتظرون سماع أسمائهم الواحد تلو الآخر. بيد أن اللجنة لم تستدعِ بالاسم إلا أول "متهم"، وتركت اِستدعاء الاسم الثاني للمتهم الأول، واِستدعاء الاسم الثالث للمتهم الثاني، وهلم جراً. كانت ملامح وجوه مغادري التحقيق تفضح جدّية المسألة وتُنبئ بعواقب وخيمة. إلا أنني قدّرت (ضمناً) أن الشركة لن تُقْدم على طرد

أي منا رغم تهمة التلاعب بأموال الشركة، إذ لم يكن من مصلحتها تضخيم المسألة عن حدودها الإدارية خشية اِهتزاز ثقة المساهمين بها. وما خفف من عبء التدابير التي كانت الشركة تنوي اِتخاذها بحقنا، أننا كنا في خضم الربع الأخير من السنة المالية (غير الميلادية)، وكانت الشركة مستمية لمبيعات ترفع من قيمة أسهمها عند نهاية السنة (آذار). وهكذا، كانت الشركة مضطرة للتوازن الدقيق بين سمعتها وبين معاقبتنا من جهة، وبين عدم إغضابنا كرجال مبيعات الصف الأول، في الجهة الأخرى.

مَن اِعتدى عليكم، فبمثله

ولسبب من الأسباب، كنت آخر شخص استُدعى للاِستجواب في اليوم الأول. فمَن سبقني، (كارل)، لم ينادني بالاسم، بل أشار عليّ بعينيه كأنه كان يحذرني من جحيم مرتقب. كان وجهه أصفر وعيناه تطلان من جحريهما. ورغم طول قامته وعرض كتفيه، بدا من كثرة التوبيخ والإهانة واحداً من "أخدام" (خدم وأقزام) اليمن المنبوذين. إلا أنني توجهتُ إلى قاعة التحقيقات برباطة جأش وثبات كما لو كنت أتقدم لإلقاء كلمة في الأمم المتحدة. "صباح الخير"، ألقيتها تحيةً لأعضاء اللجنة بصوت مرتفع رخيم فقط لأخفي رعبي وخيبتي! رئيس اللجنة لم يكلف نفسه عناء الرد، بل رمقني نظرة اِستفزاز لئيمة واِستهل حديثه معي بالتنظير عن السياسات الأخلاقية للشركة، وعن مدونات السلوك العام، والشفافية، والمساءلة، وغيرها من الرطانة الإدارية والهراء. كلها كانت إرشادات مكتوبة وسياسات موثقة في سجلات الشركة بسبب طبيعتها العامة وشروط التداول والبورصات. وعلى الفور، أدركتُ أن الرجل حسم أمره سلفاً، وكان يبحث عن "كبش فداء".. ورغم خوفي منه، إلا أنني لم أكن إسحاق ابن إبراهيم، ولا إسماعيل

ابن هاجر، ولا فريسة بسيطة أو سهلة. لم أكن مستعداً لقبول أي إساءة أو تهمة زور ضدي. كنت واثقاً أنه مهما كان سيحصل معي في ذلك اليوم التعيس لن يؤثر عليّ ولا على سمعتي بذرة. ذلك أنني كنتُ قد سبقت لجنة التحقيق بخلدي، وقررت سلفاً ترك الشركة بإرادتي عند لحظة الحرج إذا ما حاولوا التذاكي عليّ، أو التحيّز ضدي. نظر الرئيس في عيني وقال: "أخبرني يا هشام عن دورك في التحايل على الشركة والتلاعب بنفقاتها". كان طلبه ذاك جارحاً كجرح الشفرة على الوريد! لم يحدث في حياتي، لا من قبل ولا من بعد، أن وجّه أحد تهمةً إليّ بتلك الدناءة وتلك النبرة. وكأن ذلك وحده لم يكف لإهانتي، فإستطرد موبخاً: "ألا تخجل من نفسك أنك تسيء اِستخدام سلطتك وأموال الشركة على هذا النحو؟". سؤال وقح من رجل قبيح أثار جنوني وأرعبني، ليس فقط لأن فيه اِتهام صريح مباشر ضد أمانتي، بل لأنه أيضاً لوّث نزاهتي ولطّخ سمعتي أمام أعضاء اللجنة، وكان بينهم مَن كنتُ على زمالة قوية معه. جعلني أشعر أمامهم كما لو كنتُ فرخةً هزيلة بحضن ثعلب. ورغم اِستعدادي لقلب الطاولة عليه وتقديم الإستقالة لحظتها، إلا أنني شعرت بضرورة التروي والدفاع عن سمعتي بالمنطق وردّ التعدي عليه بمثله! المفارقة فعلاً أن الرجل كان - قبل الحادثة - واحداً من أكثر المعجبين بأدائي في الشركة. كان كلما زارنا من كندا وصادفني في أروقة الشركة، توقف مطولاً وألقى التحية بلطف وحرارة وحاورني عن أشياء من الشرق الأوسط. وأتذكر مرّة أنه أحضر صوراً فوتوغرافية عن مخطوطات لأشعار عمر الخيّام كان قد اِشتراها من "سوق الأحد" في أوتاوا. سألني عن معنى أحد بيوتها وقيمتها، فشرحت له الفرق بين الفارسية والعربية من جهة، وبين الأصل والنسخ من جهة أخرى. المهم، أنه اِنقلب عليّ أثناء التحقيق وصدمني بموقفه الإتهامي المباغت، وكأن لا عمر بيننا

ولا خيام! كان سلوكه أرعن مخيباً ومعيباً إلى درجة أنني اِعتقده لوهلة يعاني من فُصَام شخصي أو اِضطراب عقلي..

وأمام موقفه مني، لم يكن أمامي سوى سحبه إلى ملعبي ومواجهته بما كنتُ أهلاً له وقادراً عليه. فخلعت ثوب الأدب، وقفاز المجاملة، وقناع التحفّظ مرة واحدة، وتوجّهت رأساً إلى ما كان في وجداني من ذخيرة وسهام. رمقته نظرة "هشام المقاتل"، وصرختُ بوجهه على طريقة حكماء البدو: " هل جئت تطلب ناراً أم تشعل البيت ناراً"؟ وأوضحت له بلغة ونبرة عالية يفهمها: "هل طلبتني لتذلّني وتحقرني، أم أنك حقاً تريد معرفة ما حصل؟". سألته بجرأة ووقاحة، وطلبت منه (على الطريقة الإنجليزية الخبيثة) ألّا يعتبر نبرتي العالية أمراً شخصياً ضده. كنتُ من خلال طلبي ذاك ألفتُ نظره إلى ضرورة اِحترام حدوده معي حتى وإن كان نائباً أول لرئيس الشركة برمتها حول العالم!

الأمر لم يتطلب مني سوى القليل من الحكمة والكثير من الشجاعة لمواجهته عيناً بعين وسناً بسن. فالإهانة بقاموسي تمثل وصمة عار تشبه الوشم على جلود البقر لا تُمحى إلا بالحرق أو السلخ. وعلى نبرة دفاعي، تراجع عن حدة تعابيره وأعاد صياغة اِستجوابه بطريقة حضارية تليق بي، فقال: "هل يمكنك مساعدتنا في تحديد المسؤول عن هذه "المؤامرة"، بالأحرى، هل لك أن تسمّي مَن أجبرك عليها؟". خففتُ من "عياري" قليلاً وأخبرته بعموميات سمعت عنها مداورة، وأعطيته اِنطباعاً أن أسئلته كانت خارجة عن الطريقة المعهودة، لأن ما حصل كان مجرد "هيصة" عفوية بين فرق المبيعات للاِحتفال بميلاد المسيح، أي مجرد لفتة اِجتماعية لا تستأهل المبالغة أو التنغيص في موسم الأعياد. لا بل ذهبت معه إلى أبعد من ذلك متسلحاً بقناعتي من جهة، وباِستعدادي للاِستقالة من جهة أخرى، فقلت له بدهاء ومكر واضحين: "ولكي أكون صادقاً وأميناً معك، أنا مسلم، والمسلم لا يحق

له شرب الكحول، كما أني لم أرغب من الأساس الإشتراك بإحتفال ميلاد المسيح مثلما لا أحتفل بمولد محمد، إلا أني يا حضرة نائب الرئيس المحترم شعرتُ بضرورة حضور حفلة الميلاد من أجل الحفاظ على "روح الجماعة"*Team work* والألفة والتعاون تطويراً لفكرة "الفريق الواحد" التي تحاضروننا عنها كل الوقت. ثم إن تمنعي عن المشاركة كان سيسبب حرجاً مضاعفاً لي شخصياً أمام زملاء جاءوا إلى لندن من الضواحي والمدن البعيدة، بينما أنا أسكن في لندن نفسها؟ وبإختصار، فقد إشتركت بالإحتفال على طريقة "مُجبر أخاك" وعلى حساب عائلتي وزوجتي الحامل، وكنت أصلاً قد إختلفت معها بسبب مشاركتي مع الشركة رغماً عنها". أنهيتُ دفاعي بأن ذكّرته بطريقة لبقة وذكية أني شخصياً "شريك" في الشركة من خلال الأسهم العمومية التي أملكها بصفتي الشخصية الإستثمارية، وليس بصفتي المهنية كموظف، وكان لدي منها ما قيمته يومها ربع مليون دولار أميركي. وهو إستثمار ضخم في تلك الأيام جعله يسعل ويتنحح خجلاً! الرجل كان نبيهاً، وفهم على الفور أنه لم يعد يوبّخ واحداً من موظفيه، بل يتحادث مع مساهم مرموق من مساهمي الشركة. وما لم يكن هو نفسه مساهماً خاصاً بالشركة مثلي، فقد يكون قد شعر بحاله موظفاً أمام أحد مُلّاك الشركة، وإن كانتَ أسهمي فيها نقطة بمحيط (رغم قيمتها). ومن تلك الزاوية تحديداً، إختصرتُ المسألة وبيّنت له بصفتي الإستثمارية العمومية أنني لم أرَ "تلاعباً" مبيتاً في النفقات تحت جنح الظلام، بل صرفاً بريئاً مبرراً لغرض نبيل في العلّن. وسألته هل هناك أجمل من الإحتفال بميلاد المسيح بفرح وبهجة!؟

كانت تلك من أجمل وأقوى "المرافعات" التي قمتُ بها دفاعاً عن نفسي في حياتي! غادرتُ قاعة التحقيق وكنتُ المبتسم الوحيد من كل الزملاء المتهمين في اليوم الأول. لم أعرف ماذا كان إنطباع اللجنة بالضبط، لكن شعرتُ أن أعضاءها أحسّوا بذنب تجاهي وبتعاطف

معي وبتفهم خاص لزوجتي الحامل. كانت يومها حامل بابنتي الثانية، أثينا. ولغاية اليوم، لا أعرف إنْ كان كلامي قد ترك أثراً إيجابياً عن "الهيصة البريئة" لإحتفال فرق المبيعات، أم أن الشركة قررتْ من عندياتها التهاون مع الجميع ووقف بقية الإجراءات. فالتهمة بحق موظفي الشركة، إنْ ثبتت، كانت ستكون وصمة عار تُدون على سجلات المتهمين في ملفات شؤون الموظفين حتى وإن تركوا الشركة طواعية. كان ذلك من شأنه أن يؤثر على مستقبلهم المهني. اِنتهتْ المسألة بإنذارات شفهية، وأُقفل ملفها، وطلبتْ الشركة من الجميع تسديد "نسبة مئوية رمزية" من المبلغ الإجمالي. أما بالنسبة لي شخصياً، ولدهشتي الشديدة وحيرة زملائي، فقد أُعفيت من الإنذار والسداد معاً. وهكذا، تعلّمتُ أن السرقة والخداع والإحتيال قواسم مشتركة بين الشرق التعيس والغرب الخسيس. كلهم يخادعون بطرق مختلفة ويتذرعون بأساليب مبتكرة! أما الصراحة المُطلقة، فهي أني اِكتشفتُ يومها أن العيبَ كان عندي وليس عند زملائي أو مدرائي... كنتُ أقدّرهم أكثر مما كانوا يستأهلون وكنتُ أثق بقيمهم أكثر مما تستحق! كانت خيبة أمل إضافية ذكّرتني بتجارب "كبش الفداء" مع جيم الإنجليزي مدير قسم شؤون الموظفين في جريدة الشرق الأوسط، عابد السلطة والمال، صياد أكباش الفداء ومُركّب الملفات!

الفصل الخامس عشر: منطق العرب

أعجمي أم عربي؟

في إحدى رحلاتي إلى المنطقة، رتبتُ مع مديري لقاءه في القاهرة في شباط 1994م. كنتُ قبلها متوجّهاً من طهران إلى البحرين على "طيران الخليج" مع بداية رمضان. وصلتُ إلى مطار المنامة الناعس وسلّمتُ جواز سفري حسب الأصول. وكالعادة في المطارات ومعابر الحدود، نظر ضابط الهجرة إليه نظرة اِزدراء، ثم سألني باللغة الفارسية، (وكان يعلم أن رحلتي قادمة من طهران): "منذ متى تحمل الجنسية البريطانية؟" إلا أنه سرعان ما فهم من ملامح وجهي أني لا أعرف اللغة الفارسية، أو أني كنتُ أتظاهر بعدم اِتقانها. سألته باللغة الإنجليزية بأدب ولباقة عن غرضه من السؤال، فاستشاط غضباً و"طار عقله" على طريقة "نحن فقط نسأل وأنت فقط تجيب "، وقال بلؤم وحِدّة وخساسة: "هذا شغلنا واِختصاصنا، وعليك أن تجيب صاغراً بدون تذاكي وجعجعة"! هنا، "طار عقلي" أنا على طريقة "من تظن نفسك يا أبا لهب"، واِعترضت بشدة على طلبه وأسلوبه الفظّ. وكالعادة، عندما يكون السؤال فضولياً معي أو شخصياً لصيقاً، اِنتقلُ فجأة من عالمي "التناظري" إلى عالمي "الرقمي"، وأتحوّل فوراً إلى ميدان ابن الرشد وناصية المنطق والقانون، واِحتمي بهما بدون وعي أو تفكير، كما لو كنتُ برنامجاً في كمبيوتر. وبلحظة تخلٍ واِستقواء، لفتُ نظره بثقة أكيدة ونبرة عالية إلى أن ما ينبغي أن يهمه هو أن الخارجية البريطانية أكدت لي عدم حاجة البريطانيين إلى تأشيرة دخول إلى البحرين شرط أن يكون جواز السفر نافذاً. هنا، نظر إلي نظرة "يا ملعون الوالدين"، ونطق كلمة السرّ الشهيرة: "تفضل اِجلس على الأريكة.. إلخ"! وبعد دقائق قليلة، جاءني مسؤول آخر

وألقى التحيّة بأدب وإبتسامة، وأوضح معتذراً أن مأمور الجوازات إنما كان يداعبني "ولم يقصد أن يسبب لك أي إرتباك أو قلق. وعموماً أهلا بك في البحرين، بلدك الثاني"! وهكذا، مررني إلى منصة أخرى، فختموا باسبوري وعبرت بسلام. واليوم، أقسم باللَّات والعُزَّى أنه لو لم يكن جوازي بريطانياً يومها، لكانوا رقعوني رقعة كافر وأودعوني أمانةً بإحدى جبّانات المنامة. إنطلقتُ من المطار مطمئناً وفخوراً بالحماية البريطانية. لكن ما إن دخلت غرفتي بعد ساعة من وصولي إلى البحرين تقريباً حتى رنّ الهاتف، فإعتقدت أن المكالمة داخلية من مكتب الإستقبال في الفندق نفسه، لاسيما أن أحداً لم يكن يتوقعني في ذلك الوقت في المنامة. "هوشام، كيف (حالوك)؟ وكيف كانت رحلتك؟". سألته عن غرضه واسمه، فلم يجبني، بل سألني ممازحاً كيف كان الطقس في طهران عندما غادرتها صباحاً؟ سؤال مريب من شخص مجهول أراد الإطمئنان على وصولي إلى الفندق، وتمنّى لي إقامة سعيدة، وأقفل الخط بوجهي، وتركني لحيرتي بأمره! تلك كانت واحدة من أغرب المكالمات الهاتفية في حياتي، وإن كنتُ واثقاً أنها كانت من جهاز المخابرات البحريني. إذ إن العلاقات بين البحرين وإيران في ذلك الوقت كانت متوترة جداً بسبب إتهام البحرين إيران التدخل في شؤونها. كانت مظاهرات الشيعة في البحرين قد عمّت الجزيرة من قبل (ومن بعد)، وكادت تتفاقم وتهدد الحكم السني، لا سيما أنه سبق للمعارضة الشيعية محاولة الإنقلاب على الحكم بدعم مباشر وسافر من إيران عام 1981م. ومع أن أيران أسقطت مطالبتها "بتحرير" البحرين لصالحها عام 1971م، إلا أن عدم الثقة بين البلدين لم يتلاشَ، وبقيتْ الريبة في النوايا بينهما عند كل مفصل وشأن، خاصة أن أغلبية الشعب البحريني شيعي اثنا عشري من أصول إيرانية. البحرين كانت إدارياً تابعة لإيران منذ 1957م حتى 1970م. ومن يدري، فلربما إعتقد البحرينيون أني ناشط شيعي من أصول أعجمية،

أو عميل إيراني، أو شخص مريب بالنظر إلى قدومي من طهران، رغم أنه سبق لي وزرت البحرين من دول أخرى مرات عديدة. والشيء بالشيء يُذكر، فإن الإيرانيين أيضاً أرادوا معرفة أصولي عند وصولي إلى طهران، إلا أنهم بعكس البحرينيين اِكتفوا بتأشيرة بلدهم من لندن، وكان واضحاً منها غرضي من الزيارة ومقر إقامتي ومدتها. كانت الإجراءات عند الإيرانيين منهجية دقيقة أكثر منها شخصية أو مزاجية بسبب تاريخ طويل من الإدارة والتنظيم يمتد إلى عمق التاريخ.

رمضان في جنة عدن؟

بداية شهر رمضان كانت من الأشياء التي لفتتْ نظري من تلك الرحلة. لم يسبق لي أن زرتُ دولاً عربية أو إسلامية أثناء رمضان منذ سكنتُ بريطانيا. كان من عادتي تجنب السفر خلال شهر الصوم بسبب تغيرات الدوام في الدول المعنية، إلا أن أمراً مُلحاً كان قد اِستجد عليّ في إيران آنذاك، فرأيت التعرّج منها على البحرين في طريقي إلى القاهرة. ورمضان هو الشهر التاسع من التقويم القمري، ويقع دائماً في وقت مختلف بكل سنة ميلادية. وبالإضافة إلى الصيام خلال رمضان، يحتفل المسلمون بإحياء ذكرى النزول الأولي للقرآن على النبي محمد. الطريف فعلاً أن مسلمي الدول العربية بأغلبيتهم يقلبون نهارهم إلى ليل، فيصبح نهارهم خافتاً وروحانياً (نسبياً) بالإمتناع عن الأكل والشرب، بينما يصبح ليلهم نهاراً مادياً وحيوياً. فبمجرد أن يُضرب مدفع الإفطار، تنبض أماكن الرخاء بالصخب وتعجّ بممارسات تدور بمعظمها حول أنشطة الترفيه والتمتع. وبِاستثناء عدد قليل من البلدان العربية التي يشكل المسيحيون فيها جزءً بارزاً من المجتمع، مثل بلاد الشام، فإن جميع القطاعات العامة ومعظم

الشركات الخاصة تقلّل من ساعات عملها خلال رمضان وتزّم أنشطتها إلى حدود لا تذكر. أما موظفو الدولة في البلدان العربية عموماً، فيتغيبون عن أعمالهم بإستثناء سويعات شكلية بذريعة الصيام والدوخة وتحمّل الإمتناع عن التدخين. وغالباً ما يبالغ الصائمون في التعبير عن الإرهاق والتعب. لكن قليلة هي البلدان العربية أو الإسلامية التي يُعدّ رمضان فيها شهراً روحانياً تُمارس خلاله التراويح والصلوات طوال الليل مثل أندونيسيا وإيران وماليزيا.

وبدلاً من البحث عن إجتماعات مع وكلائي الصائمين النِعاس والجياع، قررتُ الإستفادة من الوقت الضائع من خلال إستكشاف الكنز الوطني في البحرين، (دلمون). فآثارها تشبه آثار "النعيم" الأول (الجنة)، أرض الخضرة والوفرة، التي أشارت إليها المصادر العتيقة والوثائق التاريخية. هناك في ضاحية من ضواحي المنامة توجد عشرات الآلاف من شواهد الدفن التي تعود إلى فترة ما بين 2400-1750ق.م. الملفت أن المقابر فيها تتميز بأنها على قدر حضاري كبير من التنظيم والترتيب المنهجي. بل يبدو المَعْلم الإجمالي لحضارة "الدلمون" كما لو كان منارةً لحضارات الشرق الأدنى القديمة أو شعلةً بوسطها. وهذا تحديداً ما يُفسر إندفاع بعض المؤرخين وحماسهم للإعتقاد أن دلمون هي نفسها "جنة عدن" التي تحدثت عنها التّوراة، وليس أي جنة أخرى في اليمن أو أي مكان آخر. وتقع دلمون جنوب مدينة إبراهيم، "أور"، وسط الخليج العربي. وهم (المؤرخون) يعتقدون أن الفيضان (5000 ق.م) غمر كثيراً من أجزائها بعد إرتفاع مستوى مياه الخليج، وكان إرتفاع الماء عند الشواطئ قد سهّل لبعض الدلمونيين ركوب الأمواج إلى يابسة جديدة عند حدود البصرة وجوارها. طبعاً لم تكن البصرة نفسها موجودة في ذلك الوقت، لا شكلاً ولا اسماً، بل ربما كان اسمها واحداً من أسماء الموانئ المنقرضة مثل

"أوبولة" أو "أبو طبيرة" – على سبيل التخمين! لكن رغم نظرية "دلمون الجنة"، هناك مَن يعتقد أن الأحواز العراقية، وليس دلمون البحرينية، هي الجنّة المقصودة من التوراة. والأحواز هي المسطحات المائية الشاسعة في جنوب العراق (البصرة وميساء وذي قار) التي قام صدام حسين بتجفيفها في التسعينيات لأسباب أمنية ولمنع معارضيه من التخفّي فيها والإحتماء بها، وهو ما وصفته الأمم المتحدة بإحدى أكبر الكوارث البيئية على الأرض. شخص واحد (صدام) جفف الجنة وجعلها جحيماً على أهلها!

وفي جميع الأحوال تبدو نظرية وصول بعض الدلمونيين إلى حوض الرافدين أكثر تطابقاً مع اِعتقاد السومريين أنفسهم بأن أجدادهم وصلوا إلى منطقة الأحواز عن طريق البحر. وهذا، بدوره، يُفسر الزعم الشائع أن مدن السومريين بُنيت لتكون بمثابة دلمون جديدة لإحياءً ذكرى "الجنة المفقودة". وهكذا، تسرّبت أوصاف الجنة الدلمونية البديعة إلى العصور اللاحقة، وظهر الحنين إليها واضحاً جليّاً من خلال ملحمة "جلجامش" وفي نصوص أكادية وبابلية أخرى. كيف لا ينضح الحنين إليها وقد كانت دلمون في عصرها أكبر مركز تجاري في المنطقة وبورصة إقليمية وميناء لبناء السفن يربط الشرق القديم بالغرب عن طريق وادي الرافدين. الملفت من الناحية العقائدية أن اليهود عندما أكملوا مراجعة الكتاب المقدس في الإسكندرية عام 260 ق.م، في عهد بطليموس الثاني، لم يكونوا على علم بدلمون الأصلية، إذ إن المنتصر اليوناني بعد عصر الإسكندر نقل مركز السلطة من الشرق إلى الغرب، ومعه العديد من الأساطير الشرقية والهندية والسومرية اِعتماداً على اللغة الأشورية الوسيطة بينهما. ومع اِكتشاف ألواح نينوى، كانت اللغة الأشورية قد اِختفت بالفعل وضاع معها العديد من القصص الأصلية العظيمة التي كانت دلمون سِمة بارزة فيها. وربما نتيجة لذلك، أُسيء فهم اسم دلمون نفسه، أو

تُرجم خطأ أو سقط من مداولات النقل والنسخ من خلال محاولات الترجمة العبرية من اليونانية.. ومّن يدري ماذا سقط سهواً أيضاً، أو نُقل خطأ أو تشوّه؟ ولِمَ لا يكون الصيام نفسه من بين الأشياء القديمة والطقوس الإيمانية التي اِسْتُوردت من أساطير القدامى أو من حضارة الدلمون نفسها؟

سفرتي إلى البحرين خلال شهر رمضان تلك السنة كانت من أجمل السفرات لأنها أخذتني عبر الزمن إلى حيث أحب. ورغم بهجة البحرانيين وبهرجتهم بشهر رمضان، فإنه لم يكن شهراً مريحاً للوافدين، خاصة البريطانيين منهم! فلطالما كان لهم في البحرين وجود بحري ثابت على الأقل منذ 1820م، لكن بعد اِنسحاب أسطول بريطانيا البحري عقب اِستقلال البحرين عام 1971م، حافظت بريطانيا على وجود عسكري صغير لها في الخليج، وإنْ كان له تأثير سياسي كبير. وبِانتقال ملكية القاعدة إلى الأميركيين، أصبحت البحرين موطناً للأسطول الخامس واِزدحمت بالبحّارة الأميركيين، فضلاً عن "بقايا" الإنجليز. ومع تدفق السعوديين إلى البحرين بعد تشييد الجسر الشهير عام 1986م، صارت المنامة "كعبة" الإسترخاء والنقاهة ومكاناً للتسلية والاِستجمام للجميع على حد سواء. دبي يومها لم يكن صعودها على هرم السياحة والنقاهة قد اِكتمل بعد. لكن عندما كان الأمر يتعلق بشهر رمضان، كان على جميع الوافدين الإلتزام بشعائره وممارساته الصارمة خلال النهار.

واِدخلوها آمنين

وعلى اِرتفاع 35000 قدم فوق سطح البحر، كان رمضان أخف وطأة على الجائعين وأكثر تحرراً إنْ صحّ التعبير. كنتُ محظوظاً يومها فوق السحب لأنني تناولتُ وجبة إفطار كاملة بدون حرج أو ملامة.

كان الأكل في الفضاء متحرراً من شعائر الأرض وكامل الدسم إلا من لحم الخنزير والكحول. وبعد ثلاث ساعات ونصف الساعة من الجو البديع فوق صحراء نجد والحجاز وسيناء، هَبطت الطائرة، وظهرتْ من نافذتي فجأة الآية القرآنية من سورة يوسف على واجهة مبنى مطار القاهرة : "اِدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ"..

إلا أن مصر يومئذ لم تكن آمنة خلال شهر رمضان! فمنذ لحظة هبوطنا، بدأتُ أشعر بأشياء غريبة لم أكن معتاداً عليها من سفراتي السابقة. لا أحد يعلم مَن كان يزور حسني مبارك في ذلك الوقت: ياسر عرفات، أو وزير خارجية إسرائيل، أو رئيس جمهورية أفريقي؟ الإجراءات الأمنية كانتْ شيئاً عجيباً من خارج المألوف، بل من خارج أي شيء كنتُ قد اِعتدت عليه أو اِختبرته من قبل! المخابرات المصرية والقوات العسكرية وحرّاس المطار والإبل والخيول والدراجات النارية وسيارات المرافقة، كلها كانت منتشرة على المدارج وبين أروقة المطار. خواطري الأولى أخذتني إلى أن مصر ربما شهدتْ اِنقلاباً عسكرياً خلال وجودي على متن الطائرة قادماً من البحرين؛ ففي أعقاب فترة ولاية مبارك الثالثة عام 1993م، والتي فاز بها في اِستفتاء تقليدي بنسبة 98 %، كان الوضع في مصر مقلقاً، بل مهتزاً على أقل تقدير. كانت أجواء مصر يومئذ تنذر بما كان قد حصل مع مبارك عام 1984م. يومها واجه اِنتفاضة شعبية عارمة وحركة عصيان هزا مصر بسبب الغلاء والتضخم. فكانت تلك الإحتجاجات آنذاك التحدّي الأول في رئاسته وأكثر دموية من أعمال الشغب التي كانت قد حدثت أيام السادات (اِنتفاضة الخبز) عام 1977م. ورغم أن الغرب في تلك الأيام كان ينظر إلى مبارك على أنه الحاكم الوسطي المعتدل، والباني الأول للطبقة الوسطى، وصانع السلام، والوسيط الأمين بين الإسرائيليين والفلسطينيين، إلا أنه كان ما يزال يواجه العديد من التحديات الداخلية، معظمها من الإخوان

المسلمين والأصوليين الذين كانوا السبب أصلاً في إجراء الإستفتاء. ومن المفارقات التاريخية أن مبارك سقط بعد ثمانية عشر عاماً من ذلك الإستفتاء ليس على يد الإخوان أو الأصوليين، بل على يد الطبقة الوسطى التي كان قد بناها برموش العين وحلّق بها عالياً خلال حكمه الطويل على مدى 30 عاماً..

"إرهابيون" في كل مكان

السلفيون والإخوان واصلوا حملاتهم المناهضة لمبارك، ونفذوا سلسلة من الهجمات الإنتحارية البشعة ضد السيّاح والشرطة والأقباط، وكذلك ضد النساء اللواتي رفضن اِرتداء الحجاب. وحتى قبل ولايته الثالثة وهجماتهم الإنتحارية، كان مبارك أول من دعا عام 1989م إلى عقد مؤتمر دولي ضد الإرهاب، وكان ذلك قبل مطالبة الغرب به بسنوات عديدة. المفارقة أن البريطانيين كانوا يمنحون الإسلاميين المصريين المتشددين والإخوان لجوءً سياسياً وملاذاً آمناً بينهم. لم تكن بريطانيا أول مَن رفض طلب مبارك عقد مؤتمر دولي ضد الإرهاب وحسب، بل سخرت من دعوته قائلة: "لن نسمح لمبارك أن يجبرنا على خوض حرب مع الإسلاميين نيابة عنه". بل ذهبت إلى أكثر من ذلك ووظّفت الإعلام لإهانته من خلال مقابلات كانت صحيفة الـ"فاينانشيال تايمز" تجريها مع معارضيه الإسلاميين بشكل منتظم، كما لو كانت تكايده وتغيظه لأسباب شخصية! في إحدى تلك المقابلات، أكد زعيم السلفيين في بريطانيا، رداً على قتل سيّاح يابانيين في صعيد مصر، "أن الإسلاميين لم يريدوا قتل السيّاح أنفسهم، إنما أرادوا قتل السياحة في مصر". ومع أنه منطق أعوج بعكس مبدأ "ولا تزر وازرة وزر أخرى"، لكن بدا أنه كان مقبولاً للـ"مؤسسة البريطانية آنذاك. وقد اِستغرق الأمر وقتاً طويلاً وكلف العالم حدثاً

رهيباً تمثّل في تفجيرات أبراج نيويورك قبل أن يتفهم "الثنائي العجيب"، بوش وبلير، مخاوف مبارك الحقيقية والإسراع لتنظيم مؤتمر ضد الإرهاب. ومع أنه لا توجد أدلة دامغة على تورط بريطانيا في تأسيس حركة الإخوان، إلا أن الوثائق السرية التي رُفع الحظر عنها بمرور الوقت، بيّنت أن بريطانيا كانت أكبر مقر للإخوان في العالم بعد أن ضيّق عبد الناصر الخناق عليهم. كما كشفت أنها كانت تستغلهم وتدعمهم وتحافظ على علاقات تواطؤ نفعي معهم منذ التأسيس في مصر عام 1928م على يد حسن البنّا. إلا أن تأثير بريطانيا على الإخوان زاد واِشتد بعد رحيل الملك فاروق وتأميم قناة السويس تحديداً. أما أسباب بريطانيا لإستغلال الإخوان، فكانت أساساً لمحاربة القومية العربية والوحدة والشيوعية.

واِستناداً إلى التاريخ الغربي في التأليب ضد مصالح الوحدة العربية، أو حتى الإتحاد الإسلامي، رأينا معاودة الغرب محاولاته في تأسيس، أو دعم، أو اِستغلال الحركات السلفية والأقليات. ومع أن تنظيمي القاعدة وداعش، مثلاً، أثارا مخاوف جدّية وفوضى عارمة في أوروبا والشرق الأوسط وبقية العالم، إلا أننا لا نعرف لغاية اليوم ما إذا كان الغربيون هم الذين أسسوا "القاعدة" و"داعش" لمآربهم الخاصة أم لا. بيد أنه من أوضح الأسباب المحتملة على تأسيس الغرب للقاعدة: زعزعة الإتحاد السوفياتي من الخاصرة الشيشانية، وإثارة الفتن بين السنة والشيعة، وتفتيت الأنظمة العربية الرافضة للتطبيع، والقضاء على أكبر عدد ممكن من الجهاديين الإسلاميين الغربيين في أوروبا نفسها، فضلاً عن لخبطة الخطوط الجغرافية تمهيداً لإعادة رسمها. وقد يكون من المحتمل أيضاً أن ثمة فصائل جهادية وحركات سلفية دجّنها الغرب ودربها قد فَلَتَتْ من قبضته، فرسمت لنفسها أهدافاً ضد مصالح الغرب نفسه! وككل وضع مشابه، كان هناك أيضاً طابور خامس من مخلفات المقاتلين من يوغوسلافيا وأفغانستان والعراق

وغزة والضفة الغربية والصومال. لكن حسب "اِعتراف" هلاري كلينتون نفسها، بصفتها وزيرة الخارجية الأميركية، فإن أجهزة الإستخبارات الغربية هي التي خلقت الفوضى وزعزعتْ أسس النظام في سوريا من خلال دعمها للنصرة ولداعش وقسد عن طريق دول عربية حليفة. ورغم تكذيب خبر تورط كلينتون بتأسيس "داعش" تحديداً، إلا أن حمد بن جاسم، وزير خارجية قطر في حينه، اِعترف على قناة الجزيرة "بتهاوش" بعض الخليج على سوريا ودعم "النصرة" بمباركة دول غربية! وفي جميع الحالات، لا الغرب ولا الشرق كانا بريئين من الصيد في الماء العكر بواسطة جبهة "النصرة". كلاهما عزّز عمليات الإرهاب والفوضى لأسبابه الخاصة ومآربه؛ فبالإضافة إلى المباركة الأميركية، سهلّت أوروبا أيضاً خروج مواطنيها الإسلاميين للاِلتحاق "بداعش" و"النصرة". كما أن بعض الدول الخليجية موّل عمليات الأكراد والمعارضين على أنواعهم، فيما سمحت تركيا للمقاتلين العبور عبر أراضيها بدون تأشيرات، ولبعض النازحين الإقامة الدائمة. أما إسرائيل، فطبّبتْ ودَاوتْ وأعادتْ تأهيل جرحى "النصرة" و"داعش". وهكذا، كلٌ وضع بصمته على كوارث المنطقة وعجن عجنته في أتون القتال والدمار بذريعة محاربة الإرهاب..

***

مبنى الوصول في مطار القاهرة بدا لي يومها أشبه بقاعدة عسكرية بكل معنى الكلمة. كان الركاب يُعَاملون كما لو كانوا مُصابين بمرض جنون البقر. والطريف أن مرض جنون البقر يومها كان قد اِندلع فعلاً عن طريق الصدفة مع فوز مبارك بالإستفتاء! فكان الواصلون بعد النزول من الطائرة مباشرة يُغمّسون أرجلهم بمساحيق عجيبة ويُفَتَشُون جسدياً أثناء وقوفهم في الطوابير المنتظرة عند نقاط

الجوازات، كما لو كانوا يخبئون جنون البقر في جيوبهم! شيء عجيب لم أرَ مثيلاً له من قبل. وعندما جاء دوري، شعرت من عبسة مأمور الجوازات أنه قرر سلفاً التحيز ضدي لأسباب غامضة. وللتخفيف من عبسته، أخبرته من بين أمور أخرى أنه سبق لي وسكنتُ في مصر مع العائلة خلال عهد السادات، وأن والدي عمل بشركة كان لها مشروع دولي مشترك مع مصر في الصحراء الغربية.

...نظر المأمور إليّ نظرة (تشرفنا يا باشا) بِاستهزاء، ونطق كلمة السرّ الشهيرة والعبارة المألوفة: "تفضل اِسترح، سيكون معك مسؤول آخر". عبارةٌ بدأ تكرارها يراكم طبقات من البؤس والتوجس في أفكاري لتصبح عنواناً عريضاً كلما مررتُ بمطار أو عبرتُ بحدود. عبارةٌ كانت دوماً تعيد إلى أذهاني تجربة مطار "هيثرو" حيث سمعتها أول مرّة. يا إلهي، ربما أخبرته شيئاً ضرب على وتر أوجعه، أو أنه أراد أن يوجعني لسبب من الأسباب. ربما هو نفسه كان "إخوانجياً" ولم تعجبه إشارتي الإيجابية إلى السادات!

إلا أن الأمر في نهاية المطاف لم يكن كما توهمت. جلّ ما كان يريده التأكد فقط ما إذا كنتُ مصرياً متجنساً في بريطانيا وهارباً من الخدمة العسكرية، أو "إخوانجياً"، أو سلفياً مغترباً مناهضاً لمبارك! والحق يقال إنهم لو كانوا يعلمون عن ميولي الإنسانية يومئذ، وكم كنتُ بعيداً عن لعبة الأديان، لكانوا حملوني إلى الفندق بموكب رسمي مكرماً معززاً. لم أكن بوارد مناقشة معتقداتي الإيمانية مع مسؤولي الجوازات، ولا هم كانوا سيتفهمونها أصلاً. كيف كنتُ سأشرح لهم أن "ديني لنفسي ودين الناس للناس" وقد قتلوا الحلّاج بسببها؟ رجال النظام كانوا يحاربون الإخوان المسلمين والسلفيين، لكن حتى لو شعروا حينها أني كنت علمانياً أصيلاً، لكانوا اِعتبروني شيوعياً أو ملحداً أو كافراً، وربما وضعوني على لائحة المطلوبين أسوة بالإخوان

والسلفيين والمرتدين. السبيل الوحيد لتوخي الحذر وطلب السلامة أثناء وجودي في مصر كان تجنّب الحديث عن السياسة والدين والتبصير! وكم سرّني يومها أن سلطات المطار لم توقفني ساعات طويلة، وإنْ كان توقيفي الروتيني مزعجاً للغاية..

في الأثناء، كان مديري ينتظر قدومي بأحد فنادق مصر الجديدة، وقد شاء أن يصحب معه رئيسه من كندا لإتمام صفقة كبيرة سبق لي وعملت على "طبخها" مع وزارة الإتصالات المصرية. لم يكن قد مرّ على وجود رئيسه طويلاً بالشركة في كندا، ولم أكن قد اِلتقيته من قبل. كانت تلك زيارته الأولى لمصر والشرق كله، لذا، فالإنطباعات الأولى كانت حرجة وحاسمة، وكان عليّ وعلى مديري ضبطها له في الإطار الإيجابي. وما إن وصلتُ إلى بهو الفندق حتى وجدتُ صالة الإستقبال بحالة من الفوضى والإزدحام كما لو كانت قاعة وصول بمطار صغير. جنود هنا وعساكر هناك ورجال مخابرات في كل مكان. كان رجال التحرّي يرتدون الجلاليب التقليدية ويحملون العصي الخشبية الطويلة ويضعون حقائب رثّة على ظهورهم، متظاهرين بأنهم من عامة الشعب كما في الأفلام المصرية القديمة. ومع إطلالتي عند الإستقبال رآني رئيسي ورئيسه من مقهى الفندق فوق الصالة مباشرة، وأشارا عليّ بالإنضمام إليهما عند الإنتهاء من إجراءات التسجيل.

ويسكي حلال!

كان ما يزال أمامنا ثلاث ساعات للدردشة قبل موعد الإفطار. سارعتُ إلى غرفتي، رميتُ حقائبي، وعدتُ مهرولاً إلى المقهى المفتوح حيث كان زميلاي يحتسيان مشروبهما. كل شيء بدا مريحاً بهيّاً على الطريقة العصرية الأوروبية. ومن كؤوس النبيذ وزجاجات البيرة

الفارغة على الطاولة، بدا أنهما كانا قد "توغلا" عميقاً بالشرب على طريقة الأنجلو - ساكسون، لا سيما أن أجسادهم في أوروبا كالجمال عندنا تختزن في أجوافها كميات هائلة من الكحول. وهم عادة لا يلتزمون بصنف واحد، بل غالباً ما يتعمّد مدمنوهم على تبديل المشروب في الجلسة الواحدة حسب المزاج والوقت المتاح. كان مديري يشرب بيرة مصرية (ستلا) ويدخن سيجاراً كوبياً فاخراً (هويو)، في حين كان مديره يحتسي نبيذاً أحمر فرنسياً (سانت أمليون) ويدخن سجائر كندية شعبية (دو مريور). أما أنا، فإختر مشروباً قوياً بعد يوم طويل من النكد وسمّ البدن والإرهاق. وبلهجة مصرية مضحكة، ناديتُ الجرسون وطلبتُ كأساً من الويسكي الجيد (تشيفاز ريغال)، وكان يومها مشروبي المفضل !

"آسف سيدي، لا يمكنني تلبية طلبك". قالها لي كما لو كان واثقاً أن هذا النوع من الويسكي قد نفذ "على حظي" التعيس. فقلتُ له بنصف اِبتسامة وبتهكم كامل: "لا تخبرني أن "التشيفاز" نفد على دوري، فليكن، أعطني نوعاً آخر. أعطني "جوني" أحمر، أو أسود، أو كحلي، أو أي ويسكي؟". "آسف سيدي، ما أقصده أننا لسنا مخولين أن نقدم لك مشروبات روحية خلال شهر رمضان، لدينا تعليمات بعدم تقديم الكحول للمسلمين". قالها كما لو كان متأكداً من ديني وفصيلة دمي ومذهبي؟ هنا، بدأت أفقد رشدي مع كل كلمة بيننا. "وكيف عرفتَ أني مسلم يا صاحبي؟". "سيدي، أنت عربي شكلاً ونطقاً، لا؟". (ولطالما كنتُ أسمع مثل هذه المغالطات؛ أنت عربي فأنت مسلم، أنت شرقي فأنت مسلم، أنت مسلم فعندك أربع زوجات، أنت عربي فأنت إرهابي إلخ). وبالفعل كنتُ أحاوره باللهجة المصرية وبصوت مرتفع أمام زميليّ وباقي النزلاء وعلامات الذهول والتعجّب بادية على وجوه الجميع. دار مديري نحوي وسألني بنظرة قلقة واِستهجان: "ما

المشكلة، هيش؟"، (و"هيش" هذه، إسمي المختصر عند أصدقائي وزملائي غير العرب!)..

تجاهلتُ سؤال مديري وطلبتُ من الجرسون بنبرة حاسمة اِستدعاء رئيسه على الفور. لم أفهم منطق المنع ولم أقبله، لا سيّما أن زميليّ كانا يحتسيان الكحول ويدخنان أمامي وأنا برفقتهما ضمن وفد واحد من نفس الشركة؟ دقائق قليلة وجاءني المسؤول، وكان قد فهم من الجرسون المشكلة سلفاً وبادر بالقول: "أرجوك سيدي أن تقبل اِعتذاري، لدينا تعليمات صارمة من وزارة السياحة". وبدون تردد قلت له: "لا يمكنني قبول هذه التعليمات لأنها لا تنطبق على حالتي، عليّ مقابلة المدير العام فوراً". جدالنا الصاخب لم يحرجني أمام زملائي ويحبطني فحسب، بل أثار أيضاً فضول النزلاء من حولنا وتسبب في موقف فاضح لإدارة الفندق. وبينما ذهب المسؤول ليهاتف المدير العام، شرحتُ الإشكالية الحاصلة لزميليّ اللذين كانا مثلي، مذهولين من منطق الشرب وشهر رمضان والعروبة والإسلام والفتح المبين وقناة السويس وكليوباترا، ولم يفهما - مثلي – كيف اِفترض النادل من عندياته أنني كنت مسلماً أساساً؟ ولِمَ لا أكون هندوسياً أو يهودياً أو حتى عربياً مسيحياً؟ الواقع أنني لم أكن أياً من هذه، كنتُ نزيلاً بصفتي البريطانية، وقمتُ بتسجيل وصولي باِستخدام باسبوري البريطاني، وهو أصلاً لا يلحظ ديانتي، أو اسم أبي، أو أمّي، أو مهنتي أو حتى أوصافي!

وصل المدير العام إلى طاولتنا، وكان سويسرياً أصيلاً وسارع إلى الإعتذار بدوره عن الوضع وسلّمني صورة المذكرة الصادرة عن وزارة السياحة المصرية باللغة العربية كدليل دامغ على شرعية التعليمات الرسمية. ولما قرأتها، قلتُ له بتكهم أيضاً: "لكنها لا تنصّ على ضرورة إجراء فحص حمض نووي لإثبات ديانة النزيل، أليس

كذلك؟". بيّنت له مكمن الخطأ في المسألة وشرحت له كيف أن موظفيه فسروا تعليمات الوزارة حسب اِنطباعاتهم من أشكال الناس أو لهجاتهم، وليس حسب الواقع أو القانون. وقلتُ له إن الجرسون العتيد منع المشروب عني فقط لأنه قدّر من عنديّاته أني عربي ومسلم، فيما أنا لم أكن كذلك. رفعتُ جواز سفري من جيبي ولوّحت له به، وسألته إن كان هناك ويسكي مُحلّل للأوروبي ومُحرّم عليّ؟ فطلب مني مرافقته قائلاً :"هل لنا مناقشة الأمر في مكتبي لو سمحت؟" طلبها بأدب وحصافة، ونظر إلي نظرة رجاء وتوسل ..

على الطريقة اللبنانية

في فناء مكتبه، شرح المدير العام موقفه بطريقة تبريرية مفصّلة وقال: "مع أني أتفهم وجهة نظرك وخيبة أملك، لكني من الناحية القانونية لا يمكن إلا أن أمتثل لنصّ التعليمات وروح المذكرة. وليس صعباً على أحد أن يقدّر من مظهرك أنك عربي، وأغلب الظن أنك مسلم. وإذا بدا للنزلاء الآخرين أنك تحتسي الكحول، فقد يُطلب منا مساواتهم أسوة بك. ثم إننا لا نعرف مَن مِن "النزلاء" يتحرّى علينا ويراقب اِلتزامنا خفية بتعليمات الوزراة. وهكذا، يمكن تغريم الفندق بناء على تقاريرهم السرية الإنطباعية. ضف إلى ذلك أن موضوع الإخوان والسلفيين ومواقفهم من الكحول والسياحة مقلقة لمبارك، ولن يسمح لأحد إحراجه بسببها مع الإخوان والسلفيين". هكذا لخّص المدير العام الوضع لي من كافة الجوانب كما لو كان يعرض حال الفندق على مجلس إدارته! ومع ذلك، لم يختلف تصرفه معي عن تصرف أي دكنجي عربي في أي سوق شعبي من باب أنها "تعليمات حكومية". وخلص "مرافعته" متوسلاً أن أتفهم حساسية الأمر، ووعدني بخصم معتبر على سعر الغرفة. المفارقة أن مرافعته تلك جعلتني "أشعر" أن

مصلحة مصر العليا كانت متوقفة فقط على رغبتي بكأس من الويسكي؟ وهكذا، تفهمتُ موقفه وقبلتُ إعتذاره. ومع أني لم أزرْ مصر لتغيير ثقافتها، أو لكسب حجة قانونية عليها، إلا أني كنتُ منزعجاً جداً من عدم مقدرتي على تغيير موقفه أو الإستمتاع بمشروب مع زملائي بعد يوم طويل من الإرهاق والإحباط. لكن صراحة القول إنني كنتُ محرجاً جداً أمام زميلَيّ وغاضباً من فشلي في إدارة المشكلة، لا سيّما أنني كنتُ أسعى لإبهار مدير مديري الكندي بمقدراتي البهلوانية ومواهبي التفاوضية، خاصة أني كنتُ حريصاً على أعطائه الإنطباع السليم كوني ألتقيه لأول مرة!

عدتُ من مكتب المدير العام إلى طاولتي مكسور الخاطر. شرحتُ أعذار الفندق لزميليّ، وكانا يحتسيان المزيد من الكحول، وينصتان إلي كما لو كانا يستمعان إلى حكواتي من زمن أبي جعفر المنصور. في الأثناء، طلبتُ من نفس الجرسون أن يأتيني بإبريق شاي وكوب من الماء المغلي. وبدهشة شديدة، نظر مديري إلي نظرة إستهجان لأنه لم يعهدني من أصحاب الشاي في تلك الفترة من حياتي. كنتُ في أيام الوظيفة مدمناً على شرب القهوة. لكنه سرعان ما فهم خواطري ورسم لها إبتسامة معهودة. مظروفات الشاي التي جاءوا بها بجانب الإبريق كانت تدل على أفخر أنواع الشاي، كما أن الإبريق نفسه، كان من النوع الفضي الملوكي الثقيل. كانت عملية تقديم الشاي مجرد تمويه أمام النزلاء، والإبريق الفضي كان مملوءً بالويسكي ومخلوطاً بالكولا. وهكذا هبط الخليط بلون الشاي بجانب بخار كوب الماء الساخن وإناء الحليب ومجمع السكر. ذلك كان المخرج السندبادي لحلّ الإشكالية على الطريقة اللبنانية. خدعة بدائية قديمة للفّ على القانون المصري الملتبس أصلاً. بلدٌ يدّعي السياحة، وهي أصلاً كادت تختفي حتى بدون إعتراض الإخوان والسلفيين! ومع أن القانون المصري

يسمح بالكحول لمن هو فوق الثامنة عشرة، لكن ليس خلال رمضان. وكذلك هي المحلات في المطار تبيع المشروبات الكحولية في رمضان، لكن لا تقدمها على الطائرات. قوانين اِرتجالية عشوائية لا منطق لها ولا أساس على الطريقة المصرية الشعبية. في لبنان، مثلاً، تُسمح المشروبات الكحولية بموجب القانون في كل مكان صيفاً وشتاءً، اللهم إلا إذا أرادت قرية مسلمة عدم بيعها لأسبابها الشرعية وليست القانونية. في السعودية، مثلاً، تُمنع المشروبات الكحولية في كل مكان كل الأوقات. أما في مصر، فهناك سماح ومنع، ونصف سماح وربع منع، تحت سقف واحد حسب المواسم والجنسيات والأوضاع السياسية والأمزجة العامة والإخوان.

وعلى "أكواب الشاي" والمزيد من الدردشات حول تناقضات المفاهيم بين الشرق والغرب، كنا ننتظر مدفع الإفطار عبر جهاز النداء الآلي. وعلى دويّه المسجل، اِنتقلنا إلى خيمة ضخمة مجاورة حيث ظهر الإعداد فيها لأنواع الطعام مذهلاً وشهيّاً بشكل لا يُصدق. الأطباق فُرشت على طاولات وصلت بطولها إلى جوهانسبرغ كما لو كان الأكل عليها كافياً لإطعام كل أفريقيا. وعلى أنغام الموسيقى الشرقية الخفيفة وأجواء هارون الرشيد الساحرة، كانت أنوار الشموع تنقل الشرقيين فينا إلى عصر الفتوحات الأندلسية، والغربيين منا إلى عصر الصليبيين أيام لويس التاسع!

أخناتون وموسى

على الرغم من البداية المزعجة لمشوار القاهرة، كانت الرحلة موفقة وناجحة، حققنا منها أهدافاً تجاوزت ما كنا نصبو إليه. عاد مدير مديري إلى كندا وحمل تحت إبطه عقداً قيّماً، وبقيت أنا ومديري أياماً إضافية لسدّ بعض الثغرات التجارية. مديري لم يكن ملماً بتاريخ

مصر القديم، لكن لم يكن راغباً بزيارة الأهرامات مرّة أخرى بعد أن كان قد زارها عدة مرات في مناسبات سابقة. فقررنا الإبقاء على المألوف وزيارة المتحف الوطني، وخان الخليلي، والأزهر. ومَن يزرْ المتحف عادة لا يكتفي بنصف يوم للتجول في أروقة التاريخ ومقابلة الفراعنة وإلقاء التحية عليهم، لا سيّما أن الكثيرين منهم ما يزالون يثيرون الجدل حتى يومنا هذا. أخناتون، كما سبق وذكرت، له سيرة ذاتية أذهلتْ شعبه وجيرانه وأعدائه، وأبهرتْ مؤرخيه على حدّ سواء.. كيف لا، وقد اِستنبط ديناً توحيدياً اِستمده من خالق الشمس "تون". قرص من نار لولا دفئه ونوره لما مشتْ نملة من جحرها - حسب تعبيره في نشيده الشهير. وما يثير الحيرة فعلاً حول أفكاره، أنه كتبَ شعراً إيمانياً بتأليه "الخالق" سرعان ما ظهر فيما بعد بالتّوراة نفسها، كما لو كان هو نفسه النبي موسى، أو كما لو كانت التورارة ذاتها قد "أستعارت" أشعاره واِقتبست فلسفته! ودين أخناتون توحيدي بامتياز، كان مبتكراً وذا بُعد تقدمي لدرجة أنه حيّر العلماء واللاهوتيين عبر التاريخ. ولو كان أخناتون مدركاً لحجم الإلتباس و"الفوضى" والريبة التي خلقها وتركها وراءه، لإختار أن يظلَ جزءً من المؤسسة المصرية الكلاسيكية، ولما اِنفصل عن إلهه القديم "رع". أما اِرتباط أخناتون بموسى، أو العكس، فليس فريداً ولا جديداً. كثيرون سلطوا الضوء على المسألة واِعتبروا موسى من معاصري وأتباع أخناتون. ولعلّ أشهر مَن تناول هذه الفرضية عالم النفس سيغموند فرويد في كتابه "موسى والتوحيد". فاِستنتج أن الديانة اليهودية وُلدت من رحم فلسفة أخناتون على أيدي موسى قبل أن ينقلها لعبيد مصر! وعلى نفس المنوال تقريباً، هناك علماء آخرون من الشرق والغرب يعتقدون أن أخناتون هو موسى بذاته، وبالتالي بدأوا تقويماتهم التأريخية اِنطلاقاً من فترة أخناتون نفسها. ذلك أن معتقداته التوحيدية الثورية هي التي أدّت إلى بداية الإضطرابات في جميع أنحاء الشرق

الأدنى، مما أجبر الناس (ومنهم اليهود) على الهجرات الجماعية والنزوح بكل الإتجاهات. وتبعاً لهذه النظرية، فقد آثر ملوك أشور وبلاد فارس ومصر آنذاك الإنعزال بداخل بلدانهم والتركيز فقط على قضاياهم الداخلية، متجاهلين العالم الخارجي كلياً. وهذا، بدوره، ما يُفسّر أن الحضارات الكبرى في حينه لم تكن مهتمة بما كان يحدث في المدن الصغيرة خارج حدودها!

مصر في عهد أخناتون كانت تعيش وقتاً مُربكاً للغاية ومتسارعاً في تغيراته. وما إن مات (أغتيل)، 1336 ق.م، حتى تهاوتْ منطقة كنعان (شرق المتوسط وبعض ممالك المدن في سوريا) بأكملها واِختفت في غياهب العصور المظلمة. فجأة، ضاعت المدن العامرة واِختفى التاريخ من الوجود حتى عام 850 ق.م. وربما تزامن ذاك الغموض مع الإنقراض المفاجئ للحضارة الميسينية إلى درجة أننا لم نجد سجلات أو مراجع عن تلك الحقبة الغامضة، وكأنها هُرّبت عمداً في فوضى الكوارث والبراكين والمجاعات والأمراض التي ضربت المنطقة مرّة واحدة، أو كأن الزمن قد ضاع من سجلاتها.. ومن المفارقات الملفتة أيضاً أن الفترة الزمنية لأخناتون تتوافق تماماً مع أحداث مريبة وغامضة، بدءً من "الخروج" نفسه والتيه كما في التّوراة، وتدمير طروادة، والسقوط المفاجئ للإمبراطورية الحثية، وخراب سدوم وعمورة، واِختفاء أوغاريت، والظهور غير المتوقع "لأقوام البحر" على الشواطئ الشرقية للمتوسط. وعلى الرغم من وجود بعض الآثارات المرئية للكوارث والخراب على المستوطنات في جميع أنحاء كنعان، إلا أن روايات التّوراة لا تتوافق تماماً، أو بدقة مع الجغرافيا. وقد تردد كثيراً في دوائر التوثيق أن المجاعة والزلازل والأوبئة ربما ضربت المنطقة بأكملها، ليس فقط بوقت واحد، لكن أيضاً مراراً وتكراراً، لا سيّما على الساحل الشرقي للمتوسط. هناك العديد من الفرضيات المتعلقة بتلك الفترة الغامضة واِرتباطها تحديداً

بشخصيتي موسى وأخناتون، لا بل هناك من المؤرخين مَن يستشهد بتألق الفينيقيين على إعتبارهم "الشيء الوحيد" الذي كان يتجوّل في المتوسط خلال تلك العصور المظلمة. وعليه، ليس من المستغرب أن نجد العديد من البُحّاث يحشرون أي حدث غامض ضمن تلك الحقبة المظلمة (1850-950 ق.م) مثل مملكتي داود وسليمان في فلسطين، أو مملكة بلقيس في سبأ، أو مملكة زبيبة في قيدار. إنها فترة غامضة لا يزال معظمها لغزاً عويصاً حتى يومنا هذا. إذ لا يبدو أن أحداً قادر بعد على تقديم أي دليل موثوق على الأحداث ذات الصلة. الملفت في هذا السياق أن بعض البُحّاث طلعوا علينا مؤخراً بنظرية مفادها أن موسى صعد على جبل "اللوز" في منطقة تبوك السعودية، وليس على جبل سيناء. وقد إستشهد هؤلاء البُحّاث على موقع موسى الحقيقي بتشابه البيئة السعودية مع الوصف التوراتي لجبل موسى ووجود صخور عليها رسوم رمزية لبقر وفيلة بالإضافة إلى قرب جبل اللوز إلى مديان، حيث التقى موسى ابنتي شعيب (يثرون).

واسطة العقد

وبسبب موقعها في وسط العالم العربي بين عُمان والمغرب، تمثّل مصر التوازن المثالي بين الإعتدال والإنسجام. وهي ببعض النواحي تشبهه إعتدال البحر الأبيض المتوسط نفسه مقارنة بالبحار الأخرى. إذ يُعَد المصريون من بين أكثر الناس إعتدالاً وقابلية للتكيف وواقعية في العالم، ولديهم ثقافة وتطور لم يتوقفان أبداً. ورغم آلاف السنين من تراكم الحضارة عندهم، إلا أنهم متواضعون للغاية وبسطاء وغير معقدين. ومصر لا تشبه أي بلد آخر في المنطقة، إلى درجة أن الغربيين يعتبرون أنفسهم ورثة هذا الجانب الوسطي من الحضارات القديمة وحماته (المصرية واليونانية والرومانية). وربما لأن مصر -

على عكس معظم حضارات الشرق الأدنى - نجتْ بأعجوبة من أي اِحتلال أجنبي طويل على كل أراضيها - فقد اِستمرت دون تغيير جوهري جيلاً بعد جيل. والغرب الذي لم يكن متحضراً في العصور القديمة، تمكن بذكاء وخبث من اللعب على التاريخ وربط نفسه زوراً بجذور مصر المتحضرة، على أساس أنه كان آخر مَن حكمها. ورغم هذا الوهم الغربي، يقدم الغرب نفسه للعالم اليوم وكأن الفلسفة والحضارة لم تكن قد ظهرت قبل الإغريق! وهذا الزعم الذي ينطلي على الكثير من الناس حول العالم، لم يكن ممكناً لو أن المصريين لم يفقدوا القدرة على الدفاع عن أنفسهم بوجه المحتلين. والأطماع الأجنبية بمصر لم تقتصر على حقبات التاريخ البعيد. فخلال العصر الحديث، تنافس البريطانيون والفرنسيون على نهب مصر، تماماً مثل الأشوريين والفرس قبلهم، إلا أن قادة القتال في العصر الحديث هم أقرب إلى أذهاننا من القادة القدامى، مثل نيلسون ونابليون. فكان العراك بين جيوشهما على آثار مصر أشبه بعراك الديكة. ولو اِستطاع الغربيون، لكانوا حملوا الأهرامات و"أبو الهول" على ظهورهم وأبحروا بها إلى باريس ولندن وفرنكفورت وواشنطن وروما.

إشكالية مصر بالنسبة إلى الغرب عويصة جداً. فهو، من جهة، يحسدها ويستكثر عليها تلك الحضارة الجبّارة إلى درجة أنه زوّر الكثير من سرديات التاريخ؛ فمرّة نقرأ أن نفرتيتي كانت من أصول إيجية، أو من جزيرة كريت، أو من الحثيين (الأناضول). ومرّة نقرأ أن الفراعنة لم يكونوا من أفريقيا أو حنطيي البشرة. فليس معقولاً - برأي الغرب - أن يكون بُناة الأهرامات العظماء غير أوروبيين. وإذا كان مستحيلاً أن يكونوا أوروبيين، فلا بد أنهم جاءوا من الفضاء – حسب مزاعم الغلاة من الغربيين! ورغم أنه لا توجد هناك إحصائيات علمية دقيقة، إلا أن الغرب اِستحصل من آثارات مصر ما يفوق المليون قطعة، رغم

اِسترداد بضع قطع بدون سياق تاريخي أو جغرافي. ومثلما اِستكثروا على مصر تاريخها الخالد، حاولوا أيضاً قطع أوصالها عن محيطها بالنظر إلى أهمية دورها وتراثها كواسطة العقد بين شمال أفريقيا والشرق الأدنى. ومهما كتب المصريون عن مصر، ومهما قلّل الغربيون من قيمتها الحضارية، كلاهما يفشل في مناله. فخلال آلاف السنيين ظهر في مصر من التيارات العقائدية والتراثية والعلمية والعمرانية والزراعية وغيرها ما يغطى ميادين الكرة الأرضية بأجمعها. فعلى حلبتها تصارع الخير والشر، والشمس والقمر، والرعي والزرع، والفضيلة والرذيلة، والوجود والعدم، والحرب والسلم، والجفاف والطوفان، إلخ. بل من خلال أهراماتها أيضاً اِرتبط فضاء البلد بحجارة أرضها، وكواكبه بنهرها. وهكذا، ليس هيناً على الغربيين أن يقرّوا للمصريين بعظمة تاريخهم وجبروت حكامهم وجمال حضارتهم!

***

آراء مثيرة للجدل كهذه كانت تدور بيني وبين مديري أثناء تجوالنا في أزقة القاهرة العتيقة وجوارها. كنا نتسلّى بمناقشتها كلما رأينا أثراً في محلات التحف وشاهدنا خرطوشة من خراطيش الفراعنة. وفي أمسيتنا الأولى بعد سفر المدير الكبير، قصدنا مطعماً قيل لنا إنه متخصص بتقديم رقصات شرقية مميزة مع سفرة الإفطار! وبالفعل، شدّت نظرنا راقصة شرقية روسية ضاهت ببراعة رقصها أهم الراقصات المصريات في ذلك الوقت، ناهيكم عن جمالها وأنوثتها. المفارقة أن مصر التي اِخترعت الرقص الشرقي على مستوى الدول العربية، كانت يومئذ تشهد منافسة شديدة من الراقصات الروسيات والأستونيات. والأغرب أن رقصهن لم يكن أكثر حرفية وتقنية فحسب، بل كان أيضاً أدق أداءً واِنسجاماً مع الموسيقى الشرقية منه

إلى أداء الراقصات المصريات. وحتى كلفة الراقصة منهن، فكانت لا تزيد عن نصف كلفة الراقصات المصريات في عصر مبارك! ربما كان شهر رمضان سبباً آخر لإحتجاب الراقصات المصريات بالعموم، وإن كان بعضهن يرقص "محجباً" بزيّ "محتشم" نسبياً! والرقص الشرقي بين الفنون العربية أشبه بصحن الفول بين الأطعمة المصرية. لا يمكن لبيت أن يخلو منه في كل المناسبات. ولعلّ أهم مناسبة اِحتُفل بها بواسطة أشهر راقصات مصر كانت أثناء زيارة جيمي كارتر وهنري كسينجر عام 1976م. يومها رقصت لهما نجوى فؤاد كما لم ترقص لأحد من قبل. لم تكن وحدها في أداء المواهب والدلع أمام السياسيين، فكانت هناك موهوبة مثلها، سهير زكي، وقد تمايلت، هي الأخرى، بخصرها أمام نيكسون، وبورقيبة، وشاه إيران، وعبد الناصر، فضلاً عن ملوك وأمراء عرب كثيرين. وتاريخ الرقص المعاصر في مصر شهد مناسبات كثيرة بمساهمات من أشهر الراقصات أمثال ساميا جمال، وناهد صبري، ودينا، وفيفي عبدة، ولوسي، وغيرهن.

رأس الحسين

في اليوم التالي، وبعد المتحف، توجّهنا إلى "خان الخليلي"، وهو مَعْلم لا تكتمل زيارة مصر بدون التعرّج عليه. وتقول الرواية التقليدية أن المدعو "جهاركس الخليلي"، أحد الأعيان العثمانيين، كان مُنتدَباً من الباب العالي بالقاهرة في القرن الرابع عشر، فأُعجب بالموقع وأمر بإنشاء "البازار" عليه، رغم أن الخلفاء الفاطميين كانوا يستعملون المكان "جبّانة" لعوائلهم فيما مضى. وبعد غزوهم لمصر عام969 م، بنوا بجانبه أيضاً جامعة شاملة تعرف الآن بالجامعة الفاطمية أو بالأزهر. ومع أن مؤرخين كثيرين اِتهَموا العثمانيين السُنّة بإقامة

"خان الخليلي" على أجساد الفاطميين نكاية بهم وتحقيراً لهم، إلا أنه لا توجد وثائق مُبرمة تشير إلى أنهم هدموا المقابر اِنتقاماً من حكم الفاطميين الشيعة على مصر. وبجوار البازار، كان الخلفاء الفاطميون قد بنوا أيضاً مسجداً يقال أنه يضم رأس الإمام الحسين، حفيد النبي محمد، الذي قتل على يد الأمويين في العراق عام 680م. من المفارقات المذهلة في مصر السُنيّة أن مسجد الحسين (الشيعي) يُعتبر الآن أحد أقدس المواقع الإسلامية ومناطق الجذب الشعبي، ويأتي في المرتبة الثانية بعد الأهرامات من حيث الإيرادات السياحية القومية. المثير أيضاً أن الممارسات والطقوس والشعائر الشيعية ما زالت معروفة ومطبقة في مصر على نطاق شعبي واسع. المفارقة أنها ممارسات تُؤدى بإجلال وقداسة بسبب حبّ المصريين للحسين نفسه، وليس بسبب الفرض الفاطمي الذي شيّد مسجد الحسين أصلاً. والواقع أن مصر ليست الدولة الوحيدة في التاريخ التي تغيرّت معتقداتها المذهبية بمراسيم من حكامها الجدد. ذلك أن إيران والسعودية مثالان آخران في المنطقة. الأولى تحوّلت من المذهب السني إلى الشيعي بدعوة من حاكمها إسماعيل شاه (1501م)، فيما تحوّلت الثانية من السنيّة إلى الوهابية بدعوة من أميرها محمد بن سعود (1740م). ورغم فارق الزمن بين المثالين الفارسي والسعودي، بيد أن هدفهما كان الإبتعاد عن الخطّ العثماني السّني لغرض مناهضته وتأليب الناس على الأستانة العلّية.

قمار حلال

بعد إفطار الكباب والتنزّه في حيّ الحسين، اِخترنا قضاء الساعات القليلة الأخيرة من الليل في ملهى الفندق نفسه، لا سيّما أننا كنا على وشك مغادرة القاهرة في صباح اليوم التالي. وأضواء الكازينو في

الفندق وصالات القمار خلال شهر رمضان كانت بالنسبة لي أمراً مستغرباً، ناهيكم عن الموسيقى الصاخبة المنبعثة من المكان. كانت أغاني مادونا وباري وايت وويتني هيوستن، تلعلّع في ممرات طابق الملهى لتخفف من أوجاع العشاق وتزيد من نشاوى السكارى! وكعادته في إستباق الأولوية، دخل مديري إلى الصالة قبلي وإستقبلته على الباب (بغنج ودلع) صبيتان حسناوان، وحارس بشوش. وبعد التحية العابرة، سارع مباشرة إلى أول ماكنة "بلاك جاك" صادفته. ولما جاء دوري، وكنتُ خلفه بخطوات، تغيّرت وجهوه المستقبلين فجأة ونظروا إلي كما لو كانوا ينظرون إلى "كارلوس" الإرهابي أو آيفن الملعون. وبفظاظة وخشونة، منعني الحارس من الدخول وأعاد على مسمعي ما سبق أن سمعته بالكافيتريا يوم طلبتُ الويسكي اللعينة، وقال: "لدينا تعليمات بمنع دخول المصريين والعرب والمسلمين إلى طاولات القمار". يا إلهي مرّة أخرى، كيف أكون مصرياً أو عربياً أو مسلماً، ولا أكون أرمينياً أو يهودياً أو غجراً؟ كيف قرأ عرقي وديانتي ولغتي ولم أنطق بكلمة بعد؟ لا بد أن مظهري كان نمطياً جداً بحيث كنتُ للمصريين كل شيء غير مرغوب به!

وعلى الفور بدأتُ أغلي وإنزلق إلى فقدان صوابي من جديد! كان لا بد من طلب مدير الفندق مرّة ثانية لوضع حدّ لتلك المسخرة ولذلك الهراء السياحي في منتصف الليل! يريدون مصر دولةً سياحية لكن على الطريقة الخنفشارية! في المرّة الأولى تحايلنا على الإجراءات وقمنا بعملية تمويهية لإحتساء الويسكي بإبريق الشاي، لكن كيف سأموّه دخولي هذه المرّة إلى صالة القمار وتحت أي غطاء؟ قبعة الخفاء مثلاً؟ نطق الحارس بكلمة السرّ الشهيرة وقال: "تفضل إسترح، مدير الصالة في طريقه إليك". كان مديري في تلك الأثناء غارقاً باللعب ولم يستفقدني لحظة واحدة، أو ربما خالني أجرّب حظي على إحدى الطاولات بعيداً عنه. وبنهاية المطاف لم يكن بإستطاعة الفندق

إلا السماح لي بالدخول على أني بريطاني الجنسية وعضو ناشط في كازينو "باراكودا" في لندن. ليلتها خسرتُ ما يعادل 150 دولاراً، لكن كسبتُ جدالي معهم!

في صباح اليوم التالي، تركت مديري خلفي، وكانت رحلته متجهة شرقاً إلى الكويت بمنتصف اليوم، بينما رحلتي كانت متجهة غرباً إلى لندن في الصباح الباكر. وكأنما حظي السيء كان لي دوماً بالمرصاد، خاصة في أوقات الضرورة والحشرة، فقد صحوتُ متأخراً بسبب ليلة الكازينو ووصلت إلى المطار بأعجوبة. أنهيتُ إجراءات الوزن والتسجيل وتوجهتُ مباشرة إلى منصة الجوازات. "هشام، كيف كانت إقامتك معنا؟". سألني مأمور الجوازات بأدب وإحترام كما لو كان مهتماً فعلاً بحقيقة شعوري وعواطفي؟ أجبته بالشكر الجزيل والإمتنان على الكرم وحسن الضيافة! فنظر إلي بنصف اِبتسامة ثم نطق بكلمة السرّ الشهيرة وقال: "اِسترح قليلاً وسيكون معك مأمور آخر". "لماذا؟"، سألته، فأجاب: "لا تقلق، إنها مسألة روتين فقط". وبعد اِنتظار وجيز تبين أن إدارة الجوازات عند المغادرة - كما عند الوصول - أرادت أن تتأكد أني لست مصرياً بجنسية بريطانية، أو لم أكن فلسطينياً إرهابياً، أو إخوانياً، أو سلفياً. كانت الحركات الإسلامية "عقدة" مصر في عصر مبارك، كما في عصر سلفه السادات، كما في عصر عبد الناصر، كما في عهد السيسي بعدهم جميعاً. رجعتُ إلى لندن وتحررتُ من "خزعبلات" إيران والبحرين ومصر معاً.

الفصل السادس عشر: ليبيا أمّ القذافي

ريغان وثاتشر والقذافي

بحلول منتصف عام 1994م، كانت الظروف ملائمة جداً لطبيعة أعمالنا ولفرص تصدير جديدة. يومها قررتُ التوسّع إلى السوق الليبي والقيام بزيارة ميدانية لإختبار فرصنا وإختيار ممثلين لنا، وكانت تلك مرّتي الأولى. الولايات المتحدة وبريطانيا كانتا آنذاك تفرضان عقوبات متنوعة على ليبيا، منها حظر الطيران وتجميد الأصول الليبية في الولايات المتحدة. في تلك الأيام لم يكن أمامي للوصول إلى طرابلس الغرب سوى السفر عن طريق البرّ لمسافات طويلة، سواء عبر القاهرة شرقاً، أو من خلال تونس غرباً. والصراع الليبي مع الغرب، كان قد بدأ عام 1986م عندما قرر ريغان قصف طرابلس إنتقاماً من دعم ليبيا للإرهاب الدولي. كانت التهمة الرئيسية الموجهة إلى القذافي في حينه قضية تفجير ديسكو "لا بيلا" في برلين الغربية. وعلى الرغم من شمولية التحقيق ودقته في ذلك الوقت، لم تتمكن السلطات الألمانية من إظهار أي تورط لليبيا مباشرة أو مداورة! لكن ما إن سقط جدار برلين فيما بعد وتم الإستيلاء على مقر الشرطة السرّية في ألمانيا الشرقية، حتى ظهرت أدلة غير مباشرة توحي بتورط القذافي.

كانت حملة ثاتشر المناهضة لليبيا تسير على قدم وساق وتعمل جنباً إلى جنب مع المخابرات الأميركية. وفي نيسان 1984م، قامت تظاهرات عارمة ضد القذافي أمام السفارة الليبية في لندن، وكانت الشرطة البريطانية تضبطها وتحرسها. فجأة وبدون سابق إنذار أُطلقتْ أعيرة نارية من السفارة بإتجاه المتظاهرين، ما أسفر عن مقتل

شرطية بريطانية (إيفون فليتشر). وعلى الفور تفاقمت الأمور بشكل خطير، فقطعت بريطانيا علاقاتها الدبلوماسية مع ليبيا، وإن اِستثنت منها تعاملاتها النفطية المُلحّة. وعندما قررت بريطانيا معاقبة القذافي بعملية عسكرية مشتركة مع القوات الأميركية، لم تكتفِ ثاتشر، ومعها ريغان، بقصف البنى التحتية فحسب، بل اِستهدفا أيضاً خيمة القذافي الشخصية وأحياءً كانت عائلته وهيئته السياسية تسكنها، كما لو أرادا تسليمه رسالة شخصية بالبريد الجوي المباشر. ونتيجة لزيادة العقوبات التجارية الأميركية، وجدتْ ليبيا نفسها بحاجة ماسة إلى مجموعة كبيرة من قطع الغيار الحيوية، لا سيّما للآلات المتعلقة بصناعة النفط، ومعدات الإتصالات، ومواد الغذاء والأدوية. وكعادتها، كانت الدول الغربية مُلزمة بالتعاون مع العقوبات الأميركية الصارمة على ليبيا، خاصة أن العالم كله تقريباً كان عملياً تحت الهيمنة السياسية غير المباشرة للولايات المتحدة بفضل علاقات "الحبّ والغرام" والإعجاب المتبادل بين ريغان وثاتشر. المفارقة المحزنة أنه عندما أراد المجتمع الدولي اِستخدام العقوبات لإنهاء الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، كانت ثاتشر من أشد المعارضين لسياسة المقاطعة. ومن أشهر أقوالها في ذلك الوقت: "إن العقوبات المفروضة على نظام "دي كليرك" في جنوب أفريقيا لن تكون فعّالة لأنها ستضرّ بالشعب بدلاً من النظام". لكن عندما جاء الدور على القذافي، قالت ثاتشر لا فرق عندها بين القذافي وبين الشعب الليبي. إنها، كالعادة، اِزدواجية معايير الغرب!

وكما كان متوقعاً، اِستخدم البريطانيون والأميركيون مع القذافي اللعبة التقليدية المعروفة بـ"الشرطي الودود والشرطي الغليظ" (العصا والجزرة)، مستخدمين إجراءات مقاطعة اِنتقائية حسب المزاج وعند الطلب. فحادثة "لوكربي"، مثلاً، كانت نموذجاً واضحاً على كيفية اِستخدام البريطانيين والأميركيين للتكتيكات المتداورة بينهما لتحقيق

أهدافهما التنكيلية، حتى وإن لم يكن هناك دليل دامغ عن مخالفات ليبية في المقام الأول! يومها قيل للعالم بأسره إن القذافي هو المسؤول عن تفجير رحلة "بان آم" رقم *103*. كانت الطائرة متجهة من فرانكفورت إلى ديترويت، فإنفجرت فوق "لوكربي" في إسكتلندا ما أسفر عن مقتل243 راكباً. ومع أن القذافي نفى مراراً وتكراراً التهمة من أساسها، إلا أنهم وجدوا له مُشتَبَهيَن ليبيَين لإحراجه وممارسة المزيد من الضغوطات عليه. ورغم إصرار السلطات الأميركية والبريطانية على محاكمتهما في محاكم أمريكية أو بريطانية، غير أن القذافي عاند بتسليمهما إلى أن تمّت تسوية المسألة بعد عشر سنوات من ذلك الوقت تحت ضغط المزيد من العقوبات. وقد أُجبر القذافي بنهاية المطاف على قبول المحاكمة في هولندا، لكن بموجب القانون الإسكتلندي! (أسلوب مافيوزي بإمتياز)..

المحزن حقاً أن المحققين الأنجلوساكسونيين أدانوا أحد المتهمين وحكموا عليه بالسجن مدى الحياة (عبد الباسط المقرحي). وكان ذلك رغم إكتشافهم ثغرات كثيرة في الأدلة وتناقضات فاضحة في القرائن. وبعد مرور عشر سنوات على إدانته، أُطلق سراحه لأسباب إنسانية، وكان الرجل يحتضر فعلاً وتوفي بعد فترة وجيزة؟ البعض إدّعى أنه مات بمرض السرطان، بينما زعم آخرون أنه توفي لأسباب "مريبة ومشبوهة"! وفي جميع الأحوال بقي السؤال: لماذا أطلق البريطانيون سراحه بعد أن تقرر قضائياً أنه كان مسؤولاً عن تفجير الطائرة وعن مقتل الكثير من الأبرياء، في حين أن القتل المتعمّد في بريطانيا يستوجب حكماً مدى الحياة؟

القذافي نفسه "إعترف" لاحقاً بتورّط ليبيا في تفجير الطائرة، إلا أنه، كالخبراء والمحققين الدوليين، أدركوا جميعاً أن المتَهَمَين الليبيَين كانا كبشي فداء بكل معنى الكلمة. وبغض النظر عن الحقيقة المجرّدة، فإن

العديد من وكالات الإستخبارات الغربية ووسائل الإعلام الدولية وجّه يومها أصابع الإتهام إلى إيران وليس إلى ليبيا! فوفقاً لباحث اِستقصائي رصين (دوغلاس بويد)، كان هناك رابط قوي سابق بين تفجير "بان آم" الأميركية وبين حادثة إسقاط طائرة إيرانية مدنية (رحلة 655) فوق مياه الخليج. والطائرة الإيرانية كانت قد قُصفت قبل تفجير "بان آم" بستة أشهر بواسطة البارجة الأميركية "يو إس إس فينسينز". البارجة يومها كانت تبحر بشكل غير قانوني في المياه الإقليمية الإيرانية. وحسب قناعة الباحث بويد واِستنتاجه، كان الخميني ودائرة المقربين منه يغلون غيظاً من العدوان الأميركي على طائرتهم المدنية إلى درجة أنهم أقسموا اليمين على الإنتقام تحت أي ظرف ومهما طال الزمن. وبالفعل، فقد تردد بإحدى النظريات أن الإيرانيين اِستأجروا للمهمة المستحيلة الفلسطيني أحمد جبريل، القائد المتمرد "المقاول" في الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. وتلك النظرية صبّت بصميم ما كان بعض المراقبين قد تكهن به. أي إن أميركا عبثتْ بمجريات التحقيق وتلاعبتْ بأدلة "لوكربي" لتبرئة إيران (شكلياً) لكي تتمكن من ضرب عصفورين بحجر واحد. فمن جهة، أراد الأميركون إغلاق الملف لكي يتسنّى لهم توظيف دعم إيران وسوريا تمهيداً لحرب الخليج الأولى ضد صدام، بينما أرادوا من الناحية الأخرى، اِبتزاز القذافي واِنتزاع مليارات الدولارات منه كتعويضات لعائلات ضحايا "بان آم"، لا سيّما أنهم كانوا يعلمون جيداً أن الإيرانيين لن يدفعوا مليماً واحداً! وقد أشارات التقديرات الأميركية يومها إلى أن التعويضات الليبية للضحايا الأميركيين قُدرت بما يزيد عن1.5 مليار دولار، بينما لم تحصل الجنسيات المتبقية على أكثر من 300 مليون دولار فقط. إلا أن القذافي أُجبر لاحقاً على تغطية جميع تكاليف "المسرحية" خلال كافة مراحلها في كل المواقع! وبسبب الأزمة وشدة العقوبات، اِضطر في النهاية إلى اِتخاذ تدابير صارمة لإدارة واردات بلاده

وإمداداتها من خلال المراوغة والتهريب، خاصة عبر مصر وتونس. كما تم أيضاً اِستخدام طرق تهريب فعّالة أخرى بما في ذلك مالطا والسودان وتشاد.

القارة الليبية

رحلتي الأولى إلى طرابلس كانت عن طريق القاهرة، واِستغرقت 24 ساعة من الشقاء و"البهدلة" والعذاب. فكانت إلى حدّ دراماتيكي تشبه زحف قوات المحور والحلفاء خلال الحرب العالمية الثانية. يومها أُجبر البريطانيون (الحلفاء) على تسليم بنغازي إلى روميل (المحور)، والإنتقال إلى "العلمين" شرق طبرق. كانت معركة مصر حاسمة لكسب الحرب، ليس فقط لأن قناة السويس كانت بمثابة حلقة وصل لوجستية حيوية بين الشرق والغرب، لكن أيضاً لأن مصر كانت تهيمن على العالم العربي ثقافياً. وحتى قبل معركة شمال أفريقيا بين تشرشل وهتلر، أو قبلهما بين نابليون ونيلسون، كانت مصر دائماً جوهرة الشرق وتاج أفريقيا، بحيث لا يمكن لأي أحد تحقيق أي مجد دون الإرتباط بالنيل وروافده. ليبيا، من ناحية أخرى، كانت حلقة وصل مهمة للغاية تربط دول شمال أفريقيا بعضها ببعض رغم أنها ليست بجمال مصر ولا تحتضن نهراً طبيعياً على أراضيها (القذافي عمل زمناً طويلاً على إنشاء نهر صناعي، إلا أن الثورة ضده قضت عليه قبل إكماله). شمال أفريقيا على اِمتداده العريض، ومنذ العصر البرونزي، كان مرتعاً طبيعياً للقبائل والشعوب الأمازيغية العريقة بثقافتها وطرق عيشها وتنظيمها. ومثل مصر، لهذه الشعوب تاريخ طويل ولامع يعود إلى عصر نهاية الجليد. المثير للدهشة فعلاً أن مصر نفسها كانت منذ القدم جزءً صغيراً من الأرض الليبية الشاسعة، عندما كانت ليبيا واحدة من القارات الثلاث التي عرفها الإنسان البدائي إلى جانب أوروبا وآسيا.

ووفقاً لأدلة أثرية موثقة، كان الساحل الليبي منذ القدم مأهولاً بالسكان، وكانوا يتاجرون مع "شعوب البحر" في المتوسط، ومع الفينيقيين واليونانيين والمينوسيين منذ الألفية الثانية قبل الميلاد. ويقال إن الفينيقيين أسسوا مستعمرات كثيرة في ليبيا أهمها المستعمرة الثلاثية "أويا" (تربلس)، وهي طرابلس الغرب اليوم! ورغم الكثير من العلّوم الجيولوجية والمراجع التاريخية والأساطير، ما زلتُ غير متأكد من تشابه اسمي ليبيا ولبنان باللغة العربية واللاتينية على حد سواء. أغلب الظن أن الاسمين سابقان للعربية واللاتينية بآلاف السنين ويتشبهان بالنطق واللفظ فقط وليس بالمعنى والدلالة.

فرسان مالطة

أما في زيارتي الثانية، فقد اخترت السفر إلى ليبيا عن طريق البحر. كنتُ سعيداً جداً لزيارة مالطا لأول مرّة، متأملاً برحلة حضارية خالية من متاعب السفر بالبر. فبالمقارنة مع رحلتي العويصة الأسبق التي اِمتدت 24 ساعة من "هيثرو" إلى القاهرة، ثم إلى طبرق وبنغازي، وسرت، فطرابلس، بدت طريق مالطة قصيرة وسهلة وأكثر راحة وتحضراً. والرحلة من "هيثرو" على الخطوط المالطية لم تشبه أي رحلة أخرى قمتُ بها على الإطلاق. إذ إني عادة كنتُ أسافر على طائرات تستعمل الإنجليزية أو العربية أو لغة هوية الطيران نفسها. إلا أن جهاز النداء على الخطوط المالطية كان يومها ملحمة لغوية عجيبة. فإرشاداته للمسافرين جمعتْ بجملة واحدة كلمات من ست لغات مرّة واحدة. ومع ذلك، لم أجد صعوبة في فهم العديد من الكلمات المالطية. بدتْ لي مزيجاً من كلمات "فينيقية" وآرامية وعربية وأندلسية وإنجليزية وإيطالية. ورغم تشكيلتها اللغوية المعقدة، هبطت المالطية على مسمعي برفق وسلاسة إلى درجة أنها كانت أسهل عليّ

من فهم المغربية أو الجزائرية العامية. وعلى الرغم من أن التعليمات والسِمات على متن الطائرة المالطية كانت إنجليزية بالعموم، إلا أن أجواء الركاب وملامح وجوههم وأحاديثهم الإجتماعية كانت شمال أفريقية بإمتياز.

"فرسان مالطة" كانوا كل ما كنتُ أعرفه عن مالطة قبل هبوطنا على مدرج المطار. فقد كنتُ منذ صغري أسمع عنهم تارة في سياق الكلام عن الماسونية، وطوراً بمعرض التاريخ عن الصليبيين، وحيناً في مضمار الأعمال الخيرية المسيحية، وأحياناً من روايات حفظ أسرار عودة المسيح، والكأس المقدسة، والسيطرة على العالم قبل اليوم الأخير، و(الآخرة). من هنا، كان إهتمامي أبداً ينطلق من الفرسان أنفسهم، وليس من مالطا. أما أساس منظمتهم، فيقال إنه يعود إلى الحقبة الصليبية 1054- 1099م حين ظهر لأول مرّة بما يُشبه دور "الصليب الأحمر" لتوفير الرعاية الطبية لجرحى المقاتلين والحجاج في الطريق إلى فلسطين. لكن المنظمة لم تأخذ طابعها السرّي إلا بعد إنهزام الصليبيين وإنسحابهم النهائي من الشرق. وكان ذلك بداية لغرض حماية المسيحيين من إنتقام المسلمين، لا سيّما على أيدي المماليك. وتذهب رواية الفرسان لتقول إن قياديها كانوا فعلاً فرساناً صليبيين مدعومين من الكرسي البابوي في الفاتيكان، وكانوا قد إحتلوا، بدعمه وتمويله، قبرص أولاً ثم رودوس قبل إنتقالهم منها إلى حكم مالطة بعد إنتصار سليمان القانوني عليهم في رودوس. وهكذا مكثوا في مالطة أسياداً عليهاً حتى بداية تضعضعها الأولي على أيدي نابليون عام 1798م، وكان ذلك قبل رضوخ الفرنسيين فيها إلى البريطانيين..

اليوم إنقشع غبار السرّية وصارت "فرسان مالطة" منظمة دولية، لكن بتركيبة كيان دولة إفتراضية تحتفظ بالسيادة بموجب إعتراف الأمم

المتحدة. وللكيان رئيس (عضو من العائلة المالكة البريطانية منذ 1277م) ومجلس حكم يتألف من 26 فارساً، وسفراء، وتلتزم المنظمة بمواثيق الأمم المتحدة والقانون الدولي. ومع أنها منظمة "مستورة" بعض الشيء، لكن عدد فرسانها الملتزمين يتجاوز 15000، والمتعاونين معها بصورة دائمة 60000 من المهنيين والأطباء والممرضين، فضلاً عن مئة ألف متطوع يمثلون دول الأرض. ومن أبرز سِمات أعمالهم الجانب الخيري على طريقة "ماما تيريزا" لمساعدة الأطفال المُهملين والأيتام والمنبوذين والمعوقين والعجزة وجرحى الكوارث وضحايا الأوبئة والكوارث والمدمنين. ورغم أن عمل المنظمة الإسعافي مُشرّف وخيّري، لكن يُعاب عليها اليوم أنها تنتقي أماكن الإسعاف، وتنشط في الغرب المسيحي أكثر من الدول الأفريقية على سبيل الدلالة! ورغم جذورها الصليبية وهويتها الغربية، يعترف بعض الدول العربية بها رسمياً بمباركة الجامعة العربية.

***

في أيار عام 1997م، بدت "فاليتا"، عاصمة مالطا، رومانسية ممتعة متوسطية بإمتياز. كانت شرفتي في الفندق تطلّ مباشرة على "حوض" المدينة، وهو عبارة عن وعاء الموانئ الطبيعية التي تحيط بمالطا بشكل حميم. معاً، تُشكّل مَعلماً بارزاً يبعث الأضواء المركزة من العنابر حولها لتعكسها رونقاً ورومانسية على سطح البحر. أما ضجيج المدينة، فأشبه بألحان مجبولة بالأمل والفرحة وتعكس إبتسامات البحّارة والسيّاح وحركة المطاعم والمحلات. ومالطا في بعض جوانبها العامة تُشبه إلى حد كبير الحارات القديمة في صيدا وصور وجبيل. وهي مثلها صغيرة ومحصورة وضيقة! ورغم ماضيها العريق، فضلاً عن ثقافاتها المختلطة خلال آلاف السنين،

تفتقر مالطة إلى عناصر الجذب للزوار الذين لا يستهون التاريخ أو ريادة الشواطئ. وإذا كان من اِنطباع قوي نقر في ذاكرتي عنها، فهو أنها ربما كانت ملجأً للمسيحيين الذين هربوا من حكم الإسلام بشمال أفريقيا! لكن هذا مجرد اِنطباع شخصي لا يستند بالضرورة إلى بحث أو دليل. لكن على المقلب الآخر، فإن يهود الأندلس ومسلميها لم يقصدوا مالطة هرباً من محاكم التفتيش كما قصدوا المغرب وتونس لأنها لم تكن تحت السلطة العثمانية المسلمة.

عبّارة الدراويش

بعد ليلة ممتعة في مراتع المدينة، قمتُ باكراً وتناولتُ فطوراً إنجليزياً تقليدياً شهياً. كان لديّ متسع من الوقت للتنزّه الخفيف والإستمتاع السريع بشوارع البلدة القديمة. كلها زواريب وحارات وأزقة تخترقها المحلات والبوتيكات والمقاهي بقديمها وجديدها. معالم تتشابه بأسواق جبل طارق وقبرص وكورسيكا وغيرها من الجزر والمواقع المنتشرة على المتوسط. وبعد وجبة غداء متأخرة على المارينا، عدتُ إلى الفندق وحملتُ حقيبتي وعبرتُ على الأقدام المسافة القصيرة إلى الميناء المقابل. هناك قطعت تذكرتي على واحدة من عبّارات الإبحار إلى طرابلس الغرب. وفي تمام الساعة 5 مساء، بدأت السفينة تشق مويجات "غراند هاربور" بحذر ولطف، فصعدت فوراً إلى سطح السفينة أراقب غروباً رومانسياً بديعاً. وما إن توجهتُ بعده للبحث عن "غرفتي" (يا مسكين)، حتى أدركتُ من ملامح الركاب فيها أني كنتُ أشارك ليبيا كلها في غرفة واحدة، وقد أعادتني هيئاتهم بالزمن إلى بيئة العصور الوسطى! المكان لم يكن غرفة سفر طبيعية كما تصورتْ. كان أشبه بحظيرة حيوانات، وسريري فيها كان مجرد مصطبة من ست مصطبات فوق بعضها البعض على صفين كما في

السجون. أما أرض الحظيرة، فلا بد أنه كان موقع الطوفان نفسه! الواقع أنه لا يوجد في مجامع اللغة العربية ما يصف قذارة المياه ورائحتها. ولعلّ تعبير "ششمة مجارير" كان الأقرب إلى حالتها المزرية بلغة اليوم. أمام تلك الحالة التعيسة، أخذتُ بعضي بعضاً ووضعت حقيبتي على كتفي وصعدتُ من جديد إلى سطح السفينة. منظر ركابها هناك ذكّرني بأفلام القراصنة التي كانت تدور أحداثها بعرض المحيط بين البحارة الإنجليز وقبائل الفايكنيغ.

كانت الليلة نابضة بالموسيقى الصاخبة، أقرب إلى نفخ الأبواق وقرع الطبول الأفريقية منها إلى آلات الشرق. وبعكس عبّارات القناة الإنجليزية فوق المانش، التي كانت تنقل أعداداً كبيرة من جميع الجنسيات، كانت عبّارات ليبيا تحمل ركاباً إقليميين، معظمهم من ليبيا وتشاد ومصر والسودان وتونس والنيجر والجزائر.

كانت الرحلة تشمل القليل من رجال الأعمال الأوروبيين وأعضاء المنظمات غير الحكومية. أما المسافة من مالطة إلى طرابلس فتبلغ نحو 300 ميل بحري جلّها من المياه الهادئة، إلى درجة يُخيل إليك أنه بمقدورك قطعها سباحة تحت طقس معتدل. وسماء الليل في ذلك الوقت من السنة (أيار) تفضح مليارات النجوم، وأضواؤها تذهل العقل وتشتتْ الفكر! التجربة بحد ذاتها رومانسية، والإبحار في طقس معتدل دافئ يأخذ المبحر إلى عوالم عجيبة.

فمنهم مَن يَسرح بسرّ الوجود، ومنهم مَن يفكر بأسماك القرش والحيتان وبالأمواج والأعماق، ومنهم مَن كان مثلي يرجع إلى التاريخ العميق ويتقمّص شخصية هنيبعل وهو بطريقه إلى قرطاجة. وعلى الرغم من أن سفن بطالمة اليونان وأباطرة روما وسلاطين الدولة العثمانية لم تغبْ لحظة عن خاطري في تلك الليلة، فقد كان بالي ينشغل بالعقيد القذافي كلما اِقتربنا من الساحل الليبي مع ساعات الصباح

الأولى. ومثل مكتب الهجرة البريطاني على عبّارات "دوفر" عبر القناة الإنجليزية، كان لدى السلطات الليبية مكتب هجرة ثابت على السفينة نفسها لإنجاز معاملات الجوازات. إلا أنه بعكس عبّارات فرنسا وبريطانيا، كانت العبّارة الليبية تعجّ برجال التحرّي والمخابرات، يختلطون بالركاب ويتجسسون عليهم لمصلحة الأمن الليبي والجمارك؟

ضبّاط العقيد

"ما هو غرضك من زيارة ليبيا؟"، سألني مأمور الجوازات بلغة عربية واضحة وبنبرة اِتهامية كما لو كنتُ مرتكباً لجرم أجهله. فقلت له بثقة تامة واِبتسامة عريضة: "لدي عمل مع شركة نفط في طرابلس". فسألني من أين جئت، وكأنني كنتُ قد هبطت عليه من الفضاء، فقلت له من مالطا. نظر إليّ نظرة "وَيحك وإياك" وقال بإنفعال: "لا تتذاكَ معي، أنت تعرف ماذا أقصد بالضبط، وهذا ليس ما طلبته منك"! "أخبرني عن أصلك وفصلك وأين وُلدتَ وترعرتَ؟". أمرني بنبرة عبسَ وتوّلى، فقلت له: "حسناً، وفقاً لرواية أمّي، أنا لبناني بالأصل، وبيروت هي مسقط رأسي. لكن حسب والدي أنا عراقي بالتبعية له. وفي الحالتين نشأت وترعرعت في لبنان". هنا نظر المأمور إليّ من كعب عينيه ونطق كلمة السرّ الشهيرة: "اِسترح قليلاً وسيكون معك مسؤول آخر ليستكمل الإجراءات". كلمات مألوفة، كنتُ قد سمعتها عشرات المرات من قبل إلى درجة أنها لم تعد تخيفني. لكن رغم ذلك، كان صدى كلامه يعيد إلى ذهني صوراً موحشة من تجارب سابقة عند الحدود؛ عن توقيفي في "هيثرو"، واِستجوابي في "دوفر"، وعن اِستنتطاقي في المنامة، وفي طنجة، وفي القاهرة، وجنيف وغيرها من نقاط العبور! ومع أنه لم يكن لدي

ما يدعو للقلق من حيث الإجراءات الرسمية، كالتأشيرة وحجز الفندق وتذكرة العودة إلخ، إلا أني - كما في كل مرّة – كنت مسبوعاً، وشعرتُ بمغص في معدتي وطنين في أذني مرّة واحدة. كنتُ مرعوباً من فكرة الإنتظار في المياه الإقليمية الليبية، خاصة أنه بعكس الظروف السابقة، كنتُ تلك المرّة متزوجاً حتى النخاع، ولدي عائلة، وعندي رهونات عقارية، ووظيفة مرموقة، وأشياء موعودة. لم أكن يومها بوارد قبول أي هراء من الليبيين، (أو غيرهم)، بل كنتُ مستعداً للعودة إلى مالطة على نفس العبّارة، على أن أبقى قيد التحقيق على الأرض الليبية! ومع شروق الشمس فوق ميناء طرابلس، وتوافد الركاب إلى"كانتين" السفينة لتناول "وجبة الإفطار"، اِقترب مني مأمور آخر راسماً على وجهه البشوش اِبتسامة صفراء وحاملاً تحت إبطه ملفاً كبيراً. فناداني باسمي بطريقة شعبية لطيفة كما لو كنتُ صديق طفولته في بنغازي. ولوهلة، اِفترضت أنه كان يعلم شيئاً عني لم أكن أعرفه عن نفسي، أو أنه كان قد قابلني من قبل في مكان ما، أو في مشواري الأول على الحدود المصرية الليبية مثلاً؛ إذ إنه خلال زيارتي الأولى لليبيا، كنتُ قد اِلتقيت بالعديد من المسؤولين الليبيين الكبار في ظروف مهنية واِجتماعية مختلفة. فقال: "اِشرح لي بالضبط ماذا تريد إنجازه في طرابلس؟". ولما كنتُ مداعباً بطبعي ومازحاً بطبيعتي، أجبته "بنباهة الشطّار" أن سفارة بلاده في لندن سبقته بالسؤال قبل منحي تأشيرة الدخول أصلاً، واِستوفت مني كل الأجوبة والوثائق والترجمات المُحلّفة والمصدّقة، فضلاً عن الرسوم. فنظر إليّ مخففاً من اِبتسامته وقال: "يؤسفني أننا مضطرون لطرح هذه الأسئلة كإجراء روتيني تجنباً لأي سوء فهم". شرح ذلك واِنسحب من الغرفة كالأفعوان الأليف. وبعد دقائق قليلة عاد واِصطحبني إلى مقصورتي على السفينة (تلك الزريبة) ليتأكد بنفسه أنني لم أترك فيها حقيبة أخرى بالإضافة إلى حقيبة ظهري. بعدها، قادني عبر حواجز متنوعة إلى

مكتب صغير عند الرصيف على المرسى مباشرة. وقد آلمني جداً ما شاهدته في الممرات وبين الحواجز من أنماط ركاب تائهين جرحى ومكبلين. منهم مَن كان واقفاً بوجه الجدار، ومنهم مَن كان ملقياً على الأرض، ومنهم من كان ثملاً حائراً. معظمهم بدا من أصول أفريقية وقد تدرجت ألوان أبدانهم بين الأسود القاتم، والزيتوني، والحنطي، والأسمر. وبعد دخول مكتب الميناء، نطق "الضابط البشوش" كلمة السرّ الشهيرة مرّة أخرى وقال: "اِجلس قليلاً ريثما نعود"..

اِستمر الإستنطاق بعد ذلك أكثر من ساعة، وعرج فيه على موضوعات شخصية تافهة، منها عن جنسية زوجتي، وحال لبنان خلال الحرب، وعن عيشي في بريطانيا، وعدد زياراتي إلى دول الخليج وتونس وإيران والسودان وهلم جراً. كانت أغلبية الأسئلة شبابية مرتجلة، ولم تبدو أنها كانت جزءً من أي عملية اِستجواب منهجي أو مسجلة، أو أن أحداً كان يتلصص عليها من خلف مرآة أو زجاج معتم. فجأة، دخل ضابطان آخران، وكانت الغرفة لا تتعدى بمساحتها 3 × 3 أمتار. ومع كل سؤال وجواب كان مقعدي المكسور يهز حسب نبرة الكلام معهما. الملفت أن ضبّاط القذافي كانوا يتعمدون تبادل أطراف الحديث أمامي بصوت مرتفع كما لو أرادوني شاهداً عليه. فكانت قصصهم المتبادلة عن أشياء عجيبة حصلتْ معهم على الباخرة خلال الليل. فمن روايتهم ما كان مخجلاً مع فتيات مسافرات، ومنها ما كان محزناً، ومنها ما كان مضحكاً، كرواية أحدهم عن اِضطراره اِستعمال لغة الإشارة لإستجواب مسافر عجوز أخرس. فلا هو فهم شيئاً من "الختيار"، ولا العجوز اِستطاع أن يعبّر له عن شيء مفهوم! ومن سياق رواياتهم أمامك، يساورك الظن أن دردشاتهم العلّنية لم تكن بريئة، بل كانت مفبركة لغرض مبهم؟

لم أصغِ إليهم إلا فيما كان يتقصد سمعي. كنتُ من شدة حيرتي أرحل بخيالي إلى كوكب آخر. ولما أدركتُ أنني لن أصل معهم إلى نتيجة فورية، أو أعرف منهم سبب توقيفي، سألت "ضابطي البشوش" ما إذا كان بإمكاني إجراء مكالمة هاتفية. سألني بمن أريد الإتصال. فأجبته :"إما برئيسي في أوتاوا، أو زوجتي في لندن، أو بالممثلية البريطانية في طرابلس" (يومها كانت إيطاليا تمثل المصالح البريطانية في ليبيا بسبب قطع العلاقات الديبلوماسية). فجأة، تغيّر لون وجهه ولم يعد "بشوشاً"، وبدا كالمالك الحزين. قرّب وجهه مني، وقال بدهاء وحنكة: "لو كنتُ مكانك يا هشام لطلبتُ مخابرة الفندق هنا في طرابلس وأعلمتهم عن تأخر وصولي". اِقترح عليّ الفكرة واِسترد بها اِبتسامته كما لو "مارادونا" سدد هدفاً في مرماي. فقلتُ له بأدب وتهذيب: "وبما أنك تعرف متى ستطلقون سراحي من عدمه، فلِمَ لا تخطر الفندق بنفسك؟ أما أنا فأفضّل الإتصال بلندن". فأجابني مازحاً: "لا تقلق يا هشام، رئيسي سيكون معنا في أي لحظة، وأنا متأكد أنه سيخبرك بما هو مسموح لك".

ضابط جديد اِقتحم الغرفة، وكان طويلاً بشكل غير عادي بالنسبة لليبيين! ألقى التحية عليّ بمرح وخفة كما لو أراد أن يزيل الريبة من نفسي. "إذن، هشام، أخبرني بمَن ستلتقي اليوم في شركة النفط ومنذ متى تعرفهم؟". السؤال كان صريحاً وواضحاً وبدا لي اِستنطاقاً رسمياً. عدّلت من قعدتي على الكرسي المكسورة، وأخرجتُ من حقيبتي محفظة المذكرات *(Filofax)* - (لم تكن لدينا في تلك الأيام أجهزة كمبيوتر محمولة)، وناولته صفحة معارفي الليبيين. وبنظرة فاحصة سريعة، راجع الأسماء عليها وكانت مرتبطة بألقابها وأرقام هواتفها بوضوح. وهنا، شرعت في تقديم عرض وجيز له حول مكانة شركتنا في مجال الإتصالات الرقمية، وسمعتها الرصينة بين كبريات

شركات العالم وفي أسواق التداول والبورصات الدولية. بل إنني حاولت "بيعه" فكرة التعاون معنا، والإستفادة من تقنيتنا لدائرة الجوازات بوزارة الداخلية! كان يستمع إلي بإصغاء ملفت لكن لم يبدُ من ملامحه أنه كان يعرف كيف "يقرأني" أو يكتشف ما إذا كنتُ جاداً معه أو مداعباً. طبعاً كنتُ جاداً جداً لأني اِستشعرت فرصة تحديث لأجهزتهم الهاتفية فيما لو كانوا فعلاً مستعدين لمناقشة الأمر. فحتى لو لم تكن لدى وزارتهم ميزانية مرصودة لتحديث أجهزتها الهاتفية، لم يكن الأمر ليشكل أي مشكلة جدّية بالنسبة لي، لا سيّما أنه كانت لدينا طرق رسمية لإستدراج هبات ومساعدات من الحكومة الكندية لبعض دول العالم الثالث! تغاضى عن "عرضي" المُغري وسألني عن السياق الذي بموجبه قابلتُ معارفي الليبيين بالمقام الأول. فأجبته بدون تردد، وقلت له: "من خلال السفارة الليبية نفسها في لندن ".

وطلّ موسى الصدر

أخذتُ نفساً عميقاً واِسترسلت في حديثي لإرضاء فضوله وشرحت له: "قبل عامين، اِتصل القسم التجاري في السفارة الليبية في لندن بشركتنا. كانوا بحاجة ماسة إلى نظام اِتصالات كبير لمؤتمر أفريقي دولي كان القذافي ينظمه في مصراتة آنذاك. يومها، كان المؤتمر وشيكاً جداً، ولم يكن أحد مستعداً لتزويد ليبيا بأجهزة اِتصالات متطورة تحت أجواء المقاطعة الأميركية، ناهيكم أن تزويد الأجهزة الهاتفية في الظروف الإعتيادية كان أصلاً يستغرق أسابيع طويلة، فضلاً عن الحصول على إجازة تصدير خاصة. ومن حسن حظّ الليبيين بالسفارة في لندن أن مكالمتهم الإستعلامية وصلتْ إلى مكتبي. وعلى الفور توليتُ الأمر بطريقتي، وأمنّت الأجهزة اللازمة لليبيا، وتم تركيبها خلال 48 ساعة رغم المقاطعة الصارمة! كان ذلك مَهمة

مستحيلة وإنجازاً غير مسبوق أبهر المسؤولين في السفارة الليبية وحفر في ذاكرتهم مصداقية شركتنا. ولما أرادت إحدى شركات النفط الوطنية لاحقاً تحديث شبكتها الهاتفية بكل أنحاء ليبيا، اِتصلت بنا على وجه التحديد بتوصية من السفارة الليبية. أما باقي الرواية فصار تاريخاً أنا من نتاجه أمامكم اليوم".. خلصتُ من توضيحي وكنت مسروراً بأدائي. "لكن كيف يا هشام اِستطعت توريد أجهزة المؤتمر من لندن وتركيبها في مصراتة بغضون 48 ساعة رغم المقاطعة؟" سألني كما لو كان يريد فضح "غلوي" و"مبالغتي" أمام زملائه؟ فأفصحتُ له عما عملته خفية عن الشركة ومخالفة لقوانين المقاطعة. وقلتُ: "خابرتُ وكيلنا في القاهرة و"أمرته" بإرسال الأجهزة من مستودعاته إلى مصراتة فوراً، مع إثنين من كبار مهندسيه لحسابنا الخاص. كانت نقاط الحدود البرية آنذاك على معرفة بالأمر سلفاً، فسرّعت مرور الأجهزة بموجب "مكالمات هاتفية " مسبقة مع السلطة الليبية وبالتنسيق مع السفارة الليبية في لندن..

اِرتبك الضابط بعض الشيء من جرأتي وردي العفوي، وطلب من الجميع مرافقته إلى الخارج. ومرّة أخرى تُركت وحدي لأفكاري وهواجسي من جديد. فهل يا ترى قلتُ شيئاً لم يصحّ قوله، أم أني أفصحت عن شيء كان مستوراً؟ أخذتْ أفكاري تتلاعب مع خواطري وتلعب بمشاعري على حلبة الخوف والقلق! لم يكن هناك شيء مقلق محدد أو جدير بالملاحظة! لكن فجأة ظهر اللغز واضحاً أمامي. فهل كانوا يحاولون ربط زيارتي لليبيا بقضية موسى الصدر؟ ذلك أن لغز رجل الدين اللبناني الذي اِختفى أثناء زيارته لليبيا عام 1978م كان ما يزال حديث الساعة وقضية سياسية رئيسية ساخنة، ليس فقط في لبنان، ولكن في جميع أنحاء المنطقة. تشوّش عقلي واِنشغل بالي، خاصة بعد مرور وقت طويل على توقيفي..

***

كان الشيعة في المنطقة قد تم حشدهم ضد القذافي بسبب اِختفاء الصدر. اِتهموه بتدبير سفرة الصدر إلى ليبيا والغدر به هناك وتصفيته. الرواية الرسمية تقول إن القذافي أرسل شخصياً دعوة رسمية للإمام لزيارة ليبيا. وكان يريد منه أن يشرح له خلفية أسباب "تألق" الشيعة في لبنان وأهداف "حركة المحرومين" التي أسسها لدعم المظلومين. آخرون ذهبوا إلى أبعد من ذلك، وزعموا أن القذافي تخلّص من الصدر بناء على طلب شخصي من ياسر عرفات. فالفلسطينيون يومها كانوا يتجولون في جنوب لبنان ويجوبونه بين القرى والبلدات دون اِستئذان أو رقيب. فكانوا بذلك يعرّضون حقول الشيعة وجِلال التبغ والتين وكروم العنب والزيتون إلى الإعتداءات الإسرائيلية، لا سيما أن تفجيرات الفدائيين الإنتحارية كانت تطال مستوطنات إسرائيل في شمالها وترعب سكانها. كان الصراع بين الشيعة ومنظمة التحرير يومئذ أخطر مما كان يتم الإعتراف به أو يُسمح الحديث عنه علناً لأسباب عروبية "وطنية". وبسبب صداقته الوطيدة مع عرفات، نفى القذافي بشكل قاطع تورطه في اِختفاء الصدر. ولعلّ السبب الوحيد الذي خطر على بالي خلال التوقيف وأخافني من مسألة الصدر أني كنتُ قد رأيته شخصياً يوم زار جدي في الضيعة (الطيبة) بمنتصف الستينيات. يومها كنتُ صبياً على باب المراهقة. وكانت زيارته قد تمت في سياق التمهيد لنشأة المجلس الإسلامي الشيعي، سنة واحدة قبل تأسيسه عام 1969م. فهل لقائي الصبياني بالصدر كان مدعاة للتحقيق معي بعد مرور 30 سنة عليه؟ طبعاً لا، غير أن ريبة توقيفي عكّرت عليّ التفكير المنطقي وحشرتني في زاوية الخواطر والهواجس...

لكن وفقاً للإيرانيين، وبناء على معلومات متقاطعة تم الحصول عليها من رفعت الأسد، شقيق حافظ الأسد ورئيس الأمن السوري آنذاك، فإن القذافي "تآمر" مع عرفات و"ساعده" على التخلّص من الصدر. ومما كان معروفاً لدى القاصي والداني أن القذافي يومها كان يتعاطف مع حركات الإنفصال والتحرّر ويموّلها في جميع أنحاء العالم، بما في ذلك المؤتمر الوطني الأفريقي بزعامة نيلسون مانديلا، والجيش الجمهوري الأيرلندي، و"اللواء الأحمر" الإيطالي، وحزب "بادر ماينهوف" الألماني، فضلاً عن دعم الحركات الإقليمية في مالي والنيجر وبوركينا فاسو. لا بل هناك مَن اِدّعى لاحقاً أن القذافي شخصياً كان العقل المدبّر وراء أعمال القرصنة الصومالية لناقلات النفط، وإن كانت تلك قضية متأخرة ومنفصلة. وربما كانت حركة "المحرومين" التي أسسها الصدر عصيّة على رغبة القذافي في الإنضمام إلى شعاراته الإنفصالية أو الإستفادة من تعاطفه السياسي تحت جناحه! لا أحد يعرف بالضبط حقيقة الأمر بين الرجلين ولا ظروف اِختفائه أو توقيته. ومع أن "ورثة" أحد معاوني الصدر خطفوا ابن القذافي هنيبعل من سوريا وجروه إلى لبنان، بيد أن شيئاً لم ينضح من التحقيق معه، خاصة أن هنيبعل كان طفلاً صغيراً عندما اِختفى الصدر أساساً. ويبدو من تطور الأمور في 2026م أن تسوية ما، قد أُعدت وأفرجوا عنه (هنيبعل) لقاء مبلغ كبير بعد عشر سنوات من السجن ضيفاً على المستفيدين في لبنان من دراما اِختفاء الصدر. وحتى بعد إطلاق سراح هنيبعل، فإنني ما أزال اِستهجن لماذا أُبقي مسجوناً بدون محاكمة أساساً! بل لماذا لم يصرّ هو على المحاكمة وتبرأة ساحته! أشياء غامضة لا يفهمها إلا المجرمون والشياطين!

***

كان الوقت قد قارب منتصف النهار وطارت مواعيدي لذلك اليوم. كنتُ محتجزاً في تلك الغرفة الصغيرة لساعات مشوّشة دون توجيه أي اِتهامات. بَحثتُ عن شيء يساعدني على فهم مأزقي، فلم "أجد" غير موسى الصدر اِحتمالاً لتوقيفي. لكن لماذا القلق ولم أكن الشيعي اللبناني الوحيد الذي كان يمرّ بليبيا في تلك الفترة؟ كنتُ أعرف سلفاً أن كثيرين من الطائفة الشيعية اللبنانية كانوا يزورون ليبيا ويعملون فيها بلا اِنقطاع منذ منتصف الستينيات. ثم إن الإمام الصدر اِختفى تحديداً في 25أغسطس 1978م، وهو نفس التاريخ الذي كنتُ قد اِنتقلت فيه إلى بريطانيا للاِستقرار تاركاً باريس. ومن خلال تعاملاتي السابقة مع مأموري الجوازات في كل الدول، تعلّمت كيف أكون صبوراً ومباشراً وصادقاً، خاصة أن الأمور إذا طالتْ أو تعقدتْ تُترك عادة لتقدير "المسؤولين الكبار" خارج غرف التوقيف. فهؤلاء الكبار، وإن كانوا عادة متشددين، إلا أنهم لا يحتجزون أحداً تبلياً أو اِعتباطاً، ولا يخفونه عنوة وقسراً "بدون إخبارية أو سبب وجيه"، أو أقله تعليمات شخصية من "كبيرهم"، أو ما لم يكن الموقوف صيداً ثميناً معروفاً من المعارضة الليبية، لا رجل أعمال واضح الأهداف والمهمات مثلي...

باسبور ببلاش

عاد "الضابط البشوش" إلى الغرفة وحده وقال بدعابة: "ألم أقل لك لا تقلق، إنها دقائق وستكون في طريقك إلى الفندق". غمزني كما لو كان يريدني أن أقرّ له بفضل أو جميل! ورغم تطميناته، كانت مخاوفي تتزايد مع كل دقيقة وثقتي بنفسي تتبخر مع كل ثانية! لم أفهم يومها لماذا لم يوجّهوا لي أي اِتهام، ولماذا ماطلوا في تسريحي رغم تعاوني معهم على طول الطريق. بعد ربع ساعة إضافية، جاءني "الضابط

الطويل" مبتسماً أيضاً وسألني: "عزيزي هشام، هل سبق أن زرت ليبيا؟". فأجبته متعجباً: "نعم، وقد زرتها عن طريق القاهرة". فجأة، بدت الحيرة شديدة على وجهه، فسأل مندهشاً: ولِمَ لا توجد تأشيرة ليبيا السابقة على جوازك؟". عندها فقط أدركتُ أسباب ضياعهم وحماقتهم. فشرحت له: "إن تأشيرتي السابقة مطبوعة على جواز سفر بريطاني آخر، ويفترض أن يظهر لكم من السجلات". وبدل أن يفهموا طبيعة الإلتباس على حقيقته، ظنوا أني كنتُ اِنتحل شخصية "هشام"، أو أني كنت أحمل جواز سفر مزوراً. ففي بريطانيا كان يُسمح لبعض رجال الأعمال الحصول على أكثر من باسبور بريطاني صالح في نفس الوقت. والسبب في ذلك يعود إلى ضرورات السفر المكثف وإتاحة الوقت اللازم للحصول على التأشيرات حسب الباسبور الشاغر. أمر اِعتدت عليه للحيلولة دون التسبب بأي تأجيل أو تأخير في سفرياتي.

يا إلهي، كم كانوا أغبياء! جلّ ما كان عليهم فعله أن يسألوني السؤال الصحيح لحظة اِشتباههم بوجود خطأ ما. ولأنهم ظنوا أني اِنتحل إسماً آخر أو أحمل جواز سفر مزوراً، فقد اِضطروا إلى إرسال جوازي إلى مطار طرابلس المهجور بسبب المقاطعة الأميركية على بعد 22 كلم. هناك كانت السلطات الليبية لديها جهاز كشف واحد متطور لفحص الجوازات والتأكد من سلامتها. ومن حسن حظي أن الجهاز لم يكن معطلاً في ذلك اليوم. وعلى أجوبتي العفوية التلقائية، أطلقوني من قفص الإتهام بعناية كما لو كانوا يطلقون حمائمهم الزاجلة لأول مرّة. أعطروني بإعتذارات صادقة وأصروا على مواكبتي إلى الفندق بسيارة جيب عسكرية روسية. ولغاية اليوم لا أعرف إنْ كان ذلك كرم أخلاق من جانبهم، أو "تعليمات من فوق"، أو أنهم أرادوا "توصية" الفندق بمراقبة تحركاتي!

عند وصولنا إلى الفندق، كانوا واضحين ومتشددين بتعليماتهم لمدير الفندق بضرورة معاملتي بمثابة واحد من "كبار الشخصيات" كضيف دولة. وهكذا خصصوا لي جناحاً كاملاً بطابق "الأجنحة" (ربما كان طابق المراقبة)! كان موقف السلطات بالإستدراة مني 180 درجة أمراً مريباً، لكن كنتُ ممتناً له بعد تجربة من أسوأ تجارب حياتي عبر الحدود! كنت فرحاً منتشياً عندما وجدتُ نفسي فجأة حراً طليقاً لوحدي في جناح منيف فيه مطبخ وغلّاية شاي، وإن نسوا ترك أكياس الشاي ومظاريف القهوة والسكر؟ وعلى الرغم من العقوبات الأميركية والبريطانية الصارمة، كان جناحي المتهالك مزداناً بزهور اِصطناعية مغبّرة ومجلات "ناشونال جيوغرافك" تعود إلى زمن إنسان الكهف. رميتُ حقيبتي على السرير وتوجهتُ مباشرة لإزالة معالم الإرتباك عن جسدي تحت "دوش لا ماء فيه". وما إن فتحت عيني جيداً حتى صُدمت بعدد المرايا المثبتة على جدران الحمام من كعب الباب إلى أعلى السقف تقريباً. كدت أجزم بحاستي السادسة أن هناك مَن كان يراقب ويتجسس من وراء المرايا على طريقة الأفلام، ما جعلني أحسب كل حركة شعورية أو لا إرادية. يومها كنتُ افتقد إلى حمّام ساخن وسرير مريح ونوم عميق.... لم أوفق بأي منها!

***

لم أكن أتوقع قضاء خمسة أيام في "أفخم" فنادق العاصمة! طعم القهوة وحده كان بمثابة عقوبة سجن اِنفرادي! وبسبب تقنين المياه بصورة درامية خلال تلك الفترة، كان عليّ كل صباح أن اختار من ثلاثة أشياء: إما الحلاقة، أو التواليت، أو الإستحمام. ثلاث زجاجات صغيرة من ماء الشرب لم تكن تكفي لقضاء تلك الحاجات معاً! ومع أني تعلّمت على مرّ السنين كيف أقضي هذه الأشياء بطاسة صغيرة من الماء، لكن ما لم أتعوّد عليه اِستعمال مناشف قذرة وشراشف نتنة ومخدّات

رثة. أما "خدمة الغرف"، فحدث ولا حرج! يكفي أن البيض على بوفيه الفطور ~~الإفطار~~ مثلاً، كان يُعرض أمامنا عرض الآثار في المتاحف، عتيق لا تعرف إنْ كان قد سُلق خلال العام الميلادي أو الهجري أو التقويم الليبي. الخبز كان يُقدم لنا مُحمصاً بثاني أكسيد الكربون أو بالعطن الحميد المكرر. والعصائر كانت مشكّلة من روافد الأسيد وحوامض الكبريت. أما الأجبان والمربيات، فكانت بأحجام العينات المخبرية التي تستعمل فقط لإختبار اللسان (الطعم) وليس لإختبار المعدة (الشبع)! وإذا كانت تلك فكرتهم عن خدمة كبار الضيوف، فكيف يا ترى كانت الخدمة المقدمة لباقي النزلاء، ناهيكم عن السجناء؟ أغلب الظن أنه كان بمقدورهم تحسين الخدمة وتقديم أطعمة آدميين، لكن ربما أرادوا الإذلال والمهانة والتحقير للنزلاء الأوروبيين، أو لحاملي الجنسيات الأوروبية، ودفعهم للشعور بوطأة المقاطعة الغربية على ليبيا.

ورغم الترحيب العدائي و"الإقامة" التعيسة في "فندق الهنا"، (تسميتي، وليس اسمه الحقيقي) سارت مهمتي في طرابلس بشكل جيد إستثنائي تجاوزت توقعاتي. إذ، وبسبب المقاطعة الأميركية، وجدتُ أن ممثلنا في طرابلس قد خزّن أجهزتنا في أحد جوامع العاصمة بدلاً من تخزينها في مخازن معتمدة، وذلك إحتراساً من أي ضربة أميركية! فكرته كانت مبتكرة بالنسبة لي ووفرّت علينا رسوم تأمين طائلة تحت ظروف المقاطعة. كانت رحلة موفقة للغاية حصلتُ فيها على المزيد من طلبات الأجهزة والتأكيد على علاقة مثمرة لفترة طويلة. ومن فرحتي بإنجازي وفخري بحالي، كنتُ مستميتاً للخروج من ليبيا والعودة إلى لندن على أول وسيلة متاحة!

قرطاج يا قرطاج!

وللتعويض عن قرف السفر عن طريق البحر وسوء الإقامة "بفندق الهنا"، اِخترت العودة إلى لندن عبر تونس. كان عليّ السفر أولاً إلى "جربة"، وهي جزيرة تونسية حدودية معروفة بشواطئها الرملية البيضاء وأجوائها البديعة. فيها مزيج متنوع من الثقافات العربية والأفريقية والأوروبية ضمن بيئة حضارية لطالما جذبت الفرنسيين والألمان والإيطاليين. فانطلقتُ من طرابلس الغرب باكراً مع الشروق، وبعد بضع ساعات من القيادة السهلة مع سائق ليبي متمرس (مَن يدري، ربما كان هو أيضاً رجل مخابرات)، وجدتُ نفسي مرّة أخرى في أحضان مكتب الجوازات الليبي على الحدود مع تونس قبل الظهيرة بقليل! وكالمرة الأولى، لم يكن لدي ما يدعو للقلق إطلاقاً عند المغادرة، خاصة أن سجلي لدى الأمن الليبي كان يفترض أنه صار مُحدثاً بموجب بيانات الوصول من مالطة. كنت أنوي التوجّه مباشرة إلى أول فندق فخم أصادفه في جربة بعد إنهاء معاملة الجوازات. لا لشيء سوى لأعوّض عن تعاسة "فندق الهنا" وتجربتي البائسة فيه!

سألني مأمور المغادرة عن أسباب زيارتي لليبيا، كما لو كان هناك خيار للسياحة أو الدراسة أو العلاّج أو الحج مثلاً! فأجبته بإقتضاب ولباقة. نظر إليّ ونطق بعبارة السرّ الشهيرة وقال: "اِسترح قليلاً وسيكون زميلي معك". أخفضتُ رأسي خيبةً وتمنيتُ ألّا تكون تلك الإستراحة ككل الإستراحات التي سبقتها. طوابير المغادرين من ليبيا إلى تونس كانت مكتظة فقط بالسيارات والعمال مع غياب تام للشاحنات... ومثلما لا يُميّز الغرباء أهالي الشام بعضهم عن بعض، كذلك لم أستطع التمييز بين الليبي والتونسي والجزائري والمغربي! كلهم بالنسبة لي كانوا شمال أفريقيين إلى أن ينطقوا! فالليبيون، الذين اِحتل الإيطاليون بلدهم بين الحربين العالميتين، هم أكثر تعبيراً باللغة العربية من التونسيين. و"التوانسة"، الذين وقعوا تحت الإستعمار

الفرنسي، هم أكثر ميلاً نحو "الفرانكوفونية"، لغةً وثقافةً. وهم لذلك أكثر ليبرالية وحنكة مع الأوروبيين من الليبيين، ليس فقط بسبب بيئتهم التقليدية للسياحة، بل أيضاً بسبب قيمهم الثقافية المتنوعة التي جمعت بين اليهودية والمسيحية والإسلام. فالجالية اليهودية في تونس، على سبيل المثال، كانت دائماً مطمئنة على وضعها وتشعر بالأمان على نفسها كما لو كانت في بيئتها الطبيعية..

وبعكس معظم الدول العربية، فإن تونس، ومنذ اِستقلالها عام 1956م، أعلنت على لسان حبيبها البورقيبة: "إنها ليست أمة إسلامية فقط". بل ذهب إلى حدّ القول إنه "سيضمن لكل الأديان (بما فيها اليهودية) ممارسة الحرية الكاملة ما لم تمسّ المصلحة العليا". وتلك العبارة أثارت غيظ الإخوان المسلمين والسلفيين واِعتبروها آنذاك مستفزة كاِستفزاز وعد بلفورد نفسه. بل حتى عبد الناصر، المناهض للإخوان وللسلفيين معاً، والذي اِعتبر اِستقلال تونس نصراً قومياً لكل العرب، لم يكن راضياً عن إعلان بورقيبة بالمرّة. اِعتراض عبد الناصر على تصريح الحبيب، لم يكن على قاعدة دينية كونهم يهوداً، بقدر ما كان سياسياً بسبب العداء العربي لسياسات إسرائيل تجاه الفلسطينيين. وبسبب رؤية بورقبية المتحررة والمنفتحة، كان التعايش بين جميع الناس، بما في ذلك الأمازيغ، متماسكاً ومختلطاً في جو آمن ومدني وممتع. بيد أن ذلك الوفاق الديني وحده لم يكن كافياً للحيلولة دون التفاعل بمجريات النزاع العربي - الإسرائيلي وعواقب الحروب!

يهود فينيقيون وأمازيغ

الملفت أن يهود تونس، حتى قبل بورقيبة، كانوا يتمتعون بمكانة خاصة تعود إلى أيام الإحتلال الفرنسي. ففي ذلك الوقت، كلمة "تونس" لم تكن تُذكر في هويات اليهود ولا في جوازاتهم، إنما دُوّن

لهم فيها اِمتيازات واضحة منها عبارة "مواطن فرنسي"، و"مواطن أصيل"، فيما حُرم التونسيون من نفس الإمتيازات على بطاقاتهم. ورغم التمييز الفرنسي لصالح اليهود الذي أثار حفيظة التونسيين وسخطهم، صمدت الجالية اليهودية بشكل جيد نسبياً، وهي تمثل الآن مكوناً اِجتماعياً مهماً جداً في تركيبة التسامح والنسيج التونسي. ولغاية اليوم، ورغم مراجعتي لمصادر كثيرة، فإنني لست متأكداً بعد من أين أتى اليهود التونسيون الأصليون، أو ما إذا كانوا تونسيين في الأصل على الإطلاق! هناك قلة من المتدينين المتعصبين منهم تعتقد أنهم كانوا أساساً من بين البحّارة الفينيقيين وقد رسوا على شواطئ شمال أفريقيا خلال حملة أحفاد الملك حيرام 940 ق.م المتهودين، (وهذا مجرد تخمين لا يستند إلى أي دليل علمي أو تاريخي أو أنثربولوجي، تماماً كما يدّعي بعض اللبنانيين اليوم أن بعض الفينيقيين خدموا كدبلوماسيين وسفراء للملك سليمان في شمال أفريقيا، فضلاً عن خدمتهم في بناء معبده من خشب الأرز). لكن رغم هذه الأقدمية في رواية وصول اليهود إلى تونس منذ أيام الفينيقيين، هناك من اليهود العلمانيين مَن يجادل أن يهود تونس الأصليين يرجعون إلى تاريخ الثورة اليهودية الأولى سنة 70 م، أي تحديداً إلى حقبة الرومان بعد تدميرهم الهيكل الثاني، وكان قد بُني في القدس على أنقاض هيكل سليمان بعد السبي البابلي سنة 516 ق.م. وتبقى الفرضية المثلى أن معظم اليهود في تونس - وقد بلغ عددهم قبل النكبة نحو 300000 نسمة - نزحوا إليها من الأندلس بسبب محاكم التفتيش 1496-1596م. إلا أن تعدادهم هبط كثيراً بعد النكسة وقد لا يتجاوز اليوم 2000 نسمة في أفضل الأحوال. وهم يتمركزون في "جربة" وتونس العاصمة. وما زالت أحياؤهم هناك تحمل الطابع الأندلسي، مثلها في ذلك مثل أحياء الموريسكيين الذين هُجروا من إسبانيا بعد المحاكم بقليل. كما يوجد لليهود كنيس مركزي "بمنطقة الغربية" في جربة، بجوار

المدينة القديمة. وهو ضمن حدود شبه قرية يهودية فيها أقدم المعابد اليهودية في العالم. بل يعتبر المكان مزاراً مقدساً يحجّه اليهود سنوياً. وهكذا، نرى أن اليهود يستعملون ما يناسبهم من وقائع التاريخ ويوظفونها حسب مآربهم بما يضمن لهم اِستمرار العيش الآمن.

وعلى هذا المنحى، فإن اليهود عموماً يعتقدون أن ديانتهم وأمتهم وعرقهم أمر واحد، وهذا الإلتباس خلق إشكاليات كثيرة للعديد من الناس حول العالم! إذ إنهم يبنون "صفاء" عرقهم على اِستمرار عقيدتهم بلا اِنقطاع منذ أيام إبراهيم. إلا أن هذا هراء من الطراز الرفيع، إن من الناحية العلمية، أو من الناحية التاريخية، أو الأنثروبولوجية. فهل يُعقل أن تقوم دولة مكتملة الأوصاف في العالم اليوم فقط على التعاليم الدينية، دعكم من الطبيعة اللاهوتية للفاتيكان؟ العثمانيون حاولوا تمتين دولتهم على الأساس الديني لكنها كانت تضم أعراقاً متنوعة، كالأرمن والأكراد والعرب والترك والآذار إلخ. وعليه، فليس ممكناً قيام دول على أسس دينية فقط أو عرقية "صافية". ربما الإستثناء العصري الوحيد هو السعودية وإسرائيل. دولتان تحملان أسمي عائليتهما. السعودية تحمل إسم مؤسسها الإمام محمد بن سعود، وقد وضع بذرة التأسيس بين قبائل نجد والحجاز. وإسرائيل تحمل إسم جدها يعقوب، وقد اِنتصر على يهوه فصار اسمه إسرائيل. إلا أن العالم الحديث اليوم تطوّر وتغيّر ولم يعد يقبل، أو يعترف، بمثل هذه الخصوصيات العرقية أو العائلية لأنها ليست مبنية على أسس علمية أو صحيحة. الروهينغا - على سبيل المثال - ليسوا بنغلاديشيين كلياً أو بالضرورة، وليس الأرمن مسيحيين بالكامل وهلم جراً. العرب أيضاً حاولوا لعب ورقة العرق والدين، لكن محاولاتهم هذه سخيفة ورخيصة تشبه محاولات اليهود نفسها. ومهما زعم العرب أن مواطني بلاد الشام عرب، فأهالي بلاد الشام لا يرون أنفسهم عرباً، تماماً كما لا يرضى كل المغاربة والجزائريين والتونسيين بوصفهم

عرباً. فليس كل مَن نطق العربية صار عربياً. كما ليس كل مَن نطق العبرية يكون يهودياً، ولا اليهودي نفسه يكون إسرائيلياً بالضرورة ..

جنون أم طموح؟

مرّت فترة الظهيرة مرور السلحفاة، وبدت خطتي للوصول باكراً إلى "جَربة" تتبخر مع كل دقيقة وكل اِنتظار وسؤال. "شمشطوني" بين اِستراحة على أريكة و"نطرة" على باب. "هشام"، وأخيراً صرخ مأمور الجوازات طالباً الإقتراب منه بعد الإطلاع على جوازي، فقال: "وفقاً لسجلاتنا، يُفترض أن تكون عائداً إلى مالطة على متن سفينة من طرابلس". قال ذلك وكأن الخطّ البحري كان الطريق الوحيد المخصص لمغادرة ليبيا، أو لعلّه كان مخصصاً فقط لمراقبة خروج الأجانب منها؟ هنا، سقط المنطق الليبي على رأسي سقوط الحجر، وفهمتُ سبب ضياعهم ودورانهم وحيرتهم. كانوا يتوقعون خروجي من نقطة دخولي، وليس عبر حدود مختلفة، خاصة مع وجود تذكرة العودة. شرحت أسبابي للعودة إلى لندن عن طريق "جربة"، واِسترسلت لهم عما كان بدفين رغبتي لزيارة مدينة جديدة لم أزرها من قبل بدل المرور بمدينة زرتها توي، خاصة أن رحلة العبّارة إلى مالطة كانت متعبة ومقرفة ومزدحمة. وكحبة مسك إضافية، أفهمته من بين السطور أن الإسترخاء على مسبح فندق في "جَربة" كان ضرورياً ومنعشاً لي قبل الرجوع إلى لندن والإنغماس من جديد بمعمعة العمل. ولدهشتي، أطلق سراحي وتمنّى لي التوفيق "بالصيد" والإنتعاش على مسبح الفندق. غمزني غمزة شقاوة كما لو كان يحسدني.

وبعد ساعة واحدة فقط، وقبل غروب الشمس بقليل، وصلتُ إلى أول فندق فخم وبدا من طلته كالفردوس الموعود بعد مشوار الجحيم في

ليبيا. مشروب منعش تناولته على حافة المسبح، وكان أولمبياً (المسبح) مزداناً بحوريات من كل الأشكال يتمشين بدلع وغنج على أطراف الأصابع. أضواء المسبح الملونة كانت بدأت تشع من قعره وجوانبه بشكل رومانسي يداعب الروح ويلهي الفكر. وأمام ذلك الجمال، أدركتُ أن ليبيا كانت تستحق أفضل مما كانت عليه من تعاسة وإنعزال. ذلك أنها كانت في ذات يوم تتمتع بأعلى دخل للفرد في العالم، متقدمة على الكويت وقطر وبروناي. فتضاريسها الشاسعة، وقلة عدد سكانها، وساحلها الطويل على المتوسط الخالي من التلوّث والتصنيع، فضلاً عن إنتاجها الضخم من المعادن والموارد الطبيعية، وإحتياطياتها من الغاز والنفط والعملة الصعبة والذهب، كلها كانت ثروات خيالية لا يُبددها إلا عقيد مجنون ولا يغتاظ منها إلا لئيم حاقد. ومع كل الثراء القومي، كان الليبيون، بسبب سياسة القذافي وسعر صرف الدينار والمقاطعة الأنجلو - أميركية، مُعدمي الدخل تقريباً ومضطهدين بشكل مجحف. ومما زاد الطين بلة عليهم أن القذافي كان يصرف خيرات ليبيا و"يستثمر" بلايين فلكية من العملات الصعبة على "المبادئ الثورية" ومساندة حركات التحرر العالمية، دعكم عن مشروع "النهر الخالد" الذي إستنفذ طاقات ليبيا وحجّم آفاقها. فمما كان يقال عن المشروع في حينه إنه أضخم مشروع لنقل المياه في حياة البشرية جمعاء، وقدر طوله بنحو 4000 كلم عند الإكتمال (معجزة لو كان إكتمل). كان الغرض المعلن من إنشائه إنقاذ البلد وشعبه من كارثة عطش وقحط وشيكة. المشروع كان جباراً وعَكسَ جنون القذافي في مواجهات الصعاب وتحدي المستحيل، وهذا بنهاية المطاف ما جعله يدفع حياته ثمناً لتهوراته وطموحاته الرومانسية. كان من "المحزن" حقاً أنه قُتل قبل إستدراك حلمه. فالنهر العظيم كان سيكون أهم من سور الصين العظيم بالنظر إلى فوائده، وربما كان سيكون نموذجاً لأنهار صناعية أخرى في العالم حيثما تسمح

الطبوغرافيا بربط مصادر الماء أو جرّها. فقناة السويس عندما تخيلها مطوروها، مثلاً، كانت ضرباً من الجنون! وكذلك كانت قناة بنما ونفق المانش. ومَن يدري، فقد يأتي يوم قريب يجدون فيه ضرورة للبدء بتنفيذ دراسات ربط قارة أوروبا بقارة أفريقيا عن طريق جبل طارق. ورغم التحديات الجمّة بسبب العمق بين المتوسط وبين المحيط الأطلسي عند نقاط الوصل في قاع المضيق، إلا أن المشروع قاب قوسين أو أدنى من النهوض بالبناء عملياً. ومثل النهر العظيم أيضاً، ورغم التحديات الصحراوية، وعلى خطى القذافي، بدأ مشروع مشابه لشق أنهر اِصطناعية في السعودية، وهي قيد التنفيذ حالياً، على أمل اِكتمال أول مراحلها في العام 2028م . كما أن مصر بدأت، هي الأخرى، الإعداد لإنشاء حوض مائي جبار في غرب شمال النيل. وهكذا، لا يبدو أن القذافي كان المجنون الوحيد، ربما الأول، بل ربما كان طموحاً سابقاً لعصره في بعض الجوانب! والأعجب من ذلك، أن هناك اليوم دراسات مبدئية (أنجلوساكسونية) لربط مدينة لندن بنيويورك عبر قناة عميقة تحت المحيط الأطلسي. إنه ضربٌ من الخبل والجنون أن تُقطع المسافة بساعة واحدة على مقدار طوله 5000 كلم وكلفته 26 ترليون دولار.. إنها مجرد أحلام، لا شك، لكن ألم يكن بساط الريح واحداً منها أيضا؟

تركتُ جربة لأهلها ورجعت إلى مديني الحبيبة لندن....

الفصل السابع عشر: حمار ومعزاة

بلد العجائب

في صيف عام 1995م، أُتيحت لي فرصة عمل "لا تتكرر ولا تعوّض" في الصومال من بين جميع الدول! ومع أن البلد يومها كان ما يزال في حالة خراب عقب سنين من الحرب الأهلية والإهمال والمقاطعة الدولية، إلا أنه كان يسعى لينهض من جديد بموجب شروط دولية مستجدة. كانت الميليشيات دموية شرسة تتنافس في السرّ والعلّن على مقعد تمثيلي على طاولة المفاوضات من أجل صومال جديد! البلاد يومئذ كانت في مستهل اِستعداداتها لإصلاحات برلمانية بغضون عامين من تاريخه.

وفي وقت سابق من ربيع عام 1992م، كانت الأمم المتحدة تساعد بأعمال الإغاثة لإحتواء المجاعة، وكان جورج بوش (الأب) قد أرسل قوات المارينز لحمايتها أثناء تنظيم عمليات الإعانة والغوث. لكن سرعان ما اِستفز حضورهم الصوماليين وأثار أعمال شغب وتظاهرات في كل أنحاء العاصمة مقديشو. وعلى الفور دفعت الولايات المتحدة بالمزيد من القوات وألقت القبض في النهاية على قادة الإحتجاجات المناهضين للولايات المتحدة. كان من بين المقبوض عليهم ثلاثة من كبار مساعدي أمير الحرب الجنرال محمد فرح عيديد. كان توقيفهم تهوراً غير محسوب العواقب من الجانب الأميركي، فاِنشقت السماء على الأميركيين واِندلعت نيران الجحيم من تحت أقدامهم. الفضيحة الكبرى أنهم تعرّضوا لقمة الإذلال والإهانة وجُرجروا في شوارع مقديشو جرجرة الخونة ما أدى إلى مقتل 18 أمريكياً ومئات الصوماليين. كانت الحادثة من أسوأ ما تعرضت له

أميركا في العالم بعد تفجير سفارتها في بيروت عام 1983م على أيدي حزب الله. وعندما فاز كلينتون عام 1992م ضد بوش الأب، أوقف تدخل أميركا في الصومال (شكلياً) وأكمل سحب القوات الخاصة بحلول مارس 1994م، مما سمح للأمم المتحدة بإعادة ملء الفراغ والمساعدة على تهدئة الوضع وتحسينه.

***

في تلك الأيام الفارقة بتاريخ الصومال كنتُ مستميتاً في البحث عن أسواق جديدة. كانت معارضنا الدولية قبل ذلك قد جمعتني ببعض رجال الأعمال الصوماليين المحظيين. رجال يعملون خارج الصومال، لكن كانوا بمثابة حلقات الوصل مع أصحاب القرار في الداخل الصومالي. منهم مَن رأى فرصة متاحة للإستثمار والإستفادة من مناخ المصالحة الموعودة. وكانت الأمم المتحدة آنذاك قد كثفت جهودها لمساعدة الشعب الصومالي وأنشئت طرقاً تجارية شرعية لتغطية توزيع الأغذية والأدوية ومعدّات الإتصالات، وكلها مجالات كانت تقع ضمن نطاق إستثمارات معارفي الصوماليين. ولطالما سألتُ نفسي لماذا كانت الأمم المتحدة تساعد جوعى الصومال وتوزع عليهم معونات غذائية سخية في حين إن إثيوبيا آنذاك كانت ما تزال تلملم أطرافها من مجاعة 1985م، وشعبها كان ما يزال يتضوّر جوعاً ويتهالك بالآلاف يومياً على مرمى حجر من وكالة الغوث في مقدشيو. لكن إذا عُرف السبب بطَل العجب. والسبب أن بحار الصومال تطفو على كميات هائلة من النفط والغاز والطاقة، وكان ينبغي السهر على تحديد مواقعها وحمايتها من أعين الصين وروسيا!

إتفقتُ مع معارفي الصوماليين على الخطوط العريضة وعلى إختبار حظوظنا في السوق الصومالي. وفي اليوم الموعود، سافرنا (إثنان منّا وإثنان منهم) من لندن إلى نيروبي، حيث أمضينا ليلة صاخبة ممتعة

لا تُنسى؛ فكل شيء فيها كان أفريقياً بِامتياز، من الديكور وأطباق العشاء حتى البخور والرقص والغناء. وفي صباح اليوم التالي، اِنطلقنا باكراً إلى "مطار" خاص تحت طقس بديع وجوّ نقي. هناك كانت طائرة صغيرة من طراز *Champion 7AC* في اِنتظارنا، وكنا قد اِستأجرناها من شركة خاصة في لندن لنقلنا من نيروبي إلى مقديشو. ورغم صغرها، فإن هذا النوع من الطائرات متين للغاية وقادر على الطيران لمسافة 1250 كيلومتراً دون توقف، أي 100 كلم أبعد من مقديشو، وهي على بعد ثلاث ساعات ونصف الساعة من نيروبي. ركبناها بدون عناء أو اِنتظار أو أدنى رقابة رسمية من أحد. كانت تلك أول مرّة في حياتي أسافر فيها من بلد إلى آخر بدون حدود أو مأموري جوازات أو اِستنطاق! كان إحساساً غريباً، شعرتُ كما لو وددتُ أن يوقفني رجل أمن، أو يستنطقني ضابط هجرة، أو يتحدّاني مسؤول حتى ولو باللغة السواحيلية! وعلى الطائرة، "وقف" قائدها السوداني الشاب، وكان خريجاً من جامعة "كارديف" في بريطانيا، وألقى علينا إرشاداته الدقيقة عن السلامة العامة وعن ضرورة الإلتزام بإجراءات الإنقاذ والإسعاف. كانت تعليماته أكثر صرامة من قوانين "آياتا" نفسها وأكثر تعقيداً من تلك المتبعة على الطائرات العسكرية! الرجل كان دقيقاً وحاسماً بلفت نظرنا إلى "مسألة الطيور"، وإلى ضرورة الإنتباه من تحليقها بالقرب منا خاصة قبل الهبوط بقليل! حذرنا منها كما لو كانت طيور أبابيل، أو كما لو كان بيدنا أمر عليها؟ وحسب تعليماته "التوارتية"، شددنا أحزمتنا وتحقق هو بنفسه من سلامة شدّها قبل تشغيل المحرك. ولكن ما إن اِنطلق على المدرج وإرتفع بنا عن الأرض قليلاً حتى اِنزلقتْ مقاعدنا نفسها فجأة إلى الوراء ونحن مربوطين عليها بطريقة سليمة! فنظرنا إلى بعضنا البعض مصدومين، ولم نفهم ما الفائدة من ربط الأحزمة بطريقة سليمة ما دامت المقاعد نفسها لم تكن مثبتة بأرض الطائرة؟ منطق كيني سوداني

عجيب! كانت تجربة "بهلوانية"، وكنا مرعوبين من اِستهتار القائد وتعليماته الخنفشارية لدرجة أننا خفنا من طرح أي أسئلة عليه بعد ذلك! وفيما كان يُحلق بنا عالياً، كنا نتمايل بكراسينا "المفكوكة" بعضاً على بعض. وقبل الوصول إلى مقديشو بدقائق، فتح نافذته الصغيرة، وأخذ يطلّ رأسه يمنة ويسرة كالحرباء، وصار يناور مناورة مغاوير الجيش السوداني لتجنب الطيور. مشهد فريد عجيب لم أرَ مثله حتى عندما طرنا فيما بعد بطائرات صغيرة من نفس الحجم فوق جزر الكاريبي ودبي وبليز ومناطق أخرى نائية تعجّ بالطيور على أشكالها. ومَن يدري، فربما كانت تلك المناورات ممارسة مألوفة بين طياري العالم، لكنها بالنسبة لنا كانت بالتأكيد شيئاً مضحكاً ومسلياً، لا سيّما على بعد شبر واحد من "قمرة القيادة"...

منظر البازار من شباك الطائرة كان أشبه بأسواق مراكش أيام المرابطين منذ ألف سنة! سار القبطان بنا بسرعة نحو الأرض كما لو كان المدرج بمحاذة أسوار السوق مباشرة. وبين التنهد والترقب، هبط بنا هبوط الطيارين المحترفين. لكن عيناً ترى وأذناً تسمع! لم يكن هناك مدرج بالمرّة، بل حطّتْ الطائرة في قلب البازار نفسه، وهو مكان رثّ ومكتظ بمخلوقات غريبة وأشياءٍ عجيبة! جِمال وخرفان ودابة ودجاج وأرانب وأقمشة وتوابل وخضار وأسماك. أبخرة تتطاير هنا، ودخان يتصاعد هناك، ونساء تحمل سلّات على رؤوسهن وتضع أطفالهن على خصورهن، أو بطونهن، أو ظهورهن، حسب الأعمار ومحتويات السلال. كانت هناك بسطات بخور ومأكولات مجففة ومملحة ومشمسة ومخلّلة وكل أنواع التعاطي البشري، بما فيها الحشيش والقات. بل حتى مناظر الصوماليين بأرديتهم الفاقعة المزركشة كانت تعكس، هي الأخرى، أجاعيد الزمن وملامح العصور وخفايا الأساطير. ومع هبوطنا البطولي بينهم، تجمهر الناس حول الطائرة، وكانوا أصلاً ينتظرونها بفارغ الصبر. ذلك أن خطّ

الطائرات الصغيرة من نيروبي إلى مقديشو لم يكن حصراً على رجال الأعمال والجواسيس، بل كان يستعملها أيضاً كل من كان "يجلب" شيئاً من خارج الصومال. لا نماذج اِستيراد، ولا إفادات، ولا بوالص، ولا هويات، ولا شيء تحت ظروف العوز والمقاطعة والفوضى. وما إن هممنا بالنزول من الطائرة، حتى أحاط بنا حراس أشاوس، وكانوا مدججين بأسلحة ثقلية، بل أكاد أجزم أنه كانت بينها صورايخ يدوية مضادة للطائرات! ومع أنهم "سحبونا" بسرعة البرق إلى سيارة عسكرية مكشوفة، إلا أنهم اِنطلقوا بنا ببطء السلحفاة وسط قافلة جِمال تسير من أمامنا ومن خلفنا! لم أشعر بأهمية نفسي يوماً كما شعرتُ يومها وأنا محاطاً بالحرّاس ومضادات الطائرات وعشرات النوق. وقد لفتني أن الإبل من حولي كانت بيضاء اللون، تماماً كما رأيتها في السودان الأسود من قبل. ومع أن الجمل دُجّن أصلاً لأول مرّة في الصومال في تاريخ بعيد، لكن ليس هناك أدلة علمية دامغة على تاريخ ترويضه واِستئناسه. فمن يراجع التّوراة، مثلاً، يجد أن "فرعون الجنوب" في مصر أعطى النبي إبراهيم ناقة وخدم وجارية (هاجر) وأشياءً أخرى ضمن رواية إعجابه بسارة. وبينما يقدر مؤرخون كثيرون تلك الحقبة بنحو 1900 ق.م، يشير آخرون إلى لوحة طينية سومرية تصوّر إنسانا يركب جملاً تعود إلى أبعد من عصر إبراهيم بكثير، وتحديداً إلى منتصف الألفية الثالثة. بيد أن العرب هم أفضل خبراء الجمال في العالم، لكن فقط في شبه الجزيرة العربية! والصوماليون أيضاً أفضل خبراء، لكن فقط في الصومال، والمنغوليون أيضاً، لكن فقط في منغوليا، وهلم جراً. أما البريطانيون، فهم خبراء حقيقيون في جميع أنواع الحيوانات، ولديهم معرفة واسعة بالجمال والبغال والحمير وثقة عمياء في مقدراتها على البناء والحمل والجرّ، وقد اِستخدموها بظروف قاسية في جميع أنحاء العالم، من جنوب أفريقيا إلى نيجيريا وكينيا وأفغانستان وأستراليا! وبعكس

الإنطباع السائد، فإن السعودية ليست الدولة الأولى في عدد سكان الجِمال في العالم، إنما الصومال بأشواط بعيدة وبينهما يأتي السودان في المرتبة الثانية، ثم كينيا، ثم إثيوبيا، ثم تشاد. وهذا دليل قاطع على سوء اِنطباعات الغرب، أو سوء نواياه، التي تربط العرب بالجِمال، فيما 85% منها يوجد في أفريقيا وحدها...

وبعد أن تجاوزنا قافلة البُعران، اِنطلق موكبنا بسرعة متوجهاً إلى حيث كانت إقامتنا محجوزة. كان المكان عبارة عن فيلّا كبيرة حُوّلت إلى "فندق" من فئة 3 نجوم في غاية النظافة والترتيب. كان المكان في تلك الفترة أهم موقع في العاصمة الصومالية ويحظى بحراسة مشددة وتفضيل الصحفيين ورجال الأعمال وتجّار الأسلحة. توجّهنا إلى غرفنا مباشرة وأخذنا قسطنا من الراحة، لكن خيالنا لم يسترح لحظة واحدة من المشاهد والإنطباعات الأولية عن بلد متروك مهمل ممزق لا أمن فيه ولا أمان! وبينما كان الفندق هادئاً ناعساً لحظة وصولنا، تحوّل فجأة إلى خليّة نحل في فترة ما بعد الظهر. وقد اِرتفعت في بَهْوه أصوات مثيرة للاِهتمام بكل اللغات: الإيطالية والإنجليزية والأُردية والعربية والأمهرية والسواحيلية والصومالية. كان بهو الفندق أشبه بقاعة من قاعات الأمم المتحدة، ويعكس تجمعاً حضارياً ثقافياً دولياً في بلد العجائب وسط الدمار والخراب والتخلّف!

جاء مرافقونا إلى الفندق ونقلونا بسيارة عادية إلى منزل مضيفنا الصومالي. وفي الطريق إليه مررنا بنفس السوق حيث هبطنا، وكانت نوافذ السيارة مفتوحة لشم نسيم الغروب ومناخ المحيط الهندي. لكن كلما توقفت السيارة برهة بسبب الإزدحام أو عبور الجِمال والماعز، كان الأطفال يقفزون إلينا، لا للتوسل والاِستعطاء، إنما للتودد إلى زميلي "طوم" وللمس وجهه بحماس وشغف واِستهجان. أشياء لم أرَ مثلها من قبل ولا من بعد في كل حياتي، فأبديتُ دهشتي واِستغرابي

للمرافقين، لكني فوجئتُ بردهم أن جلّ ما كان الأطفال يحاولونه هو لمس وجه رجل أبيض كانوا يرونه لأول مرّة في حياتهم، ولم يكن في السيارة أبيض غيره. "طوم" اِندهش بالرواية، وكان مسروراً جداً بالتجربة، بل فخوراً بها، خاصة أنها كانت تجربته الأولى!

وصلنا إلى ما يشبه القصر الصغير. وأمام مدخله كانت هناك حديقة كبيرة يحرسها مسلحون وسيارتا جيب عليهما مدافع مضادة للطائرات. فجأة طلّ علينا أطفال قبيلة مضيفنا ومجموعة حيوانات أليفة من بينها كتاكيت وقطط وقراقير وأرانب، فضلاً عن معزاة وكرّ ونسناس. كان أمراً مدهشاً لي ولطوم أن الأطفال كانوا يعرفون الحيوانات بـ"الشخصي" وينادونها بأسمائها، وكلها كانت حديثة الولادة كما لو كان المكان حضانة للجميع. طوم وقع بغرام "هناء"، (المعزاية)، من أول نظرة. وأنا أعجبني كبرياء "ميكي"، الحمار الصغير، لا سيّما أنه ذكرني بطفولتي وكرّ جدّي "زفروت". وخلال زياراتنا اليومية بعد ذلك، كان طوم أثناء اِستراحات الشاي يبكي حنينه ويفضفض همومه إلى عنزته "هناء"، وكان يومها في خضم معركة الإنفصال عن صديقته في بريطانيا. أما أنا فكنتُ أناقش فلسفاتي الكونية ونظرياتي الإنسانية وخططي التجارية مع "ميكي" الحمار!

بالإضافة إلى الإتجار بأجهزة الإتصالات، كان شركاؤنا الصوماليون يملكون مجموعة متنوعة من الأعمال التجارية والمصانع الصغيرة، أحدها كان مخصصاً لتصنيع المعجنات والمعكرونة. ولئن كان هناك شيء واحد يقدّره الصوماليون من الماضي الإستعماري لبلادهم، فهو حبّهم للطعام الإيطالي، خاصة المعكرونة. الإيطاليون اِحتلوا مساحات شاسعة من الصومال منذ عام 1889م إلى أن اِستولى البريطانيون على شمال البلاد عام 1941م، وصار الشمال منطقة وصاية تابعة للأمم المتحدة تحت السيطرة المشتركة. وبشكل "مافيوزي" صارخ،

قُسّم الصومال شكلياً بين أمراء الحرب الكبار بمعية الدول الكبرى. وفي عام 1991م، أعلنت مجموعة منشقة معارضة تمثل شمال الصومال عن نفسها دولة مستقلة بذاتها باسم "صومالي لاند". إلا أن إعلان الإستقلال، لم يأخذه أحد على محمل الجدّ من المجتمع الدولي المعارض للتقسيم. وهكذا، أصبحت (صومالي لاند) واحدة من تلك " البلدان" الإفتراضية "الشَبَحيّة" التي تُدار ذاتياً بمعرفة النظام الغربي، لكن بدون اِعترافه الرسمي، أشبه بما كانت فلسطين عليه بعد الحرب العالمية الثانية. لا أحد حقيقة يعرف ما إذا كان الغرب قد تعمّد سلخ الشمال عن الصومال، وإهماله سنوات طويلة، بإنتظار ترتيب دولي معين، أو توطين مشبوه، أو مشروع وعد بلفور جديد لأهالي غزة بعد أن دمّروها عن بكرة أبيها؟ كل شيء في هذا العالم الفاسد جائز وممكن! لكن بعيداً عن مآرب الغرب في الصومال والنظرة إليه، فهو يمتلك أكثر من3000 كيلومتر من ساحل المحيط الهندي الرائع، وهي شطْآن رملية "غير ملوثة" رغم تلوث البلد بالإقتتال والتشرذم والفساد.

تايتانيك الصومال

أوضاع الصومال بدت حزينة لنا. لكن مصائب قوم عند قوم فوائد. فما دام الصومال معزولاً عن العالم بعالمه الخاص، فَلِمَ لا يستفيد الغرب من اِنعزاله – لسان حال الغربيين؟ ناقلات النفط الكبيرة وسفن الشحن الدولية كانت تَستغل شواطئ الصومال المنعزلة وتقوم عليها بعمليات مشبوهة في مياهه الإقليمية. وهي عمليات دفعت بعض الصوماليين إلى تهديد ناقلات النفط للإبتعاد عن شواطئهم النظيفة تحت طائلة القرصنة وعواقب الإرهاب. لكن رغم التهديد الصريح والإبحار الخطر، كانت الناقلات الغربية تصرّ على المخاطرة والإقتراب من شواطئ الصومال! كان بإستطاعتها (إنْ أرادت) أن توسّع مسارها

وتتجنب اِستفزاز الصوماليين، لكنها لم تفعل لأسباب زعمتْ أنها تتعلق "بكلفة التأمين"، وكأن التأمين تحت الخطر الصومالي كان أرخص على الناقلات من كلفة توسيع مسار الإبحار؟ وحتى لو كان إبعاد مسار السفن عن الشواطئ الصومالية يستهلك المزيد من المازوت والكلفة، فإن خطر القرصنة نفسه كان أشد وكلفته أعلى بكثير من أن أي توفير مزعوم!

ذهب الثلج وبان المرج! المسألة لم تكن مادية بحتة. إذ تبين أن أطرافاً عديدة متآمرة اِستفادت من رمي نفايات نووية سامة في المياه الصومالية. و"الجائزة الكبرى" أن الصومال مزرعة لا قوانين فيها ولا شرائع تحكمها. ولا ريب أن "المؤسسة" العالمية (المافيا، شركات التأمين، والدول صاحبة النفايات) اِستفادت من عدم وجود حكومة وقوانيين ومراقبة. وللمقارنة فقط، يكفي أن سويسرا، مثلاً، تحفر بين 600 إلى 1000 متر تحت الأرض لدفن نفاياتها النووية، ما يدلل على الكلفة الفلكية للتخلص من "زبالة" الغرب. ونحن هنا لا نتحدث عن ناقلة واحدة، أو عشر ناقلات، أو 20 سفينة، أو 50، إنما عن 210 بين ناقلة وشاحنة وقاطرة لغاية عام 2022م، وهي بمجموعها تمثل "جرائم منظمة" على المسرح الدولي. وقد اِنطوت الجرائم بأنواعها على إخفاء نفايات نووية، وشحنات أسلحة، وغسيل أموال، واِتجار بالبشر، وتهريب آثار وعملات مزورة، فضلاً عن الصيد الممنوع في المياه الإقليمية. إلا أن أهم الممارسات وأخطرها كان ينطوي على قذف تقنيات معقدة للذكاء الإصطناعي على مبدأ "أرِمِ وأنسَ"، وهي أجهزة، ببطارياتها القوية المُعمِرة، تتحرّى التسريبات الطبيعية للغاز والنفط على مدى فترات طويلة. كلها أعمال مريبة مشبوهة أُنجزت بذريعة مواجهة القرصنة الصومالية! ومن بين القليل من الدراسات الجيوفيزيائية، هناك ما يؤكد وجود غاز ونفط بكميات هائلة على

السواحل الصومالية. ولو أراد القباطنة الغربيون وربابنة الحاملات تجنب المخاطر والقرصنة الصومالية والإتهامات حقاً، لكانوا إبتعدوا قليلاً عن المياه الإقليمية للصومال. وهو أمر مقدور عليه بالنسبة إلى سفن متعودة على عبور البحار والمحيطات من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب! وفي حين كان الغرب الماكر ينظم عمليات التآمر البحري إستراتيجياً ويجني أرباحاً طائلة لشعوبه، كان الشرق الخامل (العرب والإيرانيون والمصريون والأتراك) يهتمون فقط بالتفاصيل الصغيرة بين الميليشيات المتحاربة على أرض الصومال نفسه. فنزاعاتهم كانت محلية زقاقية تدور حول دعم وكلائهم من الفصائل الإسلامية من إخوان وسلفيين و"بوكو حرام" و"الشباب" وأهل السنة والجماعة. وهكذا، بعكس الغربيين، كان الشرقيون كلهم يتنافسون على قطعة من كعكة صغيرة على حساب الشعب الصومالي المسكين.

ماعز وغزلان وتماسيح

مضيفنا لخّص لنا فلسفته الإجتماعية على ضوء ظروف الصومال آنذاك. إدّعى أن الصوماليين يحتاجون إلى ثلاثة أشياء: "طعام، وإتصالات وتحويلات مالية". تلك كانت إحتياجات مصيرية تربطهم بشؤون العيش وبمغتربيهم حول العالم، وهي نفسها المجالات التي إختار مضيفنا الإستثمار فيها تحديداً. وبمعاينتي الميدانية لنماذج من أعماله في الصومال، إندهشت فعلاً لكميات المعكرونة الضخمة التي كان ينتجها، ليس فقط للسوق المحلي، بل أيضاً للتصدير إلى اليمن وإرتريا وجيبوتي. كما إندهشت أيضاً لسرعة حفرياتهم اليومية وتركيباتهم لكابلات الألياف الضوئية بمعدل 2 كلم يومياً، وهي مسافة غير مسبوقة حتى في الغرب نفسه. وبلغة إقتصادية بحتة، فإن "الكيلو متر" الواحد في الغرب كان يومئذ يكلف نحو 40 ألف دولار ويحتاج

تنفيذه إلى مهندس واحد و 3 عمال من الثامنة صباحاً حتى الغروب. كانت فرق الحفر والتركيب في مقديشيو تسابق الأيام بهدف تأمين الإتصالات الدولية والإنترنت، فضلاً عن البنية اللازمة لإستلام التحويلات المالية من الخارج على طريقة "موني غرام"، أي بدون المرور بالنظام المصرفي العالمي. نظام "السويفت" لم يكن يومها متاحاً، ولا هو أصلاً يتاح لدول غير معترف بها في الأمم المتحدة. ورغم تخلّف الصومال عموماً، فقد انبهرت يومها كيف تمكنوا من تزويد هواتف إلكترونية (من عندنا) لمعظم بيوت العاصمة الصغرى. وبالفعل كان أمراً مدهشاً أن يستطيع معارفي الصوماليون إطعام الناس، وتأمين الإتصالات لهم، وتوصيل تحويلات مغتربيهم إليهم..

بعد أسبوع مثمر طويل في العاصمة، كانت الخاتمة مسك. أبرمنا عقداً طويل الأمد و"دسماً"، صار الصومال بموجبه واحداً من أكبر أسواقنا وأهمها في الشرق الأوسط وأفريقيا. وللإحتفال بالمناسبة قبل المغادرة، أراد مضيفنا وداعنا على الطريقة الصومالية، فأقام لنا حفل "الغداء الأخير" ودعا إليه حشداً من معارفه وكبار موظفيه. وعند الساعة الواحدة بعد الظهر، قعدنا جميعاً قعدة الأرض على الطريقة القبلية التقليدية. وبغضون لحظات قليلة، بدأنا (طوم وأنا) نصارع الأوجاع في رِكبنا وأوراكنا، وكنا نعدّل جلستنا مع كل لقمة تقريباً. ورغم الإنزعاج والألم، إستمتعنا بالطعام إلى حدود الذروة. كانت الأطباق تهبط علينا بكل الروائح والألوان والأشكال من لحوم وخضروات ومعجنات، إلى جانب الأطباق الهندية والصينية والإيرانية. فصواني الأرز وحدها كانت تعرضه أمامنا ممزوجاً بالزعفران والزبيب، وبنكهات لا يستوعبها عقل ولا يستثقلها لسان. أما الأسماك، فكانت من ثمار المحيط الهندي على مرمى حجر منا. وبينما كنتُ أعاين صينية الدجاج المحشي عن بعد، كان طوم، يركز

اهتمامه على صينية اللحوم وسط الوليمة، وكانت مزدانة بالكاجو واللوز وأنواع الزبيب ومكسرات أخرى من مدغشقر وزنجبار وأسمرة. كان غداءً ملوكياً لا يقام مثله إلا في الأعياد الرسمية والمناسبات الوطنية!

وعلى قرقعات فناجين الشاي والقهوة، انتهينا من وليمة العمر وإنسحبنا من ديوان الفيلّا وتوجهنا للخروج. وعند الباب ودّعنا مضيفنا وإتفقنا معه على مواصلة اللقاء في لندن. إلا أن طوم شاء أن يكون صاحب الوداع الأخير، فطلب أن يودّع معشوقته الصغيرة "هناء"، (المعزاية)، لا سيّما أنه كان قد وقع في غرامها من شدة وَدَاعتها و"هضامتها". طلبه ذاك أثار الغيرة في عروقي، فطلبتُ أنا أيضاً توديع حماري الفيلسوف "ميكي". هنا، نظر مضيفنا إليّ نظرة "إرحمنا من طلباتك!". كان يُفترض بي أن أكون نبيهاً لالتقط ما كان يقصده، لكني نظرتُ إليه نظرة "بهلول" ولم أفهم شيئاً من تلميحاته؟ فجأة، نزل الوحي عليّ وإستدركتُ صعوبة الموقف! بل إنني تمنيّتُ يومها لو لم أكن برفقة طوم أو أعرفه أصلاً! فالرجل رغم أصوله الإنجليزية، كان بعكس أقرانه الإنجليز، درامياً عاطفياً ووجدانياً. كان بادياً عليه حماسه لتوديع "هناء"، فإستعجلهم بإتيانها له. مسكين طوم! كان لا بد من مصارحته على مضض، فقال له مضيفنا بحياء شديد ودعابة: "إن عنزتك "هناء" توفّاها الله وصارت في خبر كان! لكن طوم، على صدمته، أصرّ أن يعرف كيف ماتت المسكينة ومتى، لا سيما أنه كان قد رآها قبل يوم واحد فقط. هنا، دخلتُ أنا على الخطّ، وبدل أن أتعاطف مع طوم، قلت له ساخراً: "عنزتك يا عزيزي صارت في بطنك، ذبحوها على شرفك، وأشكر الله أنهم لم يذبحوا الحمار على شرفي"؟ طوم صُعق من سخريتي و"همجيتي"، ودار عني مكفهر الوجه مغتاظاً، وعبس قرفاً، وتجهّم إستياءً، ومشى إلى

السيارة دون أن ينطق بحرف! ولولا جسارة شخصيته ولباقته، لكان قد تقيّأ فوراً أمامنا. إلا أنه قاطعني ولم يحدثني بعدها حتى اليوم التالي ونحن على متن الطائرة في طريقنا إلى نيروبي..

"صالحته" على طريقتي، وتوجهنا ليلتئذ إلى واحد من أشهر مطاعم كينيا في إحدى ضواحي نيروبي. كان المكان متخصص بتقديم نماذج من المشاوي على أسياخ كبيرة. لم أكن يومها قد اختبرت مطعماً رائعاً مثله، ولا مشويات طريّة مثلها. كان الطقس لطيفاً والجو رومانسياً بديعاً. بدأتُ السهرة بمشروب (للمفارقة) يُسمّونه "الدوا"، وهو كوكتيل كحولي قوي. وكالعادة، انخرطت مع الحاضرين بجدال فلسفي عميق عن حقوق العمال في الصومال، ما نقلني تحت السكر إلى عصور أثينا في المبارزة والنقاش. وفي الأثناء، عاد الجرسون إلى طاولتنا (للمرّة الثالثة) وبيده سيخ لحم آخر، وسألني قائلاً: "من أي طرف ترغب (بقطعة البقر)"! هنا، وللحظة عابرة، طار "الدوا" من رأسي وسألته ماذا يقصد بقطعة البقر (!)، فردّ عليّ بلباقة وإحتراف مع بسمة عز وإفتخار: "سيدي، آخر سيخ مَررتُ عليك به كان لحم تمساح، والسيخ الأول كان لنعامة، وهذا السيخ الآن هو لحم البقر!"....

عدّدها أمامي بعجالة وكأنه كان يُسمّع درساً عن الحيوانات لأستاذه المفضل! راح عن بالي أن المطعم أساساً متخصص بلحوم السفاري! وكأن ذاك وحده لم يكفِني، فقد اكتشفت أيضاً أن مُقبلاتنا مع مشروب "الدوا"، التي سبقت عشاءنا، كانت هي أيضاً أطباقاً صغيرة من الحشرات والديدان والزواحف الصغيرة المُحمّصة والمُملحة. يومها خِلتها نوعاً من أنواع المكسرات الأفريقية على الطريقة اللبنانية. عندها، تقزز بدني، وإكفهر وجهي، وتجهّمتُ قرفاً وإستياءً! لم أتمالك بلعومي في حلقي، وشعرتُ بالحاجة إلى التقيؤ تماماً كما شعر طوم

بسبب عنزته في اليوم الأسبق. فنظرتُ إلى طوم شاكياً، لكن ضحكته كانت بعرض أفريقيا، فسخر مني أمام الجميع كما لو كان ينتقم لعنزته المصون.

المفارقة أن طوم الإنجليزي وأنا العربي وأصدقاءنا الصوماليين اِختلفنا في النقاش على معاني حقوق الإنسان، إلا أننا اِتفقنا على ذبح الحيوان وأكل اللحوم، وإن كنا نفضّل أنواعاً مختلفة منها.

سنوات عبث واِنتقال

وكعادتها معي، تعطيني الدنيا حيناً وتأخذ أحياناً! كانت السنوات الخمس من 1995م إلى 2000م أكثر سنين العمر اِرتباكاً ووجعاً. كنتُ يومها على عتبة الأربعين من عمري وأمرّ بأزمة اِنفصال عائلي وهجران اِجتماعي. فبينما كنتُ أصعد أعلى درجات سلم التألق المهني، وقاب قوسين أو أدنى من تسلم أرفع المناصب على صعيد أوروبا والشرق الأوسط، كنتُ اِنزلق في الوقت نفسه إلى قعر السلم العائلي إلى أدنى عتبات الوحدة والقلق. بدتْ الدنيا يومها كما لو أرادت أن تختبرني بما لم أكن أهلاً له. بيد أن خياراتي كانت بسيطة وحاسمة، فإما الاحتماء بالشرب والزجاجة (السكر)، أو الإدمان على الرسم والعمل، أو المغامرة بما يقضي عليّ من آفات ورذائل. فقررتُ دفن نفسي بالعمل، وإشغال فكري بالرسم المائي، وإلهاء جسدي بالسفر، إلى درجة أني كنتُ أحياناً أفطر في بلد وأتغدّى في آخر وأتعشّى في ثالث. وهكذا، صرتُ في حينها كالنحلة بعز حزيران، أتنقل من زهرة إلى أخرى ومن هضبة إلى جبل. ورغم ساعات العمل الطويلة وندرة النوم أحياناً، وجدتُ نفسي أبحث عن أوقات إضافية لأنجز المزيد من الرسم والعمل، في حين أن المزيد كان مجرد هروب من ماض أليم. كانت الجروح أعمق من أن تضمدها ألوان قوس قزح أو رحلات بعيدة

إلى أصقاع الأرض. فمهما ابتعدتُ عن لندن وانشغلتُ عن همومي بلوحاتي، لم تبتعد عني أوجاعي لحظة. إلا أن تلك الحقبة جاءت أيضاً بعصر الإنترنت، فشغلت العالم كله عن مشاكلي وسحبتني معها إلى عالم جديد، عالم وردي آلامه رقمية، كما لو كانت حبوب أعصاب مهدأة. وقد لا أصدّق نفسي أحياناً أني كنتُ أول شخص في الشركة استعمل "الكمبيوتر المحمول" وأنجز عليه جداول مبيعات ورسومات بيانية بالألوان. كانت الشركة في ذلك الوقت تدار على نظام كمبيوتر مركزي عملاق تتفرع منه شاشات بلهاء للموظفين لا تحكي شيئاً ولا تحاكي أحداً. لذا، فالكومبيوتر المحمول كان يومها سلوتي وتسليتي. كانت حقبة بداية الإنترنت مثيرة جداً وقلبت الأشياء رأساً على عقب، فصرنا نتجاوز حدود العمل والمكاتب إلى مطارح مسلية.

كانت أيامي في تلك الحقبة كتالوجاً ضخماً من النشطات المهنية العجيبة. كنتُ اِختلقها أحياناً بلا حاجة ملحة أو مبرّر، فقط لأهرب بها من همي وسأمي. كنتُ أنظّم لفريقي اِجتماعات طارئة في بلدان لا شغل لنا فيها، واِشترك بمعارض لا تمت لأجهزتنا بصلة، وأحضر ندوات ومؤتمرات تعنى بالنفط والآثار والتاريخ ولا علاقة لها بعملنا شيء. كنتُ أصل الليل بالنهار واِربط الشرق بالغرب فقط لأبقى منشغلاً يقظاً كي لا أقع فريسة الملل والإنهيار. ورغم جروحي و"وجدانياتي"، بقيتُ مراقباً للسياسة ومتابعاً شغوفاً للأحداث في العالم. ولعلّ أهم حدث شغلني في العام 1997م، كان فوز طوني بلير الساحق بالإنتخابات البريطانية، منهياً بذلك 18 سنة من حكم المحافظين. كانت هناك أيضاً، إعادة هونغ كونغ إلى الصين بعد مئة عام من الهيمنة البريطانية. أما على جبهة الشرق الأوسط، فتلك كانت أيضاً فترة تألق طالبان في أفغانستان وظهور القلاقل المشرقية، وتفجيرات أبراج الخُبر (السعودية)، بالإضافة إلى مناوشات حزب الله

مع مستوطنات إسرائيل والعمليات الإنتحارية الفلسطينية في تل أبيب والقدس. وما إن طلّ عام 1998م، حتى اِهتز العالم الغربي بفضيحة كلينتون مع مساعدته لوينسكي، فتم تجريمه شكلياً، وتبرأته رسمياً بعد عام. لكن بقي تفجير سفارتي أميركا في كينيا وتنزانيا أهم حدث أمني أصاب الولايات المتحدة بالصميم وراح ضحيته أكثر من 200 قتيل. وعلى الفور اِتهمت أميركا "القاعدة" وقصفت أوكارها بالصواريخ في أفغانستان والسودان. وعلى منوال أخف، كان عام 1999م، أرحم على العالم من السنوات السابقة، لا سيما مع التحضيرات للقرن الجديد. وفي الأثناء قام "الناتو" بقصف أوروبا نفسها (يوغوسلافيا) خلال حرب كوسوفو. وتمكنت تركيا في تلك السنة من القبض على "الصيد الثمين"، عبد الله أوجلان وسجنه. ولم يحدث في الشرق الأوسط مفاجآت خطيرة، بل العكس، أخذ أيهود باراك يدفع بِاتجاه محادثات السلام مع ياسر عرفات، رغم اِعتراض حركة "حماس" ومواصلة عملياتها ضد إسرائيل.

إلا أن عام 2000م كان بلا ريب عام السلم والترقب والإثارة. كان عام الإنتقال من القرن العشرين إلى القرن الحادي والعشرين *Y2K*، والأهم كان عام الخشية والإرتباك من "لخبطة" ساعات الأنظمة الإلكترونية والرقمية عند منتصف الليل بين العامين 1999م و2000م. الطريف أن ثمة دول عَيّنت في حكوماتها وزراءً متفرغين لإدارة "النقلة" بين القرنين لحصر الأضرار ومعالجة العواقب. وقد تزامن ذلك أيضاً مع اِنتشار الإنترنت وتعميم اِستعمالاتها التجارية في الأعمال والشركات الكبرى. ورغم آلاف الشائعات حول العالم بحصول كوارث خطيرة وتصادم مجرات وفيضانات لأسباب تتعلق بدورة الزمن واِنقلاب الرزمانة الفلكية، إلا أن شيئاً من ذلك القبيل لم يحصل؛ فضاعت بلايين دولارات التحسب والحيطة هباءً مع طلوع النهار يوم 2000/1/1م.

الفصل الثامن عشر: الهجوم المسرحية

زلزال أم زلزلة؟ – 11/9

في صباح 11 أيلول 2001م، تركتُ فندقي في مقاطعة ويلز وتوجهتُ إلى مقر الشركة الأوروبي في "كولديكوت". بلدة صغيرة بُنيت أساساً لتكون قريةً لمصنع هواتف ثابتة حيث ترأستُ فيه قسم التصدير الدولي خارج أميركا. كانت القرية برمتها عبارة عن أبنية وهنغارات تابعة للشركة ولمصنعها، فضلاً عن بيوت موظفيها وما يتعلق بهم من محلات ومؤسسات صغيرة. القرية، رغم صغرها، كانت حيوية جداً لإقتصاد جنوب ويلز برمته بسبب ضخامة إنتاج المصنع على المستوى العالمي خارج أميركا. وكعادة أيام ويلز في ذلك الوقت الخريفي من السنة، كانت مناظر السهول والبراري والحقول أشبه بلوحات فنية بديعة زاهية. ومَن كانت يداه قد أمسكتْ بريشة رسم في يوم من الأيام، (مثلي)، فإنه يلاحظ تلقائياً كل لون على حدة، كما ينتبه عفوياً إلى تمازج ألوان الأجذاع والأغصان والأوراق وتدرج خضرة العشب وزرقة السماء. إنها فعلاً لوحات سريالية مدهشة. يومها كان يوماً مليئاً بالإجتماعات، لا سيما أني لم أكن قد اِجتمعت مع فريقي على مدى 3 أشهر. فبين أسفارهم وعطلات الصيف واِختلاف الجغرافيا، لم يكن سهلاً عليّ التمكن منهم جميعاً تحت سقف واحد في وقت واحد. وأثناء اِجتماعي معهم بعد الغداء، اِقتحم زميل من قسم آخر غرفة الإجتماعات وصرخ فينا بأعلى صوته: "شغّلوا التلفزيون فوراً". كانت الساعة تشير إلى الثانية تقريباً، فشاهدنا ما كان العالم كله يشاهده نقلاً حياً مباشراً من نيويورك. طائرات مدنية تترنح بين السماء والأرض وأبراجاً مكتبية تتهاوى وحرائق ودمار وخراب ورماد. كانت صوراً حقيقية حيّة عن جهنم ويوم القيامة. ومن هول المشاهد

تصورنا الأمر لوهلة مزحة سمجة أو برنامجاً وثائقياً اِفتراضياً. لكن سرعان ما أدركنا الحدث الجلل واِستدركنا أننا كنا على أعتاب عالم جديد! وفي الأثناء، اِتصل بي الرئيس التنفيذي للشركة، وكان يومها يزورنا من المكتب الرئيسي في كندا، وطلب مني ملاقاته في مكتبه فوراً.

"من برأيك يا هشام يقف وراء هذا العمل الإرهابي؟". سألني الرئيس بتعبير مرتبك ولهجة مريبة كما لو كنتُ المسؤول عن بيع طائرات البوينغ في أميركا، وليس عن هواتف الشركة في أوروبا والشرق الأوسط وأفريقيا؟ أجبته ممازحاً أن إرهابيي نيويورك يمكن أن يكونوا من أي بلد مشرقي إلا لبنان. ربما كانوا فلسطينيين، أو أردنيين، أو يمنيين، أو صوماليين، أو أكراداً. بيد أن إجابتي تلك لم تشفِ غليله، فاِستطرد مستفسراً عن الأسباب التي قادتني إلى ذاك الاِستنتاج! الرجل كان فضولياً عنيداً، وقد أراد اِستخراج أكبر قدر من المعلومات مني، كما لو كنتُ أنا منظم العملية بنفسي (أو مساعداً لبن لادن أو الظواهري)! ومثلما خطر على بالي أن الإرهابيين كانوا عرباً أو مسلمين، لا بد أن الخاطرة وردت أيضاً على باله! فصار كل عربي أو مسلم (بذهنه) "متهماً" تلقائياً بالتعاطف والتبعية. وهنا، لم تعد المسألة مزحة أمام هول الحدث وضخامة التفجيرات! كان لا بد من طمئنته والتخفيف من ظنونه. فأعدتُ على مسمعه أولاً مقولة اللبنانيين الشهيرة أنهم فينيقيون وليسوا عرباً، وهم لذلك لا يتعاطفون مع القضايا العربية أو الإسلامية بسهولة أو بالمجان، لا سيّما أن نصف الشعب اللبناني مسيحي أصلاً! وكأمارة إضافية على عدم تورط اللبنانيين، ذكّرت الرئيس أن التفجيرات يومها وقعت في نيويورك قبل التاسعة صباحاً، وهو وقت مبكر جداً لقيام أي لبناني من نومه لأي سبب! ملاحظة أضحكته وبددتْ عبسته وأنهتْ الدردشة معه على خير. وفي

جميع الحالات لم يكن هدفه منها سوى الإطلاع على رأيي كوني من أصول عربية وأتبع إدارته مباشرة..

وهّابي وافتخر!

تفجيرات 11/9 أصابت العالم بصدمة رهيبة وغيرّته إلى الأبد. أيقظتْ مشاعر الكره والحقد عند الغرب ضد كل الرموز الإسلامية والعربية في كل مكان، خاصة في البلدات والمواقع النائية. فكيف لا تصيب سهامهم مَن لم يكن أبيض أو يحمل صليباً على صدره؟ لا شك أن هوية المهاجمين السعوديين عكست كرهاً رهيباً ضد المسلمين والعرب سرعان ما اِنتشر في أصقاع العالم. وقد وصل الأمر بزخمه الى حد أن جامعة أكسفورد العريقة أدرجتْ تاريخ "9/11" في قاموسها مصطلحاً لغوياً للدلالة على شدة الصدمة والمباغتة. وعلى تلك الخلفية، صار حنطيو البشرة بنظر الغربيين عرباً ومسلمين ومن سكان "الشرق الهمجي". وحتى لو كان أتيح لأي عربي الدفاع عن نفسه، فلم يكن ممكناً له الوقوف بوجه تسونامي الكره الذي كان يلف الغرب ضد العرب آنذاك. ففي حالات المواجهة الحاسمة بين الشرق والغرب تسقط كل المعايير ولا يبقى إلا الجغرافيا والدين! في تلك المواجهة لا يبقى في أعين الغربيين ما يُحسب له الحساب أو يعلو على جذورهم وديانتهم. فعند الأزمات الجِسام بين الأمم لا أحد يهتم إن كنتَ مُلحداً أو مؤمناً، مُنحرفاً أو مِثلياً. همهم الوحيد ألا تكون غريباً عنهم أو دخيلاً عليهم.!

وهكذا، فإن مشاركة ~~space~~ 15 سعودياً من بين 19 إرهابياً في تفجيرات نيويورك ضمن جماعة "القاعدة"، صوّبت اِهتمام العالم وغضبه على العرب والمسلمين عامة، وعلى الوهابيين والمملكة العربية السعودية خاصة. كان واضحاً أن أحداث 11 أيلول نقلت

عقارب الزمن وبدأت عدّاد التاريخ من جديد وغيّرت العالم القديم إلى غير رجعة. كان حدثاً فظيعاً ومؤسفاً، لأن السعوديين مسالمون بشكل عام. أما المتزمتون، فلهم حالة خاصة برزت ببروز "القاعدة" الوهابية كجهة مُحرّضة في السعودية. وأما أسباب بروز "القاعدة" نفسها، فعديدة أهمها: النقمة على حكم الملوك في الجزيرة العربية وعلى مَن يدعمهم، والنقمة على إلحاد الناس عن خطى السلف الصالح، والنقمة على الغزو الروسي لأفغانستان عام 1979م، والنقمة على التقصير الإسلامي الجماعي عن ملء الفراغ عقب وفاة تيتو عام 1980م. كانت الظروف الناتجة في جميع الحالات تستدعي - من وجهة نظر "القاعدة" - تدخل المجاهدين الوهابيين لنصرة إخوتهم المسلمين السنّة في أفغانستان ضد السوفيات الشيوعيين؛ كما كانت تستدعي أيضاً نصرة المسلمين ضد الجماعات المسيحية الصربية في يوغسلافيا، فضلاً عن ملء الفراغ الذي خلفته وفاة تيتو. كانت المقاومة الإسلامية الوهابية نشيطة وفعّالة بقيادة بن لادن وكانت تتلقى الدعم السخي السري من رجال الدين السعوديين وبعض السلطات الإسلامية. وفي نهاية المطاف، وحتى تحت أعين النظام السعودي نفسه، عمل الغيارى السعوديون علناً على تجنيد الجهاديين الوهابيين في الصراع الذي اِندلع في حرب البوسنة في 1992م.

وعندما هدأ غبار الصراع في شبه جزيرة البلقان واِنتهت حرب البوسنة عام 1995م، عاد المقاتلون الوهابيون إلى السعودية بأطنان من الخبرات القتالية. لكن، كيف وأين كانوا سيعملون وقد أصبحوا خبراء في أمور القتال والتفجير والقنص؟ شعر الكثيرون منهم بإحباط شديد أشبه بالإحباط الذي شعره جنود أميركا عقب عودتهم من حرب فيتنام. لم يكن سهلاً عليهم الإنخراط بالمجتمع، ولا المجتمع اِستطاع تقبلهم بسهولة رغم بطولاتهم باسم الإسلام، ولا عوائلهم اِستطاعت، هي الأخرى، التعايش معهم من جديد. وهكذا، صار المجاهدون

السعوديون عالةً على المجتمع السعودي وعاطلين عن العمل لأنهم لم يتكيفوا مع الحياة الطبيعية السلمية الخالية من الرصاص والتفجيرات والقتال. وليس سراً أن أميركا نفسها (بالترتيب مع النظام السعودي) اِستفادت من تلك الظروف واِستغلت المجاهدين الوهابيين، فأرسلتهم إلى القتال في أفغانستان إلى جانب المجاهدين الأفغان ضد "السوفات الكفار".

وهكذا، وجدت أميركا أنه أسهل عليها حشد الدول الإسلامية ضد السوفيات الكفرة، من أن تتولى هي وحدها محاربتهم والتعثر بوحل الأزمة لفترة طويلة وبكلفة عالية. وهكذا أيضاً، تجسّدت رغبة أميركا بتوريط الدول الإسلامية مجتمعة من خلال القرار الحازم الذي أصدرته لصالحها منظمة التعاون الإسلامي بإدانة السوفيات ومطالبتهم بالإنسحاب الفوري غير المشروط. وما أثار الإنتباه يومها أن الخصمين اللدودين وزيري خارجية إيران والسعودية كانا على سطر واحد ومسافة واحدة من العدوان السوفياتي، وقد أنتقداه بشكل غير مسبوق، كما لو كانا إخوة بمواجهة عدو شيوعي كافر واحد. المفارقة أن موقف إيران تطابق أيضاً مع موقف عدوها التقليدي (الغرب) من حرب السوفيات في أفغانستان. كان واضحاً أن إيران حَسبتها جيداً على أساس أن التعامل مع الجارة السعودية المسلمة يبقى أقل وطأة عليها من خطر الشيوعيين على أبوابها. فالحزب الشيوعي الإيراني "تودة" كان ما يزال ينبض ببعض الحياة، وكان يمثّل خطراً أكبر على السعودية نفسها مثلما كان يمثّل على ثورة الخميني. المفارقة هنا أيضاً أن حزب "تودة" الشيوعي هو الذي مهّد للثورة ضد الشاه قبل أن تظهر الثورة الإسلامية وتخطفها (بتدبير من المخابرات الغربية لصالح الإسلاميين أعداء الشيوعية)..

وفلتوا من القمقم..

تاريخياً، الإمام محمد بن سعود، المؤسس الأول للسعودية، (غير مؤسس السعودية المعاصرة، عبد العزيز، ابن سعود)، كان داهية عصره. أدرك باكراً أنه ما لم يلعب "الورقة الوهابية" لن يتمكن من مواجهة خصومه الأتراك ومنعهم من السيطرة على نجد والحجاز. لكنه بمعية الإنجليز لفّ على المسألة وغيّر من سنيّته التقليدية بإتباعه سنيّة محمد عبد الوهاب السلفية، وإستطاع من خلال إتفاق الدرعية مع محمد بن عبد الوهاب عام 1744م إيجاد نقاط إختلاف عقائدية مع الأتراك لبلورة مشروعه الإنفصالي عن السلطنة؛ ففكرة الإلتحام بالوهابية كانت فريدة في تمردها لأنها أعطتْ بن سعود صلاحية لتفسير التعاليم الإسلامية على النحو الذي وجده مناسباً، وليس حسب مرجعية "الباب العالي" في إسطنبول، أشبه بما فعله هنري الثامن قبله مع الكنيسة في روما. لكن عندما إحتدت المواجهة بين بن سعود وعبد الوهاب من جهة، وبين الباب العالي ومحمد علي باشا، والي مصر من جهة أخرى، أرسل الأخير ابنه إبراهيم باشا إلى الحجاز لإخماد الحركة الوهابية، إلا أنه لم يستطع تجاوز حدود مكة والمدينة. ولعلّ من المسائل الكثيرة التي وحدّت محمد بن سعود ومحمد عبد الوهاب ضد العثمانيين معارضتهما الشرسة تحرير المرأة وعدم الإعتراف بالأقليات الدينية الأخرى. وهكذا، نشرا معاً عناصر التزمّت والرعب بين أتباعهما السذّج، وفرضا عقيدتهما الصارمة بواسطة الهيبة والسطوة. والوهابيون، خلافاً للإعتقاد السائد، كانوا أقلية صغيرة من السنّة حتى بداية الستينيات، لكنهم من خلال التبرعات وتمويل بريطانيا، لم يتمكنوا من بناء المساجد والمدارس الدينية والإرشاد فحسب، بل تمكنوا أيضاً من التبشير دولياً. كان الوهابيون يتقاضون من الإنجليز مخصصات شهرية سخية، لا سيما بعد أن تخلّى الإنجليز عن دعم الشريف حسين لصالح ابن سعود. كانت مصالح البريطانيين

ضد الإمبراطورية العثمانية تفرض عليهم التغلغل بقبائل نجد والحجاز القوية تطويقاً للتمدد العثماني في الجزيرة. ومنذ البداية، كانت الحركة الوهابية حجر الزاوية الذي ساعد على تأسيس المملكة السعودية الحديثة (الثالثة) وسمح لها بالحصول على اِعتراف دولي. المفارقة أن الإتحاد السوفياتي الشيوعي كان أول المعترفين بالدولة السعودية الإسلامية الوهابية بعد سقوط الخلافة الإسلامية العثمانية.

ووفقاً لمعظم الروايات، كان عبد العزيز ابن سعود مقاتلاً شجاعاً يتمتع ببراعة أتاتورك العسكرية، ورؤية بسمارك الموحِدة، ودهاء تشرشل، فضلاً عن البصيرة البدوية والصبر والحكمة. وعلى الرغم من عدم ثقة القوى الكبرى به آنذاك واِستغلال الإنجليز له ضد العثمانيين، كان محظوظاً بشكل واضح لأن البريطانيين لم يكونوا في تلك الأيام مهتمين بصحرائه الفارغة (نجد)، ولا بطموحاته البدوية، بل جلّ ما كانوا يريدونه حماية طرق تجارتهم على أطراف الجزيرة والرسو في الموانئ الحيوية والمضائق والطرق المائية، أي في البصرة والبحرين وهرمز وعدن والسويس. وهكذا، أصبحت المملكة السعودية "وهابية" بِامتياز، وهكذا صارت "الوهابية" عبئاً عليها. ويبقى السؤال: هل كان بن لادن قادراً لوحده على زلزلة نيويورك تحت أقدام الأميركيين، أم أن أحداً من "المؤسسة" العالمية رتّب السيناريو وأخرج الأدوار كما ترتب الأمّ أمور أطفالها؟ فهل يُعقل أن درويشاً من السعودية بإمكانه أن يفعل بنيويورك ما فُعِل بها، مهما بلغت قدراته العقلية وتجهيزاته العلمية والأمنية؟

أميركا رتبت الهجوم على نفسها بنفسها لتبرير وتمرير قانون "باتريوت" لمساءلة أي مواطن وملاحقته بدون تهمة أو ذريعة...

دارت الأيام .. وإشتغلت المصانع

بعد أشهر قليلة على هجمات 11 أيلول، كان العالم ما يزال يتكيف مع جنون الأمن المشدد وهيستريا الإرهاب والإسلاموفوبيا! كانت السياسة الرسمية لجورج دبليو بوش واضحة على مبدأ : "إن لم تكن معنا فأنت ضدنا". أكّد في أكثر من مناسبة عالمية أن لا مجال عنده للحياد في مكافحة الإرهاب على الإطلاق! لم يكن أمام العالم يومها سوى الرضوخ للهيمنة الأميركية، ليس لأن الولايات المتحدة صاحبة فضل وفضيلة، وإنما خوفاً من عواقب عدم الإنصياع لإرادتها وقوانينها. أما على المستوى الشخصي، فكنتُ غاضباً، لا بل حانقاً، من دعوة بوش للحرب على العراق وأفغانستان، فضلاً عن رغبته في الإنتقام لأبيه من صدام. وبالفعل تمكن غضبي مني إلى درجة أنني شاركت في كل المظاهرات المناهضة للولايات المتحدة في لندن، ومنها التظاهرة الأكبر على مستوى العالم في "هايد بارك" ضد بلير وبوش في شباط 2003م. مشاركتي في المظاهرات ضد الولايات المتحدة وبريطانيا لم تعنِ أنني لم أكن مستاءً من تفجيرات نيويورك، لكن الإنتقام الغرائزي الأميركي الفوري والحرب المتسرعة على العراق وأفغانستان ضرباني بالصميم ودفعاني إلى التفكير في وحشية الغرب وأثرها على العالم. ذلك أن الأميركيين إصطادوا دولتين لم تكن لديهما أي صلة مثبتة بهجمات 11 أيلول، أقله وفقاً لجميع الروايات بما في ذلك تحقيقات وكالة المخابرات المركزية نفسها. صحيح أن الدولتين كانتا مكروهتين، إلا أنهما لم تكونا من الدول الوحيدة ذات الحكم الإستبدادي المطلق! لكن الحرب عليهما من وجهة نظر أميركا وبريطانيا كانت سهلة رخيصة وبسيطة وسريعة. أغلب الظن أن "أغراض الحرب الحقيقية" كانت تكمن في مكان آخر، وتحديداً في تحقيق الأهداف التالية: 1- تنشيط مناورات الجيش

الأميركي. 2- تحديث أسلحته. 3- تدوير تنقلات جنوده وترقية قادته، و4- تأمين سلامة إمدادات الطاقة، والتحكم بالموارد الحيوية. وهكذا، فإن 11- 9 كان أحد تلك الأحداث الفظيعة التي غيرّت وجه الحياة في العالم، والتي كان الناس في لحظتها يعرفون بالضبط أين كانوا، وماذا كانوا يفعلون! أبناء جيلي، على سبيل المثال، كانوا يتذكرون وجودهم بالتفاصيل لحظة اِغتيال كينيدي، ووفاة ديانا، وهبوط أرمسترونغ على سطح القمر وغيرها. فالأحداث المهولة في العالم لا تتنافس على مساحة الذاكرة في أذهاننا ولا تضيع فيها، بل تفرض نفسها عليها وتجد طريقها في عقولنا إلى أرشيف منفصل إلى أن نموت. وعموماً، فإن الحربين على أفغانستان والعراق أظهرتا الوجه الحقيقي للغرب المتوحش. فبذريعة بن لادن وأسلحة الدمار الشامل تمت الخديعة الكبرى، تماماً كما تمت مع اِختطاف رئيس جمهورية فنزويلا، مادورو، بحجة تهريب المخدرات إلى أميركا. لا ريب أن المخدرات عنصر في معادلة فنزويلا، لكنها ليس العنصر الوحيد أو الأخطر على أميركا لأن أميركا كسوق اِستهلاكية ضخمة تبقى هدفاً لكل المهربين من جميع أنحاء أميركا الجنوبية. الأمر لا يحتاج إلى مراكز أبحاث أو معاهد اِستراتيجية للاِستنتاج أن أغراض الولايات المتحدة من وضع اليد على فنزويلا، السيطرة على نفطها وغازها، وموازنة أسعار النفط، والتحكم بقيمة مبادلاته بالعملة الأميركية، لاسيما أن فنزويلا خزان لأكبر اِحتياطي نفطي مُثبت في العالم يتجاوز مخزون السعودية بمراحل. إنه عالم التشبيح والسلبطة والفتوة، عالم يشبه عالم القبائل والعشائر أيام سرجون العظيم، مع اِختلاف الطقس والتكنولوجيا وحجم الغنائم..

آنيتا وبن لادن!

وعلى خلفية مشاعر الكره ضد السعودية وضد كل العرب تقريباً، في أعقاب هجمات 11/9، كانت خطيبتي (آنيتا) تتطلع إلى أول "عطلة" طويلة معي إلى أميركا. كانت إجازة مدفوعة الأجر من الشركة تقديراً لجهودي مع فريق عملي وزملاء آخرين من مكاتبنا حول العالم. وصلنا إلى مطار "هيثرو" (حزيران 2002م) وأخذنا أماكننا بطابور طويل اِمتد من مكتب الطيران الأميركي بصالة المغادرين حتى رصيف الشارع! كانت عمليات التفتيش الأمنية إلى أميركا آنذاك تستغرق وقتاً طويلاً ومزعجة بشكل لا يصدق ولا يطاق. وبدل التوجّه إلى تسجيل دخولنا عند منصة خطوط الطيران، كان مندبو الأمن وموظفو خطوط الطيران هم الذين يأتون إلينا حيث نقف في الطابور، تخفيفاً لوقت الإنتظار من جهة، وتسريعاً لإستقصاء أوضاع المسافرين وتحرّي ظروف سفرهم من الجهة الأخرى. كانوا يتأكدون سلفاً من وجود التأشيرات الأميركية على جوازات المسافرين، ويسألون عن طبيعة أعمالهم وتحركاتهم وأشياء أخرى بموجب الإجراءات الأمنية!

اِقترب مني مندوب أمن شركة الطيران، تناول الجواز وأخذ يقلب صفحاته ويراجعه بكل عناية ودقة. كان يتفحص تفاصيل العديد من الأختام على صفحاته ويراجع تأشيرات الدول التي زرتها، وكانت من سوريا وإيران وتركيا والعراق والسعودية والباكستان واليمن ولبنان ومصر وليبيا وإثيوبيا والصومال وكينيا والمغرب وكوبا وفنزويلا. كانت بمعظمها، إن لم تكن كلها، دولاً مشبوهة إرهابياً من الطراز الأول بالمعيار الأميركي آنذاك. ولدهشتي التامة، لم يُطرح عليّ أي سؤال عن تلك الأختام، كما لو كان التحفظ قد رُفع عن دولها فجأة. بدا رجل الأمن راضياً تماماً عن وضعي المهني وسلامة دخولي إلى

الولايات المتحدة (يومها لم يكن حامل الجنسية البريطانية بحاجة إلى تأشيرة دخول أو إذن مسبق). لكن ما إن بدأ بإستجواب آنيتا من بعدي، حتى تغيرت ملامح وجهه تماماً، وإختفت إبتسامته فجأة، وأصبح عدوانياً بدون سبب واضح كما لو كان يضمر شيئاً ضدها. هذا مع العلّم أن آنيتا ألمانية أصيلة، وباسبورها كان خالياً تماماً من تأشيرات العالم الثالث أو العالم الإسلامي، اللهم بإستثناء بعض التأشيرات الآسيوية. آنيتا إنسانة حساسة جداً، عبارة عن كتلة مشاعر من الرقة والأنوثة، وهي كاثوليكية ملتزمة بتعاليم الكنيسة ولها أخت تعمل راهبة في دير ألماني عريق، وقد عملت هي معها سابقاً ومراراً مع جمعيات خيرية ودور أيتام وعجزة في الهند ونبال وسريلانكا. نظر المندوب إليها نظرة لؤم وضغينة، وكأنه كان يعرف شيئاً مشيناً عنها إلى درجة شغل فكري بوضعها! سألها أسئلة خارجة عن المألوف، أسئلة تدور حول آرائها عن حزب الخضر في ألمانيا، أو زوال حائط برلين، وما شابه. ورغم غيظي وإستيائي من تكرار الإسئلة عليها، لم أتدخل بكلمة واحدة لأن تدخلي كان سيمنح مندوب الأمن مبرراً لمنعي من الصعود إلى الطائرة بموجب قوانين المطارات والطورائ التي أُقرت بعد 11 أيلول. تابع كلامه معها وأخذ يَستنطقها تماماً كما يُستنطق طالب اللجوء السياسي! ورغم ارتباكها الشديد وغيظها، أجابت على جميع الأسئلة بعفوية وصدق، إلا أنها لم تتمالك نفسها طويلاً وبدأت تبكي كطفلة لم تعجبها المعاملة وأرادت إلغاء السفرة والعودة إلى البيت فوراً! هدّأتُ من روعها وأعدتُ إبتسامتها الساحرة إلى ثغرها الجميل وأنعشتُ مزاج العطلة في صالون التشريف على قُبل حميمة وفنجان قهوة.

فجأة أذيع النداء الأخير عبر مكبر الصوت، ونودي علينا بالاسم للتوجّه فوراً إلى بوابة "هيوستن" حيث الإقلاع. وكالعادة، كنت الأول في التوجّه إلى منصة التدقيق النهائي قبل خرطوم الطائرة، فأظهرت

بطاقة مروري وعبرت قبل آنيتا ووقفت عند مدخل الخرطوم انتظرها. مرّة أخرى، أوقفوها لسبب لم أفهمه عن بعد. كل ما كنتُ أشاهده تعابير وجهها وقد بدت غاضبة جداً منفعلة ومضطربة! كانت تجربة مؤلمة أن تتعرض مرتين لإستجواب مطوّل ولم نكن قد صعدنا على الطائرة بعد. آنيتا لم تكن سمراء، ولا مُحجّبة، ولا مُكحّلة! كل ما كان يلفتُ النظر إليها أنها كانت طويلة نسبياً وصاحبة شعر قصير على طراز شعور الصبيان. ومرّة أخرى، اِستغرق الأمر مني الكثير من التهدئة والعديد من فناجين القهوة خلال الرحلة لنسيان ما حصل. هكذا كان الارتباك، وهكذا كانت الريبة في المطارات حول العالم، وهكذا كانت الهيستيريا الأمنية في كل مكان بسبب رجل واحد اسمه بن لادن حتى بعد مرور تسعة أشهر على 11/9 في حينه..

***

بعد ساعات طويلة من الطيران عبر الأطلسي وصلنا إلى تكساس. كانت رحلة مسلّية رغم بدايتها المُحبطة، لا سيّما أننا لم نكن وحدنا. كان في المشوار معنا على الطائرة زملاء من الشركة نفسها مع زوجاتهم أو صديقاتهم من أوروبا والشرق الأقصى وأفريقيا، وهو ما ساعد آنيتا على "نسيان" حادثتي الإستنطاقها. وقبل مواصلة السفر من مطار تكساس عبر بوابة الترانزيت إلى "فينكيس"، عاصمة أريزونا، توجهنا إلى منصة الجوازات لتسجيل دخولنا الرئيسي إلى أميركا. هناك قررتُ أن أدع آنيتا تمرّ قبلي، فمرّروها سريعاً بدون سؤال أو اِستنطاق. عندها فقط تأكدت أن آنيتا لم تكن مستهدفة كما سبق وتوهمنا. دخلنا الولايات المتحدة الأميركية آمنين. لم تكن تلك المرّة الأولى بالنسبة لنا، لكنها كانت الأولى معاً. شخصياً، كنتُ قد وقعت بحب أميركا من أول مرّة زرتها (فلوريدا) قبل ذلك الوقت بـ 12 عاماً. لكن لم يسبق أن زرنا صحراءها كما تظهر في أفلام الكابوي ورعاة

البقر. أميركا بلد مميز من بلدان العالم... من الواضح أن سكانها وصلوها من كل أرجاء العالم، فخلط كل قوم منهم آماله بحياة أفضل في تربتها، فإنتجوا معاً عيشاً رغيداً وظروفاً مميزة أشبه بالظروف التي أنتجت بلاد سومر منذ آلاف السنين. فهناك أيضاً زحفت شعوب مختلفة من كل الجهات إلى العالم الجديد (سومر) عقب عصر الجليد. فكانت بقعة ما بين النهرين بمثابة المغناطيس الذي جذب مختلف الناس إليه، فإنصهرت تجاربهم مع بعضهم البعض لتنتج أروع حضارات العالم في حينه.

أميركا الفينيقية

وإذا كان من شيء لا يُنسى عن مدينة "فينكيس"، فطقسها الحار أولاً. فما إن يخرج الواصل إليها من الطائرة حتى يضربه لهيب جهنم ويذكّره بأجواء الرياض في عز الصيف، خاصة إذا ما كان قادماً من بلد أوروبي مثلنا. وللحظة سريالية، يُخيل لك أنك داخل فرن بكل معنى الكلمة، بل ينتابك شعور بالإستغراب والدهشة كيف للناس أن تحيا وتعمل وتنتج تحت أجواء جهنمية حارقة. ومن الأشياء المُلفتة الأخرى أيضاً إنتشار الطعام المكسيكي الحار وتواجد الهنود الحمر، وتحديداً في ضواحي منطقة "الأخدود العظيم" (جراند كانيون). هناك ينتشر صبّار "ساجوارو" المعمّر الشهير بكميات كثيفة تعطي أريزونا طابعها التقليدي. ورغم التشابه اللصيق بين اسم "فينيكس" وبين تسمية "الفينيقيين"، فقد حاولت، ولم أجد، أي صلة منطقية تربطهما، وذلك على الرغم من أن العديد من مرافق "فينيكس" وشركاتها ومنتجعاتها تحمل ماركات "بنكهة" من النكهات الفينيقية: (فينيسيا، فالكون، فينيكس، فونك، موريكس إلخ). ولعلّ الشيء الوحيد الذي وجدته يربط "فينيكس" بالفينيقيين وقوعها على نفس خطّ العرض مع مدينة قرطاج

في تونس، فضلاً عن تشابه المناخ الحار معها. إلا أن هذا وحده ليس دليلاً كافياً، ولا قرينة جيدة، بالنظر إلى وجود مدن كثيرة أخرى تقع على نفس خطّ العرض. مَن يدري، فربما أراد مؤسسو مدينة فينكيس الأصليون ربط أنفسهم بشهرة الفينيقيين لأن ذلك كان سيمنحهم إحساساً بالمجد والعظمة والعراقة. وبالفعل، هناك مَن يعتقد جدياً أن أميركا اِكتُشفت قبل ظهور كولومبوس بـ 800 عام على أقل تقدير، أي تحديداً خلال الحكم العربي في إسبانيا. ما يعني - حسب هذه النظرية - أن الأندلسيين (اِنطلاقاً من جبل طارق) كانوا أول مَن موّل وجهّز وأبحر إلى أميركا! واِستناداً إلى ذلك الرأي، يكون العرب هم الروّاد الأوائل في عبور الأطلسي واِستكشاف العالم الجديد. وتستمر النظرية لتقول إنه تم للعرب الوصول إلى أميركا بفضل إدخال تقنيات جديدة على تصاميم مراكبهم وأشرعتهم، وإدخال تقنيات وأدوات علمية متطورة للملاحة مثل، الإسطرلاب، وآلات قياس سرعة الرياح، وتحديد مواقع النجوم والكواكب.

ووفقاً لهذا الإدعاء النرجسي العربي، تستطرد الرواية لتزعم أن البحّارة المغاربة الأمازيغ (عرب الأندلس) أجروا اِتصالات ودّية مع سكان أميركا الأصليين وأقنعوهم باِعتناق الإسلام، وعرّفوهم على الأقمشة القطنية الأندلسية الملونة والثقافة الشرقية والتراث. وتغوص الراوية أعمق من ذلك لتدّعي أن العرب لم يبحروا في المحيط الأطلسي اِعتباطاً أو بالصدفة، إنما عن سابق علم وتخطيط لمساراتهم البحرية بواسطة علومهم في الفلك والأرصاد والفيزياء والأشرعة والجغرافيا. هناك مَن يزعم أيضاً أنه عندما تم بناء أكبر قصر في غرناطة عام 1238م، نُقلت سجلات الملاحة العربية والرسومات التوضيحية إليه وأُخفيت عميقاً في سراديبه. تلك الأسرار لم تكتشف إلا بعد مرور قرنين من الزمن خلال أعمال الترميم التي أمرت بها الملكة إيزابيلا بعد غزوها لغرناطة وطرد العرب منها! وخلافاً

للإِعتقاد الشائع، استُدعي كولومبوس إلى قصر الملكة المُرمم توه، وكُلف سراً بدراسة المخطوطات العربية المكتشفة، فقادته بنهاية المطاف إلى "العالم الجديد". من الجهة المقابلة، هناك من المؤرخين الغربيين مَن يعتقد جازماً أن الفايكنيغ أيضاً وصلوا إلى أميركا بعد العرب، وكان ذلك قبل كولومبوس بـ 500 سنة، أي عام 1000م. العجيب فعلاً أن هناك أيضاً مَن إِقترح أن الأفارقة السود، وتحديداً من سواحل موريتانيا ومالي، كانوا أول من إِكتشف أميركا قبل الأندلسيين وقبل الفايكنيغ وقبل كولومبوس بعشرات العقود، ما يفسّر وجود بعض الهنود السود! وفي جميع الحالات هناك إِحتمالات كثيرة أخرى منها، مثلاً، أن بحّارة الأندلس أو الفايكنغ أو حتى الفينيقيين تاهوا غرب السواحل الأفريقية في المحيط الأطلسي، فأرسوا مراكبهم بما حملوا على شواطئ جزر الكناري، أو جزر الرأس الأخضر، أو جزيرة ماديرا، قبل إِستكمال إبحارهم إلى أميركا تدرجاً عبر السنين. لا ريب أن هوية المكتشفين الحقيقيين ضاعت في أعماق "مثلث بيرمودا"! لكن لا يوجد أي مانع علمي أن يكون كل البحارة على طرف المحيط قد أبحروا غرباً ووصلوا إلى العالم الجديد في أزمانهم!

***

سكان "فينكيس" لا يختلفون في شعور الفخر بالإنتماء والأصول عن باقي سكان أميركا. فمن طبيعة الإنسان أنه عادة يُمجّد ما يصبو إليه بدلاً مما هو عليه؛ فحتى أبو الأنبياء، البطريرك إبراهيم، إِدّعى أتباعه، أنه كان ينحدر من عرق أموري فاخر من مدينة "أور" الأكادية المتحضرة، بدلاً من أي مدينة كنعانية أخرى متخلفة (التّوراة). فالأكاديون والبابليون والمصريون في زمنه كانوا هم شعوب الحضارة والتقدم والرقي. وكانت مدينة "أور" في ذلك الزمن منذ 4000 عام تقريباً تتمتع ببنية تحتية متطورة ومرافق معيشية

منظمة، بما في ذلك خدمات المياه الجارية، والصرف الصحي، والطرق المعبّدة المعالجة بالطوب المشوي، فضلاً عن المزارع المنظّمة والمفروزة والقصور والمعابد والمحاكم. لذلك، ليس من المستغرب أن العديد من المواقع في الولايات المتحدة تحمل أسماءً توراتية، تماشياً مع نفس القياس والشعور بالإنتماء لأماكن العزّ والمجد والتراث. وفي حالة مدينة "فينيكس" تحديداً، فقد يكون جميع السكان فيها على رأي واحد من الرواية التقليدية القائلة إن المدينة كانت يوماً مستعمرة (فينيقية) لأجدادهم (الرجل الأبيض) بنوها على أطلال بيوت السكان الهنود الأصليين أو على مقابرهم، فتطورت مع الوقت على أنقاضهم، وصارت مدينة عامرة للرجل الأبيض الغازي. المفارقة أن كل الأميركيين اليوم يشيرون إلى الهنود الحمر على أنهم "الأميركيون الأصليون" في حين أن اسم "أميركا" نفسه لم يكن معروفاً قبل وصول القراصنة البيض.

أربعة شعوب ومملكة واحدة..

وبعد أشواط عديدة من السباحة المُنعشة في مسبح الفندق، عدنا بعد الظهر إلى الغرفة تحضيراً لجولة أخرى من الإسترخاء واللهو. كان المساء واعداً بسبب أجواء مونديال كرة القدم آنذاك. كنا على وشك التمتع بليلة صاخبة بسبب مباراة إنجلترا ضد نيجيريا. أصدقاؤنا وزملاؤنا في تلك الأثناء كانوا قد بدأوا باكراً بالتوجّه إلى بار الفندق اِستعداداً "لليلة العمر". وبالفعل، كانت حقاً كذلك لأننا كنا نعرف أنها لن تتكرر بأجوائها ومكانها ومناسبتها وجَمعة الأصدقاء فيها مرّة واحدة. كان لدينا أقل من ساعتين لإحتساء "التيكيلا" قبل موعد اِنتقالنا بالباص إلى المطعم، حيث الشاشات العملاقة كانت تنتظرنا. كنا مجموعة رائدة من كبار موظفي الشركة وإداريها حول العالم. وكان

الكثير منا قد جاء من بريطانيا، وكلهم كانوا على أحرّ من الجمر لمشاهدة الفريق الإنجليزي وتشجيعه، لا سيّما أن نتائج المباراة كانت ستقرر اِستمرار الفريق في تصفيات المونديال. شخصياً، ربما كنتُ الوحيد من بين كل زملائي الذين لم تعنهم الرياضة عموماً، ولا كرة القدم خصوصاً. ورغم حبّي لأنشطة البحر والسباحة عموماً، لم أكن رياضياً، ولم أهوَ تحريك العضلات بأي اِتجاه، وما زلتُ على طبعي!

مع وصولنا إلى المطعم في الساعة 8 مساء، كنا نتضور جوعاً بعد كؤوس عديدة من "التيكيلا" ومستعدين لأكل أي شيء بالمطلق: بيرغر، تاكو، بيتزا أو حتى بطاطا حاف. لم نكن (ولا المطعم كان) بوارد التعاطي معنا بوجبة عشاء معقدة أو طويلة تحت أجواء السكر والصراخ والفوضى والحماس. المطعم نفسه كان مؤهلاً لمثل تلك المناسبات الصاخبة ومباريات "البيسبول" الأميركي وكرة السلة والأحداث الرياضية المختلفة على مستوى الولايات المتحدة كلها. فسارع طاقم المطعم ووزّع على نسائنا أقلام تلوين مناسبة لرسم علم إنجلترا على وجوهنا كالبُلْه والحمقى. لكن مَن غيري يا ترى كان أول المتطوعين لطبع علم إنجلترا على وجهه؟ تلك كانت من هفواتي العظيمة وأول وآخر مرّة في حياتي..

خمس دقائق مرّت على المباراة وبرزتُ كالمهرج في سيرك الأطفال! لا بل، بدوتُ كالمعتوه بعَلَمٍ أقرب إلى الصليب الأحمر منه إلى عَلَم إنجلترا. فذهبتُ بوجهي الملّون إلى جمهرة الذكور حيث كان زملائي البريطانيون يتسكعون على طريقة العرب (فصل الرجال عن النساء). هناك فُجعت أن أياً منهم لم يكلف نفسه عناء رسم علم إنجلترا على وجهه. فنظروا إلي بإستهزاء شديد وسخروا مني بلا هوادة رغم أني كنت مسؤولاً عن الكثيرين منهم في أعلى مراتب الهرم الإداري! ولولا الألوان على وجهي، لكان الغيظ فضحني. درتُ نحو الأول

وسألته: "لماذا لم ترسم العلّم على وجهك يا جورج؟". "آسف، هيش، لم أرسمه لأنني اِسكتلندي". قالها عرضاً كما لو أن خسارة إنجلترا لا تعنيه بالمرّة. فدرتُ إلى الزميل الثاني: "برايان، أين علم إنجلترا على وجهك؟". فرد: "عزيزي هيش، لا أخالك تريدني أن أشوّه وجهي بعَلم إنجلترا وأنت تعلم سلفاً أني أيرلندي؟". وهكذا، اِنتقلت منه إلى الزميل الثالث، "ماذا عنك يا غاري؟"، فقال: "أيعقل يا هشام أنك تسألني وأنت تعرف جيداً أننا في ويلز لدينا لغتنا الخاصة وفخرنا القومي ولا يهمنا أمر الإنجليز لا من قريب ولا بعيد، فلتذهب إنجلترا ويذهب فريقها معها إلى الجحيم؟"...

مواقف عجيبة صرعتني فعلاً رغم علمي المسبق أنهم بريطانيون وليسوا إنجليزاً. كنتُ أتوقع منهم أن يكونوا على قلب واحد مع فريق إنجلترا ضد نيجيريا، أقله من باب الولاء لبريطانيا العظمى! مواقف صادمة ومخيبة للآمال وعنصرية ومتغطرسة. فتوجّهت إلى رئيسنا التنفيذي نفسه، وكنتُ أعرفه جيداً وأعرف أنه إنجليزي أباً عن جد بنسبة 100%، وسألته: "أنتوني، لماذا لم ترسم علمك على وجهك؟". فقال بدهاء الإنجليز: "هيش، أنا الرئيس التنفيذي لشركة عالمية متعددة الجنسيات، ولا يمكن أن أبدو متحيزاً لإنجلترا، حتى وإن كان الفريق الإنجليزي هو خياري الفطري والطبيعي والمفضل. أنسيت أننا لا نتعاطى علناً بالسياسة والدين والرياضة؟". عندها فقط فهمت عمق الإنقسامات الوجدانية بين أيرلندا الشمالية واِسكتلندا وويلز وإنجلترا. إنها المملكة "المتفركشة"، وليس المملكة المتحدة، إلا بالشكل والوجاهة والمآرب. وربما يكون كره الأقاليم الثلاثة لإنجلترا هو الشيء الوحيد "المتحد" في المملكة المتحدة. بيد أن المحزن بأمري في تلك الليلة أني كنتُ أضحوكة البريطانيين، بل إلى حد ما، كنتُ اللعبة نفسها التي أثارت تسليتهم بدل المباراة!

كان مؤلماً لنا أن نشاهد كيف اِستماتت إنجلترا وهي تحاول صدّ هجمات نيجيريا. ورغم الجهد الأفريقي لإنتزاع النصر، إلا أن النتيجة النهائية أرست على التعادل السلبي، وإن كان ذلك لم يخدم بقاء نيجيريا في المونديال. وإلى اليوم، لا أعرف يقيناً ما إذا كانت النتيجة0/0 قد أسعدت، أو خيّبت أمل، زملائي الأيرلنديين والإسكتلنديين والويلزيين؟ كنا جميعاً سكارى حتى النخاع، ولم نكترث حقيقة لفوز أحد الفريقين ما دامت إنجلترا قد تأهلت للمرحلة التالية.

ما أحلى الرجوع إليه!

في اليوم التالي، وكان يوم جمعة، غادرنا المنتجع في "فينيكس" بعد أسبوع كامل من الإسترخاء والبهجة والمرح. كنا فعلاً قد "اِرتوينا" وبدأنا نتطلع للعودة إلى لندن. وكالعادة في أجواء ما بعد 9-11، كانت طوابير الدخول إلى المطار طويلة. كان مندبو الأمن لشركات الطيران، كما في لندن، يقومون بإستنطاق الركاب مسبقاً واحداً تلو الآخر بسلاسة مذهلة وكفاءة عالية. وتجنباً لتجربة لندن، طلبتُ من آنيتا الوقوف أمامي والمرور قبلي بحيث أواكب ما كان يحدث معها بدل أن تكون هي خلفي وتضيع الرواية عني. ولدهشتي الشديدة، أوقفوها مرّة أخرى، واِنهالوا عليها بالإسئلة في مطار "فينيكس" كما اِنهالوا عليها من قبل في لندن. وبعض الأسئلة كان عن سبب "عودتها" إلى لندن (مع أنها كانت تسكن في لندن أصلاً)، وغيرها من الأسئلة عن "حزب الخضر" في ألمانيا مما بدا سخيفاً وغبياً! تجمّدتْ آنيتا بأرضها وانشلّت أعصابها تماماً بما يشبه حالة التشنج الفجائي. كانت تلك طريقتها التلقائية في التعبير عن أقصى غيظها بما يتجاوز حدود الشكوى والبكاء. هنا، قفزتُ فجأة من خلفها وأقحمت نفسي بأمرها وتدخلت رغم المخاطر الأمنية. الأمر بالنسبة لي كان قد تجاوز حدود

المألوف ووصل إلى حدود حالتها النفسية والصحية. اقتربتُ من مندوبي الأمن وعرّفت عن نفسي بصفتي خطيبها وشرحتُ لهم حالتها النفسية على ضوء ما سبق واختبرته من اِستنطاقات متكررة خلال الرحلة. نظروا إلي نظرة "مهلاً يا عنتر" ونطقوا بكلمة السرّ الشهيرة (الوقوف جانباً والإنتظار). شعرت أن الأمر فَلَت مني، وأن هناك شيئاً مريباً ربما كان بإنتظارنا. ولسبب في كبدي، كنتُ واثقاً أن رجال الأمن كانوا يتقصدونني أنا شخصياً ولم يتقصدوا خطيبتي. وافترضتُ - بوسواسي الشرقي - أنهم كانوا يراقبون تنقلاتي من خلال اِستنطاقها في كل مطار. أرعبتني الفكرة، وغضبتُ من نفسي لأنني شعرت بالذنب تجاه آنيتا، ولم أعرف ماذا أفعل وكيف أتصرف. احتفظتُ بمخاوفي لنفسي وحاولتُ التخفيف عنها وطمأنتها. فنظرتْ إليّ نظرة بغض وندم، كما لو كانت تلعن الساعة التي رافقتني فيها من الأساس.

بعد وقت طويل ومتعب، وصل المسؤول الكبير وبدّد الغموض وصفّى الأجواء من خلال طرح أسئلة ذكية وذات علاقة. وعلى إثرها نقلونا على وجه السرعة بعربة كهربائية إلى بوابة الإقلاع. هناك فوجئنا أن منصة الرحلة أُقفلت، ليس بسبب تجاوز وقت الإقلاع، وإنما بسبب اِكتمال ركابها قبل وصولنا (؟). لكن كيف ذلك وقد كان حجزنا معها مؤكداً، وشنطنا عندها كانت قد وُزنت حسب الأصول؟ وعلى الرغم من أن هذا النوع من اِزدواجيات الحجز أمر شائع في عُطل نهايات الأسبوع، لكنه يومها كان مقتصراً فقط على الطيران داخل أميركا وليس على الطيران الدولي، حيث اِلتزامات المسافرين عبر الأطلسي تعتبر مسألة مقدسة. كنتُ أعلم سلفاً أن أحداً لن يستطيع إلغاء حجزنا وأخذ مكاننا، وإن كان عضواً في الكونجرس أو موظفاً في البيت الأبيض! ونظراً لتلك "اللخبطة" في الحجوزات من قِبل شركة الطيران، وبسبب ما عانينا منه مع مندوبي الطيران والأمن واِسترجاع

الحقائب، طرحتْ شركة الطيران علينا عرضاً (تعويضاً) لم يكن لعاقل أو حكيم أن يرفضه! قدموا لنا قضاء عطلة نهاية الأسبوع (3 أيام) مدفوعة التكاليف في فندق خمس نجوم، مع مواصلات مجانية ضمن المدينة بسيارة ليموزين، ورحلة جوية بالمنطاد فوق المدينة مع طلوع الفجر، فضلاً عن عشاء ليلة السبت وسط صبّار الصحراء على أنغام موسيقى الهنود الحمر مع قبيلة هندية أصيلة. هذا كان على الجانب الإسترضائي، أما التعويض المادي، فقد كان نقداً وسخياً جداً. وكأن هذا كله لم يكن مبهراً، فقد عوّضوا علينا أيضاً برفعنا من الدرجة السياحية إلى الدرجة الأولى. هذا كله كان غيضاً من فيض إلى درجة حيرتني فعلاً كيف تبرر شركة الطيران لنفسها تحمل كل تلك التكاليف بسبب خطأ اِرتكبته في حجوزاتها؟ طبعاً لم نتردد بقبول العرض، وأتذكر أنني فيما بعد قضيتُ بضع دقائق مع آنيتا على فنجان قهوة نحسب كلفة ما تحملته شركة الطيران، وقد تجاوز مجموعه ما بَهرنا بكل المعايير. وفي جميع الأحوال، كان وقتنا المُمدد تجربة فريدة لأنه أضاف أشياءً لم أكن لإختبرها طيلة حياتي في ظروف أخرى، كركوب المنطاد، مثلاً، أو الرقص سكراناً في صحراء أريزونا مع الهنود الحمر، أو اِمتطاء أحصنة كهربائية مجنونة لا تتوقف حتى وإن اِنقطع التيار الكهربائي؟

ولئن كان هناك شيء واحد علق برأسي من كل تلك الطرائف، فهو حديث عابر مع مسافر سويدي في طريق العودة إلى لندن. كان يعمل مع منظمة "أياتا"، الإتحاد الدولي لتنظيم النقل الجوي. فأخبرني على متن الطائرة أن اِتحاد الطيران أصدر (بأوامر أميركية) تعليمات صارمة عقب حوادث نيويورك تطالب شركات الطيران بتشديد الرقابة والتفتيش والإستنطاق في كل مطارات العالم الحرّ على كل الرحلات بكل الاتجاهات رغم تكاليف التأخير أو الإلغاء أو التأجيل. وهنا فجّر لي أمراً ملفتاً فسّرتُ به ما حصل مع آنيتا وفهمتُ أبعاده؛

فقال: "من الإجراءات الإضافية التي أجبروا الطيران عليها أن يُستنطق عشوائياً "المسافر السابع" في أي طابور، بغرض تجنّب تقصد الهوية أو التمييز العرقي أو الدينيي أو الجندري. المصادفة العجيبة أن آنيتا كانت "المسافر السابع" عشوائياً، ليس مرّة بل ثلاث مرّات؟ فكيف يا ترى تتركب تلك المصادفة المستحيلة، خاصة أن الإحتمال العشوائي يمثّل نسبة 1 من 8 مليون تقريباً؟ لا بد أن اِستنطاق آنيتا كان متعمداً، ولم يكن عشوائياً، لا سيما إذا ما أخذنا بالإعتبار اِستنطاقها بنفس السؤال عن "حزب الخضر" في ألمانيا على جانبي الأطلسي! كنتُ متأكداً (بكبدي) أنها كانت خدعة من خدع مخابرات الغرب، لا سيما أن مطارات العالم يومها كانت بؤراً مشبوهة اِبتداءً من مدرج الطائرة إلى رصيف السيارة، وكان المسافرون بالنسبة للسلطات في أميركا "قنابل متحركة"...

ورغم فخامة رحلة العودة على كؤوس الشمبانيا وخدمة الدرجة الأولى، لم يكن وصولنا إلى هيثرو جيداً. كانت طوابير الوصول وفوضى تسلم الحقائب غير طبيعية بالمرّة. وللحظة اِعتقدتُ أن بريطانيا فازت بكأس المونديال خلال نهاية الأسبوع؟ لكن سرعان ما تبين أن بريطانيا في ذلك الوقت كانت مشغولة بوضع اللمسات الأخيرة على ألعاب الكومنولث لعام 2002م في مانشستر. وكان قد تم توقيت اِستضافة اللعبة لتتزامن مع اليوبيل الذهبي للملكة إليزابيث الثانية، رئيسة دول "الكومنولث"، التي كانت ستفتتحها بنفسها. وعلى الرغم من أن مفهموم "الكومنولث" شيء نبيل ورومانسي لتعزيز التعاون والتنمية الإجتماعية وحقوق الإنسان في البلدان الأعضاء، لكن في الواقع كان الغرض منه هيمنياً سياسياً بإمتياز. كان المفهوم يرمي إلى الحفاظ على ما تبقى من الإمبراطورية البريطانية وإطالة أمدها قدر الإمكان. فالبريطانيون عوّموا فكرة الكومنولث عن مكر

ودهاء ونسجوها في معظم مستعمراتهم منذ عام 1949م بحجة الإحتفاظ بعلاقات ندّية معها على أنها مع "دول مستقلة وحرّة ومتساوية". واليوم وصل أعضاؤها إلى 53 دولة يبلغ عدد سكانها مجتمعة حوالي2.3 مليار نسمة، أي ثلث البشرية تقريباً. بريطانيا تدّعي أن أعضاء "الكومنولث" يتمتعون بحقوق وإمتيازات وصلاحيات متساوية، وهو إدّعاء شكسبيري رومانسي لا يمت إلى الواقع بصلة؛ بريطانيا لم تفكر يوماً بالمساواة ولم تكن مستعدة لقبول عدم تفوّقها على جميع الأعضاء، أقله بواقع وجود العرش الملكي كرئيس حصري "للكومنولث". إذ إن بريطانيا لم تعد إمبراطورية، ولا هي قادرة على إكفاء حاجاتها، ناهيكم عن تحمل تكاليف الإستثمار في "التنمية الإستعمارية" أو الروابط الرومانسية.

عدنا إلى لندن، وعدنا إلى بيتنا، وما أحلى الرجوع إليه وإلى حياة الجدّ والعمل والمزيد من مفارقات الشرق والغرب وتشابه الدجل بينهما..

الفصل التاسع عشر: أحزان ملونة

ممشوقة بين المدن

في العام 2003م قررتُ الإنتقال من لندن إلى دبي. كانت الحياة في لندن آنذاك قد صارت ثقيلة عليّ وروتينية جداً. يومها كنتُ أقضي نصف أيام الأسبوع على أوتوستراد لندن ماراً بمطار هيثرو، وقصر ويندسور، وباث، وبريستول. كان مصنع الشركة في مقاطعة جنوب ويلز، هو المقر الرئيسي لعملياتنا في العالم، خارج القارة الأميركية، ومقراً دائماً لأعضاء فريقي المباشر. كان الأسهل عليّ الإجتماع بهم دورياً في بيئتهم على اِستدعائهم جميعاً إلى مكتبي في لندن. كنتُ في تلك الأيام اِنطلق من لندن في الخامسة صباحاً لكي أصل إلى المصنع مع وصولهم إليه في التاسعة تقريباً. ومع أن الطريق إلى المصنع طوله 210 كلم، فقد كنتُ اِختصره بالإستماع إلى كتب مسجلة على الكاسيت، وكانت طريقة فعّالة لإحتواء الضجر والرتابة... كنتُ اِستعمل الطريق إلى ويلز بمعدل 4 مرات في الأسبوع، وإلى مطار هيثرو بمعدل 3 مرات في الشهر. كانت حياتي في تلك الفترة موضبة دوماً في حقيبتين، واحدة صغيرة لليالي الأنس في الغرب، والأخرى كبيرة لليالي البؤس في الشرق! ومع أن القيادة من بيتي للمصنع كانت مملة ورتيبة ومتعبة أحياناً، إلا أن رحلاتي الجوية إلى الشرق الأوسط كانت كوابيس مهلكة بسبب إجراءات الجوازات والتأشيرات والثقافة والتوقعات...

جزء كبير من دواعي اِنتقالي إلى دبي كان ما يزال اِرتداداً للتحوّل الجذري الذي تعرضتُ له في حياتي الخاصة؛ الطلاق بذاته، وإن كان جارحاً بغيضاً بكل قواميس الأرض، لكن آثاره العاطفية سرعان ما

تتبدد مع مرور الأيام. أما الإفتراق قسراً عن الأبناء، فنزيف مؤلم لا يتوقف عند معظم الآباء. فمع الطلاق تتبخر أوقات اللعب مع الأطفال وأمسيات السهر واللهو مع الأصدقاء، خاصة في عطل نهاية الأسبوع وحفلات "الباربكيو". ومهما كان الطلاق "حبيّاً ودياً"، فإنه يُولّد طلاقاً "عدوانياً" مع الأصدقاء المشتركين، فتراهم ينسحبون من حياتك لصالح الطليقة والأولاد تجنباً للحرج وتعقيد الأمور. ثم إن طبيعة العيش "العزّابي" (الوحداني) يفرض عليك نمطاً من التصرّف والسلوك يبعد عنك الأصدقاء المتزوجين، ويعرّضك لنوع عجيب من العلاقات مع بؤساء وتعساء ووحدانيين مثلك! تلك كانت اِمتداداً لمرحلة لئيمة سابقة ولسنوات العبث في حياتي، فصارت لندن من خلالها كابوساً ضاغطاً.

بدا الإنتقال إلى بلد آخر حلاً مثالياً ومخرجاً "كرماوياً". فقد أصبحتْ الحياة بين ليلة وضحاها مشرقة، خاصة أن شمس دبي في يوم واحد كانت تُنْسيني عن فصل شتاء كامل في بريطانيا. كل شيء كان مختلفاً تماماً شكلاً ومضموناً وأداءً. وبدتْ الحياة زاهية جذابة ملونة ومتنوعة بشكل مُبهر لا يُصدق. ورغم التوجّس وعدم اليقين من اِحتمالات النجاح في بيئة عربية بعد عمر طويل من العيش في بريطانيا، إلا أن قربي الجغرافي من بناتي في البحرين المجاورة، كان العنصر الواعد بفرصة جيدة وبداية جديدة، أقله من الناحية النفسية الوجدانية. كنتُ سعيداً بالقدر ومغموراً بالأمل، وتركتُ خلفي مدينة لا يغيب الضباب عنها، ووضعتُ مكانها مدينةً لا يغيبُ الضوء فيها. تركتُ جَمل لندن بما حَمَل من آلام وذكريات، واِنتقلت إلى دبي بما كان قادماً من مفاجآت ومغريات.

كان مكتبي في دبي قِبلة الزائرين من كل حدب وصوب. من وكلاء محليين وموزعين إقليميين ومحامين ووكلاء إعلانات وممثلي هيئات

رسمية ودبلوماسيين. لم يكن لدي يومان متشابهان، ولا كنتُ فيهما بمكان واحد. كل زائر كانت ظروفه فريدة ومشاكله عجيبة وطلباتة مستحيلة. ورغم ظروفي الجديدة وهمومي العديدة، لم أكن أهتم بأي شيء محدد كثيراً. كنتُ أشعر أني أملك الشركة بما كان فيها، كانت هي حياتي وعائلتي وخلاصي من حزني وسلوتي في وحدتي. عملي كان طويلاً ومتعباً، لكن مسلياً وممتعاً. أحياناً كثيرة كنتُ أشعر كأنني أدير شركة عالمية للسياحة أو وكالة دولية للعلّاقات العامة! كان الشعور ينتابني دورياً، لا سيّما أن كبار موظفي الشركة من كل أنحاء العالم كانوا يبتدعون الأسباب لزيارة دبي والإستجمام بربوعها. كان السفر إلى المدينة بالنسبة لبعضهم شيئاً من قصص "ألف ليلة وليلة". ليس فقط بسبب أجواء دبي الترفيهية وحرارة طقسها وتنوّع المتاجر فيها، بل لأني شخصياً كنت مضيفاً جيداً لكل الزائرين بلا تمييز. أنا لم أكن كذلك إلا لأني كنت متفرغاً بدون عائلة أصلاً. كانت أوقاتي مع الزوّار جزءً من التسلية ومتعة بكل معنى الكلمة، ربما بسبب ظروفي الخاصة أو لطبيعة دبي نفسها. أجواؤها المتحررة تحرّر أعتى المتحفظين من كل حرج وتَكلّف. كانت، وما زالت، مدينة فريدة تقدم شيئاً مميزاً لكل ذوق ومزاج، خاصة أن فيها ما يزيد عن 80 جنسية من مخلوقات الأرض تراهم أمامك كل يوم في كل مكان. وكأن هذا وحده لا يكفي، فقد كانت دبي تستضيف أيضاً ما يقرب 50 معرضاً عالمياً كل عام، ما يجعلها مدينة عرض وإستعراض ساحرة وصاخبة طول السنة. كان ذلك هو الوضع العام حتى قبل إستضافة معرض إكسبو 2020 بوقت طويل. ودبي، على أيامي منذ عشرين سنة، كانت مقراً إقليمياً عالمياً لأكثر من 1000 ماركة تجارية مسجلة دولياً تعمل ضمن بضعة أميال مربعة، مع كل المزايا والفرص والأجواء التي تنطوي عليها. دبي بالنسبة لمن زارها أو سكن فيها كانت صبية حسناء

بين المدن! إنها حالة تسويقية مميزة في العالم ومادة تُدرس في كتب الإقتصاد رغم وحشية العمران وكثافته!

أبراج ع مد النظر

وبينما كانت دبي في مطلع 2006م تستعد للإعلان عن إطلاق مشروع المترو وعن وصول البناء للطابق 50 في "برج خليفة"، كان قد مرّ على وجودي في المدينة أكثر من ثلاث سنوات من العمل الدؤوب بدون شكوى أو عطلة. إلا أنني كنتُ قد وصلتُ إلى حدّ السأم المهني والمَلل الإجتماعي والضجر النفسي! صرتُ مجرد عقرب بعقارب الساعة يتحرك تلقائياً ويدور بلا هدف ولا معنى. كان العمران في دبي يجري بسرعة خيالية، متحدياً جاذبية نيوتن ونسبية آينشتاين. توصيفي هذا ليس إعتباطاً ولا مبالغة، إذ إن المدينة يومها كانت موطناً دائماً لربع رافعات البناء العملاقة في العالم بأسره. فكيفما نظر الزائر في دبي إلى أي شيء من أي مكان مرتفع قليلاً، كان يرى رافعات البناء تتزاحم بأبراجها على سماء المدينة. كان منظر المدينة بعدد الرافعات فيها وأبراج بابل يُشبه المُصاب بالحَصبة تماماً، مشوهاً بالطفح والبقع من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين. وحتى مشاهد "جيوش" عمال البناء المكدسة كانت - من تعدادهم الرهيب وألبستهم الموحدة - تشبه خلايا النحل في دورانهم حول أساسات الأبنية. الملفتُ حقاً أن معماري دبي كانوا يبنون الأبراج وناطحات السحاب بمعدل طابقين إثنين في اليوم الواحد، وهو معدل كان يومها غير مسبوق عالمياً. أما الجسور، فكانت تُرفع خلال الليل مُتحدّية ظلمة المكان ووحشة الطريق لتراها فجأة وقد نُصبت مرتفعة مع طلوع الشمس غصباً عن الوقت ورغم أنف الفيزياء والطقس وحركة السير. إلا أن أحوال عمال البناء وظروف عيشهم في أجواء الحرّ بعيداً عن أوطانهم كانت تستدعي السؤال والشفقة!

منطق بلا أخلاق

على هذه الخلفية في دبي، زارني يوماً صديق حميم (سايمون) في ربيع عام 2006م. لم نكن قد اِجتمعنا منذ وقت طويل. صودفت زيارته في يوم عيد ميلاده الخمسين. كانت المناسبة تستدعي اِحتفالاً مميزاً، خاصة أنه كان مسافراً وحده بعيداً عن عائلته. أمر كنتُ مختصاً بفهم أبعاده الوجدانية. رأيتُ أن احتفي به على طريقتي بظل أجواء شاعرية هادئة. ولأني كنتُ أعرف سلفاً ذوقه "الويلزي"، فقد كانت البيرة أوليتنا قبل أي شيء آخر. كنتُ قد حجزتُ لتلك الليلة البدرية إطلالة بانورامية في واحد من أحدث مطاعم دبي في حينه فوق أمواج البحر مباشرة. وبعكس مطاعم المدينة آنذاك، لم يكن المطعم مُلزماً بوقف تقديم الكحول مع دقات الجرس كما في بريطانيا، أي إن السُكْر كان مسموحاً طوال الليل وقبل الشروق، وكان ذلك بذاته شهرة المكان وسمته المميزة.

سايمون وأنا كنا من أعز الأصدقاء. تشابهنا معاً بتجربة حياتية ومسار مهني وهموم متقاربة. كان المنطق دوماً معيار نظرتنا للأمور، وكنا نعشق مناقشة السياسة البريطانية والفلسفة والدين والفن والأخلاق. كنا نقضي ساعات طويلة في مناقشة الوجود والفلك والتاريخ. تلك الليلة لم تكن مختلفة رغم اِحتفالنا بعيد ميلاده. وعلى أنغام هادئة وأجواء رومانسية وصوت الموج، اِنزلقنا كالعادة إلى محادثات عشوائية متنوعة اِختلط الجاد فيها بالتافه، والعميق بالسطحي دون توقف. وبعد كؤوس وكؤوس، بدا اِنعكاس البدر فوق الموج كما لو كان لقمرين كاملين بمنظر واحد. سايمون من أبوين بريطانيين، إسكتلندي وويلزية، أشقر ذو عيون زرقاء ولديه طفلان من زوجة أيرلندية. الرجل مخضرم ورحّالة ومطّلع جداً ومتواضع. لم يكن فيه شيء من روح إنجلترا، لكنه كان يعشق الملكة إليزابث وتاريخ العائلة المالكة.

ومثلي تماماً، إنساني بإمتياز يحب البشرية الفضفاضة وحقوق الإنسان والمساواة والعدالة إلخ. ومهما ألقيتَ عليه من أسئلة، رأيته دائماً يجد طريقة تحليلية منطقية للرد عليها. عصاميان شغوفان كنا مدمنيَن على العمل ونحتقر مفاهيم "المؤسسة" و"البيروقراطية" و"الزعامة". سايمون كان يهوى صيد السمك (بالصنّارة وليس بالديناميت) وموضوعات الحضارة الرومانية والعصور الوسطى، أكثر مما كنت أنا أهتم بالدين والفلسفة والتاريخ. كانت الإنسانية والبداهة والمنطق الأرضية المشتركة في طريقة تفكيرنا وذهنيتنا.

ورغم التشابه الكبير والصداقة بيننا، لم أكن لأخمّن أن نختلف ليلتئذ على الموضوع الذي جمعنا من الأساس. كنا نناقش حقوق عمال البناء وظروف عيشهم في دبي. وأثناء النقاش المترنح على شعير البيرة، فوجئتُ بعد عمر طويل معه أن حقوق الإنسان في قاموسه كانت تعني أشياءً مختلفة عن حقوق الإنسان في قاموسي. فهمتُ منه أن هناك أنواعاً مختلفة من الحقوق والمشاعر تُفصّل حسب الظروف والبيئة (؟)، بينما هي عندي حقوق ومشاعر كونية لا تتجزأ، كالألم والفرح والأمل واليأس وغريزة البقاء. حواس لا تتغير معانيها بغض النظر عن المعتقد أو العِرق أو الجنس أو المهنة أو البيئة إلخ. اِحتد النقاش واِرتفع الجدل بيننا، ولولا وشّ الموج وطقطقة الصحون من حولنا، لكانوا طردونا من المطعم بلا فاتورة! وكما هو شائع في معظم حالات الجدال في البارات تحت تأثير الكحول، فإن النعرة الشخصية عادة تغلب على اللياقة، وتتجاوز حدود المنطق، وترتفع حمية "الأنا" فوق أي اِعتبار. فجأة اِنتصرتْ الغرائز على سنوات الودّ بين أحمق سكران وجاهل مغرور..

وفي خضم الجدال، طلبتُ من سايمون أن يكون محدداً في شرح نظريته! رجوته أن يضرب مثالاً واحداً على اِختلاف المشاعر

وحقوق الإنسان. ولدهشتي العظيمة، أجابني بشكل تلقائي فطري وقال: "ألا توافقني الرأي أن حزن أمّ سوداء في أفريقيا على موت أبنها، هو أقل بكثير من حزن أمّ بيضاء على ولدها في أوروبا؟". قبل مثله، كان في رأسي عقل يُحلل، لكن بعد سماع مثله طار العقل والرأس معاً! لم أصدق ما سمعته. أُصبت بخيبة أمل عظيمة، ليس فقط بسبب الزعم أن مشاعر السود أقل أهمية من مشاعر البيض، بل أيضاً لأن تعبيره صدر عفوياً عنه كما لو كان يمثل قناعته الصادقة. اِنتبه لصدمتي، لكن لم يفهم دواعي اِستهجاني، وكأن الأمر كان بديهياً محسوماً. سألته ساخراً: و"ماذا عن مشاعري (الحنطية) وأنا لست أوروبياً أبيض ولا أفريقياً أسود، فهل هي أقل صدقاً أو أهمية من مشاعرك (البيضاوية) يا سايمون؟". فرد عليّ بما معناه "أنت الآن أصبحتَ واحداً منا ومشاعرك بيضاء مثلنا!". لحظتئذ فقط، أدركتُ أن أحدنا تجاوز حدود السكر والمنطق. لا بل إن أحدنا اِنتقل إلى حدّ الهلوسة والتخريف. فرويد كان محقاً بنظريته عن العقل الباطني وكيف نضمر أشياءً لا نبوح بها إلا في الأحلام أو تحت السكر أو بالتخدير. وبقي السؤال يدور في رأسي كما لو كنتُ واعياً أشرب الشاي أو القهوة! كيف لإنسان عاقل التوهم أن العِرق يحدد مقدار الحزن أو الفرح أو الألم؟ لِمَ لا نضيف أيضاً مقادير الجوع والعطش والنعس والتعب، أم أن الإنسان الأبيض يجوع ويعطش وينعس بطرق أكثر حضارية من الأعراق والأجناس الملونة؟ لا عجب أن بعض الغربيين ينظرون نظرة دونية لغير الغربيين حتى بدون 11/9 أو قبلها، فما بالكم باليهود الذين اِختارهم الله على غيرهم من الأساس؟

يومها أدركتُ أن سايمون كان يرى مشاعر الأفريقيات بنفس الطريقة التي كان ينظر فيها إلى مشاعر السمك الذي يصطاده. وإن دلّ هذا عل شيء، فعلى أن العديد من المثقفين ذوي النوايا الحسنة، للأسف، يدمجون اِنطباعاتهم بمعتقداتهم، فيصبحون كمن يعتقد أن فلسفة "

بيكون" إنجليزية، وفلسفة "ديكارت" فرنسية، وفلسفة "كانط" ألمانية، وفلسفة "سقراط" يونانية، كما لو أن الفلسفات لها، هي الأخرى، أعراقها أو أديانها أو جنسياتها، فيما الأصل أنها فلسفة في كل الحالات. هناك العديد من العلماء الرصّان الذين تركبهم العنصرية إلى درجة أنهم يستهترون بعالمية الفلسفة التي تسعى إلى فهم البشرية جمعاء، وليس فقط لفهم مشاعر الإنسان الأبيض ومزاجه البرتقالي!

المسألة جرحتني وشوّشت عليّ سهرتي. إلا أن سايمون اِستدرك اِنزعاجي، فسارعني مداعباً: "دعني أشرح لك ما قصدته يا عزيزي". ويا ليته لم يشرح (!)، إذ قال ما مفاده إن الأفريقيات عادة ما يُحصّنَ "شيخوختهن" من خلال إنجاب أطفال أكثر من إنجاب الغربيات. والمرأة الغربية محمية في كبرها من خلال تقاعد نهاية الخدمة، فضلاً عن خدمات طبية واِجتماعية كثيرة. لذا، فالمرأة الأفريقية، تُترك عادة لمصيرها ما لم يكن عندها العديد من الأبناء يهتمون بها في كِبرها. وعليه، فهي لا تحزن كثيراً أو طويلاً على موت واحد منهم. بينما المرأة في أوروبا لا تُنجب إلا إثنين بالمتوسط، فإذا مات أحدهما كان حزنها عليه أشد وأطول! ربما كان ذلك منطق سايمون بالفعل، أو مفهوماً عند البعض، لكن عقلي ليلتها رفض - كما يرفض الآن - هذا التفسير الغربي الفوقي. لم أكن مستعداً لقبول التناقض في المشاعر الإنسانية أو المساومة عليها. فالألم عندي ألم، والفرح معي فرح، والمعاناة لا تتجزأ. كيف لا تكون آلام الناس في غزة ولبنان واليمن وسوريا والسودان، كآلام الناس في أوروبا وأميركا وأستراليا، مثلاً؟ هل حياة الضحايا في الشرق لا تساوي شيئاً في الغرب؟

خلال غزو أوكرانيا، شاهدنا على الشاشات مذيعين غربيين ينهارون من شدة العويل والبكاء عندما كانوا يغطون أخبار النزوح ويشاهدون النساء والأطفال الأوكرانيين يعبرون إلى بولندا ورومانيا. بعضهم

تمادى بالتعبير وبالغ عن الأسى والضرورة للمساعدة العاجلة، وقال على الهواء مباشرة بالحرف: "دعونا نذكّر أنفسنا؛ هؤلاء ليسوا نازحين عراقيين أو صوماليين أو سوريين أو ليبيين أو يمنيين أو أفغان، إنهم أوروبيون مسيحيون بيض، مثلك ومثلي تماماً، ويقودون سيارات!". هكذا وصفتهم الفضائيات الغربية وكأن الفرق بين النازح الشرقي وبين النازح الغربي بديهي! وإذا دلّ هذا التعالي على شيء واضح، فعلى اِعتراف وسائل الإعلام الغربية أنها ترى الصيف والشتاء تحت سقف واحد، وأنها عنصرية حتى النخاح، وأنها لا تعتبر السوريين والأفغان والليبيين واليمنيين والعراقيين والسودانيين بشراً أسوة بالأوكرانيين. الأكيد أن الحرب الأوكرانية أظهرت، لي على الأقل، أن صديقي سايمون لم يكن وحده في الإعتقاد بوجود أنواع مختلفة من الألم! هناك وجع أوكراني أبيض، وألم غزاوي حنطي، ومغص صومالي أسود، وعذاب روهينغي أصفر. وهكذا "أقنعونا" في النهاية بنظرية الآلام الملونة وروّضونا على التعايش معها ودفنوها بعقولنا الباطنية! لكن مَن منا سيذهب ليخبر يسوع المسيح عن الآلام الملونة، اللهم إلا إذا كان هناك أكثر من يسوع واحد! ولو كان يسوع الناصري يعلم ما يجري باسمه، لقام قيامة ثانية وبشّر بنا من أول وجديد. كيف للمرء أن يميّز بين فظائع روسيّة في "كييف" وفظائع إسرائيلية في غزة وفظائع في كردستان وسوريا واليمن ودرافور، على سبيل المقارنة؟ أليسوا كلهم ضحايا بمعيار الحزن والأسى والإعاقة؟

تركنا المطعم مع بزوغ الفجر، واِتفقنا عند الوداع على مواصلة الجدل بعد 3 أسابيع في جنوب أفريقيا حيث كنا على موعد مع معرض عالمي للتقنيات الهاتفية في "كايب تاون" (تليكوم أفريقيا). وعلى طريقة "لك يوم يا ظالم"، أخذتُ من يومها أفكر كيف كنتُ سأِصطاده في جنوب أفريقيا بمعية "رفيقات" أفريقيات كن يعملن لدى وكلائنا في

"جوهانسبرغ" و"ميد راند". كنتُ مصمماً على ردّ الصاع صاعين (مجازاً)، والثأر منه للنساء السود في العالم.

الثلاثي العجيب

الأكيد أن العنصرية ليست ضد السود الأفارقة فقط، ولا ضد النازحين من الشرق الأوسط، أو الإسلاميين من شمال أفريقيا، بل تشمل أيضاً الغجر المسيحيين البيض، والألبان والرومانيين والبولنديين حتى داخل أوروبا نفسها. أي إن التمييز عندهم يقع ضد الغرباء والأجانب، وضد الأفراد المهمشين من الطبقات الإجتماعية الدنيا. ألم يكن خروج بريطانيا من الإتحاد الأوروبي عام 2017م دليلاً واضحاً على العنصرية البريطانية؟ ألم تُظهر نتائج الإستفتاء بوضوح أن الدافع الرئيسي وراء خروجها في المقام الأول كانت المخاوف بشأن إنزلاق السيادة من العرش الملكي البريطاني لصالح السوق الأوروبية المشتركة؟ ألم تُظهر في المقام الثاني الرغبة الدفينة في إستعادة السيطرة الكاملة على تحرير القوانين من براثن البيروقراطيين في بروكسل؟ بيد أن الدافع الأقوى لخروج بريطانيا من الإتحاد الأوروبي كان مجبولاً بمشاعر الكره للغرباء والتوجّس من الأجانب. صارت أوروبا في أعقاب حرب أوكرانيا أكثر أنانية وتناقضاً وفوضوية! والحقيقة هي أن التهديد لأوروبا الغربية لم يأت يوماً من روسيا في الشرق، بل لطالما كان نابعاً من داخل أوروبا نفسها منذ العصور الوسطى؛ فالصراع كان دائماً يدور على السلطة والنفوذ بين العائلات المالكة وبيوتات البرجوازية والإقطاعيين والإحتكارين أمثال آل هابسبورغ، وبابنبرغ، وبلومبرغ، وميديتشي، وبورجياس، وروكفلر، وروتشيلد. هذه العوائل اليوم هي "المؤسسة" العالمية صاحبة التأثير والنفوذ التي تباركها الكنيسة في روما ويعاونها العديد

من تجّار السلع وأسر العلامات التجارية المسجلة والأوليغارشية والفرسان والجمعيات السرية إلخ. ولطالما وقف هذا الثلاثي العجيب (عوائل الحكم، والإحتكاريون، والكنيسة) عبر التاريخ متصدّياً لأي تنافس من خارج أوروبا، لا بل لطالما فبرك الحروب والمصائب في العالم من أجل حماية المصالح الأوروبية. ألم يتسببوا بإبادات عجيبة في العالم الجديد وفي أفريقيا وآسيا؟ ألم ينشروا الأمراض والأوبئة بين القبائل والجماعات النائية؟ ألم يخترعوا "الخوازيق السياسية" (الألغام العسكرية) الجغرافية لزرعها في الحدود عند كشمير وقبرص وسوريا ولبنان وليبيا والعراق والسودان وفيرموزا وأنغولا إلخ؟ ألم يصنعوا الأسلحة الغازية والجرثومية والكيماوية والبكتيرية وفيروسات الحيوانات وقنابل إشعاعات اليورانيوم؟ عندما كانت هذه الكيانات الأوروبية تتفق فيما بينها ضمن مؤسسات الدم كما في الحملات الصليبية المشتركة، كانت تتقاسم العالم بنظام الحكم العضوي المباشر عن طريق المستعمرات. أما اليوم فصار إستعمارهم خفياً ناعماً غير مباشر يتحاصص الغنائم عن طريق مؤسسات عالمية، مثل الأمم المتحدة وصندوق النقد الدولي والبنك الدولي ومحكمة العدل الدولية ومنظمة الصحة العالمية، فضلاً عن القوى الإعلامية والصحافة الدولية ووكالات الأنباء والمختبرات والمعايير وأنظمة العدّ والأحصاء والجودة وجوائز التقدير. ولكن ما إن تختلف هذه الكيانات على توزيع الحصص وكعكة النفوذ، حتى تتقاتل بإجرام وشراسة كما رأينا في الحربين الأولى والثانية. وها نحن الآن مع غزة وأوكرانيا والسودان وليبيا وسوريا واليمن وإيران وفنزويلا على وشك الوقوع في براثن حرب عالمية ثالثة بسبب تناقضات التنافس بينهم من جديد. فجأة أراد ترامب الإستيلاء على غرينلاند وكندا وصومالي لاند ودول أخرى ما زالت قيد الكتمان (؟)، وقد يكون النووي والذكاء

الإصطناعي والقتال عن بعد من أبرز سِمات هذا التناقض بين دول النفوذ.

هذه الممارسات الغربية، خاصة بعد دخول الولايات المتحدة عل الخطّ منذ اِنتهاء الحرب العالمية الثانية، هي أنشطة شيطانية غرضها التحكّم في العالم وموارده وطرق توزيعها واِستغلالها حسب أهوائهم وأهدافهم. إلا أن المنافسة بين هذه الدول الغربية نفسها لم تكن يوماً بهذه الشراسة والجشع والإستماتة إلى درجة أن موت 75 ألف ضحية في غزة، مثلاً، لم تؤثر في ضمائرهم بسبب اِنشغالهم عن الصالح العام. أمر تسبب بنشر الألم والبؤس والدمار وتدفق اللاجئين وتحولات بشرية عجائبية تحت عناوين مختلفة؛ فصار حق التحوّل الجنسي، مثلاً، أهم من نزع الألغام أو تنقية المياه ونشر الطبابة في المواقع النائية. ما الفائدة من إلقاء المحاضرات عن حقوق الإنسان والعفة والديمقراطية والقيّم الغربية ما لم يستطع الغربيون أنفسهم حماية أوروبا من أنفسهم، ومن شرورهم، ومن حروبهم على أراضيهم. أخشى ما أخشاه أن الغرب لم يتعلّم من دروس الماضي، وسيمضي في عنجهيته إلى أن يُفتت نفسه بنفسه بوجود أجيال من النازحين والغرباء الجدد على أرضه. وربما هذا ما قد يشجع الخاسرين والمتضررين ويوحدهم لبدء نظام عالمي جديد. لا أدري ما إذا كانت "بريكس" (البرازيل، روسيا، جنوب أفريقيا، الصين، إيران) إحدى واجهات هذا النظام الموعود، وهي تزداد بعضويتها يوماً بعد يوم بعد دخول مصر والسعودية والإمارات وإثيوبيا، أو أن تشكيلات جديدة ستظهر بعد تفكك المنظومة الأنجلوساكسونية. لكن الأكيد أن البرازيل، مثلاً، تمكنت مع مطلع 2026م من إجراء تحويلات مالية ضخمة خارج نظام "السويفت" الأميركي، ما يعني صفعة بالغة "للمؤسسة" الغربية. إلا أنه بالرغم من ذلك، فإن الصورة في جميع الأحوال، ما زالت قاتمة وتعيسة بالنسبة للشرق والعرب معاً، حتى

وإن تبخّرت بؤر الصيد بالماء العكر ولم تعد تهديداً جدياً أو مركزياً مثل إسرائيل وإيران. أما العرب فهم "قطط" ضعيفة لا يمكن أن يمثلوا تهديداً لمجاري المصالح بين الشرق والغرب، والسبب في ذلك أن الثقافة العربية نفسها نرجسية لا تسمح بتعاضد الجهود من أجل النهضة العروبية الجماعية. أي إن العرب ليسوا مستعدين للتخلّي عن العصبية القبلية والحمية الضيقة، وبالتالي فهم لا يشكلون تهديداً لأي تكتل عالمي. وهذه ذهنية محورية وجزء من القماشة الوجدانية عند العرب، وربما يستغرق حلها مئات السنين. ومع أن الغرب "المتحضر" نفسه كان يوماً أتعس من حال العرب اليوم، إلا أن فصل الكنيسة عن شؤونه اليومية والثورة الصناعية والحروب الكبرى فيه، كلها صقلت شكلياً عقول الغربيين، وهذّبت نسبياً سلوكهم، وصاروا مرحلياً أكثر اِتحاداً بوجه المصاعب والتحدّيات.. إلا أن الشرق بريادة الصين في الوقت الحاضر بدأ يمثل الهمّ الأكبر للغرب إلى درجة أن كندا تحالفت معها لصدّ بلطجة الأميركيين عنها. وحتى فرنسا العدائية مع الشرق بدأت، هي الأخرى، تتعرّى أمام الصين لإغرائها واِسترضائها بوجه أميركا ترامب!

الفصل العشرون: مرة في العمر

حبّ أفلاطوني

كنتُ في تلك الأيام مستعداً لخوض أي تجربة وإختبار أي شي يخلّصني من رتابة العيش إلا العودة إلى لندن. فبإستثناء بيتي المهجور في العاصمة البريطانية وبعض الأشياء الخاصة، لم يكن لدي أي إرتباط عضوي أو وجداني بالمملكة المتحدة، خاصة أن بنتيّ كانتا تتعلمان بإحدى مدارس البحرين. كنتُ في تلك الفترة مُستميتاً للتغيير، لا سيّما أن الأمور العاطفية كانت قد تبخرتْ منذ زمن طويل.. وعلى مبدأ "عند الضيق تُفرج"، إلتقيت بـ"غجرية" أوروبية في مكتب أحد الأصدقاء، ووقعتُ بغرامها من أول نظرة. كانت تلك أول وآخر مرّة أعرف فيها معنى "الحبّ من النظرة الأولى". ولغاية اليوم، لا أعرف تحديداً إن كانت إبتسامتها هي التي جذبتني إليها أو أني كنت مستميتاً لأي إبتسامة من أي أنثى أصلاً، حتى ولو كانت غجرية؟ الفتاة لم تكن غجرية بالمعنى العرقي الصحيح للكلمة، ولا بالمعنى الثقافي، إنما ملامحها أوحتْ لي مجازاً أنها كانت من غجر أوروبا. لبسها كان مزركشاً، طويلاً، وفضفاضاً. شعرها أسود منفوشاً ومنكوشاً. عقدها على رقبتها كان أشبه بالجرس على رقاب النعاج والماعز. بادلتني إبتسامة خجولة، ولم أعرف إنْ كانتْ إعجاباً بي أو إحتراماً لصديقي. ومع مرور الأيام، أخذتُ أرفع من وتيرة زياراتي لزميلي بذريعة التركيز على أنشطة العمل بيننا. ومع تعدد الزيارات، تكررتْ النظرات المتبادلة وإفتُضح سرّها بيننا بغياب صديقي عنّا..

لم يستغرق الأمر طويلاً حتى أدركتُ المعنى الحقيقي للحبّ الأفلاطوني. إنه شعور قاتل يدفع العاشق إلى حدود الهوس والجنون.

كادت غجريتي تسلب عقلي وتمتص روحي وتقضي عليّ. لم أكن أعرف أني بعشقها كنتُ سأتألم إلى حدّ الهيام وأضعف إلى درجة الهوان. إحساس معيب لم يخالجني مع أنثى من قبل، ولا من بعد! شقيّة ملعونة، كانت تعلم علم اليقين أني كنتُ متيّماً بها، ومهووساً بهواها، ورهناً لإشارتها. فعندما أكون معها أضيع بنظراتها، وعندما اِبتعد عنها أضيع بدونها. إنها حالة ضياع دائمة أشعرتني بإهانة عظيمة، وأذى عميق، وهزيمة نكراء! المفارقة أنها لم تكن حسناء كاملة الأوصاف، ولا صاحبة قدّ مياس أو قامة ممشوقة.. لكن عينيها الزرقاوين وحُمرة وجنتيها، ورائحة عطرها كانت كافية بالنسبة لي لأميّزها بين نساء الكون. بشرتها كانت طبيعية بلا مكياج، ولهجتها كانت أنغاماً من أصوات الطبيعة، وأنوثتها كانت الطُعم الذي اِصطادتني به! كان واضحاً منذ البداية أن العلاقة بيننا لم يكن لها لتستمر، وهي لم تكن قد بدأت من الأساس أصلاً! اِقتصرت على نظرات دافئة وتنهدات مثيرة وهمسات أفلاطونية. والصراحة، أني لم أفهم إن كانتْ تلعب معي لعبة عروس وعريس، أو كانت تلاعبني كالحوت مع الفقمة! يا لها من أنثى؟ ورغم طبيعتها الغجرية المتمردة، كانت في غاية التهذيب والخجل. رسّامة زيت للمناظر الطبيعية، شديدة الملاحظة ودقيقة التوصيف. لم يخنها تعبير ولم يهرب منها اِصطلاح رغم إنجليزيتها المتواضعة. كان لا بد لي في نهاية المطاف أن أضع حدّاً لغنجها المثير ودلعها القاتل. وعلى طريقة "أكون أو لا أكون"، قررتُ حسم الأمر ومواجهتها. فصارحتها بحبي لها، لكنها على طريقة "عرف الحبيب مكانه فتدلل"، راوغت وماطلت وتملّصت وسوّفت! كان موقفها بلحظة واحدة أسوأ عليّ من تفكيري بها على مدار الساعة. لم تهلل لحبي ولم ترفضه. كنتُ يومها قد صدِئتُ بشؤون الهوى، أقرب إلى جميل بثينة وبلادته، منه إلى عمر بن أبي ربيعة

وحرارته. فتخاذلت عن حسم المسألة، وإكتفيت بإبرة التخدير، وأجّلت معركتي معها ليوم آخر.

في اليوم الآخر الموعود، يوم كشف المستور، كانت المواجهة معها حادة مؤلمة، لكن مباشرة وصريحة. فقالت لي ما معناه إنه لا يهمها أني كنتُ أكبر منها بعشر سنوات، أو أني كنتُ مطلقاً، أو أباً، أو إننا من خلفيات دينية أو إجتماعية أو عرقية مختلفة. مشكلتها الوحيدة معي، وقالتها بصريح العبارة: "أنا أحبك، لكني لست واقعة في حبك". عبارة نمطية مُستهلكة كنتُ قد سمعتها عشرات المرات من قبل. ثم إستطردتْ وأوضحتْ: "لا أستطيع العيش معك تحت أي ظرف"! سألتها بصفرة المبخوع ولهفة المحروق "ولماذا لا تستطيعين يا عزيزتي؟"! فردّت عليّ بلهجة حاسمة، وقالت بخجل بثينة مع جميل: "أريد أن أكون مع شخص لديه جذور حقيقية، وإنتماء قوي، وروابط صلبة - شخص شغوف ببيئته الضيقة يعشق فولكلوره الخاص ومحيطه المحلي! لا أريد شخصاً عالمي الهوى، إنساني الهوية، لا صبغة محلية له ولا طعم. لا أرغب بشخص عمومي النظرة وعميق النظر! لا أريده أن يشارك مشاعري مع كل البشرية، ولا أن يقاسم حبي مع كل الإنسانية والعالم بأسره". يا إلهي، تنهدتُ لها مستغرباً لأنها بدت كما لو كانت تعرف عني أكثر مما كنتُ أعرف عن نفسي! رمقتني نظرة حزن صادق وشفقة خالصة وكأنها كانت تودعني إلى الأبد، وأردفتْ قائلة: "أرجوك لا تسيء فهمي، فالعيبُ ليس منك، إنما هو فيني، أريد ممن إرتبط به أن يُسْكنني بكوخ صغير، يتمسك به بأسنانه وأظافره، ويحميه برموش العين. لا أريد أن تكون "الإنسانية" عنواني، ولا "البشرية" هويتي، ولا "المبادئ" لباسي الواسع. أريد أن أبقى سويسرية عادية كاثوليكية بيضاء لا تلوثني معتقدات الشرق ولا تلطخني عادات البدو" (غجرية تشكو من البدو؟)...

هرمونات بلا مخ

تبرير غجريتي بدا عقلانياً، إلا أنه لم يكن صادقاً. كان عذراً أقبح من ذنب. لكن - والفضل لها - أدركتُ، من يومها، أنه لا يكفي أن تكون مُتيماً لتكون محبوباً. كان ينبغي أن أكون شقياً لعوباً، رجل لحظة وشهوة وعنوة وخيانة! فالنساء عموماً لا يعشقن إلا مَن يعاملهن معاملة فظّة قوامها فلسفة "سي السيد"! إنهن (بالعموم) يعشقن القوة والسلطة والجبروت، لأن المرأة بطبيعتها تهرب من "ضعفها" إلى مَن يحميها من نفسها ويعلو عليها ويُهيبها. يومها، لم أكن أعلم أن الأنثى لا يهمها منطق سقراط ولا يستهويها صدق يسوع. إذ إن عدد الهرمونات في جسدها يجاوز عدد الخلايا في مخّها! ثم إن طبيعتها الأنثوية أقوى من منطق صراع البقاء نفسه وأشد من المصير. ألم نرَ من سجلات التاريخ ملكات تخلين عن عروشهن وسبحن في بحار هرموناتهن من أجل عشيق شقي هنا، ورجل لعوب هناك؟ وإذا كانت كليوباترا أحد أقدم هذه الأمثلة وخسرت عرش مصر كله لأعدائها الرومان بسبب عشقها لأنطونيو، فإن الأميرة ديانا كانت أحدث الأمثلة عن ضرب السمعة والجاه والأبناء بعرض الحائط من أجل الشعور بالحبّ، أو لنزوة، أو عاطفة من أحد على حساب العقل والمنطق. الأنثى لا يهمها من الذكر إلا منطق الحضن وحكمة التحاضن. ملكة إسبارطة، هيلين، مثال آخر من قعر الزمن، تخلّت عن زوجها الملك وعرشها العظيم لتهرب مع حبيبها "بارس" إلى طروادة! وكذلك رأينا شاعرة قرطبة من الزمن الوسيط، الأميرة الشهيرة ولاّدة بنت المستكفي (الأندلس). خاطرت، هي الأخرى، بسمعتها ومكانة عائلتها من أجل عشقها للشاعر الشقي اللعوب إبن زيدون. ومع ذلك، تركها شيخ الشباب وتعلق بجارية سوداء كان غناؤها طرباً لمسمعه. أما فاطمة بنت الخليفة العباسي، المستنصر، فقد تلوّعت بحبها لرجل من البلاط أدنى منها مكانة وقدراً

وثقافة، فتركت قصر أبيها بسببه، لكن كحال بعض الرجال مع بعض النساء سرعان ما هملها وخانها ولم يعبّرها. المكان هنا يضيق بأمثلة عن جنون النساء في التخلّي عن المنطق لصالح الهرمونات في أجسادهن واللحاق برجال كاذبين مغازلين مداعبين لعوبين غالباً ما ينسحبون من العلاقة أو يخونون. والمسألة مع المرأة بيولوجية بحتة لا علاقة لها بالوفاء والإخلاص، ولا بالثقافة، أو المهنة، أو الدين، أو الطبقة الإجتماعية، أو المبادئ والمُثُل أو أي إعتبار آخر. إنها الطبيعة التي مكّنتها على الذكر بصرف النظر عن المساواة والجندرة والمنطق!..

غجريتي لم تكن إستثناءً.. كانت تريدني أن أكون واحداً من أولئك الرجال المتهورين. رجال اللذة واللحظة! لم أكن واحداً منهم، رغم أن جنس المرأة يَغويني وجسدها يُغريني، إلا أن فكرها عندي يبقى هو بيت القصيد ومذبح الخلاص. وكم كنتُ حزيناً أني فقدت الأمل من أي مستقبل مع غجريتي! كنتُ صادقاً بعواطفي معها وجاهزاً بنيتي لها وأخطط لعقد قراني عليها، لكن "المكتوب" كان أسرع مني في تقرير المصير. كان "للكارما" أمرها من فراقنا على قاعدة: "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم". وبنهاية المطاف بقيتُ أميناً لقناعتي، وفضلّت التحليق عالياً ووحيداً، كالصقر.

كردية وافتخر

على الرغم من قسوة ردّها، كانت غجريتي على حق. لا بد أنني كنتُ فعلاً قد فقدت الإتصال بجذوري وشعوري بالإنتماء إلى الوطن وبالأمور الصغيرة والثقافة المحلية! كلنا في العيش نسعى إلى ما نفتقر إليه. بعضنا يبحث عن المال والجاه، وبعضنا عن العراقة والصيت

الحسن، وبعضنا عن الوطن والهوية وما إلى ذلك. وعلى هذا الأساس، لا عجب أن محبوبتي الغجرية "التائهة في البراري" كانت حريصة جداً على تحصيل الهوية والجذور أكثر من أي شيء آخر! فقد اِتضح لي فيما بعد أنها كانت قريبة لبعض ضحايا الهجوم الكيميائي الذي شنه صدام على حلبجة عام 1988م؛ فعلى الرغم من أنها وُلدت في زيورخ لأب كردي وأمّ سويسرية، إلا أنها لم تزر حلبجة قط ولم تتقن اللغة الكردية. لكنها كانت تحترق غيظاً من نفاق العالم ومعاييره المزدوجة. صدام اِستخدم مزيجاً من مواد كيميائية سامة وغاز الخردل لشل الأعصاب، ما أدى إلى 5000 وفاة وآلاف المعطوبين مدى الحياة. كل ذلك كان أمام الغرب وأعين العالم الحرّ، وربما بتشجيع منه! العجيب أن حكام العالم نسوا كيف يتهجئون كلمة "كرد"، وغضّوا النظر عن شعب قوامه 50 مليون نسمة، وتناسوا نضاله وآماله وأحلامه. وأما الدليل على ذلك، فكان بما مثّله موقف دول الأمم المتحدة آنذاك التي لم تدن أحداً، ولم تقاضِ صدام ولم تقاطعه..

وحتى بعد عقود طويلة على محرقة حلبجة، فإن الكثيرين من أحفاد الضحايا وُلدوا بعاهات خلقية جسيمة مثل أحفاد ضحايا هيروشيما وناغازاكي. وُلدوا مشوهين يعانون من عواقب بيولوجية ونفسية واِجتماعية مزرية. وحلبجة بالأساس مدينة كردية أصيلة تقع بالقرب من الحدود الإيرانية، ليس بعيداً عن "مقر الإسكندر الرئيسي" القديم للشرق الأدنى في قلعة "دربند"، على بحيرة دوكان. والمدينة في عزها كانت تنبض بالحياة وتعجّ بأنشطة الحضارات القديمة بسبب موقعها على مفترق الطرق التجارية آنذاك. الملفت أن معظم سكان تلك المناطق يتمتعون ببشرة بيضاء وعيون زرقاء وشعر أشقر، كما هو الحال مع العديد من الأكراد في الجوار. ورغم اِعتناق معظمهم الديانة الإسلامية على المذهب السنّي، إلا أنهم لم ينجوا من بطش

العثمانيين السنّة، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى. لقد كُتب الكثير عن الشعب الكردي، والعديد من هذه السرديات يتناقض مع بعضه البعض اِعتماداً على وجهة نظر الكاتب وميول أسياده. فبادئ ذي بدء، وعلى الرغم من عدم وجود دولة كردية في أطلس الدول، إلا أن ملايين الأكراد لديهم في وجدانهم وواقعهم كردستان اِفتراضية خاصة بهم، محصورة بين تركيا وإيران وسوريا والعراق. غير أن الدعاية الجماعية لهذه البلدان تجعلك تعتقد أن الأكراد مجرد جماعات غجرية من العصور الوسطى، في حين أنهم، في الواقع، شعب عريق متميز له جذور عميقة عرقية في حضارات بلاد فارس وبلاد ما بين النهرين.

"مشكلة" الأكراد أنهم شعب جبلي، مزارعون مسالمون، ليسوا عدوانيين ولا مستعمرين. يتعرضون دوماً للبطش والإستغلال والإبتزاز من كل الجهات. والعرب الذين يشكون أن إسرائيل "سرقت "فلسطين والجولان منهم، لا يهتمون بشكاوي الأكراد أو بتطلعاتهم للإستقلال، ولا حتى بمطالبهم في الحكم الذاتي، وكأن محنة الفلسطينيين هي المصاب الوحيد الذي ينبغي أن يحظى بإهتمام العالم ويستأهل البكاء والألم! وهكذا، نرى النفاق نفسه يُستخدم بنفس القدر من قبل غير العرب، وتحديداً الإيرانيين والأتراك، الذين يعتبرون الأكراد مواطنين "من الدرجة الثانية"، بل غالباً ما يشككون في دوافعهم وولائهم! وحتى الولايات المتحدة، التي غضت النظر عن محرقة حلبجة، لا تعترف، هي الأخرى، بأرض مستقلة للأكراد رغم أنها تستخدمهم وتعتمد عليهم في العديد من المهام العسكرية، من بين أمور أخرى. ولو كان يهود العراق هم مَن حُرقوا في حلبجة على أيدي صدام، لكانت المحرقة قد عُنونت في العالم على نمط محرقة هتلر.

المفارقة في كل هذا السياق أن الغرب الذي رأى ضرورة لإنشاء دولة يهودية على أرض الفلسطينيين ودعمها، لم يرَ ضرورة لإقامة دولة

طال اِنتظارها للأكراد على أرضهم، وهم لم يغادروا يوماً منذ آلاف السنين! ومع أن معظم الأكراد اِعتنقوا الإسلام السني بعد اِنتشاره في القرن السابع، إلا أن كردستان نفسها فيها تاريخ عريق للمجتمعات اليهودية والمسيحية التي ما تزال تعيش فيها، وإن بنسبة ضئيلة. فالأولى سكنت في كردستان منذ الفترة البابلية تحديداً (نحو 500 ق.م)، بينما ظهرت المسيحية فيها منذ القرن الأول ميلادي..

***

كان واضحاً أنه حتى لو كانت غجريتي قد وافقتْ على الزواج مني وجاملتني برؤيتي للمستقبل، ما كنتُ لأتمكن من اِستعادة تراثها ونسج هوية كردية لها باعتراف رسمي. فقد كانت، مثل العديد من الأكراد، شغوفة فقط بتاريخ شعبها ومستقبل ذريتها ولم يعنها من العالم إلا اِعترافه بها مع رجل كردي مثلها وبجانبها! حاولتُ، لكن فشلتُ في توصيل فكرتي لها أنني أنا أيضاً كنتُ أبحث عن هوية، عن واحدة أبعد من هوية الفلسطيني والكردي معاً، هوية إنسانية جامعة تقوم على حقوق الإنسان في كل مكان. لكنه كلام مثالي لا مكان له على أرض الواقع. فراقنا كان نعمة!

بعد سنوات طويلة على تجربتي الفاشلة معها، فوجئت بها يوماً تطلّ في غرفة نومي من على شاشة "الجزيرة"! كانت الفضائية القطرية يومئذ تُجري مقابلة حصرية معها حول معرضها الفني في برشلونة. أما لوحاتها، فكانت - لدهشتي - عن ضحايا حلبجة وعن تاريخ الأكراد وتراثهم. وكم سرّني أنها بدتْ غجرية كما عهدتها، وإن بدتْ أيضاً متعبة بعض الشيء في بداية خريف العمر. وعلى طريقة إشفاء الغليل، سرني جداً أني لم اِرتبك بمشاهدتها ولم يُربكني صوتها أو يدغدغ إحساسي! ولعمري كيف أن المقابلة اِنتهت معها على عبارة منها ذكرتني بالمفارقة الكبرى! إذ قالت لمذيعة الجزيرة ما مفاده "إن

وجعها أممي، ومعاناة الأكراد بالنسبة لها ليست إلا عنواناً من العناوين التي كتبها الغرب أثناء حروبه للسيطرة على العالم". فجأة، صارتْ غجريتي، هي أيضاً، عالمية الهوى أممية، فيما كنتُ أنا على وشك الإنزلاق إلى جذوري الضيقة وهواء ضيعتي، عقب نوبة قلبية أصابتني وأبطأت حماسي للإنسانية وقلّصت طموحي....

مخمور ومغرور!

في ربيع عام 2007م، دُعي رئيس مجلس إدارة شركتنا، ومؤسسها، خطيباً إلى مؤتمر عالمي أقامته الحكومة الظبيانية في أبو ظبي. كان حدثاً ضخماً لجهة موضوعه عن الإبتكارات التكنولوجية من جهة، وعن رصانة المشاركين ورفعة مكاناتهم في حقولهم وبلدانهم من جهة أخرى. وفندق "القصر"، حيث إنعقاد المؤتمر، كان يومها "صرعة" الفنادق الفخمة في العالم من طراز السبع نجوم. لم يكن الأكبر والأحدث والأكثر وشهرة في العاصمة وحسب، بل كان أيضاً مقصد المشاهير الدوليين والوفود الحكومية الأجنبية وكبار الشخصيات. كان معظم المشاركين يومها من الرؤساء التنفيذيين والمؤسسين لعمالقة الشركات العالمية، فضلاً عن وزراء وشخصيات حكومية رفيعة..

في أمسية الإفتتاح، وصلت باكراً وتوجهت مباشرة إلى البار وسط ضوضاء صاخبة من بروفات فرق الترفيه والتسلية، وقد بدتْ الفرق ساحرة بألوانها وحريمها وحركاتها. كان يرافقني (رغماً عنه) كبير مهندسي الشركة، غسان، وهو من النوع الكتوم الساكن. لا تعرف معه، عادة، إن كان سعيداً وموافقاً، أم حزيناً ومعارضاً. إلا أنه في تلك الليلة بالذات كان متحفظاً للقدوم معي لأني لم أكن مدعواً إلى فعاليات المؤتمر من الأساس. وكالعادة، اعتمدت بجرأتي على مفعول الكحول، وعلّقت بطاقة الشركة على صدري وصدر غسان، وكنت واثقاً من

دخولنا إلى المؤتمر، خاصة أن مؤسس شركتنا كان ضيف الشرف والمشارك الأول ونجم الإفتتاح. غادرتُ البار وشقيّت طريقي بثقة العسكر إلى مكان المؤتمر كما لو كنتُ أحد منظميه أو الساهرين على أمنه. كان الحفل مُعَداً للهواء الطلق على الشاطئ تماماً، وهناك "جرّجرت" غسان معي إلى قسم كبار الزوار، وتحديداً إلى أقرب طاولة مجاورة لطاولة الشيخ المضيف، بمواجهة منصة الخطباء مباشرة. كانت الطاولات كبيرة من النوع المستدير وعليها بطاقات حجز إفتراضي دون أسماء أو ألقاب. فجلست على واحد من المقاعد "المحجوزة" وأرخيتُ ظهري مُحتفلاً بتسللي إلى المكان. ومن خبرتي الطويلة في المؤتمرات الحكومية، أن كثيرين من مستشاري كبار المدعوين عادة لا يحضرون اليوم الأول، ويفضلون عوضاً عن ذلك إكتشاف المدينة أو الإسترخاء في غرفهم، أو التمتع بمساج آسيوي أو حمام تركي أو سونا فنلندية على حساب الحكومة! كانت الخمرة في عروقي قد بدأت تؤدي مفاعيلها وتزيل كل الإعتبارات والحواجز من إعتباراتي!

مشهد الإحتفال على رمل الشاطئ إكتمل بإكتمال وصول كبار الضيوف، وكانت الأجواء الإحتفالية تحفة فنية رائعة. كان الطقس بديعاً والأنوار تعكس ألوانها المبهرة على الموج أمامنا. وحتى قعقعة الأطباق وقرقعة الكؤوس كانت تصلناً عبر الأثير ألحاناً جميلة متناغمة. لكن بعكس أجواء البهجة من حولنا، بدا الرجال على طاولتي كئيبين وجادين. كان واضحاً من ملامح وجوههم الأوروبية أنهم لم يلتقوا ببعضهم البعض من قبل، أو لم يرغبوا بالتحدث مع بعضهم البعض، مع أن النبيذ المقدم كان لذيذاً من الصنف الفاخر! وكعادتي في المناسبات العامة، كنتُ فضولياً، وحاولتُ إشراكهم في دردشة هنا ومجاملة هناك، لكن أحداً منهم لم يكترثْ كما لو كانوا كلهم "غساسنة" من نوع صديقي الكتوم. كانوا مقتضبين بردودهم

ومتحفظين بتصرفاتهم، وكأنهم مُرتابين أو خائفين! من يدري، فلربما تلقوا نصائح في بلادهم بعدم التحدث إلى الغرباء، أو الإنخراط كثيراً مع العرب تجنباً لإرتكاب هفوات بروتوكولية (!). إذ إن القاعدة العامة عند الغربيين هي أنه "ما لم تكن على معرفة وثيقة بجُلَاسِك العرب وطرق عيشهم وعاداتهم، عليك تجنب الإنخراط معهم وتوخي الحذر". وذلك على أساس أن الخليجيين حساسون جداً، لا سيّما أن المؤتمر يعقد في مدينة أبوظبي المحافظة، وليس في بيروت أو القاهرة أو الدار البيضاء، حيث الإحساس بالحرج أو التحفظ يتبخّر مع البراغماتية الشامية أو المغربية.

واحدٌ فقط من الضيوف الستة حولي أبدى اِستعداده للكلام والدردشة، وكان الضيف البشوش الوحيد بينهم! فحتى المهندس غسان بدا، هو الآخر، عابساً كما لو كان عليه إعادة هندسة الكون في تلك الليلة؟ سألتُ الرجل البشوش عن جنسيته بغطرسة المغرور ونشوة المخمور. فردّ عليّ بكل أدب ولياقة قائلاً: "أنا من البلد الفلاني". هنا - ولأسباب تتعلق بكمية الكحول في بدني - بدأت أُقهقه ساخراً ، كما لو كان بلده أضحكوة بين الأمم! فقلتُ له مؤكداً اِنطباعي: "أنت فلّاح حقيقي إذن، أليس كذلك؟". بلده مشهور عالمياً بالمزارع والأبقار والزرائب والخرفان والأسماك والألبان. كان الرجل خمسينياً دمثاً ومهذباً للغاية. ولم يَبدُ عليه أنه اِنزعج من قلة حيائي أو نبرتي المتعالية. طبعاً أنا لم أقصد الغطرسة بمعناها الحقيقي، ولم أتعمّد السخرية والإستفزاز. جلّ ما قصدته اِستدراج بقية الجالسين إلى دردشتنا من أجل الحوار والتسلية في الأجواء الساحرة.

وعلى اِستخفافي وقهقهتي، جاء دوره، فسألني عن هويتي وبلدي! لكن تلك كانت فرصتي، وذلك كان ملعبي، فسارعتُ لأبهره وأزيد من حيرته، وقلتُ له أني "كنعاني" أصيل، ثم استرسلتُ لألفت نظره أني

فينيقي ولست عربياً. كان غرضي أن أحتمي بالمداعبة على الطريقة اللبنانية لأخبره عن عظمة الفينيقيين، ولأزعم له أنهم أفضل "عرقاً "وأكثر ثقافة وحضارة من "العرب البدو". هذا، مع العلّم أني كنتُ أعلم سلفاً أن الفينيقيين كانوا مجرد أقوام متنوعة من أصول كنعانية وعربية ويمنية. وهنا استرسلت وأخبرته بالقصة النمطية المعروفة أن ما يميز الفينقيين عن أقوام المنطقة عموماً أنهم كانوا مجموعات "حكام-مدن" أبرعوا في التجارة والمقايضة، ومنهم من تاجر مع داود وسليمان والفراعنة والإغريق. وبسبب شهرتهم بإنتاج صبغة الأرجوان من محار "الميوركس"، أطلق اليونانيون عليهم التسمية الفينيقية بالنظر إلى أن كلمة "فوينيكس" عند اليونانيين تعني أرجوان. وقبل أن أدع الرجل يتفّوه بحرف واحد، أكدتُ له أننا أسياد البحر الأبيض المتوسط، وقد اِمتدت مستعمراتنا من قبرص وكريت وسردينيا إلى قرطاج ومالطا وقادش، وحتى إلى سواحل أميركا نفسها - على المبالغة اللبنانية. وفي السياق أيضاً، أكدت له أنه، وبعكس المصريين والأشوريين والأكاديين، فإن "أجدادي" الفينيقيين، كانوا بحّارة مهرة، اِنشغلوا في البحر عن كتابة أي شيء على الأرض. فكانوا دوماً مشغولين بالرياح والأعاصير والأمواج، ولم يتسنَ لهم أن يتركوا لنا أي كتابات أو أساطير أو ملاحم تؤكد بطولاتهم، وذلك على الرغم من اِختراعهم الأبجدية كما نعرفها اليوم. وأتحفته بالرواية الشهيرة عن النقش الوحيد الذي وجدناه للفينيقيين في لبنان، وكان بمثابة شتيمة قانونية مقتضبة نُقشت على قبر الملك أحيرام. وبالمقابل، أكدتُ له أن العرب، رغم بداوتهم في صحراء الجزيرة، تركوا لنا أكثر من 1500 نقش ثمودي كتحفة ثقافية بارعة عن تراثهم.

كان الرجل ينصتُ إليّ كما لو كان يسمع عن الفينيقيين لأول مرّة في حياته؟ وكان يحدّق بوجهي وكأني مرجعية أكاديمية عالمية عن تاريخ الشرق الأدنى. أتحفته بتفاصيل لا حصر لها عن الشرق الأوسط وعن

تركيبة المنطقة الحضارية اِبتداء من السومريين في وادي الرافدين، مروراً بالحثيين في الأناضول، وحتى المصريين. والموضوع التاريخي برمته هو أصلاً ملعبي الطبيعي ومجال إهتمامي ومتابعتي الأساسية! لم يبق شيء لم أحدثه عنه إلى درجة أنني مَللت من نفسي، فاِضطررت إلى التوقف مرغماً. وفي هذه الأثناء كانت كلمة رئيسنا قد اِنتهت - لكن لا أحد اِستطاع سماعها جيداً لأنها تلاشت على شطّ البحر بِاتجاه الريح المعاكس! ومع اِقتراب العرض الترفيهي إلى نهايته قبل منتصف الليل، ودّعنا بعضنا البعض على أمل اللقاء في اليوم التالي. كان مقرراً للمؤتمر أن ينتقل من أبو ظبي إلى فندق "برج العرب" الشهير في دبي..

إنشقي يا أرض وابلعيني؟

وعلى الموعد في العاشرة صباحاً من اليوم التالي، كان خطباء المؤتمر قد نُقلوا مسافة 130 كيلومتراً للبدء بمناقشة تحديات مستقبل التكنولوجيا ووضع التوصيات اللازمة. يومها كان "برج العرب" أفخم فندق في دبي قاطبة، ومَعلماً من معالم المدينة قبل بناء "برج خليفة" بـ 5 سنوات. وبعكس ليلة الإفتتاح، كنتُ تلك المرّة مدعواً رسمياً للحضور، وشعرتُ بالراحة التامة والثقة المطلقة، خاصة أن "كليات التقنية العليا"، وهي أكبر مؤسسة تعليمية تطبيقية لتكنولوجيا المعلومات في الإمارات، وراعية المؤتمر، كانت من أهم عملائي الحكوميين في البلد وتربطني بمدراء أقسامها علاقة قوية وودية. كان الوزير الشيخ المعني هو الذي يدير جدول الأعمال وينسق مباشرة مع الخطباء. وأين في القاعة غير الصفّ الأمامي كنتُ سأختار مقعدي؟ ربما لأني كنتُ مستقوياً برئيس شركتنا، وكان أحد الخطباء للمرّة الثانية، أو ربما لأني كنتُ في ذلك الوقت قد تجاوزتُ الخمسين توّي،

ولم يكن لدي ما أخسره بالمرّة - (كما توهمت)! فرتبتُ قعدتي وأرخيتُ جسدي بثقة وكبرياء بين الحضور، وكانوا صفوة مختارة من كبار العلماء والرواد وأصحاب الشركات. ومَن يا ترى كان يجلس على جانبي الأيمن غير رائد الفضاء الأسمر تشارلز بولدن نفسه؟ فكانت لي معه دردشة عن "ناسا" والنجوم ودرب التبّانة، وأسعفني يومها بتوقيعه (أتوغراف) على بطاقتي الشخصية بحجة أن الأتوغراف كان هدية مني لأبنتي أثينا في عيد ميلادها الرابع عشر! أما على جانبي الأيسر، فكان يجلس "السير" (الفارس) تاري ماثيو، صاحب سلسلة شركات تكنولوجيا عالمية، وكان حديثي معه عن الشركة التي كنتُ أرأسها له في دبي!

صعد الشيخ الوزير على المنصة ورحّب بالحاضرين نيابة عن دولة الإمارات، وإستفسرهم عن سهرة الإفتتاح، وكان بعضهم ما يزال يستفيق من فخامتها. عرض برنامج المُنتدى وتمنّى لهم مؤتمراً مثمراً ووعدهم بوليمة غداء في قصر الإمارة بضيافة حاكم دبي. وقبل إنهاء كلمته، كان عليه أن يقدّم لنا أول خطيب محاضر، فقال: "سيداتي سادتي، يسرّني جداً ويشرفني كثيراً بكل فخر وإعتزاز أن أقدّم لكم خطيبكم الأول، دولة رئيس وزراء نيوزيلندا الأسبق، الأستاذ مايك مور. إن دولته سياسي مخضرم، وله مكانة مرموقة وسجل حافل بالإنجازات العمرانية في بلاده". في تلك الأثناء، كان رئيس الوزراء العتيد ينتظر دوره للظهور من خلف الكواليس. وما إن طلّ من وراء الستارة وتقدم إلى المنصة حتى صُعقتُ بملامحه المألوفة وإبتسامته المعهودة! يا للمصيبة، يا للهول، ويا إلهي! أليس هذا نفسه مَن سخرتُ منه ليلة الأمس ونعتّه بالفلّاح الوضيع ووصفتُ بلاده بالزريبة؟ أليس هو نفسه مَن ناظرته بالتحضّر والتاريخ والجغرافيا وشؤون الشرق

الأدني وقصص الأوّلين وعظمة الفينيقيين؟ "إنشقّي يا أرض وإبلعيني، إلى أين أهرب يا ربي، وإين إختبأ"!

ومع تلك الفضيحة أخذتُ أُزلق نفسي وأحني رقبتي وأتخفّي وراء ملف كان بيدي! لكن أين المفر؟ أين أختفي من الرجل ومن خجلي؟ فللحظة تمنيّتُ لو أن هزة أرضية ضربتنا وغيّرت أمكنتا بحيث يضيع الزمن، فلا أرى الرجل ولا يراني. لكن كيف ذلك وقد كنتُ على مدّ ذراع منه؟ يا له من تحوّل غريب للأحداث؟ يا له من قدر؟ يا لها من فضيحة؟ كنتُ واثقاً لو أن عُشر ما قلته بالأمس كان موجهاً لوزير عربي سابق، ناهيكم عن رئيس وزراء، لكنت سُحلتُ في شوارع أبوظبي أو جُرجرت إلى أحد سجونها! لم يبق أمامي سوى أن أغطي وجهي وأدعو الله أن يمنحني شيئاً من حكمة ونتفة من لباقة للتعبير له عن خجلي وندمي.

بإبتسامته الهادئة، أخذ رئيس الوزراء الميكروفون من الشيخ وقال: "أشكرك معالي الوزير على تقديمك السخي. صباح الخير أصحاب المعالي، أيها الحضور الكريم – سيداتي وسادتي. إنني أشعر بسعادة غامرة وفرح عظيم لوجودي هنا بينكم في الإمارات العربية المتحدة لأول مرّة، (هنا نظرَ إليّ من طرف عينه وإبتسم إبتسامة ذكية مُطمئِنة كما لو أراد القول "لا تقلق يا عزيزي"). ثم إستطرد قائلاً: "بداية عليّ الإعتراف أن ما تعلّمته عن منطقة الشرق الأوسط ليلة أمس كان أكثر مما كنت عرفته عنها طوال فترة ولايتي كرئيس للوزراء. فمن حسن حظي أني إلتقيت "خبيراً" شغوفاً ملماً بشؤون المنطقة، وكان حريصاً على إتحافي بتاريخ الشرق إلى درجة أنه شرح تسلسل الأحداث والحضارات بأسلوب شيق ومستفيض"..

***

يا له من رجل... حكمته خففت عني وجع الحرج ورطبّت الأجواء في خلدي وأراحت بالي من الدوران. اِرتفع قدره بعينيّ، ليس لأنه كان رئيس وزراء، بل لأنه كان عفوياً متواضعاً. كان بِاستطاعته في الليلة الأسبق (لو أراد) أن يتوقف عن الكلام بقدره ومقامه، أو أن يضع حداً لسردياتي وبطولاتي. يا إلهي، كيف تركني أقصّ عليه روايات "ألف ليلة وليلة"، وكيف سمح لي بمواصلة سرد أساطير الأوّلين عن نبوخذ نصر وحمورابي، وعن سليمان وبلقيس، وعن أخناتون والهكسوس، وطروادة وأوغاريت؟ كنتُ أراهن بذهني أن دولته الزراعية نيوزيلندا التي تقع في آخر العالم، لم تكن لديها تفاعلات ثقافية مباشرة مع الشرق الأوسط! موقفه معي كان نبيلاً شجاعاً واثقاً، وقد علّمني كم كنتُ محتاجاً للعلم وساذجاً بمعيار التواضع والتجارب..

وأثناء الإستراحة، توجّهتُ على الفور إلى الحمّام، غسلتُ وجهي من آثار الحرج والخجل، ثم خرجتُ مباشرة إلى حيث كان رئيس الوزراء واقفاً، فنظرتُ في عينيه وقلت: "دولة الرئيس، أنا في حيرة من أمري، لا أعرف من أين أبدأ وماذا أقول! أشعر بحرج شديد وخجل مؤلم من الطريقة التي تحدثت معك بها بالأمس، خاصة فيما يتعلق ببلدك. لا بد أني أكثرت من الشرب على غير عادتي". بادرني بقمة اللياقة والحصافة وقال: "لا داعي للاِعتذار، فقد كنتَ بارعاً على طبيعتك. حاول أن تحافظ عليها ولا تتصنع! طبيعتك جميلة ومليئة بالشغف والإثارة". واِستطرد كلامه مُثنياً: "كانت الأمسية رائعة لأنك كنتُ متمكناً من معلوماتك وعفوياً". ولدهشتي العظيمة، مدّ يده إلى جيبه وسلّمني بطاقته التعريفية الشخصية ولم يكن عليها غير اسمه ورقم هاتفه فقط. لا معالي، ولا دكتور، ولا دولة، ولا عنوان ولا حتى رقم فاكس. كانت أول بطاقة شخصية اِستلمها من أحد في حياتي بدون بيانات شخصية!؟ أنهى حديثه معي ببشاشة وقال: "لا تتردد في

الإتصال بي مستقبلاً إذا اِحتجت إلى خطيب في مناسبات مشابهة".
هنا فقط اِستدركت أمرين في غاية الأهمية: الأول أن رئيس الوزراء ربما ظنّ أني كنتُ مساعداً شخصياً للشيخ الإماراتي صاحب الدعوة، بالنظر إلى ثقتي بنفسي من جهة، وقرب طاولتنا من طاولته وتفاعلاتي مع الجميع من جهة أخرى. الأمر الثاني أن صمت الحضور على طاولتنا طيلة أمسية أبو ظبي ربما كان يوشي بوجود رجال أمن أو حراسة بينهم، فلم يكن مناسباً لهم الإنخراط معنا في النقاش.. وإذا كانت هناك دروس تعلمتها من التجربة حقاً، فإني لم أعد من يومها أجلس في الصفوف الأمامية في أي مكان عام، ولم أعد أتفوّه بكلمة عن تاريخ أو حضارة أو مجرّة إلى أحد لا أعرفه. فقد صرتُ أتحفّظ جداً إلى درجة أنني أصبحتُ بعدها أتعمّد عدم الإقتراب من أي وزير، أو رائد فضاء، أو رئيس، أو شيخ، أو كاهن، أو قاض، أو أي شخص يمثّل مصلحة عامة في أي بلد كان، بإستثناء المخاتير ونواطير الكروم وبوابي العمارات..

وبعد بضع سنوات على المؤتمر، كُتب لي أن أزور نيوزيلندا مع خطيبتي آنيتا، فكانت عطلة ممتعة! تعلّمتُ فيها عن تاريخ نيوزيلندا وتراثها ما لا نجده ونتعلمه في الكتب.

ذكريات خالدة!

عندما وقع المحظور وحصل الطلاق، كانت ابنتي الكبرى "برلينا" في السابعة من عمرها والصغرى "أثينا" في الخامسة. وبعد مفاوضات عبثية مع الأمّ، قررتُ أن يكون الأحد من كل أسبوع مخصصاً للزيارة المنتظمة. وعلى طريقتي الخاصة، أردته أن يكون أكثر من يوم عادي للطبخ، أو السينما، أو التسوق. كان من الصعب عليّ الموازنة بين اِستمتاع اللحظة العابرة معهما، وبين خلق أثر يحفر

في ذاكرتهما مدى العمر. إذ إن عقول الأطفال تعمل بطرق عجيبة تختلف من طفل لآخر ولا تسجل في الذاكرة إلا ما يحتاجه للحياة فيما بعد. فمثلاً، ليس كل ما حفظته في ذاكرتي عن طفولتي مع أخي حفظه هو بالضرورة! كلانا لديه ذاكرة تخصّه وحده ولها شخصيتها وإستقلالها. وعادة ما تطمس ذاكراتنا أحداثاً أليمة أو تلغي وقائع تافهة أو تشوّهها. وأغلب الظن أن أدمغتنا لا تعمل مثل آلات التسجيل، أي لا يمكننا إستعادة الذكريات عند الطلب، بل تعمل مثل التلفزيون تصلها الذكريات مستقلةً من بواعث الإرسال. وجلّ ما أردته لبرلينا وأثينا أن تدوم ذاكرتهما معي عن أيام الأحد أطول من ذاكرتهما مع أي شخص آخر. كنت متوجساً من المنافسة مع أحد، وكان عليّ السير معهما بحذر شديد لأن ما نُجبر على حفظه بالصغر قد ننساه في الكبر..

لذلك تخليّت معهما عن معظم الأنشطة النمطية، كالباربكيو والسينما والبولينغ والسباحة والتسوّق وما شابه.. ذلك أن وقت الزيارة كان قصيراً لا يتعدى ساعات قليلة من العاشرة صباحاً إلى السادسة مساء. فقررت التركيز على أنشطة مميزة فقط، كالمعارض الإستثنائية والسيركات البهلوانية والمسرحيات الموسيقية! كان تحقيق الترفيه المثالي معهما يتطلب الكثير من عناء التفكير والتخطيط والحجوزات المسبقة. وإذا سألتهما اليوم عن ذكرياتهما معي عن تلك الحقبة الصعبة من حياتنا، لوجدتهما تتذكران أشياء إستثنائية صاخبة، كحفلة للمغنية "سيلين دي يون" مثلاً، ومسرحية "سندريلا على الثلج"، و"الجميلة والوحش"، و"بحيرة البجع"، و"الأسد الملك"، و"سيرك دو سوليه"، و"البؤساء"، وغيرها الكثير الكثير مما كان متاحاً في لندن آنذاك. أما مراودة المتاحف والمعارض وزيارة الأصدقاء والتسوّق، فلم تحفر عميقاً في الذاكرة لأنها كانت دائماً مكررة ومتاحة دون عناء أو حجوزات مسبقة. ومع ذلك، كنتُ أتعمّد إختلاق شيء مميز، أو

"مقزز"، أو مبدع، ليبقى مستقراً في عمق الذاكرة. وهنا أتذكر أننا مرّة كنا في متاجر *Selfridges* بوسط أوكسفورد، حيث كنا نقصده خصيصاً لتناول شرائح اللحم المسلوق المملح (*Salt Beef*) مع مُخلّل الخيار الإنجليزي والخردل الفرنسي. وبعد تناول الغداء، كنا نتوجّه مباشرة إلى قسم العطور، ثم إلى مكتبة المتجر حيث نطالع فيها كتب الأطفال والبنات الصغار وصور الأزياء والموضة. وفي إحدى المرّات تقصّدت المزاح وإبتعدت عن نظرهما برهة. فإذا بمذياع المتجر يلعلّع في الصالات وينادي عليهما بالاسم، ويطلب من برلينا أميلي وأثينا أميلي التوجّه فوراً إلى منصة الإستعلامات! وقبل أن تتحركا بأي إتجاه، "قفزتُ" أمامهما مُقهقهاً، وكانتا أصلاً تحت نظري من الأساس. كادتا تبكيان من شدة الإرتباك والخجل، لا سيما أنها كانت أول مرّة في حياتهما تسمعان إسميهما معاً بمكبرات الصوت في مكان عام. كان ذلك بذاته غرضي من المزحة في المقام الأول لحفر مكانة لائقة في الذاكرة. يومها كرهتني برلينا بطريقة مختلفة عن كره أثينا. الأولى حقدت عليّ طويلاً وعميقاً، والثانية سامحتني بعد أسبوع! لكنهما الآن تتذكران مزحتي ليس فقط بفرح وتفهم، بل أيضاً بإعجاب وحنين. ولغاية اليوم، كلما إجتمعت معهما في لندن، تتبعنا خطى ذكرياتنا في المتجر ووقفنا على الأطلال عند سندويتشات اللحم وقسم العطور والمكتبة.

إنْ غبتَ عني، فنورك معي!

وهكذا، كانت تنجح خططي في النقش على الذاكرة وتصمد أمام إختبار الزمن! ومع ذلك، أردت لبرلينا (الكبيرة) ذكرى خالدة تلازمها كالظل رغماً عنها. وهكذا، في مرّة من المرات، أرسلتُ لها بمناسبة عيد ميلادها، هدية أسطورية لا يمكن أن تنساها، حتى وإن أُصيبتْ

بالزهايمر. وعندما تسلمتها بالبريد السريع، بَكتْ بكاء المغدور من شدة الغضب وخيبة الأمل ومن قدر غبائي ودرجة اِستهتاري. ووصل غضبها إلى حد أنها لم تجرؤ على البوح بهديتها لأعز أصدقائها في المدرسة تجنباً للسخرية والتنمّر. أرسلتُ لها بفخر واِعتزاز سنداً شرعياً لمُلكية قطعة أرض كبيرة رائعة. ولعلّ أجمل ما فيها أنها تطلّ على منظر رائع لا أحد غيرها يراه ويتمتع به. وقطعة الأرض هذه تبعد عن الكرة الأرضية قرابة 400 ألف كلم من الجهة الأقرب إلينا. وهي تقع على سطح القمر بالتحديد، وكنتُ قد اِشتريتها من موقع رسمي على الإنترنت يرعاه الكونغرس الأميركي نفسه! سند الملكية كان "شرعياً" ومصحوباً بأسطوانة مدمجة عليها موقع قطعة الأرض وطبوغرافيتها مع دليل مسهب عن تاريخ القمر وسجله مع البشر. ولما رأيتُ برلينا بعد ذلك بأسبوع، وكانتْ ما تزال تستشاط غضباً، صرخت بوجهي وقالت إنها تخجل أن أكون والدها، بل رفضت أن تكلمني لفترة طويلة. بيد أنها اليوم لا ترى القمر إلا من خلال هذه الذكرى، ولا تفوّت فرصة مع أصدقائها إلا وتحدثتْ عن "أرضها" على القمر بفخر واِعتزاز. ولعلّ أهم شيء من هذه الذكرى أن برلينا ترى في طلّات القمر المستمرة وجهي البشوش أينما ذهبتْ في العالم. وهكذا، صار لسان حالها لي :"إن غبتَ عني يا أبي، فنورك معي"....

أما أثينا، فتلقتْ مني مرّة هدية بمناسبة عيد ميلادها جعلتها تكرهني كره العمى لفترة طويلة! لكنها إلى اليوم لا تنسى تلك المناسبة، ولا توفّر مناسبة دون المرور عليها أينما كانت. يومها أرسلتُ لها بالبريد السريع أيضاً "ألبوماً" من الصوّر الملونة البديعة تعكس مراحل عمرية مختلفة لحمار وحشي صغير اسمه "كوكو"، مع شهادة التبنّي الشرعية. فقد اِخترته لها من جمعية الرفق بالحيوان الدولية ليكون "ابنها" الرسمي بالتبنّي. كان الخيار بإلقاء رعاية كرّ يتيم على عاتقها

ضرباً من الخبل - حسب اِعتقاد معارفي وأصدقائي، لا سيما أن أثينا لم تكن قد تجاوزت عيدها الـ 14. أما بالنسبة لي، فقد كان الحمار أذكى من كل معارفي لأنه حفر في ذاكراتهم جميعاً وربطني بأثينا مدى العمر. ومع أن صديقاتها في المدرسة تنمرّن عليها وسخرن منها بسببي، إلا أنها اليوم لا تبدّل ذاكرتها عن الحمار بأي حيوان آخر رغم أن صوته أنكر الأصوات قاطبة! ولقد رأيتُ بنفسي فرحتها عارمة عندما شاهدتْ حماراً وحيداً في أحد أحياء صقيلية أثناء عطلة لنا هناك، فهرولتْ نحوه وكادت تحضنه كاِحتضانها لأبيها بعد غياب! أما على الجانب الأقل حرجاً، فكنتُ أهديهما أشياء ذات قيمة معنوية وفي غاية الأهمية لكن لم تترك أثراً في ذاكرتهما على الإطلاق، مثل تواقيع شخصيات مُهمة، كرائد فضاء، أو مطربين عالميين *Spice Girls*، أو حتى كتوقيع كاتبة قصص هاري بوتر *J.K. Rowling*.

تلك كانت بضعة نماذج مما خططتُ له وأرهقتُ نفسي لتحقيقه رغم معرفتي سلفاً بغضبهما أحياناً وخجلهما من تصرفاتي أمام الجميع. لكن كيف أكون أنا أنا، إذا لم أكن على سجيتي وطبيعتي معهما؟ طبيعة متهكمة ساخرة مختلفة عن طبائع سائر الآباء، لا سيما أنه لم يُكتب لنا أن نعيش ونكبر معاً كما يعيش ويكبر الأب مع أولاده! المفارقة في مثل هذه الهدايا البُدع أن الغربيين هم مَن يفكرون بها ويروّجون لها على مستوى العالم. فهم لم يتركوا شيئاً إلا وخلقوا له مناسبة ووجدوا له قيمة مادية وباعوه. فحتى الهواء (حرفياً)، وضعوه في عبوات فارغة وكتبوا عليها شعارات رومانسية، مثلاً، "هواء هاواي" و"هواء كاليفورنيا" و"هواء القدس" و"هواء الفاتيكان" و"هواء لبنان"، أو "مياه من نهر الأردن" و"تربة من أرض القديسة فاطمة" و"بحص من حائط برلين" و"خشبة من سفينة نوح".. إنهم سماسرة دجالون حرامية، لم يكتفوا بالهواء على الأرض والقمر في السماء، بل صاروا اليوم يبيعون النجوم في المجرات ويطلقون أسماء الراغبين

بإمتلاكها مقابل أثمان وترتيبات وهمية "تشرّعها" شركات غربية من داخل "المؤسسة". ومن يدري، فلربما يأتي يوم يبيعون فيه أسماء البراكين أو تسميات الأعاصير والزلازل وحرائق الغابات!

اِصطياد الذكريات

وعلى هذا المنوال من الفكر الخنفشاري، كنتُ مستميتاً مرّة لخلق شيء مميز لبرلينا وأثينا في إحدى العطلات السنوية. كانتا في العام 2008م قد دخلتا مرحلة الصبا والمراهقة من الباب العريض. برلينا كانت في الثامنة عشرة، وأثينا على وشك السادسة عشرة. وقد احترت يومها أين أقضي العطلة معهما بحيث تنال نصيبها من الحفر بالذاكرة، خاصة أننا اِختبرنا من قبل رحلة ممتعة على أكبر سفن العالم خارج الكاريبي. تلك كانت أول تجربة "كروز" لهما على طول المتوسط، وقد حفرتْ في ذاكرتهما صوراً بديعة متنوعة عن جبل طارق، وسردينيا، وروما، والفاتيكان، والبرج المائل، وصقيلية، ومالطة، وغيرها، فضلاً عن ذكريات الباخرة نفسها، والديسكوات، والمقاهي وصالات القمار. تلك أيضاً كانت أول مرّة لهما تشاهدان فيها والدهما يقامر كالمتمرسين على طاولة الروليت! ذاك المشهد بحد ذاته كان غرضي من التجربة أمامهما، كي لا يحظى بها غيري معهما! في تلك الليلة خسرتُ "خرجيتي"، لكن زعمتُ الربح أمامهما وكسبتُ مطرحاً جديداً في الذاكرة!

وهكذا كنتُ في ذلك الصيف أبحث في فكري عن عطلة مميزة. وكعادتي مع بالونات الإختبار، اِستطلعت أصدقائي وزملائي. كلهم كانوا متزوجين يتمتعون بحياة تقليدية ذات عطلات كلاسيكية، إما تزلجاً في فصل الشتاء أو سباحة في الصيف! لم يكن بين أصدقائي مّن قدم لي أفكاراً غريبة أو مميزة أو مختلفة. وحتى وكالات السفر

العالمية، كانت برامجها تدوّر حول العائلات التقليدية والأماكن النمطية المستهلكة، التي يؤمّها مئات الآلاف على طريقة القطعان..

***

أخيراً طلع برأسي القيام برحلة عبر الزمن إلى حضارات الشرق الأدنى القديمة. كانت خطتي تقوم على لقائهما في بيروت أولاً، ثم القيادة منها بالسيارة إلى دمشق وعمان وبغداد، ثم العودة منها إلى بيروت عن طريق تدمر. وقبل عرض الفكرة عليهما، أبدى أعزّ أصدقائي السوريين اِعتراضه على الفكرة بشدة، وقال ما مفاده إن المشوار ليس نزهة، بل مخاطرة مجنونة؛ ذلك أن الرحلة - بنظره - خطرة جداً ليس فقط لأنها تنطوي على الكثير من القيادة لمسافات طويلة على طرق صحراوية يعترضها قُطّاع طرق وبدو وجمال شاردة، لكن أيضاً لأن الطرق العربية السريعة تفتقر إلى اِستراحات عصرية وتسهيلات حضارية، لا سيّما بالنظر إلى طبيعتنا الحرّة وألبستنا المتحررة في الأجواء الحارة. وهكذا، طار المشروع من أصله، فقررت بدلاً عنه القيام بإستكشاف جبال لبنان والتجوّل بربوعه والتخييم في ظلال أشجار الصنوبر والسنديان. الفكرة كانت بيئية رومانسية جيدة وأعجبتني، خاصة أنني كنتُ أعرف لبنان جيداً قبل الإغتراب، ناهكيم أن طقسه بديع وهواءه نقي منعش، بعيداً عن ضوضاء المدن. كانت فكرة النوم في العراء بحراسة النجوم مغرية بذاتها. صحيح أنني لم أتوهم لحظة أني كنت سأتسلق جبالاً عالية، لكن لم يخطر على بالي أن تسلق الجبال في لبنان كان أخطر من تسلق هيمالايا نفسها! وعند التوسع بتفاصيل المشروع، اِكتشفت أننا كنا بحاجة إلى تصاريح مرور خاصة من السلطات البلدية والعسكرية في لبنان. إذ إن الجبال في لبنان مليئة بمناطق جردية ملتبسة الملكية بين أمراء الحرب الدروز والمسيحيين، وبالتالي، فهي مزروعة بالألغام

منذ أيام الحرب الأهلية. وحتى لو كنا تجاهلنا براري جبل لبنان وتوجهنا جنوباً، فإن الوضع هناك كان سيكون أسوأ بكثير بسبب ألغام التنازع بين إسرائيل والفلسطينيين وحزب الله. كان من الصعب عليّ تخيل وجود 400,000 قطعة لغمية متناثرة في الجنوب عبر الخط الأزرق وحده!

عالم ملغوم

مشروع السياحة على الأقدام *(Hiking)* في جبال لبنان كان أمراً خطيراً. فقد أعاد إلى ذاكرتي ما كنتُ أشاهده على التلفزيون البريطاني (1996/7م) من تنقلات الأميرة ديانا بمناطق الألغام في العالم. يومها كانت سفيرة النوايا الحسنة وتروّج لمبادرات محاربة زرع الألغام وإزالتها بصفتها الأممية. كان موقع ديانا في العائلة المالكة البريطانية مثالياً للمهمة ومحطّ إعجاب الخيّريين وأصحاب الضمائر الحيّة. أما معارضو مبادراتها، فكانوا مصنّعي الألغام في الغرب والشرق على حد سواء. جميعهم كانوا منخرطين بجرائم الإبادة، رغم أنف القيم والأخلاق وحقوق الإنسان. ومناطق اِنتشار الألغام التقليدية يومها شملتْ الصحراء الغربية وسوريا وأفغانستان وإيران والصومال والبوسنة والهرسك وكمبوديا واليمن والعراق. أما اليوم، فأُضيفت إليها غزة وليبيا وإيران وأوكرانيا وأرتريا وروندا وتشاد. إنه عالم مُشوّه مزروع بالألغام والهموم والجنون، لا سيما أن كل بلد من هذه البلدان فيه ملايين من جميع أنواع الألغام والأحجام؟ فالعراق وحده، مثلاً، يُعدّ أكثر دول العالم كثافة بالألغام المتبقية من حروبه مع الأميركيين والأكراد والإيرانيين والأتراك و"داعش". والولايات المتحدة وحدها زرعتْ حوالي 118000 لغم لإستخدامات متعددة ضد الأفراد والمركبات خلال حرب الخليج. وما زال الكثير من ضحايا الألغام يعاني من عواقب الآثار الإشعاعية الخطيرة رغم صمت

المنظمات الدولية. السؤال الجدّي، هل غزا الأميركيون العراق لحماية الناس من صدّام، أم لزرع العراق بالألغام، أم للتخلّص من حضارته، أم لتقسيمه؟ إنك مع الغرب لا تعرف المآرب الحقيقية، لكن تعرف يقيناً أن الأغراض نفسها رذيلة بمجموعها.

وتعطلت العطلة...

فكرة الألغام كانت كافية لإقناعي بالتخلّي عن خطط *(Hiking)* والتخييم في ربوع لبنان. وبدلاً من ذلك، "سحبتُ" بناتي إلى دبي تمهيداً لعطلة بديلة. هناك على عشاء "رومانسي" وإبتسامات عريضة في الأمسية الأولى، أخبرتهما عن عطلة ساحرة تنتظرهما في اليوم التالي بجزيرة وسط المحيط. كان وقع الخبر عليهما مسرّاً ومفرحاً. وفي أمسية اليوم التالي، وجدنا أنفسنا في منتجع فاخر بضواحي "بورت لويس"، عاصمة موريشيوس. لكن ما إن دخلنا غرفنا ورتبنا حقائبنا حتى لاحظتُ أن شيئاً ما لم يكن على ما يرام (سَمّه ما شئت، سَمّه حدس أب)، إذ إن برلينا وأثينا فجأة غيّرتا نبرتهما معي ولم تعدا بشوشتين كما كانتا قبل ليلة في دبي؟ فجأة صارت تصرفاتهما مصطنعة ومُجاملة وغريبة. لاذتا بالصمت المريب كما لو أرادتا معاقبتي على شيء أجهله..

"حسناً، ما الأمر يا بنات؟". سألتهما وكنتُ مدركاً أنهما لن تكونا بوارد التعاون معي. أُصبتُ بخيبة أمل عظيمة لأنني أمضيت وقتاً ثميناً وبذلتُ جهداً كبيراً في إختيار تلك العطلة الفريدة وترتيب برنامجها! إعتقدت بداية أنني ربما أغضبتهما بسبب كثرة مكالماتي الهاتفية مع المكتب منذ أن غادرنا دبي! لكن أمري ذاك لم يكن جديداً عليهما، إذ لطالما كنتُ على الهاتف مع المكتب أو العملاء في العطلات السابقة، فما الفرق تلك المرّة؟ لا بد أن هناك سبباً آخر.. لوهلة تصوّرت أن

الأمر ربما كان يتعلق بأدائهما في المدرسة ونتائج نهاية السنة؟ فقد اِعتادتا في العطلات السابقة أن تُحضرا معهما تقاريرهما المدرسية، لكن ليس في تلك المرّة؟ هل تركتا الدراسة للعمل في بار أو مطعم أو ملهى ليلي؟ هل طلب زوج أمهما منهما ترك البيت والعيش معي في دبي، مثلاً؟ هل كانتا تَحِدّان على موت عزيز أو فراق حبيب؟ كان لديّ الكثير من الأسئلة، لكني خِفت من طرحها ولم أجرؤ حتى على المحاولة! كنتُ عازماً على أن تكون العطلة خالية من أي نغص وكدر. فتظاهرتُ بعدم الإكتراث وواصلت البرنامج كما لو أن شيئاً لم يكن! وكعادتي معهما، أردتُ الظهور بمظهر الأب البطل المطّلع على كل شيء المرتبط بتاريخ الأمم والبشرية. غرور أب مُطلّق وحيد كان يبحث في قلبيهما عن درهم إعجاب أو قرش اِستحسان أو شفقة عن فراق..

من الغرور ما قتل

هروباً من صمتهما القاتل، وخوفاً من نكش أشياء مكبوتة، قررتُ في الأثناء الإبتعاد عن أمورنا العائلية. أخذتُ أسرد لهما تاريخ العرب في موريشيوس، وأتفاخر كيف أن البدو من قلب الصحراء كانوا أول من اِكتشف الجزر منذ مئات السنين. وعلى طريقتي عندما أبدأ الكلام، غصتُ فيه إلى الجذور، وقلتُ لهما إن البرتغاليين، وإن كانوا أول من وضع وصفاً عاماً للجزر عام 1500م، إلا أن الجغرافي العربي الشهير الإدريسي، هو أول من رسم خريطة مفصلة لجزر "ماسكارين" الثلاث قبل البرتغاليين بثلاثة قرون. وقد اِستخدم لها اسماً إجمالياً موحداً هو "ديوان المحيط"، أو "وَقواق المحيط"، دلالة على موقعها وسط المحيط الهندي. لكن الإدريسي نفسه اِعتمد على اِكتشافات عربية قبله، بأمارة أسماء الجزر العربية الأصلية التي ما زالت قائمة حتى اليوم، وهي جزيرة "دِين المغربيين"، و"دِين العروبة"، و"دِين المشرقيين" (ريونيون، وموريشيوس،

ورودريغيز). ومع أن تاريخ الأحداث في المحيط الهندي نادراً ما يُنظر إليه بعيون عربية، إلا أنه من الصعب القبول بالزعم التلقائي أن العرب كانوا أول من اِكتشف الجزر عام 975 م. والدليل على ذلك نجده في الأسماء نفسها من خلال ظهور كلمة "دِين" في الجزر الثلاث! ما يعطي الإنطباع أن العرب عندما وصلوا إلى الجزر صنّفوها بناء على ديانة سكانها، أي المسيحيون (دين المغربيين)، والوثنيون غير المؤمنين (دين المشرقين)، والعرب المسلمون (دين العروبة). لكننا لا نعرف إذا ما كانت الجزر خالية أصلاً عند اِكتشافها، أو أن سكانها الأصليين كانوا وثنيين قبل وصول المسلمين والمسيحيين معاً..

وعلى الرغم من أن العرب كانوا خبراء في توظيف معارفهم الفلكية الصحراوية وقدموا مساهمات كبيرة في الملاحة البحرية إنطلاقاً من عُمان وبحر العرب واليمن، إلا أن بحّاراً عربياً واحداً فقط لمع في أفق أوروبا وبرز في سجلات الغرب. إنه أحمد بن ماجد، وهو وحده يوازي ماجلّان وماركو بولو وأميريغو فيسبوتشي مجتمعين. إذ خلال الحكم العثماني وسيطرة العثمانيين الكاملة على البحر الأبيض المتوسط عام 1480م، كان هذا الملّاح العُماني يبحر إلى موريشيوس والجزر المجاورة بشكل منتظم. ومن خلال تجاربه على الساحل الأفريقي الشرقي، كان هو أول من اِكتشف "الحيلة" البحرية للفّ حول رأس "الرجاء الصالح"، وموضحاً للبرتغاليين كيفية الإبحار من غرب أفريقيا إلى شرقها. الملفت فعلاً أن أحمد بن ماجد نفسه لم يكن يدرك أهمية اللفة حول رأس الرجاء، إنما كان بذلك يفتح الباب على مصراعيه للغربين لإستعمار جزر موريشيوس وشرق آسيا برمته. وحتى الأتراك أيضاً لم ينتبهوا في ذلك الوقت إلى خطورة الأمر إلا بعد أن تفاقم عليهم، خاصة أنه لم يكن لهم وجود عسكري في الجزر أصلاً. ولولا براعة أحمد بن ماجد وعفويته، لما تم غزو موريشيوس

من قبل "القراصنة" البرتغاليين والهولنديين والفرنسيين والبريطانيين تباعاً، قبل توحيدها وحصولها على الإستقلال عام 1968م ...

حفيد في المحيط!

رواياتي عن تاريخ العرب وبطولاتهم لم تثر إهتمام برلينا وأثينا. وقد بدتا كما لو كانتا تشفقان عليّ بسبب "حماسي للتراث العربي وعصبيتي للقبيلة". ورغم خيبة الأمل وتعكر المزاج، قصدنا بار المنتجع *Sunset Bar* لتناول أول كوكتيل معاً على شطّ المحيط الهندي! وبحلول الوقت الذي جلسنا فيه لتناول العشاء، بدأت ابنتي الصغرى، أثينا، تشعر بالأسف تجاهي والتعاطف معي بسبب تصرف اختها المريب! فإستغلت لحظة ذهاب اختها الكبرى إلى الحمام وهمست قائلة: "حبيبي بابا، أتأسف أنني لا أستطيع التدخل بينكما". وأردفتْ كلامها موضحة أن هناك أمراً في غاية الأهمية تريد برلينا شرحه لي في اليوم التالي. وكم حاولتُ إقناعها أن تشير عليّ ولو بنتفة صغيرة عن الموضوع، إلا أنها أبتْ أن تنكث وعدها لأختها بكتمان السرّ. أنهينا عشاءنا وتوجهنا إلى غرفنا، وما إن أوشكتُ على الدخول، حتى تقدمت برلينا مني وقالت: "إسمع يا بابا، لدي شيء مهم أريد قوله لك غداً على الإفطار، لكن أريدك أن تعدني أنك لن تغضب مني وتصرخ عليّ"! كنتُ مستعداً لأي شيء يريحها مما كان يُشغل بالها. كانت تلك واحدة من أطول ليالي حياتي، بل كانت أطول من تلك التي قضيتها بقطار الجحيم من تركيا إلى بلغاريا قبل ذلك بـ 34 عاماً! كنتُ قد تعلمّت جيداً أن لكل بداية نهاية، وأن الصبح قادم لا محالة!

في اليوم التالي، طلع الصبح عليّ متأخراً، فسارعت إلى قاعة الإفطار، ولم يكن قد وصلها أحد غيري. كانت تحضيرات "البوفية" قد إكتملت توّها وإمتدت على طول القاعة لتعكس أجواء المحيط حول

الجزر من كل الإتجاهات وتشمل كل ما يشتهيه النزيل. فالأطباق المعروضة كانت تحمل هويات مطابخ منوّعة من بقاع العالم. من مدغشقر وفيتنام وكمبوديا وزنجبار والصومال. وبالإضافة إلى المطبخ الأوروبي الكلاسيكي، كان هناك أيضاً خبز لبناني، وفلافل فلسطينية، وكوشري مصري، وفول مدمس على الطريقة السعودية مع الكمّون والدّقس، فضلاً عمّا وصفوه بـ"الحمّص الإسرائيلي" و"الطعمية الغزاوية". كان ذلك تزويراً ثقافياً في وسط المحيط الهندي بعيداً عن أعين خبراء الحضارات والتراث. من الواضح أن الحمّص ليس أصله إسرائيلي، لأن "الطحينة" في تَبْلَته لم تكن موجودة في زمن موسى! بل حتى إسرائيل نفسها لم تكن قد ظهرت إلى الوجود أصلاً، ولا الطعمية كانت قد اِستوردت من مصر وعُدّلت بما كان يناسب الذوق الكنعاني. ولولا السكك الحديدية التي مُدت بين القاهرة وحيفا وصولاً إلى بيروت وطرابلس ودمشق خلال الحرب العالمية الثانية، لما تسرّبت أطباق الطعمية والحمّص والفلافل والفول المدمس والملوخية، ولما اِنتشرت بنكهاتها المتنوعة على طول الطريق من دمشق إلى اليمن. ومن اليمن تحديداً، كان اليمنيون أول العرب الذين أدخلوا الفلافل وغيرها من الأطعمة إلى شرق آسيا من جهة، وإلى بريطانيا من جهة أخرى بسبب تجاراتهم القديمة مع الشرق وعلاقاتهم والوطيدة مع البريطانيين منذ أيام شركة الهند الشرقية عام 1840م.

***

اخترتُ قهوتي وانسحبتُ إلى طاولة تطلّ على المحيط مباشرة. وما هي إلا دقائق قليلة حتى طلّت برلينا وأثينا والعبسة واضحة على وجهيهما. صبّحاتاني بقبلة باردة بالكاد لامست شيئاً من خدّي. وبعد أن أحضرتا قهوتيهما، سألتني برلينا (الكبرى): "هل ما زلتَ على وعدك يا أبي؟"، وقبل أن تتأكد من ردّي أردفتْ: "أنا آسفة يا بابا لأنني مضطرة أن أبوح لك بما يثقل عليّ ويشغل بالي!". ثم تابعت

(بالحرف): "أنا أتوقع" (أو أنا مُتوقِعَة). ولوهلة لم أفهم ماذا كانت "تتوقع"؛ ذلك أن اللغة الإنجليزية، على بساطتها، مُربكة أحياناً لأن الكلمة وحدها، بعكس اللغة العربية، تحيّر ما لم تأت بسياق سليم يوضّح معناها؛ فعندما قالت لي أنها "تتوقع"، إنما كانت تقصد أنها كانت حاملاً وتتوقع طفلاً.. *(I am expecting)*. يا إلهي من صدمة! يا ربي لماذ تتحفني دائماً بمفاجآت صادمة؟ كان وقع الخبر عليّ أسوأ من وقع القنبلة على هيروشيما! وفي الأثناء أخفضتْ برلينا وأثينا رأسيهما وأخذتا تحدقان في الأرض، كما لو كانتا تراقبان نملة سليمان.

وقاحة برلينا أذهلتني، وكاد برود أعصابها يقتلني. وعلى الرغم من ذلك، لم أصرخ ولم ألعن ولم أنطق بحرف! قمتُ من بعضي، ووقفتُ وقفة المقهور بروية وهدوء، وتوجّهت رأساً إلى طاولة البوفيه. تناولتُ من جنبها صينية كبيرة وأخذتُ أضع فوقها أطباقاً من كل صنف، وحشرتُ عليها أكبر قدر ممكن من تنويعات الأكل، فضلاً عن الخبز والمعجنات والشوكولاته. وبنفس الهدوء والتأني، عدتُ إلى الطاولة وناولت برلينا الصينية بدفء وحنان وهمست بأذنها قائلاً: "تفضلي يا بابا، أنت الآن حامل وبحاجة إلى تغذية. لم تعودي وحدك، بل في أحشائك "ما" يحتاج إلى غذاء أيضاً".

لم أسألها عن هوية والد الجنين، ولا عن ظروف حملها، ولا عن شعورها تجاه الحمل أو أي شيء آخر. جلّ ما أردته لها في تلك اللحظة أن تتناول فطوراً جيداً. ذلك أن فكري لحظتئذ توقف عن التفكير البعيد، وخواطري عندها لم تخاطر بسؤال واحد إلى درجة أني لم ألتفتْ إلى أختها، أو أسألها إذا كانتْ حاملاً، هي الأخرى؟ لكني، كعربي غيّور صاحب "حمية وشرف وغيرة"، كان يفترض بي أن أسحب أقرب سكين على الطاولة، أو من البوفية، لأذبح برلينا من الوريد إلى الوريد

حسب "تراث" جرائم الشرف عندنا وأعراف التدنيس بالعفة. كان المفترض بتلك اللحظة أن تكون لحظة جنون وهستيريا وصراخ وغضب وفضيحة، وغسل عار "لحماية سمعتي وكرامتي وشرف العائلة والقبيلة وأفخاذها". غير أن شيئاً من ذلك لم يحصل ولم يخطر على بالي المُعطّل، ولا حرّك نكلة من وجداني المخدّر. كل ما فكّرت فيه، كأب، كيف أعتني بابنتي دون أن أضيف همّاً على همّها، أو أزيد من إحباطها وخيبة أملها. أردتُ فقط أن أكون بجانبها لأجلها، وأن أجعلها تشعر بدفء الحماية وحرارة الرعاية. أردتُ أن أكون سقفاً منيعاً لحمايتها من أي مكروه أو ضرر.. ومع أنني كنتُ شبه مغيّب من صدمة الخبر وجسامته، لكن كنتُ مدركاً لضرورة عدم التسبب لها بأي توتر إضافي تجنباً لأي مضاعفات. كان صبحاً أسود لا أتمنى مثله حتى لألد خصومي. ورغم شدة الوجع وخيبة الأمل، شكرتُ الله في خلدي أن المصيبة اِنحصرت بحمل بنت واحدة، وليست باثنتين، ولا بمخدرات، مثلاً، أو أي شيء خطير آخر، كالتورط بجريمة قتل، أو سرقة بنك، أو اِبتزاز أو ما شابه. أن تكون حبلى بدون زوج وبصحة جيدة مع طفلها، كان أرحم عليّ من أي جرم تحمل عواقبه على سجلها مدى الحياة. كل ما كنتُ أفكر فيه حقيقة أنها كانت ستصبح أماً بلا زوج، وستضاف إلى آلاف الأمّهات العازبات في بريطانيا حيث نسبتهن كانت الأعلى في أوروبا في تلك الأيام. ليس فقط أمّهات عازبات، لكن أيضاً أمهات عاطلات عن العمل. إنها شريحة كبيرة من المجتمع الغربي تنتجها ظروف صعبة، والمراهقات فيها يتعرضن لرفقة السوء والإغتصاب، أو تخلّى الآباء عنهن منذ الصغر سواء بسبب طلاق الأبوين أو لأسباب اِجتماعية أخرى. وفي سياق ذلك السرد أخذ ذهني يشطح إلى أمور لم أرغب التعرّج عليها والتفكير فيها؟ كانت برلينا مجرد رقم ضمن إحصائية أخرى في بحر من الأمّهات العازبات في الغرب. إنها مأساة اِجتماعية لكن المجتمعات

الغربية تعوّدت عليها والتكيّف مع عواقبها صراحة وعلناً. أما أنا، فلم أكن مؤهلاً للتعايش مع المصيبة لا علناً ولا سراً!

المسألة عند العرب وفي المجتمعات الشرقية مختلفة تماماً عن الغرب. فمن حيث المبدأ لا يسمح للأنثى في بلادنا التفكير في جسدها بمعزل عن دينها أو أبويها أو نظرة المجتمع إليها! والمرأة عندنا مطلوبة وليست طالبة، مأسورة وليست آسرة، وهي دائماً مِلك غيرها كواحدة من المقتنيات بالعموم. وهكذا يُعتبر المساس بها خارج مؤسسة الزواج أمراً جللاً من حيث التراث والتقاليد والعادات. لكن لست متأكداً لماذا ما يزال الرجال الشرقيون يرون الكون والنجوم والمجرات من خلال سيقان المرأة رغم ظهور "التيك توك" والذكاء الإصطناعي والتعرّي! الحقيقة المؤلمة أن الفلسفة اليونانية ومعظم الأديان هي السبب في خلق تلك الإشكالية الذكورية، إذ لطالما نُظر إلى النساء من منظار الكتب المقدسة والشرائع، وعوملن على أنهن مجرد متاع، بمعنى المتعة والأمتعة والتمتع والإمعان معاً منذ زمن البطريرك الأول إبراهيم. بيد أن الثقافة الغربية بدأت الآن تتجاوز أفكار الفلاسفة الإغريق وآراء إبراهيم كما يتضح من أعداد الأمّهات العازبات. المجتمعات الغربية سارت شوطاً طويلاً بعيداً عن فكرة "العائلة" لأن رعاية العائلة والحماية والصيانة جُيّرت إلى الدولة ولم تعد رهناً بعضلات الرجل أو مزاجه.. ثم إن تحرّر المرأة من براثن الرجل اِكتمل "بتآمر" حبة منع الحبل مع حق التصويت مع الإستقلال الإقتصادي من خلال عمل المرأة.. وهكذا لم يعد ينقص المرأة للنجوى إلا رغبتها الحقيقية بالمعاملة بالمثل مع الرجل، إذ من شأن ذلك أن يفقدها دور أنوثتها ويضنيها!!!!

ومع حبل ابنتي، نسيتُ موريشيوس ونسيتُ السياحة ونسيتُ حالي. غرقتُ في مياه المحيط الهندي وضاعتْ حياتي بين أمواجه. لكن سرعان ما نهضتُ من صدمتي، وانتقلتُ بسرعة البرق من ضفاف قلبي المجروح إلى جوانب عقلي المشوّش، وبدأتُ أفكر ضمراً

بحفيدي (الموعود)، أو حفيدتي، وبما يجب فعله لتخفيف الضرر وإحتواء العواقب. وفي الأثناء رفعتْ برلينا رأسها من الأرض فجأة وإلتفتتْ إليّ لترى ما إذا كنتُ بخير على وقع حملها! أرادتْ أن تُطمئِنُ نفسها أنني كنتُ على ما يرام ولن إنهار تحت عاقبة الخبر أو وطأة القلق. نظرات ثاقبة خاطفة تبادلناها عتباً وخيبة، وجاء دوري، فأخفضتُ رأسي بإتجاه الأرض وأخذتُ أبحثُ فيها عن شيء ينقذني من ورطتي.. فجأة مدّت يدها إلى كتفي وهزتني بشفقة وحنان وقالت: "بابا بابا إنها مزحة.. إنني أمزح معك لإختبر ردّ فعلك"." ماذا؟"، رفعتُ رأسي غير مذهول ولا مندهش، كما لو كنتُ لا أريد تصديقها؟ لا بل تمنيتُ في تلك اللحظة أن تكون حاملاً فعلاً، لأنه كان أسهل علي التعامل مع حَبلها، على تقبّل مزحتها المتهورة الثقيلة! ماذا لو كان قلبي يومها مثخناً بالأوجاع ومقفلاً بالسدود (كما صار فيما بعد)؟ لكنتُ من سماجة دعابتها قد فارقت الحياة بسكتة قلبية على جزيرة وسط المحيط الهندي! كنتُ لحظتها على وشك خنقها وخنق أختها أثينا شريكتها بالجريمة. "أنا آسفة يا بابا، جلّ ما أردناه أن نتسلّى معك (أو بك) في العطلة ونجعل منها لك ذكرى تحفر في رأسك المتعجرف كما كنتْ تفعل بنا عندما كنا صغاراً". شرحتْ برلينا موقفها، وكأني كنتُ مختبراً لأهوائها ومزاج أختها! أمضينا عطلة رائعة....

"أنا أفكر، إذن أنا جاهل"

في مطلع عام 2009م هاتفتني برلينا وطلبتْ مساعدة مني. كانت يومها تتابع بداية دراستها الجامعية في فرنسا. كانت سعيدة جداً بإستقلالها وبُعدها عن بريطانيا. قالت بحماس واضح وشغف أكيد: "بابا، أني أعدّ أطروحة عن ديكارت، وأود منك عندما أنهي مُسودة الخلاصة أن تلقي نظرة عليها قبل تقديمها بصيغتها النهائية". ثم إستطردت لتحذرني أنه لم يتبقَ أمامها سوى أسابيع قليلة لإكمال

المَهمة. وهكذا، تلقيتُ طلبها بفخر وإعتزاز واِعتبرته شهادة منها بجدارتي وثقتها بخبرتي من بين كل الناس. لا أخفي أن طلبها سرّني جداً وحمّسني لمساعدتها بطريقة لم يكن لأحد غيري أن يساعد بمثلها، لا سيما أنه كان طلبها الأول. وَعدتها بمراجعة المسودة وإبلاغها بملاحظاتي! بيد أني لم أكن أعرف عن ديكارت إلا اسمه وعنوان فلسفته. لكن بصرف النظر عن جهلي بأعماله وتحفظاتي عليه، كنتُ ملتزماً لابنتي بإبداء تعليقاتي الأمينة في الوقت المناسب.

لم يكن هناك مخرج من "المَهمة". فرأيت أن أدع تفاصيل مسودة ابنتي جانياً وأتوجّه مباشرة إلى "خلاصة حكمها" على مقولته الشهيرة "أنا أفكر، إذن أنا موجود". ومن سياق الخلاصة، كان واضحاً أنها اِستنتجتْ أن الرجل لم يكن فيلسوفاً فريداً، ولا اِستثنائياً، بل العكس، كان هناك غيره من الفلاسفة الذين طرقوا أفكاره قبله بصورة أو أخرى، بمن فيهم الإغريق والفرس - حسب تعبيرها. اِستنتاجها ذاك قدح في رأسي فكرة اِستغلال الفرصة، ليس فقط لأثبت أنها محقة بما توصلت إليه، وإنما لأبرهن لها أيضاً أن ديكارت أفندي كان مضيعة للوقت ومهزلة للعلّم والفلسفة! أردت لها أن تفهم مني أن فيلسوفها "نسّاخ" (دجّال)، وقد اِستعار أفكاره من الأسبقين، وكيّفها لتتناسب مع الطروحات الفرنسية على أيامه. كما أردتُ أن أبهرها بمعرفتي الفلسفية على طريقتي الفريدة الغريبة (؟)! وبدلاً من مصارحتها بعجزي عن مساعدتها بنقد أكاديمي منهجي رصين، قررتُ أن أقدم لها ملاحظاتي عن ديكارت مقارنة بمَن سبقوه من الفلاسفة بطريقة بيانية مرئية مبتكرة، بحيث أوفّر عليها الكثير من عناء القراءة والبحث والمقاربات. المسألة - على طريقتي - استدرجتني إلى مشروع ضخم انغمستُ بسببه في تواريخ قديمة وتفاصيل دقيقة ومعالم شهيرة. وهكذا اِستغرق الأمر معي وقتاً طويلاً من البحث الدؤوب والدراسة المعمّقة والرسم الدقيق. وقد اِستعملتُ في بحثي مراجع رقمية وألواناً زيتية

ورموزاً متنوعة لتحقيق الصورة النهائية المثلى. ولما اِكتملت رسمتي بعد أشهر طويلة وجهد عظيم، ظهرتْ لوحتي مهيبة على هيئة شجرة عملاقة بست قطع، قياسها الكلي 4X4 أمتار. المفارقة أن برلينا في ذلك الوقت كانت قد سلّمت أطروحتها وتخرّجت بإمتياز وعادت إلى بريطانيا لإكمال تخصصها الفلسفي.

شجرة الإنسانية!

"شجرتي"، بجوهرها، كانت بمثابة بوصلة علمية متكاملة. لم أُظهر فيها الروابط بين أهم الفلاسفة فحسب، بل أظهرتُ أيضاً علاقات الأشياء والمعالم بعضها ببعض عبر تاريخ البشرية قاطبة لغاية تاريخ رسمها عام 2009م. واِختصار الفائدة منها أنها تعطي الناظر إليها بيانات عن أهم أحداث البشرية بلمح البصر، أشبه بآلية أطلس الجغرافيا. ففي الأطلس، مثلاً، يلمّ الناظر بآلاف المعلومات من خلال نظرة خاطفة إلى مواقع الدول من بعضها البعض، كما بالنسبة للبحار والأنهار والجبال والعواصم وغيرها من المعالم بدون عناء القراءة. وبعبارة أخرى يمكن للمرء بنظرة سريعة على شجرتي أن يعرف - على سبيل المثال - أين في العالم كان الفراعنة، وبأي حقبة، ومن كان جيرانهم، وماذا كانت لغتهم، وأين كانت عواصم إمبراطوريات القرار في عهدهم، ومن كان أهم حكامهم، وكم كانوا بعيدين بالزمن عن حقبة المسيح، وغيرها الكثير من المعلومات الشيّقة. وهذا، مجرد عنصر واحد من عناصر المشروع..

الشجرة نفسها لم يستغرق رسمها وقتاً طويلاً، إنما الفكرة ذاتها أعيتني. كان لا بد لي أن أبدأ مع المسيح أولاً على منتصف رأس الشجرة بحيث يمثّل يمنيه تاريخ قبل الميلاد منذ العصر الجليدي الأول (30000 ق.م)، ويمثّل يساره التاريخ الميلادي (2000 سنة) لغاية اِكتمال الشجرة بعهد أوباما (2009م). وهكذا قسّمت الإمتداد الزمني

(30000+2000= 32000 سنة) على فترات 3-5 قرون للفترة الواحدة، ووضعت تحت كل فترة أبرز اِختراعات أزمانها وأدواتها، اِبتداء بالحجر، والمِعْول، والدولاب، واِنتهاء بالإنترنت. ثم جعلت للشجرة خمسة أغصان كبرى (الأديان، والثقافات، والحضارات، واللغات، والعظماء)، بحيث يمتد الغصن الواحد يميناً ويساراً على الإمتداد الزمني، أي على 32 ألف سنة. هذا التلخيص المرئي يكشف للناظر تطور الأمور والوقائع على مدّ التاريخ البشري والعلاقة بينها. فلو نظرنا في الشجرة إلى "غصن الأديان"، مثلاً، لتتبعنا معظم المعتقدات التي مرّت بالبشرية حسب تواريخ ظهورها الإفتراضية منذ "آدم" لغاية آخر المعتقدات العصرية، كـ"عبادة" الدولار والشياطين! وهكذا، فإنك بنظرة خاطفة، مثلاً، ترى موقع الفينيقيين في خارطة البشرية مع جيرانهم وأدوات عصرهم وديانتهم وقادتهم ومدنهم وكوارثهم إلخ. وهكذا أيضاً، يمكنك بالنظر إلى "غصن الثقافات" أن ترى تدرج أبرز ملاحم الحضارات وأساطيرها وترى أهم الجامعات وأشهر الفلسفات والأشعار وكبار المؤرخين، وكل ما يتعلق بظروفها وأوقاتها وشعوبها، وهكذا دواليك.

وأثناء الإعداد لمشروع الشجرة صُدمت من حجم المعلومات المغلوطة، وذُهلتُ من كم البيانات المفبركة والجداول المشوّهة المنتشرة على الإنترنت. وقد تطلب الأمر مني الكثير من الحذر والدقة والغربلة وطول البال، لا سيما أن الذكاء الإصطناعي لم يكن قد ظهر في تلك الأيام بعد. وفي النهاية، تولدت لدي قناعة عامة أنه لا يمكن الوثوق يقيناً بمعلومات الأوّلين على الإنترنت، ولا بتوارخ وأحداث ما قبل عصر الإسكندر. فمعظمها تواريخ مشاكسة وأشياء متداخلة سببتْ إشكاليات كثيرة وتناقضات خطيرة بعدد المصادر واِختلافها. أما تواريخ ما بعد الإسكندر (العصر الهيليني)، فكانت "موثوقة" نسبياً

ومثبتة بمعظمها كما هو معروض في معظم المتاحف الغربية. وكلما عاد المراقب بالزمن إلى الوراء، صار التاريخ حزّورة فزّورة أشبه بأحجية ألعاب الصوّر المقطّعة. وكلما تصورتَ أنك وجدتَ قطعة مفقودة، اكتشفتَ أنها لا تتناسب ولا تستوي مع القطع المجاورة. وعليه، فإن العديد من المؤرخين يختلقون ويزعمون أشياءً عجيبة في غياب الإجماع العلّمي على تواريخ مبرمة.

وهكذا، فشلتُ في مساعدة ابنتي في الوقت المناسب، لكن نجحتُ في "زرع" شجرة دهرية بيّنتْ - من بين آلاف الأشياء - علاقة ديكارت بمن سبقوه من فلاسفة عمالقة على غصن "الثقافات"، فتعرّت فلسفته أمام فلسفات اِستعارها من أرسطو وأوغسطين وتوما الأكويني وابن سينا والفارابي والغزالي وابن الرشد وسبينوزة. ولما كُتب لبرلينا أن ترى شجرتي فيما بعد وتعاين نقاط الوصل عليها والتشابه بين ديكارت وبين مَن بيّنت أنه اِستعار فلسفته منهم، علّقت قائلة بدعابة ملغومة : "أشكر الله أني قدمت أطروحتي قبل أن أرى شجرتك، وإلا لكنتُ رسبت. وعجبي منك يا أبتي أن كل عظيم نتحدث عنه، إنما تريد أن تخلع العظمة عنه وترجع جذوره إلى العرب، وكأنهم أصل الكون وشعب الله المختار"... قولها ذاك كان اِنطباعاً مجحفاً لأنها لم تكن ترى الشعرة الفاصلة بين المزح عندي وبين الجد ولا بين التهكم والإطراء...

لا جديد تحت الشمس. لم أنلْ من ابنتي حكماً منصفاً مثلما لم أنل من غيرها عبر السنين. فأنا لست مع العرب بالمرّة، ولا ضدهم، ولا مع الأوروبيين ولا ضدهم، ولا مع الشرق ولا ضد الغرب، ولا أنا مع المتدينين ولا ضد الكفار، ولا مع الملحدين واللا دينيين ولا مع الشياطين ولا ضد الملائكة. أنا مع الدراويش، والتعساء، والبوساء

أينما كانوا ومهما كانوا وكيفما كانوا. أنا مع فيكتور هيجو وتشارلز ديكنز وروبن هود.

الخاتمة

لا يَسعني في الخاتمة إلا أن أعبّر عن خيبة أمل عظيمة من كل شيء.. لا أقولها تشاؤماً ولا غضباً، إنما ملاحظة جامعة بعد عمر من الإختبار والتجوال والتمنّي. فمنذ الطفولة، ولأسباب "فرويدية" وثقافية، وأنا أنتقد الشرق وأتمرد عليه. ومنذ الطفولة أيضاً، ولأسباب تتعلق بالحرية، وأنا أمدح الغرب وأدافع عن قيمه. دارت الأيام، "فإذا بالباشا زلمي"! لا يختلف عنه إلا بالرنّة والطنّة والشكل واللغة! وهكذا، بعد أن كنتُ أرى في الغرب والغربيين حضارة وتمدناً منذ اِحتكاكي الأول بهم على شط بيروت قبل ستين عاماً، ها أنا اليوم أرى فيهم تخلفاً ودجلاً على حدود الشرق. كنتُ أتصوّر أن الغربيين أصدق مع الآخرين من العرب، وأشد اِحتراماً لهم منهم، وأقوى قناعة بالمبادئ والمثل والقيم. فإذا بهم أصدق بكذبهم من العرب وأشد دجلاً وحقداً وأقل تمسكاً بالمبادئ والقيم... كنتُ أظنّ أن الغرب سدّ منيع أمام همجية الشرق، ومنارة قوية لحقوق الإنسان في بحر الظلمات، فإذا به عند المصالح أكثر عدوانية ونفاقاً. أحداث العالم بعد اِنهيار الإتحاد السوفياتي، كشفتْ أشياءً مخيفة عن حقيقة الغرب الحديث، وكنتُ اِعتقدت أنه تعلّم من دروس التاريخ، خاصة بعد حربين عالميتين راح ضحيتهما 100 مليون من الأوروبيين البيض المسيحيين.

وعلى تجاربي الأولى في بريطانيا في مطلع الشباب كنتُ أعتقد أن الغرب متحضّر، موضوعي، علماني، ديمقراطي، إنساني، عادل. إلا أن أحداث العقود الأخيرة، خاصة منذ سقوط حائط برلين، كشفت الوجه الآخر للغرب، "فطلع" علينا أسوأ من الشرق والعرب معاً! والسبب الرئيسي أن الشرق أصلاً مفضوح بتناقضاته، ولم يدّعِ يوماً الدفاع عن حقوق الإنسان أو الحيوان أو البيئة. لم يتظاهر بالعدالة

الإجتماعية ولا بالمدينة الفاضلة حتى في أيام الأندلس! لكنني رأيتُ في المقلب الآخر كيف تهاوتْ المبادئ الغربية في العراق وغزة والسودان وسوريا واليمن وأفغانستان وغيرها. وشهدتُ كيف اِنهارت القيم والأخلاق على حدود المواجهة في لبنان وإيران وسوريا وأوكرانيا. رأيتُ في العقود الأخيرة من الظلم الغربي والدجل الأممي ما يدفع المؤمن إلى الإلحاد عن دينه. فأين الفرق بين ترامب - غرينلاند وبين صدام - الكويت؟ بين خطف رئيس وزراء لبنان وبين خطف رئيس جمهورية فنزويلا؟ بين حفلات اللهو والمجون عند حريم السلطان وبين حفلات العهر والعربدة عند جيفري إبستين والزعران؟ ومَن يدري فقد يكونوا قد شنّوا حرباً كونية على إيران فقط للتغطية على فضائحهم في ملفات إبستين أو لتمرير ملفات تلمودية مشبوهة. لقد قضوا على الأمم المتحدة ومحمكة العدل الدولية والأنروا والصحّة والزراعة والبيئة وعلى معظم المنظمات الخيرية والدولية وعلى الكرامة الإنسانية..

اعتقدتُ أن البشرية تطورتْ منذ أيام جنكيز خان وآيفن الملعون وهتلر المجنون، فإذا بأولئك الغلاة المتوحشين أرحم بكثير من حكام الغرب اليوم. تصوّرتُ أن الغرب وصل إلى قمة الحضارة، إلى درجة أنه يناقش السماح بالإستنساخ والهندسة الجينية وتأجير الأرحام و"الموت الرحيم"، فإذا به يسمح بقتل آلاف المدنيين في غزة واليمن والسودان بدون سبب أو اِعتبار. تخيّلتُ أن الغرب أمين يحافظ على إيداعات المودعين وتوفيرات المساكين، فإذا به ينفقها على التسلح والألغام ويقاعد أصحابها على بعد أمتار من قبورهم. وهكذا نرى أنه لا فرق بين همجية الشرق واِستبداد الغرب، كلاهما بالنتيجة واحد، اللهم إلا بالشكل والإخراج والمونتاج. كلاهما عوّدانا، جيلاً بعد جيل، على الخوف من عقاب الآخرة، ومن النار، ومن الله، ومن الحاكم، ومن

آبائنا، ومن معلمينا، ومن مدرائنا، ومن الطقوس والبخور والمسبحة. فصار الجزء الصغير عند كل فريق هو الذي يحكم الأغلبية. وإنصهر الجزءان الحاكمان (الشرق والغرب) وصارا "حلفاً أممياً" واحداً يسيطر على الكوكب. والحلف الموحد، بعكس الإنطباع السائد، ليس بالضرورة مسيحياً أو أبيض، إنما متنوع وصاحب مصالح ونفوذ وتسلط وتأثير، كما نضح من سجلات جيفري إبستين. أي إنه حلف نخبوي أقلوي من كل الأجناس والأديان والألوان والمِهن. ولعلّ القاسم المشترك الوحيد بينهم هو قوة التأثير على الناس وتوجيههم حسب المآرب العالمية المطلوبة. ومن هذه المآرب، مثلاً، ما هو بديهي واضح، كتقليل عدد سكان الأرض من خلال الأوبئة أو الإنفلونزا أو الكوارث المُفبركة، أو العمل على إنتاج السليم والجميل فقط من الأطفال، أو نشر ثقافة الإباحة والحرية الجنسية، أو التحكم بمعايير العيش والسلوك العام إلخ. وهنا نسأل أين شعارات الغرب عن حقوق الإنسان، وأخلاقه وعن قيم الحضارة، ومبادئه وعن المساواة؟ إنها كذبة بحجم المجرّة وخدعة بعمق الثقب الأسود. إنه قانون الغاب من جديد حيث الدهاء صار عفة، والإحتيال بات طريقة، والرذيلة أضحت وسيلة.

إن فلسفة التعايش – بمفهوم الغرب – كانت لغاية الأمس القريب تقوم على "مبدأ" بسيط: "إنْ لم تكن معنا، فأنت ضدنا". أي لا مجال أن تكون معنا ومع غيرنا في نفس الوقت، ولا أن تكون ضدنا وضد غيرنا، أو أن تكون محايداً. الغرب - على السطح والواجهة - لم ينسَ بعد تحديات كورش العظيم، وهنيبعل، وهارون الرشيد، ومحمد الفاتح، وسليمان القانوني، وصلاح الدين وتيتو! هؤلاء وغيرهم تصادموا مع الغرب وأوجعوه، ليس في سبيل الله والفضائل، ولا من أجل القيم والمبادئ، إنما في سبيل الصراع على السلطة والنفوذ. صحيح أن الغرب لن يرضى بإعادة عقارب الساعة إلى زمن

السومريين والمصريين تحت أي ظرف حتى وإن أدّى ذلك إلى خراب الكرة الأرضية وتدميرها على رؤوس البشر أجمعين، إلا أن الأمر الآن - وبسبب التكنولوجيا والعولمة والذكاء الإصطناعي - فَلَتَ من صندوق باندورا على الجميع، فإنفضحت النوايا وإنكشفت الهويات وتعرّت المآرب. فلم تعد المسألة كما كانت على زمن روما، ولا على أيام العائلة الماسونية "هابسبورغ"، لم تعد "الإسلاموفوبيا" عند الغرب تشكل الذعر من العثمانيين كالذعر من الجرب، وإن يصرّ البعض على حشر المسيحية والإسلام غطاءً لصراع مختلف. بل صارتْ المسألة مجرد "مصالح مشتركة" ونفوذ بارد بين محظيين ومؤثرين دوليين، عامودياً وأفقياً، بعيداً عن الجغرافيا والإعتقاد والأيديولوجيا (المؤسسة). ألم نرَ ترامب يهدد مصالح كندا ومصالح أوروبا الغربية، بل حتى مصالح كاليفورنيا نفسها؟ ألم نرَ دولاً إسلامية تتحالف مع الصين الشيوعية والهند الهندوسية وإسرائيل اليهودية؟ المسألة لم تعد "نحن وهم"، بل صارت "مصالح ونفوذ مشتركة" بين قوى عالمية محظية ونخب شيطانية ذات تصورات أممية مثل الصهيونية والماسونية والتنويرية (إليومیناتیز). ومن هذه الزواية صارت أنظمة الحكم في العالم تُفصّل على أساس يضمن إستمرار مصالح "المؤسسة"، بحيث إذا تمرد أحد الحكام أو شطح عن المطلوب، أقيل أو قُتل أو خُطف أو حُورب أو قوطع كما رأينا مع عبد الناصر وصدام والقذافي والشاه والسادات ومبارك والحريري ومحمد مصدق ونوريغا ويانوكوفيتش ومادورو وغيرهم العشرات...

الملفت بالنسبة لي شخصياً أن دولاً كثيرة في الشرق الأوسط تدّعى أنها لطالما كانت الجسر الشرعي والطبيعي الذي يربط الشرق بالغرب. وهي تحديداً تركيا، واليونان، ومصر وإيران، والعراق، وإسرائيل، وسوريا، ولبنان، وقبرص. لا عجب أن هذه الدول تتشابه (سلوكياً) في تركيبتها الذهنية المختلفة عن بقية الدول في الشرق، أو

في الفضاء الأفريقي، أو الغربي. وربما هذا الإختلاف ما يُفسر، أو قد يُبرر، التناقض الرهيب في فكر هذه الشعوب وأسباب التنحاهر الدائم بينها..

أما أوجه التشابه الفظيع بين الشرق والغرب، فهي عديدة، لكن أبرزها:

أولاً: نظرة الطرفين الموحّدة إلى المسألة اليهودية على سبيل المثال. فآراء المؤرخين والعلماء في الغرب لا تختلف كثيراً عن اِنطباعات وقناعات البسطاء في الشرق حول التوراة. وهنا ترى الشرق والغرب يلتقيان على خط واحد من قصص الكتاب المقدس وروايات الصراع بين القبائل والشعوب، مثل العماليق وآدوم وموآب وعمون إلخ.

ثانياً: النظرة الموحدة إلى مسألة نظام الحكم الملكي. إذ ليس هناك أي اِختلاف بين الشرق والغرب. فرغم جوائز "نوبل" وعلوم الذرة وصواريخ الفضاء، ما زالت العوائل المالكة في الغرب تحكم بريطانيا وإسبانيا والنرويج والدانمارك والسويد وهولندا تماماً كما يحكم ملوك الشرق في اليابان وتايلاند وكمبوديا وبروناي وبوتان وماليزيا ودول الخليج. صحيح أن التعبير عن الحكم عند الملوك مع شعوبهم يختلف بين الشرق والغرب، لكن كل ملوك الشرق والغرب في المعيار النهائي يرمون إلى غرض واحد فقط، هو الإمساك بالسلطة والنفوذ وتمكين اِستمرارهما إلى أبد الآبدين

ثالثاً: كلاهما يعظمان الأديان لغرض الإلتزام بالفضائل وإطاعة السلطة وطاعتها. ورغم اِختلاف الأديان بين عوائل الحكم في الشرق والغرب، تبقى الإعتقادات قاسماً مشتركا بين القطبين. وكما للفاتيكان وكانتبري ونوتردام أدوارها في شدّ العصب لمبادئ الغرب ومصالحه، كذلك مكة والأزهر وإسطنبول وقمّ وكانتي ونغاساكي لها أدوارها أيضاً في الترويج لمبادئ الشرق الإيماني وتعاليمه.

رابعاً: كلاهما على جبهة واحدة من موضوع حلّ النزاعات عن طريق الدمّ والسيف. فمع أن الغرب يصنع الأسلحة والشرق يستهلكها، إلا أنهما لا يتوانيان عن تدمير المعمورة من أجل السلطة والمصالح، دعك عن مثاليات حقوق الإنسان والمبادئ. وكما يحارب الغرب نفسه كما رأينا في حربين عالميتين مدمرتين، كذلك رأينا الشرق يحارب نفسه كما في اليابان والصين، والكوريتين، وأذربيجان، وإيران، وصدام والكويت إلخ؟

خامساً: إن الجماهير الشرقية والغربية على السواء تحلم بنفس الأشياء وتتوجس من ذات المخاطر ما يجعل الفرق بينهما مجرد فقاعة في المخيلات. صحيح أن الناس في الغرب يأكلون بالشوكة والسكين، لكن لا يختلفون عن ناس الشرق في طموحهم أو أحلامهم أو مخاوفهم. وهكذا نرى أن المستفيدين من تضخيم الفروقات إنما يركزون على أشكالها وليس على مضامينها.

سادساً: إن النظرة إلى التراث والتطلع إلى المستقبل هما أيضا ممارستان مشتركتان بين الشرق والغرب رغم إختلاف الفايكنج عن الفينيقيين، مثلاً، او الرومان عن المصريين، أو البدو عن الغجر. وإذا كان من المستحيل في الأزمان القديمة تواصل القطبين لمعرفة أعماق التشابه بينهما، فإن الطفل في الصين اليوم يرى ويسمع ما يراه الطفل في نيويورك ويسمعه ويشاركه نفس الأشياء والأحاسيس وسِمة الوجدان والأحلام. ومن هذه "السمعيات" أن أميركا والغرب (الناتو) تمتلك ما يزيد عن 1350 قاعدة عسكرية حول العالم فيما الصين وحدها تملك واحدة فقط ونحو 8 قواعد مع الهند وروسيا والبرازيل وجنوب أفريقيا معاً...

النهاية

هذا الكتاب

"قطار الخديعة" ليس رواية قصصية ولا سيرة ذاتية. إنه سرد حيّ لأحداث واقعية عن غرائب المفارقات بين الشرق والغرب. الكاتب يسجل الأحداث فيه على نبض الذاكرة وحرارة الوجدان، ليس من باب الإعتراض أو الشكوى، إنما لإبراز التشابه القبيح بين الشرق والغرب على إستنتاجات ابن خلدون، وبرنارد لويس، وإدوار سعيد. الكتاب حكواتي تهكمي، لكن مضمونه عالم يقوم بجناحيه على الدجل والرياء، وليس على غرب حضاري وشرق متخلف - حسب زعم كيبلينغ. دارت الأيام، "فإذا بالباشا زلمي"!

تختلف اللغات والأزياء والمطارات، لكن مآمير الجوازات والتفتيش عند نقاط العبور لا يختلفون. معاً يمثلون الهيمنة العالمية والرقابة الدولية ونظام الخبث الأممي. أما إختلاف الأيديولوجيات بين الشرق والغرب، فمسألة سطحية تكتيكية لا تؤثر على الهدف المنشود من قِبل "عصابة الكوكب". عصابةٌ تتحدث عن السلام العالمي، لكن لا تسمح به ولا تسعى إليه! تعد بالعدالة والمساواة، لكن تمارس الظلم والإضطهاد. تسمح بالمرور والعبور، لكن تتحكم بالمطارات والمضائق. "مؤسسة عالمية" خفية لا تسمح بالفوز الدائم لأحد، ولا بالتألق لأمة خارج المعايير المرسومة من قبل الصهيونية أو الماسونية أو التنويرية (إليومیناتیز).